

الكتاب الخامس

طوق الحمامة وظل الغمامة
في الألفة والألاف

تصنيف
أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي
(٣٨٤ - ٤٥٦هـ / ٩٤٤ - ١٠٦٤م)

دراسة وتحقيق
عبد الحق التركماني

مراجعة
عبد العزيز بن علي الحربي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة

مركز البحوث الإسلامية
ISLAMISKA FORSKNINGSCENTRET

دار ابن حزم

طَوقُ الحَمامَةِ وَظِلُّ الغَمامَةِ
فِي الأُلْفَةِ وَالأُلَّافِ

بسم الله الرحمن الرحيم



الكتاب الخامس

طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف

تصنيف

أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي

(٣٨٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤ م)

دراسة وتحقيق

عبد الحق التركماني

مراجعة

عبد العزيز بن علي الحربي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة

مركز البحوث الإسلامية في السويد

ISLAMISKA FORSKNINGSCENTRET

دار ابن حزم

تنبيه:

جميع النسخ المطبوعة من هذا الكتاب، المتداولة في الغرب والشرق منذ قرن من الزمان؛ معتمدة على نسخة مخطوطة وحيدة، تصرَّف ناسخها في الأشعار التي قالها ونقلها ابن حزم: تحسينًا لها ـ كما زعم ـ وتصغيرًا لحجمها. وقد آثرنا في هذه الطبعة أن نكتفي بهذه الإشارة عن عبارة الاختصار في عنوان الكتاب، لهذا لزم التّنويه.

حقوق الطبع محفوظة

الطّبعة الثانية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

ISBN 978-614-416-333-7

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

مركز البحوث الإسلامية في السويد

ISLAMISKA FORSKNINGSCENTRET

The Islamic Research Center in Sweden
Box: 11307, 404 27 Gothenburg, Sweden

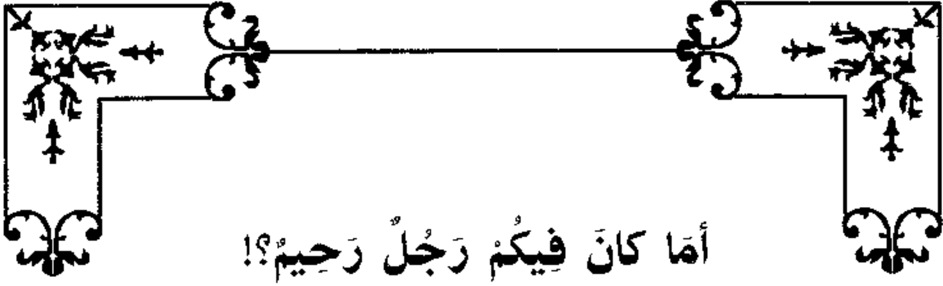
دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com



أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ؟!

عَنْ عَبْدِ الله بن عبَّاسٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً. قالَ: فَغَنِمُوا، وَفِيهِمْ رَجُلٌ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي لَسْتُ مِنْهُمْ، عَشِقْتُ امْرَأَةً؛ فَلَحِقْتُهَا، فَدَعُونِي أَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظْرَةً؛ ثُمَّ اصْنَعُوا بِي مَا بَدَا لَكُمْ. قَالَ: فَإِذَا امْرَأَةٌ طَوِيلَةٌ أَدْمَاءُ. فَقَالَ لَها: اسْلِمِي حُبَيْش؛ قَبْلَ نَفَادِ الْعَيْشِ!

أَرَيْتُكِ لَوْ تَبِعْتُكُمْ فَلَحِقْتُكُمْ ... بِحَلْيَةٍ أَوْ أَدْرَكْتُكُمْ بِالْخَوَانِقِ

أَلَمْ يَكُ حَقًّا أَنْ يُنَوَّلَ عَاشِقٌ ... تَكَلَّفَ إِدْلاجَ السُّرَى وَالْوَدَائِقِ

قَالَتْ: نَعَمْ؛ فَدَيْتُكَ! قَالَ: فَقَدَّمُوهُ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَجَاءَت الْمَرْأَةُ، فَوَقَفَتْ عَلَيْهِ، فَشَهِقَتْ شَهْقَةً ـ أَوْ شَهْقَتَيْنِ ـ؛ ثُمَّ مَاتَتْ. فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ؛ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ»(١).

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ في «السُّنن الكبرى» (٨٦٦٣)؛ بإسنادٍ حسنٍ؛ كما قال الحافظ الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» ٦/ ٢١٠ (١٠٣٥٥)، والعلامة الألباني في «الصحيحة» (٢٥٩٤)، وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦٤: المغازي/باب: ٥٨): بإسنادٍ صحيحٍ. (حبيش): مرخَّم حبيشة. و(حَلْيَة) و(الخوانق): موضعان بتِهامة. و(يُنوَّل): يُعطى. و(الإدلاج) سير بعض الليل و(السُّرى): سير الليل كله، وهو من باب إضافة البعض إلى الكلِّ. و(الودائق) جمع وديقة، وهي شدة الحرِّ.



مقدمة

الدكتور عبد العزيز بن علي الحربي

أستاذ القراءات والتفسير المشارك

بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا أول كتابٍ تمكَّن في قلبي من كتب أبي محمَّد. وقع في يدي مرَّتين أو ثلاثًا في المراحل الأولى من دراستي، فلمَّا كان عام ١٤٠٤من الهجرة النبويَّة، وأنا في شهر العسل كان «طوق الحمامة» سمير فؤادي، وخدينَ وسادِي، ورفيق سَهري والحادي.

وجدته أصدق كتابٍ يخبر عن الحبِّ ويقصُّ عليَّ من أنباء المحبِّين، إمَّا بخبرٍ يخبر به عن نفسه وقع له، أو أمر حصل لبعض إخوانه اطَّلع عليه، أو شيءٍ وقع لمعاصرٍ له، أو حدث أخبره به بعض إخوانه أو من يعرفه، كما أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه.

وأمَّا أحاديث الأعراب ونحوهم، ممَّن تقدَّموا وقضوا نحبهم،

وما روي فيهم من الأساطير في وصلهم وتقطع بينهم، وموتهم من نحو قوله: ...فحرَّكوه فإذا هو ميت. ممَّا هو مسطَّرٌ في كتاب: «مصارع العُشَّاق»، وكتاب: «كيف يموت العشاق»[1]، ونحو ذلك من المبالغات = فلا مكان لها، فهو بحقٍّ أدبٌ صادقٌ. ولو لم يكن فيه إلا بابان عظيمان هما: «قبح المعصية» و«فضل التعفف» لكفاه فضلًا وحُسنًا ونفعًا. فقد أحسن في إيراد ما يقصي المعاصي من النُّفوس، وما يدينها من العفاف والحشمَة.

ولما رغب إليَّ المحقِّق الشيخ عبد الحقِّ التركماني (حفظه الله) أن أشاركه في شيءٍ من التعليق وبيان الغريب لم أتردَّد في القبول؛ إذ حرَّك بطلبه ذلك خواطر القلب بتبريح الأشواق، واستدرَّ من سحابات الذكرى ما ملأ الأحدَاق.

إنَّ لهذا الإمام الأوحد من فواضل الجميل ما يئود، وما لا يجحده إلا كَنُود، فمن رياضه البواسم تعلمتُ الذبَّ عن سُنَّة أبي القاسم ﷺ، ومن منهجه تعلمتُ الانتصار للدَّليل.. انتفعتُ بأسلوبه، وجدله، ونقله، ومنهجه، وانتصاره للحقِّ، وإنصافه، وتجرده، وعلو همَّته وتفرُّده، وحكمته وشعره، وكان أعظم ما أفادني به منهجُه أن لا يثقل عليَّ مخالفته في أيِّ قولٍ اختاره، وانتصر له ورجَّحه، وتربَّى فيَّ ملكة الحقِّ لا سوى.

إي ـ والله ـ لقد كان هذا أعظم ما أكسبني، وصار الأمرُ لديَّ كما قال هو:

---

(١) لشيخنا ابن عقيل الظاهريِّ.

إذا حُزْتُه فالأرض جمعاءُ والورى هـبـاءٌ وسُـكَّـان الـبـلادِ ذبـابُ

وممَّا أَكسبنيه وانشرح له فؤادي، وأورثنيه وانصبغ به مدادي، أسلوبه وحسن بيانه، فله أسلوب علميٌّ أدبيٌّ، جَدليٌّ، لا يقرأه أحدٌ جميلُ النفس إلا أعجبه حُسْنه، فخلع عليه من جماله بُردًا.

وأمَّا شعره فهو مزيجٌ من شعر العلماء، وأدب الأدباء، وحكمة الحكماء، يغوص على المعاني الدقيقة، ويحسن التَّشبيه، ويطيل النفس إذا شاء، كما في قصيدتَيْه الحسناوَين (البائية والهائية) في آخر «طوق الحمامة»، ويصرِّف الأوزان على جميع البحور، ويقلُّ في الشعراء من يجتمع له ذلك من الجاهليين إلى من بعدهم، إلى شعراء عصرنا، فالبحر المنسرح والمجتثُّ والمديد غير مطروقة اليوم إلا في النادر.

وقد عُنيت في مشاركتي لأخي الشيخ عبد الحقِّ التركمانيِّ في معظم عملي بتصحيح الأبيات الشعرية، وضبطها، وتعقُّب التعقبات عليها، مع شيءٍ من التعليق، وهو عمل قليل، وجلُّ العمل أو كلُّه إلا قليلًا للشيخ عبد الحقِّ (حفظه الله)، وزاده إحسانًا وتوفيقًا، ونفع بعلمه وعمله، ووفقه إلى إتمام تراث ابن حزم على النحو الذي سار عليه فيما سلف.

وهذه مقامة أدبيَّة كنتُ أنشأتها ضمن مقاماتي، واسمها: (المقامة الحزميَّة)، وجعلتُ في صدرها جميع أبواب «طوق الحمامة»، على الترتيب المفصَّل في الكتاب، وأتممتها بذكر بعض تصانيفه وشيءٍ من فضائله.



المقامة الحَزْميَّة

السَّلامُ عليكَ يا أبا محمَّدْ، وعليَّ بنَ أحمَدْ. وسلامٌ على قُرطبَةْ، وبلدٍ أنجبَهْ. طوَّقني كتابُك «الطَّوقْ»[1]، بعالي أدبه والذَّوقْ. الَّذي يجري كعُبام[2] الماءْ، وسَحاب السَّماءْ، وتَنْحلُّ به عُقدة العَبامَاءْ[3]. ودخلتُ عليه من كلِّ بابْ، وبلغتُ منه الأسبابْ. أسبابَ سماءِ الحبِّ وماهيَّتِهْ، ورأيتُ هناك باب علامتِهْ. ومن أحبَّ في نومِهْ، ومن أحبَّ بوصفِ شادِنِهِ ورِئمِهْ. ومن أحبَّ من نظرَةْ، ومن لا يحبُّ إلا بعد فترَةْ، ومن أحبَّ لوصفٍ لا يستحسنُ غيرَهْ. وولجتُ بابَ التَّعريضْ، وإشارة العينِ بالتَّمريضْ. ثم جنحتُ إلى المراسلة والسَّفيرْ، وإلى طيِّ السِّر الخطيرْ. ودخلتُ باب الإذاعةْ، ثم باب الطَّاعةْ. وخرجتُ إلى المخالفةِ والعاذِلْ، والمساعِد من الأفاضلْ. ورأيتُ ثمَّة الرَّقيبْ، عند الواشي إلى الحبيبْ. ولقيتُ الوصلَ والهجْرْ، والوفاء والغَدْرْ. والبينَ والقُنوُعْ، ووجدتُ الضَّنى بين الضلوعْ. وخِفتُ السُّلوَّ والمنيَّةْ، وعرفتُ قبحَ المعصية الدَّنيَّةْ، ووقفتُ عند العفَّةِ السَّنيَّةْ. ولم أبرح بابَها، ولا فارقتُ أعتابَها.

وأمَّا كتابُك «المحلَّى»، فقد دنا إلى القلبِ وتَدَلَّى. وتولَّى من أمرِه ما تولَّى. ولا يزال موقوفًا على سبيل الوِصَالْ، بالغدوِّ والآصالْ، حتى يلقى «الإيصالْ». أكبر كتب الإسلامْ، في فقه الأحكامْ.

ولقد وصَّلتَ القولْ، وجئتَ بالعجيب والزَّوْلْ[4]. في كتاب «الفِصَلْ»،

---

(١) طوق الحمامة في الألفة والألّاف.
(٢) الماء الكثير.
(٣) الأحمق.
(٤) العجب.

في المللِ والأهواءِ والنِّحَلْ. وأمتعتَ أولي الألبابْ، بـ: «جمهرة الأنسابْ». وإنَّ الأعينَ والأسماعْ، لتَلذُّ بـ: «مراتبِ الإجماعْ»، و«حجَّة الوداعْ». و«نقطة العروسْ»، و«مداوة النّفوسْ». وكتابك العجيب، الموسوم بـ: «التقريبْ». وسفرك الماتِعْ، المنعوت بـ: «الصّادِعْ». وممَّا أبهجَ السَّريرَةْ، كتابُك «جوامع السِّيرَةْ»، ورسائلك الصَّغيرَةْ. ولقد أحكمتَ غاية الإحكامْ، تصنيفكَ في أصول الأحكامْ. وقدَّمت الأصولَ على طبقٍ من ذهبْ، بقبس ذي لَهَبْ، فسبحان مَن وَهَبْ.

وأمَّا كتابك «التلخيص والتخليصْ»، فقد قرأته بإمعانٍ وتمحيصْ. وطالعتُ من بَعْدْ، «الرَّدَّ على الهاتف من بُعْدْ». وكذا رسالتك الباهرةْ، وقصيدتك الظّاهرةْ. في الرَّدِّ على الجاحد الكفورْ، الملك نقفورْ.

ولا سامح الله من أحرق تصانيفك الغوالي، وتواليفَك العوالي. بتحريض الحاقدين، وحسد الحاسدين. أما عَلِمَ الفَجْفاجْ[1]، ما اشتملتْ عليه من علمٍ وحِجاجْ. أترى الهَوَجَ[2] أعارَه أثوابَهْ، والإبْعاطَ[3] فتحَ له أبوابَهْ. لقد أفك وافترى، وأثِمَ واجترا. وما أحرقَ الأخرقُ[4] الضَّبيسْ[5]، سوى الكاغد[6] والقراطيسْ. ولقد أبقى لهم الحيُّ القيُّومْ، ما يسدُّ الغلاصم[7] والحلقومْ. وسيُردُّ الجميع إلى عالم الغَيبْ، ويكشف عن قناع الرَّيبْ.

---

(١) الكثير الكلام، المتشبع بما لم يُعْط.
(٢) العجب.
(٣) الغلوّ في الجهل.
(٤) الحمق والطيش والعجلة.
(٥) الثقيل الروح.
(٦) الورق.
(٧) جمع غلصمة، لها معانٍ، منها: أصل اللسان، والعقدة على ملتقى اللهاة والمرئ.

ولله أنتَ! ما أشدَّ عزمَك الذي لا يَني[1]، وما أروعَ موقفَك السَّني، وشعرَك الذي آنقني. وأنت تخاطب الأوباشْ[2]، برباطة جاشْ[3]:

فَإِنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاسَ لَا تَحْرِقُوا الَّذِي ... تَضَمَّنَهُ القِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيْرُ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبِي ... وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزِلْ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي
دَعُوْنِيَ مِنْ إِحْرَاقِ رَقٍّ وَكَاغَدٍ ... وَقُولُوا بِعِلْمٍ كِي يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي
وَإِلَّا فَعُوْدُوا فِي المَكَاتِبِ بَدْأَةً ... فَكَمْ دُوْنَ مَا تَبْغُونَ لله مِنْ سِتْرِ
كَذَاكَ النَّصَارَى يَحْرِقُوْنَ إِذَا ... عَلَتْ أَكفُّهم القُرْآنَ فِي مُدُنِ الثَّغْرِ

وما نقموا من نهجك الجليلْ، إلَّا أنك معتصمٌ بالدَّليلْ. مُطَّرحٌ للتَّأويلْ، وبعض الأقاويلْ. وما ضرَّ تصانيفَك وقد بلغت الآفاقْ، إحراقٌ ولا إغراقْ، بل يدرسها أهل العلم بالعَشيِّ والإشراقْ، وما درسها دارسٌ إلَّا أفاقَ وفاقْ.

ما يضرُّ البحْرَ أمسى زاخرًا ... أن رمى فيه غلامٌ بحَجَرْ

كم ناظرتهم حتى حَرِدُوا[4]، وبالحتهم[5] حتى قَرِدوا[6]. ولكم أعوصتَ بالخصومْ[7]، وأقذَعْتَ[8] بالفهومْ. حين كنتَ تَصُكُّهم صكَّ

---

(١) لا يتعب.
(٢) الجهلاء.
(٣) رباطة الجأش: ثبات القلب عند الفزع.
(٤) غضبوا.
(٥) أعييتهم.
(٦) سكتوا عِيًّا.
(٧) جعلتهم في حيرة.
(٨) رميتهم بالسوء.

الجندلْ[1]، وتُنَشِّقُهم[2] نَشْقَ الخردَلْ.

تالله ما آثرناكَ إلا لسعيك الحثيثْ، في نُصرةِ الحديثْ. ونهوضك بالتّجديدْ، وقد فشا التعصُّبُ والتقليدْ. وغضبك للحقِّ وأهْلِهْ، والجهد دونه ومن أجلِهْ. ولصدقك وللصدق آياتْ، وعلاماتٌ ودلالاتْ. يعرفها أهل التَّرسُّمْ[3]، ولا تخفى على ذوي التوسُّمْ[4]. ولستُ فيك بغالي، وإن حَسبوا أن لستَ بغالي، وسأسارع إلى الحقِّ بخيلي وبغالي.

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا ... فيرميَنا بتقليدِ الرِّجالِ

كداودِ الرِّضا وسليل حزمٍ ... وغيرهما مِنَ أفراد الجبالِ

فإنَّ الحقَّ أقربُ يا خليلي ... من الخِلَّانِ .. إنَّ الحقَّ غالي

وذلك نهج أصحاب المقَفَّى[5] ... وأتباعٍ وأتباعٍ وآلِ[6]

وما عذَّبني شيءٌ كالوفاءْ، لأهل العرف وإخوان الصَّفاءْ. وإنَّ أولي العلم هم الأولى، بالشكر على الجميلِ وأعلى. وإنِّي لأدعو المولى سرًّا وعلانيَةْ، لعلماء ثمانيَةْ. شربتُ من معين تصانيفهم حتى رَوِيتْ، واقتبستُ من نورِ نهجِهمْ حتَّى قَوِيتْ.

ثمانيةٌ أُشْرِبْتُ من سَيبِ علمهم ... وما كنتُ أهوى غيرَهم من ثمانيةْ

---

(١) الحجارة.
(٢) تُشِمُّهم.
(٣) التتبع.
(٤) الفِراسة.
(٥) ﷺ.
(٦) أبيات من قصيدة كتبها في الردِّ على بعض الأصحاب.

عليُّ ابن حزمٍ والجنيدُ[1] وأحمدٌ   بحرَّانَ[2]، والجُعفيْ، بأجْزا ثمانية[3]
مَعَ ابن الوزيرِ[4] الحِبْرِ والزَّرَعيْ[5] ولي   بأسْيُوطَ شيخٌ[6] والمنارُ الثَّمانية[7]

وسلامٌ على المرسلين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكتب
أبو محمد عبد العزيز بن علي الحربيّ
مكة المكرمة
غُرَّة ربيع الأول من عام ١٤٣٣هـ



---

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد (ت: ٢٩٧هـ)، ولكلامه وكلام السالكين من قبله ومن بعده كالحسن البصري، ويحيى بن معاذ، وبشر الحافيّ، وداوود الطائيّ، والدَّارانيّ، والهرويّ، والكرمانيّ = أثرٌ في تحريك القلوب وإصلاحها وقُوْتها وقوَّتها، وهي من كلام الحكمة التي يؤتيها الله من يشاء: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ»، ومنهم المنتفعون بالحكمة.

(٢) أحمد ابن تيمية الحرَّاني (ت ٧٢٨هـ).

(٣) محمد بن إسماعيل البخاريُّ الجعفيُّ، والأجزاء الثمانية: صحيحه (الجامع الصحيح).

(٤) محمد بن إبراهيم ابن الوزير (ت: ٨٤٠هـ).

(٥) أبو بكر ابن قيم الجوزية الزَّرعي (ت: ٧٥١هـ).

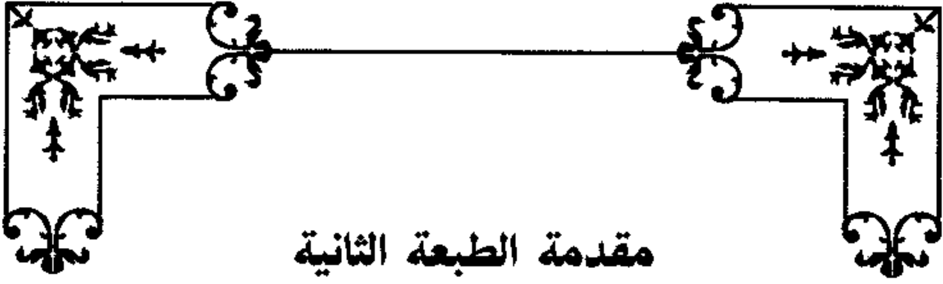
(٦) جلال الدِّين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، وإن فضل مصنَّفاته على المكتبة الإسلامية كان كبيرًا.

(٧) مدرسة المنار، لا سيما تفسير المنار، ومجلَّة المنار، أنصح بقراءتهما لأنهما من أوسع المعارف المتأخرة وأصفاها. وطالب العلم إذا انتفع بخبرة علماء عصره اختصر على نفسه وقتًا طويلًا وجهدًا كبيرًا. ولمدرسة المنار وثورتها على التقليد والخُرافة والتّعصب والعمل للإسلام، فضلٌ على النهضة الحديثة في المشرق والمغرب ورجال الدَّعوة والعلم والإصلاح.
قال عبد الحق التركماني عفا الله عنه: مدرسة المنار فيها خيرٌ كثيرٌ، لكنَّ فضلها على النهضة الحديثة في المشرق والمغرب لا يكاد يساوي شيئًا إن قورن بما سبقها من دعوة الإصلاح والتجديد التي نهض بها الإمام محمد بنُ عبد الوهَّاب التَّميمي رحمه الله (ت: ١٢٠٦هـ/١٧٩١م)، فقد وفَّقه الله تعالى في تجديد دعوة النبوَّة بتحقيق =

....

= العبادة للَّه عزَّ وجلَّ، وتجريد الاتباع لرسوله ﷺ، ونبذ الشرك والبدع والخرافات وعقائد وأخلاق الجاهلية، وهيأ له الأنصار من آل سعودٍ الأمجاد، فأقاموا دولة التوحيد والسنة؛ قبل أن تطأ المنطقة قدم محتلٌ أجنبيٌ، وقبل أن يصاب المسلمون بفتن الصراع الفكري مع الغرب، فكانت دعوةً سنيَّةً سلفيةً خالصةً، خرجت من قلب الجزيرة العربية، وقد امتزجت بفطر أهلها النقية، وطباعهم الشريفة، فكانت خالية من التكلُّف، سليمة من شبهات الأهواء والفلسفات والأفكار. وكان لها أكبر الأثر في بثِّ روح التديُّن الصحيح والإصلاح والتجديد في أنحاء العالم الإسلامي كله، وتتوَّج ذلك بما وفَّق الله إليه الملك الصالح عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود رحمه الله من تجديد الدعوة والدولة للمرة الثالثة، وكان من حكمته وهمَّته توثيق الصلات بأبرز العلماء والمصلحين في الأقطار الإسلامية، فكان منهم الشيخ محمد رشيد رضا، مؤسس مجلة المنار، فانتفع بتوثيق صلته بالدعوة الإصلاحية السلفية انتفاعًا عظيمًا، وتخلَّص من كثير من انحرافات وضلالات: ابن صفدر الإيراني الملقَّب بجمال الدين الأفغاني، وتلميذه محمد عبده، وتوجَّه لخدمة التوحيد والسنَّة ومحاربة الشرك والبدعة والفرق الضالة، فكانت نهاياته خيرًا من بداياته؛ رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته.

راجع عن دعوة التجديد على منهاج النبوة كتاب: «عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي» للدكتور صالح بن عبد الله العبود، و«محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه» للأستاذ مسعود الندوي رحمه الله.



مقدمة الطبعة الثانية

ابتلي أخي الأستاذ أحمد قصيباتي ـ صاحب دار ابن حزم في بيروت ـ بمحقِّق موسوَسٍ، لا يرتضي طبعَ كتابٍ، أو إعادةَ طبعه؛ إلا بعد معاناةِ قلقٍ وتردُّدٍ، قد يمتدُّ شهورًا أو سنواتٍ، ويكلِّفه العنَتَ بإعادة التَّصحيح والإخراج مراتٍ ومراتٍ. وأحسب أنَّ القصيباتيَّ صابرٌ محتسِبٌ لإيمانه بالرِّسالة التي يحملها، والمهمة التي ينهض بها، ولو كان في ذلك خسائر ماديَّة؛ يستثقلها من لا خلاقَ لهم من النُّسَّاخ المُسَّاخ، أو النَّاشرين الخائبين.

صدرت الطبعةُ الأولى من تحقيقي لهذا الكتاب قبل عشر سنواتٍ (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، وقبل ما يزيد على نصف هذه المدَّة رغبَ الناشرُ ـ سدَّده الله تعالى ووفَّقه ـ في إعادة طبع الكتاب، والتزم بما عاهدني عليه من عدم إعادة طَبْعِ شيءٍ من أعمالي إلا بعد أن أعيدَ النَّظرَ فيه، وما زلتُ أسوِّف له، وأصبِّره، وأُمَنِّي نفسيَ بالتَّفرُّغِ لعملٍ جديدٍ في الكتاب؛ لا تتوقُ نفسي إلا لمثله، وتحولُ مشاغلُ الطَّلب والدَّعوة والأسفار والأمراض والأوجاع وتفاصيل الحياة دون ذلك؛ حتَّى استحييتُ، واستيأستُ، ورأيتُ أن لا مناصَّ من دفعه للمطبعة، بعد إجراء ما يلزمُ من التَّصحيح والتَّدقيق، فكان ما تيسَّر من ذلك ما يلي:

١ - أسندتُ إلى الإخوة الأفاضل في دار الكوثر للتُّراث بمصر المحروسة؛ إجراءَ مقابلةٍ دقيقةٍ مجوَّدةٍ لطبعتنا على النُّسخة الخطِّيَّة الوحيدة، فقاموا - جزاهم الله خيرًا - بعملهم خيرَ قيامٍ[١]، وقيَّدوا جميع الاختلافات والملاحظات، سواء كانت مهمة أو غير مهمة. ثم أجريتُ دراسة متأنية لنتائج مقابلتهم، وأخذت بما لزم، وذلك في مواضع قليلة، فقد تبيَّن لي جودة عملي السابق، وخلوُّه من السقط والتحريف والتصحيف؛ إلا في القليل النادر جدًّا، مما لا يخلو منه عمل إنسان.

٢ - لما كانَ «طوقُ الحمامة» كتابَ أدبٍ وشعرٍ، ويحتاجُ ضَبْطُه إلى معرفةٍ واسعةٍ باللغة والنَّحو والتَّصريف والأوزان؛ فما زلتُ قلقًا من تسوُّري عليه، فلستُ متخصِّصًا في هذه الفنون، وقد لطف الله تعالى بي فأذهب قلقي باستجابة فضيلة الأخ الشيخ الدكتور عبد العزيز بن علي الحربيِّ - حفظه الله تعالى - لما رغبتُ إليه من قراءة الكتاب قراءةَ تمحيصٍ وتدقيقٍ، ونقدٍ وتصحيحٍ، فقيَّد تصحيحاتٍ مهمةً، وتفضَّل - أيضًا - بالتَّعليق على مواضعَ منه، وشرَحَ بعضَ الغريب، وقد ميَّزنا ما كان من قلمه بختمه بكلمة: (الحربي).

والدكتور الحربيُّ - سدَّد الله قولَه وعملَه - أستاذٌ مشاركٌ في القراءات والتفسير بجامعة أم القرى بمكة المباركة، وهو إلى ذلك لغويٌّ

---

(١) وهم أصحاب خبرةٍ ومراسٍ في خدمة المخطوطات، فقد أخرجوا للناس أعمالًا كبيرة جيِّدة، منها: «البدر المنير» لابن الملقِّن (١٠ مجلدات)، و«تفسير القرآن العظيم» لابن أبي زمنين (٥ مجلدات)، و«الأحكام الشرعية الكبرى» (٥ مجلدات)، وغيرها كثير.

ونحويٌّ، يعرفُ الشِّعرَ ويقولُه، وله مؤلفات متخصِّصة في هذا المجال، منها: «الشرح الميسَّر على ألفية ابن مالك»، و«أيسر الشروح على الآجرومية»، و«البلاغة الميسرة»؛ فاطمئننَّا بعمله وجهده على صحة نصِّ كتابنا هذا ـ بنثره وشعره ـ ضبطًا وتشكيلًا. وهذا غاية ما يبعث المحقِّق والناشر والقارئ على الثقة بدقَّة وسلامة النصِّ الذي بين يديه؛ بفضل الله تعالى وحُسن توفيقه.

٣ ـ أثبتُّ في أطراف الصفحات أرقام أوراق النسخة الخطية، وذلك لأن صورتها قد انتشرتْ في الشبكة العالمية (الانترنت)، فبإمكان المهتمين الرجوع إليها، وتيسيرًا لذلك جعلتُ تمييز الصفحات بحرف (أ) للصفحة اليمنى من اللوحة الظاهرة في التصوير، و(ب) لليسرى، وليس لوجه الورقة وظهرها في أصل المخطوط.

٤ ـ لم أرَ التوسُّعَ في تفسير الغريب، وشرح معاني الكلمات؛ لأنِّي أقدِّر أنَّ قرَّاءَ «الطوق» هم من طبقة المثقفين والمتعلِّمين ـ بله أهل العلم وطلابه ـ، فبإمكانهم مراجعة المعاجم فيما أشكلَ عليهم، وهذا أنفعُ لهم، وأدعى لتقوية صلتهم بالعربية، خاصَّةً أنَّ المعاجم الرَّقميَّة قد أصبحت اليوم في متناول أكثر الناس، أينما كانوا، وحيثما حلوا!

٥ ـ زِدْتُ في عنوان الطبعة السابقة كلمةَ: «مختصر» أخذًا باقتراح شيخنا العلامة ابن عقيل الظاهري حفظه الله تعالى، وهو اقتراحٌ وجيهٌ كما شرحته في «مقدمة التحقيق»، لكن تبيَّن لنا ـ مِنْ بعدُ ـ أنَّ تلك الكلمةَ قد أَلحقتْ ضررًا بالغًا بنشر الكتاب، حيث انصرفَ عنه كثيرٌ من القراء بمجرَّد قراءتهم للعنوان، ظنًّا منهم أنَّ الاختصارَ من صنع

المحقِّق، وقد أخبرني بعضُ الأفاضل أنَّه لم يكن ليشتري الكتابَ لولا معرفته بالمحقِّق... ومن هنا فقد رأينا إسقاطَ تلك الكلمة.

٦ - كان علامة المخطوطات الأستاذ الدكتور قاسم السامرائي - حفظه الله وأكرمه - قد نشر بالإنكليزية سنة: (١٩٨٣) بحثًا بعنوان: «تعليقات جديدة حول نصِّ طوق الحمامة»[١]، درس فيه مواضع مشكلة في النسخة الخطية، بلغتْ (٣٢) موضعًا، وقارنها بالطبعات العربية والترجمات الأوروبية، وبيَّن في كل موضع ما رآه قراءة صحيحة أو راجحة مع التعليل، وقد أثبتُّ خلاصة عمله في مواضعها من الكتاب. وكان بحثه مبنيًّا أساسًا على نقد الطبعة الأولى للدكتور إحسان عبَّاس، وقد نوَّه في مقدمة طبعته الثانية بعمل السامرائيِّ، وقال: «غيَّرتُ ما أمكن تغييره في المتن، وما لم يكن ممكنًا تغييرُه أدرجته في الحواشي، ولا بدَّ من أن أُقرَّ أنِّي لم أُثبتْ كلَّ مقترحات السامرائيِّ، وإنما أثبتُّ منها ما وجدته مقنعًا».

قلت: أما أنا فقد أثبتُّ جميع مقترحاته، سواء ما اعتمدته في المتن وما لم اعتمده.

٧ - ونشر المستشرق الهولندي (بيتر سيورد فان كونينغسفيلد) سنة (١٩٩٣) بحثًا توثيقيًّا بعنوان: «النسخة الأصلية من مخطوطة ابن حزم: طوق الحمامة»[٢]، حاول فيه دراسة ما دخل على النسخة

---

(١) Al-Samarrai, Qasim: "New remarks on the text of Ibn Hazm's Tawq al-Hamama" in "Arabica" number 30, pp. 57-72, Arabica. Leiden, Brill. (1983).

(٢) P. S. van Koningsveld: "DE OORSPRONKELIJKE VERSIE VAN IBN HALM TAWQ AL-HAMAMA" in "Sharqiyyat", number 5, pp. 23-38 (1993). Instituut voor Talen en Culturen van het Midden-Oosten, Katholieke Universiteit Nijmegen, The Netherlands. =

الخطية الوحيدة من اختصار، من خلال تسليط الضوء على الاقتباسات القليلة منه في المصادر العربية.

الإفادة المهمة في عمل (كونينغسفيلد) هي التعريف بأوّل مالكٍ للكتاب قيَّد اسمه في صفحة العنوان، وهو: «العبد الضعيف إلى ربِّه اللطيف محمد بن عثمان النهاوندي الصوفي ـ عفا الله تعالى عنه ـ في سنة: ٧٣٨». وهذه السنة هي نفس السنة التي فرغ الناسخ من المخطوطة، كما ذكر في آخرها. وذكر (كونينغسفيلد) ترجمة النهاوندي نقلًا عن ابن حجر والصَّفَدي[1]، واستنتج من ذلك أن المخطوطة كتبتْ في صَفَد أو

= وكونينغسفيلد ولد سنة (١٩٤٣م)، وعمل أستاذًا في كلية اللاهوت بجامعة لايدن، متخصص في التاريخ الديني للإسلام في أوروبا الغربية. وبحثه المذكور باللغة الهولنديَّة.

(١) قال خليل بن أيبك الصفدي (ت: ٧٦٤) في «أعيان العصر وأعوان النصر» **٤/ ٥٦٩ (١٦٥٣)**: «محمد بن عثمان بن أبي بكر، قاضي القضاة، شرف الدين النهاوندي، قاضي صفد وغيرها. كان من أعرف الناس بالمداراة، وأخلبهم في المحادثة والمجاراة، له دربة بسياسة الخصوم ومصالحهم، وقَوْدِهم إلى تراضيهم بعد تشاحيهم ومشاحتهم، وله قدرة على مداخلة النواب، والعبور إلى رضاهم من كل باب، وكان ممتع المحاضرة، شهي المسامرة، لطيف الأخلاق، ذا كرم دفَّاق، تنقل في البلاد كثيرًا، وقاسى في آخر عمره قلةً وفقرًا كبيرًا. ولم يزل على حاله إلى أن ضمه ترابه وفارقه أحبابه وأترابه. وتوفي رحمه الله تعالى في شهر رمضان سنة أربعين وسبع مئة بالقاهرة. كان أولًا قد تولى قضاء صفد بعد والده ـ المقدَّم ذكره في مكانه من حرف العين ـ، وأقام بها إلى أن طُلب إلى مصر، وانحرف عليه قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة، وعزله بالقاضي فتح الدين القليوني، ثم إن قاضي القضاة نجم الدين ابن صصرى حنا عليه، وولاه قضاء عجلون، ثم قضاء نابلس، ثم ولاه قضاء القضاة بطرابلس، ثم إنه أعيد إلى صفد بعد القاضي حسام الدين القرمي، ثم إنه نقل إلى قضاء طرابلس، ثم أعيد إلى صفد بعد القاضي جمال الدين عبد القاهر التبريزي ـ فيما أظن ـ، وأقام بها إلى أن تغيَّر عليه الأمير سيف الدين تنكز، فعزله بالقاضي شمس الدين الخضري، فأقام في بيته بصفد بطَّالًا نحوًا من أربع سنين، ثم إنه توجه إلى القاهرة، ونزل عند الأمير سيف الدين أرقطاي لما بينهما من الصحبة، فمات هناك في التاريخ». =

القاهرة، ولم يدَّع أنه الناسخُ نفسه، وأحسن في ذلك، فلو كان هو الناسخ لذكر اسمه في خاتمة الكتاب عند ذكر اختصاره لمادته وتاريخ النسخ، والتقييد على الغلاف يكون عادةً للتملك، لكن دَرَسَت الكلمةُ المبيِّنة لذلك في تعليق النهاوندي.

ثم تتَّبع (كونينغسفيلد) الاقتباسات عن «الطوق» في كتب التاريخ والأدب، وغرضه من ذلك بناء تصوُّرٍ عن النسخة الأصلية من الكتاب، قبل أن تطال عليها يد الناسخ بالحذف والاختصار، فذكر ما يلي:

١) قصة يوسف بن هارون الرَّمَاديِّ مع خلوة[1]، وهي في (٥ ـ باب من أحبَّ من نظرة واحدة)، ونصُّ «الطوق» فيه اختصار، بينما احتفظ لنا الحميديُّ في «الجذوة» بالسياق التامِّ لها ـ وقد أوردته في موضعه ـ، وهو بروايته عن أبي محمد ـ رحمهما الله تعالى ـ، ولم يذكر «الطوق»، فلا ندري هل هو ناقل منه؟ أم من كتاب آخر لابن حزم؟ أم هو من تقييداته لرواياته الشفهية عنه؟ هذه الاحتمالات تُبعد القول بأن الناسخ قد اختصر القصة وأجرى فيها شيئًا من التغيير، فالأصل أن يكون قوله في آخرها: «.... في قصة طويلة»

= وذكره الصَّفديُّ ـ أيضًا ـ في «الوافي بالوَفَيَات» ٤/ ٧٦ (١٥٦٢)، وزاد: «ووَلِيَ أيام نيابة كراي بدمشق نظر الأوقاف بدمشق، وكان عقله المعيشيُّ جيدًا، يداخل نواب السلطنة، ويتحد بهم، وكان فيه كرم وحسن عشرة، ومفاكهة حديث».
وقال ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢) في «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» ٤/ ٣٩ (١٠٩): «محمد بن عثمان بن أبي بكر النهاوندي، شرف الدين، كان قاضي صفد، ثم وَلِيَ قضاء نابلس وعجلون وطرابلس، وكان آخر أمره أن مات بالقاهرة بطَّالًا، في رمضان سنة: ٧٤٠». وفي نسخة: (٧٤١).

(١) اسم امرأة لا أدري وجه ضبطه: هل هو بالفتح على الخاء أم بالضمِّ؟! وهو بالمعجمة يقينًا.

هو من قول ابن حزم نفسه، فلا وجه للنقد اللاذع الذي وجَّهه (كونينغسفيلد) إلى الناسخ. نعم؛ الملاحظة التي أوردها في هذا الخصوص وجيهة، وهي أن في تكملة القصَّة عند الحميدي ذهابَ ذلك الحبِّ عن قلبه بمجرد اكتشافه أنها أخت صديقه؛ ولم يكن ابن حزم ليغفل هذه الجزئية المهمة، والله أعلم.

٢) قصة الكاتب ابن قُزمان مع أَسلَم، وهي في (٢٨ ـ باب الموت)، والنصُّ مختصر، وفيه خلل ظاهر، بيَّنتُ بعضَه في التعليق عليه، وأوردتُ في الملحق (٢) ـ تبعًا للدكتور إحسان عبَّاس ـ قصة أحمد بن كُلَيبٍ مع أسلم، وهي التي ذكرها الحميدي بسياق تامٍّ مجوَّد. وذكر (كونينغسفيلد) أن الاختلاف الكبير بين النَّصين من المحتمل أنه من تصرف الناسخ واختصاره، واقتبس قول العلامة أبي عبد الرحمٰن ابن عقيل الظاهري في «نوادر ابن حزم» ١/١٣٨: «نتوقَّع أنَّ قصة أسلم التي أوردها الحميدي منقولة من «طوق الحمامة الأصل»، وأن الناسخ أسقط القصة التي بطريق المذحجي. ونحن نعرف أن جمهرة نقل الحميدي عن ابن حزم بصيغة: قال لي، أخبرنا... الخ؛ من كتب ابن حزم بطريق الإجارة». وقد يكون لدى الحميدي رواية أخرى للقصة عن شيخه أبي محمد، ومن المحتمل ـ أيضًا ـ أن يكون ابن حزم قد أصدر أكثر من نسخة من كتابه، وهذا الاحتمال قد يكون أقرب إلى الحقيقة؛ في نظر (كونينغسفيلد).

٣) بكاء ابن حزم على أطلال قرطبة، وقد أورده باختصار في (٢٤ ـ باب البَيْن)، وساقه بتمامه لسان الدين الخطيب في «أعمال الأعلام

في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، وقد أوردته في الملحق (١)، وصرَّح فيه الخطيب أنَّه وجده بخطِّ ابن حزمٍ في خبرٍ ذَكَرَهُ. وهنا يذكر (كونينغسفيلد) أنَّ الفرْقَ بينَ النَّصَّيْن كبيرٌ جدًّا، فما ذكره في «الطوق» كان بناء على رواية أحد أصدقاء ابن حزم، وَرَدَ عليه من قرطبة، وكان ابن حزم وقتها في المرية أو شاطبة. بينما نجده يقول في نقل الخطيب من خطِّه: «وقفتُ على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث...»، فلا بدَّ أن يكون هذا متأخرًا، بعد أنْ تمكَّنَ ابنُ حزمٍ من زيارة قرطبةَ، فتجدَّدتْ أحزانُه، وأعاد صياغةَ مرثيته. ويجد (كونينغسفيلد) في هذا ما يدعم دعواه من أنَّ ابن حزم قد أصدر نسختين من «الطوق»، فإنه لما عاد إلى قرطبة أضاف الصيغةَ الجديدةَ من مرثيته إلى النسخة النهائية من كتابه، وعنها نقل الخطيبُ، وبالتالي فإن النسخة اللايدنيَّة هي الإصدار القديم منه.

قلت: هذه دعوى غير مقنعة، فابن حزم قد يدرج بحثًا قديمًا له في كتاب أو رسالة جديدة له، هذا ما نلاحظه في عامة كتبه.

٤) «روضة المحبين» لابن قيِّم الجوزيَّة. لاحظ (كونينغسفيلد) أن «طوق الحمامة» هو الكتاب الوحيد لابن حزم الذي صرَّح ابن القيِّم بالنقل عنه، وبناءً على هذا فإن جميع اقتباساته عن ابن حزم يفترض أنها من الكتاب نفسه. ولا ندري إن كان ينقل عن النسخة التامة أم عن المختصرة؟ الذي نعرفه أن نقولات ابن القيِّم موجودة في نسختنا، عدا الأثر الذي ذكره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنَّ رجلًا قال له: يا أمير المؤمنين! إنِّي رأيتُ امرأةً فعشقتها؟ فقال عمر: ذاك مما لا يُملَك! وصدَّره ابن القيم بقوله: «وقال أبو محمد ابن

حزم»[1]. وخلص (كونينغسفيلد) إلى أن من المؤكد أن ابن القيِّم قد وقف على نسخة من «الطوق»، والأرجح أنها كانت أصلية[2].

---

(١) هذا في «روضة المحبين» ص: **٢١٨** (ط: دار عالم الفوائد، مكة المباركة: ١٤٣١هـ)، أما في «الداء والدواء» ص: **٥٣١** (ط: دار عالم الفوائد، مكة المباركة: **١٤٢٩**هـ)، فيرد بهذا السياق: «قال أبو محمد ابن حزم: وقد أحب من الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين كثير. وقال رجل لعمر...»، ومن هنا قال إحسان عباس في «رسائل ابن حزم» **١/٤٤٨**: «ويبدو أن سبب نسبته له وروده بعد قولٍ لابن حزم مباشرةً. وأيًّا كان الأمرُ؛ فليس لهذا القول وجود في طوق الحمامة».

قلتُ: ولم أهتد إلى مصدره بعد طول البحث والتفتيش، فلعل ابن القيِّم رحمه الله قد اتَّكأ على حفظه، ووهم في هذا الموضع.

(٢) لعل من المفيد أن أشير هنا إلى اقتباسات ابن القيم كلِّها، وهي في «روضة المحبين» **١١٧**: في تعريف الحب، **١٤٠**: زعم أن أبا محمد ابن حزم ذهب إلى جواز العشق للأجنبية من غير ريبةٍ! ولا أدري من أيِّ كلام أبي محمد فهم الإمام ابن القيِّم هذا الإطلاق، **١٨٦**: نصَّ على تسمية كتابنا، وهو في ذلك ناقل عمَّن احتجَّ بصنيع ابن حزم فيه، لهذا عاد في **٢٠٢ ـ ٢٠٣** فردَّ عليهم بقوله: «وأما أبو محمد؛ فإنه على قدر يبسه وقسوته في التمسك بالظاهر، وإلغائه للمعاني والمناسبات والحِكَم والعلل الشرعية؛ انماع في باب العشق، والنظر، وسماع الملاهي المحرمة، فوسَّع هذا الباب جدًّا، وضيق باب المناسبات والمعاني والحكم الشرعية جدًّا، وهو من انحرافه في الطرفين، حين ردَّ الحديث الذي رواه البخاري في «صحيحه» في تحريم آلات اللهو بأنه معلق غير مسند، وخفي عليه أن البخاريَّ لقي من علقه عنه، وسمع منه وهو هشام بن عمار، وخفي عليه أن الحديث قد أسنده غير واحد من أئمة الحديث غير هشام بن عمار، فأبطل سنة صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ لا مطعن فيها بوجه»، **٢١٨**: أثر عمر، **٢٥٥**: قوله: «وقد أحبَّ من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كثير»، **٤٠٥**: إنكاره على من يزعم أنه يعشق أكثر من واحد.

وفي «الداء والدواء» ـ وهو: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» ـ **٣٨**: قال: «وقال أبو محمد ابن حزم: رأيتُ بعض هؤلاء يقول في دعائه: اللهم إنِّي أعوذُ بك من العصمة»، وقد ساقه بمعناه، وكلام ابن حزم في (٢٩ ـ باب قبح المعصية): «ولقد سمعته في المسجد الجامع يستعيذ بالله من العصمة، كما يستعاذ به من الخذلان!»، **٥٣١**: أثر عمر، **٥٧٢**: أثر ابن عباس: قتيل الهوى لا عقل ولا قود.

٥) «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للشيخ أحمد بن محمد بن أحمد المقَّريِّ، وُلد ونشأ في تلمسان بالمغرب، وانتقل إلى فاس، فكان خطيبها والقاضي بها، ومنها إلى القاهرة سنة (١٠٢٧)، وتنقل في الديار الحجازيَّة والشاميَّة والمصريَّة، وانتهى به المطاف إلى الأخيرة، فألَّف في القاهرة كتابه هذا، وتوفي فيها سنة (١٠٤١هـ) رحمه الله؛ فما ينقله عن «الطوق» قد يكون عن نسخة أو مصدر مشرقي، وكتاب المقَّريِّ موسوعة متوسطة في التاريخ السياسي والأدبي للأندلس، ومع ذلك فإننا لا نجد فيه ذكرًا لطوق الحمامة إلا في موضعين، أحدهما لا يوجد في نسختنا المختصرة، والثاني نقله بواسطة تلميذ ابن حزم: أبي عامر ابن مسلمة[1]، ومن هنا رجَّح (كونينغسفيلد) أنَّ المقَّريَّ لم يقف على كتاب ابن حزم، وإلا لأكثر النقل عنه، ففيه مادة غزيرة من الأخبار والأشعار داخلةٌ في أغراض كتابه.

٦) ثم قال (كونينغسفيلد) في خاتمة بحثه: «وجهة نظري ـ استنادًا إلى هذه البيانات ـ أنَّ هناك ما لا يقل عن نسختين من «الطوق»: النسخة الأصلية، والنسخة التي تمَّ تحريرها من قبل ابن حزم نفسه في وقت لاحق، يمكن تقديره بنحو خمس سنوات بعد الانتهاء من النسخة الأصلية، وذلك بعد عودته إلى قرطبة. مخطوطة لايدن هو اختصار عن النص الأصلي. وقد

(١) الأول خبر دعابة أدبية بين ابن حزم وابن عبد البر ـ رحمهما الله ـ، وقد ذكرته في آخر ترجمة ابن حزم عند ذكر نماذج من شعره. والثاني: ذكرته في (توثيق نسبة الكتاب لابن حزم) وفيما علقته على (٢ ـ باب علامات الحب).

حفظتْ لنا استشهاداتِ الحميديِّ والخطيب والمقَّريِّ بتفاصيل أكثر استنادًا إلى النسخة الثانية. وطالما أنَّ الاقتباسات في تلك المصادر لا تنطوي على ما يفيد في نقد نص مخطوطة لايدن؛ فمن الصعب الانسياق وراء التكهنات عن النص الأصلي. هذا ما لدينا حتى الآن في نقد نصِّ «الطوق»؛ لم نرتفع فيه عن مستوى الحدس والتخمين. يعتقد البعض أن هذا الكتاب لم يفقد منه الكثير بسبب الاختصار، بالنظر إلى حجمه المتوسط، واحتفاظه بكمية صالحة من مادته وأشعاره[1]. بينما يؤكد آخرون على وقوع خسارة مهمة من النصوص لا يمكن تعويضها، فلابن حزم قصائد طويلة، وقد احتفظ الناسخ في آخر الكتاب بقصيدة من (٨٦) بيتًا، إما لأنه أحبَّ ملأ الصفحات البيضاء في آخر كرَّاسته، أو لغلبة روح الوعظ الديني عليه. ورغم مشكلة العلاقة بين نسختنا المختصرة والنسخة الأصلية؛ نال الكتابُ تقديرًا عاليًا جدًّا. لقد وصفه غرسيه غوميس بأنه أفضل أعمال ابن حزم، والأفضل في الأدب الإسباني العربي[2]، وذهب (أنور شحنة) خطوة أبعد، فقال: «العمل بحدٍّ ذاته يستحق مكانًا بين كلاسيكيات العالم. (...) إنه فريد من نوعه تقريبًا في الأدب

---

(١) سيأتي النَّقل عن الفيروزآبادي أن حجم: «كتاب طوق الحمامة نحو ثلاث مئة ورقة»، والمخطوطة التي بأيدينا اليوم في (١٣٨) ورقة فقط، فيكون الناسخ قد أسقط نحو نصف الكتاب. والفيروزآبادي ولد في بلاد فارس سنة (٧٢٩)، وتنقَّل في الحواضر المشرقية، فأقام في بغداد، ودمشق، والقاهرة، وجاور بمكة، واستقر به المقام في اليمن حتَّى توفي فيها سنة (٨١٧) رحمه الله. وهذا يدلنا على وجود نسخة كاملة من «الطوق» في المشرق، نهاية القرن الثامن، والله أعلم.

(٢) Anwar G. Chejne "Ibn Hazm" p. 134.

العربي بفضل صياغته، ومحتواه، ونسق مواضيعه، وشموليته في موضوع الحبِّ»[1]. إذا كان يمكن أن يقال هذا في نسخة مخطوطة لايدن وقد نالها اختصار بالغ؛ فماذا كان يمكن أن يقال لو وصلت إلينا النسخة التي تم تحريرها من قبل ابن حزم نفسه!

٧) النسخة التي حققها صلاح الدين القاسمي التونسي صدرت في طبعتها الأولى عن دار بو سلامة في تونس (١٩٨٠م)، وفي تلك السنة صدرت في بيروت طبعة الدكتور إحسان عباس الأولى، فيظهر أن أحدهما لم يطَّلع على عمل الآخر، وكتب الأخير في مقدمة طبعته الثانية: «وبعد ظهور الطبعة الأولى من الجزء الأول من رسائل ابن حزم؛ ظهر طوق الحمامة بتحقيق صلاح الدين القاسمي (الدار التونسية: ١٩٨٦)، وتدل مقدمة المحقِّق على أنه لم يطلع على ما أجريته من تعديلات في القراءة، وعلى التصويبات التي قام بها كلٌّ من الأستاذين: شاكر والسامرائي»، ثم قال ـ معرِّضًا به ـ: «إن مما يبهج النفس تضافر الأيدي على خدمة تراث ابن حزم، ولكن من المستحسن أن لا يكرر اللاحق عمل السابق دون إضافات أو تعليقات جوهرية. عمَّان في نيسان: ١٩٨٧».

قلتُ: لا يتميَّز عمل القاسمي بكبير شيء، لا في ضبط النصِّ، ولا في خدمته بالتشكيل والتوثيق والتعليق، وهو عالة في أكثر قراءاته على بتروف وبرشيه، ومع أنه وصف طبعته الثانية بالمزيدة والمنقحة، وأرخ مقدمتها في (١٩٨٥)؛ فلم يستفد من عمل

---

(١) Chejne "Ibn Hazm" p. 135.

د. إحسان عباس شيئًا، وأوهم قرَّاءه بأنَّه اعتمد على النسخة الخطيَّة، وأستطيع الجزم بأنه لم يفعل ذلك، فإشاراته القليلة إلى ضبط بعض الكلمات تدلُّ على أنه يقصد بعبارة: «وفي الأصل» طبعة بتروف، فهي أصله ومعتمده. ويؤكد هذا أنه لما ذكر في «مقدمته» مزايا طبعته؛ بدأ بذكر طبعات الكتاب، ثم قال: «وإن مرجع صعوبة تحقيق هذه الرسالة إلى كون مخطوطتها وحيدة يتيمة، في مكتبة ليدن بهولاندة، وهي كراس مجلد...» وذكر وصفًا لها في ثلاثة أسطر، لينتقل بعدها ـ فجاءةً! ـ إلى الحديث عن تاريخ تأليف الكتاب. وهذه المعلومات الضئيلة، مع صورة صفحة وحيدة من المخطوطة ـ وهي لصدر باب من أحب من نظرة واحدة ـ أخذها ممَّن قبله!

٨) الكتب والدراسات والمقالات عن ابن حزم وكتابه الطوق كثيرة جدًّا، وهي في ازدياد مستمر، خاصَّة في اللغات الأوروبيَّة، لهذا لم أرَ فائدة في تتبعها في هذه الطبعة، فمكانها في الدراسة المرجعية التي أكتبها عن أبي محمد رحمه الله، إن شاء الله تعالى وأعان ويسَّر. وثمَّة مواد قديمة لم أتمكن حتى الآن من مراجعتها، منها: «الواضحُ المبينُ في ذِكْرِ من استشهدَ من المحبِّين» للعلامة مُغَلْطاي بن قَلِيج التُّركيِّ الحنفيِّ (٦٨٩ ـ ٧٦٢هـ) رحمه الله، فلا بدَّ أنه اطلع على «الطوق»، واستفاد منه[١].

---

(١) وقد ذكرت في (توثيق نسبة الكتاب لابن حزم) عن ابن ناصر الدين الدمشقيِّ أنَّه وجد بخطِّ الحافظ مُغَلْطاي اقتباسًا من «طوق الحمامة» مع التصريح باسمه، وراجع الملحق (٣) بآخر الكتاب.

رحمكَ الله يا أبا محمَّدٍ وغفر لك، فقد لحِقْتَ مَنْ قبلكَ، وأتعبتَ مَنْ بعدكَ!

ليستر، بريطانيا: ١٤٣٣/٤/١٣هـ ـ ٢٠١٢/٣/٦م.

كتبه:

عبد الحق التركماني

عفا الله عنه



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

ـ ١ ـ

أبو محمَّد ابن حزم ـ رحمه الله ـ قِمَّة مِنَ القِمَم العلميَّة والفكريَّة العِمْلاقة في التَّاريخ الإسلاميِّ والأندلسيِّ. ورَغْمَ ما لَقِيَهُ في حياته، ولَقِيَ تراثه مِنْ بَعْده؛ مِنْ عداءٍ وتحاملٍ وإهمالٍ، وحرقٍ لكتبه، فقد عرفَ الكثيرونَ ـ خلالَ العصور الإسلاميَّة المختلفة ـ فَضْلَهُ، وانتفعوا بكتبه؛ قراءةً ودراسة، وتداولًا ونسخًا... فحَفِظَ الله ـ تعالى ـ بهم بعضَ كتبه ورسائله، متفرقةً في مكتباتٍ خاصَّةٍ وعامَّةٍ؛ في الشَّرق والغرب.

وفي عصرنا حَظِيَ ابنُ حزم وما بقيَ من تراثه، باهتمامٍ بالغٍ من قِبَلِ الباحثين والدَّارسين، من المسلمين وغيرهم؛ فطبعوا كتبه ـ كلَّها؛ إلا شيئًا يسيرًا ما زال مخطوطًا ـ، ودَرَسُوا حياتَه، وعقيدته، وفِقْهَه، وأدبه، وسائرَ علومه ونظريَّاته وأفكاره. وكان لهذا الكتاب الذي بين يدي القارىء الكريم؛ الحصيلة الكبرى من ذلك الاهتمام؛ إذ طُبِعَ قبل نحو قرنٍ من

الزَّمان، وأعيد طبعه مرارًا، وترجم إلى أشهر اللُّغات العالمية، وبالغ الباحثون في دراسته؛ أدبيًّا وفكريًّا وتاريخيًّا.

ورغم هذا ـ كلِّه ـ ثمَّة هاهنا مفارقة عجيبة، تكمن في أن تلك العناية البالغة بتراث ابن حزم لم تقترن بها عنايةٌ علميَّةٌ جادَّةٌ بطباعتها على الطريقة الحديثة؛ من المقابلة على المخطوطات، والتحقيق، والضبط، والتَّصحيح! وهذا ينطبق على جميع كتبه ـ إلا بعض ما حقّق حديثًا بخدمة علمية جيدة ـ، وخيرُ مثالٍ على ذلك هذا الكتاب؛ إذ جميع طبعاته التي صدرتْ في العالم العربيِّ اعتمدتْ على الطبعة الأولى التي أخرجها المستشرق الرُّوسيُّ د.ك. بتروف سنة: (١٩١٤م)، من غير رجوع إلى النسخة المخطوطة، بل إن كثيرًا منها لم ترجع إلى طبعة بتروف، بل رجعت إلى بعض الطبعات التي نقلت عنها؛ فأصاب الكتاب شيءٌ غير قليلٍ من التَّصحيف، والتَّحريف، والسَّقط، والتَّغيير!

لهذا فقد صحَّ العَزْمُ منِّي على تحقيق كتب ورسائل ابن حزم ـ كلِّها ـ وفق منهجٍ علميٍّ متكاملٍ، وبالرُّجوع إلى مخطوطاتها الأصليَّة.

ـ ٢ ـ

وعندما بدأتُ العمل في تحقيق هذا الكتاب؛ خشيتُ أنْ لا أقدِّم جديدًا ـ سوى تصحيح نصِّه وتحريره؛ بالمقابلة على نسخته الخطِّيَّة الوحيدة ـ فالدِّراسات والتَّحقيقات حول الكتاب ومادَّته كثيرةٌ وواسعةٌ، حتَّى أنَّني ظننتُ أنَّ ما سأكتبه لن يكون إلا مُعادًا مكرورًا، وتذكَّرت قول كعب بن زهير ـ رضي الله عنه ـ:

مَا أَرَانَا نَقُولُ إلا رَجِيعًا ... ومُعَادًا مِنَ قَوْلِنَا مَكْرُورا

والآن ـ بعدَ أنْ انتهيتُ من خدمة الكتاب ـ يمكنني أنْ أزعم أنَّ في هذه الطبعة الجديدة المحقَّقة؛ الشَّيء الكثير من الجديد والمفيد، من ذلك:

ـ تصحيح عنوان الكتاب وتكميله.

ـ توثيق نسبة الكتاب إلى ابن حزم من مصدرين مهمَّين؛ أحدهما أندلسي، والآخر مشرقي.

ـ العناية بتخريج أحاديثه، والحكم عليها تصحيحًا وتضعيفًا.

ـ تصديره بدراسةٍ شرعيةٍ تهدفُ إلى توضيح بعض مقاصد المؤلِّف ـ رحمه الله ـ، وتصحيح ما أخطأ فيه، والاستدراك عليه بما يشتدُّ حاجة قارىء كتابه إليه؛ نصحًا لله تعالى، ولدينه، ولعامة المسلمين، ووفاءً لابن حزم ولما له مِنْ منزلةٍ في القلوب.

ـ ٣ ـ

وقد رأيتُ معظمَ مَن دَرَسَ هذا الكتابَ، أو كتب عنه، وأغلبهم من المستشرقين؛ قد تكلَّفوا في الاستدلال بنصوص الكتاب لآرائهم وأفكارهم، فجعلوه مَطِيَّةً لها، حتى أنَّهم قد أخرجوه عن الإطار الذي وضعه فيه مصنفه، فخرجوا بنتائج هي ثمار ما تبخَّر في رؤوسهم، لا ما أرشدهم إليه أبو محمد ـ رحمه الله ـ:

فمِنْ مدَّعٍ (إسبانيَّته)، زاعم أن هذا الكتاب ثمرة نسبه (النصرانيِّ)، وبيئته (الأوربية)، ومزاجه وأخلاقه (الإسبانية)!!

وآخر: يتخيَّلُ ابنَ حزم وأصحابَه من الأدباء وطلبة العلم؛ جماعةً مزعومةً: «يتميَّزون بالأناقة، ويرتدون أفخم الثِّياب، في أحدث الأنماط،

يفتنهم الجمال، وتستهويهم الطبيعة، تطربهم الموسيقى، ويفضِّلون الأدب، ويتَّبعون فيه منهجًا ثوريًا...»!!

وثالث: يصرِّح بأنَّ ما نَقْرَؤُهُ في هذا الكتاب من أدبٍ صافٍ وروحيٍّ، وعاطفةٍ رقيقةٍ، لا يمكن أن يكون عربيًا خالصًا؛ بل هو من بقايا (المسيحية) في أعماق روحه[1]!...

ورابع: يُخْرِجُ الكتابَ في طبعة سقيمة علميًا، لكنها مزَّودة بتصاوير لرجال ونساء، هي ـ في زعمه ـ: «أجمل اللَّوحات الفنية لكبار الفنانين العالميِّينَ»[2]. مع أنَّه لا يمكن أن يخفى على مِثله حكم الإسلام في تحريم الصُّور؛ ممَّا ذكره ابن حزم واستدلَّ له في كتابه: «المحلَّى بالآثار».

وهكذا في بلاء متناسل، يشوِّه صورة الكتاب، ويصيب قارئه بالدُّوار لينسى أنه يقرأ للإمام الفقيه الحجَّة، صاحب: «المحلى»، و«الإحكام»، و«الفصل»!

والدراسة التي صدَّرت بها الكتاب؛ كفيلة ـ إن شاء الله ـ بإعادته إلى وضعه الحقيقي؛ من غير تكلُّف، ولا تأويل، ولا تعسُّف. وبحسب القارىء أن يقرأه كما تركه مؤلِّفه، من غير أنْ يزاحمه أحد في تفسير نصوصه، أو إخراجها من إطارها المعقول. ولا بأس بعد ذلك أن يستفيد

---

(١) الأول هو المؤرخ الإسباني سانتشث البرنس، والثاني: غرسيه غومث، والثالث: رينهارت دوزي، وتجد بحوثهم ومقالاتهم مترجمة في: «دراسات عن ابن حزم وكتابه: طوق الحمامة»، للدكتور الطاهر أحمد مكي، ص: ١١٥ ـ ١٣٦، ٦٧ ـ ٦٨، ١٥٥ (ط: ٤ /القاهرة، ١٩٩٣م).

(٢) طبعة دار الهلال الثانية، القاهرة: ١٩٩٤، تحقيق: د.الطاهر أحمد مكي.

من جهود الباحثين، ودراساتهم التَّخَصُّصِيَّةِ المُتَعَمِّقَةِ، إذ ليس المقصود التَّنقيص من قَدْرها، أو ردّ ما فيها من حقٍّ وصوابٍ.

ـ ٤ ـ

وأخيرًا؛ لا بدَّ أن أشكر ناشر الكتاب؛ الأستاذ أحمد قصيباتي ـ وفقه الله ـ على عنايته الفائقة بإخراج الكتاب في أحسن حلَّة، وصبره على إعادة تصحيح تجاربه مرارًا، وكأنِّي به لم يرض لنفسه أن تحمل (داره) اسم الإمام (ابن حزم)؛ حتَّى يؤدِّيَ تجاهه بعض ما يجب لمثله من معاني التَّقدير والوفاء، فيعطي كُتُبَهُ حقَّها من حُسْنِ الطِّباعة، وجمال الإخراج، فجزاه الله ـ تعالى ـ على ذلك خير الجزاء.

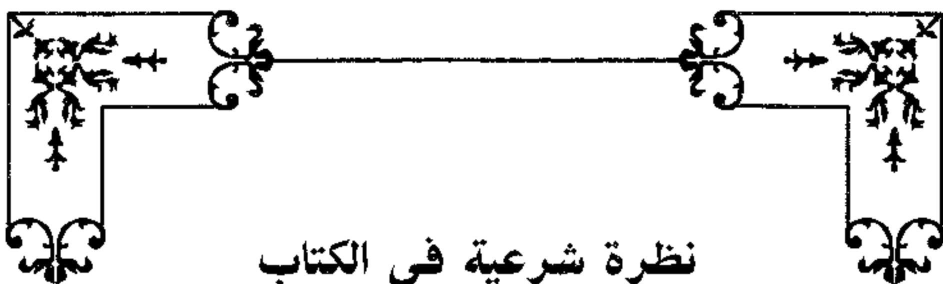
أسألُ الله ـ تعالى ـ أن يجعلَ قولي وعملي خالصًا لوجهه الكريم، ويلهمني فيه الحقَّ والصَّواب، ويكتب له التَّوفيق والقبول، وأن يدَّخر أجر ذلك عنده؛ إنَّه خيرُ مسؤولٍ.

والحمدُ لله أولًا وآخرًا، وصلَّى الله على محمَّدٍ وآله وصَحْبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

غوطبورغ، السويد — **وكتبه:**

غرَّة شعبان/ ١٤٢٢هـ — **عبد الحق التركماني**





نظرة شرعية في الكتاب

١ ـ هل أخفق ابن حزم في تعريف الحب؟

اختلف الناس في تعريف الحبِّ وماهيته اختلافًا كبيرًا، مما يجده القارىء مفصَّلًا في المؤلفات (التَّقْليدية) في هذا الباب، ولم يشأ ابن حزم أن يقف عند هذا الأمر طويلًا، بل أشار إلى ذلك الاختلاف إشارةً عابرةً، ثم ذكر رأيه ومذهبه، وهو: «أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع؛ . . . على سبيل مناسبة قواها في مقرِّ عالمها العِلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها» وردَّ قول بعض المتفلسفين من أن: «الأرواح أَكَرٌ مقسومة».

وهذا التعريف في غاية الإجمال؛ لكن لعلَّه يتَّضح قليلًا بمعرفة مذهب ابن حزم في (الأرواح).

ذهب ابن حزم إلى أن الله ـ تعالى ـ قد خلق الأرواح جملة قبل خلق آدم، وجعل مستقرها في البرزخ، ويرسل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كلَّ روحٍ من تلك الأرواح عند حدوث بدنها إليه، وعند الموت ترجع الرُّوح إلى

مستقرها الأول[1].

فإذا عُرف هذا تبيَّن مقصوده من قوله: «على سبيل مناسبة قُوَاها في مقرِّ عالمها العِلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها»؛ فكأنه يشير إلى أن سبب الحب ما يكون بينها في عالم البرزخ من التقاء وتناسب وتشاكل، خاصة وأنها في تلك الحال ـ فيما ذهب إليه ـ: مصوَّرة عاقلة حسَّاسة[2].

وهذا رأي كان يمكن أن يكون مقبولًا لو صحَّ مذهبه في الأرواح؛ غير أنَّه لا يصحُّ، بل الصَّواب ـ الذي دلَّ عليه القرآنُ والسنة والاعتبار ـ: «أن الأرواح مخلوقة مع الأجساد، وأنَّ الملك الموكَّلَ بِنَفْخِ الرُّوح في الجسد؛ ينفخ فيه الرُّوح إذا مضى على النُّطفة أربعة أشهر ودخلت في الخامس، وذلك أول حدوث الرُّوح فيه. ومن قال إنها مخلوقة قبل ذلك فقد غلط»[3]. وليس هذا موضع تفصيل القول في هذه المسألة، لكن المقصود ردُّ النتيجة التي بناها على مذهبه.

لكن يمكن التَّسليم بقوله: «في أصل عنصرها الرفيع» إن كان المقصود به أصل خِلْقتها التي أوجدها الله ـ تعالى ـ عليها؛ خَلْقًا وفطرةً وطبعًا وجِبِلَّةً. فلا شكَّ أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد خلق الأنفس على صفات وطبائع مختلفة، فالنفوس التي بينها توافق في أصل صفاتها وطبائعها يكون بينها تآلف وتقارب، وهذا معنى الحديث: «**الأرواح جنود مجنَّدة**[4] **ما**

---

(1) «الفصل في الملل والنحل» **٤/٥٨**، وممن قال بهذا قبل ابن حزم: إسحاق بن راهويه، ومحمد بن نصر المروزي ـ كما ذكر ابن القيم في «الرُّوح» **١٥٦**، و«أحكام أهل الذمة» **٢/١٠٣٣** ـ والخَطَّابيُّ في «معالم السنن» **٤/١٠٧**.

(2) «الفصل» **٤/٥٨**.

(3) قاله ابن القيم في: «روضة المحبين» **٥٦**، واحتج له وردَّ أدلة القول الآخر في كتابيه المذكورين في الهامش السابق.

(4) أي: أجناس مُجَنَّسة، أو جموع مجَمَّعة.

تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»؛ وهذا الذي يفهم من كلام غير واحد من العلماء في شرح الحديث.

قال الخطَّابيُّ: يقول ﷺ: إن الأجساد التي فيها الأرواح تلتقي في الدنيا؛ فتأتلف وتختلف على حسب ما جُعلت عليه من التشاكل أو التنافر في بَدْءِ الخِلْقة، ولذلك ترى البَرَّ الخَيِّرَ يحبُّ شكله، ويحن إلى قربه، وينفر عن ضدِّه، وكذلك الرَّهِق الفاجر يألف شكله، ويستحسن فعله، وينحرف عن ضدِّه[١].

وقال القرطبيُّ: الأرواح وإن اتفقت في كونها أرواحًا؛ لكنَّها تتمايز بأمور مختلفة تتنوّع بها، فتتشاكلُ أشخاص النَّوع الواحد، وتتناسب بسبب ما اجتمعت فيه من المعنى الخاصِّ لذلك النَّوع للمناسبة، ولذلك تشاهد أشخاص كلِّ نوعٍ تألف نوعها وتنفر من مخالفها، ثمَّ إنَّا نجد أشخاص النَّوع الواحد يتآلف وبعضها يتنافر، وذلك بسبب الأمور التي يحصل الاتفاق والانفراد بسببها[٢].

نعم؛ والفرق بين رأي ابن حزم والرأي الآخر لبعض الفلاسفة واضحٌ، فابن حزم يذهب إلى أن الله خلق الأرواح جملة؛ أي: أن كل روح من الأرواح مخلوقة بمفردها، وهي جميعها مجموعة في البرزخ، أما القول الآخر فيرى أن الله ـ جلَّ ثناؤه ـ خلق كل روح مدوَّرة الشَّكل على هيئة الكرة، ثم قطعها فجعل في كل جسد نصفًا. وهذا قول في غاية البطلان؛ إذ ليس عليه شبه دليل من نقل أو عقل، لهذا ردَّه ابن حزم، لكن

---

(١) «معالم السُّنن» ٢/١٠٧.

(٢) نقله ابن حجر في: «فتح الباري» تحت الحديث: (٣٣٣٦).

ربَّما يفهم من قوله: «أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة»؛ أنه يقول ـ أيضًا ـ بأن النفوس تجزَّأت عدة أجزاء. وهذا يعني أنه وقع في تناقض شديد، ويلزم منه لوازم فاسدة، ومهما يكن فإن كلامه مجمل[1]، وكأنه أخفق في التوفيق بين النظرة الواقعية ـ التي حرص على إبرازها ـ، والنظرة الفلسفية ـ التي تأثَّر بها، ولم يستطع الخروج من إطارها العام ـ.

وانتهى ابن حزم في تحديده لماهية الحب إلى أنَّه «استحسان روحاني، وامتزاج نفساني» فلا يُعَلَّلُ بشيء إنما هو «شيء في ذات النَّفس». ولم ينف المحبة التي تكون لسبب من الأسباب، ولكنه فرّق بينهما بأن هذه تفنى بفناء سببها، والأولى لا تفنى ـ إذا كانت محبة عشق صحيحة متمكِّنة من النفس ـ إلا بالموت.

وقد أخذ ابن القيم ـ رحمه الله ـ بهذا الرأي، وفصّل القول فيه، فقال ـ في بيان دواعي المحبة ومتعلقاتها ـ:

«الدَّاعي قد يراد به الشُّعور الذي تتبعه الإرادة والميل؛ فذلك قائم بالمحب. وقد يراد به السبب الذي لأجله وجدت المحبة وتعلقت به؛ وذلك قائم بالمحبوب. ونحن نريد بالداعي مجموع الأمرين؛ وهو: ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبته، وما قام بالمحب من الشعور بها. والموافقة التي بين المحب والمحبوب، وهي الرابطة بينهما، وتسمى بين المخلوق والمخلوق مناسبة وملاءمة.

فهاهنا أمور: وصف المحبوب وجماله، وشعور المحب به،

---

(١) ولا يَرِدُ احتمال وقوع الاضطراب في النسخة التي وصلتنا؛ كما أشار إليه الدكتور إحسان عباس، فإن النص المتعلق بماهية الحب قد نقله عن «الطَّوق»؛ ابنُ القيم في «روضة المحبِّين» بما يوافق ما في النسخة الخطية موافقة تامة. والله أعلم.

والمناسبة وهي العلاقة والملاءمة التي بين المحب والمحبوب. فمتى قويت الثلاثة وكملت؛ قويت المحبة واستحكمت، ونقصان المحبة وضعفها بحسب ضعف هذه الثلاثة أو نقصها.

فمتى كان المحبوب في غاية الجمال، وشعور المحب بجماله أتم شعور، والمناسبة التي بين الروحين قوية؛ فذلك الحب اللازم الدَّائم؛ وقد يكون الجمال في نفسه ناقصًا، لكن هو في عين المحب كامل، فتكون قوة محبته بحسب ذلك الجمال عنده، فإن حبَّك للشيء يعمي ويصم، فلا يرى المحبُّ أحدًا أحسنَ من محبوبه، كما يحكى أن عَزَّةَ دخلتْ على الحجاج، فقال لها: يا عَزَّةُ! والله ما أنتِ كما قال فيك كُثَيِّرٌ! فقالت: أيها الأمير! إنه لم يرني بالعين التي رأيتني بها. ولا ريب أن المحبوبَ أحلى في عين محبه، وأكبر في صدره من غيره، وقد أفصح بهذا القائلُ في قوله:

فوالله ما أدري أزيدَتْ مَلاحَةً ... وحُسْنًا على النِّسوان أم ليسَ لي عَقْلُ

وقد يكون الجمال موفَّرًا لكنَّه ناقص الشعور به؛ فتضعُف محبته لذلك، فلو كُشفَ له عن حقيقته لأسر قلبه، ولهذا أمر النساء بسَتْر وجوههن عن الرِّجال؛ فإنَّ ظهور الوجه يُسْفِرُ عن كمال المحاسن فيقع الافتتان، ولهذا شرع للخاطب أن ينظر إلى المخطوبة؛ فإنَّه إذا شاهد حسنها وجمالها كان ذلك أدعى إلى حصول المحبة والألفة بينهما؛ كما أشار إليه النبيُّ في قوله: «**إذا أراد أحدُكم خِطْبَة امرأةٍ فلينظر إلى ما يدعوه إلى نِكاحِها. فإنَّه أحرى أنْ يُؤْدَمَ بينهما**»[1] ـ أي: يُلائِمَ

---

(١) صحيح: الشطر الأول أخرجه أحمد (١٤٥٨٦)، وأبو داود (٢٠٨٢)، عن جابرٍ ـ رضي الله عنه ـ، وقال: فخطبتُ جارية، فمكثت أتخبَّأ لها، حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها وتزَوُّجِها؛ فتزوجتها. والشطر الثاني: «فإنَّه أحرى....»؛ =

ويوافق ويصلُح. ومنه: الإدام الذي يصلح به الخبز ـ.

وإذا وُجِدَ ذلك كلُّه وانتفت المناسبة والعلاقة التي بينهما لم تستحكم المحبة، وربما لم تقع البتة، فإن التناسب الذي بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة:

فكُلُّ امْرِىءٍ يَصْبُو إلى مَا يُنَاسِبُهُ

وهذه المناسبة نوعان: أصلية من أصل الخِلْقة، وعارضة بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمرٍ من الأمور، فإنَّ من ناسب قصدُك قصدَه حصل التوافق بين روحك وروحه، فإذا اختلف القصد زال التوافق.

فأما التناسب الأصلي فهو اتفاق أخلاق، وتشاكل أرواح، وشوق كل نفس إلى مُشاكلها، فإن شبه الشَّيء ينجذب إليه بالطَّبع، فتكون الروحان متشاكلتَيْن في أصل الخلقة فتنجذب كل منهما إلى الأخرى بالطبع. وقد يقع الانجذاب والميل بالخاصيَّة؛ وهذا لا يعلَّل، ولا يعرف سببه؛ كانجذاب الحديد إلى الحجر المغناطيس.

ولا ريب أن وقوع هذا القدر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات؛ كما قيل:

مَحاسنُها هَيُولَى كلِّ حُسْنٍ ومِغْناطيسُ أفْئِدَةِ الرِّجَال

= أخرجه: النَّسائي (٣٢٣٥)، والتِّرمذيُّ (١٠٨٧)، وابن ماجه (١٨٦٦)؛ من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ. وفي الباب أحاديث صحيحة، ذكر جملة منها، مع بيان فقهها؛ العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ في: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٥ ـ ٩٩).

وهذا الذي حمل بعض الناس على أن قال: إن العشق لا يقف على الحسن والجمال ولا يلزم من عدمه عدمه، وإنما هو تشاكل النفوس وتمازجها في الطباع المخلوقة، كما قيل:

وما الحبُّ من حُسْنٍ ولا من مَلاحةٍ ولكنَّه شيءٌ به الرُّوح تَكْلفُ

قال هذا القائلُ: فحقيقته أنَّه مِرْآةٌ يبصر فيها المحب طباعه ورقَّته في صورة محبوبة، ففي الحقيقة لم يحبَّ إلا نفسه وطباعه ومشاكله.

قال بعضهم لمحبوبه: صادفتُ فيك جوهر نفسي ومُشَاكِلَتِها في كلِّ أحوالها؛ فانبعثتْ نفسي نحوك، وانقادتْ إليك، وإنما هويتُ نفسي.

وهذا صحيح من وجه، فإن المناسبة علة الضَّمِّ شرعًا وقدرًا، وشاهد هذا بالاعتبار أن أحبَّ الأغذية إلى الحيوان ما كان أشبه بجوهر بدنه، وأكثر مناسبة له، وكلَّما قويت المناسبة بين الغاذي والغذاء كان ميل النفس إليه أكثر، وكلَّما بعدت المناسبة حصلت النَّفْرة عنه، ولا ريب أن هذا قدر زائد على مجرد الحسن والجمال.

ولهذا كانت النفوس الشريفة الزكية العلوية تعشق صفات الكمال بالذَّات، فأحب شيء إليها العلم والشَّجاعة والعفة والجود والإحسان والصبر والثبات، لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها، بخلاف النفوس اللئيمة الدنية فإنها بمعزل عن محبة هذه الصفات، وكثير من الناس يحمله على الجود والإحسان فرط عشقه ومحبته له، واللذة التي يجدها في بذله، كما قال المأمون: لقد حُبِّبَ إليَّ العفو حتى خشيت أن لا أؤجر عليه. وقيل للإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ: تعلمتَ هذا العلم لله؟ فقال: أمَّا لله فعزيزٌ، ولكنْ شيء حُبِّبَ إليَّ ففعلته. وقال آخر: إني لأفرح بالعطاء

وألتذُّ به أكثر وأعظم مما يفرح الآخذ بما يأخذه منّي. وفي هذا قيل في مدح بعض الكرماء من أبيات:

وتَـأخُـذُهُ عِـنْـدَ الـمَـكـارِمِ هَـزَّةٌ   كمَا اهْتَزَّ عند البَارِحِ الغُصْنُ الرَّطبُ

وقال شاعر الحماسة:

تَـرَاهُ إذا مَـا جِـئْـتَـهُ مُـتَـهَـلِّـلًا   كَـأنَّكَ تُـعْطِيـهِ الَّـذِي أنْـتَ سَـائِـلُـهُ

وكثير من الأجواد يعشق الجود أعظم عشق، فلا يصبر عنه مع حاجته إلى ما يجود به، ولا يقبل فيه عذل عاذل، ولا تأخذه فيه لومة لائم، وأما عشاق العلم فأعظم شغفًا به، وعشقًا له من كل عاشق بمعشوقه، وكثير منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر، وقيل لامرأة الزبير بن بكار ـ أو غيره ـ: هنيئًا لك إذ ليستْ لك ضَرَّة! فقالت: والله لهذه الكتب أضرُّ عليّ من عدة ضرائر. وحدَّثني أخو شيخنا عبد الرحمٰن ابن تيمية، عن أبيه، قال: كان الجَدُّ إذا دخل الخلاء؛ يقول لي اقرأ في هذا الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع. وأعرف من أصابه مرض من صداع وحمّى، وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يومًا وهو كذلك، فقال: إن هذا لا يحلُّ لك فإنك تعين على نفسك وتكون سببًا لفوات مطلوبك. وحدثني شيخنا قال: ابتدأني مرض، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض. فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك؛ أليست النفس إذا فرحت وسُرَّتْ؛ قويت الطبيعة فدفعت المرض؟ فقال: بلى! فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحة. فقال: هذا خارج عن علاجنا، أو كما قال.

فعشق صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الروح وتلك الصفات، ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها؛ أعلاها وأشرفها معشوقًا، كما قيل:

أنتَ القَتِيلُ بكلِّ مَنْ أحببته ... فاخْتَرْ لنَفْسِكَ في الهوى مَنْ تَصْطَفِي

فإذا كانت المحبة بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكنت، ولم يُزِلها إلا مانع أقوى من السبب، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هي محبة لغرض من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحل، فمن أحبك لأمر ولّى عند انقضائه، فداعي المحبة وباعثها إن كان غرضًا للمحبِّ لم يكن لمحبته بقاء، وإن كان أمرًا قائمًا بالمحبوب سريع الزَّوال والانتقال زالت محبته بزواله، وإن كان صفة لازمة فمحبته باقية ببقاء داعيها، ما لم يعارضه معارض يوجب زوالها، وهو إما تَغَيُّر حال في المحب، أو أذى من المحبوب، فإن الأذى إما أن يضعف المحبة أو يزيلها...»؛ إلى أن قال: «وأنت إذا تأملت الوجود لا تكاد تجد اثنين يتحابَّان إلا وبينهما مُشاكلة، أو اتفاق في فعل أو حال أو مقصد، فإذا تباينت المقاصد والأوصاف والأفعال والطرائق؛ لم يكن هناك إلا النَّفْرة والبعد بين القلوب، ويكفي في هذا الحديث الصَّحيح عن رسول الله ﷺ: **«مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم، وتَرَاحُمِهِم، وتَعَاطُفِهِم؛ كمَثَلِ الجَسَدِ الواحِدِ، إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ؛ تَداعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ»**[1]...»[2].

قلتُ: هذا كلُّه كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ وهو لا يخرج عمَّا قرَّره

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٩٦).

(٢) «روضة المحبين» ص: ٤٩ ـ ٥٤.

ابن حزم ـ رحمه الله ـ، وتأثُّره به واضح، حتَّى أنه استخدم بعض كلماته، لكنه أسقط الخلفية الفلسفية في تعليل التشاكل والتجانس بين الأرواح، الأمر الذي لم يتمكَّن ابن حزم من التخلُّص منه.

على أن ابن حزم ـ رحمه الله ـ لم يستقر على هذا الرأي، بل انتهى إلى إلغاء النظرية الأولى في تفسير الحبِّ ـ أعني: اعتباره اتصالًا بين أجزاء النفوس . . . ـ؛ وأبقى على الجانب الواقعي في تفسيره؛ وهو تعليله بالأسباب العارضة فقط، وأرجعها جميعًا إلى أصلٍ واحدٍ؛ هو: «الطَّمع».

قال في: «الأخلاق والسِّير» ـ وهو من أواخر ما كتب؛ بعد رحلة طويلة من العلم المحقَّق، والتجربة الإنسانية العميقة ـ:

«فصل؛ في أنواع المحبة. وقد سُئِلْتُ عن تحقيق القول فيها، وفي أنواعها.

المحبَّة ـ كلُّها ـ جنسٌ واحدٌ، ورسمها أنَّها الرَّغبة في المحبوب، وكراهية منافَرته، والرَّغبة في المقارضة منه بالمحبَّة.

وإنَّما قدَّر النَّاسُ أنها تختلفُ من أجل اختلاف الأغراض فيها، وإنَّما اختلفتِ الأغراضُ من أجل اختلاف الأطماع، وتزايدِها وضعفها، أو انْحِسَامِها، فتكون المحبَّةُ: لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وفيه، وللاتِّفاق على بعض المطالب، وللأب وللابن، وللقرابة، وللصَّديق، وللسُّلطان، ولذات الفراش، وللمُحْسِنِ، وللمَأمُول، وللمَعْشُوق. فهذا ـ كلُّه ـ جنسٌ واحدٌ، اختلفت أنواعه ـ كما وصفتُ لك ـ على قدر الطَّمع فيما ينال من المحبوب، فلذلك اختلفت وجوه المحبَّة.

وقد رأينا من مات أسفًا على ولده كما يموت العاشق أسفًا على معشوقه، وبلغنا عن من شَهِقَ من خوف الله ـ تعالى ـ ومحبَّته فمات،

ونجد المرءَ يغار على سُلْطانه، وعلى صديقه؛ كما يغار على ذات فراشه، وكما يغار العاشق على معشوقه.

فأدنى أطماع المحبِّ ممَّن يحبُّ الحظوة منه، والرِّفعة لديه، والزُّلفة عنده، إذا لم يَطْمَعْ في أكثر، وهذه غايةُ أطماع المحبِّين للّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ. ثمَّ يزيد الطَّمع في المجالسة، ثم في المحادثة، والمُؤَازرة، وهذه أطماعُ المرء في سلطانه وصديقه، وذَوِي رَحِمِهِ.

وأقصى أطماع المحبِّ ممَّن يحبُّ المخالطةُ بالأعضاء إذا رجا ذلك، ولذلك نَجِدُ المحبَّ المُفْرِطَ المحبَّة في ذات فراشه يرغب في مجامعتها على هيئات شتَّى، وفي أماكنَ مختلفةٍ، لِيَسْتَكْثِرَ[1] من الاتصال، ويدخل في هذا الباب الملامسة بالجسد والتَّقبيل، وقد يقع بعض هذا الطَّمع في الأبِ في ولده فيتعدَّى إلى التَّقبيل والتَّعْنِيق.

وكل ما ذكرنا إنَّما هو على قدر الطَّمع، فإذا انحسم الطَّمعُ عن شيءٍ ما ـ لبعض الأسباب الموجبة له ـ مالت النَّفس إلى ما تطمع فيه.

ونجدُ المقرَّ بالرُّؤية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ شديد الحنين إليه عظيم النُّزوع نحوها، لا يقنع بدرجةٍ دونها، لأنَّه يطمع فيها، ونجد المنكر لها لا تحنُّ نفسه إلى ذلك، ولا يتمنَّاه أصلًا؛ لأنَّه لا يطمع فيه، ونجده يقتصر على الرِّضى والحلول في دار الكرامة فقط، لأنه لا تطمع نفسه في أكثرَ.

ونجدُ المُسْتَحِلَّ لنكاح القرائب لا يقنع منهنَّ بما يقنع المُحَرِّم لذلك، ولا تقف محبَّته حيث تقف محبَّة من لا يطمع في ذلك. فنجد من يستحلُّ نكاحَ ابنته، وابنة أخيه ـ كالمجوس واليهود ـ لا يقف من محبتهما حيثُ

---

(١) في المطبوع: لَيستكثر، بفتح اللام، وهو خطأ مطبعي.

يقف المسلم، بل نجدُهما يتعشَّقان الابنة وابنة الأخ كتَعَشُّقِ المسلم من يَطْمع في مخالطته بالجماع، ولا نجد مسلمًا يَبْلُغُ ذلك فيهما، ولو أنَّهما أجمل من الشَّمس، وكان هو أعْهَرَ النَّاس وأغزَلهم، فإنْ وُجِدَ ذلك في النُّدرة فلا تجده إلا من فاسد الدِّين، قد زال عنه ذلك الرَّادع، فانْفَسَحَ له الأملُ، وانفتحَ له بابُ الطَّمع.

ولا يُؤْمَنُ من المسلم أن تفرط محبَّته لابنة عمِّه حتَّى تصير عشقًا، وحتى تتجاوز محبته لها محبته لابنته، وابنة أخيه، وإن كانتا أجملَ منها، لأنَّه يطمع من الوصول إلى ابنة عمِّه حيث لا يطمع من الوصول إلى ابنته وابنة أخيه.

ونجد النَّصرانيَّ قد أمِنَ ذلك من نفسه في ابنة عمِّه ـ أيضًا ـ لأنه لا يطمع منها في ذلك، ولا يأمَنُ ذلك من نفسه في أخته من الرَّضاعة؛ لأنَّه طامع بها في شَرِيعَتِهِ.

فَلاحَ بهذا عيانًا ما ذكرنا من أنَّ المحبة ـ كلَّها[1] ـ جنسٌ واحدٌ، لكنَّها تختلف أنواعُها على قدر اختلاف الأغراض فيها، وإلا فطبائع البشر ـ كلِّهم ـ واحدةٌ، إلا أنَّ للعادة والاعتقاد الدِّيني تأثيرًا ظاهرًا»[2].

قلت: هذا التفصيل أكثر واقعيَّة، وأوفق بطريقة ابن حزم ومذهبه، فقد انتقل فيه من نظرية الاتصال بين النفوس؛ إلى الرغبة الذاتية المتمثلة في تحقيق دواعي الطَّمع، وهذا قد يكون معنويًّا؛ مثل محبة الله تعالى

---

(١) في المطبوع: كلُّها، بالرفع، وهو خطأ مطبعي.

(٢) «الأخلاق والسِّير» ص: ١٢٩ ـ ١٣٢ (الفقرات: ١٢٢ ـ ١٢٤)، تحقيق: إيفا رياض، وبمراجعتي وتعليقي، دار ابن حزم، بيروت: ١٤٢١هـ.

وفيه، وقد يكون حسيًّا؛ مثل المحبة لذات الفراش، فغياب نظرية الاتصال بين النفوس لا يعني أن «التلاحم الجسدي» قد حلَّ محلها؛ خلافًا لما ذهب إليه بعض الباحثين[1]، كما أنه لا يلزم منه إلغاء المعنى الصحيح المقتضي لاتصال النفوس؛ على النحو الذي أشرت إليه، ونقلت كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في شرحه.



٢ ـ الحب بين الاضطرار والاختيار

ذهب ابن حزم إلى أن الحبَّ: «ليس بمنكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة؛ إذ القلوب بيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ»[2]، وأنكر على من يكتم حبَّه تصاونًا عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة، فيفر منها ويتفادى، فقال: «وما هذا الوجه بصحيح، فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ التي يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن، وتمكن الحبِّ فطبع لا يؤمر به، ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقلِّبها. ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين، وأما المحبة فخِلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة»[3].

والذي يفهم من هذين النصين الصريحين؛ أنه يذهب إلى أن الحب اضطراري، حتَّى أنه قد أخرجه عن دائرة (حركات الجوارح المكتسبة)!

---

(١) انظر: د.إحسان عبَّاس: «رسائل ابن حزم الأندلسي» ٦٢/١.
(٢) (١ ـ المقدمة: الكلام في ماهية الحب).
(٣) (١٢ ـ باب: طيِّ السرِّ).

لكن ما أن يتأمل المرء عباراته وآراءه في مواضع شتَّى من الكتاب؛ حتى يتَّضح له أن ابن حزم يرى ـ من الناحية العملية ـ أن الحبَّ كسب محض؛ له مقدماته وأسبابه، فهو ينكر الحبَّ من نظرة واحدة، ويتعجب ممن يدعيه، ولا يكاد يصدِّقه، بل لا يعد حبَّه إلا ضربًا من الشهوة، ويخبر عن نفسه أنه ما لصق بأحشائه حبٌّ قطُّ إلا مع الزَّمن الطَّويل[1]، . . . ويعترف أن تمكُّن العشق، وغلبته على عقل وفكر من ابتلي به: «إنَّما يتولَّد عن إدمان الفكر، فإذا غلبت الفكرة، وتمكَّن الخلط، وترك التداوي؛ خرج الأمر عن حدِّ الحب إلى حد الوله والجنون، وإذا أغفل التداوي في أوائل المعاناة قوي جدًّا، ولم يوجد له دواء سوى الوصال»[2]، لهذا فإن بإمكان المرء أن يتَّقي أسباب التورط في هوى يتمكن من قلبه، ويورده المهالك، وقد أورد نموذجين للتطبيق العملي لهذا، الأول لمجهول ـ ولعله أراد به نفسه! ـ، والثاني من تجربته الشخصية:

«ولقد رأيت من أهل هذه الصفة (يعني: الذين لا يحبُّون إلا مع المطاولة) مَن إنْ أحسَّ من نفسه بابتداء هوى، أو توجَّس من استحسانه ميلًا إلى بعض الصور؛ استعمل الهجر وترك الإلمام؛ لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده، ويحال بين العَير والنزوان»[3].

«ولقد ضمَّني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي مشهورة بالصلاح والخير والحزم، ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي ضمَّتها معي النشأة في الصِّبا، ثم غبت عنها أعوامًا كثيرة،

---

(١) (٦ ـ باب من لا يحب إلا مع المطاولة).
(٢) (٢٦ ـ باب الضنى).
(٣) (٦ ـ باب من لا يحب إلا مع المطاولة).

وكنت تركتها حين أعصرت، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشَّبابِ ففاض وانساب، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيَّرت، . . . . . وكانت من أهل بيت صباحة، وقد ظهرت منها صورة تعجز الوصاف. . . فبت عندها ثلاث ليال متوالية، ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية، فلعمري! لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى، ويعاوده مَنْسِيُّ الغزَل. ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفًا على لبي أن يزدهيه الاستحسان، ولقد كانت ـ هي وجميع أهلها ـ مِمَّن لا تتعدى الأطماع إليهن، ولكن الشيطان غير مأمول الغوائل»[1].

وهكذا يظهر اضطراب ابن حزم في هذه المسألة، والسبب في ذلك يرجع ـ فيما يظهر لي ـ إلى عدم عنايته بتحرير الجانب النظري والنظر إلى توافقه مع الجانب العملي.

وهذه المسألة تحتاج إلى تفصيل؛ فإن الحب قد يكون اضطرارًا، وقد يكون اختيارًا.

أما الاضطرار فأن يكون من نظرة فُجَاءة، فلا يلام من نَظَرَ نظرة فجأة ثم صرف بصره وقد تمكَّن العشق من قلبه بغير اختياره، على أن عليه مدافعته وصرفه عن قلبه بضدِّه[2]. أو أن يكون نتيجة أسباب اختيارية؛ فإن كانت مشروعة كنظره إلى من يريد خطبته، أو من اتصل بها بطريق مشروعة من زواج أو نحوه؛ فهذا لا يذمُّ ولا يلام صاحبه، كما وقع في قصَّة مُغِيثٍ بعد أن فارق زوجه بَرِيرَةَ، فجعلَ يطوف خلفها، يَبكي ودموعه تسيل

---

(١) (٢٩ ـ باب قبح المعصية).

(٢) «روضة المحبين»: ١٠٦.

على لحيته، فقال النبيُّ ﷺ لعباسٍ: «**يَا عَبَّاسُ أَلا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا**» فقال النبي ﷺ: «**لَوْ رَاجَعْتِهِ**». قالتْ: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «**إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ**» قالتْ: لا حاجة لي فيه[1].

وإنما يلحقه الذم إن كان ارتكب أسبابًا ومقدمات اختيارية داخلة تحت التكليف ممَّا لم يأذن الشارع به، ولا يعذر بدخوله ـ بتلك الأسباب ـ في حال الحب أو العشق الاضطراري الغالب عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية النُّميري ـ رحمه الله ـ: «فأما إذا ابتلي بالعشق وعفَّ وصبر؛ فإنَّه يثاب على تقواه الله، وقد رُوي في الحديث أنَّ: «**مَن عَشِقَ فعفَّ، وكتم، وصبر، ثمَّ مات كان شهيدًا**»، وهو معروف من رواية يحيى القتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعًا، وفيه نظر، ولا يحتج بهذا. لكنْ مِن المعلوم بأدلة الشَّرع أنه إذا عفَّ عن المحرمات نظرًا، وقولًا، وعملًا، وكتم ذلك فلم يتكلَّم به حتَّى لا يكون في ذلك كلام محرَّم؛ إما شكوى إلى المخلوق، وإما إظهار فاحشة، وإما نوع طلبٍ للمعشوق، وصَبَرَ على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما في قلبه مِنْ أَلَمِ العشق؛ كما يَصبر المصاب على ألم المصيبة؛ فإنَّ هذا يكون ممَّن اتَّقى الله وصبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]»[2].

قلت: الأثر الذي ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ؛ سيذكره ابن حزم (٢٨ ـ باب الموت)، وسيأتي تخريجه هناك، وبيان أن ابن القيم قد ذهب إلى بطلانه سندًا ومتنًا.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٨٣).

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ١٠/١٣٣.

وكلام شيخ الإسلام فيه تصحيح معناه بالتفصيل الذي ذكره.

وقد ذهب ابن القيم إلى أنَّ: «مبادىء العشق وأسبابه اختيارية داخلة تحت التكليف»؛ هكذا أطلق القول، وقال: «فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختياري، فإذا أتى بالأسباب كان ترتُّب المسبَّب عليها بغير اختياره». ثم ذكر الحبَّ من نظرة الفُجاءة، وعدَّه من الحب الاختياري الذي لا يلام صاحبه عليه. ويظهر لي أن هذه الصورة ينطبق عليها حكم الاضطرار، والله أعلم.



٣ ـ مخالفات شرعية بين الحكاية والإقرار

لا شك أن موضوع أي كتاب؛ هو الذي يحدِّد طبيعة محتواه. وعندما يتصدَّى المؤلِّف للكتابة عن الحب وما هو في سبيله، ويرصد ظواهره الإنسانية والاجتماعية؛ يجد نفسه مضطرًّا إلى الإخبار عنها بعُجَرِهَا وبُجَرِهَا؛ فتلك هي مادته، وليس بإمكانه أن يلغيها أو يختزلها؛ إلا ما كان منكرًا وفحشًا ظاهرًا ممَّا لا ينبغي حكايته، ولا يجوز التَّساهل في روايته.

على هذا الأساس أفهم صنيع الإمام ابن حزم ـ رحمه الله ـ في هذا الكتاب، وليس هو بدعًا في ذلك، بل هذا صنيع كثير من أئمة العلم والهدى، أهل الدِّيانة والتقوى؛ ممَّن ألَّفوا في فنون الأدب والتاريخ والنَّوادر والأخبار.

وفي إطار موضوع هذا الكتاب؛ صنيع الإمام الفقيه ابن قيم الجوزية

الحنبلي (٧٥١هـ)؛ في كتابه: «روضة المحبين ونزهة المشتاقين»، وقد كان أكثر تساهلًا من ابن حزم في إيراد بعض الأخبار، ممَّا قد يستنكره كثير من متنسكة زماننا[1].

ورأيتُ الإمامَ ابن الجوزي البغدادي (٥٩٧هـ) ـ وهو فقيه حنبلي أيضًا ـ لمَّا استجاب لشكوى بعض من ابتلي بالعشق، فألَّف له كتاب: «ذم الهوى»؛ قدَّم بين يدي الكتاب اعتذارًا عمَّا سيورده فيه من الحكايات والأخبار، فقال:

«واعلم! أنِّي قد نزلتُ لأجلكَ في هذا الكتاب عن يفاع الوقار، إلى حضيض الترخُّص فيما أورد، اجتذابًا لسلامتك، واجتلابًا لعافيتك، وقد مددت فيه النَّفس بعض المدِّ، لأنَّ مثلك مفتقرٌ إلى ما يلهيه من الأسمار، عن الفكر فيما هو بصدده من الأخطار، فليكن هذا الكتاب سميرَكَ، واستعمال ما آمرك به فيه شغلك. . . .».

وقد سبق ابنُ حزم إلى هذا المعنى، فاعتذر بأمور:

١ ـ طلب أحد أصدقائه منه تصنيف الكتاب، وإلحاحه عليه في ذلك: «ولولا الإيجاب لك لما تكلَّفته، فهذا من العفو، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب، وحسن المآب».

٢ ـ أن في هذا استجمامًا وترويحًا للنفس، بما يدفع الممل عنها، ويعينها على الحق. واستدل لهذا ببعض الآثار.

---

(١) انظر فيه، على سبيل المثال: (ص: ٥٩، ٦٣، ١٥٤، ١٧٠ ـ ط: دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٥هـ).

٣ ـ أنه على وجه التَّرخُّص، فإنَّه: «إن لم يكن من اللَّغو الذي لا يؤاخذ به المرء، فهو ـ إن شاء الله ـ من اللَّمَمِ المعفوِّ، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب، وعلى كل حال؛ فليس من الكبائر التي ورد النَّصُّ فيها».

ومع أن ابن حزم قد التزم الواقعية في تأليفه، واستطرد في وصف الحب: «على سبيل الحقيقة، لا متزيدًا ولا متفننًا، لكن موردًا لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه...»؛ فإنه كان أديبًا مُنْتَقِيًا فيما يورده، يتجنَّب ما يخدش الحياء، وينافي الفضيلة، وتمجه الأذواق السليمة، فإن اضطر إلى إيراد شيء من ذلك؛ علَّق عليه بما فيه زجر وتنبيه، مثل حكاية الجارية التي كانت تحب فتى، فبدرت إليه، وقبلته في فمه؛ قال: «وإن هذا لمن مصائد إبليس، ودواعي الهوى؛ التي لا يقف لها أحد إلا من عصمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ»[1].

أما ما لم يعقب عليه من المسائل والأخبار؛ فعذره في ذلك ما قدمناه، فيكون حكمه فيه أنَّه حاكٍ وليس بمقرٍّ، وفرق بين الأمرين كبير، والمرجع في ذلك فقه الرجل وعلمه وتديُّنه، وما يجب على كل مسلم في مثله من أئمة العلم من حسن الظنِّ، وحمل كلامه على أحسن الوجوه.

وهذا موضع الإشارة إلى بعض تلك المسائل والأخبار، فإني لم ألتزم التعليق عليها في مواضعها من الكتاب، بل رأيت أن أكتفي بما أورده هنا، فأقول:

---

(١) (٢٠ ـ باب الوصل).

١ ـ التصاوير:

ذكر تصاوير الحَمَّام دون إنكار[١]. وقد علَّقت على هذا الموضع، وبيَّنت أنه ـ رحمه الله ـ قد نصَّ على تحريم التصاوير في كتابه: «المحلى».

٢ ـ في الأشعار:

يتوسَّع فيها كثيرًا في الإخبار عن نفسه، فليتذكر القارىء قاعدته في ذلك ـ التي ذكرها في: «المقدمة»: «وسأورد في رسالتي هذه أشعارًا قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ـ ومَنْ رَآهَا ـ عليَّ أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلِّين بقول الشِّعر....».

ويرد في بعض الأبيات ما هو من جنس سبِّ الدَّهر[٢].

وسبُّ الدَّهر محرَّم شرعًا، قبيح عقلًا، وقد جاء النَّصُّ الصريح بالدلالة على الأمرين:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قالَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: يُؤْذِيني ابنُ آدم يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأنا الدَّهرُ، بيدي الأمرُ، أقلِّبُ الليلَ والنَّهارَ**»[٣].

وقد بيَّن العلماء أنَّ سبَّ الدَّهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحضَ دون اللَّوم؛ فهذا جائز، مثل أن

(١) (٣ ـ باب: علامات الحبِّ).
(٢) انظر مثلًا: (٢١ ـ باب الهجر).
(٣) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦)؛ وغيرهما.

يقول: تعبنا من حرِّ هذا اليوم أو برده، وما أشبه ذلك. لأنَّ الأعمال بالنِّيات، ومثل هذا اللَّفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

الثاني: أن يسبَّ الدَّهر على أنَّه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبِّه الدَّهر؛ أنَّ الدَّهر هو الذي يقلِّب الأمور إلى الخير والشَّر. فهذا شرك أكبر، لأنه اعتقد أنَّ مع الله خالقًا؛ لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكلُّ من اعتقد أن مع الله خالقًا؛ فهو كافر، كما أن من اعتقد أن مع الله إلٰهًا يستحق أن يعبد؛ فإنه كافر.

الثالث: أن يسبَّ الدَّهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبُّه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده، فهذا محرَّم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السَّفه في العقل، والضَّلال في الدِّين، لأن حقيقة سبِّه تعود إلى الله ـ سبحانه ـ، لأن الله ـ تعالى ـ هو الذي يصرف الدهر، ويكون فيه ما أراد من خيرٍ أو شر، فليس الدهر فاعلًا. وليس هذا السَّابُّ يَكْفُرُ؛ لأنَّه لم يسبَّ الله ـ تعالى ـ مباشرةً[١].

قلت: فما يقع في كلام المسلمين من الشعراء والأدباء وغيرهم مما هو من جنس سبِّ الدَّهر لا يخلو أن يكون من القسم الأول أو الثالث، ولا يكون من القسم الثاني؛ لمخالفته العقيدة الإسلامية مخالفة صريحة لا تخفى على أهل الإسلام والسنَّة.

فإن أمكن حمله على الأول زال الحرج إن شاء الله، وإن ظهر أنه من الثالث فهو محرَّم ومذموم.

---

(١) العلامة محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ: «القول المفيد على كتاب التوحيد» ١٥١/٢.

وقد وقع في كلامهم الأمران معًا، لكن يجب إحسان الظَّنِّ بالمسلمين، خاصَّة بأهل العلم والدين منهم.

وقد وقفت للإمام الحجَّة أبي عمر بن عبد البَرِّ ـ شيخ ابن حزم وصاحبه؛ رحمهما الله ـ على كلام نفيس في توجيه ذلك؛ قال ـ رحمه الله ـ في شرحه للحديث المتقدِّم: «والمعنى فيه أن أهل الجاهلية كانوا يذمُّون الدهر في أشعارهم وأخبارهم، ويضيفون إليه كل ما يصنعه الله بهم، وقد حكى الله عنهم قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ فنهى الله عن قولهم ذلك، ونهى رسول الله ﷺ عنه أيضًا بقوله: «**لا تسبوا الدهر**» يعني: لأنكم إذا سببتموه وذممتموه لما يصيبكم فيه من المحن والآفات والمصائب؛ وقع السب والذمُّ على الله، لأنه الفاعل ذلك وحده لا شريك له. وهذا ما لا يسع أحدًا جهله، والوقوف على معناه، لما يتعلق به الدَّهرية أهل التعطيل والإلحاد، وقد نطق القرآن وصحَّت السنة بما ذكرنا، وذلك أن العرب كان من شأنها ذم الدهر عندما ينزل بها من المكاره، فيقولون: أصابتنا قوارع الدهر، وأبادنا الدهر، وأتى علينا الدهر. ألا ترى إلى قول شاعرهم[1]:

رَمَتْني بناتُ الدَّهر مِنْ حيثُ لا أرى ... فكيفَ بمَنْ يُرمى وليسَ بِرَام

فلَوْ أنَّها نَبْلٌ إذًا لاتَّقَيْتُها ... ولكنَّنِي أرْمَى بِغَيْرِ سِهام

فأفْنَى وما أفْنَيْتُ للدَّهْرِ ليلةً ... ولم يُغْنِ ما أفنيتُ سِلْكَ نِظَام

وقال أبو العتاهية[2] ـ فذكر الزَّمان والدَّهر؛ وهما سواء، ومراده في

(١) هو: عمرو بن قميئة، شاعر جاهلي.

(٢) إسماعيل بن القاسم العيني (٢١١هـ).

ذلك ـ كلّه ـ ما يُحْدِثُ اللَّهُ من العِبَرِ فيها لمن اعتبر ـ:

إنَّ الزَّمانَ إذا رَمَى لَمُصِيبُ ... والعُود مِنْهُ إذا عُجِمَتْ صَلِيبُ
إنَّ الزَّمانَ لأهْلِهِ لَمُؤَدِّبٌ ... لَوْ كانَ يَنْفَعُ فيهم التَّأديبُ
كيفَ اغْتَرَرْتَ بصَرْفِ دَهْرِكَ يا أخي ... كيفَ اغتررتَ به وأنتَ لَبِيبُ
ولقدْ رأيتُكَ للزَّمانِ مُجَرِّبًا ... لو كانَ يَحْكُمُ رأيَكَ التَّجْرِيبُ

وهذا المعنى في شِعْره كثير جدًّا...».

وأورد نماذج أخرى لغير واحد من الشُّعراء، ثمَّ قال: «وأشعارهم في هذا أكثر من أن تحصى، خرجت كلُّها على المجاز، والاستعارة، والمعروف من مذاهب العرب في كلامها؛ أنهم يسمون الشيء ويعبرون عنه بما يقرب منه، وبما هو فيه، فكأنهم أرادوا ما ينزل بهم في الليل والنهار من مصائب الأيام؛ فجاء النهي عن ذلك، تنزيهًا لله لأنه الفاعل ذلك بهم في الحقيقة، وجرى ذلك على الألسنة في الإسلام وهم لا يريدون ذلك، ألا ترى أن المسلمين الخيار الفضلاء قد استعملوا ذلك في أشعارهم؛ على دينهم وإيمانهم، جريًا في ذلك على عادتهم، وعلمًا بالمراد، وأن ذلك مفهوم معلوم، لا يشكل على ذي لبٍّ...»؛ ثمَّ أورد نماذج أخرى، وقال: «والأشعار في هذا لا يحاط بها كثرة، وفيما لوَّحنا به منها كفاية، والحمد لله»[1].

٣ ـ في الاختلاط المحرَّم بين الرجال والنساء:

وهذا يقع في أوساط كثير من الرؤساء والأغنياء، وفي أوساط بعض

---

(١) ابن عبد البر: «التمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد» ١٥٤/١٨ ـ ١٦١.

العامة الذين جمعوا مع الجهل رقَّة الدين، وابن حزم لا يقرُّه، وحكمه واضح، وقد نبَّه إلى خطورته في (باب قبح المعصية).

وعندما أورد حكاية دخوله على بعض معارفه ومعها جارية لم تحجب عنه، بيَّن سبب عدم احتجابها عنه بقوله: «على جاري العادة في التربية»[1].

قلت: تلك عادة جاهلية، وقد وجدت في المجتمعات الإسلامية، واشتد أمرها في العصور المتأخرة، والله المستعان.

٤ ـ النظر إلى الأجنبية:

وقوع النظر إلى الأجنبية في مواضع كثيرة في الكتاب، وحكمه واضح أيضًا، وقد اكتفى ابن حزم ببيانه في (باب قبح المعصية)، مصرِّحًا بأنَّ النظرة الأُولىٰ لك والثانية عليك.

وقال في: «المحلَّى»[2] عند كلامه على مسألة نظر الخاطب: «... قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النُّور: ٣٠]؛ فافترض الله ـ عزَّ وجلَّ ـ غضَّ البصر جملةً، كما افترض حفظ الفرج، فهو عموم لا يجوز أن يُخَصَّ منه إلا ما خصَّه نصٌّ صحيح، وقد خصَّ النَّصُّ نظر من أراد الزواج فقط، ... وأما الوجه والكفَّان: فقد جاء فيهما الخبر المشهور الذي أوردناه في غير هذا المكان من أمر الخَثْعَمِيَّةِ التي سألت رسول الله ﷺ عن الحجِّ عن أبيها، وأن

---

(١) (**٢٩** ـ باب قبح المعصية).

(٢) المسألة: (**١٨٧٣**).

الفضل بن العباس جعل ينظر إلى وجهها، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل عنها، ولم يأمرها بستر وجهها[1]. ففي هذا إباحة النظر إلى وجه المرأة لغير اللذة...».

قلت: فمذهبه تحريم النَّظر إلى الأجنبية، ويجب عليها ستر جميع بدنها عدا الوجه والكفين، وما جازَ كشفه جاز النَّظَرُ إليه (لغير اللَّذَّة).

والخلاف في هذه المسألة، أعني: وجوب ستر الوجه والكفين معروف ـ قديمًا وحديثًا ـ، والقَيْدُ الذي أورده ابن حزم، وهو أن لا تكون النَّظرة نظرة لذَّةٍ ـ أي: شهوة ـ؛ في غاية الأهمية، وقد نصَّ عليه كثير من الفقهاء الذين ذهبوا إلى القول بجواز كشف المرأة وجهها.

فإذا تبيَّن هذا؛ بطل القول بأنَّ ابن حزم قد أباح النَّظر إلى الأجنبية مطلقًا، فكيف إذا انضاف إليه عشقها، وأيُّ لذَّة أعظم عند العاشق من النَّظر إلى وجه معشوقه!

٥ ـ الغناء والمعازف:

مذهب ابن حزم في إباحة الغناء مع آلات الموسيقى والطَّرب مشهور، وإنما أدَّاه اجتهاده إلى ذلك لظنِّه عدم صحَّة الأحاديث الواردة في تحريم المعازف، فقد درسها ـ سندًا ومتنًا ـ ثم خلص إلى القول أنه: «لا يصح في هذا الباب شيء أبدًا، وكل ما فيه فموضوع»[2]!

هذا هو عذر ابن حزم فيما ذهب إليه، والظنُّ بمثله أنه لو صحَّ

(١) الحديث عند: البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤)؛ وغيرهما.

(٢) «المحلى بالآثار» (المسألة: ١٥٦٦).

الحديث عنده لما تردد في الأخذ به؛ كما هو منهجه في اتباع النَّصِّ، وقد أقسم على ذلك في خصوص هذه المسألة؛ فقال ـ بعد كلامه المتقدِّم ـ: **«ووالله! لو أُسْنِدَ جميعه ـ أو واحد منه فأكثر ـ من طريق الثّقات إلى رسول الله ﷺ؛ لما تردَّدنا في الأخذ به».**

قلت: هذه طريقة نجدها عند كبار أئمة الدين في غير ما مسألة ممَّا لم تثبت عندهم صحة حديثها؛ فيعلِّقون الحكم فيها على ثبوته، تأكيدًا على مبدأ الاتباع وتعظيم السنة.

وقد صحَّت في تحريم المعازف وآلات الطرب أحاديث، ليس هذا موضع ذكرها؛ لكني أحيل القارىء في هذه المسألة المهمة إلى البحوث العلمية الإيمانية القيمة التي أوردها الإمام الحجة ابن قيم الجوزية (**٧٥١**هـ) ـ رحمه الله ـ في كتابه: «إغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان»؛ في تحريم السماع الشيطاني وبيان مفاسده وشروره، وكتاب العلامة محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى سنة: **١٤٢٠**هـ) ـ رحمه الله ـ: «تحريم آلات الطَّرب، والرد على ابن حزم ومقلديه»؛ وهو كتاب فريد في بابه.

وقد كثر ـ في زماننا هذا ـ المقلِّدون لابن حزمٍ في هذه المسألة؛ لا لدليلٍ أوجبَ ترجيح قوله، إنما اتباعًا لِزَلَّتِهِ وخطئه؛ لهوىً غلب على النُّفوس فاستحسن لها تتبع الرُّخص وزلات العلماء، وقد قال شيخ الإسلام سليمان بن طَرخان التَّيمي (**١٤٣**هـ) ـ رحمه الله ـ: لو أخذتَ برُخْصَةِ ـ أو زَلَّةِ ـ كلِّ عالمٍ اجتمع فيك الشَّرُّ كلُّه[1]!

---

(١) رواه أبو نُعيم في: «حلية الأولياء» **٣٢/٣**، وابن حزم في: «الإحكام» **٣٣١/٦** ط: دار الكتب العلمية. وذكره الحافظ المزِّي في: «تهذيب الكمال» **١١/١٢**، والذهبي في: «سير أعلام النبلاء» **١٩٨/٦**.

وقد سمعنا من بعض من ينتسب إلى العلم يُفتي (مطربةً) تابتْ ورجعتْ إلى ربِّها ـ وقد استفتته في حكم الغناء ـ: بالاستمرار في مجال (الفنِّ والإبداع)! زاعمًا أنه لم يجد آيةً من كتاب الله تعالى، ولا حديثًا صحيحًا عن رسول الله ﷺ؛ في تحريم الغناء، ثم أضاف إلى ذلك الزَّعم بأنّه: «مقلِّدٌ في ذلكَ لابن حزمٍ»!

قلت: معاذ الله أن يكون ابن حزم ممَّن يبيح للمرأة المسلمة أن تفتن الرجال بصوتها وغنائها؛ وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فكيف بـ (الفنِّ الغنائي) الذي يذهب بالعقول بما يصاحبه من موسيقى آلاتٍ سُخِّرتْ لها أرقى ما توصَّلتْ إليه التقنية الحديثة في مجال المؤثرات الصوتية والنفسية!!

على أنني لا أجدني في حاجة لأن أكون في موقف الدِّفاع عن الإمام أبي محمد بن حزم ـ رحمه الله ـ؛ فها هو يدافع عن دينه وعلمه، ويفضح هذا التدليس القبيح في التستُّر بفتواه؛ فيقول ـ وهو في صدد شرح الأسباب التي تسهِّل الفاحشة، وتؤدِّي إلى الهلاك والتَّلف ـ:

«... ولهذا حُرِّمَ على المُسْلِم الالْتِذَاذُ بسماعِ نغمَةِ امرأةٍ أجنبيَّةٍ، ...»[1].

قلت: هذا النَّصُّ في غاية الأهمية، فالقيد فيه كفيل بإبطال تلبيسات أهل الأهواء! والحمد لله على فضله، نسأله الثبات على دينه وأمره.



(١) «طوق الحمامة» (٢٩ ـ باب قبح المعصية).

٤ ـ علاج الحبِّ بين الإمام ابن حزم وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ

هناك نقاط التقاء كثيرة بين الإمامين: ابن حزم وابن تيمية، لعل أهمَّها التجرُّد للحقِّ، ونصرة السُّنَّة، والعناية بالحديث. على أنَّ بينهما نقاط افتراق كثيرة جدًا؛ لست هنا بصدد شرحها، ولكني أشير إلى ما يتعلق منها بهذا المبحث خلال عرضه:

ختم ابن حزم كتابه بفصلين لعلاج العشق شرعًا؛ الأول: في قبح المعصية، والثاني: في فضل التَّعفف. وأراد بذلك أن يكون آخر كلامه في: «الحضِّ على طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك مفترض على كلِّ مؤمنٍ» كما ذكر في: «المقدمة».

وتظهر لنا من خلال الفصلين صورة ابن حزم الواعظ المربِّي؛ بكلماته المؤثرة، وخطابه الصَّادق، وتفننه في إيراد ألوان الترغيب والترهيب. وهما من أنفس ما كتبه، وأعمقه تأثيرًا في نفس قارئه، ومع هذا فإننا نجد الخطاب العقلي غالبًا على وعظه، يزاحمه حتى في ذاته فيكاد أن يقلبه عن صورته الحقيقية؛ إلى لون خاص من ألوان الخطاب العقلي الذي يراد به الوعظ!

وهذه (ظاهرة) عند ابن حزم ترجع إلى منهجه (الظَّاهري)!

يمكنني أن أزعم ـ في ضوء قراءاتي ودراساتي للمذهب الظَّاهري ـ أنَّ الظَّاهرية ليست مذهبًا فقهيًا حسب؛ بل هي طريقة في التفكير؛ قد ارتضاها أصحابها لأنفسهم، لا لجمودهم وحرفيتهم، ولا لضيق نظرهم

وتفكيرهم، وإنما لبراهين عقلية تقرَّرت عندهم، وترجَّحت لديهم؛ بشواهد من الكتاب والسنة!

فالظاهرية تخفي وراءها نزعة عقلية؛ يمكن رصد بعض أبعادها من خلال ملاحظة عوامل التكوين الفكرية والعلمية لأئمتها، ودراسةِ تراثهم المتميز بالأصالة والتنوع والإبداع.

فلا عجب أن نرى مؤسس المذهب الإمامَ أبا سليمان داود بن علي الأصبهانيَّ (**٢٧٠هـ**)؛ يخوض في مسألة القرآن، ويقول فيه أبو العبَّاس ثعْلَب: كان داود بن علي عقله أكبرُ من علمه[١]. وهذا ابنه وحامل لواء مذهبه من بعده: أبو بكر محمد بن داود (**٢٩٧هـ**)؛ كان فقيهًا أديبًا شاعرًا ظريفًا، أحد من يُضرب المثل بذكائه[٢]. ولا عجب ـ أيضًا ـ أن نجد قاضي الجماعة بقرطبة منذر بن سعيد البلُّوطي (**٣٥٥هـ**)[٣] قد جمع بين الاعتزال في العقيدة، والظَّاهرية في الفقه! أمَّا أبو محمد بن حزم؛ فصِلَتُه بالمنطق والفلسفة معروف؛ رحم الله ـ تعالى ـ جميعهم!

من هنا فإنني أستطيع أن أقول: إن ابن حزم كان (ظاهريًا) في فهم الحب، وكان (ظاهريًا) في علاجه ـ أيضًا ـ. وظاهريته في الحالتين (ظاهرية عقلية)، تبطل العلل، وتبتعد عن الجانب المعنوي والروحي.

وإذا كنَّا نلاحظ هذا في الفصلين اللذين أشرت إليها، وفي مواضع أخرى متفرقة من الكتاب، فإننا نقرأه صريحًا واضحًا في كلماته هذه:

(**١**) «سير أعلام النُّبلاء» **١٣/١٠٠**، الترجمة: (**٥٥**).

(**٢**) «السير» **١٣** /الترجمة: (**٥٦**).

(**٣**) ترجمته ومصادرها في: «السير» ١٦/(١٢٧).

«فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ التي يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن، وتمكن الحبِّ فطبع لا يؤمر به، ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقلبها. ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين، وأما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة»[1].

وبهذه (الظاهرية) تعامل أبو بكر الظَّاهري ـ المتقدِّم ذكره ـ مع ما ابتلي به من العشق، في قصَّة مشهورة يجدها القارىء في مصادر ترجمته، ولولا خشية الإطالة لذكرتها.

أمَّا شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيميَّة النُّميري (٧٢٨هـ)؛ فإنه عندما عالج موضوع (الحب) لم يقف عند (ظاهر) ما يجوز وما لا يجوز، بل نفذ إلى أعماق القلوب ليربط تصوراتها وإراداتها؛ بالمعاني الإيمانية العظيمة التي دلَّت عليها نصوص الكتاب والسنَّة، على هدىً من فهم مقاصدها وأسرارها، وإدراكٍ لما يتعلق بتلك التصورات والإرادات من عللٍ وأسبابٍ.

وهو في ذلك ـ كلِّه ـ مستند إلى منهجه (السَّلفي الأثري الحنبلي) في التمسك بالكتاب والسنة وفهم سلف الأمة، وإعمال العقل في إدراك حقائق الشَّرع والقدر، وإثبات العلل والمناسبات والأسباب؛ بربَّانية خاشعة، ورقَّة بالغة، وروحانية صافية، وبصيرة نافذة، وقلب ملؤه الإخلاص والإنابة وصدق التوجُّه إلى الله تعالى، والانكسار بين يديه.

---

(١) (١٢ ـ باب: طيّ السرّ)، وسبق نقله في المبحث الثاني.

وقد أشار العلامة أبو عبد الرحمٰن ابن عقيل الظاهري إلى هذا الفرق بين الإمامين في معالجة العشق، فقال عن تطبيب ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «ولم يَبْلغ شَأْوَ شيخ الإسلام في تطبيبه»[(1)].

والآن فلنذكر نماذج من كلام شيخ الإسلام في أمراض القلوب، وتطبيبه لداء العشق، قال ـ رحمه الله ـ:

«قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ﴾ [الحج: ٥٣]، وقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠]، وقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، ومرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية، فإدراكه إمَّا أن يذهب كالعمى والصمم، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه؛ كما يدرك الحلو مرًّا، وكما يُخَيَّل إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج. وأمَّا فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته عن الهضم، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها، ويحبَّ الأشياء التي تضره

---

(١) «كيف يموت العُشَّاق؟» ص: ١٨٣.

ويحصل له من الآلام بحسب ذلك؛ ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك، بل فيه نوع قوَّة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة، فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن؛ إمَّا بسبب فساد الكمية أو الكيفية. فالأول: إما نقص المادة فيحتاج إلى غذاء، وإما بسبب زيادتها فيحتاج إلى استفراغ. والثاني: كقوة في الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال فيداوى.

وكذلك مرض القلب؛ هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحقَّ النافع، ويحب الباطل الضَّارَّ، فلهذا يُفَسَّرُ المرض تارة بالشكِّ والرَّيب، كما فسَّر مجاهد وقتادة قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]؛ أي: شكٌّ. وتارة يفسر بشهوة الزنا؛ كما فُسِّرَ به قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. ولهذا صنَّف الخرائطيُّ كتاب: «اعتلال القلوب» أي: مرضها، وأراد به مرضها بالشَّهوة.

والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصَّحيح فيضره يسير الحرِّ والبرد والعمل؛ ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض. والمرض في الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القويُّ، والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد، والمرض يقوى بمثل سببه، ويزول بضدِّه، فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه، وزاد ضعف قوته حتى ربما يهلك. وإن حصل له ما يقوي القوة، ويزيل المرض؛ كان بالعكس.

ومرض القلب ألم يحصل في القلب؛ كالغيظ من عدوٍّ استولى عليك فإن ذلك يؤلم القلب. قال الله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوهم من الألم. ويقال: فلان شفَى غيظَهُ. وفي القَوَدِ استشفاء أولياء المقتول، ونحو ذلك. فهذا شفاء من الغمِّ والغيظ والحزن، وكل هذه آلام تحصل في النفس.

وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب قال النبي ﷺ: «**هَلا سألُوا إذا لم يعلموا! فإنَّما شِفَاءُ العِيِّ السُّؤالُ**»[1]، والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب.

والمرض دون الموت، فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل، فله موت ومرض، وحياة وشفاء، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه، فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوَّت مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه. قال تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣]؛ لأن ذلك أورث شبهة عندهم، ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ ليبسها، فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض؛ فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم، وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان فصار فتنة لهم. وقال: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، كما قال: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [المدثر: ٣١]؛ لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين، وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين، بل فيها مرض شبهة وشهوات، وكذلك: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ

---

(١) حديث حسن: أخرجه أبو داود (٣٣٦) عن جابر ـ رضي الله عنه ـ. والعِيُّ: الجهل.

مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ وهو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة؛ لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة، فإنه ـ لضعفه ـ يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، فإذا خضَعْنَ بالقول طمع الذي في قلبه مرض.

والقرآن شفاء لما في الصدور، ومَنْ في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البيِّنات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك؛ بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة؛ ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عمَّا يضره، فيبقى القلب محبًا للرشاد، مبغضًا للغيِّ، بعد أن كان مريدًا للغيِّ مبغضًا للرشاد. فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن؛ بما يزكيه ويؤيده، كما يغتذي البدن بما ينمِّيه ويقومه، فإنَّ زكاة القلب مثل نماء البدن....».

ثم ذكر شيخ الإسلام معنى التزكية لغةً وشرعًا، وحقيقة حياة القلب وصلاحه، ثم ذكر من أمراضه مرض الحسد والبخل، ثمَّ قال ـ رحمه الله ـ:

«وأما مرض الشَّهوة والعشق؛ فهو حبُّ النَّفس لما يضرها، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها. والعشق مرض نفسانيٌّ، وإذا قوي أثَّر في البدن فصار مرضًا في الجسم، إمَّا من أمراض الدِّماغ كالماليخوليا؛ ولهذا قيل فيه: هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا، وإمَّا من أمراض البدن؛ كالضعف والنحول، ونحو ذلك.

والمقصود هنا مرض القلب فإنَّه أصل محبة النَّفس لما يضرُّها كالمريض البَدِنِ الذي يشتهي ما يضره، وإذا لم يطعم ذلك تألَّم، وإن أطعم ذلك قوي به المرض وزاد.

كذلك العاشق يضُرُّه اتصاله بالمعشوق مشاهدةً وملامسةً وسماعًا، بل ويضرُّه التفكُّر فيه والتَّخيُّل له، وهو يشتهي ذلك، فإن منع من مشتهاه تألَّم وتعذَّب، وإن أعطي مشتهاه قويَ مرضه، وكان سببًا لزيادة الألم.

وفي الحديث: «**إنَّ الله يَحْمِي عبدَهُ المؤْمِنَ مِنَ الدُّنيا؛ كما يَحْمِي أحدُكم مريضَه الطَّعامَ والشَّرابَ [تخافون عليه]**»[1]، وفي مناجاة موسى ـ المأثورة عن وهب، التي رواها الإمام أحمد في كتاب «الزهد» ـ: يقول الله تعالى: إني لأذُود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها؛ كما يذود الرَّاعي الشَّفيق إبله عن مراتع الهلكة، وإني لأجنِّبُهم سكونها وعيشها؛ كما يجنِّبُ الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغِرَّة، وما ذلك لِهَوانِهِمْ عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا موفَّرًا لم تَكْلَمْهُ الدُّنيا، ولم يُطْفئه الهوى.

وإنما شفاء المريض بزوال مرضه، بل بزوال ذلك الحبِّ المذموم من قلبه.

والنَّاس في العشق على قولين:

قيل: إنَّه من باب الإرادات، وهذا هو المشهور.

---

(١) صحيح: رواه أحمد ٥/٤٢٧، ٤٢٨، من حديث: محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ، وعنده: «من الدُّنيا، وهو يحبُّه...»، وفي بعض النُّسخ: «وهو يحبُّها..». وأخرجه الترمذي (٢٠٣٦) من حديث محمود بن لبيد، عن قتادة بن النعمان ـ رضي الله عنهما ـ؛ بلفظ: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا؛ كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ**».

وقيل: من باب التَّصورات، وأنه فساد في التَّخييل، حيث يتصوَّر المعشوق على ما هو به، قال هؤلاء: ولهذا لا يوصف الله بالعشق، ولا أنه يعشق؛ لأنه منزَّه عن ذلك، ولا يحمد من يتخيَّل فيه خيالًا فاسدًا.

وأما الأولون فمنهم من قال: يوصف بالعشق فإنه المحبة التَّامة؛ والله يُحِبُّ ويُحَبُّ، وروي في أثرٍ عن عبد الواحد بن زيد أنَّه قال: لا يزال عبدي يتقرب إليَّ يعشقني وأعشقه. وهذا قول بعض الصوفية.

والجمهور لا يطلقون هذا اللَّفظ في حقِّ الله؛ لأن العشق هو المحبَّة المفرطة الزائدة على الحدِّ الذي ينبغي، والله تعالى محبته لا نهاية لها، فليست تنتهي إلى حدٍّ لا تنبغي مجاوزته. قال هؤلاء: والعشق مذموم مطلقًا لا يمدح لا في محبة الخالق ولا المخلوق، لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحدِّ المحمود. وأيضًا: فإن لفظ (العشق) إنما يستعمل في العرف في محبة الإنسان لامرأةٍ أو صبيٍّ، لا يستعمل في محبةٍ كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه، ومحبة الأنبياء والصالحين، وهو مقرون كثيرًا بالفعل المحرَّم: إمَّا بمحبة امرأة أجنبية، أو صبيٍّ، يقترن به النَّظر المحرَّم، واللمس المحرم، وغير ذلك من الأفعال المحرَّمة.

وأما محبة الرجل لامرأته أو سريته محبةً تخرجه عن العدل، بحيث يفعل لأجلها ما لا يحل، ويترك ما يجب ـ كما هو الواقع كثيرًا ـ حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة؛ لمحبَّته الجديدة، وحتى يفعل من مطالبها المذمومة ما يضره في دينه ودنياه، مثل أن يخصَّها بميراثٍ لا تستحقه، أو يعطي أهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله، أو يسرف في الإنفاق عليها، أو يُمَلِّكُها من أمور محرمة تضره في دينه ودنياه؛ وهذا في عشق من يباح له وطؤها، فكيف عشق الأجنبية والذُّكران من العالمين؟!

ففيه من الفساد ما لا يحصيه إلا ربُّ العباد، وهو من الأمراض التي تفسد دين صاحبها وعرضه، ثم قد تفسد عقله ثم جسمه[1].

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: **٣٢**]؛ ومن في قلبه مرض الشَّهوة، وإرادة الصورة؛ متى خضع المطلوب طمع المريض، والطمع الذي يقوي الإرادة والطلب، ويقوي المرض بذلك، بخلاف ما إذا كان آيسًا من المطلوب؛ فإن اليأس يزيل الطَّمع، فتضعف الإرادة فيضعف الحبُّ، فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ما هو آيس منه، فلا يكون مع الإرادة عمل أصلًا، بل يكون حديث نفس إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر، ونحو ذلك، فيأثم بذلك.

فأما إذا ابتلي بالعشق وعفَّ وصبر؛ فإنه يثاب على تقواه الله، وقد روي في الحديث أن «**من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات كان شهيدًا**»، وهو معروف من رواية يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعًا. وفيه نظر، ولا يحتجُّ بهذا؛ لكن من المعلوم بأدلة الشَّرع أنَّه إذا عف عن المحرمات نظرًا وقولًا وعملًا، وكتم ذلك فلم يتكلَّم به حتى لا يكون في ذلك كلام محرَّم؛ إمَّا شكوى إلى المخلوق، وإما إظهار فاحشة، وإما نوع طلب للمعشوق، وصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما في قلبه من ألم العشق، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة؛ فإن هذا يكون ممن

---

(١) فالعشق مذموم مطلقًا، أمَّا (الحبُّ) فإنَّه إن لم يخرج عن حدِّه الطبيعي، ولم يكن سببًا لترك واجب، أو فعل محرَّم؛ فإنه لا يذم، بل يحمد عليه صاحبه؛ إن نوى به الخير، وحمله على ما يرضي الربَّ ـ سبحانه ـ، ألا ترى أن حبَّ الرجل لزوجه؛ يعينه على الاستعفاف، وطهارة القلب، وسكينة النفس، وحبه لولده، وذوي رحمه، وإخوانه وأصحابه؛ يحمله على حسن العشرة، وصلة الرَّحم، والوفاء والصِّدق، وكرم الأخلاق.

اتَّقى الله وصبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠][١].

وهكذا مرض الحسد وغيره من أمراض النفوس.

وإذا كانت النَّفس تطلب ما يبغضه الله، فينهاها خشية من الله؛ كان مِمَّن دخل في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فالنفس إذا أحبت شيئًا سعت في حصوله بما يمكن حتى تسعى في أمور كثيرة، تكون كلها مقامات لتلك الغاية، فمن أحبَّ محبة مذمومة، أو أبغض بغضًا مذمومًا، وفعل ذلك كان آثمًا، مثل أن يبغض شخصًا لحسده له، فيؤذي من له به تعلُّق، إما بمنع حقوقهم، أو بعدوانٍ عليهم. أو لمحبة له لهواه معه، فيفعل لأجله ما هو محرَّم، أو ما هو مأمور به لله، فيفعله لأجل هواه لا لله، وهذه أمراض كثيرة في النفوس.

والإنسان قد يبغض شيئًا فيبغض لأجله أمورًا كثيرةً؛ بمجرَّد الوهم والخيال، وكذلك يحب شيئًا فيحب لأجله أمورًا كثيرة؛ لأجل الوهم والخيال، كما قال شاعرهم:

أحبُّ لِحُبِّها السُّودانَ ... حتَّى أحبُّ لحبِّها سُودَ الكِلابِ

فقد أحبَّ سوداء؛ فأحبَّ جنس السَّواد حتى في الكلاب، وهذا كلُّه مرض في القلب في تصوره وإرادته.

---

(١) هذه الفقرة تقدَّم نقلها والتعليق عليها في المبحث الثاني.

فنسأل الله تعالى أن يعافي قلوبنا من كل داء؛ ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

والقلب إنما خلق لأجل حُبِّ الله تعالى، وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده، كما قال النبيُّ ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفِطْرَةِ، فأبواه يهوِّدانِهِ، أو يُنَصِّرَانِهِ، أو يُمَجِّسَانِهِ؛ كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء**»، ثم يقول أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الرُّوم: ٣٠]. أخرجه البخاريُّ ومسلم.

فالله سبحانه فَطَرَ عباده على محبَّته وعبادته وحده؛ فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفًا بالله، محبًا له، عابدًا له وحده، لكن تفسد فطرته من مرضه، كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وهذه كلُّها تغيِّر فطرته التي فطره عليها، وإن كانت بقضاء الله وقدره ـ كما يغيِّر البدن بالجدع ـ ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسَّر الله ـ تعالى ـ لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة.

والرُّسل ـ صلَّى اللّه عليهم وسلَّم ـ بُعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها.

وإذا كان القلب مُحِبًّا لله وحده مخلصًا له الدِّين؛ لم يُبْتَلَ بِحُبِّ غيره أصلًا، فَضْلًا أن يُبْتَلى بالعشق. وحيث ابتلي بالعشق فلِنَقْصِ محبَّتِهِ لله وَحْده.

ولهذا لَمَّا كان يوسف محبًا لله، مخلصًا له الدِّين، لم يُبْتَلَ بذلك؛ بل قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وأمَّا امرأة العزيز فكانت مشركة ـ هي وقومها ـ؛ فلهذا ابتليت بالعشق، وما يُبْتَلى بالعشق أحدٌ إلا لنَقْص توحيده وإيمانه؛ وإلا فالقلب المنيب إلى الله، الخائف منه، فيه صارفان يصرفانه عن العشق:

أحدهما: إنابته إلى الله، ومحبته له، فإن ذلك ألذُّ وأطيبُ من كل شيء، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوقٍ تزاحمه.

والثاني: خوفه من الله، فإنَّ الخوف المضاد للعشق يصرفه، وكل من أحبَّ شيئًا ـ بعشقٍ أو غير عشق ـ فإنه يصرف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه، إذا كان يزاحمه، وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب.

فإذا كان الله أحبَّ إلى العبد من كل شيء، وأخوف عنده من كل شيء، لم يحصل معه عشق، ولا مزاحمة، إلا عند غفلة، أو عند ضعف هذا الحب والخوف؛ بترك بعض الواجبات، وفعل بعض المحرَّمات، فإن الإيمان يزيد بالطَّاعة، وينقص بالمعصية، فكلَّما فعل العبد الطاعة محبةً لله، وخوفًا منه، وترك المعصية حبًا له، وخوفًا منه؛ قَوِيَ حبُّه له، وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره.

وهكذا أمراض الأبدان: فإن الصِّحَّة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد، فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل، وهو ما يورث القلب إيمانًا من العلم النافع، والعمل الصالح، فتلك أغذية له، كما في حديث ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا: «**إنَّ كلَّ آدِبٍ يُحِبُّ أن تُؤْتَى مَأْدُبَتُهُ، وإنَّ مأدبة الله**

هي **القرآن**»[1]. والآدب: المُضَيِّفُ، فهو ضيافة الله لعباده.

[فصلاحُ قلب من ابتلي بهذا الدَّاء، وشفاؤه؛ بالتَّوبة النَّصوح، وصدق اللُّجوء إلى الله تعالى، والتذلُّل إليه، والانكسار بين يديه، والإكثار من الدعاء، خاصَّة في الأوقات الفاضلة][2]؛ مثل آخر الليل، وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده، وفي إدبار الصَّلوات، ويضم إلى ذلك الاستغفار؛ فإنَّه من استغفر الله ثم تاب إليه متَّعه متاعًا حسنًا إلى أجل مسمىً.

وليتخذ وردًا من الأذكار في النهار، ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصَّوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه.

وليحرص على إكمال الفرائض من الصَّلوات الخمس باطنةً وظاهرةً؛ فإنها عمود الدين.

وليكن هَجِّيراه: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال.

---

(١) رواه إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود. وإبراهيم: ليِّنُ الحديث، عيب عليه رفعه للموقوفات، وقد اضطرب في هذا الحديث، فرواه مرفوعًا ـ أخرجه ابن أبي شيبة في: «المصنَّف» (٣٠٠٠٨)، والحاكم في: «المستدرك» ٥٥٥/١ (٢٠٤٠)، والبيهقي في: «شعب الإيمان» (١٩٣٣)؛ وغيرهم ـ، ورواه موقوفًا ـ أخرجه عبد الرزاق في: «المصنَّف» (٥٩٩٨، ٦٠١٧)، والدَّارمي (٣٣٠٧، ٣٣١٥)، وسعيد بن منصور (٧)؛ وغيرهم ـ؛ قال ابن الجوزي في: «العلل المتناهية» ١٠٩/١: لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، ويُشبه أن يكون من كلام ابن مسعودٍ. قلت: خاصَّة وأن له طرقًا أخرى عنه موقوفًا.

(٢) هنا بياض في الأصل، وزدت ما بين المعقوفتين بما يفهم من السياق.

ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يستجاب له ما لم يَعْجَل؛ فيقول: قد دعوتُ، ودعوتُ؛ فلم يستجب لي!

وليعلم أنَّ النَّصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، ولم ينل أحد شيئًا من ختم الخير ـ نبيٌّ فمن دونه ـ إلا بالصبر. والحمد لله رب العالمين، وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة؛ حمدًا يكافيء نعمه الظاهرة والباطنة، وكما ينبغي لكرم وجهه وعِزِّ جلاله. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ في موضع آخر ـ بعد أن بيَّن حقيقة العبودية لله تعالى، وأن العبد كلما زاد تحقيقًا للعبودية لله ازداد كماله، وعلت درجته، وأن الرقَّ والعبودية في الحقيقة رقُّ القلب وعبوديته، فما استرقَّ القلب واستعبده فهو عبده ـ:

«وكلُّ من علق قلبه بالمخلوقات ـ أن ينصروه، أو يرزقوه، أو أن يهدوه ـ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظَّاهر أميرًا لهم، مدبرًا لهم، متصرفًا بهم. فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظَّواهر.

فالرجل إذا تعلَّق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له؛ يبقى قلبه أسيرًا لها، تحكم فيه، وتتصرَّف بما تريد، وهو في الظَّاهر سيِّدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، لا سيما إذا دَرَتْ بفقره إليها، وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنَّها ـ حينئذٍ ـ تحكم فيه بحكم السيد

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ١٠/١٣٣ ـ ١٣٧.

القاهر الظالم في عبده المقهور؛ الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم. فإنَّ أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من اسْتُعْبِدَ بدَنُه، واسْتُرِقَّ؛ لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا من ذلك، مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. وأمَّا إذا كان القلب ـ الذي هو المَلِكُ ـ رقيقًا، مستعبدًا، مُتَيَّمًا لغير الله؛ فهذا هو الذُّلُّ والأسْرُ المَحْضُ، والعبودية لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسره؛ هي التي يترتب عليها الثَّواب والعقاب، فإنَّ المسلم لو أسره كافرٌ، أو استرقَّه فاجرٌ بغير حقٍّ؛ لم يضرَّه ذلك إذا كان قائمًا بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حقَّ الله، وحق مواليه؛ له أجران، ولو أكره على التَّكلُّم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان؛ لم يضرَّه ذلك، وأما من استعبد قلبه فصار عبدًا لغير الله؛ فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظَّاهر ملك الناس.

فالحُرِّيَّة حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغِنَى غنى النفس. قال النبيُّ ﷺ: **«ليسَ الغِنَى عن كَثْرَةِ العَرَضِ، وإنَّما الغنى غنى النَّفْس»**[1].

وهذا ـ لَعَمْري! ـ إذا كان قد اسْتَعْبَدَ قلبَهُ صورةٌ مباحةٌ، فأمَّا من استعبدَ قلبه صورة محرمة ـ امرأة، أو صبي ـ فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه.

وهؤلاء من أعظم الناس عذابًا، وأقلهم ثوابًا، فإن العاشق لصورةٍ إذا بقي قلبه متعلِّقًا بها، مستعبَدًا لها، اجتمع له من أنواع الشَّرِّ والفساد ما لا

(١) «صحيح مسلم» (١٠٥١).

يحصيه إلا ربُّ العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشدُّ ضررًا عليه مِمَّن يفعل ذنبًا ثم يتوب منه، ويزول أثره من قلبه، وهؤلاء يُشَبَّهون بالسَّكارى والمجانين، كما قيل:

سُكْران: سكرُ هوىً، وسكرُ مدامة ومتى إفاقةُ مَنْ به سُكْرَان

وقيل:

قالوا: جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوى، فقلت لهم: العشقُ أعظم مِمَّا بالمجانينِ
العشقُ لا يَسْتفيقُ الدَّهر صاحبه وإنَّما يُصرع المجنونُ في الحِينِ

ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله، فإنَّ القلب إذا ذاق طعم عبادة الله، والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قطُّ أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوبًا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه، فالحبُّ الفاسد إنَّما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر.

قال تعالى في حقِّ يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالله يصرف عن عبده ما يسوؤُهُ من الميل إلى الصور، والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء؛ بإخلاصه لله. ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله، والإخلاص له؛ تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص، وقوي في قلبه؛ انقهر له هواه بلا علاج. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ فإن الصلاة فيها دفع للمكروه؛ وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب؛ وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة

لذاتها. وأما اندفاع الشَّر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التَّبَعِ.

والقلب خَلْقٌ يحبُّ الحقَّ، ويريده، ويطلبه. فلما عرضت له إرادة الشر؛ طلب دفع ذلك، فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدَّغل، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، فجعل ـ سبحانه ـ غضَّ البصر، وحفظ الفرج؛ هو أزكى للنفس، وبَيَّنَ أن ترك الفواحش من زكاة النفوس. وزكاة النفوس تتضمَّن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب، وغير ذلك...»[(١)].

وبيَّن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن عشق الصُّور آتٍ من فراغ القلب؛ فقال ـ بعد كلام له في اتباع الهوى، وحقيقة المحبة ـ:

«إن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس؛ يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه، ويبقى أسيرَ ما يهواه، يصرفه كيف تصرَّف ذلك المطلوب، ولهذا قال بعض السلف: ما أنا على الشَّاب الناسك بأخوف منِّي عليه من سَبُعٍ ضارٍ يَثِبُ عليه؛ مِنْ صبي حَدَثٍ يجلس إليه. وذلك أن النفس الصافية، التي فيها رقَّةُ الرِّياضة، ولم تنجذب إلى محبة الله وعبادته انجذابًا تامًا، ولا قام بها من خشية الله التامة ما يصرفها عن هواها؛ متى صارت تحت صورة من الصُّور؛ استولت

---

(١) «مجموع الفتاوى»: ١٠/١٨٦ ـ ١٨٩.

تلك الصورة عليها، كما يستولي السَّبُع على ما يفترسه. فالسَّبُع يأخذ فريسته بالقهر، ولا تقدر الفريسة على الامتناع منه، كذلك ما يمثله الإنسان في قلبه من الصُّور المحبوبة، تبتلع قلبه، وتقهره، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه، فيبقى قلبه مستغرقًا في تلك الصُّورة أعظم من استغراق الفريسة في جوف الأسد؛ لأن المحبوب المراد هو غاية النفس، له عليها سلطان قاهر»[1].

قلت: قد أطلت في هذه النُّقول عن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ، وأردت بذلك أن يكون البعض دليلًا على الكلِّ، ومعرِّفًا به، ومشوِّقًا إليه، فمن أراد الاستزادة من هذا الكلام الربَّاني الفريد، والانتفاع بالخطاب المحيي للقلوب، والهادي للعقول، والمزكِّي للنُّفوس؛ فعليه بـ (مجلد علم السلوك) من: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى».



٥ ـ شخصية ابن حزم وأخلاقه

عندما أراد ابن حزم أن يبحث قضية الحبِّ؛ وجد نفسه أمام سيل هائل من الأفكار والمشاعر والذِّكريات، التي تستوعب قضية الحب وتزيد عليها بمعانٍ وأبعادٍ إنسانية وأخلاقية كثيرةٍ وعميقةٍ.

ولم يكن ابن حزم ليهمل تلك المعاني، ولا أن يتجاوز تلك الأبعاد؛ خاصة وإنها جزء لا يتجزأ من شخصيته، وكيانه الفكري والعاطفي.

لهذا وجد نفسه مدفوعًا لتعميق البحث، وتغذيته ببعض تلك المعاني،

---

(١) نفسه: ١٠/٥٩٥ ـ ٦٠٦.

وساعده على ذلك شجاعته الأدبية النادرة؛ التي تتجاوز حدود الحياء المصطنع، وتكسر قيود النسك الأعجميِّ، وتأذن للآخرين أن يطَّلعوا على أفكاره ومشاعره، والجوانب الشخصية الخاصة من حياته.

وشواهد هذا يجده القارىء مبثوثًا في ثنايا الكتاب، حتى أنني أستطيع الزعم بأنَّ هذا الكتاب كما هو كتاب حبٍّ؛ فهو ـ أيضًا ـ كتاب سيرة وذكريات واعترافات شخصية، وهو ـ أيضًا ـ كتاب أخلاق وقيم. لهذا أجدني أكرر ما ذكرته في مقدمة كتابه الآخر: «الأخلاق والسير» من أنَّه يمكن استخراج كثير من الفوائد منه، خاصَّة فيما يتعلَّق بشخصية ابن حزم وحبِّه للحق والعدل والصِّدق، وبغضه الشديد للباطل والظُّلم والكذب. وهذه أصول مهمة يتفرَّع عنها أخلاق وسلوكيات كثيرة فالتَّنبه لها مما يعين على فهم القيم التي ساعدت على تكوين شخصيته، وبالتالي يمكن رصد بعض الأسس التي تدخل في بناء الرجال الكبار[1]!

وإذا تتبَّعنا بعض تلك الجوانب في ثنايا هذا الكتاب؛ فإننا نجد ـ أولًا وقبل كلِّ شيء ـ أن الحبَّ بمفهومه الضَّيق (حب الرجل للمرأة) الذي هو موضوع الكتاب؛ قد اتَّسع ليشمل مطلق المحبَّة والألفة، ويتضَمَّنَ الكلام في الأُخُوَّةِ والصُّحبة والصَّداقة.

والكلام في (الحب من نظرة واحدة)، وفي (الحب مع المطاولة)؛ نقله إلى الكلام في أخلاق النَّفس من الصبر والملل والحنين..

والكلام في (الطَّاعة)؛ قاده إلى تحرير الفرق بينها وبين دناءة النَّفس.

---

(١) «كتاب الأخلاق والسير» ص: ٢٠.

وفي (باب العاذل) ذكر عذل صديق له في أمرٍ ليس هو من جنس الكتاب، لكن له صلة بالصداقة وحقوقها..

وعند ذكر (المساعد من الإخوان) ذكر صفات كثيرة رائعة للصَّديق المخلص، ثم قال: «وأين هذا؟ فإن ظفرت به يداك؛ فشدَّهما عليه شدَّ الضنين، وأمسك بهما إمساك البخيل، وصُنْه بطارفك وتالدك...».

وجعل من تمام ذمِّ (الواشي) بيان التَّنقيل والنَّمائم، فذمَّ الكذب وأهله أعظم ذمٍّ، وعدَّه أصل كلِّ فاحشة، وجامع كل سوء...

ولم يكتف فيه بالجانب العلمي، بل بيَّن موقفه العمليَّ والسُّلوكي؛ فقال:

«وما أحببتُ كذَّابًا قطُّ. وإنِّي لأسامح في إخاء كل ذي عيبٍ؛ وإن كان عظيمًا، وأكل أمره إلى خالقه ـ عزَّ وجلَّ ـ، وآخذ ما ظهر من أخلاقه، حاشا من أعلمه يكذِب، فهو عندي ماحٍ لكلِّ محاسنه، ومعفٍّ على جميع خصاله، ومُذهب كلَّ ما فيه، فما أرجو عنده خيرًا أصلًا... ولا بدأت ـ قطُّ ـ بقطيعة ذي معرفةٍ إلا أن أطَّلع له على الكذب، فحينئذٍ أكون أنا القاصدَ إلى مجانبته، والمتعرِّض لمتاركته،...».

وفي استعارضه لآفات (الهجر)؛ ذمَّ (الملل) وشرح آثاره القبيحة.

وعند كلامه عن (الوفاء) ومراتبه، أراد التفصيل في بيانها، لكن منعه من ذلك أن رسالته هذه لم يقصد بها الكلام في أخلاق الإنسان...، ومع هذا لم يغفل الجانب الأخلاقي في الموضوع، فأشار إليه إشارات عديدة، وانتهى إلى ذكر ما منحه الله تعالى: «من الوفاء لكلِّ من يمتُّ إليه بلُقْيَةٍ

واحدة، ووهبه من المحافظة لمن يتذمَّم منه ولو بمحادثته ساعةً؛ حظًا» عظيمًا موجبًا لحمد لله وشكره، والاستزادة من فضله، وما ذكر ذلك «ممتدحًا، ولكن آخذًا بأدب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾ [الضحى: ١١]».

وربط أثر (البين) والهجر على النَّفس؛ بطبيعة النَّفس وأخلاقها. وكذلك فعل بنوع من أنواع (القنوع).

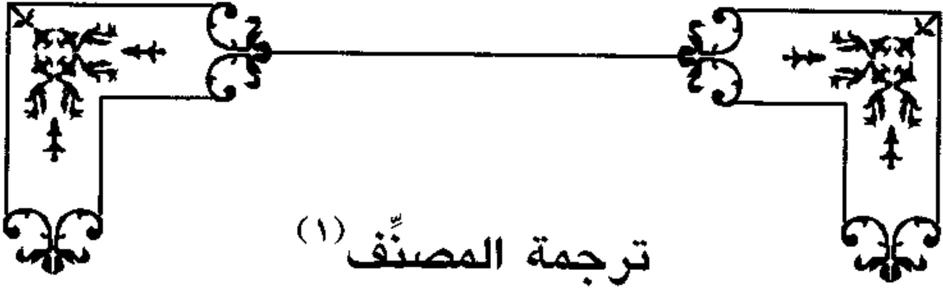
واعتبر (السُّلوَّ) الطبيعي، وهو المسمى بالنسيان؛ حادثًا عن أخلاقٍ ذميمةٍ؛ إلا إن كان عن عذرٍ صحيحٍ. لهذا فإنه يستعيذ بالله أن يكون النسيان طبعًا له، غير أنه لا يطيق (الغدر): «فما يصبر عليه إلا دنيء المروءة، خسيس الهمَّة، ساقط الأنفة» لهذا فإن السَّالي في هذه الحالة لا يكون مذمومًا.

وقد اتصف ابن حزم بخصلتين جبل عليهما، هما الوفاء وعزة النفس، وكل واحدة من هاتين السَّجيَّتين تدعو لنفسها، فالوفاء يدعو إلى الثبات وعدم التلون والنسيان، وعزة النفس لا تقرُّ الضيم، وتهتم بأقل ما يرد عليها من تغير المعارف؛ فتدعو ـ بطبيعة الحال ـ إلى الهجر والنسيان. وتدافع دواعي هاتين الصفتين؛ ولَّد في نفسه صراعًا شديدًا، وصفه بهذه الكلمات الصريحة: «لا يهنأني معهما عيش أبدًا، وإني لأبرم بحياتي باجتماعهما، وأود التغيُّب من نفسي ـ أحيانًا ـ لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما»!!

تلك هي بعض المباحث والإشارات الأخلاقية في ثنايا الكتاب؛ ويتَّضح لنا من خلالها عظيم اهتمام ابن حزم بهذا الجانب، واتصافه ـ هو ـ في نفسه وسلوكه بها؛ صدقًا، ووفاءً، وعزَّة نفسٍ، وعلو همَّة،... إلى

آخر ما نقرأه ـ هنا ـ سلوكًا عمليًا، ونقرأه في كتابه الآخر: «الأخلاق والسِّير» خطابًا تربويًا ساميًا، عاش ابن حزم كل كلمة من كلماته؛ شعورًا في النفس، وسلوكًا في الحياة، وممارسة في المجتمع مع أحبابه وأصدقائه وأصحابه، ومع مناوئيه ومبغضيه وأعدائه؛ على حدٍّ سواء.





ترجمة المصنِّف(١)

اسمه ونسبه:

هو: الإمامُ الأوحدُ، البحرُ، ذو الفنون والمعارف، الفقيهُ الحافظُ، المتكلِّمُ الأديبُ، الوزيرُ الظَّاهريُّ، صاحبُ التَّصانيف؛ أبو محمَّدٍ عليُّ بنُ أحمدَ بنِ سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد، الفارسيُّ الأصل، ثمَّ الأندلسيُّ القرطبيُّ اليزيديُّ؛ مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي ـ رضي الله عنه ـ المعروف بيزيد الخير(٢)، نائب أمير المؤمنين أبي حفصٍ عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ على دمشقَ. فكان جده يزيد؛ مولىً للأمير يزيد أخي معاوية، وكان جدُّه خلف بن معدان هو أول من دخل الأندلس في صحابة ملك الأندلس

(١) هذه الترجمة من: «سير أعلام النبلاء» ١٨/١٨٤ ـ ٢١٢، الترجمة: (٩٩)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٦/ الترجمة: ١٦٨)؛ كلاهما للإمام شمس الدين الذَّهبيِّ (٧٤٨هـ)، وسياق الكلام فيها له ـ رحمه الله ـ مِنَ: «السِّيَر»، غير أنِّي عمدت إلى النص؛ فاختصرته، وهذَّبته، ورتبته، وعلَّقت عليه.

(٢) أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه، وشهد حُنينًا، وهو أحد الأمراء الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، ولمَّا فتحت دمشق؛ أمَّره عمر عليها. توفي في الطَّاعون سنة (١٨هـ). ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ١/(٦٨).

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالدَّاخل[1].

مولده:

قال القاضي صاعد بن أحمد التَّغْلبيُّ (٤٦٢هـ)[2]: كتبَ إليَّ ابنُ حزمٍ - بخطِّه - يقول: ولدتُ بقرطبةَ، في الجانب الشَّرقي، في رَبَضِ منية المغيرة، قبل طلوع الشَّمس، وبعد سلام الإمام من صلاة الصُّبح، آخر ليلة الأربعاء، آخر يومٍ من شهر رمضانَ المعظَّم - وهو اليوم السابع من نُوَنْبِر[3] - سنة أربع وثمانين وثلاث مئة، بطالع العقرب.

شيوخه:

وسمع في سنة أربع مئة وبعدها؛ من طائفةٍ، منهم: يحيى بن عبد الرحمٰن بن مسعود؛ عُرِفَ بابن وَجْه الجنَّة (٣٠٤ - ٤٠٢هـ)؛ صاحب قاسم بن أصبغ (٣٤٠هـ)، فهو أعلى شيخٍ عنده، ومن أبي عمر أحمد بن محمد بن أحمد الأمويِّ القرطبيِّ، ابن الجسور (٤٠١هـ)، ويونس بن عبد الله بن مغيث القاضي (٣٣٨ - ٤٢٩هـ)، وحُمَام بن أحمد القاضي (٣٥٧ - ٤٢١هـ)، ومحمد بن سعيد بن محمَّد بن نبات الأُمويِّ القرطبيِّ (٣٣٥ - ٤٢٩هـ)، وعبد الله بن ربيع التَّميميِّ (٣٣٠ - ٤١٥هـ)، وعبد الرحمٰن بن عبد الله بن خالد بن مسافر، أبي القاسم الهمدانيِّ الوهرانيِّ

---

(١) لأنه حين انقرضت خلافة بني أمية من الدنيا، وقتل مروان الحمار، وقامت دولة بني العبَّاس؛ هرب هذا، فنجا، ودخل إلى الأندلس فتملكها، وتوفي سنة: (١٧٢هـ) ترجمته ومصادرها في: «السِّير» ٨/(٥٥).

(٢) في: «طبقات الأمم» ٨٦، وعنه: الحافظ أبو القاسم ابن بشكوال في: «الصِّلة» ٢/٤١٧.

(٣) وهو: نوفمبر - تشرين الثاني - سنة ٩٩٤ من تأريخ النصارى.

(**٣٣٨ ـ ٤١١هـ**)، وأبي عمر أحمد بن محمد الطَّلْمَنْكيِّ (**٤٢٩هـ**)، وعبد الله بن يوسف بن نامي (**٣٤٨ ـ ٤٣٥هـ**)، وأحمد بن قاسم بن محمَّد بن قاسم بن أصبغ (**٤٣٠هـ**)، وينزل إلى أن يروي عن: أبي عمر ابن عبد البرِّ (**٣٦٨ ـ ٤٦٣هـ**)، وأحمد بن عمر بن أنس العُذْريِّ (**٣٩٣ ـ ٤٧٨هـ**). وأول سماعه من ابن الجَسور في حدود سنة أربع مئة[(١)].

وأجود ما عنده من الكتب «سنن النَّسائيِّ» يحمله عن ابن ربيع، عن ابن الأحمر؛ عنه. وأنزل ما عنده «صحيحُ مسلمٍ» بينه وبينه خمسة رجال، وأعلى ما رأيتُ له حديث بينه وبين وكيعٍ فيه ثلاثة أنفس.

تلاميذه:

حدَّث عنه: ابنُهُ أبو رافع الفَضْلُ (**٤٧٩هـ**)[(٢)]، وأبو عبد الله محمَّد بن فُتوح الحميديُّ (**٤٨٨هـ**)؛ فأكثرَ، ووالد القاضي أبي بكرٍ ابن العربيِّ[(٣)]،

---

(١) قاله الحميدي في: «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، وأسماء رواة الحديث، وأهل الفقه والأدب، وذوي النباهة والشعر» الترجمة: (**٧٠٧**).

(٢) كان عنده أدب ونباهة وذكاء، وكتب بخطِّه علمًا كثيرًا. توفي ـ رحمه الله ـ بوقعة الزَّلاقة شهيدًا. «الصِّلة» (**٩٩٧**)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٨/الترجمة: ٢٩٦).
ومن أبناء ابن حزم ـ أيضًا ـ: أبو أسامة يعقوب، قال ابن بشكوال في «الصِّلة»: كان من أهل النباهة والإستقامة، من بيتة علم وجلالة. توفي سنة: (**٥٠٣هـ**). ومنهم: أبو سليمان مصعب، ذكره ابن خير الإشبيلي في: «فهرسته» ٤٥٦/٢، ووصفه بالفقيه.

(٣) هو العلامة الأديب، ذو الفنون أبو محمد عبد الله بن محمد ابن العربي الإشبيلي، صحب ابن حزم، وأكثر عنه، ثمَّ ارتحل بولده أبي بكر، ومات بمصر في أول سنة: (**٤٩٣**)، ورجع ابنه أبو بكر إلى الأندلس، وتوفي سنة: (**٥٤٣**). قال الذهبي: وكان أبو محمَّد من كبار أصحاب أبي محمد ابن حزم الظاهري، بخلاف ابنه القاضي أبي بكر؛ فإنَّه مُنَافِرٌ لابن حزم، مُحِطٌّ عليه بنفسٍ ثائرة. ترجُمتهما في: «سير أعلام النبلاء» ١٩/(٦٨)، و٢٠/(١٢٨).

وطائفة. وآخر من روى عنه بالإجازة: أبو الحسن شُريح بن محمَّد الرعينيُّ الإشبيليُّ (٥٣٩هـ)

نشأته:

نشأ في تنعُّمٍ ورفاهيَّةٍ، ورُزِقَ ذكاءً مفرطًا، وذهنًا سيَّالًا، وكتبًا نفيسةً كثيرةً. وكان والده من كُبَراء أهل قرطبة؛ عمل الوزارة في الدَّولة العامرية، وكذلك وَزَرَ أبو محمَّد في شَبِيبَتِهِ.

وكان قد مهر أوَّلًا في الأدب والأخبار والشِّعر، وفي المنطق وأجزاء الفلسفة؛ فأثَّرت فيه تأثيرًا لَيْتَهُ سَلِمَ من ذلك، ولقد وقفتُ له على تأليفٍ يحضُّ فيه على الاعتناء بالمنطق، ويقدِّمه على العلوم؛ فتألَّمْتُ له، فإنَّه رأسٌ في علوم الإسلام، متبحِّرٌ في النَّقل، عديم النَّظير، على يُبْسٍ فيه، وفَرْطِ ظاهِرِيَّةٍ؛ في الفروع لا الأصول.

قيل إنَّه تفقَّه أوَّلًا للشَّافعيِّ، ثمَّ أدَّاه اجتهاده إلى القول بنَفْي القياس كلِّه؛ جَلِيِّه وخَفِيِّه، والأخذ بظاهر النَّصِّ، وعموم الكتاب والحديث، والقول بالبراءة الأصليَّة، واستصحاب الحال. وصنَّفَ في ذلك كتبًا كثيرةً، وناظر عليه، وبسط لسانه وقلمه، ولم يتأدَّب مع الأئمة في الخطاب؛ بل فَجَّجَ العبارة، وسَبَّ وجَدَّع، فكان جزاؤه مِنْ جنس فعله، بحيث إنَّه أعرضَ عن تصانيفه جماعةٌ من الأئمَّة، وهجروها، ونفروا منها، وأُحرقتْ في وقتٍ، واعتنى بها آخرون من العلماء، وفتَّشوها انتقادًا واستفادةً، وأخذًا ومؤاخذةً، ورأوا فيها الدُّرَّ الثَّمين ممزوجًا ـ في الرَّصْف ـ بالخَرَزِ المَهين؛ فتارةً يطربون، ومرَّةً يعجبون، ومن تفرُّده يهزَؤُون.

وفي الجملة؛ فالكمال عزيز، وكلٌّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويترك؛ إلا رسولَ الله ﷺ.

منزلته العلمية:

وكان ينهض بعلومٍ جمَّةٍ، ويُجيد النَّقل، ويُحْسِنُ النَّظْمَ والنَّثْرَ. وفيه دِينٌ وخَيْر، (وتورُّعٌ، وتزهُّدٌ، وتحرٍّ للصِّدق)[1]، ومقاصدُهُ جميلةٌ، ومصنَّفاته مفيدةٌ، وقد زهد في الرِّئاسة، ولزم منزله؛ مُكِبًّا على العلم، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وقد أثنى عليه قَبْلَنا الكبارُ:

قال أبو حامد الغزَّالي **(٥٠٥هـ)** ـ رحمه الله ـ[2]: قَدْ وَجَدْتُ في أسماء الله تعالى كتابًا أَلَّفه أبو محمَّد ابنُ حزمٍ الأندلسيُّ؛ يدلُّ على عِظَمِ حِفْظِهِ، وسيلان ذِهْنِهِ.

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابنُ حزم أجمعَ أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام، وأوسعَهم معرفةً، مع توسعه في علم اللِّسان، ووُفور حظِّه من البلاغة والشِّعر، والمعرفةِ بالسِّيَر والأخبار. أخبرني ابْنُهُ الفَضْلُ أنَّه اجتمع عنده بخطِّ أبيه ـ أبي محمَّدٍ ـ من تواليفه؛ أربعُ مئةِ مجلَّدٍ، تشتمل على قريبٍ من ثمانينَ ألف ورقةٍ[3].

---

(١) زيادة من ترجمة ابن حزم في: «تذكرة الحفَّاظ» ٣/الترجمة: **(١٠١٦)**؛ للإمام الذَّهبيِّ ـ أيضًا ـ.

(٢) في: «شرح الأسماء الحسنى» كما ذكر ابن حجر في: «لسان الميزان» ٢٠١/٤.

(٣) «طبقات الأمم» ص ٧٦؛ ثمَّ قال صاعد الأندلسي ـ تعليقًا على هذا العدد ـ: وهذا شيء ما علمناه من أحدٍ كان في دولة الإسلام قبله؛ إلا لأبي جعفر ابن جرير الطبريِّ؛ فإنَّه أكثر أهل الإسلام تأليفًا.

قال أبو عبد الله الحميديُّ[1]: كان ابنُ حزمٍ حافظًا، عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مُسْتنبطًا للأحكام من الكتاب والسُّنَّة، متفنِّنًا في علوم جمَّةٍ، عاملًا بعلمه، زاهدًا في الدُّنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولأبيه من قبله من الوزارة وتدبير الممالك، متواضعًا، ذا فضائل جمَّة، وتواليف كثيرة في كلِّ ما تحقَّق به في العلوم، وجمع من الكتب في علم الحديث، والمصنَّفات، والمُسندات؛ شيئًا كثيرًا، وسمع سماعًا جمًّا. وما رأينا مِثْلَهُ ـ رحمه الله ـ فيما اجتمع له من الذَّكاء، وسُرْعَةِ الحفظ، وكرم النَّفْس، والتَّدَيُّن. وكان له في الأدب والشِّعر نَفَسٌ واسعٌ، وباعٌ طويلٌ، وما رأيتُ من يقول الشِّعر على البديهة أسرعَ منه، وشعره كثيرٌ؛ جَمعتُه على حروف المعجم.

وقال أبو القاسم صاعد: كان أبوه أبو عُمَر من وزراء المنصور محمَّد بن أبي عامر؛ مدبِّر دولة المؤيَّد بالله بن المستنصر المروانيِّ، ثم وزر للمظفَّر بن المنصور، ووَزَرَ أبو محمَّد للمُسْتظهر بالله عبد الرَّحمن بن هشام، ثم نَبَذَ هذه الطريقة، وأقبل على العلوم الشَّرعية، وعُني بعلم المنطق، وبرع فيه، ثم أعرضَ عنه.

قلتُ: ما أعرضَ عنه حتَّى زرع في باطنه أمورًا، وانحرافًا عن السُّنَّة.

قال: وأقبل على علوم الإسلام حتَّى نال من ذلك ما لم ينله أحدٌ بالأندلس قبله.

---

(١) في: «جذوة المقتبس».

أشهر مصنَّفاته:

ولابن حزم مصنَّفات جليلةٌ:

١ ـ أكبرها كتابُ: «الإيصال إلى فهم كتاب الخِصَال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام [وسائر الأحكام؛ على ما أوجبه القرآن] والسنة والإجماع»، أورد فيه أقوال الصّحابة فمن بعدهم في الفقه، والحجةَ لكلِّ قول، وهو كتاب كبير، [في] خمسة عشر ألف ورقة.

٢ ـ «الخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام» مجلدان.

٣ ـ «المُجلَّى» في الفقه، على مذهبه واجتهاده، مجلد.

٤ ـ «المُحَلَّى في شرح المُجَلَّى بالحُجَج والآثار» ثماني مجلدات، في غاية التقصِّي.

قال الشَّيخ عزُّ الدِّين بنُ عبد السَّلام (**٦٦٠هـ**) ـ وكان أحدَ المجتهدين ـ: ما رأيتُ في كُتُبِ الإسلام في العلم مِثْل: «المحلَّى» لابن حزم، وكتاب: «المغني» للشَّيخ موفق الدِّين.

قلتُ: لقد صدق الشَّيخ عز الدين، وثالثهما: «السُّنن الكبير» للبيهقيِّ (**٤٥٨هـ**)، ورابعها: «التَّمهيد» لابن عبد البَرِّ. فمن حصَّل هذه الدَّواوين، وكان من أذكياء المُفْتين، وأدمن المطالعة فيها؛ فهو العالم حَقًّا.

٥ ـ «حَجَّة الوداع».

٦ ـ «الإجماع».

٧ ـ «الإحكام لأصول الأحكام»، في غاية التقصّي [وإيراد الحجاج][1].

٨ ـ «إظهار تبديل اليهود والنَّصارى للتَّوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم مما لا يحتمله التَّأويل»؛ وهو كتاب لم يسبق إليه في الحسن.

٩ ـ «الفَصْل في الملل والنحل»، مجلدان كبيران.

١٠ ـ «التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية»، مجلد.

١١ ـ «نقط العروس»، مجيليد.

وغير ذلك، ومما له في جزء أو كراس:

١٢ ـ «النبذ الكافية».

١٣ ـ «النكت الموجزة في نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد»، مجلد صغير.

١٤ ـ «السِّير والأخلاق».

وأشياء سوى ذلك.

محنته:

وقد امْتُحِنَ لتطويل لسانه في العلماء، وشُرِّد عن وطنه، فنزل بقريةٍ له، وجرت له أمورٌ، وقام عليه جماعةٌ من المالكيَّة، وجرت بينه وبين أبي الوليد الباجيِّ (٤٠٣-٤٧٤هـ)؛ مُناظراتٌ ومُنَافراتٌ، ونفَّروا منه ملوك

---

(١) قاله الحميدي في: «الجذوة»؛ والزيادة منه.

النَّاحية، فأقْصَتْهُ الدَّولة، وأُحرقتْ مجلداتٌ من كتبه، وتحوَّل إلى بادية لَبْلَة[1] في قريةٍ.

قال أبو العبَّاس ابنُ العريف (**٥٣٦هـ**): كان لسانُ ابن حزم وسيفُ الحجَّاج شقيقَيْن.

قال أبو مروان ابن حَيَّان (**٣٧٧-٤٦٩هـ**): كان ابنُ حزم ـ رحمه الله ـ حامل فنونٍ من حديثٍ وفِقْهٍ وجَدَلٍ ونَسَبٍ، وما يتعلَّق بأذيال الأدب، مع المشاركة في أنواع التَّعاليم القديمة من المنطق والفلسفة، وله (في بعض تلك الفنون) كتبٌ كثيرةٌ، (غير أنه) لم يَخْلُ فيها من غَلَطٍ؛ لجُراءته في التَّسَوُّر على الفنون، لا سيما المنطق، فإنهَّم زعموا أنَّه زَلَّ هنالك، وضَلَّ في سلوك المَسَالك، وخالف أرسطاطاليس واضع الفَنِّ مخالفةَ مَنْ لم يَفْهم غَرَضَهُ ولا ارْتَاضَ، ومالَ أوَّلاً إلى النَّظر على رأي الشَّافعيِّ ـ رحمه الله ـ، وناضل عن مذهبه حتَّى وُسِمَ به، فاسْتُهْدِفَ بذلك لكثيرٍ من الفقهاء، وعِيب بالشُّذُوذ، ثم عَدَلَ إلى قول أصحاب الظَّاهر، فنقَّحه، وجادل عنه، (وَوَضَعَ الكتبَ في بَسْطه)، وثبت عليه إلى أن مات ـ رحمه الله ـ.

وكان يحمل علمه ـ هذا ـ ويجادل عنه من خالفه، على استرسالٍ في طباعِهِ، ومَذَلٍ بأسراره، واستنادٍ إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده: «لَيُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ وَلا يَكْتُمُونَهُ»[2]، فلم يكُ يُلَطِّفُ صَدْعَه بما عنده

---

(١) غربي قرطبة، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية؛ خمسة أيام. «معجم البلدان» ٥/١٠.

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقوله تعالى: «لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ» قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيب فيهما، والباقون بتاء الخطاب.

بتعريضٍ ولا (يزُفُّه) بتدريجٍ، بل يصكُّ به من عارضه صكَّ الجَندل[1]، ويُنْشِقُهُ (متلقِّيه) إنشاقَ الخَرْدَل، فتنفر عنه القلوب، وتُوقع به النُّدوب، حتى اسْتُهْدِفَ لفقهاء وقته، فتمالؤُوا عليه، وأجمعوا على تضليله، وشنَّعوا عليه، وحذَّروا سلاطينهم من فِتْنَتِه، ونهوا عَوامَّهم عن الدُّنُوِّ منه، (والأخذ عنه)، فطَفِقَ الملوكُ يقصونه عن قُرْبِهم، ويُسَيِّرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به مُنقطعَ أثرِه: (بتربة بلده) من بادية لَبْلَة، (وبها توفي ـ رحمه الله ـ؛ سنة ستٍّ وخمسين وأربع مئةٍ)، وهو في ذلك غيرُ مُرْتَدِعٍ ولا راجع (إلى ما أرادوا به)، يَبُثُّ علمه فيمن ينتابه مِن بادية بلده، من عامّة المقتبسين من أصاغر الطَّلبة، الذين لا يخشون فيه المَلامة؛ يحدِّثهم، ويفقِّههم، ويدارسهم، (ولا يَدَعُ المثابرةَ على العلم، والمواظبةَ على التَّأليفِ، والإكثارَ من التَّصنيف)؛ حتَّى كَمَل من مصنفاته (في فنونٍ من العلم) وِقْرُ بعير، لم يَعْدُ أكثرها (عتبة) باديته؛ لزُهد الفقهاء فيها، حتى لأُحْرِقَ بعضُها بإشبيلية، ومُزِّقت علانيةً.

وأكثر معايبه ـ زعموا عند المُنْصِفِ له ـ جَهلُه بسياسة العلم التي هي أعرض من إيعابه، وتخلُّفه عن ذلك؛ على قوَّة سَبحه في غماره، وعلى ذلك فلم يكن بالسَّليم من اضطراب رأيه، ومغيب شاهد علمه عنه عند لقائه، إلى أن يُحَرَّكَ بالسُّؤال، فيتفجر منه بَحْرُ علمٍ لا تكدِّره الدِّلاء، (ولا يقصر عنه الرِّشاء، له على كل ما ذكرنا دلائل ماثلة، وأخبار مأثورة).

وكان ممَّا يزيد في شنآنه؛ تشَيُّعه لأمراء بني أميَّة؛ ماضيهم وباقيهم، (بالمشرق والأندلس)، واعتقاده لصِحَّة إمامتهم، (وانحرافه

---

(١) الجندل: ما يُقِلُّه الرَّجل من الحجارة. «القاموس».

عمَّن سواهم من قريشٍ) حتَّى لنُسِبَ إلى النَّصْب[1] (لغيرهم)[2].

قلت: وقد أخذ المنطقَ ـ أبعده الله مِنْ علمٍ ـ عن محمد بن الحسن المَذْحِجيِّ، وأمعن فيه، فزَلْزَله في أشياءَ[3].

ولي أنا مَيْلٌ إلى أبي محمَّد لمحبَّته في الحديث الصَّحيح، ومعرفته به، وإن كنتُ لا أُوافِقُه في كثيرٍ ممَّا يقوله في الرِّجال والعلل، والمسائل البَشِعَة في الأصول والفروع، وأقطعُ بخطته في غير ما مسألةٍ، ولكن لا أُكفِّره، ولا أُضلِّلُه، وأرجو له العفوَ والمسامحة وللمسلمين، وأخضع لفَرْط ذكائه، وسَعة علومه.

نماذج من شعره[4]:

كتب إلينا المعمَّر العالم أبو محمَّد عبد الله بن محمد بن هارون ـ من مدينة تونس، عام سبعِ مئةٍ ـ عن أبي القاسم أحمد بن يزيد القاضي، عن

---

(١) النَّصب هو بغض عليٍّ رضي الله عنه. وهذه التُّهمة نتيجة باطلة للمقدمة السابقة، وهي: (تشيُّعه لأمراء بني أُميَّة)؛ إذ أن ذلك (التشيع) والحب والولاء كان قائمًا على أساس الولاء الشرعي للخلافة الأموية، والإدراك لأثرها المهمِّ في المحافظة على وحدة المسلمين وعزِّهم.

(٢) انتهى كلام ابن حيَّان، ونقله الذَّهبيُّ ـ أيضًا ـ في: «تذكرة الحفَّاظ» ٣/١١٥١ ـ ١١٥٢. وقد حفظه لنا أبو الحسن علي بن بسَّام الشَّنتريني (**٥٤٢هـ**) في: «الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ١/١/١٦٨ ـ ١٦٩، ونقله ياقوت الحموي في: «معجم الأدباء» ١٢/٢٤٧-٢٤٩، وعنهما استدركت بعض الفقرات وجعلتها بين قوسين. وله تتمَّه أغفلها الذَّهبي عمدًا؛ لأنَّها تحتاج إلى نقدٍ ومناقشةٍ.

(٣) راجع لهذا مقدمتي علىٰ كتاب: «التقريب لحد المنطق»، وعلىٰ كتاب: «الدرة فيما يجب اعتقاده».

(٤) أغنى المصادر بشعر ابن حزم هو: «طوق الحمامة»، لكني حرصت على إيراد هذه النماذج التي انتقاها الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ؛ ليتعرَّف القارئ على أغراض أخرى في شعره، غير ما يجده في هذا الكتاب.

شريح بن محمَّد الرُّعينيّ؛ أنَّ أبا محمّد ابن حزم كتبَ إليه ـ فيما أحرقَ له المُعْتَضِدُ بن عَبَّاد من الكُتُب ـ يقول:

فإنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاس لا تَحْرِقُوا الَّذِي ... تَضَمَّنَهُ القرطاسُ بَلْ هو في صَدْرِي
يَسِيرُ معي حيثُ اسْتَقَلَّتْ رَكائِبِي ... وَيَنزِلُ إنْ أَنْزِلْ ويُدْفَن في قَبْرِي
دَعُونِيَ مِنْ إحْرَاقِ رَقٍّ وكَاغدٍ ... وَقُولُوا بِعِلْمٍ كَيْ يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدري
وإلا فَعُودُوا في المَكَاتِبِ بَدْأَةً ... فَكَمْ دُونَ مَا تَبْغُونَ لله مِنْ سِتْرِ
كذَاكَ النَّصَارى يَحْرِقُونَ إذا عَلَتْ ... أكفُّهُم القُرْآنَ في مُدُنِ الثَّغْرِ

وبه لابنِ حزمٍ:

أُشْهِدُ اللَّهَ والمَلائِكَ أنِّي ... لا أرَى الرَّأْيَ والمَقَايِيسَ دِينا
حاشَ للّه أنْ أَقُولَ سِوى مَا ... جاء في النَّصِّ والهُدَى مُسْتَبِينَا
كَيْفَ يَخْفَى علَى البَصَائِرِ هذَا ... وهو كالشَّمْسِ شُهْرَةً وَيَقِينَا

فقلتُ مُجِيبًا له:

لو سَلِمْتُمْ مِنَ العُمُومِ الَّذي ... نَعْلَمُ قَطْعًا تَخْصِيصَهُ ويَقِينا
وَتَرَطَّبْتُمْ فكَمْ قَدْ يَبِسْتُمْ ... لَرَأَيْنا لكم شُفُوفًا مُبِينا

ولابنِ حزمٍ:

مُنَايَ من الدُّنْيا علومٌ أبُثُّها ... وَأَنْشُرُها في كُلِّ بَادٍ وحَاضِرِ
دُعاءٌ إلى القُرآنِ والسُّنَنِ التي ... تَناسَى رِجالٌ ذِكْرَها في المَحَاضِرِ
وَأَلْزَمُ أطْرافَ الثُّغُور مُجَاهِدًا ... إذَا هَيْعَةٌ ثَارَتْ فَأَوَّلُ نافِرِ
لألْقَى حِمامي مُقْبلًا غيرَ مُدْبِرٍ ... بِسُمْرِ العَوالي والرِّقاق البَواتِرِ

كِفَاحًا مع الكُفَّار في حَوْمَةِ الوَغَى وأَكْرَمُ مَوْتٍ لِلْفَتى قَتْلُ كافِرِ
فَيَا رَبِّ لا تَجْعَل حِمامِي بغَيْرِها ولا تَجْعَلَنِّي مِنْ قَطِينِ المقابِرِ

ومِنْ شِعْره:

هلِ الدَّهرُ إلا ما عَرَفْنَا وأَدْرَكْنَا فَجَائِعُهُ تَبْقَى وَلذَّاتُهُ تَفْنَى
إذا أَمْكَنَتْ فيه مَسَرَّةُ ساعةٍ تَوَلَّتْ كَمَرِّ الطَّرْفِ واسْتَخْلَفَتْ حُزْنَا
إلى تَبِعاتٍ في المَعَادِ وَمَوْقِفٍ نَوَدُّ لَدَيْهِ أَنَّنَا لم نَكُنْ كُنَّا
حَنِينٌ لما وَلَّى وشُغْلٌ بما أَتَى وَهَمٌّ لما نَخْشَى فَعَيْشُكَ لا يَهْنَا
حَصَلْنا على هَمٍّ وإِثْمٍ وحَسْرَةٍ وفاتَ الَّذي كُنَّا نَلَذُّ بِهِ عَنَّا
كأَنَّ الذي كُنَّا نُسَرُّ بِكَوْنِهِ إذا حقَّقَتْهُ النَّفْسُ لَفْظٌ بلا مَعْنَى

ولَهُ على سبيل الدُّعابة ـ وهو يماشي أبا عمرَ ابن عبد البَرِّ ـ وقد رأى شابًّا مَليحًا، فأعجبَ ابنَ حزم، فقال أبو عُمر: لعلَّ ما تحت الثِّياب ليس هناك! فقالَ[1]:

(١) هذه القصَّة أوردها ـ أيضًا ـ المقري في: «نفح الطِّيب» ٢/٨٢؛ وقال في صدرها: «قال ابن حزم في: «طوق الحمامة»: إنه مرَّ يومًا هو وأبو عمر ابن عبد البر ـ صاحب: «الاستيعاب» ـ بسكَّة الحطَّابين من مدينة إشبيلية، فلقيهما شاب حسن الوجه. . . .» فذكر الحوار والأبيات. غير أنَّ النُّسخة التي وصلتنا من الطَّوق لا تحتوي هذه القصَّة، وقد نبَّه إلى هذا: Max Weisweiler في ترجمته للطوق إلى الألمانية:

Halsband Der Taube, Leiden 1942.

وكذلك الدكتور الطاهر أحمد مكي في مقدِّمته لـ«الطوق» ص: ٣٨، والدُّكتور إحسان عبَّاس، وتساءل فيما إذا كانت هذه القصَّة ممَّا حذفها النَّاسخ أو أن المقري وَهِمَ؟ (رسائل ابن حزم: ٢/٤٤٧). قلت: لعل الراجح هو الأول، والله أعلم. والأبيات ـ دون القصَّة ـ في: «الذَّخيرة» ١/١/١٧٥، و«معجم الأدباء» ١٢/٢٤٣-٢٤٤، و«المغرب في حُلي المغرب» ١/٣٥٦، و«وفيات الأعيان» ٣/٣٢٧.

وَذِي عَذَلٍ فِيمَنْ سَبَانِي حُسْنُهُ يُطِيلُ مَلامي في الهَوَى ويَقُولُ
أَمِنْ حُسْنِ وَجْهٍ لاحَ لم تَرَ غَيْرَهُ ولم تَدْرِ كيفَ الجِسْمُ أنتَ قَتِيلُ؟
فقلتُ لَهُ: أسْرَفْتَ في اللَّوْمِ فاتَّئِدِ فَعِنْدِي رَدٌّ لَوْ أشَاءُ طَوِيلُ
أَلَمْ تَرَ أنِّي ظَاهِرِيٌّ وأنَّنِي علَى ما بَدَا حتَّى يَقُومَ دَلِيلُ

أنشدنا أبو الفهم ابن أحمد السُّلَمي، قال: أنشدنا ابنُ قُدامة، قال: أنشدنا ابنُ البَطِّي، قال: أنشدنا أبو عبد الله الحميديُّ، قال: أنشدنا أبو محمَّد عليُّ بن أحمد ـ لنفسه ـ:

لا تَشْمَتَنَّ حاسِدي إنْ نَكْبَةٌ عَرَضَتْ فالدَّهْرُ لَيْسَ على حَال بمُتَّرِكِ
ذُو الفَضْلِ كالتِّبْرِ طَوْرًا تَحْتَ مَيْفَعَةٍ[1] وتارةً في ذُرَى تاجٍ علَى مَلِكِ

وشِعْرُه فَحْلٌ كما ترى، وكان يُنْظِمُ على البَدِيه.

وله يفتخرُ[2]:

أنا الشَّمْسُ في جَوِّ العُلُومِ مُنيرةً ولكنَّ عَيْبي أنَّ مَطْلَعِي الغَرْبُ
ولو أنَّني مِنْ جانب الشَّرْقِ طالِعٌ لَجَدَّ على ما ضَاعَ مِنْ ذِكْرِيَ النَّهْبُ
وَلِي نحوَ أكْنَافِ العِراقِ صَبَابَةٌ ولا غَرْوَ أن يَسْتَوْحِشَ الكَلِفُ الصَّبُّ
فإنْ يُنْزِلِ الرَّحمنُ رَحْلِيَ بَيْنَهُمْ فَحِينَئِذٍ يَبْدُو التَّأَسُّفُ والكَرْبُ
(فكَمْ قائِلٍ أغفلتُه وهو حاضِرٌ وأطْلُبُ ما عَنْهُ تَجِيءُ بِهِ الكُتُبُ)[3]

---

(١) الميفعة: الشَّرف من الأرض.
(٢) وهي من قصيدة طويلة، خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن أحمد بن بشر؛ يفخر فيها بالعلم، ويذكر أصناف ما علم. قاله الحميدي في: «الجذوة».
(٣) هذا البيت أغفله الذهبي، وهو في: «الجذوة»، و«البغية»، و«الذَّخيرة»، و«معجم الأدباء»، و«نفح الطيب».

هُنالِكَ يُدْرى أنَّ لِلْبُعْدِ قِصَّةً وأنَّ كَسَادَ العِلْمِ آفَتُهُ القُرْبُ
فَواعَجَبًا مَنْ غابَ عَنْهُم تشَوَّقُوا لَهُ ودُنُوُّ المَرْءِ مِنْ دَارِهِمْ ذَنْبُ(١)

وَلَهُ:

أَنَائِمٌ أنتَ عَن كُتُبِ الحديثِ وما أتى عَنِ المُصْطَفَى فِيها مِنَ الدِّينِ
كمُسْلِمٍ والبُخاريِّ اللَّذَيْنِ هُمَا شَدَّا عُرَى الدِّينِ في نَقْلٍ وتَبْيِينِ
أَوْلَى بأَجْرٍ وتَعْظِيمٍ ومَحْمَدَةٍ مِنْ كُلِّ قَوْلٍ أتَى مِنْ رَأْيِ سُحْنُونِ
يا مَنْ هَدَى بِهِمَا اجْعَلْنِي كَمِثْلِهِما في نَصْرِ دِينِكَ مَحْضًا غَيْرَ مَفْتُونِ

ومِنْ نَظْمِهِ ـ أيضًا ـ:

لم أَشْكُ صَدًّا ولم أُذْعِنْ بِهِجْرَانِ ولا شَعَرْتُ مَدَى دَهْرِي بسُلْوَانِ
أسماءُ لم أَدْرِ مَعْناها ولا خَطَرَتْ يَوْمًا عَلَيَّ ولا جَالَتْ بِمَيْدَانِي
لكِنَّمَا دائِيَ الأَدْوَا الَّذِي عَصَفَتْ عَلَيَّ أرْوَاحُهُ قِدمًا فأَعْيَانِي
تَفَرُّقٌ لم تَزَلْ تَسْرِي طَوَارِقُهُ إلى مَجَامِعِ أحْبَابِي وخِلانِي
كأنَّما البَيْنُ بي يَأتَمُّ حيثُ رأى لِي مَذْهَبًا فهو يَتْلُونِي ويَغْشَانِي
وكنتُ أحسَبُ عندي للنَّوى جَلَدًا دَاءٌ عَنا في فُؤادِي شَجْوُهَا العَانِي
فَقَابَلَتْني بألوانٍ غَدَوْتُ بِهَا مقابَلًا من صَبَاباتي بألوانِ

---

(١) وزاد في: «معجم الأدباء» وغيره:
وإنَّ مَكَانًا ضَاقَ عَنِّي لَضَيِّقٌ على أنَّهُ فَسْحٌ مَهامِهُهُ سَهْبُ
وإنَّ رِجَالًا ضَيَّعُونِي لَضُيَّعٌ وإنَّ زَمَانًا لَمْ أَنَلْ خِصْبَهُ جَدْبُ
ومنها في الاعتذار عن مَدْحِه لنَفْسِه:
ولكنَّ لِي في يوسُفَ خَيْرُ أُسْوَةٍ ولَيْسَ علَى مَنْ بِالنَّبِيِّ ائْتَسَى ذَنْبُ
يقُولُ ـ وقالَ الحَقَّ والصِّدْقَ ـ إنَّنِي حَفِيظٌ عَلَيْهُم، مَا على صَادِقٍ عَتْبُ

وله ـ أيضًا ـ:

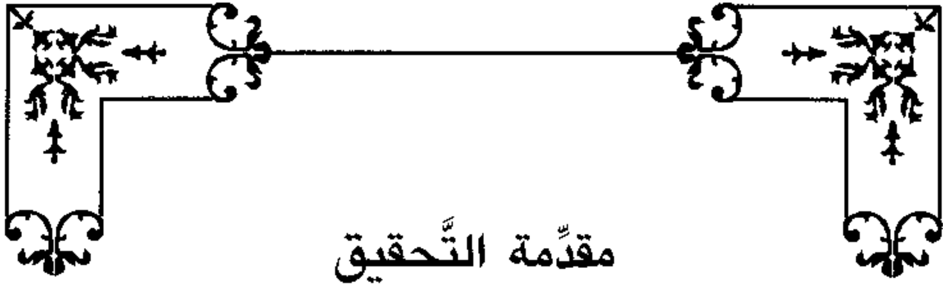
قالُوا تَحَفَّظْ فإنَّ النَّاسَ قَدْ كَثُرَتْ ... أقوالُهُمْ وأقاوِيلُ الوَرَى مِحَنُ
فقلتُ: هَلْ عَيْبُهُمْ لي غَيْرَ أنِّي لا ... أقولُ بالرَّأيِ إذْ في رَأْيِهِم فِتَنُ
وَأنَّنِي مُولَعٌ بالنَّصِّ لَسْتُ إلى ... سِوَاهُ أنْحُو ولا في نَصْرِهِ أهِنُ
لا أنْثَنِي لِمَقَايِيسَ يُقال بها ... في الدِّينِ بَلْ حَسْبِيَ القُرآنُ والسُّنَنُ
يا بَرْدَ ذَا القَوْلِ في قَلْبِي وفي كَبِدِي ... ويا سُرُوري به لو أنَّهم فَطِنُوا
دَعْهُمْ يَعَضُّوا على صُمِّ الحَصَى كَمَدًا ... مَنْ مَاتَ مِنْ قَوْلِهِ عِنْدي لَهُ كَفَنُ

وفاته:

قال صاعد: ونقلتُ من خطِّ ابنه أبي رافعٍ؛ أنَّ أباه توفي ـ رحمه الله ـ عَشية يوم الأحد، لليلتين بقيتا من شعبان، سنة ستٍّ وخمسين وأربع مئة. فكان عُمُره إحدى وسبعين سنةً وأشهرًا(١)، رحمه الله تعالى.



(١) «الصِّلة»؛ وفيه: «وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يومًا». وهو يوافق: ١٠٦٤/٨/١٥ من التأريخ النَّصرانيِّ، والله تعالى أعلم.



مقدِّمة التَّحقيق

١ ـ وصف النُّسخة الخطِّيَّة:

للكتابِ نسخة خطية وحيدة، يحتفظ بها قسم المخطوطات الشرقية، في مكتبة جامعة ليدن، في هولندة، في مجلَّد لطيف، تحت الرقم: (٩٢٧).

وقد اطلعتُ عليها في المكتبة المذكورة، وكتبتُ الوصف التَّالي لها:

قياس الكتاب: **١٣ ـ ١٨** سم، والكتابة بقياس: **٩ ـ ١٤** سم.

في كل صفحة **١٥** سطرًا.

تقع النسخة في (١٣٨) ورقة، غير مرقَّمة في الأصل، لكنها رقِّمت بقلم رصاص.

ضربت الرطوبة القسم الأعلى من يمين المجلد، وأثَّرت على قسم من أوراقها، خاصة الأوراق: ١٢٠ ـ ١٣٦، لكن النَّصّ بقي مقروءً.

الوجه الأول من الورقة الأولى للعنوان، وفيه:

«كتاب فيه الرسالة المعروفة بطوق الحمامة في الألفة والأُلاف. تأليف أبي محمَّدٍ علي بن حزم الأندلسي عفا الله عنه وغفر له وللمسلمين».

وإلى اليسار:

«العبد الضَّعيف إلى ربِّه اللَّطيف محمد بن عثمان النَّهاوندي الصُّوفي ـ عفا الله تعالى [عنه] ـ في سنة (٧٣٨)».

وتحته صورة تملك غير مقروءة، وأخرى إلى يمين الصفحة، مؤرخة (سنة تسع وأربعين وألف).

وكتب أحدهم: «مصنِّف خطِّي در شبو رساله».

وهذه عبارة بالتركية، معناها: «هذه الرِّسالة بخطِّ المصنِّف»!!

وهذا كذب، ربما كان مقصودًا من كاتبه، ليبيع النُّسخة بأغلى الأثمان![1].

ونهاية الكتاب في ظهر الورقة الأخيرة: (١٣٨)، وفيها:

«كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم؛ رضي الله عنه ـ بعد (اختصار) أكثر أشعارها، وإبقاء العيون منها، تحسينًا لها، وإظهارًا لمحاسنها، وتصغيرًا لحجمها، وتسهيلًا لوجدان المعاني الغريبة من لفظها ـ بحمد الله تعالى وعونه، وحسن توفيقه. وفُرغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة. والحمد لله رب العالمين».

---

(١) وقد كانت هذه النُّسخة في تركية، واشتراها ـ ضمن ما اشترى من نوادر المخطوطات في تركية وغيرها ـ المستشرق السَّائح لافن وارنر (١٦١٩ ـ ١٦٦٥م) الذي كان سفيرًا لبلاده هولندة في عاصمة الدولة العثمانية؛ الأستانة في المدَّة: ١٦٤٤ ـ ١٦٦٥م، ثمَّ وهب ما جمعه من المخطوطات للمدرسة الكلية في مدينة ليدن (مكتبة جامعة ليدن).
ينظر: ادوارد كرنيليوس فنديك: «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» ص: ١٥، ط: مصر ١٨٩٧م، ومقدّمة د. الطاهر مكي لـ«الطوق» ص: ٣٥.

وهكذا أغفل النَّاسخ اسمه، رغم أنَّه قام بعمل خطير في اختصار الكتاب، وتصغير حجمه.

وكتب على غلاف الكتاب الأخير:

«نظر في هذا الكتاب الفقير الحاج علي ابن الحاج أبو بكر ابن (النعمان) غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. كتبه بتاريخ عشر من شهر صفر الخير سنة ست وخمسين وتسع مئة».

والنسخة مكتوبة بخطٍّ نسخٍ مشرقيٍّ.

اجتهد الناسخ في كتابة نسخة دقيقة وأمينة، وبذل جهدًا ظاهرًا في ذلك، فخطُّه جميل مقروءٌ، وأسماء بعض الأبواب والفصول وبداية الفقرات مكتوبة بالخط الأحمر، إلى الورقة: (٢٠)، ثمَّ الغالب بالأسود، لكنه يكتبها بخطٍّ كبير متميز.

وقد ضبط الناسخ كثيرًا من الكلمات بالشَّكل، ولكنَّه ـ رحمه الله ـ كثير الوهم في ذلك. كما أنَّه أخفق في قراءة بعض الكلمات في الأصل الذي نقل عنه؛ فوقع في تحريف ظاهر لقسم كبير منها، وبعضها لا يظهر إلا بالتأمُّل.

٢ ـ توثيق نسبة الكتاب لابن حزم:

نسبة هذا الكتاب إلى مصنِّفه: الإمام ابن حزم؛ نسبة أكيدة، لا يداخلها شكٌّ، والأدلة على ذلك كثيرة جدًا، إذ يجد الناظر في نصوص هذا الكتاب توافقًا تامًّا مع ما اشتهر من سيرته وأخباره، وكذلك في روايته عن شيوخه المعروفين، واتفاق آرائه الفقهية هنا مع ما ذكره في كتابه الشَّهير: «المحلَّى». وكذلك ما نجده من الاتفاق بين ما رواه تلميذه

الحميدي ـ أو ما ذكره غيره من المؤرخين ـ عن ابن حزم من أخبار وحوادث؛ مما ورد بعضها في: «الطَّوق»؛ بحروفها أو بمعناها.

وقد اطَّلعتُ على ترجمة ابن حزمٍ في مصادرَ كثيرةٍ ـ أندلسيَّةٍ ومشرقيَّةٍ ـ فلم أجد أحدًا ممَّن ترجم له؛ ذكر كتابه هذا بين ما ذكر له من مؤلفاتٍ ـ باستثناء الفيروزآبادي؛ كما سيأتي[1] ـ، ولعل السَّبب في ذلك يرجع إلى رغبتهم في إماتة ذكر الكتاب، خاصَّة مع ظنٍّ بعضهم أنَّ ابن حزم تأخَّر في طلب العلم ـ بناءً على قصَّة باطلةٍ ـ فيكون كتابه هذا ممَّا ألَّفه قبل ذلك!

ومهما يكن؛ فإنَّ غير واحد من العلماء صرَّح بنسبة الكتاب لابن حزم، منهم:

١ ـ الإمام العلامة، البليغ، الحافظ، مجد العلماء أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الأندلسي البَلَنْسِي، المعروف بابن الأبَّار (**٦٥٨هـ**) ـ رحمه الله تعالى ـ[2]:

ذكر في كتابه: «التَّكملة لكتاب الصِّلة»[3]؛ تغلب بن عيسى الكلابي، فقال:

«حكى عنه ابن حزم في رسالته المسماة بطوق الحمامة».

والحكاية عن: (تغلب) موجودة في كتابنا هذا [**٢٩** ـ باب قبح

---

(١) ولم أجد فيما كتبه الذين حقَّقوا الكتاب أو درسوه ـ وهم كُثر ـ الإشارة إلى ذكر الكتاب في شيء من مصادر ترجمة ابن حزم.

(٢) ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ٢٣/(**٢٣٤**).

(٣) صفحة: ٢٧٦/رقم: (**٦٢١**)، في القطعة التي عني بطبعها وتعليق حواشيها: الفريد بل، مدير مدرسة تلمسان، وابن أبي شنب، المدرس بمدرسة الجزائر، المطبعة الشرقية، الجزائر، سنة: (**١٣٣٧هـ/١٩١٩م**).

المعصية]؛ لكن وقع اسمه عندنا هكذا: «ثعلب بن موسى الكلاذاني».

٢ ـ العلامة اللُّغويُّ محمد بن يعقوب الفَيْرُوزْآبادي (٨١٧ هـ) صاحب «القاموس المحيط» ـ رحمه الله تعالى ـ:

ترجم لابن حزم في كتابه القيِّم: «البُلْغة في تراجم أئمَّة النَّحو واللُّغة»[١]، وذكر جملة كبيرة من مصنَّفاته، وقال:

«وكتابُ: (طوق الحمامة)؛ نحو ثلاث مئة ورقةٍ، عارضَ كتابَ: (الزُّهرة) لأبي بكر ابن داود[٢]».

٣ ـ الإمام الفقيه الحجَّة ابن قيِّم الجوزية (٧٥١) ـ رحمه الله تعالى ـ:

استفاد من: «طوق الحمامة» في مواضع كثيرة من كتابه القيِّم: «روضة المُحِبِّين»؛ ونقل منه نصوصًا مصرّحًا بنسبتها إلى ابن حزم[٣]، وصرَّح في موضعٍ باسم كتابه فقال[٤]:

«وجرى على هذا المذهب أبو محمَّد ابن حزمٍ في كتاب: «طوق الحمامة» له»[٥].

---

(١) ص: ١٤٦-١٤٧، الترجمة: (٢٢٧)، تحقيق: محمد المصري، الكويت: ١٤٠٧هـ.

(٢) سيأتي التَّعريف به وبكتابه؛ عند نقل ابن حزم عنه في (ماهية الحبِّ).

(٣) منها في الباب ٢١: اقتضاء المحبة إفراد الحبيب، (ص: ٢٠٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٥/١هـ)؛ قال: «وقد بالغ أبو محمَّد بن حزم في إنكاره على من يزعم أنَّه يعشق أكثر من واحدٍ، وقال في ذلك شعرًا، ونحن نذكر كلامه وشعره، قال بعد كلامٍ طويل: ومن هذا دخل الغلط....» ونقل كلامه وأبياته النونية وهي في كتابنا هذا في: (٦- باب من لا يحبُّ إلا مع المطاولة).

(٤) في الباب الثامن: ذكر الشُّبه التي احتج بها من أباح النَّظر...ص: ٨٥.

(٥) وممَّا نقله ابن القيم، قوله (في الباب: ١١/ص: ١٠٣): «وقال أبو محمَّد ابن حزم: قال رجل لعمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ: يا أمير المؤمنين إنِّي رأيت امرأة فعشقتها. فقال عمر: ذاك ممَّا لا يُمْلَكُ.». وهكذا ورد عند ابن أبي حجلة في: =

٤ ـ الإمام العلامة الحافظ المُتْقِن ابن ناصر الدِّين الدِّمشقي (٨٤٢هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ:

ذكره في موضعين من كتابه: «توضيح المشتبه»:

الموضع الأول: ذكر أبا شاكر عبد الواحد بن محمَّد ابن القَبْري، ونقل ترجمة موجزة له عن ابن ماكولا، ثمَّ قال:

«وفي كتاب «طوق الحمامة وظل الغمامة» لأبي محمد ابن حزم: فأمَّا أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القَبْري فكان لي صديقًا مدَّة على غير رؤية، ثم التقينا فتأكدت المودَّة، وتمادت إلى الآن. انتهى»[(١)].

والشيء المهمُّ في هذا النَّقل أنَّ ابن ناصر الدِّين قد ذكر اسم أبي شاكر على الصَّواب: «عبد الواحد»، ثم نقل عن «طوق الحمامة» ما يخالف ذلك، إذ وقع اسمه هناك: «عبد الرَّحمن»، ولم يعلِّق على ذلك، وهذا يدلُّ على ثقته بالكتاب وبالنسخة التي نقل عنها، إذ لم يسارع إلى تخطئة ما وقع فيها.

وقد جاء هذا الاسم في نسختنا الخطية على الصَّواب في هذا الموضع، أعني على الخطأ، إذ الصَّواب ـ في هذا الموضع ـ هو الخطأ، وهو: «عبد الرحمن» بدل: «عبد الواحد» [٤ ـ باب من أحبَّ بالوصف]، وورد كذلك في موضع آخر [٢ ـ باب الموت].

وهذا ممَّا يزيد الثِّقة بالنسخة الخطِّية!

= «ديوان الصَّبابة» (الفصل الخامس، ص: ٣٤، دار حمد ومحيو، بيروت: ١٩٧٢). وليس لهذا القول وجود في نسخة الطوق، فلعله ممَّا أسقطه النَّاسخ.

(١) «توضيح المشتبه» ٧/١٨٧-١٨٩، (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٤هـ).

الموضع الثاني: عند ذكر أبي إسحاق النَّظَّام المعتزلي، قال:

«وقد وجدت بخطّ الحافظ مُغَلْطاي على حاشية كتاب «الألقاب» لأبي بكرٍ الشِّيرازيِّ ـ عند ذكر النظام هذا ـ: ذَكَرَ ابنُ حزم في «طوق الحمامة» أنَّ النَّظَّام عشق فتىً نصرانيًّا، ووضع له كتابًا في تفضيل التثليث على التَّوحيد. انتهى ما وجدته، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثمَّ وقفت على كلام أبي محمَّدٍ بن حزْمٍ في كتابه «طوق الحمامة وظلّ الغمامة»، فقال: وقد ذكر أبو الحسن[1] أحمد بن يحيى بن إسحاق الرويدي[2] في كتاب «اللفظ والاصطلام» أنَّ أبا إسحاقٍ إبراهيم بن سَيَّار النظَّام ـ رأس أهل الاعتزال ـ مع علو طبقته في الكلام، وتمكُّنه في العلم، وتحكمه في المعرفة؛ تسبَّب إلى ما حرَّم الله تعالى عليه من فتىً نصرانيٍّ عشقه، بأن وضع له كتابًا في تفضيل التثليث على التوحيد، فيا غوثاه! عياذك يا ربِّ من تولُّج الشيطان، ووقوع الخذلان. انتهى كلام ابن حزمٍ»[3]. وهذا النَّقل عندنا في: [**٢٩** ـ باب قبح المعصية].

٥ ـ الحافظ أبو عبد الله مُغَلْطاي بن قَلِيج البكجري الحنفي (**٧٦٢هـ**):

تقدَّم ذكره للكتاب في النَّقل السابق عن ابن ناصر الدِّين[4].

٦ ـ العلامة أحمد بن محمد بن أحمد المقَّريُّ (**١٠٤١هـ**):

---

(١) (أبو الحسن) هكذا في: «التَّوضيح»، وعندنا: (أبو الحسين)؛ وهو الصَّواب.

(٢) (الرويدي) هكذا في: «التَّوضيح» وهكذا هو في نسختنا، ولعل صوابه: (الروندي) بالنون، ويقال: (الرَّاوندي)؛ وهو الأشهر.

(٣) «توضيح المشتبه» ٩/٩٧-٩٨.

(٤) راجع الملحق الثالث بآخر هذا الكتاب.

نقل في كتابه: «نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب» نصًّا صدَّره بقوله: «وقال ابن حزم في: طوق الحمامة..». وقد تقدَّم ذكر هذا[1].

وبهذه الصيغة ذكر اقتباسًا آخر تضمَّن ثلاثة أبيات من (باب علامات الحبِّ)، وأعقبه بتعليق نادر لأبي عامر ابن مسلمة ـ أحد تلاميذ ابن حزم ـ، وقد ترجمتُ له في موضعه.

نعم؛ ولم أجد أحدًا من أهل العلم شكَّ أو شكَّك في صِحَّة نسبة هذا الكتاب لابن حزم، وإنَّما سمعت كثيرًا من عوامِّ المثقفين يشُكُّون فيها، فرأيت ذكر هذه النُّقولات عن بعض كبار الأئمة، ليطمئنَّ القارئ وهو يقطع مسافة الأرض والزَّمن إلى ابن حزم وبلاط مغيث!

ثم رأيت بعض الجهلة المتعالمين من الورَّاقين[2]؛ قد ذكر «طوق الحمامة» وقال:

«وفي نسبة هذا الكتاب إليه نظر»!!

---

(١) في التَّعليق على (ترجمة المصنِّف) عند ذكر نماذج من شعره.

(٢) في مقدِّمته لرسالة ابن حزم: «أصحاب الفتيا» (ص: ٣٠، دار الكتب العلمية، ط١/بيروت ١٤١٥هـ) وهي رسالة صغيرة كان قد حققها: إحسان عباس وناصر الدين الأسد، مع «جوامع السيرة» (دار المعارف، القاهرة)، وتقع في ١٦ صفحة فقط، فجاء هذا الورَّاق وسرق المطبوع، ثمَّ علَّق عليه تعليقات مطوَّلة لا حاجة إليها، كالتعريف بالخلفاء الراشدين ومشاهير الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة، والإحالة إلى مصادر كثيرة لكل ترجمة، والإكثار من الدعاء بمناسبة وغير مناسبة، حتى (انتفخت) الرسالة، وصارت كتابًا مجلدًا في (٢٩٦) صفحة! ومع هذا لم يخل عمله من تصحيف وتحريف وأوهام!

قال عبد الحق التركماني عفا الله عنه: وهذا صنيع كثير من أهل زماننا مِمَّن امتهنوا التِّجارة بكتب الأئمة، يبالغون في التَّعليق، ويُكثرون العزو إلى المصادر؛ مع عدم قدرتهم على ضبط نصِّ الكتاب وتحريره، وقد اجتمعت عندي أمثلة كثيرة على هذا؛ لو أفردتها في كتاب لافتضح أقوام... والله المستعان، هو حسيبهم، وإليه منقلبهم.

قلت: إنَّما (النَّظر) في (جواز) أن يتكلَّم مثلك، والذي يقتضيه ـ أي النَّظر ـ شرعًا وعقلًا؛ أن يُحْجَرَ عليك وعلى أمثالك، حفاظًا على تراث الأمَّة.

٣ ـ عنوان الكتاب:

عنوان الكتاب كما ورد في النسخة الخطِّيَّة: «طوق الحمامة في الألفة والألاف».

وفي المصادر المذكور في الفقرة السابقة: «طوق الحمامة» وهذا اختصار للعنوان، كما يظهر ممَّا أثبته ابن ناصر الدِّين: «طوق الحمامة وظلُّ الغمامة».

وابن ناصر الدِّين الدِّمشقيُّ ـ رحمه الله ـ علامة متقنٌ، حجَّة فيما ينقل ويثبت، وقد صرَّح أنه وقف على الكتابِ ـ نفسِهِ ـ بنفسه، ونقل عنه في موضعين مختلفين من كتابه.

هذا؛ وقد كان العلامة المؤرِّخ الأديب المتفنِّن أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظَّاهري ـ نفع الله به ـ قد أشار عليَّ ـ عندما حدَّثته برغبتي في تحقيق هذا الكتاب[1] ـ؛ أن أضيف إلى العنوان كلمة: «مختصر»، وقال لي:

«إنَّ تحقيقك للكتاب لا يكتمل حتى تجعل عنوانه: مختصر طوق الحمامة، لأن ما بأيدينا الآن ليس نسخة كاملة، بل هو مختصر؛ كما

(١) وذلك أثناء زيارتي له في منزله في الرِّياض ـ حاضرة آل سعود ـ، بتاريخ: ١٤٢٠/٦/١٣هـ الموافق لـ ١٩٩٩/٩/٢٣م.

صرَّح به ناسخ المخطوطة» أو كلامًا نحو هذا[1].

والعلامة أبو عبد الرحمن الظَّاهري أعلم أهل عصرنا بالإمام ابن حزم؛ بسيرته وأخباره، وكتبه ورسائله، وفقهه وآرائه... ولو أدركه وتتلمذ عليه؛ لكان أحظى عنده من الحميديِّ! فرأيت أن آخذ برأي تلميذه المعاصر الذي تسلَّل إلينا عبر العصور!!

وبناءً على ما تقدَّم، فقد ترجَّح عندي أن يكون عنوان الكتاب هكذا:

«مختصرُ طوقِ الحمامةِ وظِلِّ الغمامة في الأُلفة والأُلاف»[2].

وهذا أوان شرح معناه:

قال الثَّعالبيُّ: (طوق الحمامة) يضرب مثلًا لما يلزم ولا يبرح، ويقيم ولا يريم. قال الجاحظ: قد أطبق العرب والأعراب والشُّعراء على أنَّ الحمامة هي التي كانت دليل نوحٍ ورائده، وهي التي اسْتُجْعِلَت عليه الطَّوق الذي في عنقها، وعند ذلك أعطاها الله تلك الزِّينة، ومنحها تلك الحِلْية، بدعاء نوحٍ ـ عليه السلام ـ حين رجعت إليه ومعها من الكرم ما معها،

---

(١) وقال في كتابه: «كيف يموت العشَّاق» ص ٣٠: «طوق الحمامة؛ طبع مختصره، ولا يعرف له نسخة كاملة».

قلت: وقد تقدَّم النقل عن الفيروزآبادي أنَّ الحجم الأصلي للطوق في: (نحو ثلاث مئة ورقة)، والمخطوطة التي بأيدينا اليوم في (١٣٨) ورقة فقط، فيكون النَّاسخ قد أسقط نحو نصف الكتاب؛ في أقل تقديرٍ، والله أعلم.

(٢) وقد جاء بعد ابن حزم ابنُ أبي الخصال: محمد بن مسعود الغافقي القرطبي، المتوفى سنة: (٥٤٠هـ)، فجعل هذا العنوان لأحد كتبه، ولكنه في غير هذا الباب، وهو: «ظل الغمامة وطوق الحمامة في مناقب من خصَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم من صحابته ـ رضي الله عنهم ـ بالكرامة، وأحلَّهم بشهادته الصَّادقة دار المقامة»؛ ذكره أبو الخطَّاب ابن دحية الكلبي في: «المطرب في أشعار أهل المغرب».

وفي رجليها من الطين والحمأة ما فيهما، فعوضت من ذلك خضاب الرِّجلين، ومن حسن الدِّلالة والطَّاعة طوق العنق[١].

قال الثَّعالبيُّ: وقد أكثر الشُّعراء في ذكر طوق الحمام، والتمثُّل به[٢].

قلت: فطوق الحمامة رمز للدوام والثَّبات، لأن طوق الحمامة لا يفارقها، ولا تلقيها عن نفسها أبدًا، كما قال ابن بسَّام البغدادي:

أبا عليٍّ لَقَدْ طوَّقْتَني مِنَنًا ... طوقَ الحمامة لا تَبْلى على القِدَم

ويضرب هذا مثلًا للخصلة الحسنة والقبيحة، وللمدح والذَّم، فمن الأول قول المتنبي:

أقامَتْ في الرِّقاب له أيَادٍ ... هي الأطْواقُ والنَّاسُ الحَمَامُ

يقول: إنَّ نعمه وأياديه لازمة لرقاب النَّاس لا تفارقها، كما تلزم الأطواق الحمام، يعني: أن الناس تحت مِنَنِهِ وأياديه، وهذا كما قال السَّريُّ الرَّفاء:

وطوَّقْتَ قومًا في الرِّقاب صنائعًا ... كأنَّهم مِنْها الحَمامُ المُطَوَّقُ

ومن الثَّاني قول بشر بن أبي خازم ـ يذم قومًا بغُدرة ارتكبوها ـ:

حَبَاكَ بِها مَوْلاكَ عن ظَهْرِ بغضَةٍ ... وقُلِّدَها طوقَ الحمامةِ جَعْفَرُ

ومنه قول يزيد بن مفرغ الحميري:

---

(١) هذا من الإسرائيليات، وقد ذكره أهل التاريخ أيضًا، انظر على سبيل المثال: «البداية والنهاية» ١/١١٦-١١٧.

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٤٦٥.

غَـدَرَتْ جـذيـمـةُ غـدرة مـذكـورةً   طوقَ الحمامة يُعرفون بها ضُحى

أما (ظِلُّ الغَمامة) فيضرب مثلًا لما لا يدوم بل يسرع انقضاؤه؛ كما قال الثَّعالبيُّ[1]، ومنه قول كُثَيِّر عَزَّة:

وإنِّـي وتَـهَـيـامِـي بِـعَـزَّةَ بـعـدَمـا   تَـخَـلَّـيْـتُ مِـمَّـا بـيـنـنـا وتَـخَـلَّـتِ
لَكـالـمُـرْتَـجِي ظِلَّ الغَـمَـامَةِ كُـلَّـما   تـبـوَّأَ منـهـا لـلـمَـقِـيـل اضْـمَـحَـلَّـتِ
كـأَنِّـي وَإِيَّـاهـا سَـحَـابَـةُ مُـمْـحِـلٍ   رَجَـاهـا فَـلَـمَّـا جَـاوَزَتْـهُ اسْـتَـهَـلَّـتِ

وقال ابن المعتزِّ:

ألا إنَّـمـا الـدُّنـيـا كـظـلِّ غـمـامـةٍ إذا   مـا رجـاهـا الـمـسـتَـظِـلُّ اضْـمَـحَـلَّـتِ
فـلا تـكُ مِـفْـرَاحًـا إذا هـي أقـبـلـتْ   ولا تـكُ مِـجْـزاعًـا إذا هـي وَلَّـتِ

وقد قيل: ستة أشياء لا ثبات لها: ظلُّ الغَمامة، وخُلَّة الأشرار، وعشق النِّساء، والثَّناء الكاذب، والسُّلطان الجائر[2].

و(الأُلـفـة) ـ بـالـضَّـم ـ: اسـم مـن الائـتِـلاف، وهـو: الاجـتـمـاع. والمقصود هنا الاجتماع على المودَّة والمحبة والاستحسان. و(الأُلاف) جمع آلِفٍ.

وبهذا يتَّضح مقصود ابن حزم من عنوان كتابه، إذ يشير بجزئه الأول؛ إلى الحبِّ الثابت، والوفاء الجازم، والمودَّة الأكيدة؛ التي تلازم صاحبها ملازمة (طوق الحمامة) لها. ويشير بجزئه الثَّاني؛ إلى الحبِّ الذي

(١) ثمار القلوب: ٥٤.
(٢) الرَّاغب الأصبهاني: «محاضرات الأدباء».

يزول، لنقص في صاحبه؛ من قلَّةِ وفاءٍ وصدقٍ، أو لأنه لم يكن في أصله إلا (ضربًا من الشَّهوة)، فهذا مثل (ظلِّ الغمامة) لا يدوم بل يسرع انقضاؤه. وتمام العنوان يوضِّح أن موضوع الكتاب ليس فقط في (العشق)، وإنما هو أعمُّ؛ فيشمل جنس المحبة والمودَّة والتآلُف.

هذا ما ظهر لي في فهم عنوان الكتاب، وأرجو أن أكون مصيبًا فيما كتبتُ، خاصَّة وأنه يتضمن تصحيحًا مهمًّا للعنوان، إذ لم يسبق وأنْ أتمَّ أحد من الدارسين أو المحقِّقين للكتاب؛ اسمه من: «توضيح المشتبه» على النَّحْو الذي فعلت، وربما يرجع السَّبب في ذلك أنَّ كتاب ابن ناصر الدِّين ـ رحمه الله ـ كان مخطوطًا إلى وقتٍ قريبٍ.

ولمَّا كان اسم الكتاب بصيغته السابقة المشهورة لا يدلُّ إلا على جزء من المعنى الذي قصده المصنِّفُ؛ فقد استشكله الدكتور إحسان عبَّاس؛ قال:

«إنها تسمية فريدة. . .، ولكنْ من درس أحوال الحبِّ في الكتاب؛ يجد أن معنى «الدَّوام» ليس من الأمور التي تلازم الحبَّ، لا من حيث النَّظرية، ولا من حيث التَّجربة، غير أنَّ هذا لا ينفي أن الطوق للحمامة زينةٌ مُنحتها بدعاء نوح ـ عليه السلام ـ، حين أرسلها لتستكشف المدى الذي سترسو عنده سفينته، فطوق الحمامة هنا كناية عن استلهام الجمال الذي هو مثار الحبِّ، أعني جمال الطوق لأنه حلية متميزة عن سائر لون الحمامة. ولست أستطيع هنا أن أتحدثَّ عن «الحمائم» التي تقود مركبة فينوس ـ ربَّة الحبِّ ـ في الأساطير الرومانية [تعالى الله عمَّا يشركون]، فربما كان التوجه إلى هذا المعنى إيغالًا في التَّصور، ونقلًا من حضارة إلى حضارة أخرى،

ولست كذلك أتوجه إلى أفانين الحبِّ التي يمارسها الحمام، والتي يرى الجاحظ ـ أو من نقل عنه ـ أنها هي عين الممارسات التي توجد لدى الإنسان[1]، كأنما هي صورة طبق الأصل في شتَّى المواقف؛ من إخلاص وغيرة وشذوذ وتضحية، وما إلى ذلك من فنون. ولكني حين أجدني أصل إلى الحَيْرة في سرٍّ هذه التسمية، أتوقف عند «الجمال» و«التميز»، وكأني بابن حزم يقول: هذا كتاب يتحدَّث عن العلاقة السِّرية بين الجمال والحب، أو هذا الكتاب بين الكتب كطوق الحمامة بالنسبة للحمامة، وعند هذا الحد أجد الثعالبي يقول: إن الحمامة أعطيت طوقها «من حسن الدلالة والطاعة»، فأضيف إلى الجمال والتميز عنصر «الطاعة» وهو عنصر هام في مفهوم الحبِّ»[2].

قلت: لعلَّ (الحيرة) في فهم (هذه التسمية) تزول بما تقدَّم من تصحيح اسم الكتاب وشرحه، وبالله تعالى التَّوفيق.

٤ ـ تاريخ التأليف:

ليس في الكتاب نصٌّ صريح بتاريخ تأليفه، وقد حاول غير واحد من الباحثين تحديده؛ من خلال نصوص الكتاب والتواريخ الواردة فيه، وقد لخَّص ذلك الدكتور إحسان عبَّاس تلخيصًا حسنًا، فقال[3]:

«تقلَّبت الأحوال بابن حزم تقلُّبًا (كبيرًا) في الفتنة، كان عمره حين انتقل أبوه من دورهم الجديدة بالجانب الشَّرقي (في ربض الزَّاهرة) إلى

---

(١) الحيوان: ١٦٣/٣.
(٢) رسائل ابن حزم: ٣٦/١ ـ ٣٧، وما بين المعقوفتين زيادة منِّي.
(٣) رسائل ابن حزم: ٣٨/١ ـ ٣٩.

دورهم القديمة في الجهة الغربية (أي: بلاط مغيث)؛ حوالي خمسة عشر عامًا وتسعة أشهر. وفي ذي القعدة من سنة **٤٠٢** توفي والده[١]، وقبلها بنحو عام توفي أخوه أبو بكر في الطَّاعون[٢].

وتوالت عليهم النَّكبات والاعتقال والمصادرة، ثمَّ احتل جند البربر منزل أهله، فاضطر للخروج عن قرطبة؛ أول المحرم سنة **(٤٠٤)**[٣]، فذهب إلى المريَّة يطلب الاستقرار فيها، ولم تطل فيها إقامته، فقد نكبه صاحبها خيران العامري إذ اتهمه مع صاحبه محمد بن إسحاق؛ بأنهما يسعيان في استعادة الدَّولة الأموية، فاعتقلهما أشهرًا، ثمَّ غربهما فذهبا إلى حصن القصر، ونزلا على صاحبه عبد الله بن هذيل التُّجيبي فرحَّب بها، ولما سمعا بقيام المرتضى عبد الرحمن بن محمد **(٤٠٧)** لإحياء الدولة الأموية؛ ركبا البحر من حصن القصر إلى لقائه في بلنسية، وسكنا معه فيها[٤]. ويبدو أن ابن حزم سار إلى قرطبة بعد اخفاق المرتضى ومقتله عند غرناطة، وكان الخليفة بقرطبة يومئذ القاسم بن حمُّود، فدخلها سنة: **(٤٠٩)**[٥].

وبقي فيها حتى لاحت الفرصة بمبايعة عبد الرحمٰن بن هشام النَّاصري، الذي لقِّب بالمستظهر **(٤١٤)**، فقرَّب إليه ابن حزم وابن عمِّه أبا المغيرة وابن شُهَيْد، لكن هذه الخلافة لم تدم أكثر من سبعة وأربعين يومًا، وبويع المستكفي فاعتقل ابن حزم وغيره من رجال المستظهر وسجنهم، ثم نراه سنة **٤١٧** في شاطبة، ولعله استوطنها قبل ذلك بقليل. وفي ذلك العام

---

(١) طوق الحمامة: (٢٧ ـ باب السُّلو).
(٢) نفسه: (٢٨ ـ باب الموت).
(٣) نفسه: (٢٧ ـ باب السُّلو).
(٤) نفسه: (٢٨ ـ باب الموت).
(٥) نفسه: (٢٧ ـ باب السلو).

جاء إليه صديق من المرية ونزل ضيفًا عنده بشاطبة، فلم يمض إلا وقت قصير حتَّى نشبت الفتنة بين أبي الجيش مجاهد العامري وخيران العامري (وكان ذلك سنة ٤١٧)، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب، «وتُحُومِيَت السُّبل، واحترس البحر بالأساطيل»؛ فاشتد الكرب بصديقه لأنه حيل بينه وبين العودة إلى هوىً له في المرية[١].

ويقول ياقوت ـ نقلًا عن صاعد الأندلسي ـ: إن ابن حزم وزر للمعتد بالله هشام بن محمَّد[٢]. ونحن نعلم أن أهل قرطبة أرسلوا بيعتهم إلى هشام وهو في البونت (البنت) في ربيع الآخر سنة ٤١٨، ثم انتقل إلى قرطبة سنة (٤٢٠). فإذا كان ابن حزم قد وزر له أولاً فقد انتقل إلى البنت، وإذا كان قد وزر له بعد ذلك فقد انتقل إلى قرطبة، ولكن الرِّسالة كتبت في شاطبة، ولا بدَّ أن يكون ذلك قد تمَّ في وقت ما بين سنتي (٤١٧ ـ ٤١٨).

وممَّا يزيد الأمر تحديدًا قول ابن حزم في حكم بن المنذر بن سعيد البلُّوطي: «وحكم ـ المذكور ـ في الحياة حين كتابتي إليك بهذه الرِّسالة، قد كفَّ بصره، وأسنَّ جدًّا»[٣]. وقد ذكر ابن بشكوال[٤] ـ نقلًا عن ابن مُدِيْر ـ أنَّ وفاة حكم كانت في نحو سنة عشرين وأربع مئة. وهذا يعني أن

---

(١) نفسه: (٢٤ ـ باب البَيْن).

(٢) «معجم الأدباء» ٢٣٧/١٢، وسقط هذا من ترجمة ابن حزم في: «طبقات الأمم»: ٧٦، ثم أضيف اعتمادًا على إحدى النُّسخ الخطِّية (ص: ١١٦، وتصحَّف المعتد إلى المقتدر).

(٣) طوق الحمامة: (١٤ ـ باب الطَّاعة).

(٤) في: «الصِّلة» ١٤٨/١، الترجمة: (٣٣٥)، ونقله الذَّهبيُّ في: «تاريخ الإسلام»، في المتوفَّين تقريبًا من رجال الطبقة: (٤٢) حوادث ووفَيات: (٤١١-٤٢٠هـ)، الترجمة: (٤٣٨).

وفاته تمَّت في ٤١٨، أو ٤١٩، أو أوائل سنة عشرين وأربع مئة[١]».

قلت: ومن خلال هذا التفصيل يتبيَّن أن ابن حزم قد صنَّف هذا الكتاب وهو لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من العمر، أو الرابعة والثلاثين في أكبر تقدير[٢]. وهذا يتوافق مع ما نجده في ثنايا الكتاب من مادَّة أدبية وتاريخية وفقهية زاخرة، تنبئ بأنه ـ رحمه الله ـ كان قد حصَّل قسطًا وافرًا من العلوم الشرعية واللغوية، ونال حظًّا كبيرًا من المعرفة في ميادين المنطق والفلسفة والشعر. وهذا يبطل ما يقال من أنَّ ابن حزم قد كتب كتابه هذا قبل أن يتوجه إلى دراسة الفقه والحديث وبقية علوم الشريعة.

٥ ـ طبعات الكتاب السَّابقة:

كان المستشرق الهولندي رينهارت دوزي (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣م)؛ أول من اكتشف النسخة الخطِّية المختصرة من: «طوق الحمامة»، وعرَّف بها في: «فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة ليدن»[٣]، وعندما نشر كتابه: «تاريخ مسلمي إسبانيا» عام ١٨٦١[٤]؛ نقل من «طوق الحمامة»

(١) انظر طه الحاجري: «ابن حزم؛ صورة أندلسية» ص ١٥٣-١٥٤.

(٢) وذهب الدكتور الطاهر أحمد مكي ـ وهو في ذلك ناقل عن بعض المستشرقين الأسبان! ـ إلى أن ابن حزم حرَّر كتابه بين عامي ٤١٢ و٤١٣ فيما يحتمل، وله من العمر ٢٨ سنة (مقدمة طوق الحمامة: ١٨، ودراسات عن ابن حزم: ٧٢). قلت: وهذا لا يصحُّ، فقد أخبر ابن حزم عن المنابذة التي حصلت بين مجاهد وخيران، وكانت كما قال الدكتور إحسان عباس سنة ٤١٧، وهو قول صحيح، نصَّ عليه ابن الأثير في: «الكامل في التاريخ»، وغيرُه.

(٣) Catalogus codicum orientalium bibliothecae academiae Lugduno Batavae, R.P.A. Dozy, vol 1, p 224-227, Leiden 1851.

(٤) Historia de los musulmanes de Espana, Reinhart P. Dozy, 1861. (Madrid 1988).

الصفحات المتصلة بقصَّة حبِّ ابن حزم الأول، وترجمها إلى فرنسية رقيقة وعذبة، فذاعت في كلِّ أنحاء أوربا، وأعطت الكتاب شهرة واسعة[(١)].

ثم إن المستشرق الروسي د. ك. بتروف ـ وكان أستاذًا شابًّا في جامعة بطرسبرج ـ قام بأعباء نشر الكتاب كاملًا، فحققه تحقيقًا متقنًا، وقدَّم له باللُّغة الفرنسية، وطُبع في مطبعة بريل العربية الشهيرة في ليدن، عام: **(١٩١٤)**[(٢)]، وجاء نصُّ الكتاب في **(١٤٥)** صفحة، مضبوط الشِّعر بالشَّكل، وألحق به فهرسًا للقوافي، وآخر للأعلام لكن بالحروف اللاتينية، وجدولاً بتصحيح الأخطاء المطبعية.

وإن الإنسان ليقف أمام هذا العمل العلمي الكبير متعجبًا ومندهشًا؛ لما فيه من آثار الذَّكاء، والدِّقة البالغة، والأمانة العلمية الرَّصينة، فقد استطاع بتروف أن يخرج الكتاب مضبوطًا غاية الضبط، خاليًا من السقط والتحريف[(٣)]، مع أن مخطوطة الكتاب وحيدة، والمصادر المساعدة ـ كانت في ذلك الوقت ـ قليلة ونادرة.

ثمَّ تتابعت طبعات الكتاب، لكنها كانت ـ كلُّها من غير استثناء[(٤)] ـ عالة على طبعة بتروف، فلم يرجع أحد ممَّن طبع الكتاب أو حقَّقه إلى النسخة الخطية أو مصوَّرتها! لهذا لم تخلُ واحدة منها من سقط، أو تحريف، أو تغيير لبعض الكلمات؛ بغية تصحيح المعنى. وعندما يفتقر الباحث إلى أصل يرجع إليه؛ يبدأ

---

(١) انظر: د. الطاهر مكي: مقدمة طوق الحمامة ص ٣٦/ دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤.

(٢) وهذه الطبعة بين يديَّ الآن، وتجد فيما يأتي نماذج مصوَّرة عن بعض صفحاتها.

(٣) إلا شيئًا يسيرًا، ولما لم يكن بتروف في صدد دراسة المتن ونقده؛ فإنه لم يصحح كثيرًا من الأخطاء التي وقع فيها ناسخ المخطوطة.

(٤) هذا ما تبيَّن لي من خلال اطلاعي على مختلف الطبعات، وأكَّده لي المستشرق الهولندي Dr. Jan Just Witkam.

بإعمال رأيه وفكره، فيقع في الخطأ من حيث لا يشعر!

وهذا تعريف موجز بتلك الطَّبعات:

١ ـ طبعة: محمد ياسين عرفة، صاحب مكتبة عرفة في دمشق، تقديم: محمد البزم، مطبعة البرهان، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م، في ١٧٨ صفحة، صدَّره بفقرات مقتبسة ومترجمة من مقدمة بتروف، وبموجز عن حياة ابن حزم.

٢ ـ طبعة المستشرق الفرنسي: ليون برشيه Leon Bercher، الجزائر، مكتبة Carbonel، ١٩٤٩م، بالنَّص العربي وترجمة فرنسية عنه[١].

٣ ـ تحقيق: الأديب الشاعر حسن كامل الصَّيرفي (ت: ١٤٠٤هـ)، وتقديم: إبراهيم الإبياري، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٠م، و١٩٥٩، و١٩٦٤.

٤ ـ مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٥٠م، طبعة شعبية.

٥ ـ عناية: فائق الجواهري، القاهرة، مطابع جويدة المصري، ١٩٥٢م، نشر تحت عنوان: (أصول الحب).

٦ ـ تحقيق فاروق سعد، بيروت، مكتبة دار الحياة، ١٩٦٨، و١٩٧٢، و١٩٨٦.

٧ ـ المكتبة الحسينية المصرية، القاهرة، ١٩٧٥.

---

(١) ولم يرجع ليون برشيه إلى النسخة الخطية، ولكنه بذل جهدًا كبيرًا في تصحيح نصوص الكتاب وتقويمها، ولعمله قيمة علمية كبيرة، وقد استفاد منه كل من جاء بعده ممن خدم الكتاب، وقد اطلعت على هذه الطبعة، واستفدت منها، وأشير إليها في الهوامش بكلمة: «برشيه».

٨ ـ مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت ١٩٧٨، طبعة شعبية.

٩ ـ تحقيق: د. إحسان عبَّاس، المجموعة الأولى من رسائل ابن حزم، بيروت ١٩٨٠. وضمن مجموع: «رسائل ابن حزم الأندلسي» ١٩/١ ـ ٣١٩، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢/بيروت: ١٩٨٧، وطبعته المؤسسة مفردًا في مجلد، ١٩٩٣م.

١٠ ـ تحقيق: صلاح الدين القاسمي، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، وطبعته دار الشؤون الثقافية ببغداد، ضمن مشروع النشر المشترك: ١٩٨٨م.

١١ ـ تحقيق: د. الطَّاهر أحمد مكي، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ودار الهلال ١٩٩٤ (طبعة ثانية مزيدة منقحة مصوَّرة!!)(١).

١٢ ـ وضع حواشيه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

١٣ ـ تحقيق: علي حمد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٣م.

١٤ ـ دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧م.



(١) وبين يدي هذه الطبعة، وأشير إليها في الهوامش بـ: (مكي).

٦- التَّرجمات[1]:

1. A book containing the Risala known as The dove's neck-ring about love and lovers. composed by Abu Muhammad Ali ibn Hazm al-Andalusi; transl. by A.R. Nykl. Paris, 1931.

2. A. Salie. (ترجمة روسية) Leningrad, 1933.

3. Halsband der Taube: über die Liebe und die Liebenden. von Abu-Muhammad Ali Ibn-Hazm al-Andalusi; aus dem Arabischen übersetzt von Max Weisweiler. Leiden, 1942.

4. Il collare della colomba: sull'amore e gli amanti. versione dall'arabo di Francesco Gabrieli. Bari, 1949.

5. Le collier du pigeon ou De l'amour et des amants. Parallelltitel: T'awq al-h'amma fî'l-ulfa wa'l-ullãf, Ibn H'azm al-Andalusî, texte arabe et traduction française, avec un avant-propos, des notes et un index Léon Bercher. Alger: Carbonel, 1949.

6. El collar de la paloma: tratado sobre el amor y los amantes, de Ibn Hazm de Còrdoba; traducido por Emilio García Gómez; con un prólogo de José Ortega y Gasset. Madrid,1952.

7. The ring of the dove: a treatise on the art and practice of Arab love, by Ibn Hazm; translated by A. J. Arberry. London,1953 (New York, 1981, ISBN: 0-404-17148-6).

8. De l'amour et des amants, Collier de la colombe sur l'amour et les amants; traduit de l'arabe, présenté et annoté par Gabriel Martinez-Gros. Paris, 1992, ISBN: 2-7274-0210-4.

9. De ring van de duif: over minnaars en liefde. Vertaald uit het Arabisch en ingeleid door Remke Kruk & J.J. Witkam. Amsterdam, 1977. ISBN: 90-290-0503-3.

10. Güvercin Gerdanllgtı; Sevgiye ve sevenlere dair. Çeviren:Mahmut Kanlk, Tashih: Ismail örgen. iNSAN YAYINLARI, Istanbul 1985, 1997. (1998, ISBN:9757732605).

---

(١) وهي حسب ترتيب ذكرها: الإنجليزية، والروسية، والإيطالية، والفرنسية، والإسبانية، والإنجليزية الثانية، والفرنسية الثانية، والهولندية والتركية. وهذه أشهر التَّرجمات، ولعله يوجد ترجمات أخرى لم أعلم بها. وقد اطلعت على الترجمات: (١، ٣ـ٧، ٩، ١٠)، وذكر الدكتور إحسان عبَّاس الترجمات: (١ـ٦)، وأفادتني الأستاذة الدكتورة إيفا رياض؛ بالتَّرجمات: (٧ـ٩).
وأخبرني الأستاذ الدكتور تول Christopher Toll، بأنَّه يعمل ـ منذ سنوات ـ على ترجمة الكتاب إلى اللغة السويدية، وسينتهي منه قريبًا؛ إن شاء الله تعالى، وكان ترجم (باب علامات الحبِّ) إلى السويدية، ونُشِرَ ضمن سلسلة أفضل النصوص العالمية:
"Om kärlekens kännetecken", i Världens bästa essayer i urval. Stockholm, 1961.

٧ ـ منهج التحقيق:

يمكن تلخيص منهجي وعملي في خدمة هذا الكتاب؛ بما يلي:

١ ـ بعد إعادة تنضيد الكتاب؛ قمت بمقابلته على النسخة الخطية[(١)]، مقابلة دقيقة متأنية، ثم بعد الانتهاء من تحقيق الكتاب؛ قابلته على المخطوطة من جديد.

٢ ـ لم أر إثقال هوامش الكتاب بالإشارة إلى الأخطاء الإملائية، أو الأخطاء البيِّنة الظَّاهرة التي وقع فيها ناسخ الأصل[(٢)]، بل اكتفيت بالإشارة إلى ما يمكن أن تختلف فيه وجهات النظر ويكون موضع بحث واجتهاد. وأشير إلى النسخة المخطوطة بحرف: (خ)، أو بـ(الأصل).

٣ ـ لمَّا كان الدكتور إحسان عبَّاس ـ وهو متخصص حجَّة في الدراسات الأندلسية؛ التاريخية والأدبية ـ قد خدم هذا الكتاب خدمة متميزة، وعلق عليه تعليقات نافعة؛ فقد رأيت أن اتَّكِأَ إلى تعليقاته التي هي

---

(١) ولا يفوتني هنا أن أسجِّل كبير شكري للأستاذة الدكتورة إيفا رياض (معهد اللُّغات السَّامية بجامعة أبسالا في السويد) فإنها ما أن علمت برغبتي في تحقيق هذا الكتاب؛ حتى وضعت بين يديَّ مصوَّرتها الخاصة من المخطوطة؛ فوفَّرت عليَّ كثيرًا من الوقت والجهد، وهذا دأبها في كلِّ ما من شأنه خدمة العمل العلميِّ الجاد.
ثمَّ قامت مكتبة جامعة ليدن بوضع مصورة جميع أوراق المخطوطة على الشبكة العالمية (الانترنيت)؛ على هذا العنوان:

http://bc.leidenuniv.nl/olg/selec/Tawq/index.htm

(٢) وكذلك لم أشر إلى ما وقع في النسخ المطبوعة من سقط، وتحريف، وتصحيف، وتغيير لبعض الكلمات(!)؛ في مواضع كثيرة جدًّا، ولم تخل من ذلك طبعة الدكتور إحسان عبَّاس ولا طبعة الدكتور الطاهر أحمد مكي، لعدم اطلاعهما على النسخة الخطية، ولا على طبعة بتروف! وتتبع تلك الأخطاء ليس مما ينفع القارئ، خاصة وقد أغنانا الله تعالى بالرجوع إلى النسخة المخطوطة.

في مجال اختصاصه، خاصة وأنها تتعلق بمادة تاريخية لا تقبل ـ في غالبه ـ التغيير، وإعادة صياغتها لا تخرجها عن الصُّورة التي توصل هو إليها أولاً. لهذا فقد احتفظت بجملة كبيرة من تعليقاته، وميزتها بحرف: (ع) في آخرها. واستفدت أيضًا من الطبعات الأخرى للكتاب، خاصة طبعة بتروف[1]، وطبعة برشيه، والطاهر أحمد مكي، وأشرت في مواضع كثيرة إلى رأيهم في ضبط المواضع المُشْكِلة.

٤ ـ وكان العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر ـ (توفي سنة ١٤١٨هـ) رحمه الله تعالى ـ قد قيَّد تصحيحاته وقراءاته لبعض كلمات وعبارات الكتاب في قائمة أوردها الدكتور إحسان عبَّاس كاملة[2]. فرأيت من حقِّ العلامة الراحل، ومن حقِّ القارئ عليَّ؛ أن أشير إليها في مواضعها من الكتاب إشارة واضحة.

٥ ـ خرَّجت أحاديث الكتاب تخريجًا موجزًا، يعرف به درجة الحديث، وحاولت تخريج الآثار ـ أيضًا ـ لكنِّي لم أبذل في تخريجها نفس الجهد.

٦ ـ علَّقت على مواضع في الكتاب؛ ظهر لي أنَّ المصنِّف ـ رحمه الله ـ قد جانب الصَّواب فيها، وعلى مواضع أخرى أحببتُ الإشارة عندها إلى فوائد مناسبة، لكني لم أتكلَّف في ذلك، والتزمت الاختصار ما أمكن[3]، حرصًا منِّي على عدم (نفخ) حجم الكتاب بما لا طائل تحته.

---

(١) والإشارة إليها بـ (بتروف)، أو: (ب).

(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي: ٢/٢٤٥-٢٤٧.

(٣) إلا في مواضع قليلة؛ اقتضى المقام فيها التطويل.

٧ ـ صنعتُ فهارس تيسِّر الانتفاع بمادة الكتاب.

ولقد بذلت جهدًا كبيرًا في خدمة هذا الكتاب؛ ضبطًا وتحقيقًا وتحريرًا، وأعترف أنني لم أبلغ الغاية، بل إنني لم أحقِّق ما كان في نفسي من ذلك! ومهما يكن الباحث دقيقًا ومتأنيًا في عمله فلا بدَّ أن يقع في أخطاءٍ وأوهام، بَلْهَ ما أنا فيه؛ «مِنْ نُبوِّ الدِّيار، والجلاء عن الأوطان، وتبدُّل الأيام، وتغيُّر الإخوان، وفساد الأحوال، والغُرْبة في البلاد، واليأس عن الرُّجوع إلى موطن الأهل»، ومُدَافعة الأمراض، وتحمُّل الأوجاع، لا جعلنا الله من الشَّاكِين إلا إليه، إليه ملجؤنا، وهو ملاذنا، لا حول ولا قوَّة إلا به، له الحمد في الأولى والأخرى، وصلى الله على محمَّد وعلى آله وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

كتاب فيه الرسالة

المعروفة بطوق الحمامة في الألفة والألاف

تأليف أبي محمد علي بن حزم الأندلسي

عفا الله عنه وغفر له

Ex Legato Viri Ampliss. LEVINI WARNER

صفحة عنوان المخطوطة (وجه الورقة الأولى)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين

قال أبو محمد عفا الله عنه : أفضل ما ابتدي به حمد الله عز وجل
بما هو أهله ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة وعلى جميع أنبيائه
عامة . وبعد عصمنا الله وإياك من الحيرة ولا حملنا ما لا طاقة لنا
به وقيض لنا من جميل عونه دليلا هاديا إلى طاعته ووهبنا من توفيقه
أسبابا صارفة عن معاصيه ولا وكلنا إلى ضعف عزائمنا وخور قوانا ووهاء
بنيتنا وتلدد آرائنا وسوء اختيارنا وقلة تمييزنا وفساد أهوائنا فإن
كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من
حسن حالك ما سرني وحمدت الله عز وجل عليه واستدمته لك
واستزدته فيك ثم لم ألبث أن اطلع علي شخصك وقصدتني بنفسك على بعد
الشقة وتنائي الديار وشحط المزار وطول المسافة وغول الطريق وفي
دون هذا ما سلى المشتاق ونسي الذاكر إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك
ورعى سالف الأذمة ووكيد المودات وحق النشأة ومحبة الصبا وكانت
مودته لله تعالى ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون
وشاكرون وكانت معانيك في كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك

بداية الكتاب (ظهر الورقة الأولى من المخطوطة)

ثم الأسباب الثلاثة الباقية التي هي من قبل المحبوب فالمتصبر
من الناس فيها غير مذموم لما سنورده إن شاء الله في كل فصل
منها. فأما النفار يكون في المحبوب والانزواء فاقطع للأطماع
وإني لأخبرك عني أني ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية
نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ست عشرة سنة وكانت
غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها
عديمة الهزل منيعة البذل بديعة البشر مسبلة الستر فقيدة
الذام قليلة الكلام مغضوضة البصر شديدة الحذر نقية من
العيوب دائمة القطوب حلوة الإعراض مطبوعة الانقباض
مليحة الصدود رزينة القعود كثيرة الوقار مستلذة النفار
لا توجه الأراجي نحوها ولا تقف المطامع عليها ولا معرس
للأمل لديها فوجهها جالب كل القلوب وحالها طارد من أمها
تزدان في المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل
موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو على أنها كانت
تحسن العود إحسانًا جيدًا فجنحت إليها وأحببتها حبًا مفرطًا شديدًا

فسعيت

قصّةُ حُبٍّ، يحكيها صاحبها!

أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجمًا إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُّلو، ظهر الورقة ٩٩)

فسعيت عامين أو نحوهما في أن تجيبني بكلمة وأسمع من فيها لفظة
غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع بأبلغ السعي فما وصلت
من ذلك إلى شيء البتة فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض
ما يصطنع له في دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا ودخلة
أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من
خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله فلبثن صدرا
من النهار ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على
بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها مفتحة
الأبواب فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن
فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها
متعرضاً للدنو منها فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك
ذلك الباب وتقصد غيره في لطف من الحركة فأتعمد أنا
القصد إلى الباب الذي صارت إليه فتعود إلى مثل ذلك
الفعل من الزوال إلى غيره وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر
سائر النسوان بما نحن فيه لأنهن كن عدداً كثيراً وإذ كلهن ينتقلن

قصَّةُ حُبٍّ، يحكيها صاحبها!

أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجمًا إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُّلو، وجه الورقة ١٠٠)

من باب الى باب لسبب الاطلاع من بعض الابواب على جهات
لا يطلع من غيرها عليها واعلم ان قيافة النسا في من ميل اليهن
انفذ من قيافة مدلج في الاثار ثم نزلن الى البستان فرغب
عجايزنا وكرايمنا الى سيدتها في سماع غنايها فامرتها فاخذت
العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله وان الشي يتضاعف
حسنه في عين مستحسنه ثم اندفعت تغني بابيات العباس
ابن الاحنف حيث يقول

اني طربت الى شمس اذا غربت كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية كان اعطافها طي الطوامير
ليست من الانس الا في مناسبة ولا من الجن الا في التصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عبهرة والريح عنبرة والكل من نور
كانها حين تخطو في مجاسدها تخطو على البيض او حد القوارير

فلعمري لكان المضراب انما يقع على قلبي وما نسيت ذلك اليوم
ولا انساه الى يوم مفارقتي الدنيا وهذا اكثر ما وصلت اليه من
التمكن من رويتها وسماع كلامها وفي ذلك اقول

قصَّةُ حُبٍّ؛ يحكيها صاحبها!

أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجمًا إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُّلو، ظهر الورقة ١٠٠)

لا تلمها على النفار ومنع الوصل ما ذا أكثر لها تنكير (٢٠)
هل يكون الهلال غير بعيد أو يكون الغزال غير نفور (٢١)
وأقول ـــــــــــــ (٢٢)
منعت جمال وجهك مقلتينا ولفظك قد ضننت به علينا (١)
أراك نذرت للرحمن صوماً فلست تكلمين اليوم حيا (٢)
وقد غنيت للعباس شعراً هنيئاً ذا العباس هنيا (٣)
فلو يلقاك عباس لأضحى لفوزقاليا وبكم شجيا (٤)
ثم انتقل الوزير أبي رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب
الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب
الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير
المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله وذلك
في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلمائة ولم تنتقل هي
بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين
هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته وامتحنا
بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار وأرزمت

قصّةُ حُبٍّ، يحكيها صاحبها!

أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجمًا إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُّلو، وجه الورقة ١٠١)

الفتنة والقت باعها وعمتنا الناس وخصتنا الى ان توفي ابي
الوزير رحمه الله ونحن في هذه الاحوال بعد العصر يوم السبت
لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنين واربعماية واتصلت
بنا تلك الحال بعده الى ان كانت عندنا جنازة لبعض اهلنا
فرايتها وقد ارتفعت الواعية قايمة في المأتم وسط النساء
في جملة البواكي والنوادب فلقد اثارت وجدا دفينا وحركت
ساكنا وذكرتني عهدا قديما وحبا تليدا ودهرا ماضيا
وزمنا عافيا وشهورا خوالي واخبارا بوالي ودهورا
فواني واياما قد ذهبت وآثارا قد دثرت وجددت
احزاني وهيجت بلابلي على اني كنت في ذلك لنها مرزأ مصابا
من وجوه وما كنت نسيتها ولكن زاد الشجا وتوقدت
اللوعة وتأكد الحزن وتضاعف الاسف واستجلب الوجد
ما كان منه كامنا فلباه مجيبا فقلت قطعة منها

يبكى لميت مات وهو مكرم ۝ والحي اولى بالدموع الذوارف

فيا عجبا من آسف لامرئ ثوى ۝ وما هو للمقتول ظلما بآسف

ثم

قصّةُ حُبٍّ، يحكيها صاحبها!

أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجمًا إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُّلو، ظهر الورقة ١٠١)

ثم ضرب الدهر ضربانه واجلينا عن منازلنا وتغلب علينا
جند البربر فخرجت عن قرطبه اول المحرم سنه اربع واربعمايه
وغابت عن بصري بعد تلك الروية الواحدة ستة اعوام
واكثر ثم دخلت قرطبه في شوال سنه تسع واربعمايه فنزلت
على بعض نسآينا فرايتها هنالك وما كدت ان اميزها حتى
قيل لي هذه فلانه وقد تغيرا اكثر محاسنها وذهبت نضارتها
وفنيت تلك البهجه وغاض ذلك المآ الذي كان يرى كالسيف
الصقيل والمراة الهنديه وذبل ذلك النوار الذي كان
البصر يقصد نحوه متبورا ويرتاد فيه متحيرا وينصرف عنه
متحيرا فلم يبق الا البعض المنبي عن الكل والخبر المخبر عن
الجميع وذلك لقلة اهتبالها بنفسها وعدمها الصيانه التي
كانت غذيت بها ايام دولتنا وامتداد ظلنا ولتبذلها في
الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل
ذلك وانما النسآ رياحين متى لم تتعاهد نقصت ومتى
لم يهتبل بها استهدمت ولذلك قال من قال احسن

قصَّةُ حُبٍّ، يحكيها صاحبها!

أوَّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجمًا إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُّلو، وجه الورقة ١٠٢)

الرجال اصدق صدقًا واثبت اصلًا واعتق جودة لصبره على ما لو
لقي بعضه وجوه النسآ لتغيرت اشد التغير بسبيل الهجير والسموم
والرياح واختلاف الهوآء وعدم الكن واني لو نلت منها اقل وصل
وانست لي بعض الانس لخولطت طربًا او لمت فرحًا ولكن هذا
النفار الذي صبرني واسلاني وهذا الوجه من اسباب السلو
صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم اذ لم يقع تثبت يوجب
الوفآ ولا عهد يقتضي المحافظة ولا سلف ذمام ولا فرط تصادق
يلام على تضييعه ونسيانه ۞ ومنها الجفآ يكون من المحبوب
فاذا افرط فيه واسرف وصادف من المحب نفسًا لها بعض
الانفة والعزة تسلى واذا كان الجفآ يسيرًا منقطعًا او دائمًا
او كثيرًا منقطعًا احتمل واغضي عليه حتى اذا كثر ودام فلا بقآء
عليه ولا يلام الناسي لمن يحب في مثل هذا ومنها الغدر وهو
الذي لا يحتمله احد ولا يغضي عليه كريم وهو المسلاة حقًا ولا
يلام السالي عنه على اي وجه كان ناسيًا او متصبرًا بل اللائمة
لاحقة لمن صبر عليه ولله ان القلوب بيد مقلبها لا اله الا هو

وله

قصَّةُ حُبٍّ؛ يحكيها صاحبها!

أوّل ما نُشِرَ من الكتاب مترجمًا إلى الفرنسية (٢٧ ـ باب السُّلو، ظهر الورقة ١٠٢)

فلولا اعتداء الجسم ايقنت انهم يعيشون عيشًا مثل عيش الملائك
فيا رب قدسهم وزدني صلاحهم وصل عليهم حيث حلوا وبارك
ويا نفس جدي لا تملي وشمري لنيل سرور الدهر فيما هنالك
واتبع نهج هجر سعيك في الهوى علمت بان الحق ليس كذلك
فكم بين اسرار الشريعة للورى بين من زهر النجوم السوالك
فلا تيئسي جهدي في خلاصك وانظري نفاد السيوف المرهفات البواتك
فلو اعمل الناس التفكر في الذي له خلقوا ما كان حي بضاحك

باب فضل التعفف

ومن افضل ما ياتيه الانسان في جهة التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة وان لا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة وان لا يعصي مولاه المتفضل عليه الذي جعله مكانا واهلا لامره ونهيه وارسل اليه رسله وجعل كلامه ثابتًا لديه عناية منه بنا واحسانًا الينا وان من هام قلبه وشغل باله واشتد شوقه وعظم وجده ثم ظفر فرام هواه ان يغلب عقله وشهوته وان يقهر دينه ثم اقام

العورا

٣٠ ـ باب فضل التعفُّف. (ظهر الورقة ١٢٧)

الذاكرين آمين آمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ○ كملت الرسالة
المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم
رضي الله عنه بعد [illegible] أكثر أشعارها وإبقاء العيون منها
تجنبا لإطالتها لمحاسنها وتصغيرا لحجمها وتسهيلا لوجدان
المعاني الغريبة من ألفاظها بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه
وفرغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلثين وسبعمائة
والحمد لله رب العالمين

الصفحة الأخيرة من المخطوطة (ظهر الورقة ١٣٨)

كتاب فيه الرسالة

المعروفة بطوق الحمامة في الالفة والألاف

تأليف ابي محمد علي بن حزم الاندلسي

عفا الله عنه وغفر له

وللمسلمين

طبع في مطبعة بريل في مدينة ليدن
سنة ١٩١٤

صفحة عنوان طبعة د.ك. بتروف؛ بالعربية، ليدن ١٩١٤م

ABŪ-MUHAMMED-ALĪ-IBN-HAZM
AL-ANDALUSĪ

ṬAUK-AL-ḤAMÂMA

PUBLIÉ D'APRÈS L'UNIQUE MANUSCRIT DE LA
BIBLIOTHÈQUE DE L'UNIVERSITÉ DE LEIDE

PAR

D. K. PÉTROF
Professeur à l'Université Impériale de St-Petersbourg.

LIBRAIRIE ET IMPRIMERIE
CI-DEVANT E. J. BRILL — LEIDE
1914.

صفحة عنوان طبعة د.ك. بتروف؛ بالفرنسية، ليدن ١٩١٤م

15

باسم الله الرّحمن الرّحيم وبه أستعينُ

قال ابو محمّد عفا الله عنه أفضلُ ما ابتدى بــه حمد الله عزّ وجلّ بما هو اهله ثم الصلاة على محمّد عبده ورسوله خاصّة وعلى جميع انبيآيــه عامّة وبعد عصمنا الله وإياك من الحيرة ولا حمّلنا ما لا طاقة لنا به وقيّض لنا من جميل عونه دليلا هاديا الى طاعته و وهبنا من توفيقه أدبًا(؟) صارفا ه عن معاصيه ولا وكلنا الى ضعف عزايمنا وخور قوانا و وهاء بنيتنا[1] وتلدّد ارايِنا[2] وسوء اختيارنا وقلّة تمييزنا وفساد اهوآينا فانّ كتابك وردنى من مدينة المريّة الى مسكنى بحضرة شاطِبَةَ تذكر من حسن حالك ما يسرّنى وحمدت الله عزّ وجلّ عليه واستدمته لك واستزدته فيك ثم لم البث ان اطلع على شخصك وقصدتنى بنفسك على بعد الشقّة وتناءى الديار وشحط المزار ١٠ وطول المسافة وغول الطريق وفى دون هذا مــا سلّى المشتاق و نسّى الذاكر الاّ من تمسّك بحبل الوفاء مثلك و رعى سالف الاذمّــة و وكيد المودّات وحقّ النشأة ومحبّة الصبى وكانت مودّته لله تعالى ولقد اثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون وكانت مغازيك فى كتابك 2a زايدة على ما عهدتُه من ساير كتبك ثم كشفت الىّ باقبالك غرضك واطلعتنى ١٥ على مذهبك سجية لم تزل علينا من مشاركتك لى فى حلوك ومرّك وسرّك وجهرك بحدوك الودّ الصحيح الذى انا لكـ على اضعافه لا ابتغى جزآءه غير مقابلته بمثله وفى ذلك اقول مخاطبا لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة ابن امير المومنين الناصر رحمه الله فى كلمة لى طويلة وكان لى صديقا ١٦

(1) Leçon proposée par M. Snouck Hurgronje; dans le MS peu lisible.
(2) MS آرايِنا.

الصفحة الأولى من طبعة د.ك. بتروف، ليدن ١٩١٤م

تراث ابن حزم

الكتاب الخامس

طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف

تصنيف

أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي

(٣٨٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٤٤ - ١٠٦٤م)

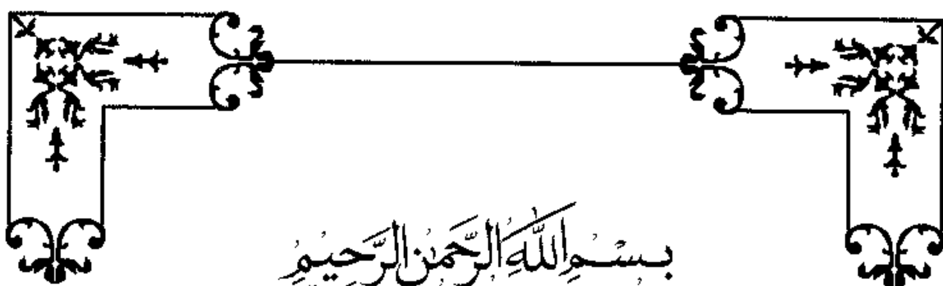
دراسة وتحقيق

عبد الحق التركماني

مراجعة

عبد العزيز بن علي الحربي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة



وبه أستعين / (١أ)



[المقدّمة]

[صدر الرسالة]

قال أبو محمد ـ عفا الله عنه ـ:

أفضلُ ما أَبتدىءُ به حمدُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما هو أهلُهُ، ثُمَّ الصَّلاةُ علىٰ محمَّدٍ عبدِهِ ورسولِهِ خاصَّةً، وعلىٰ جميع أنبيائه عامةً.

وبعدُ ـ عَصَمَنا الله وإيَّاك من الحَيْرَةِ، ولا حمَّلنا ما لا طاقةَ لنا به، وقيَّض لنا من جميلِ عونِهِ دليلًا هاديًا إلىٰ طاعته، ووهبنا من توفيقه أدبًا صارفًا عن معاصيه، ولا وكَلنا إلىٰ ضَعْفِ عزائمنا، وخَوَرِ قُوَانا، ووهاءِ بِنْيَتِنَا، وتَلَدُّدِ آرائنا[1]، وسوءِ اختيارنا، وَقِلَّةِ تَمْييزِنا، وَفسادِ أهوائنا ـ: فإنَّ

(١) قد تقرأ ـ أيضًا ـ: «آرابنا»، والتلدّد: التحيّر (ع).

قلت: «آرائنا» واضحة في الأصل.

كتابَكَ ورَدَني من مدينة المَرِيَّة[1] إلىٰ مسكني بحَضْرةِ شاطبةَ[2]، تَذكُر مِنْ حُسْن حالِكَ ما يسرُّني، وحمدتُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه، واستَدَمْتُهُ لك، واستزَدْتُهُ فيكَ؛ ثمَّ لم ألبثْ أن اطَّلَعَ[3] عليَّ شخْصُكَ، وَقَصَدْتَني بنفسِكَ، علىٰ بُعد الشُّقَّةِ، وتنائي الدِّيار، وشَحْطِ[4] المزار، وطولِ المسافة، وغَولِ[5] الطَّريق؛ وفي دون هذا ما سلَّىٰ المشتاقَ، ونسَّىٰ الذَّاكرَ؛ إلا من تمسَّكَ بحبلِ الوفاءِ مِثْلك، ورعىٰ سالفَ الأذِمَّةِ، ووكيدَ المودَّات، وحقَّ النشأةِ، ومحبةَ الصِّبا، وكانت مودته لله ـ تعالىٰ ـ. ولقد أثبتَ الله بيننا من ذلك مَا نحنُ عليه حامدونَ وشاكرونَ.

وكانتْ مغازيكَ[6] في كتابكَ زائدةً علىٰ ما عهدتُهُ من سائرِ كُتُبِكَ، ثُمَّ/ (١ب) كشفتَ إليَّ ـ بإقبالِكَ ـ غرضَكَ، وأطلَعْتَني علىٰ مَذْهَبِك؛ سَجِيَّةً لم تزل عليها[7] من مشاركتك لي في حُلوكَ ومُرِّكَ، وسِرِّكَ وجَهْرِكَ، يَحدُوكَ الودُّ الصَّحيحُ الذي أنا لك علىٰ أضعافه، لا أبتغي علىٰ ذلكَ[8] جزاءً غيرَ

---

(١) المريّة (Almeria): بنيت عام ٣٤٤ وأصبحت أهم قاعدة للأسطول الأندلسي على البحر المتوسط (انظر: الروض: ١٨٣/٥٣٧، والترجمة: ٢٢٢، والزهري: ١٠١، والعذري: ٨٦) (ع).

(٢) شاطبة (Jativa): تقع إلى الجنوب الغربي من بلنسية، وكانت في الأيام الإسلامية مدينة حصينة يعمل بها كاغد لا نظير له (الروض: ٣٣٧، والإدريسي: (١٩٢ دوزي)، والعذري: ١٨، وآثار البلاد: ٥٣٩) (ع).

(٣) اطَّلع بمعنىٰ: طلع (ع).

(٤) الشَّحْطُ والشَّحَطُ والشُّحوط: البُعد. (الحربي)

(٥) الغَوْل: المشقّة، وبُعد المفازرة، والتراب الكثير. (الحربي)

(٦) كذا في الأصل، وعند بتروف. ومغزىٰ الكلام: مقصِدُه. وأثبتها (ع): معانيك. وقال: قرأها برشيه: مغازيك.

(٧) خ: علينا. غيّرها برشيه إلىٰ: «عليها» وتبعه (ع)، وهذا أكثر توافقًا مع السياق، ولكنّهما لم ينبّها علىٰ ما في الأصل.

(٨) «علىٰ ذلك» سقطت من طبعة بتروف وجميع الطبعات اللاحقة.

مقابلته بمِثْلِهِ، وفي ذلكَ أقولُ مخاطبًا لعُبَيْدِ الله بن عبد الرَّحمٰن بن المغيرة بن أمير المؤمنين النَّاصر[1] ـ رحمه الله ـ في كلمةٍ لي طويلةٍ ـ وكانَ لي صديقًا ـ: [من الطويل]

أودُّكَ وُدًّا ليسَ فيه غَضاضَةٌ ... وَبَعْضُ مَوَدّاتِ الرِّجالِ سَرابُ

وأَمْحَضُكَ[2] النُّصْحَ الصَّريحَ وفي الحَشَا ... لِوُدِّكَ نَقْشٌ ظاهِرٌ وكِتابُ

فَلَو كانَ في رُوحي سِواكَ[3] اقتلعتُه ... ومُزِّقَ بالكَفَّيْنِ عنه إهابُ

وما لِيَ غيرُ الوُدِّ مِنْكَ إرادةٌ ... ولا في سِواهُ لي إليكَ خِطَابُ

إذا حُزتُهُ فالأرضُ جَمْعاءُ والورىٰ ... هَباءٌ وسُكّانُ البلادِ ذُبَابُ[4]

---

(١) المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر قُتل خنقًا صبيحة الليلة التي مات فيها أخوه الحكم المستنصر في مؤامرة شرحها ابن حيان؛ (انظر: «الذخيرة» لابن بسام ١/٤: ٥٨ ط. بيروت) كي تكون البيعة مضمونة لأخيه الأصغر هشام المؤيد؛ ويقول ابن حزم في الجمهرة: ١٠٣ إن للمغيرة عقبًا من قبل عبيد الله بن عبد الرحمٰن بن المغيرة؛ وهذا هو صديقه الذي يذكره هنا في «الطوق»، وقوله «رحمه الله» يدلُّ على أنه كان قد توفي قبل تأليف «طوق الحمامة»، ولكنه خلَّف عقبًا كان ابن حزم يعرفهم أيضًا (ع).

وأمير المؤمنين الناصر، هو: النّاصر لدين الله، أبو المطرِّف عبد الرحمٰن بن محمَّد المرواني الأمويّ، باني مدينة الزّهراء، أعظم أمراء بني أُمية بالمغرب سلطانًا، وأطولهم في الخلافة مدة وزمانًا، دامت دولته خمسين سنة، وكان لا يمل من الغزو، افتتح سبعين حصنًا من أعظم الحصون، فيه سؤدد وحزم وإقدام، وسجايا حميدة، وكان ينطوي على دين، وحسنِ خُلقٍ ومُزاح. توفي في رمضان (٣٥٠هـ)، وله اثنتان وسبعون عامًا؛ رحمه الله. ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ٨/ الترجمة: (٦٢) و١٥/الترجمة: (٣٣٦).

(٢) خ: «وأَمْحَضْتُكَ»، وغيّرها (ع).

(٣) خ: «هواك»، وغيّرها برشيه وتبعه (ع).

(٤) علّق (ع) هنا بقوله: يعارض ابن حزم هنا ـ في هذه الأبيات ـ المتنبي وأبا فراس، وبيته هذا الأخير يذكّر بقول أحدهما:

إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوق التُّراب ترابُ

وكلَّفْتَنِي ـ أعزَّكَ اللَّهُ ـ أنْ أصنِّفَ[1] لك رسالةً في صِفَةِ الحبِّ ومعانيه وأسبابِهِ وأَعراضِهِ، وما يقع فِيهِ وَلَهُ[2] على سبيلِ الحقِيقَةِ، لا مُتَزَيِّدًا ولا مفنِّنًا، لكن مُورِدًا لما يَحْضُرُني علىٰ وَجْهِهِ وبحَسْبِ وقُوعِهِ، حيثُ انتهىٰ حفظي، وسَعَةُ باعي فيما أذكره. فبَدَرْتُ[3] إلىٰ مرغوبكَ، ولولا الإيجابُ لك لَما تكلَّفْتُهُ، فهذا من العَفْوِ[4]، والأولىٰ بنا مع قِصَرِ أعمارِنا ألا نَصرِفَها إلا فيما نرجُو به رَحْبَ/ المُنْقَلَبِ، وَحُسْنَ المآب غَدًا، وإنْ كانَ القاضي (٢أ) حُمام بن أحمد[5] حدّثني عن يحيىٰ بن مالك بن عائذ[6] بإسنادٍ يرفعه إلىٰ

---

(١) خ: أَصِفَ. وهكذا أثبتها بتروف وفي الطبعات اللاحقة كما أثبتنا.

(٢) يقع فيه وله: أي يحدث أثناءه ومن أجله وبسببه. ومن قرأ: «يحدث فيه [من] ولهٍ» فإنّما يوجه العبارة وجهة خاصة، إذ ليس كل ما يحدث في الحب ولهًا (ع). قلت: في (خ) كما أثبتنا من غير زيادة (من).

(٣) كذا في (خ) و(ب)، وجعلها برشيه: فبادرتُ. وهما بمعنًى.

(٤) في الأصل و(ب) وبرشيه: (فهذا من الفقر)، والمثبت أقربُ قراءةٍ لرسم الأصل، ويرى العلامة قاسم السامرائي أنَّ القراءة الصحيحة: (فهذا من اللَّغْو)، أي: مما لا ثواب فيه ولا عقاب، وهو مفهوم قرآني، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥]. أراد ابن حزم أن يقول: لولا أنّي وجدتُ نفسي مضطرًّا لإجابة طلبك في الكتابة عن الحبِّ؛ لما فعلتُ ذلك، لأنه من اللَّغو الذي لا قيمة له في ميزان الآخرة. وقد كرَّر ابن حزم هذا المعنى في خاتمة كتابه هذا، فقال: «وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتبه الملكان، ويحصيه الرقيبان من هذا وشبهه، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله، ولكنه إن لم يكن من اللَّغْو الذي لا يؤاخذ به المرء؛ فهو ـ إن شاء الله ـ من اللمم المعفو، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب».

(٥) حمام بن أحمد بن عبد الله: كان ـ في رأي ابن حزم ـ واحد عصره في البلاغة وسعة الرواية، ضابطًا لما قيّده، وَلِيَ قضاء يابرة وشنترين والأشبونة وسائر الغرب أيام عبد الملك المظفر ابن المنصور وأخيه عبد الرحمٰن، وتوفي بقرطبة (٤٢١)؛ (انظر ترجمته في الصلة: ١٥٣، والجذوة: ١٨٧؛ والبغية رقم: ٦٧٧) (ع).

(٦) خ: يحيىٰ بن مالك، عن عائذ. والصَّواب ما أثبتناه وهو: يحيىٰ بن مالك بن عائذ بن كيسان، الإمام المجوِّد، الحافظ المحقِّق، أبو زكريا الأندلسيّ، من أهل طرطوشة، سمع ببلده، ورحل إلى المشرق (٣٤٧هـ) فحجَّ، وكتب عن طبقات من =

أبي الدَّرداءِ [رضي الله عنه] أنَّه قالَ: أجِمُّوا النُّفوسَ بشيءٍ مِنَ الباطل ليكونَ عونًا لها علىٰ الحقّ[1]. ومن بَعْضِ أقوالِ الصَّالحينَ من السَّلف المرضيِّ: مَنْ لم يُحْسِنْ يتفتَّىٰ؛ لم يُحْسِنْ يتقرَّا[2]. وفي بعض الأثر: أَرِيحُوا النُّفوُسَ فإنَّها تَصْدَأُ كما يَصْدَأُ الحَدِيدُ[3].

= المحدِّثين بمصر، وبغداد، والبصرة، والأهواز. وعاد إلى بلده، وأملىٰ بجامع قرطبة. صعد المنبر ليخطب يوم الجمعة فمات في الخطبة في شعبان (٣٧٦هـ) فأُنزل، وطُلب في الحال مَن يخطب. كان صحيح الكتاب، وكان حليمًا، كريمًا، جوادًا، صوَّامًا، قوَّامًا؛ رحمه الله. ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ١٦/ الترجمة: (٣٠٧)، و«تاريخ الإسلام» (حوادث ووفيات: ٣٥١ ـ ٣٨٠ /ص: ٥٨٣ و٦٠٢).

(١) روى الدُّوريُّ في: «تاريخ ابن معين» (٥٤٠٥) عنه؛ قال: حدَّثنا أبو مُسْهِرٍ (عبد الأعلىٰ بن مسهر)، قال: حدَّثني صَدقة (بن خالد الأُمويُّ)، عن (عبد الرحمٰن بن يزيد) بن جابر قال: كان عُمَيْرُ بن هانِئٍ يضحك؛ فأقول: يا أبا الوليد ما هذا؟ قال: بلغني أنَّ أبا الدَّرداءِ كانَ يقول: إنِّي لأَسْتَجِمُّ ليكون أنشطَ لي في الحقِّ.

وهذا إسناد صحيح إلا أنَّ عمير بن هانيء ـ وهو تابعيٌّ ثقةٌ، قُتل سنة ١٢٧هـ؛ رحمه الله ـ لم يسمعه من أبي الدرداء؛ بل بلغه عنه. والأثر ـ بتمامه كما أورده المصنِّفُ؛ لكن بلفظِ إخبارِ أبي الدَّرداء عن نفسه ـ يَرِدُ ـ من غير إسنادٍ ـ عند ابن قتيبة في: «تأويل مختلف الحديث» ١/٢٩٥، والجاحظ في: «البخلاء»، وابن الجوزي في: «الحمقىٰ والمغفَّلين»، وابن عبد البر في: «بَهْجة المجالس»، والغزَّاليِّ في: «إحياء علوم الدِّين»؛ وغيرهم.

(٢) خ: يتقوّىٰ. وهكذا أثبتها بتروف. وقرأها برشيه: يتقرّىٰ. وفي (ع) كما أثبتنا، وقال: وهي بالألف الطويلة: يتقرّا. لأنها مخففة عن: «يتقرّأ» أي: يتنسّك. والمتقرِّىء: المتنسِّك. وفي أخبار أبي عمرو ابن العلاء أنه لمَّا تقرَّأ طمر كتبه. والمعنىٰ: إذا لم يحسن المرء أن يَتَفَتَّىٰ في فترة الفتوة؛ لم يستطع أن يتنسَّك حين يقع في دور النُّسك.

(٣) ذكره القاضي عِياض في مقدِّمة: «ترتيب المدارك، وتقريب المسالك» منسوبًا لعليٍّ ـ رضي الله عنه ـ؛ بلفظ: «سلُّوا النُّفُوس ساعةً...»، ونسبه ابن عبد البر في: «بهجة المجالس» ١/١١٦ لبعض العلماء؛ بلفظ: «حادثوا هذه القلوب فإنَّها...». وورد مرفوعًا: «إنَّ للقلوب صَدأً كصَدَىءِ الحديد؛ وجلاؤها الاستغفار» أورده الألباني في: «الضَّعيفة» (٢٢٤٢)؛ وحكم عليه بالوضع.

والذي كلَّفْتَنِي فلا بدَّ فيه من ذكر ما شاهَدَتْهُ حَضْرَتي، وأدركته عِنَايَتِي، وحدّثني به الثِّقاتُ من أهلِ زماني، فاغتفِرْ لي الكِناية عن الأسماءِ فهي إمَّا عورةٌ لا نستجيزُ كَشْفَها، وإمَّا نحافظُ في ذلك صديقًا ودودًا، ورجلًا جليلًا، وبحَسْبي أن أُسمِّي من لا ضَرَرَ في تسميته، ولا يَلحقنا والمسمَّىٰ عيبٌ في ذِكْرِه؛ إمَّا لاشتهارٍ لا يُغني عنه الطيُّ وتركُ التَّبيين، وإمَّا لرضيً من المخبَرِ[1] عنه بظهورِ خبره، وقلةِ إنكارٍ منه لنَقْلِه.

وسأُورد في رسالتي هذه أشعارًا قُلْتُها فيما شاهدته، فلا تنكرْ أنتَ ـ ومَنْ رآها ـ عليَّ أنِّي سالكٌ فيها مسلكَ حاكي الحديثِ عن نفسه، فهذا مذهبُ المتحلِّينَ بقولِ الشِّعْرِ. وأكبرُ[2] ذلك؛ فإنَّ إخواني يجشِّمُوني القولَ فيما يَعْرِضُ لهم علىٰ طرائقهم ومذاهبهم. وكفاني أنِّي ذاكرٌ لكَ ما عَرَضَ لي مِمَّا يشاكل ما نحوتُ نحوه، وناسِبُهُ إليَّ.

(٢ب) والتزمتُ في كتابي هذا الوقوفَ عند حدِّكَ، والاقتصارَ علىٰ ما رأيتُ/ أو صحَّ عندي بنقل الثِّقَاتِ، ودَعْني من أَخبارِ الأعراب والمتقدِّمينَ، فسبيلُهم غيرُ سبيلنا، وقد كَثُرَت الأخبارُ عنهم، وما مَذْهبي أنْ أُنْضِيَ مطيةَ سواي، ولا أتحلَّىٰ بحَلْيٍ مستعارٍ، والله المستغفَرُ والمستعانُ لا ربَّ غيره.

بابٌ:

وقسَّمْتُ رسالتي هذه علىٰ ثلاثينَ بابًا:

منها في أصول الحُبِّ عشرةٌ:

---

(١) خ: المحتقر.

(٢) في الأصل غير منقوطة. وأثبتها بتروف: «وأكثر»، وجعلها برشيه: «وأكثر من ذلك» وتبعه (ع). وما أثبته هو الصَّواب كما يظهر بالتَّأمُّل.

فأوّلها هذا الباب[1].

[ثُمَّ] في علامات الحبِّ.

ثُمَّ بابٌ فيه: ذِكْرُ مَنْ أحبَّ في النَّوم.

ثُمَّ بابٌ فيه: ذِكْرُ مَنْ أحبَّ بالوصف.

ثُمَّ بابٌ فيه: ذِكْرُ من أحبَّ مِنْ نظرةٍ واحدةٍ.

ثُمَّ بابٌ فيه: ذِكْرُ من لا تَصِحُّ محبته إلَّا مع المُطاوَلة.

ثُمَّ بابُ التَّعرِيضِ بالقَوْلِ.

ثُمَّ بابُ الإشارةِ بالعَيْنِ.

ثُمَّ بابُ المراسَلَةِ.

ثُمَّ بابُ السَّفِيرِ.

ومنها في أَعراضِ الحُبِّ وصفاته المَحْمُودةِ والمَذْمُومَةِ اثنا عَشَرَ بابًا ـ وإنْ كانَ الحبُّ عَرَضًا؛ والعَرَضُ لا يَحْتَمِلُ الأَعْراضَ[2]، وصفةً؛ والصِّفةُ

---

(١) يعني: «أولها هذا الباب الذي نحن فيه وفيه صدر الرسالة وتقسيم الأبواب والكلام في ماهية الحب»، فالكلام في ماهية الحب جزء من الباب الأول يسبقه جزآن آخران هما فاتحة الكتاب وذكر الأبواب (ع).

(٢) يقول ابن حزم (الفصل ٥:١٠٨) ولسنا نقول إن عرضًا يحمل عرضًا إلى ما لا نهاية له. قلت: وفي هذا إيماء إلى أن العرض قد يحمل عرضًا، وقد صرّح في موضع آخر (الفصل ٥:٤٧) أن بعض الأعراض قد يحمل الأعراض كقولنا: حمرة مشرقة وحمرة كدرة وعمل سيء وعمل صالح وقوة شديدة وقوة دونها في الشدة، ومثل هذا كثير (ع).

لا تُوصَفُ، فهذا علىٰ مجاز اللُّغة في إقامة الصِّفَةِ مقام الموصوف، وعلىٰ معنىٰ قولنا: وُجُودُنا عرضًا[1] أقلُّ في الحقيقة من عَرَض غيره، وأكثرُ، وأحسنُ، وأقبحُ في إداركنا لها علمنا[2] أنَّها متباينةٌ في الزيِّادة والنُّقْصان[3] من ذاتها المَرْئيَّةِ والمعلومة، إذ لا تقع فيها الكَمِّيَةُ ولا التَّجَزِّي، لأنَّها لا تَشْغَلُ مكانًا ـ وهي: / (٣أ)

بابُ الصَّديقِ المساعد.

ثُمَّ بابُ الوَصْل.

ثُمَّ بابُ طَيِّ السِّرِّ.

ثُمَّ بابُ الكَشْفِ والإذاعَةِ.

ثُمَّ بابُ الطَّاعةِ.

ثُمَّ بابُ المخالفة.

ثُمَّ بابُ مَنْ أحبَّ صفةً لم يُحبَّ بعدها غيرها مِمَّا يخالفها.

ثُمَّ بابُ القُنُوعِ.

ثُمَّ بابُ الوفاءِ.

ثُمَّ بابُ الغَدْرِ.

ثُمَّ بابُ الضَّنىٰ.

ثُمَّ بابُ المَوْتِ.

---

(١) خ: ووجودنا عرضٌ.

(٢) جعلها (ع): وعلمنا. مع التنبيه على زيادة الواو.

(٣) قولنا... والنقصان: عبارة تبدو مضطربة (ع).

ومنها في الآفات الدَّاخلة علىٰ الحبِّ ستةُ أبوابٍ؛ وهي:

بابُ العاذِلِ.

ثُمَّ بابُ الرَّقيب.

ثُمَّ بابُ الواشي.

ثُمَّ بابُ الهَجْرِ.

ثُمَّ بابُ البَيْنِ.

ثُمَّ بابُ السُّلُوِّ.

[و]من هذه الأبواب السِّتَّةِ بابانِ[1]؛ لكلِّ واحدٍ منهما[2] ضدٌّ من الأبواب المتقدِّمة الذِّكر، وهما[3]:

باب العاذل، وضدُّه بابُ الصَّديق المُسَاعِدِ.

بابُ الهَجْرِ، وضدُّه باب الوصل.

ومنها أربعةُ أبوابٍ لا ضدَّ لها من معاني الحبِّ وهي:

بابِ الرَّقيبِ، وباب الواشي، ولا ضدَّ لهما إلا ارتفاعُهُما - وحقيقة الضِّدِّ ما إذا وقعَ ارتفعَ الأوَّلُ، وإنْ كانَ المتكلمونَ قد اختلفوا في ذلك، ولولا خوفنا إطالةَ الكلام فيما ليسَ من جنسِ الكتاب لتقصَّيناه[4] -.

---

(١) خ: بان.

(٢) خ: منها.

(٣) خ: وهو.

(٤) تحدَّث ابن حزم عن التضاد في كتاب «التقريب» (ص: ٧١) فقال: والأضداد هي=

وبابُ البين وضدُّه تصاقُبُ الدِّيار[1]؛ وليس التَّصاقب من معاني الحبِّ التي نتكلَّم فيها.

وبابُ السُّلُوِّ؛ ضدُّه الحبُّ بعينه، إذ معنىٰ السُّلُوِّ ارتفاع الحبِّ وعدَمُهُ.

(٣ب) ومنها بابان ختمنا بهما الرِّسالةَ، وهما: /

بابُ الكلام في قُبْحِ المعصية، وبابٌ في فَضْل التَّعفُّفِ، ليكون خاتمةَ إيرادنا، وآخرَ كلامنا الحضُّ علىٰ طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والأمرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المنكر، فذلك مُفْتَرَضٌ علىٰ كلِّ مؤمنٍ.

لكنَّا خالفنا في نَسَقِ بعض هذه الأبواب هذه الرُّتبةَ المقسّمَةَ في دَرْجِ هذا الباب الذي هو أوَّلُ أبواب الرِّسالة، فجعلناها علىٰ مباديها إلىٰ منتهاها واستحقاقها في التَّقدُّمِ والدَّرجات والوجود، ومن أوَّلِ مراتبها إلىٰ آخرها، وجعلنا الضِّدَّ إلىٰ جنب ضدِّهِ فاختلفَ في المساقِ في أبوابٍ يسيرةٍ، واللَّهُ المُسْتَعانُ.

وهيئتها في الإيراد:

= كل نقطتين اقتسم معنياهما طرفي البعد وكانا واقعين تحت مقولة واحدة وكان بينهما وسائط فالسواد والبياض ضدان تحت جنس واحد هو اللون، والجود والشح تحت جنسين هما الفضيلة والرذيلة. وكل ضدين يدركان بحاسة واحدة، وكل ضدين إن كان أحدهما في النفس فالآخر فيها أيضًا... وقال: فالمتضادة هي ما إذا وقع أحدهما ارتفع الآخر وبينهما وسائط وفرق بين المتضادة والمتنافية، بأن المتنافية هي ما إذا ارتفع أحدهما وقع الآخر ولا وسائط بينهما، كالحياة والموت والاجتماع والافتراق (ع).

(١) تصاقُب الدِّيار: دنوُّ بعضها من بعض، من المصاقبة، وهي المجاورة والمقاربة.

[١] أوَّلها هذا البابُ الذي نحنُ فيه، وفيه صدر الرسالة، وتقسيمُ الأبواب، والكلامُ في ماهِيَّة الحبِّ.

[٢] ثُمَّ بابُ علامات الحُبِّ.

[٣] [ثُمَّ بابُ من أحبَّ في النَّوم].

[٤] ثُمَّ بابُ من أحبَّ بالوصف.

[٥] ثُمَّ بابُ من أحبَّ مِنْ نظرةٍ واحدةٍ.

[٦] ثُمَّ بابُ مَنْ لا يُحِبُّ إلاَّ مع المُطَاوَلة.

[٧] ثُمَّ بابُ من أحبَّ صفةً لم يحبَّ بعدها غيرها ممَّا يخالفها.

[٨] ثُمَّ بابُ التَّعْرِيضِ بالقول.

[٩] ثُمَّ بابُ الإشارة بالعَيْنِ.

[١٠] ثُمَّ بابُ المراسلة.

[١١] ثُمَّ بابُ السَّفِير.

[١٢] ثُمَّ بابُ طي السِّرِّ.

[١٣] ثُمَّ بابُ إذاعتِهِ.

[١٤] ثُمَّ بابُ الطَّاعة.

[١٥] ثُمَّ بابُ المخالَفَةِ.

[١٦] ثُمَّ بابُ العاذِل.

[١٧] ثُمَّ بابُ المساعد من الإِخوان.

[١٨] ثُمَّ باب الرَّقيب.

[١٩] ثُمَّ بابُ الواشي.

(٤أ) [٢٠] ثُمَّ بابِ الوصل. /

[٢١] ثُمَّ بابُ الهَجْرِ.

[٢٢] ثُمَّ بابُ الوفاء.

[٢٣] ثُمَّ بابُ الغَدْرِ.

[٢٤] ثُمَّ بابُ البَيْن.

[٢٥] ثُمَّ بابُ القُنُوعِ.

[٢٦] ثُمَّ بابُ الضَّنىٰ.

[٢٧] ثُمَّ بابُ السُّلُوِّ.

[٢٨] ثُمَّ بابُ الموتِ.

[٢٩] ثُمَّ بابُ قُبْحِ المعصية.

[٣٠] ثُمَّ بابُ فَضْلِ التَّعَفُّفِ.



الكَلامُ في ماهيَّةِ الحُبِّ

الحُبُّ ـ أعزّك الله ـ أوَّلُه هَزْلٌ، وآخِرُهُ جِدٌّ، دقّتْ معانيه لجلالتها عن أن توُصَفَ، فلا تدرك حقيقتها إلَّا بالمعاناة.

وليس بمنكَرٍ في الدِّيانة، ولا بمَحْظُورٍ في الشَّريعة، إذ القُلُوبُ بيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وقد أحبَّ من الخلفاء المهدِيِّين، والأئمةِ[1] الراشدين كثيرٌ، منهم بأندلسنا[2]:

عبدُ الرحمٰن بن معاوية[3]؛ لدَعْجاءَ.

والحكَمُ بن هشام[4].

وعبدُ الرحمٰن بن الحكم؛ وشغفه[5] بطَرُوب[6] أمِّ عبد الله - ابنه -؛ أشهرُ من الشَّمْسِ.

ومحمَّدُ بن عبد الرحمٰن[7]؛ وأمره مع غَزْلانَ - أُمِّ بنيه عثمان

---

(١) خ: وأئمة.

(٢) عبارة: وقد أحبَّ من الخلفاء الراشدين والأئمة المهدِيِّين - وفي بعض النسخ المهتدِين - (هكذا): وردت عند ابن قيم الجوزية في كتاب الجواب الكافي: ١٦٤، وعند الشيخ يوسف بن مرعي الحنبلي في منية المحبين (نسخة مكتبة بلدية الإسكندرية) الورقة: ٩ (انظر مقالة غرسيه غومس، مجلة الأندلس (١٩٥١): ٣٢٦؛ إلا أن كليهما لم يذكر أئمة الأندلس، ولعلهما لم يكونا يعتقدان أنهم أئمة راشدون واكتفيا بذكر عشق عُمر بن عبد العزيز لجارية زوجته (وقد فصل ابن القيم القصة ص:١٧١ كما وردت في تزيين الأسواق ٢:٦٥) وذكرا خبر عبيدالله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود (انظر الجواب الكافي: ١٥٨) (ع).

(٣) هو عبد الرحمٰن الداخل صقر قريش أبو المطرف (١٣٨ - ١٧٢هـ).

(٤) الحكم بن هشام حفيد عبد الرحمٰن الداخل (١٨٠ - ٢٠٦هـ) ولم يذكر مَن كان يحبّ؛ وقد ذكر ابن عذاري (البيان المغرب ٢:٧٩) أنه كان له خمس جوار قد استخلصهن لنفسه وملكهن أمره؛ ولعلَّ هذه الكثرة في العدد هي التي حالت بين ابن حزم وذكر هذه الحقيقة، لأن هذا التكثُّر يعارض معنى الحبّ كما يفهمه، مما سيجيء تبيانه (ع).

(٥) خ: وشغف.

(٦) عبد الرحمٰن بن الحكم أبو المطرف (٢٠٦ - ٢٣٨هـ)؛ وانظر جانبًا من أخباره مع طروب عند ابن عذاري (٢:٩٢) وابن الأبار (الحلّة السيراء ١: ١١٤، ١١٦) ومن غزله فيها:

وإما بدت لي شمس النهار طالعة ذكرتني طروبا

(٧) محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم أبو عبد الله (٢٣٨ - ٢٧٣هـ)، ولد نيفًا وثلاثين ذكرًا، وكان جلهم قد انقرض في أيام ابن حزم (الجمهرة: ٩٩) (ع).

والقاسم والمطرِّف[1] ـ؛ معلومٌ.

والحكمُ المستنصرُ؛ وافتتانه بصُبْح أمِّ هشامٍ المؤيِّدِ بالله[2] ـ رضي الله عنه، وعن جميعهم ـ وامتناعُه عن التَّعرُّضِ للولد من غيرها.

ومثل هذا كثير، ولولا أنَّ حقوقهم على المسلمين واجبةٌ ـ وإنَّما يجبُ أن نذكرَ من أخبارهم ما فيه الحَزْمُ وإحياءُ الدِّينِ، وإنَّما هو شيءٌ كانوا ينفردون بهِ في قصورهم مع عيالهم، فلا ينبغي الإخبارُ به عنهم[3] ـ لأوردتُ مِنْ أخبارهم في هذا الشَّأنِ غيرَ قليلٍ.

---

(١) نوَّه ابن حزم بالمطرف ابن الأمير محمد وبأنه كان شاعرًا مفلقًا عالمًا بالغناء، قال: وكان عثمان وإبراهيم ابنا محمد عارفين بالغناء جدًّا، ولم يذكر شيئًا عن القاسم إلا أنه كان يعرف أن رجلًا واحدًا من عقبه ربما بقي حتى أيامه (الجمهرة: **٩٩**)؛ وترجم الحميدي (الجذوة: **٣٧٧**) لمن اسمه أبو القاسم من أبناء الأمير محمد، وقال: إنَّه كان يُعرف بابن غزلان؛ وكان القاسم قد اختصّ الشاعر العتبيّ وله معه حكايات (المغرب **١ : ١٣٤**) (ع).

(٢) الحكم المستنصر أبو المطرف بن عبد الرحمٰن الناصر (**٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ**) الخليفة العالم؛ تزوج جارية بشكنسية اسمها صبح (Aurora) ورزق منها بابنه هشام الذي تولى الخلافة من بعده، ولم يكن له فيها إلا الاسم إذ قام بالأمر الحاجب المنصور بن أبي عامر؛ أمّا هشام فكان حكمه الاسمي (**٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ**) ومرة ثانية: (**٤٠٠ ـ ٤٠٣هـ**)؛ وقد ذهب بعضهم إلى تصوُّر علاقة عاطفية بين صبح والمنصور، دفعت بهذا إلى تحقيق طموحه؛ ولكن المصادر تشير إلى أنه استمالها بالهدايا والألطاف، وانتهى تضارب المصالح إلى كراهية عميقة (ع). وقال ابن حزم في: «نُقَط العروس» (الرسائل: **٢/٦٨**): ويقول قائلون: إنَّ أم هشام المؤيد استحلَّها ابنُ أبي عامر بنكاح سرٍّ، والله أعلم.

(٣) يُنبِّهُ ابنُ حزم ـ رحمه الله ـ بكلمته هذه إلى قاعدة مهمَّة في التعامل مع المادة التاريخية المتعلِّقة بخلفاء المسلمين وأمرائهم. إذ ينبغي الفَصْلُ بين حياتهم الخاصَّة؛ وإنْ كانتْ قد تضمَّنَتْ معاصيَ ومخالفاتٍ كانوا لا يجاهرون بها، وربما كانوا يشركون بها معهم خواصَّهم، وبين حياتهم العامَّة بما قاموا به من حفظ الدِّين، =

وأمَّا كِبارُ رجالهم، ودَعائِمُ دولتهم؛ فأكثرُ من أنْ يُحْصَوْا، وأحدثُ/ (٤ب) ذلك ما شاهدناه بالأمس من كَلَفِ المظفّر عبد الملك بن أبي عامر[١] بواجدٍ ـ بنتِ رجلٍ من الجنَّانين[٢] ـ حتَّىٰ حمله حُبّها أنْ يتزوَّجَها، وهي التي خَلَفَ عليها بعد فناء العامرِيِّين[٣] الوزيرُ عبد الله بن مَسلمة[٤]، ثم تزوجها بعد قتله رجلٌ من رؤساء البربر.

= وإقامة أحكامه، والذَّبِّ عنه، وتحمُّل مسؤوليات الرَّعية. ومن نظر إلى هذا الجانب وجد فيهم ولهم من الخير العظيم ما يرجح بدرجات كبيرة جدًّا بما كان في حياتهم الخاصة من تقصير. ولهذه القاعدة أثرٌ بالغ في ترسيخ مفهوم الانتماء للأُمَّة الإسلامية، واحترام تاريخها، وأعلامها، ورجالاتها.

(١) الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور (٣٩٢ ـ ٣٩٨هـ) خلف أباه المنصور في الحجابة، وكانت السلطة الفعلية بيده، وفي أيامه أخلد الأندلسيون إلى الراحة وتنافسوا في زخرف الدنيا (انظر الذخيرة ٤/١:٧٨ وما بعدها) (ع).

قلت: وفي خ: المظفّر بن عبد الملك. وهو خطأ، فكلمة (المظفر) لقب لعبد الملك.

(٢) خ: الجبانين. وهكذا أثبتها بتروف. والجبَّان والجبَّانة: المقبرة. وقرأها بروفنسال ـ وتبعه (ع) وغيره ـ: «الجنَّانين»، والجنَّان: البستاني. وهذا هو الصَّواب، فقد ذكر المصنِّفُ هذا الخبر في: «نقط العروس» ٢/ ٧٠؛ فقال: «عبد الرحمٰن [هكذا سمَّاه هناك] بن أبي عامر؛ تزوَّج واجد بنت رجلٍ بستاني»، و«واجد» اسم الجارية، وقد استعمل الأندلسيون هذا الاسم، وكان لابن الشرح زوجة بهذا الاسم (البيان المغرب: ٣/٨٠).

(٣) والمقصود بالعامِرِيِّينَ: دولة المنصور بن أبي عامر وأولاده. وفي (خ): العامر بن. وهكذا أثبتها بتروف، وهو خطأ صُحّح في الطبعات الشرقية، إذ ليس لعبد الله ولد اسمه عامر، والعبارة لا تستقيم بذلك.

(٤) عبد الله بن مسلمة: لعله الذي كان صاحب مدينة الزاهرة عندما ثار محمَّد بن هشام بن عبد الجبار لينتزع الخلافة من هشام المؤيد (ابن عذاري: ٣/٥٨)، وقد اتصل به صاعد البغدادي أول دخوله الأندلس، ثم نُكِبَ عبد الله، فكان صاعد يستعطف له أبا جعفر بن الدب، ليشفع به لدىٰ سليمان المستعين (الذخيرة: ٤/١/ ١٠ ـ ١١) (ع).

وممَّا يُشْبِهُ هذا أنَّ أبا العَيْشِ ابن ميمون القُرَشيَّ الحُسَيْنِيَّ[1] أخبرني أن نزار بن مَعْدٍ ـ صاحبَ مصرَ ـ لم يرَ ابنه منصور بن نزار ـ الذي وَلِيَ المُلْكَ بعده، وادَّعىٰ الإلهية[2] ـ إلا بعدَ مدةٍ من مولده، مساعدةً لجارية كان يحبّها حُبًّا شديدًا، هذا ولم يكن له ذَكَرٌ، ولا من يرثُ ملكه، ويُحيي ذِكرَهُ سواه.

ومن الصَّالحينَ والفقهاءِ ـ في الدُّهورِ الماضية، والأزمانِ القديمة ـ مَنْ قد استغْنِيَ بأشعارهم عن ذِكْرهم؛ وقد وردَ من خبرِ عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مسعود[3] وشعرِه ما فيه الكفاية[4]، وهو أحد فقهاء

(١) أغلب ظنِّي أنَّه حسني لا حُسَيْني، وإن كنت لم أجده بين أسماء الطارئين على الأندلس (ع).

(٢) نزار بن معد: هو أبو منصور العزيز بالله بن المعزِّ لدين الله العُبيدي الرافضي الباطني، ولد سنة (٣٤٤هـ)، وقام بالخلافة بعد أبيه سنة (٣٦٥هـ)، وهلك في سنة (٣٨٦هـ)، وقام بعده ابنه منصور ـ هذا ـ وتلقَّب بالحاكم بأمر الله، وكان ـ كما وصفه الذهبي ـ شيطانًا مريدًا، جبَّارًا عنيدًا، فرعون زمانه. وقتل الزنديق سنة (٤١١هـ). وترجمتهما وسيرتهما مبسوطة في كتب التاريخ والتراجم التي تناولت تلك الفترة.

(٣) الإمام الفقيه، مفتي المدينة وعالِمُها، ولد في خلافة عمر أو بُعَيْدها. وحدَّث عن عائشة، وأبي هريرة، وابن عباس ـ ولازمه طويلًا ـ، وابن عمر؛ وغيرهم من الصحابة. وكان ثقة، مأمونًا، إمامًا، كثير الحديث والعلم بالشعر. مات سنة (٩٨هـ) على خلافٍ. ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ٤/(١٧٩).

(٤) يُشِيرُ إلىٰ ما رواه الفاكهيُّ في: «أخبار مكَّة» ٥/٣ (١٦٩٤)، والمعافىٰ بن زكريا النَّهروانيُّ في: «الجليس الصَّالح»، وابن عبد البر في: «التَّمْهيد» ٩/١٠؛ كلُّهم من طريق: إسماعيل بن يعقوب التَّيْميِّ، عن عبد الرَّحمٰن بن أبي الزِّناد، عن أبيه؛ قال: قَدِمَتْ امرأةٌ من هُذَيْلٍ ـ مِنْ ناحية مكَّة ـ المدينةَ، وكانتْ جميلةً، ومعها صبيٌّ، فَرغِبَ النَّاسُ فيها؛ فخَطَبُوها، وكادتْ تَذْهَبُ بعقول أكثرهم، فقال فيها عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة:

أحبُّكِ حُبًّا لا يحبُّكِ مثلَه ... قريبٌ ولا في العاشقين بعيد
أحبك حبًّا لو شعرتِ ببعضه ... لَجُدْتِ ولم يَصْعُب عليك شَديد =

المدينة السَّبعة[1]، وقد جاء من فُتْيا ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ ما لا يُحْتاجُ معه إلىٰ غيره حينَ يقول: هذا قتيلُ الهوىٰ لا عَقْلَ ولا قَوَد[2].

= وحسبك يا أم الصَّبيِّ مُذلِهي شَهيدي أبو بكرٍ فنِعْمَ شهيد
ويعلم وَجْدي قاسمُ بن محمَّدٍ وعروةُ ما ألقىٰ بكم وسَعِيدُ
ويعلم ما ألقىٰ سليمانُ علمه وخارجة يُبْدي بنا ويُعيد
متىٰ تسألي عَمَّا أقولُ فَتُخْبَري فللحُبِّ عندي طارفٌ وتليد

فقالَ سعيد بن المسيِّب: أمَّا أنتَ ـ والله!ـ لقد أمنتَ أنْ تسألنا، وما رجوتَ إن سألتنا أن نشهد لك بزورٍ!

قلت: يريد بأبي بكرٍ، وقاسم، وعروة، وسعيد، وسليمان، وخارجة؛ الفقهاء السِّتَّة، وهو سابعهم، انظر التَّعليق التالي.

نعم؛ وإسناد هذه الحكاية ضعيف، إسماعيل التيميُّ، قال عنه أبو حاتم الرَّازي: ضعيف الحديث (الجرح والتعديل: ٢٠٤/٢)، وعلىٰ فرض صِحَّتها فليس فيها ما يعضد ما ذهب إليه المصنِّف، فإنَّ عبيدَ الله ـ وهو الإمام الفقيه العابد ـ ما قال تلك الأبيات إلا علىٰ سبيل الظَّرف؛ علىٰ طريقة أهلِ الحجاز، وممَّا يوضح هذا ما جاء في الرواية الأخرىٰ عند ابن عبد البر: «فبلغ عبيدَ الله امتناعُها فعرَّض للقوم، فقال: . . .»، وهذا يناسب ما ذكروا في ترجمته؛ من أنَّه كان ذهب بصره.

قلت: والمقصود أنَّ أبا محمَّد ـ رحمه الله ـ أخطأ في نسبة الحبِّ إليه، وما كان ينبغي له التَّساهل في الجزم به؛ فالرَّجُل من الأئمَّة الكبار، الذين يقتدىٰ بهم، وتَسْمُوا منزلتهم عن سفاسف الأمور، والله أعلم.

(١) الفقهاء السَّبعة: عروة بن الزُّبير بن العوَّام (٩٤هـ)، وسعيد بن المُسَيِّب (مات بعد التسعين)، وسليمان بن يَسَار الهلالي (مات بعد المئة)، وعبيد الله بن عتبة، والقاسم بن محمَّد بن أبي بكرٍ الصِدِّيق (١٠٦هـ)، وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري (١٠٠هـ)، وأبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث المخزومي (٩٤هـ) وكان هؤلاء هم المُفتون بالمدينة من التابعين، وقد نظمهم القائل فقال ـ فيما أورده ابن القيم في: «إعلام الموقعين» ـ:

إذا قِيلَ مَنْ في العِلْمِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ رِوَايَتُهم لَيسَتْ عَنِ العِلْمِ خَارِجَهْ
فَقُلْ: هم عُبَيْدُ الله، عروة، قاسم سعيدٌ، أبو بكرٍ، سُلَيْمانُ، خَارِجَهْ

وأورد ابن خلِّكان في: «وفيات الأعيان» ٢٨٣/١، بيتين آخرين في تضمين أسمائهم.

(٢) رواه ـ مقترنًا بقصَّته ـ الفاكهيُّ في: «أخبار مكَّة» (٢٧٣٣)، وابن الجوزي في: «ذمِّ الهوى» ص:٣٧٣؛ بإسنادٍ ضعيفٍ. ونقله ابن القيم في: «الجواب الكافي» عن ابن حزمٍ مصرِّحًا باسمه.

وقد اختلفَ الناسُ في ماهِيَّتِهِ، وقالُوا وأطالُوا، والذي أذهب إليه أنَّه: «اتصال بين أجزاء النُّفُوسِ المَقْسُومَةِ في هذه الخَلِيقَةِ في أصْلِ عُنْصِرِها الرَّفِيعِ»، لا علىٰ ما حكاه محمد بن داود[1] ـ رحمه الله ـ عن (٥أ) بعض أهل/ الفلسفة: الأرواحُ أُكَرٌ مقسومةٌ لكنْ علىٰ سبيل مناسبة قُوَاها في مقرِّ عالَمِها العُلْويِّ، ومجاورتها في هَيْئَةِ تركيبها[2].

---

(١) محمد بن داود بن علي الظَّاهري، العلامة، البارع، ذو الفنون، كان فقيهًا أديبًا شاعرًا ظريفًا، سار على نهج والده في القول بالظاهر وإنكار القياس، ونشر فقهه ومذهبه. قال ابن حزم: كان ابن داود من أجمل الناس، وأكرمهم خُلُقًا، وأبلغهم لسانًا، وأنظفهم هيئةً، مع الدِّين والورع، وكلِّ خلَّةٍ محمودةٍ، محبَّبًا إلى الناس، حفظ القرآن وله سبع سنين، وذاكر الرِّجال بالآداب والشِّعر وله عشر سنين، وكان يشاهد في مجلسه أربع مئة صاحب محبرة. توفي سنة (٢٩٧هـ) رحمه الله تعالىٰ «سير أعلام النبلاء»: ١٣/(٥٦). وهو صاحب كتاب: «الزّهرة»، وهو في جزءين؛ أحدهما في الحب، وقد طبع بتحقيق نيكل وطوقان (١٩٣٢)، والثاني في التقوى، وقد طبع في بغداد (١٩٧٥) بتحقيق الدكتورين إبراهيم السامرائي، ونوري حمودي القيسي ـ رحمه الله ـ.

(٢) هذا القول مأخوذ من كتاب «الزهرة» ونصه هنالك «وزعم بعض المتفلسفين أنَّ الله ـ جلَّ ثناؤه ـ خلق كلَّ روح مدوَّرة الشَّكل على هيئة الكرة ثم قطعها أيضًا فجعل في كل جسد نصفًا، وكلُّ جسدٍ لقيَ الجسدَ الذي فيه النِّصفُ الذي قطع من النصف الذي معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة» (الزهرة ١:١٥ وانظر محاضرات الراغب ٢:٤٠)؛ والفرق بين رأي ابن حزم ورأي ابن داود هو في القسمة نفسها، فبينا يذهب ابن حزم إلى أن النفوس تجزَّأت عدة أجزاء، يرى ابن داود أن الكرة انقسمت نصفين وحسب، كل منهما يطلب صاحبه، وفي نهاية المطاف نجد ابن حزم الذي لا يؤمن بالتكثُّر، يأخذ برأي ابن داود من وجهة عملية؛ لماذا رفض ابن حزم الشكل الكري للأرواح؛ هذا ما لا يقدم تفسيرًا له؛ هل كان ابن حزم يرى تعدد التوق إلى ائتلاف الأقسام في مراحل مختلفة من العمر؟ (ع).

لو كان الأمر كما قال محمد بن داود لوجب أن لا يكون في الوجود حبٌّ إلّا من جهتين، وأن يكون كلُّ محبٌ محبوبًا من محبوبه، ولما وجد من يتنقّل في العشق، إلّا أن يقال: لكل واحد من النّاس أُكَر مختلفة تتناصف معه ومع آخرين. وفي تعليق إحسان عبّاس ما يشرح مراد ابن داود، ولكنه لم يصب في=

وقد علمنا أن سرَّ التَّمازُجِ والتَّبايُنِ في المخلوقات إنَّما هو الاتِّصالُ والانفصال، والشَّكْلُ دأَبًا[1] يستدعي شَكْلَهُ، والمِثْلُ إلىٰ مِثْله سَاكِنٌ، وللمجانَسَةِ عَمَلٌ محسوسٌ وتأثيرٌ مشاهَدٌ، والتَّنافرُ في الأضداد، والموافقة في الأنداد، والنزاعُ فيما تشابه؛ موجودٌ فيما بيننا، فكيفَ بالنَّفْسِ وعالمُها العالمُ الصَّافي الخفيف[2]، وجوهرها الجوهرُ الصَّعَّاد المُعْتَدلُ، وسِنْخُها[3] المهيَّأُ لقبول الاتِّفاقِ والمَيلِ والتَّوْقِ والانحرافِ والشَّهوةِ والنِّفَارِ ـ كلٌّ ذلكَ معلومٌ بالحضرةِ[4] في أحوالِ تصرُّف الإنسان ـ فَيَسْكُنُ إليها[5]، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] فجعلَ علَّةَ السُّكُونِ أنَّها منه. ولو كانَ علةَ الحبِّ حُسْنُ الصورةِ الجسديَّة لوجبَ ألا يُسْتَحْسَن الأنْقَصُ من الصُّور[6]، ونحنُ

= قوله: إنّ ابن حزم يأخذُ برأي محمد بن داود من وجهة عمليّة، فابن حزم نفسه أحبّ غير واحدة من جواريه.
وسيأتي بعد قليلٍ جواب ابن حزم عن عدم تلازم الحبّ بين المشتركين في جهات الحبّ، واحتج له بما ليس برهانًا. (الحربي)

(١) «روضة المحبين»: فالشكل إنما. وقضية انجذاب المثل إلى مثله (أو كما قال المتنبي: وشبه الشيء منجذب إليه) موجودة في مأدبة أفلاطون ص: ٦٨، وتتردَّد في مواضع مختلفة، انظر «روضة المحبين»: ٦٧ (ع).
(٢) خ: الخيف.
(٣) السِّنْخ: الأصل.
(٤) كذا في (خ) وعند بتروف، والمعنى: معلوم بالمشاهدة والحضور. وفي الطبعات الشرقية: بالفِطْرة. وهو تحريف.
(٥) الضمير في «إليها» مبهم، ولعلَّ هنا سقطًا في النص؛ وربما كانت عبارة «فيسكن إليها» زائدة لا ضرورة لها لأن ما بعدها يغني عنها. أو لعلنا أن نقرأ «ليجد النفس التي هي شطرٌ منه فيسكن إليها»؛ وقد سقطت العبارة «كل ذلك... إليها» من «روضة المحبين» (ع).
(٦) كذا في (خ)، وهكذا وردت في: «روضة المحبين»، وجعلها بتروف: من الصورة. وعند (ع): في الصُّورة. =

نَجِدُ كثيرًا مِمَّنْ يُؤْثِرُ الأدنىٰ ويعلَمُ فَضْلَ غيره ولا يجدُ مَحِيدًا لقلبه عنه[1].
ولو كان للموافقة في الأخلاق لَمَا أحبَّ المرءُ مَنْ لا يُساعِدُهُ ولا يُوافقُهُ،
فعَلِمْنا أنَّه شيءٌ في ذاتِ النَّفْسِ.

وربَّما كانت المحبَّةُ لسببٍ من الأسباب، وتلك تفنىٰ بفناءِ سببها،
فمَنْ ودَّكَ لأمرٍ ولَّىٰ مع انقضائه، وفي ذلك أقول: [من الطويل] / (٥ب)

وِدادي لكَ الباقي علىٰ حَسْبِ كونِهِ ... تَنَاهَىٰ فلم يَنْقصْ بشيءٍ ولَمْ يَزِدْ
وليستْ له غَيْرَ الإرادَةِ[2] عِلَّةٌ ... ولا سببٌ حاشَاهُ يعلمُهُ أحَدْ

= قال الحربيُّ: قد يقال: حسن الصورة هو علَّة الحبِّ، لا في ذاته، بل في نفس المحبِّ، وأذواق الحبِّ مختلفة، ودليل ذلك اختلاف اثنين أو أكثر في شيءٍ: أحدهما يستحسنه، والآخر لا يستحسنه، بل قد يعجبُ ممّن يستحسنه، ويعجبُ كلٌّ منهما من عجب الآخر. ألم تر إلى الذي قال في محبوبته وقد هامت به في كل الأوداء، ووضعت على عينه مِبْصَرَة سوداء:

أحبُّ لحبِّها السُّودان حتى ... أحبُّ لحبِّها سُودَ الكِلابِ

وسألتُ فتى طالب علم يرى تفضيل من يشبِّهُ لونها بالمسك الأسود: أتريد في الجنة سوداء؟ قال: نعم، أليس في الجنّة ما تشتهي الأنفس؟ قلتُ: بلى، ولكن أين لذة الأعين؟ وما يدريك لعلك لا تشتهي ذلك أصلًا؛ لأنّ أهل الجنّة بيض الوجوه، وكلّ شكلٍ يتشهّى شكله، والمؤمنون في الجنّة على أكمل الطباع وأحسن الصور، فإن كنتَ تشتهي أن تُحشر غير أبيض، فـ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾، والأسودان العاشقان يرى كل واحد منهما صاحبه القمر ليلة البدر، فالعين تعكس ما تستحسنه الرّوح. وفي مثله يقول:

كلانا ناظرٌ قمرًا ولكن ... رأيتُ بعينها ورأت بعيني

(١) قارن بقول ابن الجوزي: وإذا كان سبب العشق اتفاقًا في الطباع بطل قول من قال: إن العشق لا يكون إلا للأشياء المستحسنة، وإنما يكون العشق لنوع مناسبة وملاءمة ثم قد يكون الشيء حسنًا عند شخص، غير حسن عند آخر. (ذم الهوى: ٣٠٠) (ع).

(٢) تعبير «الإرادة» هنا لا أظنه يعني «الإرادة الإنسانية» وإنما التقدير الإلهي، أي أن ذلك شيء مرتَّب في طبيعة النفس، حسب التوفيق الإلهي، ولهذا عبّر عن هذا الموقف بقوله: «الشيء علّة نفسه» (ع).

إذا ما وجَدْنَا الشيءَ عِلَّةَ نفسِهِ فَذَاكَ وجودٌ لَيْسَ يَفْنَىٰ علىٰ الأَبَدْ
وإمَّا وجَدْنَاه لشيءٍ خِلافَهُ فإعدامُهُ[1] في عَدْمنا ما لَهُ وُجِدْ[2]

وممَّا يؤكِّدُ هذا القولَ أنَّنا قد علمنا أنَّ المحبَّةَ ضُروبٌ[3]، فأفضلها: مَحَبَّةُ المتحابّين في الله عز وجل، إما لاجتهادٍ في العَمَلِ، وإما لاتِّفاقٍ في أصل النِّحْلَةِ والمَذاهِبِ[4]، وإما لفضلِ علمٍ يُمْنَحُهُ الإنسانُ، ومحبَّةُ القَرابة، ومحبَّةُ الأُلْفَةِ؛ والاشتراك في المطالب، ومحبَّةُ التَّصاحُبِ والمعرفة، ومَحَبَّةٌ لبِرٍّ[5] يضعه[6] المرءُ عند أخيه، ومَحَبَّةٌ لَطَمَعٍ[7] في جاهِ المحبوب، ومحبَّةُ المتحابَّيْنِ لسِرٍّ يجتمعانِ عليه يلزمهما سَتْرُهُ، ومحبةٌ لِبُلُوغِ[8] اللَّذَّةِ وقضاءِ الوَطَرِ، ومحبةُ العشقِ؛ الَّتي لا عِلَّةَ لها إلا ما ذكرنا من اتِّصالِ النُّفُوسِ.

وكُلُّ هذه الأجناس فَمُنْقَضِيَةٌ[9] مع انقضاء عِلَلِها، وزائدةٌ بزيادتها،

---

(١) في (خ): بإعدامه.
(٢) من يعرف الشِّعر ويقوله يدركُ أنَّ ابن حزم اعتاص عليه التركيب والقافية في هذا الشطر، وجاء بما لا يكاد يفهم. ومعناه ـ فيما ظهر لي ـ أن الحب إذ كان لسببٍ فإنه يذهب بذهابه. (الحربي)
(٣) هنا يوسع ابن حزم في مفهوم «الحب»، حتى يصبح معنى الاتصال بين أجزاء النفوس ليس اتصالًا بين ذكر وأنثى، وإنما هو اتصال بين الأجزاء المتشابهة في كل صعيد، وعلى هذا الفهم، سيمضي في كل رسالته؛ فجهة العشق التي علّتها اتصال النفوس ليست إلا وجهًا واحدًا من وجوه المحبة، وقارن بما ورد في: «رسالة في مداواة النفوس» (ع).
(٤) في «روضة المحبين»: في أصل المذهب.
(٥) كذا في (خ)، و«روضة المحبِّين» وجُعلت في الطبعات الشرقية: ومحبَّةُ البِرِّ.
(٦) في (خ): يضعها.
(٧) كذا في (خ) و«روضة المحبين»، وجُعِلَت: ومحبَّةُ الطَّمع.
(٨) كذا في (خ) و«روضة المحبين»، وجُعِلَت: ومحبَّةُ بلوغِ.
(٩) كذا في (خ) و«روضة المحبِّين»، وجُعلت: منقضية.

وناقصةٌ بنقصانها، متأكدةٌ بدُنُوِّها، فاترةٌ ببُعْدِها، حاشا محبةَ العشْقِ الصَّحِيحِ المُتَمَكِّنِ من النَّفس فهي التي لا فناءَ لها إلا بالموت. وإنَّكَ لَتجدُ الإنسانَ/ السَّالي بزعمه، وذا السِّنِّ المتناهيةِ، إذا ذكّرته تذكَّر وارتاحَ وصَبَا، واعتادَهُ الطَّرَبُ، واهتاجَ له الحَنِينُ. (١٦أ)

ولا يَعْرِضُ في شيءٍ من هذه الأجناسِ المذكورة، من شُغل البالِ والخَبَلِ والوسواس وتبدُّلِ الغرائز المَرَكَّبَةِ، واستحالَةِ السَّجَايا المطبوعة، والنُّحُولِ[١]، والزَّفير، وسائر دلائل الشَّجَا؛ ما يعرضُ في العِشْقِ.

فصحَّ بذلك أنَّه استحسان رُوحانيٌّ، وامتزاجٌ نَفْسَانيٌّ.

فإنْ قالَ قائلٌ: لو كانَ هذا كذلكَ لكانتِ المحَبةُ بينهما مُسْتَوِيَةً، إذ الجُزْآن مُشْتَرِكانِ في الاتِّصال، وحظُّهُما منه واحدٌ.

فالجوابُ عن ذلكَ أنْ نقولَ: هذه ـ لعمري! ـ معارَضَةٌ صَحِيَحةٌ، ولكنَّ نفسَ الذي لا يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ مُكْتَنَفَةُ الجهاتِ ببعض الأعراض السَّاتِرة، والحُجُبِ المُحيطة بها من الطَّبائع الأرضية؛ فلم تُحِسَّ بالجزء الذي كانَ مُتَّصِلًا بها قبل حُلُولها حيثُ هي، ولو تخلَّصَتْ لاستويا في الاتِّصال والمحبة. ونفس المحبِّ متخلِّصَةٌ عالِمَةٌ بمكانِ ما كانَ يُشْرِكُها في المجاورة، طالبةٌ له، قاصدةٌ إليه، بَاحِثَةٌ عنه، مُشْتَهِيةٌ لملاَقاته، جاذبةٌ له لو أمكنها؛ كالمَغْنِيطِسِ والحديد.

فَقُوَّةُ[٢] جوهر المغنيطس المتَّصِلَة بقوَّةِ جوهر الحديد لم تَبْلُغْ من تحكُّمِها، ولا من تصفِيَتِها أن تَقْصُدَ إلىٰ الحديد علىٰ أنَّه من شَكْلِها وعنصرها،

---

(١) في (خ): والتَّحول. وعند (ع) كما أثبتُّ.

(٢) خ: قوَّة، وكذا عند بتروف. وما أثبتناه فمن الطبعات الشرقية.

كما أنَّ قوة الحديد ـ لشِدَّتها ـ قصدت إلىٰ شَكْلها وانجذبَتْ/ نحوه، إذ الحَرَكَةُ (٦ب) أبدًا إنَّما تكونُ من الأقوىٰ، وقوَّةُ الحديد متروكةُ الذَّات غيرُ ممنوعَةٍ بحابِسٍ، تطلبُ ما يُشْبِهُهُا وتَنْقَطِعُ إليه، وتنهض نحوه؛ بالطبع والضَّرورة، [وليس] بالاختيار والتَّعَمُّدِ. وأنتَ متىٰ أمسكتَ الحديد بيدك لم ينجذبْ، إذ لم يبلغ من قوَّته ـ أيضًا ـ مغالبةَ المُمْسِكِ له ممَّا هو أقوى منه. ومتىٰ كثرتْ أجزاءُ الحديد اشتغَلَ بعضها ببعضٍ، واكتفتْ بأشكالها عن طلبِ اليسير من قُواها النَّازِحَةِ عنها، فمتىٰ عَظُمَ جِرْمُ حَجَرِ المغنيطس، ووازتْ قُواه جميعَ قوىٰ جِرْمِ الحديد، عادتْ[1] إلىٰ طبعها المَعْهُودِ.

وكالنَّار في الحَجَرِ لا تبرُزُ علىٰ قوَّة النَّار في الاتِّصَال والاستدعاء لأجزائها حيث كانتْ إلا بعد القَدْحِ، ومجاورة الجِرْمَيْنِ بضَغْطِهِما واصطِكاكِهِما، وإلَّا فهي كامنةٌ في حَجَرها لاَ تبدو ولا تظهر[2].

ومن الدليل علىٰ هذا ـ أيضًا ـ أنك لا تجد اثنين يتحابَّان إلَّا وبينهما مشاكلةٌ واتِّفاقٌ في بَعْضِ الصِّفاتِ الطَّبيعيَّةِ، لا بدَّ مِنْ هذا وإن قلَّ، وكلَّما كثرت الأشباه؛ زادتِ المجانسةُ، وتأكدتِ المودَّةُ، فانظر هذا تَرَهْ عِيانًا، وقولُ رسولِ الله ﷺ يؤكِّدُهُ: «**الأرواحُ جنودٌ مجنَّدة فما تعارَف منها ائْتَلَفَ/ وما تناكَرَ منها اختلَفَ**»[3]، (٧أ) وقولٌ مَرْويٌّ عن أحد الصَّالحينَ: أرواح المؤمنين تتعارف.

---

(١) خ: عاد.

(٢) هذا التمثيلُ إنما يصحُّ اعتمادًا على نظرية «الكمون» التي كانت سائدةً حينئذ؛ أي أنَّ النار كامنة في الحجر، ومهمة القدح أن يستخرجها (انظر الحيوان للجاحظ **٥: ١٠** وما بعدها)؛ وتشبيه الحبِّ بالنار الكامنة، ورد على لسان جارية في قصة في «الموشَّىٰ»: **٧١** «له كمونٌ ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى، وإن تركته توارى»؛ وفي ديوان الصبابة: **١٠** (ع).

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» (**٣٣٣٦**) ـ معلَّقًا ـ عن الليث ويحيى بن أيوب، عن يحيى بن سعيد، عن عَمرة بنت عبد الرحمٰن، عَن عائشة رضي الله عنها؛ مرفوعًا =

ولهذا ما اغتمَّ بقراطُ حينَ وُصِفَ له رجلٌ من أهل النُّقْصان يُحبُّه، فقيل له في ذلك فقال: ما أحبَّني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقِه[1].

وذكر أفلاطونُ أنَّ بعضَ الملوك سَجَنَهُ ظُلْمًا، فلم يَزَلْ يحتجُّ عن نفسه حتَّى أظهر براءته، وعلم الملكُ أنَّه له ظالم، فقال له وزيره الذي كان يتولَّى إيصال كلامه إليه: أيُّها الملك! قد استبانَ لك أنه بريءٌ فما لكَ وله؟ فقال الملكُ: لعَمْرِي! ما لي إليه سبيلٌ غيرَ أنَّي أجدُ لنفسي استثقالًا لا أدري ما هو. فأدِّيَ ذلك إلىٰ أفلاطون. قال: فاحتجتُ أن أُفَتِّشَ في نفسي وأخلاقي شيئًا أقابلُ به نَفْسَهُ وأخلاقه مِمَّا يُشْبِهُهَا، فنظرتُ في أخلاقه فإذا هو محبٌّ للعدل كارهٌ للظُّلْم، فميَّزْتُ هذا الطَّبْعَ فيَّ، فما هُوَ إلا أنْ حرَّكْتُ هذه الموافقةَ وقابلتُ نَفْسَهُ بهذا الطَّبْعِ الذي بنفسي[2] فأَمَرَ بإطْلاقي، وقالَ لوزيره: قد انحلَّ كلُّ ما أجدُ في نفسي له.

وأمَّا العِلَّةُ التي تُوقِعُ الحبَّ أبدًا في أكثرِ الأمر علىٰ الصُّورةِ الحَسَنَةِ، فالظَّاهرُ[3] أنَّ النفسَ حَسَنةٌ تولَعُ بكلِّ شيءٍ حَسَنٍ، وتَمِيلُ إلىٰ التَّصاوير

= بهذا اللَّفظ، ووصله في: «الأدب المفرد» (٩٠٠)، ورواه أبو يعلى في: «مسنده» (٤٣٨١) من طريق أخرى عن يحيى بن أيوب، قال: حدَّثني يحيى بن سعيد، عن عمرة، قالت: كان بمكَّة امرأةٌ مزَّاحة، فنزلت على امرأةٍ مثلها، فبلغ ذلك عائشة؛ فقالت: صدق حِبِّي؛ سمعتُ رسول الله ﷺ. . . فذكر مثله، وإسناده صحيح. ورواه مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بالمتن دون القصَّة.

(١) أقرب الأقوال إلى هذا قول منسوب إلى أنطيانس، إذ مدحه رجل شرير فقال له: ما أحوجني أن أكون قد فعلت شرًّا إذ كنت قد استحسنت مني شيئًا (صوان الحكمة: ٢٤٧) وقول أبقراط هذا قد نقله ابن أبي حجلة في كتابه ديوان الصبابة: ٤٩ وابن القيم في روضة المحبين: ٧٣؛ وانظر: دراسات عن ابن حزم للدكتور الطاهر مكي (القاهرة ١٩٧٧) ص٣٢٤ ـ ٣٣٩ (ع).

(٢) في الأصل: بنفسه.

(٣) في الأصل: (الظَّاهر)، فيمكن أن تقرأ: (. . . الصورةِ الحسنةِ الظاهرةِ؛ أنَّ النَّفس. . .).

المُتْقَنَةِ، فهي إذا رأتْ بعضها تَثَبَّتَتْ فيه[1]، فإنْ مَيَّزَتْ وراءها شيئًا من/ (٧ب) أشكالها اتصلتْ وصَحَّتِ المحبةُ الحَقِيقِيَّةُ، وإنْ[2] لم تُمَيِّزْ وراءَها شيئًا من أشكالها لم يتجاوز إحبابُها[3] الصُّورة، وذلكَ هو الشَّهْوَةُ. وإنَّ للصُّوَرِ لتوصيلًا عجيبًا بين أجزاء النفوس النائية.

وقرأتُ في السِّفْر الأوَّلِ من: «التوراة»[4]: أنَّ النبيَّ يعقوبَ ـ عليه السَّلام ـ أيامَ رَعيه غنمًا للابان[5] خاله مَهرًا لابنته؛ شارَطَهُ علىٰ المشاركة في أنسالها، فكلُّ بَهيمٍ ليعقوبَ وكلُّ أغرَّ للابان، فكان يعقوب ـ عليه السلام ـ يَعْمَدُ إلىٰ قضبان الشَّجَرِ يسلخُ نُصْفًا ويتركُ نصفًا بحاله، ثُمَّ يلقي الجميعَ في الماء الذي تَرِدُهُ الغَنَمُ، ويتعمَّدُ إرسالَ الطَّرُوقَةِ في ذلك الوقتِ فلا تَلِدُ إلا نصفَيْن؛ نصفًا بُهمًا، ونصفًا غُرًّا.

وذُكِرَ عن بعض القافة أنه أُتيَ بابنٍ أسودَ لأَبْيضَيْنِ، فنظر إلىٰ أعلامه فرآهُ لهما غير شكٍّ، فرغب أن يُوقَف علىٰ الموضع الذي اجتمعا عليه، فأُدخل البيت الَّذي كانَ فيه مَضْجَعُهُما، فرأىٰ فيما يوازي نَظَرَ المرأة صورةَ أسودٍ في الحائطِ، فقال لأبيه: مِن قِبَلِ هذه الصورة أُتيتَ في ابنك!

---

(١) قارن هذا بقول علي بن ربن الطبري: «فإن من شأن النفس الولوع والعجب بكل شيء حسن من جوهر أو نبت أو دابة، فإذا اتفق مثل ذلك الحسن في شيء هو من جنس الإنسان ومما في غريزته الحبّ له اهتاجت الشهوة حينئذ وحرصت النفس على مواصلته وقربه» (فالنصان متشابهان إلى حدّ بعيد، وابن ربن توفي سنة **٢٤٧**هـ). ويقول ابن الجوزي: العشق شدّة ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها فإذا قوي فكرها فيها تصورت حصولها وتمنّت ذلك (ذم الهوى: **٢٩٣** وانظر أيضًا: **٢٩٦**) (ع).

(٢) خ: فإن.

(٣) كذا في الأصل وعند بتروف، وأثبتها (ع) وغيره: «حُبُّها».

(٤) انظر سفر التكوين؛ الإصحاح: **٣٠/٢٥ ـ ٤٣**.

(٥) في الأصل: لابن.

وكثيرًا ما يُصَرِّفُ شعراءُ أَهل الكلام هذا المعنىٰ في أَشعارهم، فيخاطِبُونَ المرئيَّ[1] الظَّاهر خطابَ المعقولِ الباطِنِ، وهو المستفِيضُ في شِعْرِ النظَّام إِبراهيم بن سيَّار[2]، وغيره من المتكلمين، وفي ذلك أقول شعرًا منه: [من البسيط]: / (١٨أ)

ما عِلَّةُ النَّصْرِ في الأعداء نَعرفها[3] وعلَّةُ الفَرِّ منهم إذ يَفرُّونا
إلَّا نِزاعُ نُفوسِ النَّاسِ قاطبةً إليكَ يا لُؤلؤًا في النَّاسِ مَكْنونا
مَن كنتَ قدَّامه لا ينثني أبدًا فهُم إلىٰ نُورك الصَّعَّاد يَعشُونا[4]
ومَن تَكُنْ خلفَه فالنَّفْسُ تَصرفُهُ إليكَ طَوْعًا فهم دَأْبًا يَكُرُّونا

وفي ذلكَ أقولُ: [من الطويل]

أَمِنْ عالم الأمَلاكِ[5] أنتَ أم انسيُّ أبِنْ لي فقد أزْرَى بتمييزيَ العِيُّ
أرىٰ هيئةً إنسيَّةً غيرَ أنَّه إذا أُعْمِلَ التفكيرُ فالجرْمُ عُلويُّ
تباركَ مَن سَوَّىٰ مذاهبَ خَلْقِه علىٰ أنَّكَ النُّورُ الأنيقُ الطبيعيُّ

---

(١) في الأصل: المر في.

(٢) إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام، أبو إسحاق البصري المتكلِّم، شيخ المعتزلة، تكلَّم في القدر، وانفرد بمسائل، وهو شيخ الجاحظ. مات سنة بضع وعشرين ومئتين. قال الذهبي رحمه الله: ولم يكن النَّظَّام مِمَّن نفعه العلم والفهم، وقد كفَّره جماعة. «السِّير»: ١٠/(١٧٢).

(٣) في الأصل: تعرفها.

(٤) يقصدون، ومنه قول الحُطَيئة:

متىٰ تأتِهِ تعشو إلىٰ ضوء نهاره تجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ موقِدِ

(٥) المعروف أن «أملاك» جمع ملك ـ بكسر اللام ـ ولكنه استعملها هنا جمعًا لملك ـ بفتح اللام ـ، مفرد ملائكة؛ ولا بأس من قراءتها «الأفلاك» لتحدثه من بعد عن «الجرم العلويّ» (ع).
و«الأملاك» واضحة في الأصل.

ولا شكَّ عندي أنَّكَ الرُّوحُ ساقَهُ   إليـنا مثالٌ في النُّفوسِ اتصَاليُّ
عَدِمنا دليلًا في حُدوثك شاهدًا   نَقيسُ عليه غيرَ أنَّكَ مَرْئيُّ
ولولا وقُوعُ العينِ في الكون لم نَقُلْ   سِوىٰ أنَّكَ العقلُ الرَّفيعُ الحقيقيُّ

وكان بعضُ أصحابنا يُسمِّي قصيدةً لي: «الإِدراكَ المتوهَّم» منها: [من المتقارب].

تَرىٰ كُلَّ ضِدٍّ به قائِمًا   فكيف تَحُدُّ اختلافَ المَعَاني
فيا أيُّها الجسمُ لا ذا جهاتٍ   ويا عَرضًا ثابتًا غيرَ فانِ/ (٨ب)
نَقَضْتَ علينا وجُوهَ الكَلامِ   فما هو مُذ لُحْتَ بالمُستبانِ

وهذا بعينه موجودٌ في البغضة، ترىٰ الشَّخْصَيْنِ يتباغضان لا لمعنىً ولا علَّةٍ، ويستثقل بعضهما بعضًا بلا سَبَبٍ.

والحبُّ ـ أعزَّكَ الله ـ داءٌ عَياءٌ، وفيه الدواءُ منه علىٰ قَدْرِ المعاملة[١]، ومقامٌ[٢] مُسْتَلَذٌّ، وعلَّةٌ مشتهاةٌ لا يودُّ سليمُها البرءَ، ولا يتمنَّىٰ عليلها الإِفاقةَ؛ يُزيِّنُ للمرء ما كانَ يأنَفُ منه، ويسهِّلُ عليه ما كانَ يصعبُ عنده حتَّىٰ يُحِيلَ الطبائعَ المركَّبة، والجِبِلَّة المَخْلوْقَةَ، وسيأتي كلُّ ذلكَ ملخصًا في بابه إن شاءَ الله.

خَبَرٌ:

ولقد علمتُ فتىً من بعض معارفي وقد وَحِل في الحبِّ، وتورَّطَ في حبائله؛ وأضرَّ به الوَجْدُ، وأَنْصَبَهُ الدَّنَفُ[٣]، وما كانتْ نفسهُ تَطِيبُ بالدُّعاء

---

(١) كذا في الأصل واضحة. وجعلها برشيه: المعاناة، وتبعه (ع).
(٢) كذا في الأصل واضحة، وجعلها (ع): سقام.
(٣) هذه قراءة برشيه. وفي الأصل: وأنضحه. وهكذا أثبتها بتروف. وليس في معاني=

إلىٰ الله ـ عزّ وجلّ ـ في كَشْفِ ما به، ولا يَنْطَلِقُ به لسانُهُ، وما كانَ دعاؤُه إلَّا بالوَصْلِ، والتَّمَكُنِ مِمَّن يُحِبُّ؛ علىٰ عظيمِ بلائه، وطويل هَمِّهِ! فما الظنُّ بسقيمٍ ولا يريدُ فَقْدَ سُقْمه؟! ولقد جالَسْتُهُ يومًا فرأيتُ من اكتئابه[1]، وسوءِ حاله، وإطراقه ما ساءَني، فقلتُ له ـ في بعض قولي ـ: فرَّجَ الله عنكَ! فلقد رأيتُ أثر الكراهيةِ في وَجْهِهِ. وفي مِثْلِهِ أقولُ ـ من كلمةٍ طويلةٍ ـ: [من البسيط] / (٩أ)

وأَسْتَلِذُّ بلائي فيكَ يا أَمَلي ولستُ عنك مدَىٰ الأيّام أَنْصَرِفُ
إن قيلَ لي تَتَسَلَّىٰ عن مودَّتِهِ فما جَوابيَ إلَّا اللامُ والألِفُ

خَبَرٌ:

وهذه الصِّفاتُ مخالفةٌ لما أخبرني به عَنْ نَفْسِهِ؛ أبو بكرٍ محمَّدُ بن قاسم بن محمَّد القرشيُّ، المعروفُ بالشَّبَانْسِيِّ[2]، مِنْ وَلَدِ الإمام هشام بن

= لفظ: «أنضح» ما يمكن توجيهه نحو هذا المعنى، ويمكن أن تقرأ ـ على بعدٍ ـ: أنضجه. والدَّنَف: المرضُ الملازِمُ.

(١) هذه قراءة السامرائي، وعنه (ع) في طبعته الثانية، وفي الأصل وعامة النسخ المطبوعة: (إكبابه).
والكَأْبُ، والكَأْبَةُ، والكآبَةُ: الغَمُّ، وسُوءُ الحالِ، والانْكِسَارُ من حُزْنٍ. وفي دعاء السَّفَر: «أعُوذُ بِكَ مِنْ كَآبَةِ المُنْقَلَبِ»؛ المعنى: أَنَّهُ يَرْجِعُ من سَفرِه بِأَمْرٍ يَحْزُنُه، إمَّا أصابَهُ من سَفرِه، وإمَّا قَدِمَ عليه. «تاج العروس» (مادة: كاب).
وقال السامرائي: «أما لفظ: (الإكباب) فمختلف تمامًا». وأَكَبَّ الرَّجلُ يُكِبُّ إكْبابًا إذا ما نَكَّسَ. وأكَبَّ على الشيءِ: أقبل عليه يَعْمَلُهُ ولزمه. ومن المَجَاز: أَكَبَّ الرَّجُلُ يُكِبُّ على عَمَلٍ عَمِلَه: إذا لَزِمَ، وهو مُكِبٌّ عليه لازِمٌ له. «اللسان» و«التاج» (مادة: كبب).

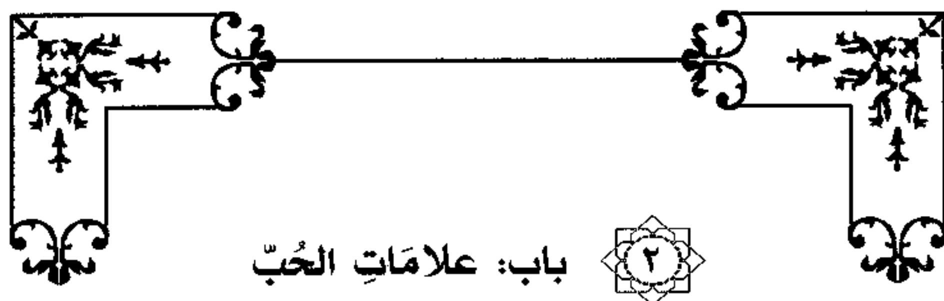
(٢) محمد بن قاسم بن محمد بن إسماعيل بن هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن هشام الرضا بن عبد الرحمٰن بن معاوية القرشي المرواني المعروف بالشبانسي، كان عالمًا بالآداب متقدمًا في البلاغة والكتابة، استقر بعد الفتنة بطليطلة كاتبًا للرسائل =

عبد الرحمٰن بن معاوية؛ أنَّهُ لم يُحِبَّ أحدًا قطُّ، ولا أسِفَ علىٰ إلْفٍ بانَ منه، ولا تجاوزَ حدَّ الصُّحبة والأُلفةِ إلىٰ حدِّ الحُبِّ والعِشْقِ؛ مُنْذُ خُلِقَ!



= بها، وتوفي سنة **٤٤٧** (التكملة **١:٣٨٩**). ولأبيه القاسم بن محمد الشبانسي ترجمة في «الجذوة»: **٣١٠** «والبغية» رقم: **١٢٩٦** وكان الأب أيضًا أديبًا شاعرًا، سجن في أيام المنصور فكتب إليه بقصيدة يستعطفه فيها فرقَّ له وأطلقه. ولأخيه عبد الرحمٰن ترجمة في «التكملة» رقم: **١٥٤٩**؛ وقد تصحفت كلمة «الشبانسي» في طبعات «الطوق» وتنبّه لها غرسيه غومس (انظر ترجمته للطوق: **١٠٣** الحاشية رقم: **٢**) (ع).

قلت: وأصل التحريف من المخطوط، إذ فيه: بالشبشي، أو: بالشلشي. وهكذا أثبتها بتروف.



٢ باب: علامَاتِ الحُبّ

وللحبِّ علاماتٌ يَقْفوُها الفَطِنُ[١]، ويهتدي إليها الذكيُّ:

فأوَّلها: إدمانُ النَّظَرِ؛ والعينُ بابُ النَّفْسِ الشَّارعُ، وهي المُنَقِّبةُ عن سرائرها، والمُعَبِّرةُ لضمائِرها، والمُعْرِبةُ عن بواطنها. فترىٰ الناظرَ لا يَطْرِفُ، يَتَنَقَّلُ بتنقُّلِ المحبوبِ، ويَنْزوي بانزوائه، ويميلُ حيثُ مالَ،

(١) بعض هذه العلامات قد نقله الحنبلي عن ابن حزم؛ انظر مجلة الأندلس (١٩٥١) ص: ٣٢٧؛ وورد مثله في ديوان الصبابة: (١٠، ١٢ ـ ١٣) وما بعدها، وقارن بما ذكره الوشَّاء من علامات (الموشى: ٤٨، ٥١، ٥٢) أما ابن القيم في روضة المحبين (٢٦٢ وما بعدها) فقد تصرّف بعبارات ابن حزم، ومثال ذلك قوله: فمنها إدمان النظر إلى الشيء وإقبال العين عليه، فإن العين باب القلب وهي المعبِّرة عن ضمائره والكاشفة لأسراره... فترى ناظر المحب يدور مع محبوبه كيف دار، ويجول معه في النواحي والأفكار... ومنها الإقبال على حديثه وإلقاء سمعه كله إليه بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه، وإن ظهر منه إقبال على غيره فهو إقبال مستعار يستبين فيه التكلف لمن يرمقه... ومنها البهت والروعة التي تحصل عند مواجهة الحبيب أو عند سماع ذكره، ولا سيما إذا رآه فُجاءةً أو طلع عليه بغتة... ومنها بذل المحب في رضا محبوبه ما يقدر عليه... ومنها حب الوحدة والأنس بالخلوة والتفرُّد عن الناس... إلخ. قلت: رغم اعتماد ابن القيم على ما جاء في طوق الحمامة، فإنه يستنكر هذا النوع من الحب الذي يحمل هذه العلامات ويعده حبًّا حيوانيًّا (ع).

كالحِرْباء مع الشَّمْسِ، وفي ذلك أقولُ شِعْرًا منه: [من الطويل]

فَلَيسَ لعَيْني عندَ غيرِك موقفٌ كأنَّكَ ما يَحْكُونَ من حَجَرِ البَهْتِ[1]/ (٩ب)
أُصرِّفُها حيثُ انْصَرَفْتَ وكيف ما تقلَّبْتَ كالمنعوتِ في النَّحْوِ والنَّعْتِ

ومنها: الإقبالُ بالحديث؛ فما يكادُ يُقْبِلُ علىٰ سوىٰ محبوبه ولو تعمَّدَ ذلك، وإنَّ التَّكَلُّفَ ليستبينُ لمَنْ يرمقُه فيه، والإنصاتُ لحديثه إذا حدَّثَ، واستغراب كلِّ ما يأْتي به ولو أنَّهُ عَيْنُ المُحَالِ، وخَرْقُ العاداتِ، وتصديقُهُ وإنْ كَذَبَ، وموافقتُه وإن ظَلَمَ؛ والشهادةُ له وإن جار، واتّباعُهُ كيف سَلَكَ وأيَّ وجهٍ من وُجُوهِ القولِ تناول.

ومنها: الإِسْراعُ بالسَّيْرِ نحو المكانِ الَّذي يكون فيه؛ والتعمّدُ للقعود بِقُرْبه والدُّنُوِّ منه، وَاطّراحُ الأشغالِ الموجبة للزَّوال عنه، والاستهانةُ[2] بكلِّ خَطْبٍ جليلٍ داعٍ إلىٰ مفارقته؛ والتباطُؤُ في الشيءِ عن[3] القيامِ عنه؛ وفي ذلك أقولُ شِعْرًا: [من الخفيف]

وإذا قُمتُ عَنْكَ لم أمْشِ إلا مَشْيَ عانٍ يُقادُ نَحْوَ الفَناءِ

---

(١) حجر يوجد في ساحل المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) وهو مشهور عند أهل المغرب الأقصى، ويباع الحجر منه بقيمة جيدة لا سيما في بلاد لمتونة، وهم يحكون عن هذا الحجر أن من أمسكه وسار في حاجة قضيت له بأوفى عناية، وهو جيد عندهم في عقد الألسنة على زعمهم (الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان، تحقيق دوزي ودي خويه، لايدن **١٩٦٩** ص**٢٨ - ٢٩** وانظر ملحق المعجمات العربية لدوزي مادة «بهت») (ع).

(٢) خ: والاستهابة.

(٣) هكذا في الأصل. وجعله (ع): المشي عند. وقال: والمشي يؤكده قوله في الشعر:
وإذا قمت عنك لم أمشِ إلاّ مشي عانٍ... البيت
وكذلك وردت: «المشي» في ديوان الصبابة والحنبلي.

فِي مَجيئي إليكَ أحثُّ كَالبَدْ ... رِ إذا كانَ قاطِعًا للسَّماءِ[1]
وقِيامي إنْ قُمْتُ كالأَنْجُمِ العا ... لِيَةِ الثَّابِتاتِ في الإبطاءِ

ومنها: بَهْتٌ يَقَعُ، وروعةٌ تبدو علىٰ المحبِّ؛ عند رؤيةِ من يُحِبُّ/ (١٠أ) فُجَاءَةً، وطلوعِهِ بغتةً.

ومنها: اضطرابٌ يبدو علىٰ المُحبِّ عند رؤية من يُشْبِهُ مَحْبُوبَه، أو عند سَماعِ اسمه فجاءَةً. وفي ذلك أقولُ قطعةً منها: [من الطويل]

إذا مَا رَأَتْ عينايَ لابسَ حُمْرةٍ ... تقطَّع قَلْبي حَسْرَةً وتَفَطَّرا
غدا لدماءِ النّاسِ باللَّحْظِ سَافِكًا ... وضُرِّجَ منها ثوبُهُ فَتَعَصْفَرا

ومنها: أنْ يَجُودَ المرءُ ببَذْلِ كلِّ ما كانَ يَقْدِرُ عليه مِمَّا كانَ يَمْتَنِعُ[2] به قبلَ ذلكَ، كأنَّهُ هو المَوْهُوبُ له، والمَسْعِيُّ في حَظِّه، كلُّ ذلكَ لِيُبديَ محاسِنَهُ، ويُرغِّبَ في نفسه؛ فكَمْ بَخيلٍ جادَ، وقَطُوبٍ تَطَلَّقَ، وجبانٍ شَجُعَ، وغليظِ الطَّبْعِ تطرَّب[3]، وجاهِلٍ تأدَّبَ، وتَفِلٍ[4] تَزَيَّن، وفَقِيرٍ[5] تَجَمَّلَ، وذي سِنٍّ تفتَّىٰ، وناسِكٍ تفتَّكَ[6]، وَمَصُونٍ تهتَّكَ[7].

وهذه العلاماتُ تكونُ قَبْلَ استعارِ نارِ الحُبِّ؛ وتأجُّجِ حَرِيقِهِ، وتَوَقُّدِ

---

(١) هذه قراءة (ع) والقاسمي وغيرهما، وفي الأصل: «للبدر»، و«للشُّعاء».
(٢) خ: (ممتنع). وقال (ع): وهو خطأ من حيث الإعراب، والاقرب أن يقرأ: (يمتنع) بدلًا من قراءته: (ممتنعًا). وقرأ السامرائي: (يَشُحُّ)، وتبعه (ع) في طبعته الثانية.
(٣) كذا في الأصل وعند بتروف، وعند (ع): تَظَرَّف.
(٤) التفل: هو الذي ترك استعمال الطِّيب.
(٥) في الأصل: وفقر.
(٦) في الأصل: فتك.
(٧) في الأصل: تمسك، ولا وجه لها. وعند مكي: تبذَّل. وعند (ع) كما أثبت.

شُعَلِهِ، واسْتِطَارةِ لَهَبِهِ. فأمَّا إذا تَمَكَّنَ وأخذَ مَأْخَذَهُ فحينئذٍ ترىٰ الحديثَ سِرارًا، والإعراضَ عن كلِّ ما حَضَرَ إلَّا عن المَحْبُوبِ جهارًا.

ولي أبياتٌ جمعتُ فيها كثيرًا من هذا العلامات، منها: [من البسيط]

أهوىٰ الحَديثَ إذا ما كانَ يُذْكَرُ لي ... فيه ويَعْبَقُ لي عن عَنْبَرٍ أرِجِ/ (١٠ب)

إنْ قالَ لم أستمعْ ممَّن يُجالِسُني ... إلىٰ سوىٰ لَفْظِهِ المُسْتَظْرَفِ[1] الغَنِجِ

ولو يكونُ أميرُ المُؤمنينَ معي ... ما كنتُ مِنْ أجله عنه بمُنعَرِجِ

فإنْ أقُمْ عنه مضطرًّا فإنِّيَ لا ... أزالُ مُلْتَفِتًا والمشيُ مشيُ وَجي[2]

عينايَ فيه وجِسْمي عنهُ مرتحِلٌ ... مثلُ ارتقابِ[3] الغَريقِ البَرَّ في اللُّجَجِ

أَغَصُّ بالماء إنْ أذكرْ تباعُدَهُ ... كمن تَشاءَبَ وَسَطَ النَّقْعِ والرَهَجِ[4]

وإن تَقُل مُمْكِنٌ قصْدُ السَّماء أقُلْ ... نَعمْ وإنِّي لأدري موضِعَ الدَّرجِ

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكُلِّ ذي بَصَرٍ: الانبساطُ الكَثِيرُ الزَّائِدُ، والتَّضَايقُ في المكان الواسِعِ، والمجاذبةُ علىٰ الشَّيءِ يأخذه أحدُهُما، وكثرةُ الغَمْزِ الخَفِيِّ، والمَيْلُ بالاتِّكاءِ، والتَعَمُّدُ لمسِّ اليد عند المُحَادَثَةِ، ولَمْسِ ما أمكنَ من الأعضاء الظَّاهِرَةِ، وشُرْبُ فَضْلَةِ ما أبقىٰ المَحْبُوبُ في الإناءِ، وتَحَرِّي المكان الذي قابَلَ فِيهِ[5].

---

(١) في الأصل: المستطرف، بالطاء المهملة. قال الحربي: وكلاهما صحيح.

(٢) الوجي: الذي يجد وجعًا في قدمه. قال الحربي: وهو الحافي أيضًا، والاقرب ـ هنا ـ الأول.

(٣) خ: التفات، وهكذا أثبتها بتروف. وما أثبته فعن: (ع) و(مكي).

(٤) في الأصل: (تناب)، و: (الوهج). ويرىٰ (ع) أنه لا معنىٰ لها في هذا المقام. والرَّهج: الغبار؛ وهو كالنَّقع.

(٥) كذا الأصل وعند بتروف، يعني: قابَلَ فَمه. وعند (ع) ـ في طبعته الأولىٰ ـ وأكثر من سبقه: (يقابله فيه)، واقترح السامرائي: (الذي قابل فمه)، أو: (يقابله فمه)، واعتمده (ع) في طبعته الثانية. ولا وجه لهذا التكلف، فما في الأصل واضح وصحيح.

ومنها: علاماتٌ متضادَّةٌ، وهي علىٰ قَدْرِ الدَّواعي والعوارض الباعثة، والأَسْبابِ المُحَرِّكَةِ، والخواطِرِ المُهَيِّجَةِ. والأضدادُ أندادٌ، والأشياءُ إذا أفرطتْ في غاياتِ تضادِّها، ووقفتْ في انتهاءِ حُدودِ اختلافها؛ تشابَهَتْ، قُدْرَةً مِنَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تَضِلُّ فيها الأوهامُ. فهذا الثَّلْجُ إذا أُدْمِنَ حَبْسُهُ في اليد؛ فَعَلَ فِعْلَ النَّارِ، ونَجِدُ الفَرَحَ إذا أَفْرَطَ قَتَلَ، والغمَّ إذا أَفْرَطَ قَتَلَ، / والضَّحِكَ إذا كَثُرَ واشتدَّ؛ سالَ الدَّمْعُ من العينين. وهذا في العالم كثيرٌ، فنَجِدُ المُحِبَّيْنِ إذا تكافيا في المحبَّةِ، وتأكدتْ بينهما تأكُّدًا شديدًا كَثُرَ تَهاجُرُهُما[1] بغيرِ مَعْنًى[2]، وتضادُّهما في القولِ تعمّدًا، وخروجُ (١١١أ)

(١) في الأصل: أكثر بهما جدُّهما. وقد تأملتُ العبارة كثيرًا؛ فلم يظهر عندي في توجيهها شيء، وما أثبته فعن (ع) وقال: تعرَّضتِ اللَّفظة لتصحيفٍ طريفٍ في مختلف الطَّبعات، فجاءت: «بهما جدهما»، والتهاجر ليس هجرة، ويقول ابن حزم بعد قليل: «والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة، والمضادَّة المتولِّدة عن الشحناء... إلخ».
قلت: وهذا تصحيح وتوجيه جيد، لكن ما وقع في الطبعات التي أشار إليها الدكتور؛ إنما يرجع إلى ما في المخطوط، والدكتور لم يطَّلع عليه.

(٢) بل هناك معانٍ كامنة وأسباب باطنة، منها:
قوّة الغيرة، لا سيما إذا كانت في أحدهما أقوى من صاحبه، وترى الغيّار منهما يُبدي تصرفات غضب وسخط، ولا يجرؤ على التصريح بأوهام الغيرة.
ومنها: الثّقة بأنّ كلًّا منهما في ملك الآخر، وأنّه في أمْن من طول الهجر، وقد كان الخوف هو الحارس المانع من تقطُّع البين.
ومنها: سقوط الكلفة بينهما والتحفّظ، فيرى كلّ واحد منهما صاحبه ما كان يخفيه من قبل، أو كان يُبديه في صورة محاسن.
ومنها: تراكمات عذاب وضنى في قلبهما أيامَهم الأولى، وهما في مدارج السالكين إلى منازل الحبّ والكلف؛ إذ لا بدّ أن يكون حصل من أحدهما إعراضٌ، أو جفاء، أو تمرُّدٌ جعل طالب الوصل منهما ذليلًا عند محبوبه، فيترجم ذلك عند التمكن إلى المجازاة من حيث لا يقصد، فيعرض ويجفو ويتمرّد، ثم يفيء ويعود إلى هواه.
وأمر الذّل هذا ليس خاصًّا بالمحبّين، بل هو في كلٍّ من حملته حاجته إلى الذّل، فإنّه تتجه إلى نفسه عقدة يثبت بها سيادته حين التمكن، ولو على غير من استبعده، شعر بذلك أو لم يشعر. (الحربي)

بعضهما[1] علىٰ بعضٍ في كلِّ يَسِيرٍ من الأمور، وتتبُّعُ كلٍّ منهما لفظةً تقع من صاحبه[2]، وتأوُّلها علىٰ غيرِ معناها، كلُّ هذه تجربةٌ ليبدو ما يَعْتَقِدُهُ كلٌّ واحدٍ منهما في صاحبه.

والفرقُ بين هذا وبين حقيقةِ الهِجْرةِ والمضادَّةِ المتولِّدةِ عن الشَّحْناء ومحارجة[3] التَّشاجر؛ سرعةُ الرضىٰ، فإنَّكَ بينما[4] ترىٰ المُحِبَّيْنِ قد بلغا الغايةَ من الاختلافِ الذي لا تُقَدِّرُهُ يَصْلُحُ عند السَّاكِنِ النَّفْسِ السَّالم من الأحقادِ في الزَّمنِ الطَّويل، ولا يَنْجَبِرُ عند الحقودِ أبدًا، فلا تلبثُ أن تراهُما قد عادا إلىٰ أجمل الصُّحْبَةِ، وأُهْدِرَتْ المُعَاتَبَةُ، وسَقَطَ الخِلافُ، وانصرفا في ذلك الحين بَعْينِهِ إلىٰ المُضاحَكَةِ والمُدَاعَبَةِ، هكذا في الوقت الواحد مِرارًا. وإذا رأيتَ هذا من اثْنَيْنِ فلا يخالجْكَ شَكٌّ، ولا يدخلنَّكَ ريبٌ البتةَ،/ ولا تَتَمارَ في أنَّ بينهما سرًّا مِنَ الحُبِّ دَفينًا، واقْطَعْ (١١ب) عليه قَطْعَ من لا يَصْرِفُهُ عنه صارِفٌ، ودونكها تجربةً صحيحةً، وخِبرةً صادقةً. هذا لا يكون إلا عن تكافٍ في المودَّةِ، وائتلافٍ صَحيحٍ، وقد رأيتُهُ كثيرًا.

ومن أعلامه: أنَّكَ تجدُ المحبَّ يستدعي سماعَ اسم مَنْ يُحِبُّ، ويستلذُّ الكلامَ في أخباره ويَجْعَلُها هِجِّيراهُ[5]، ولا يرتاحُ لشيءٍ ارتياحَهُ لها، ولا يُنَهْنِهُهُ عن ذلك تخوُّف أن يفطنَ السَّامعُ، ويفهَم الحاضِرُ، و:

---

(١) خ: بعضها.

(٢) خ: وتتبع كل لفظةٍ تقع منهما صاحبه. وقد أثبتها بتروف مصحَّحة، وتابعته الطبعات الشرقية، وهو تصحيح لا بدَّ منه.

(٣) تقرأ في الأصل: ومخارجة. ولعل الصواب ما أثبتُّ، والمحارجة: تبادل الإحراج، وهو إثارة التضايق بالمماحكة.

(٤) خ: بينهما.

(٥) عادته. (الحربي)

«حبُّكَ الشَّيءَ يُعمي ويُصمُّ»[1]. فلو أمكنَ المحبَّ أن لا يكونَ حديثٌ في مكانٍ يكون فيه إلا ذِكْرُ من يُحِبُّهُ لما تعدَّاه.

ويعرض للصَّادِق المودَّةِ أن يبتدىء في الطَّعام وهو له مُشتهٍ فما هو إلَّا وقتَ ما يَهتاجُ[2] له مِنْ ذكرِ مَنْ يُحِبُّ؛ صارَ الطَّعامُ غُصَّةً في الحَلْقِ؛ وشجىً في المريء، وهكذا في الماء، وفي الحَدِيثِ، فإنه يفاتحُكَهُ مبتهجًا، فتعرضُ له خطْرةٌ من خَطَراتِ الفِكْرِ فيمن يُحِبُّ، فتستَبِينُ الحَوالةُ[3] في مَنْطِقِهِ، والتَّقْصيرُ في حديثه، وآيةُ ذلك الوُجومُ والإطراقُ وشدَّةُ الانغلاقِ فبينما هو طَلْقُ الوجهِ خفيفُ الحركاتِ صار مُنطبقًا متثاقلًا حائرَ النَّفْسِ،/ جامدَ الحركة، يَبْرَمُ بالكلمةِ، ويضجرُ من السُّؤال. (١٢أ)

ومِنْ علاماته: حُبُّ الوَحْدَةِ، والأُنْسُ بالانفراد، ونُحُولُ الجسم دون حَرٍّ[4] يكونُ فيه، ولا وَجَعٍ مانعٍ من التقلّبِ والحركةِ والمشي؛ دليلٌ

---

(١) تضمين لحديث ضعيف؛ رواه أحمد ١٩٤/٥، ٤٥٠/٦، وأبو داود (٥١٣٠) والبخاري في: «التاريخ الكبير» ٢ /الترجمة: (١٨٥٣)، وغيرهم عن أبي الدّرداء ـ رضي الله عنه ـ به. وهو في: «سلسلة الأحاديث الضَّعيفة» (١٨٦٨).

(٢) خ: تهتاج.

(٣) الحوالة: يريد بها الانتقال من حال إلى أخرى، والتغير، وقد استعملها ابن قزمان في أحد أزجاله (رقم: ٧٨) فقال:

ولا بد للخبز من فرن إذا ما اختمر   إن لم يعتريه حوالة وَيُفْرَنْ فطير

ويفرن: بمعنى يخبز في الفرن؛ وإلى هذا أشار الدكتور عبد العزيز الأهواني، انظر مجلة المعهد المصري، المجلد: ١٨ (١٩٧٤ ـ ١٩٧٥) ص٧٢ (ع).

(٤) وردت في الطبعات المختلفة (ما عدا برشيه): حدّ، ولا معنى لها؛ والحرّ كان يقترن بالنحول عند علماء الطب، كما أنَّ كثرة الشحم تقترن بالبرد، قال علي بن ربن الطبري (في فردوس الحكمة: ٨٤) نقلًا عن جالينوس: «ومما يدل على حرارة المزاج ويبسه نحافة البدن... ويدل على برد المزاج ورطوبته كثرة الشحم...» (ع). =

لا يكذبُ، ومُخْبِرٌ لا يَخُونُ؛ عن عِلَّةٍ[1] في النَّفْسِ كامِنَةٍ.

والسَّهَرُ من أعراض المُحبِّينَ، وقد أكثر الشُّعراء في وصفه وحَكَوْا أنَّهم رُعاةُ الكواكب، وَوَصَفُوا طولَ[2] اللَّيْل؛ وفي ذلكَ أقولُ ـ وأذكر كتمانَ السِّرِّ، وأنَّه يتوسَّمُ بالعلامات ـ: [من الوافر]

تَعَلَّمَتِ السَّحَائِبُ من شؤُوني	فعمَّتْ بالحيَا السَّكْبِ[3] الهَتُون
وهذا اللَّيْلُ فيكَ غدا رَفيقي	بذلك أم علىٰ سَهري مُعيني
فإنْ لم يَنْقضِ الإظلامُ إلَّا	[إذا] ما أُطبِقَتْ نومًا جُفُوني
فليسَ إلىٰ النَّهار لنا سَبيلٌ	وسُهْدٌ زائدٌ في كلِّ حِين
كأنّ نُجُومَهُ والغَيمُ يخفي	سَنَاها عن مُلاحظةِ العُيون
ضَميري في وِدَادِكَ يا مُنايَ	فليسَ يَبينُ إلَّا بالظُّنُون

وفي مثل ذلك قطعةٌ منها: [من الكامل]

أرعىٰ النُّجومَ كأنّني كُلِّفتُ أن	أرْعَى جَميعَ ثُبُوتِها والخُنَّسِ[4]

= قلت: في الأصل: (حد) بالدال، وذكر السامرائي أن اختيار برشيه اعتمدت في الترجمات الأوروبية وترجم بالحمّى، وقال: ليس في المعاجم العربية ما يسوِّغ تفسير الحرِّ بالحمّى، ويبدو لي أن القراءة الصحيحة هي: (ضُرّ)، يعني ـ هنا ـ: هزال الجسم من غير اختلال أو مرض. وفي القرآن الكريم ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقد استخدم ابن حزم هذا التعبير في مواضع أخرى، مثل قوله في (٢٤ ـ باب البين): «متى تشتفي نفسٌ أضرَّ بها الوجدُ».

(١) في الأصل تقرأ: كلة.

(٢) كذا في الأصل، وعند (مكي) و(ع): وَوَاصِفُو طولِ. وهذا تصحيح وجيه، ولكنهما لم يشيرا إلى ما فيه من مخالفة للمخطوط ولطبعة بتروف!

(٣) خ: السَّكيب. ويترجّح عندي ما في طبعة بتروف، والطّبعات اللاحقة.

(٤) الخنّس: الكواكب السيَّارة، أو النجوم الخمسة (زحل، المشتري، المرِّيخ، الزُّهَرة، =

فكأنَّها والليلُ نِيرانُ الجوَى ... قد أُضْرِمتْ في فِكْرتي مِنْ حِنْدِسِ[1]

وكأنَّني أمسيْتُ حارسَ روضةٍ ... خَضْراء وُشِّحَ نَبتها بالنَّرجِسِ

لو عاش بَطْلِيمُوسُ أيقنَ أنَّني ... أقوى الوَرى في رَصْدِ جَرْيِ الكُنَّسِ[2]

والشيء قد يذكر لما يوجبه: وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئَيْنِ بشيئين في بيتٍ واحدٍ، وهو البيتُ الذي أوله: «فكأنَّها والليل»، وهذا/ (١٢ب) مستغربٌ في الشِّعر، ولي ما هو أكملُ منه، وهو تشبيه ثلاثةِ أشياءَ في بيتٍ واحدٍ، وتشبيهُ أربعةِ أشياءَ في بيتٍ واحدٍ، وكلاهما في هذه القطعة التي أُوردها؛ وهي: [من الطويل]

مَشُوقٌ مُعَنًّى ما ينَامُ مُسَهَّدُ ... بخَمْرِ التَّجَنِّي ما يزالُ يُعربِدُ

ففي ساعةٍ يُبدي إليكَ عجَائبًا ... يَمُرُّ ويَستحلي[3] ويُدني ويُبعدُ

كأنَّ النَّوىٰ والعَتْب والهَجْر والرِّضى ... قِرانٌ وأفذاذ[4] ونحسٌ وأَسْعُدُ

رَثَى لغَرَامي بعد طُول تَمَنُّعٍ ... وأصبَحْتُ مَحْسُودًا وقد كُنتُ أَحْسُدُ

نَعِمْنا على نوْرٍ من الرَّوضِ زاهرٍ ... سقته الغَوادي فهو يثني ويَحمدُ

= عطارد)، وأكثر المفسرين أنها في قول الله سبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾: الكواكب كلها. (الحربي)

(١) ظلمة شديدة. (الحربي)

(٢) الكنَّس: الظباء، والكواكِب؛ لأنها تكنس في المغيب، والمراد هنا: الكواكب.

(٣) هذه قراءة (مكي) و(ع)، وفي الأصل: يَعْدُو يستخلي. أو: يعد ويستخلي. وأثبتها بتروف: (وَ) يَعْجُو ويستحلي.

(٤) في الأصل: وَانذَارٌ. وهذا لا يستقيم مع السياق، واختار بتروف: وأندادٌ، وتبعه (مكي)، أما (ع) ـ تبعًا للعلامة محمود محمد شاكر رحمه الله ـ فقد اختار: (أفذاذ)؛ وهذا أحسن لما سيأتي من تفسير المصنِّف لـ: «قران». قال الحربي: بل الأقربُ ما اختاره بتروف، لأن المصنِّف أراد ذكر أمور وأحوال متضادَّة، فذكر المرارة والحلاوة والنحس والسعد، والنَّوىٰ ـ وهو القرب أو البعد ـ والهجر، والعتب والرضىٰ.

كأنّ الحيا والمُزنَ والرّوضَ عاطرًا دمـوعٌ وأجـفـانٌ وخـدٌّ مـورَّدُ

ولا يُنكرنَّ عليَّ مُنكرٌ قولي: «قران» فأهلُ المعرفةِ بالكواكب يسمُّونَ التقاء كوكبين في درجةٍ واحدةٍ قرانًا.

ولي ـ أيضًا ـ ما هو أتمُّ من هذا، وهو تشبيهُ خمسةِ أشياءَ في بيتٍ واحدٍ في هذه القطعة؛ وهي: [من الطويل]

(١٣أ) /خلوتُ بها والرَّاحُ ثالثةٌ لنا[١] وجُنحُ ظلام اللَّيْلِ قَدْ مَدَّ وأَتْلَجِ[٢]

فتاةٌ عدمتُ العيشَ إلّا بقُرْبها فهل في ابتغاءِ العَيْشِ ويحكَ من حَرَج

كأنيِّ وهِي والكاسَ والخمرَ والدُّجىٰ ثَرىٰ وحَيا والدُّرُّ والتِبْرُ والسَّبَج[٣]

فهذا أمرٌ لا مزيدَ فيه، ولا يقدرُ أحدٌ علىٰ أكثرَ منه، إذ لا يَحتمل العَروضُ ولا بِنية الأسماءِ أكثرَ من ذلك[٤].

---

(١) خ: (لها). والمثبت موافق لما في «نفح الطيب».

(٢) قَدْ مَدَّ وأتلج: كذا في الأصل مضبوطة، وهكذا أثبتها بتروف. وجعلها (ع): مذ مدَّ ما انبلج. وقال: هذه هي القراءة التي أختارها؛ وفي بعض الطبعات: قد مدّ وانبلج وهو كلام متناقض؛ لأن «انبلج» تعني أسفر وأشرق؛ وقرأ برشيه: قد مدّ واتلج؛ والاتلاج: الولوج والدخول، وهي قراءة فيها شطط.
وفي «نفح الطيب»: (قد مدَّ واعتلج).

(٣) السبج: الخرز الأسود. (الحربي)

(٤) نقل الأبيات الثلاثة المقَّري في «نفح الطيب» ٣/٥٥٩، وقال في صدرها: «وقال أبو محمد ابن حزم في طوق الحمامة»، ثم قال: «قال: وهذه خمس تشبيهاتٍ لا يقدر أحدٌ على أكثر منها، إذ تضيق الأعاريض عنه. قال أبو عامر ابن مسلمة: ولا أذكر مثلها إلا قولَ بعضٍ:
فأمطرَتْ لُؤلؤًا من نرجسٍ فسَقَتْ وَرْدًا وعضَّتْ على العُنَّابِ بالبَردِ
إلا أنه لم يعطف خمسةً على خمسةٍ ـ كما صنع ابن حزم ـ بل اكتفى بالعمل في التشبيهات».
قلت: أبو عامر ابن مسلمة من تلاميذ أبي محمد، ذكره الحميدي في «الجذوة» (٨٩) =

ويَعْرِض للمحبِّ القلقُ عند أحد أمرين:

أحدهما عند رجائه لقاءَ مَنْ يحبّ فيعرض عند ذلك حائل.

خَبَرٌ:

وإنّي لأعلمُ بعضَ من كان محبوبُه يَعِدُهُ الزّيارة، فما كنتُ أراه إلا جائيًا وذاهبًا لا يَقَرُّ به القرارُ، ولا يثبت في مكانٍ واحدٍ، مقبلًا مدبرًا قد

= ـ وعنه الضبي في «البغية» (١٧١) ـ فقال: «محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة، أبو عامر الوزير، أديب عالم شاعر، من بيت أدب ورياسة، سكن إشبيلية، رأيت له كتابًا سماه: «كتاب الارتياح بوصف الراح»؛ ذَكَرَ ما قيل فيها، وفي الرياض، والبساتين، والنواوير، واحتفل في ذلك»، وذكر أبياتًا من شعره.

وذكره ابن بشكوال في «الصلة» (١٢٦٧)، فقال: «محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة: من أهل قرطبة، يكنى: أبا عامر. روى عن أبي الحجاج الأعلم الأديب، وقيّد عنه كثيرًا. وأخذ ـ أيضًا ـ عن أبي القاسم ابن محمد الطرابلسي، وأبي محمد علي بن حزم الحافظ، وغيرهم. وكانت له عناية بالعلم وسماعه وجمعه، ومعرفة بالأدب واللغة ومعاني الشعر، وقد أخذ عنه بعض شيوخنا، وجِلّة أصحابنا. وكان ذا جلالة ونباهة وصيانة. وتوفي رحمه الله يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر من سنة إحدى عشرة وخمس مئة. وحمل إلى إشبيلية فدفن بها. ومولده سنة ثلاث أو أربع وثلاثين وأربع مئة. أخبرني بذلك ابنه أبو بكر أكرمه الله».

وذكره ابن خاقان في «مطمح الأنفس» ٢٠٣، وأثنى عليه جدًّا، وسمَّاه كما عند الحميدي، وما عند ابن بشكوال هو الصواب، واعتمده الذهبي في «تاريخ الإسلام» ١٨٠/١١ (ط: دار الغرب)، ويُعلم ذلك من ترجمة ابنه: أبي بكر محمد بن محمد بن محمد (ت: ٥٤٥) ـ كما في «الصلة» (١٣٠٠)، و«تاريخ الإسلام» ٨٨٢/١١ ـ، وحفيده: أبي الحسن عبد الرحمٰن بن محمد بن محمد بن محمد (ت: ٥٨٥) ـ كما في «التكملة لكتاب الصلة» لابن الأبار ٣٧/٣، و«تاريخ الإسلام» ٨١٣/١٣ ـ، وابنَي حفيده: أبي محمد جابر بن عبد الرحمٰن بن محمد بن محمد بن محمد (ت: ٦١٥) ـ كما في «التكملة» ٢٠٠/١ ـ، وأبي جعفر عبد الله بن عبد الرحمٰن بن محمد بن محمد بن محمد (ت: ٦٢٦) ـ كما في «التكملة» ٢٩٤/٢، و«تاريخ الإسلام» ٧٨٢/١٢ ـ.

استخفَّه السُّرورُ بعد رَكانةٍ، وأشاطه[1] بعد رزانةٍ.

ولي في معنىٰ انتظار الزِّيارة: [من الطويل]

أقمتُ إلىٰ أنْ جاءني اللَّيلُ راجيًا ... لِقاءَك يا سُؤْلي ويا غايَةَ الأمَلْ

فأيأسني الإظلامُ عَنْكَ ولم أكُن ... لأيأسَ يومًا أنْ بدا اللَّيلُ يتَّصلْ

وَعِندي دليلٌ ليسَ يَكْذِبُ خُبْرهُ ... بأمثالِه في مُشكِلِ الأمر يُستدل

لأنَّكَ لو رُمْتَ الزيارةَ لم يَكُنْ ... ظلامٌ ودامَ النُّورُ فينا ولم يزل[2]

والثاني: عندَ حادثٍ يحدُث بينهما من عتابٍ لا تُدرىٰ حقيقته إلا / (١٣ب) بالوصف؛ فعند ذلكَ يشتدّ القلقُ حتَّىٰ يُوفي علىٰ تحمُّله[3]، فإمَّا أن يذهَبَ تَحَمُّلُه[4] إنْ رجا العفْو، و[إمَّا] أن يصيرَ القلق حُزْنًا وأسَفًا؛ إن تخوَّفَ الهَجْرَ.

ويعرضُ للمُحِبِّ الاستكانَةُ لجفاءِ المحبوب عليه، وسيأتي مفسّرًا في بابه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

ومن أعراضه: الجزَعُ الشَّديدُ، والحُمْرَةُ المُقَطِّعَةُ[5]؛ تغلب عندما

(١) أي: أخرجه عن حدّ الاعتدال. والكلمة واضحة في الأصل، وقال العلامة محمود محمد شاكر رحمه الله: ظنِّي أن صوابه: «واستشاطه».

(٢) علَّق (ع) هنا بقوله: لا تعدو هذه الأبيات أن تكون «محاكمة استدلالية» ـ على طريقة أهل الجدل ـ مأخوذة من قول المتنبي:

أمن ازديارك في الدجى الرقباء ... إذ حيث أنت من الظلام ضياء

(٣) هذه قراءة السامرائي، بدلالة قوله بعده: «فإمَّا أن يذهبَ تحمُّله»، وقد أفادت الترجمة الهولندية هذا المعنى، وفي الأصل: «حتَّى يوقفَ على الجليلة)، وهكذا أثبتها بتروف، وقراءة برشيه، وتبعه (ع): (حتى يوقف على الجَلِيَّة). وقال القاسمي: «الجليلة» تحريف، وجليَّة الأمر: أصله وحقيقته.

(٤) كذا الأصل، و(ب)، والقاسمي، وجعله (ع): (تحامُلُه).

(٥) كذا في الأصل وعند (ب)، وقرأها برشيه: (والحيرة المقطعة)، وعند (ع) في طبعته الأولىٰ: (والحيرة المفظعة)، واقترح السامرائي: (والحسرة المقطعة)، وقال: هذا =

يرىٰ من إعراض محبوبه عنه ونِفاره منه، وآيةُ ذلكَ الزَّفِيرُ، وقلَّةُ الحركةِ، والتأوّهُ، وتنفُسُ الصُّعَداء. وفي ذلك أقول شعرًا منه [المديد]:

وَدُمُـــوعُ الـــعَـيْـــنِ سَـــارِحَـــةٌ وجَـمِـيـلُ الـصَّـبْـرِ مَـسْـجـون[1]

ومن علاماته: أنَّكَ ترىٰ المُحِبَّ يُحِبُّ أهلَ محبوبه، وقرابتَهُ وخاصَّتَهُ حتَّىٰ يكونُوا أحظىٰ لديه من أهله، ونفسه، ومن جميع خاصَّتِهِ.

والبكاءُ من علامات الحبِّ، ولكن النَّاسَ يتفاضلون فيه، فمنهم غزيرُ الدَّمْعِ، هامِلُ الشُّؤون، تُجيبه عَيْنُهُ، وتحضُره عَبْرَتُهُ إذا شاءَ، ومنهم جَمودُ

= أكثر مناسبة للحبِّ الشديد المقلق. واستفاد منه (ع) في طبعته الثانية، فأثبت: (والحسرة المفظعة).

(١) أقدّر أنهما بيتان حذف عجزاهما وما يلي من أبيات أو أنه بيت واحد اضطرب الناسخ في إيراده اضطرابًا لا يجدي معه تغييره كما فعل الأستاذ حسن كامل الصيرفي إذ جعله:

جـمـيـل الـصـبـر مـسـجـون ودمـع الـعـيـن مـسـفـوح

فهو تصحيح للوزن لا غير، لكننا لا ندري كيف كان البيت على وجه الحقيقة؛ وأرجح أنه هو البيت الذي سيرد في الباب الثاني عشر:

دموع الـصـب تـنـسـفـك وسـتـر الـصـب يـنـهـتـك

(على أن نقرأ: وستر الصبر منهتك). (ع).

قال الحربيُّ: ما كان للأستاذ إحسان عبّاس والذين معه أن يعجلوا في الحكم على البيت المذكور، وأن يضطربوا في سلامته، وأن يجعلوا منه بيتًا آخر من بحر آخر، لا ينسجم معه إلّا في ذكر الدّموع في أول البيتين. وما كان للصيرفي أن يتصرف فيه ويمسخه إلى بيتٍ آخر من الهَزَج.

فالبيت المثبت، الذي هو:

ودمـوع الـعـيـن سـارِحـةٌ وجـمـيـلُ الـصـبـر مَـسْـجـونُ

مستقيمٌ لا عوجَ له، وهو من بحر المديد، وأنواع المديد أكثر من عشرة.

ووزنه هنا:

فَـعِـلاتـن، فـاعِـلـن فَـعِـلُـنْ فَـعِـلاتُـنْ، فـاعِـلُـن، فَـعْ لُـن

ومنه قول الآخر:

ورِدَاءُ الـفـجـرِ مـنـسـحِـبٌ ونِـطـاقُ الـلّـيـلِ مَـشْـدُولُ

العين عديمُ الدَّمْع، وأنا منهم. وكانَ الأصل في ذلك إدماني أَكْلَ الكُنْدَر[1] لخَفقانِ القَلْبِ، وكانَ عرَضَ لي في الصِّبا، فإنيِّ لأُصابُ بالمصيبة الفادِحَةِ فأَجدُ قلبي يتفطَّر ويتقَطَّعَ، وأحِسُّ في قلبي غُصَّةً أمرَّ من العلقم تَحول بيني/ وبين توفية الكلام حقَّ مخارجه، وتكاد تشْرقُني[2] (١١٤أ) بالنَّفَس أحيانًا؛ ولا تجيبُ عيني ـ البتةَ ـ إلَّا في النُّدْرةِ بالشيءِ اليسير من الدَّمْعِ.

خَبَرٌ:

ولقد أذكرني هذا الفَصْلُ يَوْمَ وَدَّعْتُ ـ أنا وأبو بكر محمَّدُ بن إسحاقٍ[3]؛ صاحبي ـ أبا عامرٍ محمَّدَ بن [أبي] عامرٍ صديقَنا[4] ـ رحمه الله

---

(١) الكندر بالفارسية هو اللبان بالعربية، وقد قال ابن سينا: إنَّه مقوٍّ للروح الذي في القلب والذي في الدماغ، وقال الرازي إنَّه ينفع الخفقان (انظر مادة كندر في مفردات ابن البيطار ٤: ٨٣ ـ ٨٦) (ع).

(٢) هذه قراءة برشيه؛ وهي أصوب ممَّا في الأصل: تشوقني بالنفس.
والشَّرَق: ما يعترض في الحلق؛ فلا يمكن إساغته وابتلاعه. وهو الغُصَّة والشَّجا، وهذه الثلاث مترادفة، لكن الشّرق أخصّ بالشراب، والغُصّة بالطعام، والشَّجا بالعظم.

(٣) محمد بن إسحاق المهلبي أبو بكر الإسحاقي الوزير، كان من أهل الأدب والفضل، وهو الذي خاطبه ابن حزم برسالته في فضل الأندلس «الجذوة» (٢٣).

(٤) في الأصل: بن أبي عامر محمد بن عامر صديقًا. وهذا لا يستقيم، وقد أُثبته بتروف هكذا: أبا عامر محمد بن عامر صديقًا. وما أثبته فعن (ع)، وزيادة (أبي) منه؛ باعتبار محمد ابنًا لابن أبي عامر؛ وهو: عبد الملك المظفَر، وعلَّق عليه بقوله: أكد ابن حزم أنه لا عقب لعبد الملك المظفر (الجمهرة: ٤١٩) فمحمد هذا ليس ابنًا للمظفر، وإنما هو ـ إن كان من أسرة العامريين ـ محمد بن عبد الله بن المنصور العامريّ (وقد مات في حياة ابن حزم) وتخلَّف ابنًا اسمه عبد الملك نهض إلى الحج ومات هنالك؛ ووالد محمد هذا ـ أي: عبد الله ـ كان قد قتله المنصور والده سنة ٣٨٠هـ (انظر نقط العروس: ٧٩ تحقيق د. شوقي ضيف) وقد أشارت إلى ذلك إحدى الرسائل التي وُجِّهت إلى المعتضد حين قُتل ابنه إسماعيل (الذخيرة ١/٣: =

ـ في سفرته إلىٰ المشرق[1] التي لم نَرَه بعدها[2]، فجعل أبو بكر يبكي عند وداعه ويُنشد متمثِّلًا بهذا البيت: [من الطويل]

ألا إنَّ عينًا لم تَجُد يومَ واسِطٍ   عليك بباقي دَمْعِها لَجَمُودُ[3]

وهو في رثاءِ يزيد بن عمر بن هبيرة[4] ـ رحمه الله ـ، ونحنُ وقوفٌ علىٰ ساحل البحر بمالقة[5]، وجعلتُ أنا أُكثرُ التفجُّعَ والأسفَ

= ١٦٠؛ وتفصيل الحادثة عند ابن عذاري ٢: ٢٨٤) وسيذكر ابن حزم من بعد أنه كانت بين والده ووالد أبي عامر هذا منافسة في صحبة السلطان ووجاهة الدنيا (٤ ـ باب من أحبَّ بالوصف)، وهذا يبعد أن يكون أبو عامر هذا من الأسرة العامرية المشهورة، فالتنافس لا يكون بين وزير وبين ابن الحاجب الأعلى نفسه.
قلت: واحتفظ الدكتور مكي بنص بتروف، وعلَّق عليه بقوله: «ثمَّة احتمال بأنّه يعني: أبا عامر محمد بن عبد الله بن يحيىٰ بن أبي عامر، وقد عرض له الضَّبيُّ في: «البغية» دون تفصيل، وخصَّه بالترجمة رقم (١٧١)، وأشار إلى أن ابن حزم ذكره. أو أننا بصدد حفيد المنصور بن أبي عامر؛ الابن الوحيد للحاجب العامري الثاني: المظفّر عبد الملك بن أبي عامر...» وذكر شيئًا من ترجمته.

(١) كذا في الأصل واضحة. علّق عليه (ع) بقوله: قرأها بروفنسال (الأندلس: ٣٥٢) إلى الشرق (يعني شرق الأندلس)؛ وبها أخذ غومس في ترجمته (انظر ص: ١١٢)؛ وليس من دليل على ذلك، وهذا ابنه عبد الملك يتوجه حاجًّا إلى المشرق أيضًا ولا يعود، انظر الحاشية السابقة.

(٢) خ: بَعْدُ.

(٣) البيت لأبي عطاء السندي (انظر الشعر والشعراء: ٦٥٣ والسمط: ٦٠٢ وأمالي القالي ١: ٢٦٨ والحماسة بشرح التبريزي ٢: ١٥١) وورد في أمالي المرتضى ١: ٢٢٣ منسوبًا لمعن بن زائدة. وفي مقتل يزيد انظر تاريخ الطبري ٣: ٦٨ ـ ٧٠ وفيه الشعر أيضًا. (ع).

(٤) هو أمير العراقين؛ أبو خالد الفزاري؛ نائب مروان الحمار. كان بطلًا شجاعًا، سائسًا جوادًا، فصيحًا بليغًا. قُتل سنة (١٣٢هـ) بعد انتصار العباسيين على الأُمويين، وسعىٰ في قتله أبو مسلم الخراساني الفارسي. ترجمته ومصادرها في: «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ١٤) و«السير» ٦/ (١٠٣).

(٥) مالقة (Malaga) مدينة على شاطىء المتوسط: كانت مركزًا تجاريًا هامًّا في العصور الإسلامية (انظر في التعريف بها: الروض: ٥١٧ والترجمة: ٢١٣ والزهري: ٩٣ وياقوت (مالقة) والموسوعة الإسلامية). (ع).

ولا تساعدني عيني، فقلت مُجيبًا لأبي بكر: [من الطويل]

وإنَّ امرءًا لم يَفْنَ[1] حُسْنُ اصطبارِهِ عليكَ وقد فارقْتَه لجَلِيدُ

وفي المَذْهَبِ الذي عليه النَّاسُ أقولُ ـ من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحُلم ـ أوَّلها: [من الطويل]

دليلُ الأسىٰ نارٌ علىٰ القلب تلفَحُ ودمعٌ على الخدَّيْن يَهْمي[2] ويَسفحُ
إذا كتم المشغوفُ سرَّ ضُلوعِهِ فإنَّ دموعَ العين تُبدي وتَفضح
إذا ما جُفونُ العين سالَتْ شُؤونها ففي القلب داءٌ للغرام مُبرِّح/ (١٤ب)

ويعرضُ في الحُبِّ سوءُ الظنِّ، واتهامُ كلِّ كلمةٍ من أحدهما وتَوْجيهُهَا إلىٰ غير وَجْهها، وهذا أصلُ العِتابِ بين المحبَّيْنِ. وإنِّي لأعلمُ من كانَ أحسنَ النَّاسِ ظنًّا، وأوسَعَهم نفسًا، وأكثرَهُمْ صَبْرًا، وأشدَّهم احتمالًا، وأرحَبهم صَدْرًا، ثم لا يحتملُ ممَّن يُحبُّ شيئًا، ولا يقع له معه أيسرُ مخالفةٍ حتَّىٰ يبديَ من التَّعْدِيدِ[3] فنونًا، ومن سوء الظَّنِّ وجوهًا. وفي ذلك أقول شعرًا منه: [من المنسرح]

أُسِيءُ ظَنِّي بكلِّ مُحْتَقرٍ تأتي به والحقيرُ من حَقَرَه
كي لا يُرَى أصلُ هِجْرَةٍ وقِلى فالنَّارُ في بَدء أمرها شَرَرَه

---

(١) خ: يغن. وهو خطأ.

(٢) يسيل. (الحربي)

(٣) كذا في الأصل واضحة، وجعلها (ع) ـ تبعًا للعلامة محمود محمد شاكر رحمه الله ـ: التعربد. من غير إشارة ولا تعليل. والمقصود بالتَّعْديد: ذكر الأخطاء والزلات على وجه الإحصاء والتتبُّع؛ إمَّا للعتاب، وإمَّا للخصام. وهذا معنىٰ ظاهر؛ يساعده السياق. وقارن بما سيذكره المصنِّف لاحقًا في النوع الثالث من أنواع: «الهجر»، وسيستعمل هذه اللفظة في (٨ ـ باب التّعريض بالقول).

وأصْلُ عُظْمِ الأمورِ أهونها ومِن صغيرِ النَّوىٰ ترىٰ شَجَرَه

وترى المحبَّ إذا لم يَثق بنقاءِ[1] طويَّةِ محبوبه له؛ كثيرَ التَّحَفُّظِ ممَّا لم يكنْ يتحفَّظُ [مِنْهُ] قبل ذلك، مثقِّفًا لكلامه، مزيِّنًا لحركاته، ومرامي طرفه، ولا سيما إن دُهي بمتجَنٍّ، وبُلي بمَعربدٍ.

ومن آياته: مراعاةُ المُحبِّ لمحبوبه، وحفظُهُ لكلِّ ما يقعُ [مِنْهُ]، وبحثُهُ عن أخباره حتَّىٰ لا يَسقط عنه دقيقُه ولا جليله، وتتبُّعُهُ لحركاته. (١٥أ) ولعمري! لقد ترىٰ البليدَ يصيرُ في هذه الحالةِ ذكِيًّا، والغافلَ فَطِنًا./

خَبَرٌ:

ولقد كنتُ يومًا بالمَرِيَّة قاعدًا في دُكَّان إسماعيلَ بنِ يونسٍ الطبيبِ الإسرائيليِّ[2]، وكانَ بصيرًا بالفِراسَةِ مُحْسِنًا لها، وكنّا في لمَّةٍ، فقالَ له مجاهد بن الحُصَيْنِ القيسيُّ: ما تقولُ في هذا؟ ـ وأشار إلىٰ رجلٍ مُنتَبِذٍ عنَّا ناحيةً اسمه حاتم، ويكنىٰ: أبا البقاء ـ فنظر إليه ساعةً يسيرةً، ثمَّ قالَ: هو

---

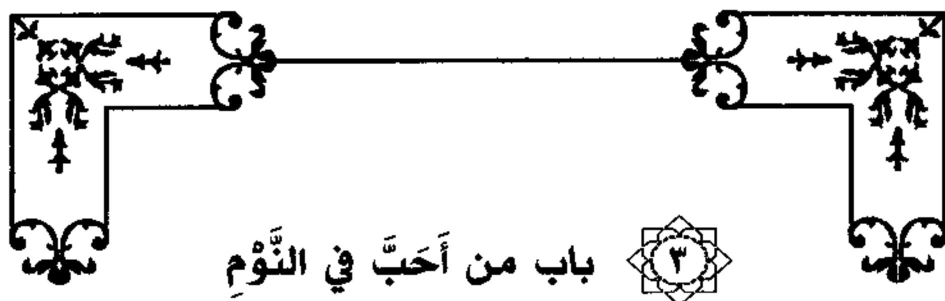
(١) هذه قراءة (ع)، وقرأها بتروف: (ببقاء). واقترح السامرائي: (بصفاء).

(٢) كان ابن حزم يلابس يهود الأندلس، إما للسؤال أو للجدل أو لغير ذلك، ولهذا عندما نشب الخلاف بينه وبين ابن عمه أبي المغيرة عيّره هذا بأنه أصبح بين شيعته وأنصاره «رئيس مدارسهم». وقال ابن حيان: ولهذا الشيخ أبي محمد مع يهود... مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة» (انظر الذخيرة ١/١: ١٦٣، ١٧٠ ومقدمتي على رسالة الرد على ابن النغريلة). وإسماعيل بن يونس الطبيب اليهودي ذكره ابن حزم في الفصل ٥:١٢٠ ووصفه بـ«الأعور» واستدلّ على أنه كان في أقواله ومناظرته ينصر مذهب تكافؤ الأدلة، لاجتهاده في نصر هذه المقالة دون أن يصرّح بذلك. وأضاف أبو محمد قوله: «وكان إسماعيل ابن القراد (لعلها: القراء) الطبيب اليهودي يذهب إلى هذا القول يقينًا وقد ناظرنا عليه مصرحًا به، وكان يقول ـ إذا دعوناه إلى الإسلام وحسمنا شكوكه ونقضنا علله ـ: الانتقال في الأديان تلاعب» (ع).

رجلٌ عاشقٌ. فقالَ له: صدقت، فمن أين قلت هذا؟ قال: لِبَهْتٍ مُفرطٍ ظاهرٍ على وجهه فقط دون سائر حركاته، فعلمتُ أنَّه عاشقٌ وليسَ بمُريب[1].



(١) كذا في الأصل واضحة، وجعلها برشيه: بمريض.



٣ باب من أَحَبَّ في النَّوْمِ

ولا بُدَّ لكلِّ حُبٍّ من سببٍ يكونُ له أصلًا، وأنا مبتدئٌ بأبعد ما يمكن أن يكونَ من أسبابه ليجريَ الكلامُ على نَسَقٍ، وأنْ يُبتدأ أبدًا بالسَّهل والأهون.

فمن أسبابه: شيءٌ لولا أنِّي شاهدته لم أذكره لغرابته.

خَبَرٌ:

وذلكَ أنِّي دخلتُ يومًا علىٰ أبي السَّريِّ عمَّار بن زياد ـ صاحبنا مولىٰ المؤيَّدِ[1] ـ فوجدته مفكِّرًا[2] مُهْتمًّا فسألته عمَّا به، فتمنَّع ساعةً، ثمَّ قال لي: أعجوبةٌ ما سُمِعَتْ قطُّ. قلتُ: وما ذاك؟ قال: رأيتُ في نَومي الليلةَ جاريةً/ فاستيقظتُ وقد ذهب قلبي فيها، وَهِمْتُ بها، وإنِّي لفي أصْعَبِ حالٍ (١٥ب) من حُبِّها. ولقد بقي أيامًا كثيرةً تزيد على الشَّهر مغمومًا، مَهْمُومًا، لا يَهْنئُهُ شيءٌ وَجْدًا، إلىٰ أن عذلته، وقلتُ له: من الخطأ العظيم أن تشغلَ نفسك بغير حقيقةٍ، وتعلِّقَ وَهْمَكَ بمعدومٍ لا يوجدُ، هل تعلم مَن هي؟ قال:

(١) المؤيَّد: هشام الثاني بن الحكم المستنصر.

(٢) خ: مبكرًا.

لا والله! قلتُ: إنَّكَ لَفَائِلُ[١] الرأي، مصاب البصيرة؛ إذ تُحِبُّ مَن لم تره قطُّ، ولا خُلِقَ، ولا هو في الدُّنيا، ولو عشقتَ صورةً من صُور الحمَّامِ[٢] لكنتَ عندي أعذرَ[٣]. فما زلتُ به حتَّىٰ سلا وما كاد.

---

(١) رجل فائل الرأي؛ وفِيله، وفالُه، وفيِّلُه: أي ضعيف الرأي (النهاية واللسان: فيل). وفي الأصل: لقايل. وجعلها بتروف: لقليل. وقرأها برشيه على الصّواب: لفائل. وعند (ع): لفِيل.

(٢) هذا يدلُّ على أن جدران الحمامات في الأندلس كانت تزيَّنُ بالصُّور (كما كان الحال في بعض حمامات المشرق) ـ انظر: نفح الطيب: ٣٤٨/٣ و٧٣/٢. وهنالك حكايات عن فتنة بعض الأندلسيين بالتماثيل؛ وفي: «الموشىٰ» (ص: ٥٦): وبلغنا أن منهم من عَشِقَ صورةً في حمَّامٍ، وخيالًا في منامٍ، وكفًّا في حائطٍ، ومثالًا في ثوبٍ.
قلت: تحريم الصّور والتماثيل من الأمور القطعية في الإسلام، وقد ورد النهي الشديد عنها، والوعيد الغليظ لأصحابها، وليس هذا حكمًا تشريعيًّا مجرَّدًا؛ بل له صلة أكيدة بسلامة العقيدة، وصلاح القلوب. وهذا لم يكن خافيًا على العلماء والصّالحين ـ بل ولا على عامّة المسلمين ـ لا في الأندلس ولا في غيرها من بلاد الإسلام.
وما ذُكِرَ من تزيين الحمامات بالصُّور؛ يمكن حمله على أن تلك الحمامات كانت لأهل الذِّمَّة من اليهود والنصارى، أو أنَّها كانت لهم ثُمَّ آلت إلى المسلمين بعد الفتح الإسلامي، وتساهلوا في إزالتها. وممَّا يدلُّ على هذا أبيات قالها أبو تمَّام بن رباح الحجَّام؛ في وصف تمثالٍ لمريم بنت عمران؛ تحمل المسيح بين يديها ـ عليهما السَّلام ـ؛ كان موضوعًا في حمَّام الشَّطَّارة في إشبيلية (أفاده د. مكي في تعليقه على هذا الموضع: ١١٦، وأحال إلىٰ: نفح الطِّيب: ٧٣/٢).
وممَّا تجدر الإشارة إليه هنا؛ أن ابنَ حزم ـ رحمه الله ـ إنَّما ذكر هذا على سبيل الحكاية لا الإقرار، وإلا فقد نصَّ على تحريم اتخاذ الصُّوَر وبيعها، وفصَّل القول في ذلك في كتابه: «المحلَّىٰ» (المسألة: ١٥٣٨).

(٣) وعُشاق التصاوير أكثر، ولها وقع في النفوس الرقيقة الضعيفة التي يكثر استقلالها عن غريزة العقل. وربّما كان تعلّق بعضهم بصورة يديم النظر إليها أكثر من تعلقه بالحقيقة؛ لأنّ الصورة مصوّرة على تمثال الجمال نفسه إذا كانت صورة متخيّلة فتسلب روعتها من لبّه، وقد يراها مبتسمة بعينين ناظرتين إليه، فيسري إليه إيحاء يرسِلُه التوافق والانسجام. وكان من الأجدر بأبي محمد ـ رحمه الله ـ أن يجعل لهذا المعنى بابًا كما جعل لمن أحبّ في النّوم بابًا. ولن يعدم في ذلك أخبارًا وأحاديث.. وأمّا اليوم؛ فالصور والتعلق بها من أعظم الفتن التي بُلي بها بنو آدم. (الحربي)

وهذا عندي من حديث النَّفْسِ وأضغاثها، وداخلٌ في بابِ التَّمَنِّي، وتخييل[1] الفكر، وفي ذلك أقول شعرًا منه[2]: [من البسيط]

يا لَيْتَ شِعريَ من كانتْ وكيفَ سَرَتْ ... أَطلَعَةَ الشَّمْسِ كانتْ أم هي القمرُ

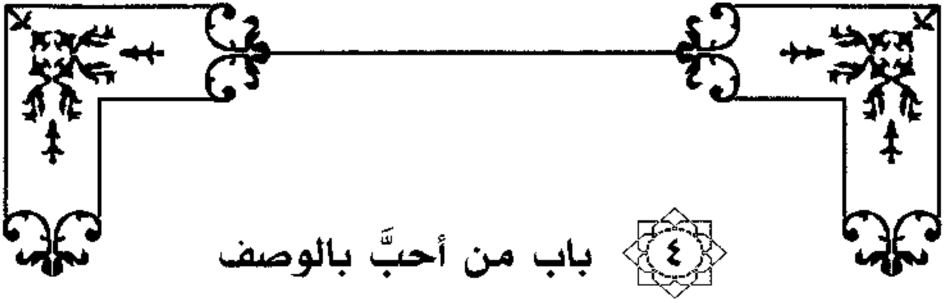
أَظَنَّهُ العقلُ[3] أبداه تدبُّره ... أو صورةَ الرُّوحِ أبدَتْها ليَ الفِكرُ

أو صورةً مُثِّلَتْ في النَّفْسِ مِن أملي ... فقد تخيَّل[4] في إدراكِها البصرُ

أو لم يكُن كلٌّ هذا فهي حادثةٌ ... أتىٰ بها سببًا في حَتفِيَ القَدَرُ



(١) هذه قراءة العلامة محمود محمد شاكر ـ رحمه الله ـ، وفي الأصل: «تخيل».
(٢) وردت الأبيات في: «ديوان الصبابة» لابن أبي حجلة الحموي: **٥٢** (دون نسبة) (ع).
(٣) يحتمل ضبطه أكثر من وجهٍ، وأقربها أن يكون «العقل» فاعلًا، والجملة بعده في محل المفعول به، وهمزة «أظنه» للاستفهام، والهاء مفعول أول. (الحربي)
(٤) ديوان الصَّبابة: تحيَّر.




٤ باب من أحبَّ بالوصف

ومن غريب أصول العِشْقِ أن تقعَ المحبَّةُ بالوصفِ دون المُعاينة، وهذا/ أمر يُترقَّىٰ منه إلىٰ جميع الحُبِّ، فتكونُ المراسلةُ، والمكاتبةُ، والهمُّ (١٦أ) والوَجْدُ، والسَّهرُ؛ على غير الإبصار، فإنَّ للحكاياتِ ونعت المحاسن، ووَصْفِ[١] الأخبار؛ تأثيرًا في النَّفْسِ ظاهرًا وأن تُسمع نَغمتها من وراء جدارٍ، فيكون سببًا للحبِّ، واشتغال البال.

وهذا كلُّه قد وقعَ لغير ما واحدٍ، ولكنه عندي بُنيان هارٍ على غير أسٍّ، وذلك أنَّ الذي أفرغ ذهنه في هوىٰ مَن لم يرَ لا بد له إذ يخلو بفكره أن يُمثِّلَ لنفسه صورةً يتوهمها، وعينًا يقيمها نُصبَ ضميره، لا يتمثَّلُ في هاجسه غيرها، قد مالَ بوَهْمِهِ نحوها، فإن وقعتِ المعاينةُ يومًا ما فحينئذٍ يتأكَّدُ الأمرُ، أو يبطلُ بالكليّة[٢]، وكلا[٣] الوجهَيْنِ قد عَرَضَ وعُرِفَ، وأكثر ما يقع هذا في ربَّاتِ القُصُور[٤]، المحجوبات ـ من أهل البيوتات ـ مع أقاربهن من الرِّجال، وحبُّ النِّساء في هذا أثبت من حبِّ

---

(١) كذا الأصل، وأثبتها (ع): ورصف.
(٢) خ: بالكُلِّ.
(٣) خ: وكلٌّ.
(٤) في الأصل: الخدور القصور. وضرب النَّاسخ على كلمة: (الخدور).

الرجال لضعفهنَّ، وسرعةِ إجابة طبائعهنَّ إلىٰ هذا الشَّأن، وتمكنه منهنَّ؛ وفي ذلكَ أقول شعرًا منه[1]: [من الهزج]

ويـا مَـن لامَـنِـي فـي حُـبِّ مَـن لـم يَـرَهُ طَـرْفِـي
لقد أفرطْتَ في وصفِكَ لي في الحُبِّ بالضَّعفِ
فقُل هلْ تُعْرَفُ الجنَّةُ يومًا بسِوىٰ الوَصْفِ / (١٦ب)

وأقولُ شعرًا في استحسان النَّغمة، دونَ وقوعِ العَيْنِ علىٰ العيان منه: [من مخلع البسيط]

قد حَلَّ جَيْشُ الغرام[2] سَمْعي وَهْو علىٰ مُقلتيَّ يَبْدُو

وأقولُ ـ أيضًا ـ في مخالفةِ الحقيقة لظنِّ المحبوب عند وقوعِ الرُّؤْية: [من الكامل]

وَصَفُوكَ لي حتَّىٰ إذا أبصَرتُ ما وَصفُوا علمتُ بأنَّهُ هَذَيانُ
فالطَّبلُ جلْدٌ فارغٌ وطنِينُهُ يرتاعُ مِنهُ ويَفرَقُ الإنسانُ

وفي ضدِّ هذا أقول:

لَقَد وَصَفُوكَ لي حتَّىٰ التَقيْنا فصارَ الظَّنُّ حَقًّا في العِيانِ
فأوصافُ الجِنانِ مُقصِراتٌ على التَّحْقيقِ عَن قَدْر الجِنانِ

(١) انظر «ديوان الصبابة»: ٥١؛ حيث أورد هذه الأبيات ونسبها للمدني (!) (ع).

(٢) حلول جيش الغرام في السمع استعارة قبيحة، هذا إذا لم نقدِّر أن في اللفظة تصحيفًا. وقد تصرَّف ابن القيم بهذه الصورة (روضة المحبين: ٢٤١) فقال: وجيش المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب البصر (ع).

وإنَّ هـذه الأحـوال لَـتـحـدُث بـيـن الأصـدقـاء والإخـوان، وعـنّـي أُحدِّثُ:

خَبَرٌ:

أنّي كانَ بيني وبين رَجُلٍ من الأشراف ودٌّ وكيدٌ، وخطابٌ كثيرٌ، وما تراءينا قطُّ، ثم منحَ الله لي لقاءه، فما مرَّتْ إلَّا أيامٌ قلائلُ حتَّىٰ وقعتْ لنا منافرةٌ عظيمةٌ، ووحشةٌ شديدةٌ متّصلةٌ إلىٰ الآن، فقلتُ في ذلكَ قطعةً منها: [من البسيط]

أبدلت أشخاصنا كُرهًا وفَرط قِلىً ... كما الصَّحائفُ قد يُبدَلْنَ بالنَّسْخِ / (١٧أ)

ووقع لي ضدُّ هذا مع أبي عامرٍ محمد بن أبي عامرٍ ـ رحمةُ الله عليه ـ فإنِّي كنتُ له علىٰ كراهةٍ صحيحةٍ وهو لي كذلك، ولم يرني ولا رأيته، وكانَ أصلُ ذلك تنقيلًا يُحْمَلُ إليه عنِّي وإليَّ عنه، يؤكِّدُهُ انحرافٌ بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صُحْبة السلطان ووجاهة الدُّنيا، ثُمَّ وفَّقَ الله الاجتماعَ به فصار إليَّ أوَدَّ النَّاس، وصرتُ له كذلك، إلىٰ أن حالَ الموتُ بيننا؛ وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من المتقارب]

أخٌ لـيَ كـسَّـبـنـيـهِ الـلـقـاءُ ... وأوجدَني فيه عِلْقًا[1] شريفا
وقـد كـنـتُ أكْـرَهُ مـنـه الـجِـوارَ ... ومـا كـنـتُ أرغـبُـهُ لـي أَلِـيـفـا
وكـانَ الـبـغـيـضَ فـصـارَ الـحَـبـيـبَ ... وكـانَ الـثَّـقِـيـلَ فـصَـارَ الـخـفـيـفـا
وقـد كـنـتُ أُدْمِـنُ عـنـه الـوَجِـيـفَ[2] ... فـصِـرْتُ أديـمُ إلـيـه الـوَجـيـفـا

---

(١) العِلْقُ بالكسر: النفيس من كل شيء.
(٢) الإسراع بالسَّير.

وأمَّا أبو شاكر عبدُ الرَّحمٰنِ[1] بن محمَّدٍ القبريُّ فكان لي صديقًا مدةً علىٰ غيرِ رؤيةٍ، ثُمَّ التقينا فتأكَّدَتِ المودَّةُ، واتَّصلتْ، وتَمادتْ إلىٰ الآن[2].



(١) كذا في الأصل، والذي في كتب التَّراجم: عبد الواحد. قال (ع): في الأصل: عبد الرحمٰن؛ وهو عبد الواحد بن محمد بن موهب بن محمد التجيبي أبو شاكر، يعرف بابن القبري ـ نسبةً إلىٰ: قَبْرة؛ مدينة بالأندلس ـ، كان فقيهًا محدِّثًا خطيبًا شاعرًا، نشأ بقرطبة، ويبدو أنه تحوّل بعد الفتنة إلى شاطبة، وولي الأحكام والمظالم بها، وهنالك رآه الحميدي، وهنالك توكَّدت الصلة بينه وبين ابن حزم (الجذوة: **٢٧١** والبغية رقم: **١١٠٧**) وقد سكن أبو شاكر بلنسية وتقلَّد الصلاة والخطبة والأحكام بها، وكانت وفاته سنة **٤٥٦** بمدينة شاطبة ونقل إلى بلنسية فدفن فيها، وكان ربعة من الرجال ليس بالطويل ولا بالقصير وسيمًا جميلًا حسن الهيئة والخلق، حسن السمت والهدي (الصلة: **٣٦٥ ـ ٣٦٦**) وله شعر في رثاء قرطبة منه قوله (ترتيب المدارك ٤: ٨١٨).

يا ليت شعري والأيام تجمعنا ... ونأخذ البين مغلوبًا فنصفعه
في جنة الأرض أعني أرض قرطبة ... فكل شيء بديع فهي تجمعه
أستودع الله أهليها فإنهم ... كالمسك قد ملأ الدنيا تضوُّعه

(٢) نقل هذه الفقرة ابن ناصر الدين الدمشقي في: «توضيح المشتبه» ٧/ ١٧٨ ـ **١٧٩**؛ وسقطت منه كلمة: (واتصلت) وانظر ما كتبناه في المقدّمة.

(٥) باب من أحبَّ من نظرةٍ واحدةٍ / (١٧ب)

وكثيرًا ما يكونُ لُصوقُ الحُبِّ بالقلب من نظرةٍ واحدةٍ، وهو ينقسم قسمين:

فالقسمُ الواحدُ مخالِفٌ للَّذي قبلَ هذا، وهو أن يعشقَ المرءُ صورةً لا يعلم مَنْ هي، ولا يدري لها اسمًا ولا مستقَرًّا، وقد عرض هذا لغير واحد.

خَبَرٌ:

حدَّثني صاحبُنا أبو بكرٍ محمَّدُ بنُ أحمدَ بنِ إسحاقَ، عن ثِقَةٍ أخبره ـ سقط عنيّ اسمه، وأظنه القاضي ابنَ الحذَّاء[1] ـ، أنَّ يوسف بن هارون

---

(١) ابن الحذاء: هو محمد بن يحيى بن أحمد، أحد رجال الأندلس فقهًا وعلمًا وتفنُّنًا في العلوم، استقضي ببجانة ثم بإشبيلية، وكان أحد القضاة المشاورين بقرطبة، وتولّى خطة الوثائق السلطانية، وخرج عن قرطبة في الفتنة، واستقضي بمدينة تطيلة في الثغر الأعلى ثم نُقل منها إلى قضاء مدينة سالم ثم إلى سرقسطة وفيها توفي (٤١٦) (الصلة: ٤٧٨ ـ ٤٨٠ وترتيب المدارك ٤: ٧٣٣) والنصّ هنا قد ينطبق عليه وعلى ابنه أحمد ويكنى بأبي عمر، فقد بدأ سماعه سنة ٣٩٣ وجلا عن وطنه في الفتنة وسكن سرقسطة وتقلّد القضاء بطليطلة، وانصرف في آخر عمره إلى قرطبة، وتوفي سنة ٤٦٧ (الصلة: ٦٥ ـ ٦٦). (ع). =

الشاعر المعروف بالرماديّ[1] كانَ مجتازًا عند باب العطّارِينَ[2] بقرطبة ـ وهذا الموضع كان مجتَمَعَ النِّساءِ ـ فرأىٰ جاريةً أخذتْ بمجامع قلبه[3]، وتخلَّل حبُّها جميعَ أعضائه[4]، فانصرفَ عن طريق الجامع، وجعل يَتبعها، وهي ناهضةٌ نحو القنطرة[5]، فجازَتْها إلىٰ الموضع المعروف بالرَّبَضِ. فلمَّا صارت بين رياض بني مروان ـ رحمهم الله ـ المبنيةِ على قبورهم في مقبرة الرَّبَضِ خَلْفَ النَّهر؛ نظرتْ منه منفردًا عن النَّاس لا همَّةَ له غيرها،

= قلت: وهذه القصّة رواها عن ابن حزم؛ الحميديُّ في «جذوة المقتبس» (في ترجمة يوسف الرّمادي، رقم: ٨٧٨)، وقال ابنُ حزم هناك: أخبرني أبو بكرٍ محمَّد بن إسحاق المهلبيُّ، عن بعض إخوانه، وأظنُّه أبو الوليد ابن الفرضيّ...

(١) يوسف بن هارون الرمادي (أبو جنيش)؛ ربما كان أبرز شعراء الأندلس في عصره، وقد توفي في الفتنة (حوالي ٤٠٣)؛ انظر ترجمته في الجذوة: ٣٤٦ والبغية رقم: ١٤٥١ والصلة: ٦٣٧ والمطرب: ٤ والمغرب ١:٣٩٢ والمطمح: ٦٩ واليتيمة ١:٤٣٥ وابن خلكان ٧:٢٢٥ ومسالك الأبصار ١١:١٧٥، والمقتبس (ط. بيروت) ٧٤، ٧٥ ومعجم الأدباء ٢٠:٦٢، وله أشعار في البديع للحميري، وكتاب التشبيهات للكتاني، ونفح الطيب وشرح الشريشي على المقامات، وعنه دراسة في كتابي تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: ٢٠٥ (ط. ثانية)، وقد جمع شعره السيد ماهر زهير جرّار ونشرته مؤسسة الدراسات العربية، بيروت ١٩٨٠. (ع).

(٢) ذكر ابن بشكوال أن أبواب قرطبة سبعة: باب القنطرة إلى جهة القبلة، وباب الحديد ويعرف باب سرقسطة، وباب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة، وباب رومية، وباب طلبيرة، ثم باب عامر القرشي، ثم باب الجوز ويعرف بباب بطليوس، ثم باب العطارين وهو باب إشبيلية، ومن دونه تجارة العطور ودكاكين العطارين (انظر: النفح ١:٤٦٥). (ع).

(٣) خ: قلبي.

(٤) خ: أعضائي.

(٥) قنطرة قرطبة تقع شمالي باب قرطبة الجنوبي (المسمى بها أي باب القنطرة)، وهو الباب الذي يصل بين المدينة وربض شقندة، وقد بناها أغسطس قيصر، وكانت تتثلم بسبب مدِّ النهر فيتم إصلاحها وترميمها، فقد رمّمها الحكم المستنصر سنة ٣٦٠ (انظر عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية ١: ١٩٧ ـ ٢٠١ ومصادره هنالك). (ع).

فانصرفتْ إليه، فقالت له: مالكَ تمشي ورائي؟ فأخبرها بعظيم بليَّته بها. فقالتْ له: دَع عنك هذا، ولا تطلُب فضيحتي، فلا مطمع لك فِي ـ البَتَةَ[1] ـ ولا إلىٰ ما ترغبه سبيل. فقالَ: إنِّي أقنع بالنَّظرِ. فقالتْ له: ذلك مُباح لك. فقالَ لها: يا سَيِّدَتي! أحُرّةٌ أم مملوكة؟ قالت: مملوكة. فقالَ/ (١٨أ) لها: ما اسمك؟ قالت: خلوة. فقال لها: ولمن أنت؟ فقالت له: عِلْمُكَ والله بما في السَّماءِ السَّابعة أقربُ إليك مما سألتَ عنه، فدع المحالَ. فقالَ لها: يا سيِّدتي! وأينَ أراكَ بعد هذا؟ قالت: حيث رأيتَني اليومَ في مثل تلك السَّاعة من كلِّ جمعة. فقالت له: إما تنهضُ أنت وإمَّا أنهض أنا. فقال لها: انهضي في حفظ الله. فنهضتْ نحو القنطرة، ولم يُمْكِنْهُ اتِّباعها، لأنَّها كانتْ تَلْتَفِتُ نحوه لترى أيسايرها أم لا. فلمَّا تجاوزت باب القنطرة أتىٰ يقفوها فلم يقع لها علىٰ مسألةٍ.

قال أبو عمر ـ وهو يوسف بن هارون ـ: فوالله لقد لازمتُ باب العطَّارين والرَّبَضَ مُذْ ذلك الوقت إلىٰ الآن فما وقعتُ لها على خبرٍ، ولا أدري أسماءٌ لحَسَتها أم أرض بَلَعَتْها، وإنَّ في قلبي منها لأحرَّ من الجمر. وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره، ثم وقع بعد ذلك علىٰ خبرها بعد رحيله في سببها إلى سَرَقُسْطة[2] في قِصَّةٍ طويلةٍ[3].

---

(١) تصحَّفت في الأصل إلىٰ: النيَّة.

(٢) سرقسطة (Zaragoza) مدينة الثغر الأعلى، وكانت آهلة حسنة الديار والمساكن، حكمها بنو هود في أيام ملوك الطوائف، وسقطت في يد النصارى سنة **٥١٢** (الروض: **٣١٧** والترجمة: **١١٨** والعذري: **٢٢** والزهري: **٢٢٦** والإدريسي (دوزي) **١٩٠**) (ع).

(٣) احتفظ لنا الحميديُّ بسياق أتمَّ لهذه القصة، فقال في «الجذوة»: أخبرني أبو محمد علي بن أحمد، قال: أخبرني أبو بكر محمد بن إسحاق المهلبي، عن بعض إخوانه ـ وأظنه أبو الوليد ابن الفرضي ـ عن أبي عمر يوسف بن هارون، قال: خرجتُ يومًا إثْرَ صلاة الجمعة، فتجاوزتُ نهر قرطبة متفرِّجًا إلى رياض بني مروان، فإذا جاريةٌ لم =

ومِثْلُ ذلك كثيرٌ، وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من البسيط]

عيني جَنَتْ في فُؤادي لوعَةَ الفِكَر ... فأرسَلَ الدَّمْعَ مُقتصًّا من البَصرِ
(١٨ب) فكيف تُبصرُ فعلَ الدَّمْعِ مُنتصِفًا ... منها بإغراقها في دَمعها الدِّرَرِ[1] /
لم ألقها قبل إبصاري فأعرِفَها ... وآخرُ العهد مِنها سَاعةُ النَّظرِ

والقسم الثاني: مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب ـ إن

= أرَ أجملَ منها، فسلَّمتُ عليها، فردَّتْ، ثم حادثتها، فرأيتُ أدبًا بارعًا، فأخذتْ بمجامع قلبي، فقلتُ لها: سألتكِ بالله أحرةٌ أم أَمَةٌ؟ فقالت: بل أمة. فقلتُ: ما اسمك بالله؟ قالت: خلوة. فلما قربَ وقت صلاة العصر انصرفتْ، فجعلتُ أقفو أثرها، فلما بلغتْ رأسَ القنطرة قالت: إما أن تتأخَّرَ، وإما أن تتقدَّمَ! فلست والله أخطو خطوةً وأنت معي، فقلت لها: أهذا آخرُ العهد بك؟ قالت: لا. فقلتُ لها فمتى اللقاء؟ قالت: كلَّ يوم جمعةٍ في هذا الوقت، في هذا المكان. قلت لها: فما ثمنُكِ إن باعك من أنتِ له؟ قالت: ثلاثُ مئة دينار. قال: فخرجتُ جمعةً أخرى فوجدتها على العادة الأولى، فزاد كَلَفي بها. ورحلتُ إلى عبد الرحمٰن بن محمد التُّجيبيّ ـ صاحب سَرَقُسْطة ـ ومدحته بالقصيدة الميميَّة المشهورة فيه، وذكرتُ في تشبيبها خلوةَ، وحدَّثته مع ذلك بحديثي، فوصلني بثلاث مئةِ دينارٍ ذهبًا ثمنها، سوى ما زوَّدني عن نفقة الطريق مُقبلًا وراجعًا، وعُدتُ إلى قرطبةَ فلزمتُ الرياض جمعًا لا أرَى لها أثرًا، وقد انطبقتْ سمائي على أرضي، وضاقَ صدري، إلى أنْ دعاني يومًا رجلٌ من إخواني، فدخلتُ إلى داره، وأجلَسَني في صدر مجلسه، ثم قام لبعض شأنه، فلم أشعر إلا بالستارة المقابلة لي قد رفعتْ، وإذا بها، فقلت: خلوة؟! فقالت: نعم. قلتُ ألأبي فلانٍ أنت مملوكةٌ؟ قالتْ: لا والله، ولكنِّي أختُه! قال: فكأنَّ الله تعالى محا حُبَّها من قلبي، وقمتُ من فوري، واعتذرتُ إلى صاحب المنزل بعارضٍ طرقني، وانصرفتُ.

قال الحميديُّ: وهذه القصيدة طويلةٌ، أنشدناها أبو بكر ابنُ الفرضيّ، قال: أنشدناها يوسف بن هارون لنفسه، في جملة سبع قصائدَ له أنشدنا إياها. ثم أورد الحميدي ستَّة أبياتٍ من أولها.

(١) قرأها برشيه: دفعها؛ والدرر هنا كما تقول: سماء درر أي ذات درر، وفي حديث الاستسقاء: «دِيمًا دِرَرًا» وقيل الدرر: الدارُّ، وعندئذ يكون القول على النعت المباشر أي بإغراقها في دمعها الدارّ (ع).
قلت: (دمعها) واضحة في الأصل.

شاء الله ـ، وهو: أن يَعْلَقَ المرءُ من نظرةٍ واحدةٍ جاريةً معروفةَ الاسم والمكان والمنشأ، ولكنَّ التفاضُلَ يقعُ في هذا في سرعة الفناء وإبطائه، فمن أحبَّ من نظرةٍ واحدةٍ وأسرعَ العلاقةَ من لَمْحَةٍ خاطرةٍ فهو دليلٌ علىٰ قلَّة الصَّبْرِ، ومُخْبِرٌ بسرعةِ السُّلوِّ، وشاهدُ الطَّرافةِ[1] والملل. وهكذا في جميع الأشياء: أسرعُها نموًّا أسرعها فَناءً، وأبطؤها حُدُوثًا أبطؤها نفادًا.

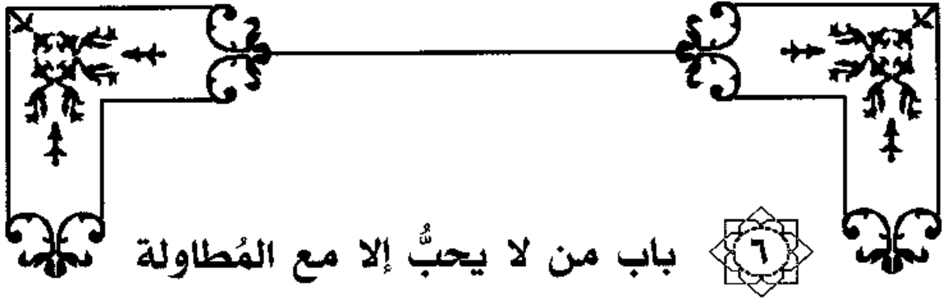
خبر:

إنِّي لأعلم فتىً من أبناء الكُتَّاب، رأته امرأةٌ سَرِيَةُ النَّشْأة، عالية المنصب، غَلِيظَةُ الحجاب، وهو مجتازٌ، ورأته في موضع تَطَّلِعُ منه كانَ في منزلها، فَعَلِقَتْهُ وعَلِقَها، وتهاديا المراسلةَ زمانًا علىٰ أدقَّ من حَدِّ السَّيْفِ.

ولولا أنِّي لم أقصدْ في رسالتي هذه كشفَ الحِيَلِ، وذكرَ المكايد؛ لأوردتُ مِمَّا صَحَّ عندي أشياءَ تحيِّرُ اللبيبَ، وتُدْهِشُ العاقلَ، أسبل الله علينا/ سِتْره، وعلىٰ جميع المسلمين بمَنِّه، وكفانا. (١٩أ)



(١) في الأصل: الظَّرافة؛ بالظاء. والتَّصحيح من (ع)؛ وقال: الطَّرافة: من قولك فلانٌ طَرِفٌ؛ أي: سريع الملل، لا يثبت على عهدٍ.



٦ باب من لا يحبُّ إلا مع المُطاولة

ومن النَّاس من لا تَصِحُّ محبَّته إلا بعد طُولِ المخافتة، وكثير المُشاهدة، ومُتَمادي الأُنْسِ، وهذا الَّذي يوشك أن يدومَ ويثبتَ ولا يُحَيِّكُ[١] فيه مرُّ الليالي، فما دخل عسيرًا لم يخرج يسيرًا، وهذا مذهبي.

وقد جاء في الأثر: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال للرُّوحُ ـ حين أمره أن يدخلَ جسدَ آدم، وهو فخَّار، فهاب وجزع ـ: ادخلْ كَرْهًا واخرجْ كَرهًا. حُدِّثناه عن شيوخنا[٢].

ولقد رأيتُ من أهل هذه الصِّفَة مَنْ إنْ أحسَّ من نفسه بابتداء هوىً، أو تَوجَّسَ[٣] من استحسانه ميلًا إلى بعضِ الصُّوَرِ؛ استعمل الهَجْرَ، وتركَ الإلمام، لئلَّا يزيدَ ما يجدُ فيخرجَ الأمرُ عن يده، ويحالُ بين العَيْرِ والنَّزَوان[٤]. وهذا يدلُّ علىٰ لصوق الحبِّ بأكباد أهلِ هذه الصِّفَةِ، وإنَّه إذا

---

(١) أي: يؤثِّر.

(٢) لم أقف عليه. وكأنَّ ابن حزم ـ رحمه الله ـ يشير إلى عدم صحَّته، ولعله من الإسرائيليَّات؛ والله أعلم.

(٣) خ: توحش.

(٤) وقد حيل بين العير والنزوان: مثل؛ من قول صخر أخي الخنساء:
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان
فصل المقال: ٧٢ (ع).

تمكَّنَ منهم لم يَحُلْ أبدًا. وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من الوافر]

سأَبْعُدُ عن دواعي الحُبِّ إنِّي ... رأيتُ الحَزْمَ من صفةِ الرَّشيد
رأيتُ الحُبَّ أوّله التَّصَدِّي ... بعينكَ في أزاهير الخُدودِ
فبينا أنت مُغتبطٌ مُخَلَّىً ... إذا قد صِرتَ في حَلَق القُيود
كمُغترٍّ بضَحْضاحٍ قَريبٍ ... فزلَّ فغابَ في غَمْرِ المدُود[1]

وإني لأُطيلُ العَجَبَ من كلِّ من يدّعي أنَّه يحبّ مِن نظرةٍ واحدةٍ، / (١٩ب) ولا أكادُ أصدِّقه، ولا أجعلُ حُبَّه إلا ضربًا من الشَّهْوة، وأمَّا أن يكون - في ظنِّي - متمكنًا من صميم الفؤاد نافذًا في حِجاب القلب فما أقدِّر ذلك، وما لصِق بأحشائي حُبٌّ قطُّ إلا مع الزَّمَنِ الطَّويل، وبعدَ ملازمة الشَّخْصِ لي دهرًا، وأخذي معه في كلِّ جدٍّ وهزلٍ، وكذلك أنا في السُّلوِّ والتَّوْقِ[2]، فما نسيتُ ودًّا لي قطُّ، وإنَّ حَنيني إلىٰ كلِّ عهدٍ تقدَّمَ لي ليغصُّني بالطعام ويشْرِقُني بالماء[3]، وقد استراحَ من لم تكنْ هذه صفتَهُ. وما مللتُ شيئًا قطُّ بعدَ معرفتي به، ولا سَرُعْتُ إلىٰ الأُنْسِ بشيءٍ قطُّ أولَ لقائي له، وما رغبتُ الاستبدالَ إلىٰ سببٍ من أسبابي مذ كنتُ، لا أقولُ في الأُلّافِ والإخوانِ وحدهم؛ لكنْ في كلِّ ما يَستعملُهُ الإنسانُ من ملبوسٍ ومركوبٍ ومطعومٍ وغير ذلك، وما انتفعتُ بعيشٍ ولا فارقني الإطراقُ والانغلاقُ مذ ذقتُ طعمَ فراق الأحبَّةِ، وإنَّه لشَجىً يعتادني، وولوعُ همٍّ ما ينفكُّ يَطْرقني، ولقد نَغَّص تذكُّري ما مضىٰ كلَّ عيشٍ أستأنفه، وإني لَقتيلُ

(١) الغَمر: الكثير، والمدود: مفردها: مدّ، وهو ارتفاع ماء البحر. (الحربي)
(٢) أي: الشَّوق.
(٣) خ: ليغصُّني بالماء، ويشرقني بالطَّعام. وهذا قلب في العبارة، فإنَّ الغصَّة تكون بالطَّعام، والشَّرقة تكون بالماء.

الـهـمـومِ فـي عـداد الأحـيـاء، ودفـيـنُ الأسـىٰ بـيـنَ أهـلِ الـدُّنـيـا. والله المحمودُ على كلِّ حالٍ لا إله إلَّا هو. وفي ذلك أقولُ شعرًا منه: [من الطويل] / (٢٠أ)

محبةُ صدقٍ لم تكُنْ بنتَ ساعةٍ ... ولا وَرِيَتْ حين ارتيادٍ[١] زنادُها

ولكِنْ علىٰ مَهْلٍ سَرَتْ وتولَّدَتْ ... بطُولِ امتزاجٍ فاستقرَّ عمادُها

فلم يَدْنُ منها عزمُها وانتقاضُها[٢] ... ولم يَنْأَ عنها مَكثُها وازديادها

يؤكّد ذا أنَّا نرىٰ كلَّ نشأةٍ ... تَتِمُّ سريعًا عن قريبٍ نهادها[٣]

ولكِنَّني أرضٌ عَزَازٌ[٤] صَلِيبةٌ ... مَنيعٌ إلىٰ كلِّ الغُروسِ انقيادُها

فما نفذتْ منها لديها عُروقها ... فليست تُبالي أن تَجُودَ عِهادُها

ولا يظنَّ ظانٌّ ولا يتوهَّمْ متوهِّمٌ أنَّ كلَّ هذا[٥] مخالفٌ لقولي المسطَّر في صدر الرسالة: إن الحبَّ اتِّصالٌ بين النُّفُوس في أصل عالمها العُلْوي. بل هو مؤكِّد له، فقد علمنا أنَّ النَّفسَ في هذا العالم الأدنىٰ قد غَمَرَتها الحُجُبُ، ولَحِقَتْها الأعراضُ، وأحاطتْ بها الطبائعُ الأرضِيَّةُ الكُورِيَّةُ[٦]، فسترتْ كثيرًا

---

(١) كذا في الأصل، وأثبتها (ع): ارتفاد، وقال: الارتفاد هو الاستعانة في القدح بحجر القدح عند استعمال الزناد.

(٢) كذا في الأصل واضحة، وعلَّق (ع) هنا بقوله: (عزمها وانتقاضها): قرأها برشيه: غربها وانتقاصها. وكلمة (انتقاصها) تقابل: (ازديادها)، ولكن (غربها) لا تقابل: (مكثها). ولكن الأستاذ محمود محمد شاكر يرىٰ: (انتقاصها) صحيحةٌ. وقال شاكر: لأن «الغرْب» هو الذهاب والتنحي عن الناس، وهو أيضًا النوىٰ والبعد، ومنه: «غربة النَّوىٰ».

(٣) كذا في الأصل واضحة، وأثبتها (ع): نفادها. وعند مكي: معادها.

(٤) العزاز: ما غلظ من الأرض وأسرع سيل مطره. (الحربي)

(٥) في الأصل: كلًّا من هذا.

(٦) كذا في الأصل وعند بتروف وبرشيه. وأثبتها (ع) و(مكي): الكونية. والصَّواب ما في الأصل كما هو ظاهر من السياق.

من صفاتها، وإنْ كانتْ لم تُحِلْهُ، لكن حالَت دونه، فلا يُرجىٰ[1] الاتصالُ علىٰ الحقيقة إلا بعد التَّهَيُّؤِ من النَّفس والاستعداد له، وبعد إيصالِ المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها، ومقابلة الطبائع الَّتي خَفَت[2] / بما يُشْبِهُها من طبائع المحبوب، فحينئذٍ يتَّصلُ اتصالًا صحيحًا بلا مانعٍ. (٢٠ب)

وأمَّا ما يقعُ من أوَّلِ وَهْلةٍ ببعضِ أَعراضِ الاستحسان الجسديِّ، واستطرافِ البصر الذي لا يجاوزُ الألوان، فهذا سرُّ الشهوة[3] ومعناها علىٰ الحقيقة، فإذا فَضَلتِ[4] الشهوةُ وتجاوزت هذا الحدَّ، ووافق الفَضْلَ[5] اتصالٌ نفساني تشتركُ فيه الطبائع مع النَّفس؛ تسمَّى: عِشْقًا. ومن هذا دخلَ الغلَط علىٰ من يزعُم أنه يحبُّ اثنين، ويعشقُ شخصَيْنِ متغايرين، فإنَّما هذا من جهة الشَّهوة الَّتي ذكرنا آنفًا، وهي علىٰ المجاز تسمَّىٰ محبةً، لا علىٰ التحقيق، وأما نفسُ المُحِبِّ فما في المَيْلِ[6] به فضلٌ يصرفه من أسباب دينه ودنياه فكيف بالاشتغال بحبّ ثانٍ؟! وفي ذلك أقول[7]: [من الخفيف]

---

(١) هكذا أثبتها (مكي) و(ع)، وهي قراءة جيدة. وفي الأصل: بَرِحَ.

(٢) جعلها (ع) و(مكي): خفيت.

(٣) من الجائز أن تكون هذه العبارة: «وأما ما يقع من أول وهلة، فبعضُ أعراض الاستحسان الجسدي واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان، وهذا سر الشهوة» ويكون جواب «أما» هو «فبعض» (ع).

(٤) فضلت: هذه قراءة (ع)، وفي الأصل بالصَّاد المهملة.

(٥) الفضل: هذه قراءة (ع)، وفي الأصل بالصَّاد المهملة.

(٦) هكذا في الأصل، وهكذا وردت في: «روضة المحبِّين» (الباب: ٢١/ ص: ٢٠٦)؛ إذ نقل ابن القيم كلام ابن حزم من قوله: ومن هذا دخل الغلط... حتَّىٰ آخر الأبيات النونية. وقرأها العلامة محمود شاكر: أما نفس الحب فما في المبتلىٰ به فضل؟

(٧) أورد ابن أبي حجلة هذه الأبيات (ما عدا الأول) في «ديوان الصَّبابة»: ٤١، وجعل الرابع منها آخرًا. وأوردها ابن القيم في «روضة المحبِّين»: ٢٩٠ (ع).

كَذبَ المُدّعي هوىٰ اثنين حتمًا مثلَ ما في الأصولِ أُكْذِبَ ماني[1]
ليسَ في القلب موضعٌ لحبيبَيـ ـنِ ولا أحدَثَ الأمور اثنان[2]
فكما العقلُ واحدٌ ليس يَدري خالقًا غير واحدٍ رَحمان
(٢١أ) فكذا القلبُ واحدٌ ليس يهوى غير فردٍ مُباعَدٍ أو مُدان/
هو في شرعة المودَّةِ ذو شَكـ ـكٍ[3] بعيدٍ من صِحَّةِ الإيمان
وكذا الدِّين واحدٌ مستقيمٌ وكَفورٌ مَن عَقْدُهُ[4] دِينان

وإني لأعرف فتىً من أهل الجِدَةِ والحَسَبِ والأدبِ؛ كان يبتاع الجاريةَ وهي سالمة الصَّدْرِ من حُبِّه، وأكثر [مِنْ] ذلك كارهةٌ له لقلَّة حلاوةِ شمائلَ كانت فيه، وقُطوبٍ دائمٍ كان لا يفارقه، ولا سيَّما مع النساء، فكان لا يلبثُ إلا يسيرًا ريثما يصلُ إليها بالجماع؛ ويعود ذلك الكُرهُ حُبًّا مُفرطًا، وكَلَفًا زائدًا، واستهتارًا مَكْشوفًا، ويتحوَّلُ الضَّجَرُ لصُحبته ضَجَرًا لفراقه. صَحِبَهُ هذا الأمرُ في عدّةٍ منهنَّ، فقالَ بعض إخواني: فسألته عن ذلك، فتبسَّم نحوي، وقال: إِذَنْ ـ واللهِ! ـ أخبرك، أنا أبطأ النَّاس إنزالًا، تقضي المرأةُ شهوتها ـ وربَّما ثنَّتْ ـ وإنزالي وشهوتي لم ينقَضِيا بعدُ، وما فترتُ بعدها قطُّ، وإنّي لأبقىٰ بحسبي[5] بعد انقضائها الحينَ الصالحَ، وما

---

(١) ماني مؤسس مذهب المانوية، وهو قائم على الأثنينية إذ يقول: إنَّ مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة، كل واحد منهما منفصل عن الآخر (انظر تفصيلًا لمذهبه عند ابن النديم في الفهرست: **٣٩٢ ـ ٤٠٢**) (ع).

(٢) في الأصل: بثاني. والتَّصحيح من: «روضة المحبِّين» و«ديوان الصَّبابة»، وعلى الصَّواب قرأها العلامة محمود شاكر رحمه الله.

(٣) شَكٌّ: كذا في الأصل واضحة، وفي: «روضة المحبِّين»، وفي «ديوان الصبابة»: شِرْكٍ.

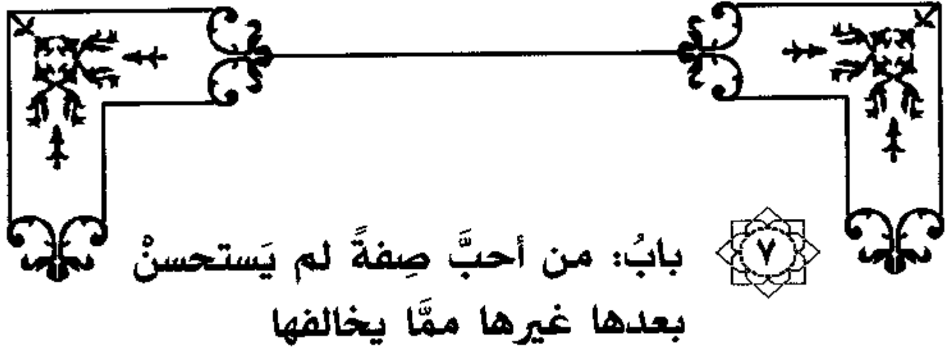
(٤) كذا في الأصل، وفي «روضة المحبِّين»، و«ديوان الصبابة»: عنده.

(٥) كذا في الأصل واضحة، وهكذا أثبتها بتروف. وقرأها برشيه: بحبسي. وجعلها الصَّيرفي: بمُنَّتي. وتبعه (مكي) و(ع).

لاقىٰ صدري صدرَ امرأةٍ قطُّ عند الخُلْوة إلا عند تعمُّدي المعانَقَةَ، وبحسبِ ارتفاع صدري نزولُ مؤخري.

فمثل هذا وشبهه إذا وقَعَ؛ وافقَ أخلاقَ النَّفْسِ، وولَّد المحبَّةَ، إذ/ (٢١ب) الأعضاءُ الحسَّاسةُ مسالكُ إلىٰ النُّفوسِ ومؤدياتٌ نحوها.





٧ باب: من أحبَّ صِفةً لم يَستحسنْ بعدها غيرها ممَّا يخالفها

واعلم ـ أعزَّكَ الله! ـ أنَّ للحُبِّ حُكْمًا علىٰ النُّفوُس ماضيًا، وسلطانًا قاضيًا، وأمرًا لا يخالَفُ، وحدًّا لا يُعصَىٰ، وملكًا لا يُتَعَدَّىٰ، وطاعةً لا تُصرفُ، ونَفاذًا لا يُرَدُّ، وأنه يُنَغِّصُ المِرَرَ[1]، ويُحِيلُ[2] المُبْرَم، ويُحلِّلُ الجامدَ، ويخل[3] الثابتَ، ويَحِلُّ الشغافَ، ويُحِلُّ الممنوع. ولقد شاهدتُ كثيرًا من النَّاس لا يُتَّهمون في تَمْييزهم، ولا يُخافُ عليهم سقوطٌ في معرفتهم، ولا اختلالٌ بحسُنِ اختيارهم، ولا تقصيرٌ في حَدْسهم؛ قد وَصَفوا أحبابًا لهم في بعض صفاتهم بما ليسَ بمُستحسن عند الناس، ولا يُرْضِي[4] في الجمال، فصارتْ هجِّيراهم، وعُرضةً لأهوائهم، ومنتهىٰ استحسانهم، ثم مضىٰ أولئك إمّا بسُلُوٍّ، أو بِبَيْنٍ، أو هَجْرٍ، أو بعضِ عوارض الحبِّ، وما فارقهم استحسان تلك الصفاتِ، ولا بَانَ عنهم

---

(١) مرر جمع المِرَّة: مزاج من أمزجة البدن، وقوةُ الخَلْقِ وشِدَّته. و(يُنَغِّصُ) أي: يُكَدِّر. وجعلها (ع): يَنْقُضُ. وهذا يتناسب مع المعنى الثاني للمرَّة.

(٢) جعلها (ع): ويحُلّ.

(٣) في الأصل بالحاء المهملة.

(٤) هكذا في الأصل، ويمكن أن تقرأ: يُرْضَىٰ.

تفضيلها علىٰ ما هو أفضلَ منها في الخليقة[1]، ولا مالوا إلىٰ سواها؛ بل صارتْ تلك الصفات/ المُستجادة عند النَّاسِ مهجورةً عندهم وساقطةً (٢٢أ) لديهم إلىٰ أن فارقوا الدنيا، وانقضتْ أعمارُهُم، حنينًا منهم إلىٰ مَن فقدوُهُ، وأُلفةً لمن صَحِبُوهُ، وما أقولُ إنَّ ذلك كان تصنّعًا، لكن طبعًا حقيقيًّا، واختيارًا لا دَاخلةَ فيه، ولا يرون سواه، ولا يقولون في طَيِّ عَقْدِهِمْ بغيره.

وإنِّي لأعرفُ من كانَ في جِيدِ حبيبه بعضُ الوَقَصِ[2] فما استحسنَ أَغْيدَ، ولا غيداءَ بعد ذلكَ، وأعرفُ مَن كان أولُ علاقته بجاريةٍ مائلةٍ إلىٰ القِصَر فما أحبَّ طويلة بعد هذا. وأعرفُ ـ أيضًا ـ من هَوِيَ جاريةً في فمها فَوَهٌ[3] لطيفٌ فلقد كان يتقذَّرُ كلَّ فمٍ صغير، ويذُمُّهُ، ويكرهُهُ الكراهية الصَّحيحة. وما أصفُ عن منقوصي الحُظوظِ في العلم والأدب لكن عن أوفرِ النَّاسِ قِسْطًا في الإدراك، وأحقهم باسم الفهم والدِّراية.

وعنِّي أخبرك: أَنِّي أحببتُ في صباي جاريةً لي شقراءَ الشَّعْرِ فما استحسنتُ من ذلك الوقتِ سوداءَ الشَّعْر، ولو أنَّه[4] علىٰ الشَّمْسِ، أو علىٰ صورة الحُسْنِ نفسِهِ، وإنِّي لأجدُ هذا في أصل تركيبي مُذْ ذلكَ الوقتِ، لا /تواتيني نفسي علىٰ سواه، ولا تُحِبُّ غيره البتَّةَ. وهذا العارضُ بعينه (٢٢ب) عَرض لأبي ـ رضي الله عنه ـ وعلىٰ ذلك جرىٰ إلىٰ أن وافاه أجلُه.

---

(١) هكذا في الأصل، وغيَّرهما برشيه إلىٰ «الحقيقة»، وقرأها العلامة محمود شاكر: «الخِلْقة».
(٢) الوقص: قصر العنق.
(٣) الفَوَهُ: سعة في الفم.
(٤) لعل الصواب: «أنّها» أي: الجارية؛ لأن الشعر الأسود لا يشبَّه بالشمس. (الحربي)

وأما جماعةُ خلفاءِ بني مروانَ ـ رحمهم الله ـ ولا سِيَّما ولدُ النَّاصر[1] منهم، فكلُّهم مجبولونَ علىٰ تفضيل الشُّقْرةِ، لا يختلف في ذلك منهم مختلفٌ، وقد رأيناهم ورأينا مَنْ رآهم مِنْ لَدُن دولةِ النَّاصر إلىٰ الآن فما منهم إلَّا أشقر، نزاعًا إلىٰ أمهاتهم، حتَّىٰ قد صار ذلك فيهم خِلْقةً، حاشا سليمان الظَّافر[2] ـ رحمه الله ـ، فإني رأيته أسود اللمَّةَ واللِّحية. وأما النَّاصر والحكم المُستنصر ـ رضي الله عنهما ـ فحدّثني الوزير أبي ـ رحمه الله[3] ـ وغيره أنَّهما كانا أشقَرين أشْهَلَيْنِ، وكذلك هشام المؤيَّد، ومحمَّد المهدي[4]، وعبد الرَّحمٰن المرتضى[5] ـ رحمهم الله ـ، فإنِّي قد

---

(١) يعني: عبد الرحمٰن النّاصر، وقد رزق أحد عشر ذكرًا (انظر: الجمهرة: ١٠٠، ففيه تفصيل لمن أعقب من هؤلاء الأولاد، وصورة لاتصال النسب حتى أيام ابن حزم) (ع).

(٢) هو نفسه سليمان الملقب بالمستعين وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، الذي استعان بالبربر في الفتنة، وحين فتح قرطبة وبويع بالخلافة (٤٠٠) تلقَّب أيضًا بـ«الظافر بحول الله» (الحلّة السيراء ٢: ٧) ومن المفارقة أن يترحّم عليه ابن حزم هنا وأن يقول فيه في موطن آخر: «وهو الذي كان شؤم الأندلس وشؤم قومه، وهو الذي سلَّط جنده من البرابرة فأخلوا مدينة الزهراء وجمهور قرطبة ـ حاشا المدينة وطرفًا من الجانب الشرقي ـ وأخلوا ما حوالي قرطبة من القرى والمنازل والمدن وأفنوا أهلها بالقتل والسَّبي، وهو لا ينكر ولا يغيِّر عليهم شيئًا» (الجمهرة: ١٠٢) وأخبار سليمان في ابن عذاري (ج٣) والذخيرة (ج: ١) (ع).

(٣) كان والد ابن حزم وزيرًا في الدولة العامرية، وتوفي سنة ٤٠٢ (الجذوة: ١١٧ ـ ١١٩ والبغية رقم: ٤١١ والصلة: ٣١) وسيذكر ذلك ابن حزم (ع).

(٤) محمد المهدي: وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار، آخر من ولي الأمر من بني مروان بالأندلس ولاية تامَّة (٣٩٩ ـ ٤٠٠) يعزل فيها ويولي من آخر شرقها إلى آخر غربها وكذلك في كثير من بلاد البربر، وفي أيامه ابتدأ فساد الأندلس ولم يعقب إلا ابنة وابنًا، قتل بقرطبة (الجمهرة: ١٠١) (ع).

(٥) عبد الرحمٰن المرتضى: هو ابن محمد بن عبد الملك بن الناصر، وكان عبد الرحمٰن رجلًا صالحًا مائلًا إلى الفقه (انظر محاولته لانتزاع الأمر من بني حمود في الذخيرة ١/١: ٤٥٣ والإحاطة ٣: ٤٦٦) (ع).

رأيتهم مرارًا، ودخلتُ عليهم فرأيتهم شُقْرًا شُهلًا، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم، فلا أدري أذلك استحسانٌ مركَّبٌ في جميعهم، أم لروايةٍ كانتْ عند أسلافهم في ذلك فَجَرَوْا عليها. وهذا ظاهرٌ في شعر أبي عبد الملك مروان/ بن عبد الرحمٰن بن مروان بن أمير المؤمنين النَّاصر (٢٣أ) وهو المعروف بالطَّلِيقِ[١]، وكان أشعرَ أهلِ الأندلس في زمانهم، وأكثرُ تغزُّلِهِ فَبِالشُّقر، وقد رأيته وجالسته.

وليس العَجَبُ فيمن أحبَّ قبيحًا ثمَّ لم يَصحبه ذلك في سواه فقد وقع من ذلك، ولا في مَنْ طبع مُذْ كانَ علىٰ تفضيل الأدنىٰ، ولكنْ في من كان ينظرُ بعين الحقيقة ثمَّ غلبَ عليه هوىً عارضٌ بعد طول بقائه في الجِمام[٢] فأحاله عمَّا عهدَتْهُ نفسه حوالةً صارت له طبعًا، وذهبَ طبعه الأوَّلُ وهو يعرفُ فضل ما كان عليه أوّلًا، فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبَىٰ إلَّا الأدنىٰ، فأعجبْ لهذا التغلُّب الشديدِ، والتَّسْليطِ العظيم. وهو أصدقُ المحَبةِ حقًا؛ لا مَن يتحلَّىٰ بشِيَم قومٍ ليس منهم، ويدَّعي غريزةً لا تقبله،

---

(١) هو أحد فحول الشُّعراء الأشراف المشهورين، ذكره الحميديُّ في: «الجذوة» ٣٢١، وقال: كان أديبًا شاعرًا مُكْثِرًا، وأكثر شعره في السِّجن، قال لي أبو محمَّد عليُّ بن أحمد ـ يعني: ابن حزم ـ: أبو عبد الملك ـ هذا ـ في بني أميَّة كابن المعتزِّ في بني العباس؛ ملاحةَ شعرٍ، وحُسْنَ تشبيهٍ. سجن وهو ابن ستَّ عشرةَ سنة، ومكث في السجن ست عشرة سنة، (ثم أخرج ولُقِّب بالطَّليق)، وعاش بعد إطلاقه من السجن ست عشرة سنة، ومات (كهلًا) قريبًا من الأربع مئة. انتهى، وما بين القوسين فمن: «تاريخ الإسلام» للإمام الذَّهبي (الطبقة: ٣٩/ص: ٣٩٦ ـ ٣٩٧).

ووقع في المخطوط: عبد الملك بن مروان. وهكذا أثبته بتروف و(ع)، وهو تحريف؛ صحَّحْته من المصدرين السابقين، و«الحلَّة السِّيراء» ١/٢٢٠ (٨٦)، و«المغرب في حُلىٰ المغرب» ١٩١ (١٢٤). وأثبته علىٰ الصَّواب الدكتور الطَّاهر أحمد مكي، وأحال إلى ترجمته لكتاب غرسيه غومث: «مع شعراء الأندلس والمتنبي» ص: ٥٨؛ وما بعدها، ط٤، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.

(٢) في الأصل: الجماعة.

فيزعم أنه يتخيَّرُ من يحبُّ. أما لو شغل الحبُّ بصيرتَهُ، وأجاح[1] فكرته، وأجحفَ بتمييزه؛ لحال بينه وبين التَّخَيُّر والارتياد. وفي ذلك أقول شعرًا منه: [من البسيط]

(٢٣ب) منهم فتىً كانَ في مَحْبُوبه وقَصٌ — كأنَّما الغِيدُ في عَيْنيه جِنَّانُ[2] /

وكان مُنبسطًا في فَضْلِ خِيرته[3] — بحُجَّةٍ حقّها في القول تِبْيان

إنَّ المَها ـ وبها الأمثالُ سائرةٌ ـ — لا ينكرُ الحسنَ فيها الدَّهرَ إنسان

وُقْصٌ فليسَ بها عَنقاءُ واحدةٌ — وهل تُزَانُ بطولِ الجِيدِ بُعْران

وآخَرٌ كان في مَحبوبِه فَوَهٌ — يقول حَسْبيَ في الأفْواهِ غِزلان

وثالثٌ كانَ في مَحبوبه قِصَرٌ — يقولُ: إنّ ذواتَ الطُّولِ غِيلان

وأقولُ ـ أيضًا ـ: [من الطويل]

يَعيبونَها عندي بشُقرةِ شَعرها — فقلتُ لهم هذا الذي زانَها عندي

يَعيبون لونَ النُّور والتِّبْر ضِلَّةً — لرأيِ جَهولٍ في الغوايةِ ممتدِّ

وهل عابَ لونَ النَّرجِسِ الغَضِّ عائِبٌ — ولونَ النُّجوم الزَّاهرات على البُعد

وأبعدُ خَلق الله من كُلِّ حكمةٍ — مُفضِّلُ جِرْمٍ فاحِمِ اللَّوْنِ مُسودِّ

---

(١) جعلها (ع): وأطاح.

(٢) الوَقَص: قصر العنق. والغيدُ ـ بالكسر ـ جمع غادة: المرأة الجميلة الناعمة اللَّينة. والغَيَد ـ بفتحتين ـ: التثني والتمايل بنعومة. والجنَّان: جمع جانٍّ.
وقد أشكل هذا الموضع على المترجمين لغموضه، فذكر السامرائيُّ أن المعنى في الترجمات صار فكاهيًا جدًّا، وقال: الصواب في رأيي: (شنآنَ) مكان: (جنان)، فحال هذا الشاب أنَّه أحبَّ ذا عنقٍ قصيرٍ، حتَّى صارت ذات العنق الطويل بغيضًا إليه، لأنه يراه عيبًا ونقصًا.
قلتُ: ويدلُّ على صحة هذه القراءة المعاني التي ذكرها ابن حزم في الأبيات التالية.

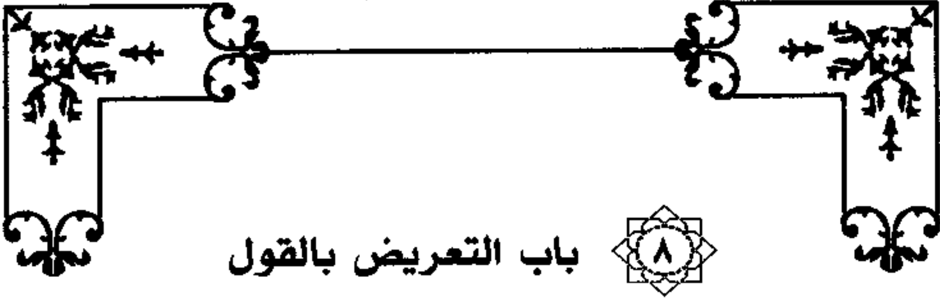
(٣) قرأها (ع) بالباء الموحَّدة، وهي في الأصل بالياء.

بـه وُصِـفَـتْ ألـوانُ أهـل جـهـنَّـمَ ولِبسَةُ باكٍ مُثْكَلِ الأهل محتدِّ / (٢٤أ)

ومُذ لاحت الرَّاياتُ سُودًا تيقنتْ نفوسُ الورىٰ أن لا سبيلَ إلىٰ الرُّشد[1]



(١) علَّق الدكتور إحسان عباس هنا بقوله: يحسن التوقف هنا عند كراهية ابن حزم للرايات السود، وهي شعار العباسيين، ليعرف مدى تعلقه بالأُموية، حتى لقد اتهم بالتعصُّب للأمويين من رجلٍ مثل ابن حيان (راجع مقدمة جوامع السيرة).
قلت: على فرض صحَّة هذا التَّوجيه؛ فإنَّ ابنَ حزمٍ ـ رحمه الله ـ لم يكن ليبني فكره وموقفه على أساس كراهيةٍ لجهةٍ، وتعلُّقٍ بجهةٍ أخرىٰ؛ وإنَّما على فقهه الواعي للتأريخ الإسلامي والتَّغيُّرات الجذرية فيه. إذ لا يخفىٰ ما نتج عن سقوط الدَّولة الأُمَوِيَّة من توسُّعٍ لنشاط الحركات الباطنية، وتسلُّطٍ للأعاجم، وانحسارٍ لدور العرب في قيادة الأمة الإسلامية.



(٨) باب التعريض بالقول

ولا بدَّ لكلِّ مطلوبٍ من مَدْخَلٍ إليه، وسبب يُتَوصَّلُ به نحوه، فلم ينفرد بالاختراع دون واسطةٍ إلَّا العليمُ الأوّلُ ـ جلَّ ثناؤه ـ.

فأولُ ما يَستعمل طُلابُ الوصل، وأهلُ المحبةِ في كشف ما يجدونه إلىٰ أحبتهم: التعريضُ بالقول، إمَّا بإنشادِ شِعْرٍ، أو بإرسالِ مَثَلٍ، أو تعمية بيتٍ، أو طَرْحِ لُغْزٍ، أو تسليطِ كلامٍ.

والنَّاسُ يختلفونَ في ذلك علىٰ قدر إدراكهم، وعلى حسب ما يرونه من أَحِبتهم من نِفارٍ أو أُنْسٍ أو فطنةٍ أو بَلادةٍ. وإنِّي لأعرفُ من ابتدأ كشفَ محبَّته إلىٰ من كان يحبُّ بأبياتٍ قلتُها. فهذا وشبهه يبتدىء به الطالبُ للمودَّة، فإن رأىٰ أُنْسًا وتسهيلًا زادَ، وإن يعاينْ شيئًا من هذه الأمور[1] في حين إنشاده لشيءٍ ممَّا ذكرنا، أو إيرادِهِ لبعض المعاني التي حدَّدنا، فإنَّ انتظاره[2]/ (٢٤ب) الجوابَ، إمَّا بلفظٍ أو بهيئة الوجه والحركاتِ؛ لموقِفٌ بين الرَّجاء واليأس هائِلٌ ـ وإن كانَ حينًا قصيرًا ـ

---

(١) في الأصل: الأمر.

(٢) فإنَّ انتظاره؛ في الأصل: وانتظاره. وما أثبته فقراءة العلامة محمود شاكر رحمه الله.

لأنَّهُ[1] إشرافٌ علىٰ بلوغِ الأملِ أو انقطاعِهِ.

ومن التَّعريض بالقول جنسٌ ثانٍ، ولا يكون إلاَّ بعد الاتفاق ومعرفةِ المحبَّةِ من المحبوب، فحينئذٍ يقعُ التَشكِّي وعقدُ المواعيد، والتَّعْدِيدُ[2]، وإِحكامُ المودات بالتَّعْريض، وبكلامٍ يَظْهَرُ لسامعه منه معنىً غيرُ ما يذهبان إليه، فيجيبُ السامعُ عنه بجوابٍ غير ما يتأدَّىٰ إلىٰ المقصود بالكلام، علىٰ حسب ما يتأدّى إلىٰ سَمْعِه ويسبقُ إلىٰ وَهْمِهِ، وقد فَهِمَ كلٌّ واحدٍ منهما عن صاحبه، وأجابه بما لا يفهمه غيرهما، إلَّا مَنْ أُيِّدَ بحِسٍّ نافذٍ، وأُعِينَ بذكاءٍ، وأُمِدَّ بتجربةٍ، ولا سيَّما إنْ أحسَّ من معانيهما بشيءٍ؛ وقلَّما يغيبُ عن المتوسِّمِ المُجِيدِ، فهنالكَ لا خفاءَ عليه فيما يريدان.

وأنا أعرف فتىً وجاريةً كانا يتحابَّان، فأرادها في بعض وَصْلها على بعضِ ما لا يَجمل[3]، فقالت: والله لأشكونَّكَ في المَلَإِ علانيةً، ولأفضحنَّكَ/ فضيحةً مستورةً. فلمَّا كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلسَ (٢٥أ) بعضَ أكابر الملوك، وأركانِ الدَّولة، وأجلِّ رجالِ الخلافة، وفيه ممَّنْ يُتَوَقَّىٰ أمْرُهُ من النِّساءِ والخدم عددٌ كثير، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتىٰ،

(١) في الأصل: ولكنَّه. والتَّصحيح عن العلامة شاكر، وهو تصحيح لسياق الكلام، مرتبط بما قبله.

(٢) كذا في الأصل واضحة، وهكذا أثبتها بتروف، وقد سبق استعمال المصنِّف ـ رحمه الله ـ لهذه اللفظة في: (٢ ـ باب علامات الحب)، وقد تعرَّضت للتحريف هناك، كما تعرَّضت للتحريف في هذا الموضع؛ فجعلها (مكي): والتقرير! وبرشيه: بالتهديد! و(ع) وغيره: بالتَّغرير! وذهب العلامة محمود شاكر إلىٰ أنَّ الصَّواب: «بالتَّورية»، والصَّواب ما في الأصل، والمعنى واضح، وقد أشرتُ إليه في الموضع السابق.

(٣) جعلها (ع): يَحِلُّ، وهو رأي العلامة محمود شاكر، وهذا وإن كان بمعنىٰ ما في الأصل؛ لكنه مخالف له.

لأنَّهُ كانَ بسببٍ من الرَّئيس، وفي المجلس مغنِّياتٌ غيرُها، فلما انتهى الغناءُ إليها سوَّتْ عودها، واندفعت تغنِّي بأبياتٍ قديمةٍ(١)، وهي: [من الوافر]

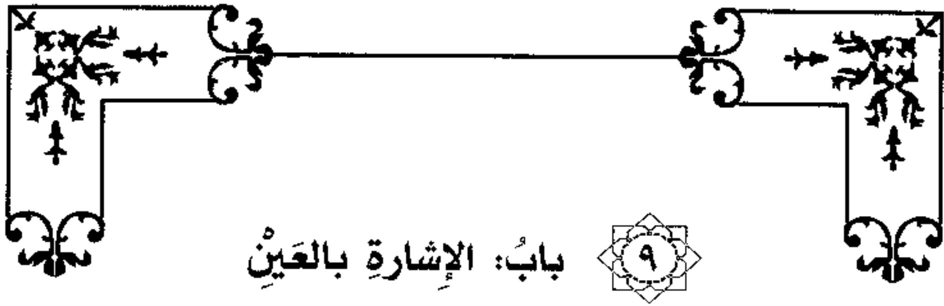
غَزالٌ قد حكىٰ بدرَ التَّمام   كشَمْسٍ قد تجلَّتْ من غَمام
سَبىٰ قلبي بألحاظٍ مِراضٍ   وقَدٍّ الغصن في حُسن القَوام
خضعتُ خضوعَ صَبّ مستكينٍ   له وذَللتُ ذِلَّةَ مستهام
فَصِلني يا فديتُكَ في حَلالٍ   فما أهوىٰ وِصَالًا في حَرام

وعلمتُ أنا هذا الأمرَ فقلتُ: [من الوافر]

عِتابٌ واقعٌ وشَكاةُ ظُلْم   أتتْ من ظالمٍ حَكَمٍ وَخَصْمِ
تشكَّتْ ما بها لم يَدر خَلقٌ   سوى المشْكوِّ ما كانت تسمِّي



(١) لم أجد هذه الأبيات بين الأصوات التي كانت ذائعة في المشرق والمغرب (ع).



(٩) بابُ: الإِشارةِ بالعَيْنِ

ثُمَّ يتلوُ التعريضَ بالقولِ ـ إذا وقع القبولُ والموافقة ـ: الإشارةُ بلَحْظِ/ العين، وإنَّه ليقومُ في هذا المعنى المقامَ المحمودَ، ويبلغ المبلغَ العجيبَ، ويُقطع به ويُتواصَلُ، وَيُوعَدُ وَيُهَدَّد، ويُنْتهرُ[١] وَيُبْسَط، ويُؤمَرُ وَيُنْهَىٰ، وتُضربُ به الوعود[٢]، وَيُنبّهُ على الرَّقيبِ، وَيُضْحَك وَيُحْزَنُ، وَيُسأَلُ وَيُجاب، وَيُمْنَعُ وَيُعْطَىٰ. (٢٥ب)

ولكلِّ واحدٍ من هذه المعاني ضَرْبٌ من هيئة اللَّحْظِ لا يُوقَفُ علىٰ تحديده إلا بالرؤية، ولا يمكنُ تصويره ولا وصفُهُ إلا الأقل منه، وأنا واصِفٌ ما تيسَّرَ من هذه المعاني:

فالإشارةُ بمؤخَّرِ العين الواحدةِ؛ نهيٌ عن الأمر[٣].

---

(١) جعلها (ع): ويُقْبض.

(٢) خ: وتصرب به الأوغاد. ولم يظهر لي وجهه، وما أثبته فعن (ع).

(٣) الأقرب أن يكون «الأمر» نكرةً، أي: نهيٌ عن أمر، وأمّا التعريف فيصعب فهمه على مراد مستقيم.
وفيما ذكره إشارات إلى الأعين يعود بعضها إلى عُرف زمانه ومجتمعه. ومن ذلك: الإشارة بمؤخرة العين، فلها في لغة العيون اليوم معانٍ، منها ما هو أخصّ من المعنى الذي ذكره، كأن يكون مراد فاعل الإشارة من المؤشر له أن يمرّ الحديث كما سمع دون اعتراض. =

وتفتيرُهَا إعلامٌ بالقبولِ.

وإدامةُ نظرها دليلٌ على التوجُّعِ والأسَفِ.

وكسرُ نظرها آيةُ الفرح.

والإشارةُ إلىٰ إطباقها دليلٌ على التَّهديد.

وَقَلْبُ الحَدَقَةِ إلى جهةٍ ما ثمَّ صرفها بسرعةٍ تنبيهٌ على مُشارٍ إليه.

والإشارةُ الخَفِيَّةُ بمؤخَّرِ العينين ـ كلتيهما[1] ـ سؤالٌ.

وقلبُ الحدقة من وسط العين إلى المَأْقِ[2] بسرعةٍ شاهدُ المنع.

وترعيدُ الحَدَقَتين من وسط العينين نهيٌ عام.

وسائر ذلك لا يُدْرَكُ إلا بالمشاهدة.

(٢٦أ) واعلم أن العينَ تنوبُ عن الرُّسُلِ، وَيُدْرَكُ بها المرادُ، والحواسُّ/ الأربع أبوابٌ إلىٰ القلب ومنافذُ نحو النَّفس، والعينُ أبلغها، وأصحُّها دلالةً، وأوعاها عملًا. وهي رائدُ النفسِ الصَّادقُ، ودليلُها الهادي، ومِرْآتُها المجلوَّة التي بها تقفُ علىٰ الحقائق، وتحوزُ الصِّفاتِ، وتفهمُ المحسوسات. وقد قيل: «ليس المُخبَرُ كالمعايِن»[3].

= ومن ذلك: قوله بعده: «وكسرها آية الفرح»، ولعل الرّضا والقبول أظهر معانيها اليوم لدينا. وفي بعض العلامات التي ذكرها ما لا يفهم إلا بإشارة أو حركة مصاحبة، كخفض الرأس وهزّه، وانبساط الوجه، والتبسم، ونحو ذلك. (الحربي)

(١) خ: كلتاهما.

(٢) مَأْقُ العين: طرفها ممَّا يلي الأنف، وهو مجرىٰ الدَّمع من العين.

(٣) وهذا لفظُ حديثٍ صحيحٍ؛ رواه ـ بهذا اللفظ ـ الخطيب في: «تاريخ بغداد» **٣/١٩٩**، وابن عدي في: «الكامل في الضعفاء» **٦/٢٩١**؛ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ بإسنادٍ حسن. ورواه أحمد **١/٢٧١ (٢٤٤٧)**، وابن حِبَّان **(٦٢١٣)**، والحاكم **٢/٣٢١** من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا؛ بلفظ: «**ليس الخَبَرُ كالمُعَايَنَة**، =

وقد ذكر ذلك أفليمونُ[1] ـ صاحبُ الفِراسة ـ وجعلها معتمدةً في الحكم.

وبحسبك من قوةِ إدراكِ العين أنَّها إذا لاقىٰ شعاعُها شعاعًا مجليًّا[2] صافيًا، إمَّا حديدًا مصقولًا[3]، أو زجاجًا، أو ماءً، أو بعض الحجارة الصافية، أو سائرَ الأشياءِ المجلوَّة البراقة ذوات الرَّفيف والبصيص واللَّمعان؛ يتّصلُ أقصىٰ حدوده بجسم كثيفٍ ساتر منَّاعٍ كَدِرٍ؛ انعكسَ شعاعها فأدركَ الناظرُ نفسَهُ ومَازَها[4] عيانًا. وهو الذي ترى في المرآةِ، فأنت حينئذ كالنَّاظر إليكَ بعين غيرك. ودليلٌ عيانيٌّ علىٰ هذا أنَّك تأخذ مرآتَيْنِ كبيرتين فتُمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك، والثانيةَ بيسارك قبالة وجهك، ثم تزويها قليلًا/ حتَّىٰ يلتقيا بالمقابلة، فإنَّك ترىٰ قَفَاك وكلَّ ما (٢٦ب) وراءك، وذلك لانعكاس ضَوْءِ العين إلىٰ ضوءِ المرآة التي خلفك، إذ لم تجد مَنْفَذًا في الَّتي بين يديك، ولمَّا لم يجد وراء هذه الثَّانيةِ منفذًا انصرفَ إلىٰ ما قابله من الجسم، وإن كانَ صالحٌ ـ غلامُ أبي إسحاق النظّام[5] ـ خالفَ في

= إنَّ اللّهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَخْبَرَ مُوسىٰ بما صَنَعَ قَوْمُهُ في العِجْلِ؛ فَلَمْ يُلْقِ الأَلْواحَ، فلمَّا عايَنَ ما صَنَعُوا؛ أَلْقىٰ الألواحَ فانْكَسَرَتْ».

(١) افليمون (Philemon) صاحب الفراسة، انظر في امتحان قدرته على الفراسة ابن أبي أصيبعة ١: ٢٧، وذكره صاحب صوان الحكمة وأورد له قوله في العشق: هو مرض يحدث في الروح جالبه النظر ومسكنه القلب ومهيِّجه الفكر (صوان: ٢٤٥) وقال القفطي: فاضل كبير عالم في فن من فنون الطبيعة وكان معاصرًا لبقراط وأظنه شامي الدار، كان خبيرًا بالفراسة عالمًا بها... وله في ذلك تصنيف مشهور خرج من اليونانية إلى العربية (تاريخ الحكماء: ٦٠) (ع).

(٢) (شعاعًا مجليًّا): كذا في الأصل، وجعلها برشيه: (شيئًا ما مجلُوًّا).

(٣) خ: مفصولًا.

(٤) خ: وجازها.

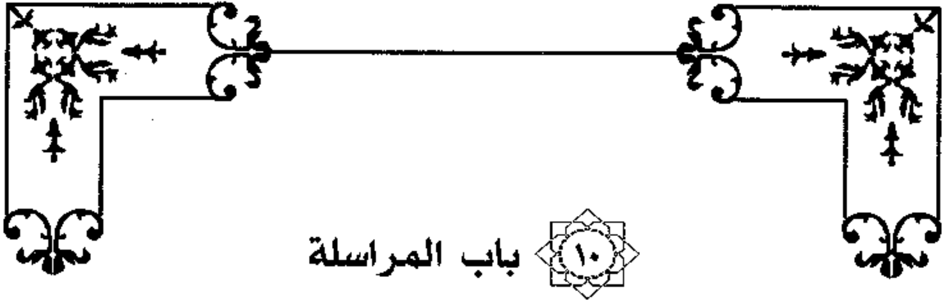
(٥) صالح غلامُ أبي إسحاق النظَّام: ذكره ابن المرتضى في «طبقات المعتزلة» ٧٣، وقال: «وله كتب كثيرة، وخالف الجمهور في أمور». وهو مذكور في كتب الفرق، فقد ذكروا في فرق المعتزلة: «أصحاب صالح قُبَّة» كما في «الفَرق بين الفرق» ١٨ =

الإدراكِ، فهو قولٌ ساقطٌ لم يوافقه عليه أحدٌ.

ولو لم يكن من فضل العين إلا أنّ جوهرها أرفعُ الجواهر وأعلاها مكانًا، لأنها نوريَّةٌ لا تُدَركُ الألوانُ بسواها، ولا شيءَ أبعد مرمىً ولا أنأىٰ غايةً منها، لأنَّها تدركُ بها أجرامُ الكواكب الَّتي في الأفلاك البعيدة، وَتُرَىٰ بها السماءُ علىٰ شدَّة ارتفاعها وبُعدها، وليس ذلك إلَّا لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرآة، فهي تدركها وتصلُ إليها بالطَّفْرِ، لا علىٰ قطعِ الأماكنِ، والحلولِ في المواضعِ، وتنقُّلِ الحركاتِ، وليسَ هذا لشيءٍ من الحواسِّ مثل الذَّوقِ واللَّمْسِ؛ لا يُدركان إلا بالمجاورة، والسَّمعُ والشَّمُّ؛ لا يدركان إلَّا من قريبٍ. ودليلٌ علىٰ ما ذكرناه من الطَّفر[1]؛ أنَّكَ ترىَ المُصوِّتَ قبلَ/ سماع الصَّوت، وإن تعمدْتَ إدراكهما معًا، فلو كان إدراكهما واحدًا لمَا تقدَّمت العينُ السَّمْعَ. (٢٧أ)

= و٩٣، و«التبصير في الدين» ٢٤. ونقل أبو الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين» ٤٣٤ عنه أنَّ الذي يرَى الرائي في المرآة إنّما هو إنسان مثله؛ اخترعه الله! وبيّن في موضع آخر ٤٠٧ سبب تلقيبه بقُبَّة، فقال: «وبلغني: أنه قيل له: فما تنكر أن تكون في هذا الوقت بمكة جالسًا في قُبَّة قد ضربت عليك، وأنت لا تعلم ذلك، لأن الله سبحانه لم يخلق فيك العلم به، هذا وأنت صحيح سليم غير مؤُوف! قال: لا أنكر. فلقِّب بقبَّة»! وانظر: «الأصول والفروع» ٢٠٧.

(١) الطَّفر: في الأصل (الظفر) وهكذا أثبتها بتروف، وما أثبته فعن (ع)، وعلَّق عليه بقوله: بالطفر: هذه هي القراءة الصحيحة (التي اقترحها برشيه) وفي سائر القراءات: بالنظر، وإنما حكمت بصحتها اعتمادًا على رأي ابن حزم في الطفرة وعلاقة حاسة البصر بها. فالطفرة في رأي النظام هي أن المارّ على سطح جسم من مكان إلى مكان بينهما أماكن لم يقطعها هذا المارّ ولا مرَّ عليها؛ وخطَّأ ابن حزم هذا الرأي ثم قال: «هذا ليس موجودًا البتة إلا في حاسة البصر فقط وكذلك إذا أطبقت بصرك ثم فتحته لاقى نظرك خضرة السماء والكواكب التي في الأفلاك البعيدة بلا زمان؛ كما يقع على أقرب ما يلاصقه من الألوان، لا تفاضل بين الإدراكين في المدة أصلًا». ثم قارن بين حاسة السمع وحاسة البصر (كما فعل هنا) وقال: إن الصوتي يقطع الأماكن وينتقل فيها وإن البصر لا يقطعها ولا ينتقل فيها (أي أن إدراكه المرئيات طفرة) انظر الفصل ٥: ٦٤ ـ ٦٥.



﴿١٠﴾ باب المراسلة

ثم يتلو ذلك إذا امتزجا: المراسلةُ بالكتب. وللكتب آفاتٌ[١]، ولقد رأيتُ أهلَ هذا الشأن يُبادرون لقطع الكُتبِ، أو بحَلِّها في الماء وبمحو أثرها، فرُبَّ فضيحةٍ كانتْ بسببِ كتابٍ، وفي ذلك أقول: [من الطويل]

عزيزٌ عليَّ اليومَ قطعُ كتابكم ... ولكنَّهُ لم يُلْفَ للوُدِّ قاطِعُ
فآثرتُ أن يبقىٰ ودادٌ ويمَّحي[٢] ... مِدادٌ فإن الفَرْعَ للأصلِ تابعُ
فكم من كِتابٍ فيه مِيتةُ ربِّه[٣] ... ولم يَدْرِهِ إذ نمَّقَتْهُ الأصابع

وينبغي أن يكونَ شَكْلُ الكتاب ألطفَ الأشكال، وجنسُه أملحَ الأجناس؛ ولعمري إنَّ الكتابَ لَلِسَانٌ في بعض الأحايين، إما لحَصَرٍ في الإنسان، وإما لحياءٍ، وإما لهيبة. نعم؛ حتَّىٰ إنَّ لوصول الكتاب إلىٰ المحبوب، وعلم المُحبِّ أنَّهُ قد وقعَ بيده ورآهُ؛ للذةً يَجِدُها المحبُّ عجيبةً تقومُ مقامَ الرُّؤْية، وإنَّ لرَدِّ الجواب، والنَّظَر إليه سرورًا يعْدِلُ اللقاءَ، ولهذا ما ترىٰ العاشقَ يَضعُ الكتابَ على عينيه وقلبه ويُعانقه. / (٢٧ب)

---

(١) خ: آيات. والتصحيح عن (ع)، وجعلها (مكي): آفاق!
(٢) هذه قراءة العلامة محمود شاكر، وفي الأصل: يمتحي.
(٣) صاحبه. (الحربي)

ولعهدي ببعض أهل المحبَّةِ، ممَّنْ كانَ يدري ما يقولُ، ويحسنُ الوصف، ويعبِّر عمَّا في ضميره بلسانه عبارةً جيِّدةً، ويُجيدُ النَّظرَ، ويدّققُ في الحقائق؛ لا يَدَعُ المُراسلةَ وهو مُمْكِنُ الوصلِ، قريبُ الدار، داني المزار، ويَحكي أنها من وجوه اللَّذَّةِ.

ولقد أُخبرت عن بعض السُّقّاطِ الوُضعاء أنَّه كانَ يضعُ كتابَ محبوبه علىٰ إحليله. وإنَّ هذا النَّوع من الاغتلام قَبيحٌ، وضَربٌ من الشَّبَقِ فاحِشٌ.

وأما سقيُ الحِبْر بالدّمع؛ فأعرفُ مَن كان يفعل ذلك، ويُقارضه محبوبه بِسَقْيِ الحبر بالرِّيق، وفي ذلك أقول: [من الطويل]

جوابٌ أتاني عن كِتاب بعثتهُ	فسكَّن مُهتاجًا وهيَّج ساكنا
سقيتُ بدَمعِ العين لمَّا كتبتُه	فِعالَ مُحبٍّ ليسَ في الودِّ خائنا
فما زال ماءُ العين يَمْحو سُطُورَه	فيا ماءَ عيني قد محوت المحاسنا
غَدا بدُموعي أوَّلُ الخطِّ بيِّنًا	وأضحىٰ بدمعي آخرُ الخطِّ بائنا

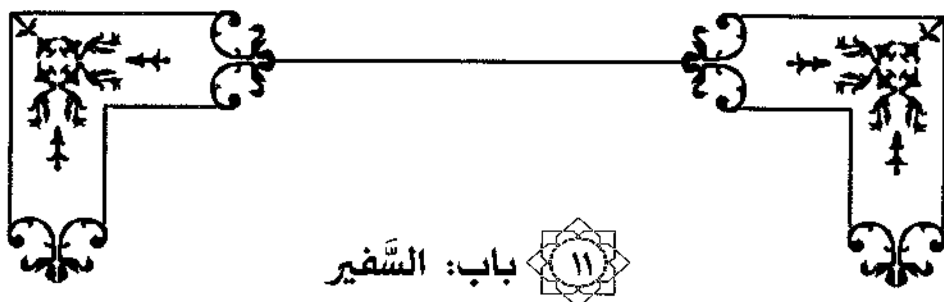
(٢٨أ) **خَبَرٌ:** /

ولقد رأيتُ كتابًا لمحبٍّ[1] إلىٰ محبوبه، وقد قطَعَ في يده بسِكِّينٍ له، فسالَ الدَّمُ واستمدَّ منه، وكتب به الكتابَ أجمعَ. ولقد رأيتُ الكتابَ بعد جُفوفه فما شَكَكْتُ أنَّه بِصِبْغِ اللَّكِّ[2].



(١) تحرَّف عند بتروف إلى: «كتابَ المحبِّ»، وتابعته الطَّبعات اللاحقة، وصحَّحه العلامة محمود شاكر ـ رحمه الله ـ إلىٰ ما أثبتناه؛ موافقًا في ذلك ما في النسخة الخطية التي لم يطَّلع عليها، وذلك فضل الله ـ سبحانه ـ، يؤتيه من يشاء!

(٢) اللَّكُّ: نبات يستخرج منه صبغ أحمر؛ يصبغ به جلود المِعْزىٰ.



(١١) باب: السَّفير

ويقع في الحبِّ بعدَ هذا ـ بعد حلولِ الثِّقةِ، وتمام الاستئناس ـ: إدخَالُ[١] السَّفير.

ويَجِبُ تخيُّره وارتيادِه واستجادته واستفراهه، فهو دليلُ عقلِ المرء، وبيده حياتُهُ وموتُهُ، وَسَتْرُهُ وفَضِيحَتُه؛ بعدَ الله ـ تعالىٰ ـ. فينبغي أنْ يكونَ الرَّسُولُ ذا هيئةٍ، حاذقًا؛ يكتفي بالإشارة، ويُقَرْطِسُ[٢] عن الغائب، وَيُحَسِّنُ[٣] مِنْ ذاتِ نفسِهِ، ويَضَعُ مِنْ عَقله ما أغفله باعِثُهُ، ويؤدِّي إلىٰ الَّذي أرسله كلَّ ما يشاهِد علىٰ وجهه، كاتِمًا للأسرار، حافظًا للعَهْدِ، وفيًّا قَنوعًا ناصحًا.

ومَنْ تعدَّىٰ[٤] هذه الصِّفاتِ كانَ ضرَرُهُ علىٰ باعثه بمقدار ما نقَصَهُ منها. وفي ذلك أقولُ شعرًا منه: [من الطويل]

رَسُولُكَ سَيْفٌ في يَمينكَ فاستجدْ حُسَامًا ولا تضربْ به قبل سَقْلِهِ[٥]

---

(١) جعلها (ع): إرسال. وما في الأصل أجود.

(٢) يقرطس: يصيب المرمىٰ.

(٣) هكذا ضبطها العلامة محمود شاكر، وضبطها (ع): ويُحْسِنُ.

(٤) كذا في الأصل، وهكذا أثبتها بتروف، وقرأها برشيه: تعوزه. وذهب العلامة شاكر إلىٰ أنَّ الصَّواب: «ومَنْ تعرَّىٰ من هذه...».

(٥) السَّقْلُ: أي الصَّقْلُ. فهما بمعنًى واحدٍ.

(٢٨ب) فمن يكُ ذا سيفٍ كَهَامٍ[١] فضُرُّهُ يَعُودُ علىٰ المعنيِّ منه بجهله /

وأكثرُ ما يستعملُ المحبُّون في إرسالهم إلىٰ من يُحبُّونَهُ؛ إمَّا خامِلًا لا يُؤْبَه له، ولا يُهتدَى للتَّحَفُّظِ منه لصباه أو لهيئة رثَّةٍ أو بذاذةٍ في طلعته؛ وإمَّا جليلًا لا تَلْحَقُهُ الظِّنَنُ لنُسْكٍ يُظهره، أو لسِّنٍ عاليةٍ قد بلغها. وما أكثر هذا في النِّساء، ولا سِيَّما ذواتِ العكاكيز والتَّسَابِيح والثَّوبَيْنِ الأحْمَرَيْنِ[٢] ـ وإنِّي لأذكرُ بقُرطبة التحذيرَ للنِّساء المُحْدَثاتِ[٣] من هذه الصفات حيثما رَأَيْنَها ـ أو ذواتِ صناعة يُقْرَب بها من الأشخاص، فمن النِّساء: كالطَّبيبة، والحَجَّامة، والسَّراقة[٤]، والدَّلالة، والماشطة، والنَّائحة، والمُغَنِّية، والكاهنة، والمعلمة، والمُسْتَخِفَّةِ[٥]، والصَّنَاعِ في المغزل والنسيج، وما أشبه ذلك؛ أو ذا قرابةٍ من المُرْسَلِ إليه لا يشح بها عليه.

فكم منيعٍ سُهِّلَ بهذه الأوصاف، وعسيرٍ يُسِّرَ، وبعيدٍ قُرِّبَ، وجَمُوحٍ أُنِّسَ، وكم داهيةٍ دَهَيَتِ الحُجُبَ المصونةَ، والأستارَ الكثيفةَ، والمقاصيرَ المحروسة، والسُّدَدَ المضبوطةَ؛ لأرباب هذه النُّعوت، ولولا أنْ

(١) كليل لا يقطع، يقال: سيف كهام، ورجل كهام، ولسان كهام، وفرس كهام، أي: كليل الإغناء فيه. «التاج». (الحربي)

(٢) حين تكون المرأة العجوز ذات عكازة وتسابيح، فذلك أمر مفهوم؛ أما أن تكون ذات ثوبين أحمرين فذلك زيّ أندلسي، فيما يبدو (ع).

(٣) كذا في الأصل و(ب) و(ع) وغيرهما، وقرأه برشيه: (المخبّآت)؛ يعني: العفيفات المخدّرات المحجّبات. ويقترح السامرائي: «للنِّساء الحَدِثات».

(٤) السراقة: لا أدري أية حرفة هي هذه، وجعلها «برشيه»: السواقة، كأنه عدّها مأخوذة من العمل في السوق (ع). ويرىٰ السامرائي أن الصواب: «والعَرَّافة».

(٥) كذا في الأصل، وقرأها برشيه: والمستخدمة. وتابعه (ع)، وقرأها السَّامرائي: «والمسْتَحِفَّة» وقال: وهي التي تنتف شعر وجه المرأة بخيطين، وهذه المهنة لا تزال موجودة في المشرق وشمال إفريقيا.

أنبِّه عليها/ لما ذكرتها[1]، ولكن لقطع النَّظَر فيها وقلة الثِّقةِ بكلِّ أحدٍ. (٢٩أ)
«والسعيدُ من وُعِظَ بغيره»[2]؛ وبالضِّدِّ[3].

أسبلَ الله علينا وعلىٰ جميع المسلمين سِترَهُ، ولا أزالَ عن الجميع ظلَّ العافية.

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعرفُ من كانتِ الرَّسُولَ بينهم حَمَامةٌ مؤدَّبةٌ، ويُعْقَدُ الكتابُ في جناحها، وفي ذلك أقولُ قطعةً منها: [من الطويل]

تخَيَّرها نوحٌ فما خابَ ظَنُّه ... لَدَيْها وجاءتْ نَحوَه بالبشائِر

سأودِعها كتبي إليكَ فَهَاكَهَا ... رَسائلَ تُهْدىٰ في قوادِمِ طائرِ

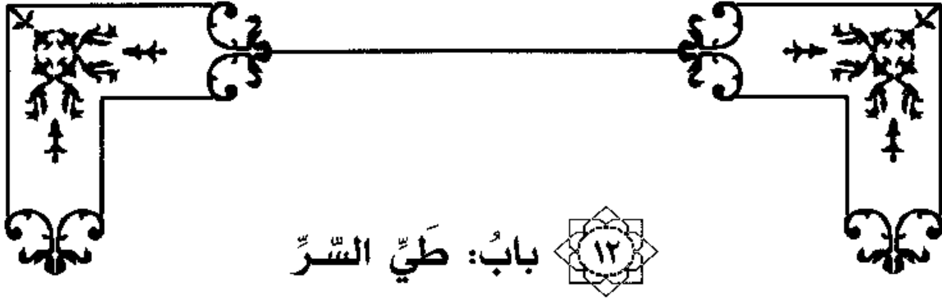


---

(١) هكذا واضحة في الأصل، وجعلها (مكي) و(ع): لذكرتها. وكأنَّهما فهما من العبارة: أن ابن حزم قد امتنع عن ذكر (تلك الأوصاف) حتىٰ لا يكون (منبهًا عليها)، وعلَّل ذلك بـ(قطع النظر فيها، وقلة الثقة بكلِّ أحدٍ). وهذا توجيه بعيد لها، يدفعها ظاهرها، فإن ابن حزم قد أشار ـ فعلًا ـ إلىٰ تلك الأوصاف؛ تنبيهًا وتحذيرًا، ليعرفها القارىء ولا يثق بكلِّ أحدٍ. وهذا واضحٌ لا إشكال فيه، ويؤيده استشهاده بالأثر الذي ذكره؛ فتأمَّل.

(٢) تضمين لبعض أثرٍ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، أخرجه مسلم (٢٦٤٥)، وابن حبَّان (٦١٧٧)؛ وغيرهما عنه موقوفًا.

(٣) أي: والشَّقيُّ مَن وُعِظَ به غيرُهُ. وزاد الصَّيرفِيُّ ـ وتبعه مكي و(ع): وبالضِّدِّ تتميَّزُ الأشياءُ! وهذه زيادة لم ترد في المخطوط؛ ولا في طبعتَي: بتروف وبرشيه.
واقترح السامرائيُّ: «والسعيد من وعظ بغيره فاتَّعظ»، وقال: يردُ هذا في «تاج العروس» أثرًا نبويًّا. قلت: الذي في «التاج» (مادة: وعظ): يقال: السعيد من وُعظ بغيره، والشقيُّ من به اتُّعِظ.



(١٢) باب: طَيِّ السِّـرِّ

ومن بعض صفاتِ الحبِّ: الكتمانُ باللِّسان، وجحودُ المحبِّ إن سُئِلَ، والتَّصنّعُ بإظهار الصَّبْرِ، وأن يُري أنه عِزهاةٌ[١] خليٌّ.

ويأبىٰ السِّرُّ الدَّفِينُ[٢]، ونارُ الكَلَفِ المتأجِّجَةُ في الضُّلُوعِ؛ إلَّا ظهورًا/ في الحركاتِ والعين[٣]، ودَبِيبًا كدبيب النَّار في الفحم، والماء في يَبِيسِ المَدَرِ. وقد يمكنُ التمويهُ في أوّلِ الأمر علىٰ غير ذي الحسِّ اللَّطيفِ، وأمَّا بعدَ استحكامه فمُحَالٌ. (٢٩ب)

وربَّما يكونُ السَّبَبَ في الكتمان تَصاونُ المحبِّ عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السِّمَةِ عند النَّاسِ، لأنَّها ـ بزعمه ـ من صفاتِ أهل البطالة، فيفرُّ منه، ويتفادى منه[٤]، وما هذا وَجْهُ التَّصْحِيحِ[٥]، فَبحَسْب المرءِ المسلم[٦] أن يعفَّ عن محارم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ التي يأتيها باختياره، ويحَاسَبُ عليها

---

(١) العزهاة: العازف عن النساء واللَّهو.

(٢) خ: الدَّقيق؛ وهو تحريف، والتَّصحيح عن برشيه.

(٣) قارن هذا بما في: «الموشىٰ» (ص: ٤٨): ولن يخفىٰ المُحِبُّ إنْ تستَّر، ولا ينكتم هواه وإنْ تصبَّر.

(٤) كذا في الأصل، ولعل الصَّواب: فيفرُّ منها، ويتفادىٰ منها.

(٥) جعلها (ع): الوجهُ بصحيح.

(٦) في الأصل: المسلم المرءُ. وهذا مقلوب.

يوم القيامة؛ وأما استحسانُ الحُسْنِ، وتمكُّنِ الحبِّ؛ فطبعٌ لا يُؤمَرُ به، ولا يُنْهى عنه، إذ القلوبُ بيد مُقَلِّبها. ولا يَلزمه[1] غيرُ المعرفة والنَّظَرِ في فَرْق ما بينَ الخطأ والصواب، وأن يعتقدَ الصحيحَ باليقين؛ وأما المحبَّةُ فخِلْقَةٌ، وإنَّما يملكُ الإنسانُ حركاتِ جوارِحهِ المكتسبة؛ وفي ذلك أقول: [من الطويل]

يلومُ رجالٌ فيك لم يَعرفوا الهوىٰ	وسَيَّانِ عندي فيكَ لاحٍ وساكتُ
يقولونَ جانبتَ التَّصاونَ جُملةً	وأنتَ عليمٌ[2] بالشَّريعةِ قانِت/ (٣٠أ)
فقلتُ لهم هذا الرِّياءُ بعَينه	صُراحًا وَرَبِّي[3] للمُرَائينَ ماقت
متىٰ جاءَ تحريمُ الهوىٰ عن محمَّدٍ	وهل مَنْعُهُ في مُحْكَمِ الذِّكْر ثابت
إذا لم أواقعْ مَحْرَمًا أتَّقي به	مَجِيئي يومَ البَعْثِ والوجهُ باهت
فلستُ أبالي في الهوىٰ قولَ لائمٍ	سواءٌ لعمري جاهرٌ أو مُخافت
وهل يَلزمُ الإنسانَ إلا اختيارُه	وهل بخَبايا اللفظِ يُؤْخَذُ صامت

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعرفُ بعضَ من امتُحن بشيءٍ من هذا فَسَكَن الوجدُ بين جوانحه، فرام جَحْدَه إلىٰ أنْ غَلُظَ الأمرُ، وعَرَفَ ذلك في شمائله مَنْ تعرَّضَ للمعرفة ومن لم يتعرَّضْ. وكانَ مَن عَرَّضَ له بشيءٍ نَجَهَهُ[4]/ (٣٠ب) وقبَّحَهُ، إلىٰ أن كانَ من أرادَ الحَظْوَة لديه من إخوانه؛ يُوهِمُهُ تصديقَهُ في

---

(١) في الأصل: يلزمها.

(٢) في الأصل: عليهم. والتَّصحيح عن (ع).

(٣) هذه قراءة السامرائيِّ، وعنه (ع) في طبعته الثانية، وفي الأولىٰ: (زيي)، وفي الأصل والنسخ المطبوعة: (وزى) أو: (وزي).

(٤) نجهه: ردَّه ردًّا قبيحًا.

إنكاره، وتكذيبَ من ظنَّ به غير ذلك، فَسُرَّ بهذا. ولعهدي به يومًا قاعدًا ومعه بعضُ من كان يُعَرِّضُ له بما في ضَميره، وهو ينتفي غايةَ الانتفاء، إذ اجتازَ بهما الشَّخْصُ الَّذي كان يُتَّهمُ بعلاقته؛ فما هو إلَّا أن وقعتْ عينُهُ علىٰ محبوبه حتَّىٰ اضطربَ وفارقَ هَيْأَتَهُ الأولىٰ، واصفرَّ لونه، وتفاوتت معاني كلامه بعد حُسْن تَثْقِيفٍ، فقطعَ كلامَه المتكلمُ معه ـ فلقد استدعىٰ ما كانَ فيه من ذكره[1] ـ فَقِيلَ له: ما عدا عمَّا بدا؟ فقال: هو ما تَظُنُّونَ، عَذَرَ مَنْ عذر، وعَذَلَ مَنْ عذل. ففي ذلكَ أقولُ شعرًا منه: [من البسيط]

ما عاشَ إلا لأنَّ الموتَ يرحمُهُ ... ممَّا يَرَىٰ من تباريحِ الضَّنىٰ فيه[2]

وأنا أقولُ: [من الهزج]

دموعُ الصَّبِّ تَنْسَفِكُ ... وسِترُ الصَّبِّ يَنْهَتِكُ
كأنَّ القَلْبَ إذْ يَبْدُو ... قَطاةٌ ضَمَّها شَرَكُ[3]
(٣١أ) فَيَا أصحابَنا قُولُوا ... فإنَّ الرأيَ مُشْتَرَكُ/
إلىٰ كَمْ ذا أُكاتِمُهُ ... وما لي عَنْهُ مُتَّرَكُ

---

(١) هكذا في الأصل، وقال العلامة محمود شاكر: أظنُّ الصَّواب: «فقطع كلامه المتكلِّم معه، فانكفأ واستدعىٰ ما كان فيه...»؛ ويدلُّ علىٰ هذا ما بعده. انتهىٰ.
(٢) واضح أن البيت وحده لا يمثل لبَّ المعنى الذي تدور عليه الفقرة السابقة، فلعلّ أبياتًا أسقطها الناسخ كانت تفي بذلك (ع).
(٣) علَّق (ع) هنا بقوله:
تشبيه القلب بالقطاة، من الصور التي تتردّد في أشعار العذريين، من ذلك قول قيس ليلى:
كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فأضحت ... تقلبه وقد علق الجناح

وهذا إنَّما يَعرض عند مقاومةِ طَبْعِ الكتمان والتَّصَاوُنُ؛ لطبع المحبِّ وغلبته، فيكونُ صاحبه متحيِّرًا بين نارَيْنِ مُحْرِقَتَيْنِ.

وربَّما كانَ سببُ الكتمان إبقاءَ المحبِّ علىٰ محبوبه، وإنَّ هذا لَمِنْ دلائل الوفاء[1]، وكرم الطَّبع، وفي ذلك أقول: [من المتقارب]

درىٰ النَّاسُ أنِّي فتىً عاشقٌ ... كئيبٌ مُعنَّىً ولكنْ بمَنْ

إذا عاينوا حالتي أيْقَنُوا ... وإن فَتَّشُوا رجَّموا[2] في الظِّنَنْ

كخَطٍّ يُرىٰ رَسمُه ظاهِرًا ... وإنْ طلبوا شرحَهُ لم يَبِنْ

كصَوْتِ حَمامٍ علىٰ أيكةٍ ... يرجِّع بالصَّوتِ في كلِّ فَنْ

تلذُّ بنجواهُ[3] أسماعُنا ... ومعناه مُسْتَعْجِمٌ لم يَبِنْ

يقولُونَ باللهِ سَمِّ الَّذي ... نفىٰ حُبُّهُ عَنْكَ طيبَ الوَسَنْ

وهَيْهاتَ دونَ الَّذي حاولوا ... ذَهابُ العُقولِ وخوضُ الفِتَنْ

فَهُمْ أبدًا في اختلاجِ الشُّكُوكِ ... بظَنٍّ كقَطْعٍ وقَطْعٍ كَظَن

وفي كتمان السِّرِّ أقولُ قطعةً منها: [من البسيط] / (٣١ب)

للسِّرِّ عندي مكانٌ لو يَحِلُّ به ... حيٌّ إذًا لاهتدىٰ ريبُ المَنون له

أُميتُهُ[4] وحَياةُ السِّرِّ مِيتَتُه[5] ... كما سرورُ المُعنَّىٰ في الهوىٰ الولَه

وربَّما كانَ سببُ الكتمان توقِّيَ المُحبِّ علىٰ نفسه من إظهار سِرِّهِ، لجلالة قَدْرِ المحبوب.

---

(١) في الأصل: لمن هو دلائل الوفاء. و(هو) زائدة لا معنىٰ لها.

(٢) في الأصل: رجعوا. والتصحيح عن برشيه و(ع).

(٣) في الأصل: بفحواه. وأثبتُّ قراءة (ع).

(٤) خ: أمنيه.

(٥) خ: ميته.

خَبَرٌ:

ولقد قالَ بعضُ الشُّعراءِ بقرطبةَ شعرًا تغزَّلَ فيه بصُبْحٍ ـ أمِّ المؤيِّد؛ رحمه الله ـ فغنَّتْ به جاريةٌ أُدْخِلَتْ علىٰ المنصور مُحَمَّدِ بن أبي عامر ليبتاعَها، فأمَرَ بقتلها.

خَبَرٌ:

وعلىٰ مثل هذا قَتْلُ أحمدَ بنِ مُغيث، واستئصالُ آلِ مغيثٍ[1]، والتسجيلُ عليهم ألا يُستخدمَ بواحدٍ منهم أبدًا حتَّىٰ كان سببًا لهلاكهم، وانقراضِ بيتهم، فلم يبقَ منهم إلَّا الشَّريدُ الفالُّ[2]. وكانَ سببَ ذلك تغزُّلُهُ بإحدى بناتِ الخلفاءِ، ومِثْلُ هذا كثيرٌ[3].

(٣٢أ) ويُحكىٰ عن الحسن بن هانىءٍ[4] أنَّه كانَ مغرمًا بحبِّ محمَّدِ بن/ هارون المعروف بابن زُبيدة[5]، وأحسَّ منه ببعض ذلكَ فانتهره علىٰ إدامة

(١) ينتسبون إلى مغيث الرومي فاتح قرطبة، وكان مع طارق، وقد نجبوا في قرطبة وسادوا وعظم بيتهم وتفرَّعت دوحتهم وكان منهم عبد الرحمٰن بن مغيث حاجب عبد الرحمٰن الداخل (النفح ٣:١٢ وانظر صفحات أخرى متفرقة) ومنهم عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الذي كان حاجبًا للحكم الربضي، كما كان أخوه عبد الملك من قوّاد الأمير هشام الرضى (الحلة ١:١٣٥) (ع).

(٢) الفالُّ: المهزوم.

(٣) يقص صفي الدين الحلي قصة مماثلة ذات لون أسطوري عن وشّاح مغربي عشق رميلة أخت عبد المؤمن الأموي [كذا] ملك الأندلس، ونظم فيها موشحة تسمّى «العروس» وكان أن قتله الخليفة لذلك (العاطل الحالي: ١٤ ـ ١٥).

(٤) هو الشاعر العباسيّ المعروف بأبي نُواس (ـ ١٩٨هـ).

(٥) هو الخليفة الأمين؛ أبو عبد الله محمد بن الرشيد هارون الهاشمي العباسي. وأمَّه: زُبيدة بنت الأمير جعفر بن المنصور. تولّى الخلافة بعد وفاة أبيه، وقتل سنة (١٩٨هـ) في صراعه مع أخيه المأمون، وكانت خلافته دون الخمس سنين. وقد وصفه الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ بقوله: كان مليحًا، بديعَ الحُسْنِ، أبيضَ وَسيمًا طويلًا، ذا قوّةٍ=

النَّظَر إليه، فذُكِرَ عنه أنَّه قالَ: أنَّه كانَ لا يقدرُ[1] أنْ يُديمَ النَّظرَ إليه إلا مع غَلَبَة السُّكْرِ علىٰ محمَّدٍ.

وربَّما كانَ سببُ الكتمان ألا يَنْفِرَ المحبوبُ، أو يُنفَّرَ به. فإنِّي أدري من كانَ محبوبه له سَكَنًا وجَليسًا، لو باحَ بأقلِّ سببٍ من أنَّه يهواه لكانَ منه: «مناطَ الثُّريَّا قد تعلَّتْ نجومُها»[2]؛ وهذا ضرب من السِّياسة. ولقد كانَ يبلُغ من انبساط هذا المذكورِ مع محبوبه إلىٰ فوق الغاية، وأبعد النِّهاية، فما هو إلا أن باحَ إليه بما يجد فصار[3] لا يَصِلُ إلىٰ التَّافه اليسير، مع التِّيهِ ودالّةِ الحبِّ، وتمنُّعِ الثِّقة بملك الفُؤَاد، وذهبَ ذلك الانبساطُ، ووقع التَّصنُّعُ والتَّجَنِّي، فكانَ أخًا فصار عبدًا، ونظيرًا فعادَ أسيرًا، ولو زادَ في بَوْحِهِ شيئًا إلىٰ أن يعلَم خاصّةُ المحبوب ذلك لما رآهُ إلَّا في الطَّيفِ، ولانقطعَ القليلُ والكثير، وَلَعادَ ذلكَ عليه بالضَّرَرِ.

وربَّما كانَ من أسباب الكتمان الحياءُ الغالبُ علىٰ الإنسان. / (٣٢ب)

وربَّما كانَ من أسباب الكتمانِ أنْ يرىٰ المحبُّ من محبوبه انحرافًا

= وشجاعةٍ، وأدبٍ وفصاحةٍ، ولكنَّه سيءُ التّدبير، مُفْرِطُ التبذير، أرْعَنَ لعَّابًا، مع صِحَّة إسلام ودين. سامحه الله وغفر له «السِّير»: ٩/ (١١٠).

ولم أقف على الحكاية التي ذكرها ابن حزم ـ رحمه الله ـ ولكن ألمح ابن خلكان في: «وفيات الأعيان» ٩٩/٢ إلى شيءٍ منها.

(١) في الأصل: يقدم.

(٢) هذا من قول الأحوص الأنصاري (١٠٥هـ):

وإنَّ بني حَرْبٍ كما قد علمتُم ... مناط الثُّريّا قد تعلَّت نجومها

(٣) خ: صار.

وصدًّا، ويكونُ ذا نَفْسٍ أبيَّةٍ، فيستَتِرُ بما يَجِدُ لئلا يُشَمِّتَ به عَدُوًّا، ويُرِيَهُمْ[1] ـ ومَن يُحبُّ ـ هَوَانَ ذلك عليه.



(١) في الأصل: (عدوًّا وعدو يريهم). وأثبتها بتروف: (يشمَتَ به عدوٌّ أو يريهم). وجعلها (ع) تبعًا لبرشيه: (عدوٌّ، أو ليريهم). وقرأها السّامرائي: (لئلا يشمتَ به عدوُّه، أو عدوُّ مَن يحبُّه). وقال: هذه القراءة الصحيحة، والمقصود: أنه يكتم حبَّه حتىٰ لا يشمت به عدو محبوبه لعدم توفيقهم في حبِّهم. يؤيّد هذا قول ابن حزم بعده: (ومَنْ يحبُّ هوانَ ذلك عليه؟). وبسبب القراءة الخاطئة للجملة الأخيرة أخطأ المترجمون في فهمها أيضًا.

(١٣) بابُ: الإِذاعة

وقد تَعْرِضُ في الحُبِّ الإذاعةُ، وهو من مُنْكَرِ ما يحدُث من أعراضه، ولها أسبابٌ:

منها: أن يُريدَ صاحبُ هذا الفعلِ أن يَتَزَيَّنَ بزيِّ المحبِّينَ، ويدخُلَ في عِدادهم، وهذه خِلابةٌ لا تُرْضَىٰ، وتجليحٌ بَغِيضٌ[1]، ودعوىً في الحبِّ زائفةٌ.

وربَّما كانَ من أسباب الكشفِ غلبةُ الحبِّ، وتسوُّر الجَهْرِ علىٰ الحياءِ، فلا يملكُ الإِنسانُ حينئذٍ لنفسه صَرْفًا ولا عَدْلًا. وهذا من أبعدِ غايات العشق، وأقوىٰ تحكُّمِهِ علىٰ العقلِ، حتَّىٰ يُمثِّلَ الحَسنَ في تمثال القبيح، والقبيحَ في هَيْأَةِ

---

(١) هذه قراءة برشيه وتبعه (ع)، والخِلابة: المخادعة، والتجليح: المكالحة، والمجلِّح: هو الذي يركب رأسه في الأمر، ويجاهر به مكاشفاً دون تستُّر.
وفي الأصل: (وهذه خلافة لا ترضى، وتخليج بغيض)، وهكذا أثبته بتروف وتبعه آخرون. ويرىٰ السامرائيُّ أن القراءة الصحيحة هي: «وهذه خلاقة لا ترضي، وتَحَجُّج بغيض»، وقال: هذه القراءة ـ فيما أرىٰ ـ يقتضيها السياق، لأن ابن حزم يذمُّ من يذيع أسرار الحب، ويريد بذلك: «أن يتزيّا بزيِّ المحبين، ويدخل في عدادهم». علاوة علىٰ ذلك نجد ابن حزم يصف من لا وفاء له بأنه: «لا خلاق له» (٢٢ ـ باب الوفاء)، أي: لا حظَّ له من الخير والصلاح. «تاج العروس» (مادة: خلق). أما قراءة: «تخليج» أو: «تجليح» فكلتاهما خطأ، التخليج يذكِّر بالمشي علىٰ أحد أطرافه.
قلت: تخلج الشيء تخلجًا واختلج اختلاجًا: إذا اضطرب وتحرك. وتخلح المجنون في مشيه تجاذب يمينًا وشمالاً. ويتخلَّج: يتمايل. وأصل الاختلاج: الحركة والاضطراب. «تاج العروس» (مادة: خلج).

الحسن، وهنالكَ يرىٰ الخيرَ شرًّا، والشَّرَّ خيرًا. وكم من مَصونِ السِّتْرِ، مُسبَل القِناع، مسدولِ الغِطاء؛ قد كشفَ الحبُّ سِترَهُ، وأباحَ حَرِيمَهُ، وأهمل حِماهُ، فصار بعد الصِّيانةِ عَلَمًا، وبعد السُّكونِ مَثَلًا، وأحبُّ/ شيءٍ إليه الفضيحةُ فيما لو (٣٣أ) مَثَلَ له قبل اليوم لاعتراه النافِضُ[١] عند ذكره، ولطالتْ استعاذتُهُ منه، فَسَهُلَ ما كانَ وَعِرًا، وهانَ ما كانَ عَزيزًا، ولانَ ما كانَ شَدِيدًا.

ولعهدي بِفتىً من سَرَواتِ الرِّجال، وعِلْية إخواني، قد دُهِي بمحبَّةِ جارَيةٍ مَقْصُورَةٍ؛ فَلُمَّ بها[٢]، وقَطَعَهُ حبُّها عن كثير من مصالحه، وظهرتْ آياتُ هواه لكلِّ ذي بَصَرٍ، إلىٰ أن كانتْ هي تَعْذِلُهُ علىٰ ما ظهر منه ممَّا يقودُهُ إليه هواها[٣].

خَبَرٌ:

وحدّثني موسىٰ بن عاصم بن عمرو؛ قالَ: كنتُ بين يدي أبي الفتح ـ والدي؛ رحمه الله ـ وقد أمرني بكتابٍ أكتبه، إذ لمحتْ عيني جاريةً كنتُ أكلَفُ بها، فلم أمْلِكْ نفسي، ورميتُ الكتابَ عن يدي، وبادرتُ نحوها. وبُهتَ أبي، وظنَّ أنَّه عرضَ لي عارِضٌ؛ ثم راجعني عقلي، فمسحتُ وَجْهي، ثُمَّ عُدتُ واعتذرتُ بأنَّهُ غَلبني الرُّعافُ.

واعلم أنَّ هذا داعيةُ نِفارِ المحبوبِ، وفسادٌ في التَّدبير، وضعفٌ في السِّياسة؛ وما شيءٌ من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سُنَّةٌ وطريقةٌ متىٰ تعدَّاها/ (٣٣ب) الطالبُ أو خَرُقَ[٤] في سلوكها انعكس ـ بِعَمَلِهِ ـ عليه، وكانَ كَدُّهُ عناءً،

---

(١) النَّافضُ: حمَّىٰ الرِّعدة.

(٢) لَمَّ بها: أصابه مسٌّ أو جنون بِسَبَبِها. وقال الأستاذ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ: لعلَّ الصَّواب: «فتام بها» أو: «فتيِّم بها».

(٣) كذا في الأصل، ويمكن أن تُقرأ: هواه.

(٤) خَرُق بالشَّيء ـ ككَرُمَ ـ: جَهِلَهُ. «القاموس».

وتعبُهُ هباءً، وبَحْثُهُ وباءً. وكلَّما[1] زادَ عن وجه السِّيرةِ انحرافًا، وفي تجنبها إغراقًا، وفي غير الطَّريق إيغالًا؛ ازدادَ عن بلوغِ مراده بُعْدًا. وفي ذلكَ أقولُ قطعةً منها: [من الطويل]

ولا تَسْعَ في الأمر الجَسِيم تهازُءًا ... ولا تسعَ جَهرًا في اليَسِير تُريدُهُ
وقابلْ أفانينَ الزَّمانِ متىٰ يَرِدْ ... عليكَ فإنَّ الدَّهْرَ جَمٌّ ورودُهُ
بِأَشْكالها[2] من حُسْنِ سَعيك يَكْفك الـ ... يسيرَ يسيرٌ والشديدَ شديدُهُ[3]
ألم تُبْصر المِصباحَ أوَّلَ وَقْده ... وإشعالِه؛ بالنَّفْخ يُطفا وَقُوده
وإنْ يَتَضَرَّمْ لفحُهُ ولَهِيبُهُ ... فنفخُكَ يُذْكِيه وتبدو مُدُودُه

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعرفُ من أهلِ قُرطُبَةَ، من أبناء الكُتَّاب، وجِلَّةِ الخَدَمَة من/ (٣٤أ) اسمه: أحمد بن فتح، كنتُ أعهده كثيرَ التَّصاونِ، من بُغاة العلم وطلاَّب الأدب، يبذُّ[4] أصحابه في الانقبَاضِ، ويفوقهم في الزِّعَة[5]، لا يَظْهَرُ إلا في حَلقةِ فَضْلٍ، ولا يُرىٰ إلَّا في محفلٍ مَرْضيٍّ، محمودَ المذاهب، جميلَ الطَّريقة، بائنًا بنفسه، ذاهبًا بها، ثم أبعدتِ الأقدارُ داري من داره، فأوَّلَ

---

(١) خ: وبحثه زيادة وكلفًا. والتصحيح عن (مكي) و(ع).
(٢) في الأصل: فأشكالها، والتَّصحيح عن (ع)؛ وقال: بأشكالها: متعلِّقة بالفعل: «وقابل» أي: وقابل أفانين الزمان بأشكالها.
(٣) في الأصل: اليسير بغير والشريد شريده. والتَّصحيح عن (ع)؛ وقال: هذا الشطر شديد التصحيف في معظم الطبعات: والمعنى أنك إذا قابلت أفانين الزمان بأشكالها، فإن اليسير من حسن سعيك يواجه اليسير من أفانين الزمان، والشديد يقف في وجه الشديد من أفانينه.
(٤) تقرأ في الأصل: يبزُّ.
(٥) في الأصل: ويفوت في الدِّعة. والتَّصحيح من (ع)، إذ الزِّعة تقارن الانقباض.

خَبرٍ طرأَ عليَّ بعد إطاءَتي شاطبةَ أنه خلع عِذارَهُ في حبِّ فتىً من أبناء الفتَّانينَ[1] يسمَّىٰ إبراهيمَ بنَ أحمدٍ ـ أعرفه؛ لا تستأهِلُ صفاته محبَّةً[2] مَنْ بيتُه خيرٌ وخَدَمٌ وأموالٌ عريضةٌ ووفرٌ تالِدٌ ـ وصحَّ عندي أنَّه كشَفَ رأسه، وأبدىٰ وجهه، ورَمىٰ رَسَنه، وحَسَر مُحيَّاه، وشمَّر عن ذراعيه، وصَمَدَ صَمْدَ الشَّهْوةِ، فصار حديثًا للسُّمَّار، ومدافَعًا[3] بين نَقَلة الأخبار، وتُهوديَ ذِكرُهُ في الأقطار، وجرت نقلته في الأرض راحلةً بالتَّعَجُّبِ، ولم يحصل من ذلك إلَّا علىٰ كشف الغِطَاء، وإذاعةِ السِّرِّ، وشُنعةِ الحديثِ، وقُبْحِ الأُحْدُوثَة، وشرُوُد محبوبهِ عنه جملةً، والتَّحْظِيرُ عليه من رؤيته البتَّةَ، وكانَ غَنِيًّا عن ذلكَ، وبمندوحةٍ واسعةٍ، ومَعْزِلٍ رَحْبٍ عنه، ولو طوىٰ مكنونَ سِرِّهِ،/ وأخفىٰ (٣٤ب) بَلِيَّاتِ[4] ضَميره؛ لاستدامَ لباسَ العافية، ولم يُنْهِجْ بُرْدَ الصِّيانة[5]، ولكانَ له في لقاء من بُلي به، ومحادثته، ومجالسته؛ أَمَلٌ من الآمال، وتعلّلٌ كافٍ، وإنَّ حَبْلَ العُذْرِ لَيُقْطَعُ به، والحُجّةُ عليه قائمةٌ؛ إلا أن يكونَ مختلطًا في تمييزه، أو مصابًا في عقله بجليل ما فدَحه، فربَّما آلَ ذلكَ لعُذْرٍ صَحيحٍ، وأمَّا إنْ كانتْ بقيةٌ، أو تَبيتُ مُسكةٍ[6]؛ فهو ظالمٌ في تعرّضِهِ ما يعلم أنَّ محبوبَهُ يكرهُهُ، ويتأذَّى به.

---

(١) جمع الفتَّان؛ وهو الصَّائغ.

(٢) خ: المحبَّة.

(٣) هكذا في الأصل، وضبطها النَّاسخ بكسر الفاء. وقرأها برشيه: مضاغة. وقال العلامة محمود شاكر: وهي قراءة جيدة جدًا.

(٤) جعلها (ع): بُنَيَّات.

(٥) ضُبِطت في الأصل هكذا: يَنْهَجْ بِرَدُّ الصيانة.

(٦) هكذا في الأصل، لكن: (ثبيتُ) تصحَّفت إلىٰ: (ثبتت)، وجعلها (ع) في طبعته الأولىٰ: (له بقية [من عقل] أو ثبتت ثبيتُ مُسكةٍ....)، وأسقط ما بين المعقوفتين من طبعته الثانية، لكنه أبقىٰ (له) و(ثبتت). وقال العلامة محمود شاكر =

هذا غيرُ صِفَةِ أهلِ الحُبِّ، وسيأتي هذا مُفَسَّرًا في باب الطَّاعة، إنْ شاء الله تعالىٰ.

ومن أسباب الكشف وَجْهٌ ثالثٌ، وهو عند أهلِ العقول وجهٌ مرذولٌ وفعلٌ ساقط؛ وذلك: أن يرىٰ المُحِبُّ من محبوبه غَدْرًا أو مَلَلًا أو كراهةً؛ فلا يجدُ طريقَ الانتصاف منه إلا بما ضررُهُ عليه أعودُ منه علىٰ المقصودِ من/ الكَشْفِ والاشْتِهارِ، وهذا أشدُّ العار، وأقبحُ الشَّنار، وأقوىٰ شواهدِ[1] (٣٥أ) عدم العقل، ووجودُ السُّخْفِ.

وربَّما كانَ الكَشْفُ من حديثٍ يَنتشر، وأقاويلَ تَفْشو؛ تُوافِقُ[2] قلَّةَ مبالاةٍ من المُحِبِّ بذلك، ورضيً بظُهور سِرِّه، إمَّا لإعجابٍ، أو لاستظهارٍ علىٰ بعض ما يؤمله؛ وقد رأيتُ هذا الفعلَ لبعض إخواني من أبناء القوَّاد.

وقرأتُ في بعضِ أخبار الأعراب أنَّ نساءهم لا يُقْنِعُهُنَّ[3] ولا يُصَدِّقْنَ عِشْقَ عاشقٍ لهنَّ حتَّىٰ يشتهرَ؛ ويَكْشِفَ حُبَّهَ، ويُجَاهِرَ، ويُعْلِنَ، وينوِّهَ بذكرهنَّ. ولا أدري ما معنىٰ هذا، علىٰ أنه يُذْكَرُ عنهنَّ العفافُ، وأيُّ عفافٍ مع امرأةٍ؛ إذ أقصىٰ مُناها وسرورها الشُّهْرةُ في هذا المعنىٰ؟!

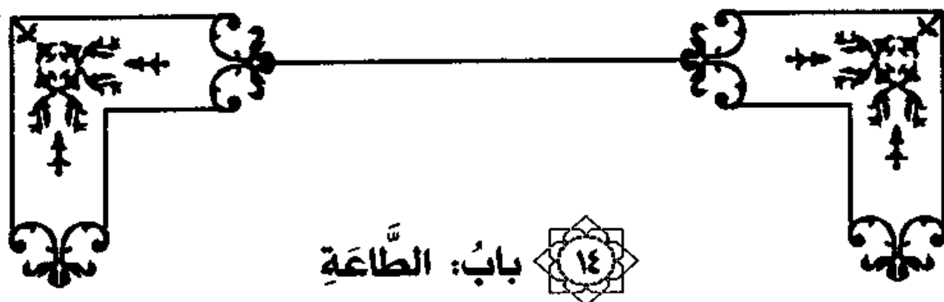


= ـ رحمه الله ـ: لا معنى لزيادة «من عقل»، يقال: في فلان بقية، وفي كتاب الله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾ [هود: ١١٦]؛ أي فهم وحسن نظر؛ ويكون الذي بعده «أو تَبيت مُسْكةٍ» هكذا الصواب إن شاء الله.

(١) خ: بشواهد.

(٢) خ: وتوافق.

(٣) أثبته (ع) وغيره: (يَقْنَعْنَ).



(١٤) بابُ: الطَّاعَةِ

ومن عجيب ما يقعُ في الحبِّ طاعةُ المحبِّ لمحبوبه، وصرفُه طباعَه قَسْرًا إلىٰ طباع من يُحِبُّهُ. وربَّما يكونُ المرءُ شَرِسَ الخُلُقِ، صَعْبَ الشَّكيمة،/ (٣٥ب) جَموحَ القيادِ، ماضيَ العزيمة، حَمِيَّ الأنف، أَبيَّ الخَسْفِ، فما هو إلا أن يتنسَّمَ نسيمَ الحُبِّ، ويتورَّطَ غَمْرَهُ، ويعومَ في بحره؛ فتعودَ[1] الشَّراسةُ ليانًا، والصعوبةُ سهالةً[2]، والمضاءُ كلالةً، والحمية استسلامًا.
وفي ذلك أقولُ قطعةً منها: [من المتقارب]

فهل للوصالِ إلينا مَعادٌ ... وهل لتصاريفِ ذا الدَّهر حَدْ
فقد أصبحَ السَّيْفُ عبدَ القَضِيبِ ... وأضحىٰ الغزالُ الأسيرُ أسَدْ[3]

وأقولُ شعرًا منه: [من الطويل]

وإنِّي وإن تعتبْ لأهونُ هالِكٍ ... كَزَائِفِ نَقْدٍ ذَلَّ في يَدِ جِهْبَذِ[4]

(١) خ: عادت.
(٢) خ: سهلة.
(٣) بالإسكان، علىٰ لغة ربيعة في اللفظ المنوَّن المنصوب، ولا يعدُّ ضرورةً.
(٤) هذه قراءة (ع)، وفي الأصل: «كذايب نقر ذل من يد جهبد». وقال (ع): ويضعف من الأخذ بهذا المعنىٰ (يعني الذي في الأصل) أن الجهبذ صيرفيٌّ للدنانير والدراهم، فهو يميِّز خالصها من زائفها، ولذلك أرجِّحُ القراءة التي أثبتها. =

عـلـىٰ أنَّ قـتْـلـي فـي هـواكَ لـذاذةٌ   فـيـا عَـجَـبًـا مـن هـالـكٍ مـتـلـذِّذِ

ومنها:

ولـو أبـصـرتْ أنـوارَ وجـهـكَ فـارسٌ   لأغـنـاهـمُ عـن هُـرْمـزانَ ومُـوبَـذِ[1]

وربَّما كانَ المحبوبُ كارهًا لإظهار الشَّكْوىٰ متبرِّمًا بسماع الوَجْدِ، فترىٰ المُحبَّ حينئذٍ يكتمُ حزنَهُ، ويكظِمُ أسفه، ويَنطوي علىٰ علّته، وإنَّ/ (٣٦أ) الحبيبَ مُتَجَنٍّ، فعندها يقعُ الاعتذارُ عن[2] كلّ ذَنْبٍ، والإِقرارُ بالجريمة، والمرءُ منها بريءٌ، تسليمًا لقوله وتركًا لمخالفته. وإنِّي لأعرفُ من دُهي بمثلِ هذا، فما كانَ ينفكّ من توجيه الذُّنُوبِ نحوه؛ ولا ذنب له، وإيقاعِ العتاب عليه والسَّخَطِ؛ وهو نقيُّ الجِلْد.

وأقولُ شعرًا إلىٰ بعض إخواني، وَيقْرُبُ ممَّا نحن فيه، وإن لم يكن منه[3]: [من الطويل]

وقـد كـنـتَ تَـلْـقـانـي بـوجـهٍ لـقُـربـهِ   تـدانٍ[4] وللهجرانِ عن قُربه سُخْطُ

= وأثبته القاسميُّ: «كزائف نقر زلَّ من يد جهبذ»، وقال: نُقر ـ بضم الأول ـ: جمع نقرة، وهي القطعة الذائبة من الذهب والفضة.
وقال الحربيُّ: لعلَّه: «كذائب نقدٍ زَلَّ»؛ لأن النُّقرة من الذهب جمعها: «نِقار» لا نُقر، غير أن المعنىٰ لا يناسب المشبه، وهو: «أهون هالك». ولهذا نرجِّح قراءة (ع).

(١) الهُرْمُزان، والهُرْمُز، والهارموز: الكبير من ملوك العجم. والمُوبَذُ للمجوس كالقاضي للمسلمين. وكأنَّ ابن حزم ـ رحمه الله ـ يشير إلى متابعة المجوس لملوكهم وعلمائهم في الاعتقاد بأن النُّور مصدر الخير؛ فكيف لو رأوا نور وجهها!! نعم: في هذا المعنىٰ بُعْدٌ، والبيت من طرائف أبي محمَّد ـ رحمه الله ـ.

(٢) خ: عند.

(٣) خ: وإن لم يكن شعرًا منه.

(٤) جعلها (ع): تراضٍ.

وما تكرهُ العَتْبَ اليسيرَ سَجِيَّتي ... علىٰ أنَّه قد عِيبَ في الشَّعَر الوخْطُ[1]
فقد يُتعب الإنسانُ في الفِكْرِ نفسَهُ ... وقد يَحسُن الخِيلانُ في الوَجه والنَّقْطُ
تَزين إذا قلَّتْ ويَفْحُشُ أمرها ... إذا أَفرطَتْ يومًا وهل يُحمدُ الفَرْطُ

ومنه:

أعِنْه فقد أضحىٰ لفرْط هُمُومِهِ ... يُبَكِّي له[2] القِرْطاسُ والحِبرُ و الخَطّ

(٣٦ب) ولا يقولَنَّ قائلٌ إنَّ صبرَ المحبِّ علىٰ ذِلَّةِ المحبوبِ دَناءةٌ في النَّفْسِ/ فهذا خطأ، وقد علمنا أنَّ المحبوبَ ليسَ له كُفْؤًا ولا نظيرًا فيقارَضُ بأذاه، وليس سَبُّهُ وجفاه ممَّا يُعَيَّرُ به الإنسانُ، ولا [مِمَّا] يبقىٰ ذكره علىٰ الأحقاب، ولا يقع ذلكَ في مجالسِ الخلفاء، ولا في مقاعد الرؤساء، فيكون الصَّبْرُ مستجِرَّةً[3] للمَذَلَّةِ، والضَّراعةُ[4] قائِدَهُ[5] للاستهانة؛ فقد ترىٰ الإنسانَ يَكْلَفُ بأمته التي يملكُ رقَّها، ولا يحول حائلٌ بينه وبين التعدّي عليها، فكيفَ الانتصارُ[6] منها. وسُبُلُ الامتعاضِ من السَّبَبِ[7] غير هذه،

---

(١) مخالطة البياض للسَّواد، وخَطَه الشيبُ، كوعده. (الحربي)
(٢) في الأصل: إذ. والتَّصحيح عن (ع).
(٣) هذه قراءة (ع)، وقراءة بروكلمان وبرشيه: (تبكي له)، وفي الأصل: (يبكي إذ)، وضبطه بتروف: (يُبَكِّي إذ). وقال القاسميُّ: في الطبعات السابقة «إذ» أو: «إذا»، ولا يتمُّ بهما الوزنُ والمعنىٰ، وفي الأصل: «إذا».
قلت: بل في الأصل المخطوط بدون ألف، واختار هو: «له». وقال السامرائي: يظهر لي أن القراءة الصحيحة هي: «تشكَّى له القرطاسُ والحبرُ والخطُّ»، وهذا يعني أنه حتىٰ الورقة والحبر والكتابة تشعر بالأسىٰ من أجله، كيف لا وهو يستخدمها للتعبير عن مشاعره!
(٤) في الأصل: وضراعة.
(٥) كذا في الأصل بالهاء، وقرأها بتروف: قائدةً.
(٦) جعلها (ع): الانتصافُ.
(٧) جعلها (ع): السَّبِّ.

إنَّما ذلك بين عِلية الرِّجال الذين تُحْصَىٰ[1] أنفاسهم، وتُتَّبَعُ معاني كلامهم، فتُوَجَّه لها الوجوه البعيدة، لأنَّهم لا يُوقعونها سدىً، ولا يُلقونها هملًا، وأما المحبوبُ فصَعْدةٌ ثابتةٌ، وقضيبٌ مُنآدٌ، يَجْفوُ ويرضَىٰ متى شاءَ لا لمعنىً؛ وفي ذلكَ أقول: [من الكامل]

لَيسَ التذلُّلُ في الهوىٰ يُستنكَرُ ... فالحُبُّ فيه يخضَعُ المُسْتَكْبِر

لا تعجَبوا من ذِلَّتي في حالةٍ ... قد ذلَّ فيها قبليَ المُسْتَبْصِر[2]

/ليسَ الحبيبُ مماثلًا ومُكافيًا ... فيكونَ صبرُكَ ذِلَّة إذْ تَصْبِر (٣٧أ)

تُفاحةٌ وَقَعَتْ فآلَم وَقْعُها ... هل قطْعُها منك انتصارًا يُذكر

خَبَرٌ:

وحدَّثني أبو دُلَفٍ الورَّاقُ عن مَسلمةَ بنِ أحمدٍ الفيلسوفِ المعروفِ بالمِرْجيطيِّ[3]: أنَّه قالَ ـ في المسجد الَّذي بِشَرْقي مقبرةِ قريشٍ بقُرْطُبةَ، الموازي لدار الوزير أبي عمرٍ أحمدِ بنِ محمَّدِ بنِ حُدَيْرٍ[4]؛ رحمه الله ـ:

---

(١) خ: تحصل. والتصحيح من (مكي) و(ع).

(٢) واضحة في الأصل، وجعلها برشية: (المستنصر)، قال (ع): ولا بدَّ أن تكون موجهة إلىٰ شخص بعينه حينئذٍ، وهو هنا المستنصر الأموي ابن الناصر، وهذا على سبيل المبالغة في القياس، وإلا فليس لدينا من الأخبار ما يؤكِّد أن المستنصر ذلَّ في الحب. والصواب: (المستَبصر)؛ (كما قال العلامة محمود شاكر رحمه الله).

(٣) سقط في الأصل ياء النسبة، وترد هذه النسبة هكذا في ترجمة المذكور في «الصلة» لابن بشكوال (١٣٨٢)، وفي موضع آخر منه (٢٩٦)، وفي «التكملة لكتاب الصلة» ١/ ١٧٠ و٣٠٩ و٣/ ١٥٠، و«تاريخ الإسلام» ٢٩/ ١٧٣ و٣٠/ ١٦٧ و٤٥٠. والأشهر ـ وهو الصحيح ـ: المِجْريطي، فمولده ووفاته في مجريط: مدريد، وهو: أبو القاسم الأندلسي (ت: ٣٩٨)، كان إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم، ومن أبرز علماء الكيمياء. من كتبه: «غاية الحكيم» و«رسالة الاسطرلاب» ترجما إلى اللاتينية، وغير ذلك. مترجم في «طبقات الأمم» ٦٩، و«طبقات الأطباء» ٢/ ٣٩، و«إخبار الحكماء» ٢٤٤، و«الإعلام» ٧/ ٢٤٤.

(٤) أحمد بن محمد بن سعيد بن موسى بن حُدَير، أبو عمر (٢٥٥ ـ ٣٢٧هـ) قرطبي، =

في هذا المَسْجِدِ كانَ مَرْبَضُ[1] مقدّمِ بنِ الأصْفَر أيّام حداثته؛ لعِشْقِهِ بعَجِيبٍ ـ فتىٰ الوزير أبي عمرٍ المذكور ـ وكانَ يتركُ الصَّلاةَ في مسجد مسرورٍ ـ وبها كانَ[2] سكناه ـ ويقصدُ في اللَّيل والنَّهار إلىٰ هذا المسجد بسببِ عجيبٍ، حتَّى أخذَهُ الحَرَسُ غيرَ ما مرَّةٍ في اللَّيل في حين انصرَافه عن صلاة العشاء الآخرة، وكانَ يَقْعُدُ وينظر منه إلىٰ أن كان الفتىٰ يَغْضَبُ، ويَضْجَرُ، ويقومُ إليه فيُوجعه ضَرْبًا، ويلطمُ خَدَّيه وعينَيْه، فَيُسَرُّ بذلكَ، ويقول: هذا والله أقصىٰ أمنيتي، والآنَ قرَّتْ عيني! وكانَ علىٰ هذا زمانًا يماشيه./ (٣٧ب)

قال أبو دُلَفٍ: ولقد حدّثنا مسلمةُ بهذا الحديثِ غيرَ مَرَّةٍ بحضرة عجيبٍ عندما كان يَرىٰ[3] من وجاهة مقدَّمِ بن الأصفر، وَعَرْضِ جاهه وعافيته، فكانتْ حالُ مُقَدَّم بن الأصفر هذا قد جلَّت جدًا واختصَّ بالمظفَّر بن أبي عامر اختصاصًا شديدًا واتَّصَلَ بوالدته وأهله، وجرىٰ علىٰ

= وَلِيَ خِطَّة الوزارة، وأحكام المظالم، وكان صلبًا في أحكامه مهيبًا، حج سنة (٢٧٥). وهو أخو موسى الحاجب (الذي ولد ٢٥٦)؛ أيام الأمير عبد الله، وولاه المدينة سنة (٢٨٧)، ولأحمد ولد اسمه: سعيد وكنيته أبو عثمان (ابن الفرضي: ٤٩/١)، وذكر ابن حزم أن أحمد بن موسى بن حدير صاحب السِّكَّة؛ كان من شيوخ المعتزلة، وبينه وبين منذر بن سعيد البلُّوطي (سيجيء التعريف به) مراسلات (الفصل: ٢٠٢/٤ ـ ٢٠٣)، وهناك منهم: عبد الرحمٰن بن موسى بن محمد بن حدير، توفي سنة (٣٦٩) (ابن الفرضي: ٣٠٧/١)، وأحمد بن محمد بن حدير؛ وكان خازن العسكر زمن المستنصر (المقتبس: ٢١٠)، ومن بني حدير: موسى بن محمد بن حدير المعروف بالزاهد، وكان أخباريًا، ممتعًا، حافظًا لأخبار بني أمية، ويذاكر الأمير عبد الله بذلك (المقتبس: ٤٥/٤٤، نشر أنطونية). (ع).

(١) في الأصل: مريض. والتَّصحيح عن برشيه، وتابعه (ع)؛ وقال: وهي الصَّواب، إذ القرينة تدل علىٰ أنه كان يلزم المسجد لرؤية عجيب.

(٢) لعل الصَّواب: وبه كانت، كما قرأ برشيه.

(٣) جعلها برشيه: يبرم!

يديه من بنيانِ المساجدِ والسِّقاياتِ، وتسبيل وجوهِ الخير غيرُ قليل، مع تصرُّفه في كلِّ ما يتصرَّفُ فيه أصحابُ السُّلْطانِ من العناية بالناس، وغير ذلك.

خَبَرٌ:

وأشنعُ من هذا أنَّه كانتْ لسعيدِ بن مُنذِرِ بن سعيد[1] ـ صاحبِ الصَّلاةِ في جامع قرطبة أيامَ الحكم[2] المستنصر بالله؛ رحمه الله ـ جاريَةٌ يُحِبُّها حبًّا شديدًا، فعرض عليها أَن يُعتقها ويتزوَّجها، فقالت له ساخِرَةً به ـ وكان عظيمَ اللِّحْية ـ: إنَّ لِحْيَتَكَ أستبشعُ عِظَمَها، فإن حَذَفْتَ منها كان ما ترغبه. فأعملَ الجَلَمَيْنِ[3] فيها حتَّى لَطُفَتْ، ثم دعا بجماعةٍ شهودٍ وأشهدهم علىٰ عتقها، ثم خطبها إلىٰ نفسه فلم تَرْضَ به، وكانَ في جملة

(١) كان منذر بن سعيد البلوطي من أبرز فقهاء عصره، ويميل إلى مذهب الظاهر، وتولّىٰ قضاء الجماعة بقرطبة، وله كتب كثيرة في الفقه والقرآن والردّ، وتوفي سنة **٣٥٥** (ابن الفرضي **٢**:**١٤٢** والجذوة: **٣٢٦** والبغية رقم: **١٣٥٧**) ومن أبنائه: سعيد أبو عثمان وكان خطيبًا بليغًا ذكيًّا نبيهًا، قتل ـ كما يقول ابن حزم ـ يوم تغلّب البرابرة على قرطبة، ٦ شوال **٤٠٣** (الصلة: **٢٠٨**) ومنهم حكم أبو العاصي وكان من أهل الأدب والذكاء، قديرًا في الأدب، توفي بمدينة سالم في نحو **٤٢٠**هـ (الصلة: **١٤٦**)؛ وثالث الأبناء هو عبد الملك أبو مروان، وَلِيَ خطة الردّ ثم لحقته التهمة التي يشير إليها ابن حزم فصُلب على باب سدّة السلطان (وهو الباب الرئيسي لقصر الخلافة بقرطبة) سنة **٣٦٨** وهو في حدود الأربعين من عمره (ابن الفرضي **١**:**٣١٧** والحلة السيرة **١**: **٢٧٩** ـ **٢٨٠**) (ع).

(٢) خ: الحاكم. والصَّواب ما أثبته، وهو: الحكم بن النَّاصر لدين الله عبد الرحمٰن بن محمَّد الأُمويّ؛ صاحب الأندلس وابن ملوكها. مات سنة (**٣٦٦**هـ) رحمه الله.

(٣) الجلمان: المقراضان، واحدهما: جَلَم؛ للذي يُجزُّ به الشَّعر والصُّوف، والجلمان شفرتاه.

من حَضَر أخوه حَكَم بن مُنذر فقال لمن حَضَرَ: اعرض عليها أنِّي أخطبها أنا. ففعلَ/ فأجابتْ إليه، فتزوَّجَها في ذلك المجلس بعينه، ورضيَ بهذا العار الفادح علىٰ وَرَعه ونُسْكِهِ واجتهاده. (٣٨أ)

وأنا أدركتُ سعيدًا هذا؛ وقَتَلَهُ البربرُ يومَ دخولهم قرطبة عَنوةً؛ وانتهابِهِم إياها، وحكم ـ المذكور ـ أخوه هو رأسُ المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلِّمهم وناسِكُهم، وهو مع ذلكَ شاعرٌ، طبيبٌ، وفقيه. وكانَ أخوه عبد الملك بن مُنذر متَّهَمًا بهذا المذهب ـ أيضًا ـ، وَلِيَ خُطَّةَ الرَّدِّ أيامَ الحكم رضي الله عنه، وهو الذي صَلبه المنصورُ ابنُ أبي عامرٍ إذ اتَّهمه هو وجماعةٌ من الفقهاء والقضاة بقرطبة أنهم يُبايعون سِرًّا لعبد الرحمٰن بن عبيدالله بن أمير المؤمنين الناصر رضي الله عنهم، فقَتَلَ عبد الرحمٰن وصَلَبَ عبد الملك بن منذر، وبدَّد شمل جميع من اتُّهِمَ، وكانَ أبوهم قاضيَ القضاةِ منذر بن سعيد متَّهمًا بمذهب الاعتزال ـ أيضًا ـ، وكان أخطبَ النَّاسِ وأعلمهم بكلِّ فنٍّ، وأورعهم وأكثرهم هزلًا ودُعابة. وحَكم ـ المذكور ـ في الحياةِ في حين كتابتي إليكَ بهذه الرِّسالة، قد كُفَّ بصره، وأسنَّ جدًا./ (٣٨ب)

خَبَرٌ:

ومن عجيبِ طاعةِ المُحبِّ لمحبوبه أنِّي أعرفُ من كانَ سَهرَ اللياليَ الكثيرةَ، ولقيَ الجهدَ الجاهِدَ، فقطَّعَتْ قلبَهُ ضروبُ الوَجْدِ؛ ثمَّ ظفر بمن يُحبُّ وليس به امتناعٌ ولا عنده دَفْعٌ، فحينَ رأىٰ منه بعضَ الكراهة لَما نواه تركه وانصرف عنه؛ لا تعفُّفًا ولا تخوُّفًا لكن توقُّفًا عند مُوافقته رضاه، ولم يجدْ من نفسه مُعينًا علىٰ إتيان ما لم يَرَ له إليه نشاطًا وهو يَجِدُ ما يجد.

وإنِّي لأعرفُ مَنْ فَعَلَ هذا الفعلَ ثُمَّ تندَّمَ لعذر[1] ظهرَ من المحبوب؛ فقلتُ في ذلك: [من الرمل]

غافِصِ[2] الفُرْصةَ واعْلم أنَّها كمُضيِّ البرقِ تمْضي الفُرَصُ
كم أمورٍ أَمْكَنَتْ أُمْهِلُهَا[3] هي عندي إذ تولَّتْ غُصَصُ
بادرِ الكَنْزَ الَّذي ألفيتَهُ وانْتِهِزْ صَيْدًا كبَازٍ يَقْتَنِصُ

ولقد عرض مثلُ هذا بعينه لأبي المطرِّف[4] عبدِالرحمٰن بن أحمدَ بن/ (٣٩أ) محمودٍ ـ صديقنا ـ، وأنشدته أبياتًا لي فطارَ بها كلَّ مطارٍ، وأخذها منِّي فكانت هِجِّيراهُ.

خَبَرٌ:

ولقد سألني يومًا أبو عبدِالله محمَّدُ بنُ كُلَيْبٍ ـ من أهل القيروان؛ أيامَ كوني بالمدينة[5]، وكانَ طويلَ اللِّسان جدًا، مثقفًا للسؤال في كلِّ فنّ

---

(١) تقرأ في الأصل: تعذر. وهكذا أثبتها بتروف.
(٢) المغافصة: المفاجأة والأخذ على غرَّةٍ. (الحربي)
(٣) عند (ع): أُهْمِلُها.
(٤) خ: المظفَّر. والتصويب من: «جذوة المقتبس» ٢٥١، وهو: أبو المطرِّف عبد الرحمٰن بن أحمد بن بشر، قاضي الجماعة بقرطبة. ولكن لفظة: «محمود» لا ترد في نسبه.
(٥) المدينة: واضحة في الأصل، وليس المقصود بها مدينة القيروان، فإن ابن حزم لم يخرج ـ قطُّ ـ من الأندلس، وإنَّما تدلُّ هذه الكلمة إذا أطلقت في استعمال القرطبيين على: «الحي القديم» من قرطبة، وهو: «المدينة العتيقة»، وابن حزم لم يسكنها، بل سكن في ضواحي قرطبة، فلعله أقام فيها مدَّة؛ كما يدل عليه قوله: «أيام كوني..». وذهب بروفنسال ـ وتبعه د. طه الحاجري في «ابن حزم: صورة أندلسية»، ود. أحمد مكي في تحقيقه لهذا الكتاب وفي «دراسات عن ابن حزم» ص ٩ إلى أن الصَّواب في تقويم النصِّ هو: «المرية»، لأنها أقرب الألفاظ رسمًا إلى كلمة المدينة، وقد=

ـ فقال لي، وقد جرىٰ بعضُ ذكر الحبِّ ومعانيه[1]: إذا كره من أُحبُّ لقائي وتجنّبَ[2] قُرْبي فما أصنع؟

قلتُ: أرىٰ أنْ تسعىٰ في إدخال الرَّوْح علىٰ نفسك بلقائه وإنْ كَرِهَ.

فقالَ لي: لكنِّي لا أرىٰ ذلكَ، بل أوثر هواه علىٰ هواي، ومُرادَهُ علىٰ مُرادي، وأَصبرُ، وأصبرُ؛ ولو كانَ في ذلك الحَتْفُ.

فقلتُ له: إنِّي إنَّما أحببته لنفسي، ولالْتِذاذها بصُورَتِهِ، فأنا أتَّبِعُ قياسي، وأَقُودُ أصلي، وأقْفُو طريقتي في الرَّغبة في سرورها.

فقالَ لي: هذا ظلمٌ من القياس، أشدُّ من الموت ما تُمُنِّيَ له الموت، وأعزُّ من النَّفْسِ ما بُذِلَتْ له النَّفْسُ.

فقلتُ له: إنَّ بَذْلَكَ نفسك لم يكنْ اختيارًا بل كانَ اضطرارًا، ولو أمكنَكَ ألا تبذُلَها لمَا بذَلْتَها، وتركُكَ لقاءَهُ اختيارًا منكَ أنتَ فيه مَلُومٌ لإِضرارِكَ بنفسكَ وإدخالِكَ الحَتْفَ[3] عليها.

(٣٩ب) فقالَ لي: أنتَ رَجُلٌ جدليٌّ ولا جَدَلَ في الحُبِّ يُلْتَفَتُ [إليه]. /

= سكنها ابن حزم، ولم يسكن الحي القديم من قرطبة (أي: المدينة) أبدًا. قلت: لا تلازم بين الكينونة فيها وبين سكنها، والنص بالأمر الأول لا يدل ولا يلزم منه الأمر الثاني. فالأولى إبقاء النصّ كما ورد مع ذكر القراءة الأخرى في التعليق.

(١) هذه صورة ممتعة تشير إلىٰ تحوُّل القضايا العاطفية إلىٰ مستوىٰ الجدل العقلي (ع).

(٢) خ: وتجَنَّبتْ.

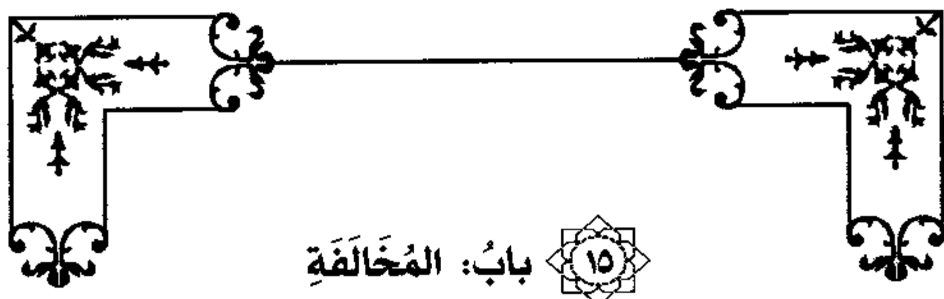
(٣) قرأها العلامة محمود شاكر: وتركك لقاءَه اختيارٌ... وإدخالك الحَيْفَ عليها.

فقلتُ له: إذا كانَ صاحبه مَؤوفًا[1]؟

فقالَ: وأيُّ آفةٍ أعظمُ من الحبِّ!



(١) المَؤُوف: من أصابته عاهةٌ، أو عَرَضٌ مُفْسِدٌ له.

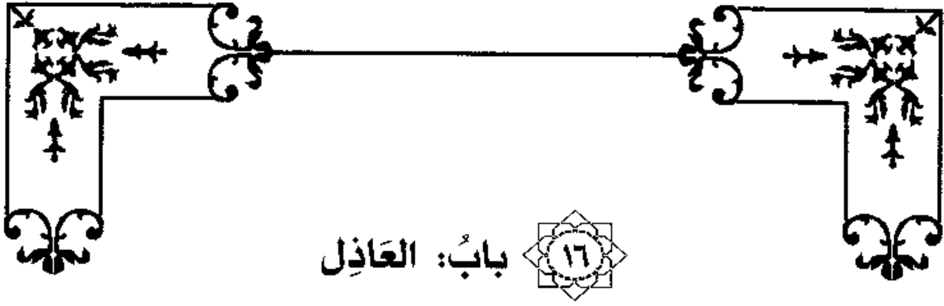


١٥ بابُ: المُخَالَفَةِ

وربَّما اتَّبَعَ المُحِبُّ شهوتَه، ورَكِبَ رأسَهُ؛ فَبَلَغَ شِفاءَهُ من مَحْبُوبه، وتعمَّدَ مَسَرَّتَهُ منه علىٰ كلِّ الوجوه، سَخِطَ أو رضي. ومَن ساعده الوقتُ علىٰ هذا، وثبتَ جَنانُهُ، وأُتيِحَتْ له الأقدار؛ استوفىٰ لذَّتَهُ جميعَها، وذهبَ غَمُّهُ، وانقطع هَمُّهُ، ورأىٰ أمَلَهُ، وبَلَغَ مرغُوبَهُ. وقد رأيتُ مَن هذه صفتُه. وفي ذلك أقولُ أبياتًا منها: [من السريع]

إذا أنَا بَلَّغْتُ نفسي المُنىٰ ... مِن رشإٍ ما زالَ لي مُمْرِضا
فما أُبالي الكُرْهَ من طَاعَةٍ ... ولا أُبالي سَخَطًا من رِضىٰ
إذا وجدتُ الماءَ لا بُدَّ أنْ ... أُطْفي به مُشْعَلَ جَمْرِ الغَضا





١٦ بابُ: العَاذِل

وللحُبِّ آفاتٌ:

فأوَّلها: العاذلُ. والعذَّالُ أقسامٌ:

ـ فأصْلُهُمْ[١] صَدِيقٌ قد أَسْقَطْتَ مؤونة[٢] التحَفُّظِ بينكَ وبينه، فعَذْلُه/ (٤٠أ) أفضلُ من كثير المساعدات، وهو بَيْنَ الحَضِّ[٣] والنَّهي، وفي ذلكَ زاجرٌ للنَّفْسِ عجيبٌ، وتقويةٌ لطيفةٌ لها غَوْصٌ وعَمَلٌ، ودواءٌ تَسْتَدُّ عليهِ الشَّهوةُ[٤]، ولا سيما إن كانَ رفيقًا في قوله، حَسَنَ التوصُّل إلىٰ ما يُورِدُ من المعاني بلُطْفِه[٥]، عالمًا بالأوقات الَّتي يُؤكِّد فيها النَّهي، وبِالأحيان

---

(١) كذا في الأصل، وهكذا أثبتها بتروف، وجعلها (ع): فأوَّلُهم. وعند (مكي): فأفضلهم.

(٢) في الأصل: مؤونته. وما أثبته فقراءة العلامة محمود شاكر.

(٣) الحضُّ: الحثُّ والتَّشْجيع. وفي الأصل: وهي من الحظ؛ وهو خطأ. والتَّصحيح عن العلامة شاكر.

(٤) هذه العبارة في الأصل: وتقوية لطيفة لها عرض وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة. وفي قراءة برشيه: وتقوية لطيفة لما مرض وعلى ودواء لمن تشتدّ عليه الشهوة. وحسب القراءة التي اقترحها يكون معنى العبارة: إن عذل الصديق تقوية لطبيعة قد أنهكها الدنف وغلب عليها الفساد (العمل) وهذا العذل نفسه تستد (من السداد أي تصلح) عليه الشهوة ويعتدل حالها (ع).

(٥) خ: حسن التَّواصل إلى ما يُراد من المعاني بلفظه. وما أثبته فقراءة (ع). وأقرَّه العلامة شاكر غير أنه قرأ: (ما يورد): (ما يوردُهُ).

الَّتي يزيدُ فيها الأَمْر، والسَّاعاتِ التي يكونُ فيها واقفًا[1] بين هَذَيْنِ، علىٰ قَدْرِ ما يرىٰ من تَسَهُّلِ العاشق وتوعُّرِهِ، وَقَبوله وَعِصْيَانِهِ.

ـ ثمَّ عاذِلٌ زاجرٌ لا يفيقُ أبدًا من المَلامة، وذلكَ خَطْبٌ شَدِيدٌ، وعِبْءٌ ثقيلٌ. ووقَع لي مثلُ هذا ـ وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنَّه يُشبهه ـ وذلكَ أنَّ أبا السَّرِيِّ عمَّارَ بنَ زيادٍ ـ صديقَنا ـ أكثرَ من عَذْلي علىٰ نحوِ نَحَوْتُهُ، وأعانَ عليَّ بعضَ من لامني في ذلك الوجه ـ أيضًا ـ، وكنتُ أظنُّ أنَّه سيكونُ معي؛ مُخطئًا كنتُ أو مصيبًا، لوكِيدِ صداقتي معه، وصحيحِ أخوّتي به.

ولقد رأيتُ من اشتدَّ وَجْدُهُ، وَعَظُم كَلَفُهُ حتَّى كانَ العَذْلُ أحبَّ شيءٍ إليه، ليُرِي العاذلَ عصيانَهُ، ويستلِذَّ مخالفَتَهُ، ويحصِّل مقاومته لِلائِمِهِ[2]/ (٤٠ب) وغلبته أيَّاهُ، كالمَلِكِ الهازم لعدوِّه، والمجادل الماهِر الغالبِ لخَصْمه، ويُسَرُّ بما يقعُ منه في ذلكَ، وربَّما كانَ ـ بهذا ـ المستجلبَ لعذل العاذلِ بأشياءَ يوردها توجب ابتداءَ العَذْلِ، وفي ذلكَ أقولُ أبياتًا منها: [من البسيط]

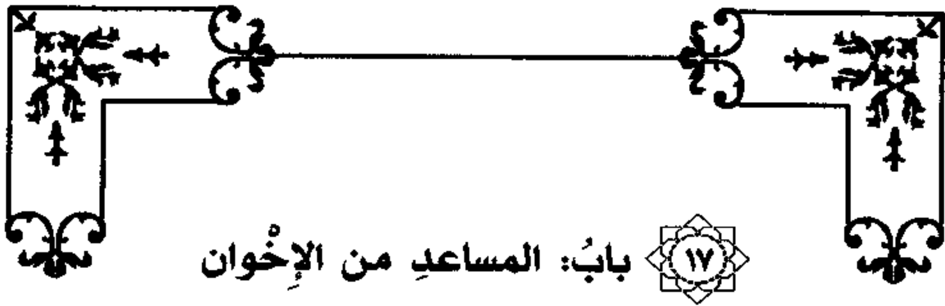
أحبُّ شيءٍ إليَّ اللَّوْمُ والعَذَلُ ... كي أسمعَ اسم الَّذي ذِكْراهُ لي أمَلُ
كأنَّني شاربٌ بالعَذْلِ صَافِيةً ... وباسمَ مَوْلايَ بعدَ الشُّرب أَنْتَقِلُ[3]



(١) خ: وقفًا.

(٢) هذه قراءة برشيه، وفي الأصل: اللائمة.

(٣) انتقل: تناول نقلًا مع الشراب أو بعده.



(١٧) بابُ: المساعدِ من الإخْوان

ومن الأسبابِ المتمنَّاة في الحبِّ أنْ يهبَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للإنسان صَديقًا مُخْلصًا ـ لطيفَ القول، بسيطَ الطَّوْل، حَسَنَ المأخذ، دقيقَ المَنْفَذِ، متمكِّنَ البيانِ، مُرْهَفَ اللِّسانِ، جليلَ الحِلْمِ، واسعَ العلمِ، قليلَ المخالَفَةِ، عظيمَ المُسَاعَفَةِ، شديد الاحتمَالِ، صابرًا علىٰ الإدْلال، جمَّ الموافقةِ، جميلَ المخالفةِ[1]، مُسْتَوِيَ المطابقةِ، محمودَ الخلائقِ، مكفوفَ البوائقِ، محتومَ المساعدةِ، كارهًا للمباعدةِ، نبيلَ المداخلِ، مصروفَ الغوائلِ، غامضَ/ (١٤١أ) المعاني، عارفًا بالأماني، طيِّبَ الأخلاق، سَريَّ الأعراق، مكتومَ السِّرِّ، كثيرَ البِرِّ، صحيحَ الأمانةِ، مأْمونَ الخيانة، كريمَ النَّفْسِ، نافذ الحِسِّ، صحيحَ الحَدْسِ، مضمونَ العَوْنِ، كاملَ الصَّوْنِ، مشهورَ الوفاء، ظاهِرَ الغَنَاء، ثابتَ القَريحةِ، مبذولَ النَّصِيحَةِ، مستيقَنَ الوداد، سَهْلَ الانقياد، حَسَنَ الاعتقاد، صادقَ اللَّهْجة، خفيفَ المُهْجة، عفيفَ الطِّباع، رحبَ الذِّراع، واسعَ الصَّدْر، متخلِّقًا بالصَّبْرِ، يألفُ الإمحاض، ولا يعرفُ الإعراض ـ؛ يستريحُ إليه بِبَلابِلِهِ،

---

(١) الأقرب أن تكون «المخالقة» بالقاف، لا بالفاء؛ لأنها الأولى بالوصف بالجمال، ولمناسبته لما قبلها، وما بعدها في السجع، ولتقدم «المخالفة» قبل قليل في قوله: «قليل المخالفة». ولم أزل في ريب من صحتها بما هو مثبت منذ قراءاتها أوَّل مرَّة. (الحربي)
قلتُ: وهي في الأصل بالفاء.

ويشاركُهُ ـ في خُلْوَةٍ ـ فكره[1]، ويفاوضه في مَكْتُومَاته.

وإنَّ فيه للمحبِّ لأعظمَ الرَّاحات، وأين هذا؟! فإنْ ظَفِرتْ به يداكَ فشُدَّهما عليه شدَّ الضَّنين، وأمْسِكْ بهما إمساكَ البخيل، وَصُنْهُ بطارِفِكَ وتالدك، فمعه يَكْمُلُ الأُنْسُ، وتَنْجَلي الأحزانُ، وَيَقْصُرُ الزَّمانُ، وتطيبُ الأحوالُ.

ولن يفقدَ الإنسانُ مِنْ صاحب هذه الصِّفة عَوْنًا جميلًا، ورأيًا حسنًا، ولذلكَ اتَّخذَ الملوكُ الوزراءَ والدُّخلاءَ كي يخفِّفوا عنهم بعضَ ما حملوه من/ شديد الأمور، وطُوِّقُوهُ من باهِظِ الأحمال، ولكي يستغنوا بآرائهم، ويستمدُّوا بكفايتهم، وإلَّا فليسَ في قوةِ الطَّبيعة أن تقاوِمَ كلَّ ما يَرِد عليها دونَ استعانةٍ بما يشاكلها، وهو من جِنْسِها. (٤١ب)

ولقد كانَ بعضُ المحبِّين ـ لِعُدمِهِ هذه الصِّفَةَ من الإِخوان، وقلَّة ثِقَتِهِ منهم لِمَا جرَّبه من النَّاس، وأنَّه لم يَعْدَمْ ممَّن باحَ إليه بشيءٍ من سرِّه أحدَ وجهين: إما إزراءً على رأيه، وإمَّا إذاعةً لسِرِّه ـ أقامَ الوحدةَ مقامَ الأُنْس، فكانَ ينفردُ في المكان النَّازِحِ عن الأنيس، ويناجي الهواءَ، ويكلِّمُ الأرضَ، ويجدُ في ذلك راحةً كما يجدُ المريضُ في التأوُّه، والمحزونُ في الزَّفير، فإنَّ الهُمومَ؛ إذا ترادَفَتْ في القلب ضاقَ بها، فإنْ لم يَنُصَّ مِنْها شَيْئًا باللِّسان[2]، ولم يَسْتَرِحْ إلىٰ الشَّكْوىٰ؛ لم يلبثْ أن يهلكَ غمًّا، ويموت أسفًا.

---

(١) هذه قراءة برشيه، وتبعه (ع)، وهي قراءة جيدة.
وقال الحربي: في شكٍّ من صحتها. وفي الأصل: (فقره). ويقترح السامرائي: (ويشاركه في حُلوِهِ ومُرِّه)، ويدعمه بقول ابن حزم في المقدمة: (سجيَّةٌ لم تزل عليها من مشاركتك لي في حلوك ومُرِّك).

(٢) أي: يُظهره ويتكلّم به. يقال: نصَّ الحديث إليه، أي: رفعه. والشيءَ: أظهره. وأثبتها بتروف: «ينضّ»، واقترح العلامة شاكر أن تقرأ: لم يفضِ منها شيئًا باللسان. وقال: فاض صدره بسرِّه امتلأ ولم يطق كتمه فباح به.

وما رأيتُ الإِسعادَ[1] أكثرَ منه في النِّساء، فعندهنَّ من المحافظة علىٰ هذا الشأن، والتَّواصي بكتمانه، والتَّواطُىءِ علىٰ طيِّه - إذا اطَّلَعْنَ عليه - ما ليس عند الرِّجال، وما رأيتُ امرأةً كشفتْ سرَّ متحابَّيْن إلا وهي عند النساء/ مَمْقُوتةٌ مستثقَلةٌ، مرميّةٌ عن قوسٍ واحدةٍ، وإنَّه ليوجدُ عند العجائز (٤٢أ) في هذا الشَّأنِ ما لا يوجد عن الفتيات، لأنَّ الفتيات منهنَّ ربَّما كشفنَ ما علمن علىٰ سبيل التَّغاير، وهذا لا يكون إلا في النُّدرة، وأمَّا العجائزُ فقد يَئِسْنَ من أنفسِهنَّ فانصرفَ الإِشفاقُ - مَحْضًا - إلىٰ غيرهِنَّ.

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعلمُ امرأةً مُوسرةً ذاتَ جَوَارٍ وخَدَم، فشاعَ علىٰ إحدى جواريها أنَّها تعشقُ فتىً من أهلها ويعشقها، وأَنَّ بينهما معانيَ مكروهةً، وقيلَ لها: إنَّ جاريتك فلانةً تعرفُ ذلكَ، وعندها جليَّةُ أمرها، فأخذتها - وكانت غليظَة العقوبةِ - فأذاقتها من أنواعِ الضَّرْبِ، والإِيذاءِ ما لا يَصبرُ علىٰ مثله جُلَداءُ الرِّجال، رجاءَ أن تبوحَ لهَا بشيءٍ مِمَّا ذُكِرَ لها، فلم تفعل البَتَّةَ[2].

---

(١) الإسعاد: المساعفة والعون.

(٢) الجارية التي ضُربت فلم تبح؛ نموذج للنِّساء في التَّكتُّم على المحبِّين، ولكن ما بال سيدتها التي ضربتها ضربًا مبرحًا؛ أليست هي امرأة؟! (ع).
قلتُ: هذا إيرادٌ غير جيِّد، لأنَّ تلك المرأة لم تعاقب جاريتها لمجرد عشقها، وإنَّما لأمرٍ زائدٍ؛ وهو: ما شاع علىٰ تلك الجارية من الأمور المنكرة، الموجبة لعقوبتها.
وكلام ابن حزم في تكتُّم النِّساء إنَّما يتعلَّقُ بالحالة الرَّاتبة المستقرَّة، وليس بالحالة العارضة.
وقال الحربيُّ: وكل من الإيراد والتعقب فيه نظر، فابن حزم يذكر أن النساء أحفظ لأسرار الحبِّ، لا أنه غير موجود فيهنّ، وهو أيضًا يكون فيما أُطْلِعْنَ عليه، أو تواصين بكتمانه، أو استحفظن عليه. والحال هنا مختلفة، امرأة أرادت أن تتثبت من صدق ما بلغها في اثنين ممَن ترعاهم، ولا تريد أن يقع ما تكرهه دون معرفتها، =

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعلمُ امرأةً جليلةً حافظةً لكتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ناسكةً مُقبلةً علىٰ الخير، وقد ظَفرتْ بكتابٍ لفتىً إلىٰ جاريةٍ كان يكلَفُ بها، وكانت في غير مُلْكِها، فعرَّفته الأمرَ، فرامَ الإنكارَ فلم يتهيَّأ له ذلك، فقالت له: ما لك! ومن ذا عُصِمَ؟ فلا تُبالِ بهذا، فوالله! لا أَطْلَعْتُ علىٰ سرِّكما أحدًا/ أبدًا، ولو أمكنني أنْ أبتاعها لكَ من مالي ـ ولو أحاط به كلِّه ـ لجعلتُها لكَ في مكانٍ تَصِلُ إليها فيه، ولا يَشعرُ بذلك أحدٌ. (٤٢ب)

وإنك لترىٰ المرأةَ الصَّالحَة المُسِنَّة المُنقطعةَ الرَّجاءِ من الرِّجال؛ وأَحبُّ أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سَعْيُها في تَزويج يتيمةٍ، وإعارةُ ثيابها وحُلِيِّها لعروسٍ مُقِلَّةٍ. وما أعلمُ علَّةَ تمكُّن هذا الطَّبْعِ من النِّساء إلا أنَّهُنَّ متفرّغاتُ البالِ من كلِّ شيءٍ إلا من الجماعِ ودواعيه، والغَزَلِ وأسبابه، والتآلُفِ ووجوهِهِ، لا شُغْلَ لهنَّ غيره، ولا خُلِقْنَ لسواه؛ والرِّجال مُقْتَسَمُونَ في كَسْب المال، وصحبةِ السُّلطانِ، وطَلَب العلم، وحياطَةِ العيال، ومُكابدة الأسفار، والصَّيدِ، وضُروب الصِّناعاتِ، ومُباشرةِ الحروب، ومُلاقاةِ الفِتَن، وتحمُّلِ المخاوف، وعمارةِ الأرض، وهذا كلُّهُ متحيِّفٌ للفراغ، صارِفٌ عن طريق البُطْلِ.

وقرأتُ في سِيَرِ ملوكِ السُّودان أنَّ الملكَ منهم يوكِّل ثقةً له بنسائه يُلقي عليهنَّ ضريبةً من غزل الصُّوفِ يشتغلنَ بها أبدَ الدَّهْر، لأنَّهم

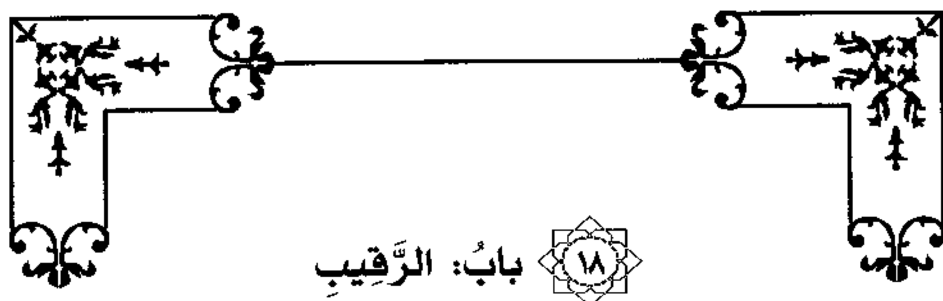
= وهي هنا مستكشفة للأسرار، لا كاشفة للأستار. وللنساء في محبّة الاستطلاع، وفضول الطباع نصيب أكبر، وحظّ أوفر. ودليلي على أنهن لا يحفظن في الغالب إلا ما تواصين بكتمانه وخُصِصن بمعرفته، ما حصل من صواحب يوسف عليه السلام.

يقولون:/ إنَّ المرأةَ إذا بقيتْ بغير شُغْلٍ إنما تتشَوَّفُ إلىٰ الرِّجال، وتحنُّ (٤٣أ) إلىٰ النِّكاح.

ولقد شاهدتُ النِّساءَ، وعلمتُ من أسرارهِنَّ؛ ما لا يكادُ يعلمه غيري، لأنِّي رُبِّيتُ في حُجُورِهِنَّ، ونشأتُ بين أيديهنَّ، ولم أعرفْ غيرَهنَّ، ولا جالستُ الرِّجالَ إلا وأنا في حَدِّ الشَّباب، وحِينَ تبقَّلَ[1] وجهي؛ وهُنَّ علمنني القُرآنَ، ورَوَّيْنني كثيرًا من الأشعار، ودرَّبْنَني في الخَطِّ، ولم يكن وَكْدِي وإعمالُ ذهني مذ أوَّلِ فهمي - وأنا في سنِ الطفولة جدًّا - إلا تعرُّفَ أسبابِهنَّ، والبحثَ عن أخبارِهِنَّ، وتحصيلَ ذلكَ. وأنا لا أنسىٰ شيئًا مِمَّا أراه مِنْهنَّ، وأَصلُ ذلك غَيْرَةٌ شديدةٌ طُبِعْتُ عليها، وسوءُ ظَنٍّ في جِهَتِهِنَّ فُطِرْتُ به، فأشرفتُ من أسبابهنَّ علىٰ غير قليلٍ. وسيأتي ذلك مفسَّرًا في أبوابه، إن شاء الله تعالى.



(١) بقل وجه الغلام: خرج شعره. وفي الأصل: يتقبل؛ وهو خطأ.



١٨ باب: الرَّقِيبِ

ومن آفات الحُبِّ: الرقيبُ، وإنَّه لَحُمّىً باطنةٌ، وبِرْسامٌ مُلِحٌّ، وفكرٌ مُكِبٌّ./ (٤٣ب)

والرقباءُ أقسام:

ـ فأوَّلهم: مُثْقِل بالجلوس ـ غيرَ متعمِّدٍ ـ في مكانٍ اجتمع فيه المرءُ مع محبوبه، وعَزَمَا علىٰ إظهارِ شيءٍ من سرِّهما، والبوحِ[١] بوَجْدهما، والانفرادِ بالحديث.

ولقد يعرضُ للمُحبِّ من القلق بهذه الصِّفة ما لا يعرضِ له مِمَّا هو أشدُّ منها، وهذا ـ وإن كان يزولُ سريعًا ـ فهو عائِقٌ؛ حالَ دون المُراد، وَقَطَعَ مُتَوَفِّرَ[٢] الرَّجاء.

خَبَرٌ:

ولقد شاهدتُ يومًا مُحِبَّيْنِ في مكانٍ قد ظنَّا أنَّهما انفردا فيه وتأَهَّبَا

(١) تقرأ في الأصل: والبرح.

(٢) جعله (ع): متون.

للشَّكوىٰ، فاستحليا[1] ما هما فيه من الخُلْوة، ولم يكن الموضعُ حِمَىً، فلم يلبثا أنْ طلعَ عليهما من كانا يستثقلانه، فرآني فَعَدل إليَّ وأطالَ الجلوسَ معي، فَلَوْ رأيتَ الفتىٰ المحبَّ ـ وقد تمازج الأسفُ البادي علىٰ وجهه مع الغضب ـ لرأيتَ عجبًا. وفي ذلكَ أقولُ قطعةً منها: [من الطويل]

يُطيلُ جلوسًا وهو أثقلُ جالسٍ ويُبدي حديثًا لستُ أرضىٰ فُنونَهُ
شَمامٌ ورَضْوَىٰ والـلُّكامُ ويَذبلٌ ولبنانُ والصَّمّانُ والحَزْنُ[2] دونَهُ

ـ ثُمَّ رقيبٌ قد أحسَّ من أمرهما بطَرْفٍ، وتوجَّسَ من مذهبهما شيئًا،/ (١٤٤أ) فهو يريدُ أن يستقري[3] حقيقةَ ذلك، فيُدْمِنُ الجلوسَ، ويطيلُ القعودَ، ويَتَقَفَّىٰ الحركاتِ[4]، ويَرْمُقُ الوجُوهَ، ويُحْصي[5] الأنفاسَ، وهذا أعدىٰ من الجَرَبِ. وإنِّي لأعرفُ مَن هَمَّ أن يُباطشَ رقيبًا هذه صفته. وفي ذلك أقولُ قطعةً منها: [من مخلع البسيط]

مُواصِلٌ لا يُغِبُّ قَصْدًا أعْظِمْ بهذا الوصالِ غَمَّا
صارَ وصِرْنا لفَرطِ ما لا يَزُولُ كالإسم والمُسمَّىٰ

ـ ثم رقيبٌ علىٰ المحبوب، فذلك لا حيلةَ فيه إلاَّ بترضِّيهِ. وإذا أُرضي فذلكَ غايةُ اللَّذة، وهذا الرَّقيبُ هو الَّذي ذكرتْه الشُّعراء في

---

(١) تقرأ في الأصل: فاستجلبا.

(٢) في الأصل: والحرب. والتَّصحيح عن (مكي)، وتابعه (ع).
وقال الحربي: «الحزن» ما غلظ من الأرض، وموضع مرتفع غليظ في نجد، وهو المراد، والأسماء السابقة أسماء جبال.

(٣) هذه قراءة برشيه و(ع)، وفي الأصل: يستبري. وعند الصَّيرفي و(مكي): يستبين.

(٤) في الأصل: ويتجفىٰ بالحركات.

(٥) خ: ويحصل.

أشعارها. ولقد شاهدتُ مَن تلطَّفَ في استراضاء رقيبٍ حتَّى صار الرقيبُ عليه رقيبًا له، ومتغافلًا في وقتِ التَّغافُل، ودافعًا عنه، وساعيًا له. ففي ذلكَ أقول: [من الطويل]

وربَّ رقيبٍ أرقبُوهُ فلم يزلْ ... علىٰ سيدي عمدًا ليبعدني عَنْهُ

(٤٤ب) فما زالتِ الألطافُ تُحْكِمُ أمرَهُ ... إلىٰ أن غدا خوفي له أمَنًا منه/

وكانَ حُسامًا سُلَّ حتَّىٰ يَهُذَّني[1] ... فعادَ مُحِبًّا ما لنعمته كُنْه

وأقولُ قطعةً، منها: [من المنسرح]

صارَ حياةً وكانَ سَهْمَ رَدىً ... وكانَ سُمًّا فصار دِرْياقا[2]

وإنِّي لأعرفُ مَن رَقَّبَ علىٰ بعض مَنْ كان يُشفقُ عليه رقيبًا وثِقَ به عند نفسه، فكان أعظمَ الآفة عليه، وأصلَ البلاء فيه.

وأمَّا إذا لم يكن في الرَّقيب حيلةٌ، ولا وُجِدَ إلىٰ تَرَضِّيهِ سبيلٌ؛ فلا طمعَ إلا بالإشارة بالعين هَمْسًا، وبالحاجب أحيانًا، والتَّعريض اللَّطيف بالقول، وفي ذلك مُتعةٌ وبلاغٌ إلىٰ حينٍ، يَقنعُ به المشتاق. وفي ذلك أقول شعرًا أوله: [من الطويل]

على سيِّدي مِنِّي رقيبٌ محافِظٌ ... وفيٌّ لمَنْ والاهُ ليسَ بنَاكِثِ

ومنه:

ويقطعُ أسبابَ اللُّبانة في الهوىٰ ... ويَفعلُ فيها فِعل بعضِ الحوادث

---

(١) خ: يهدني.

(٢) الدِّرياق والتِّرياق: دواء يشفي من السُّمِّ. (الحربي)

كأنّ له في قلبه ريبةً تُري[1] وفي كُلِّ عينٍ مُخْبرٍ بالأحادِثِ/ (٤٥أ)

ومنه:

علىٰ كلِّ مَنْ حولي رقيبان رُقِّبا وقد خَصَّني ذُو العَرْشِ منهم بثالثِ

وأشنعُ ما يكونُ الرَّقيبُ إذا كانَ مِمَّن امتُحِنَ بالعشق قديمًا، ودُهي به، وطالت مُدَّته فيه، ثم عَرِيَ عنه بعد إحكامه لمعانيه، فكانَ راغبًا في صيانةِ من رُقِّبَ عليه، فتبارَكَ الله! أيُّ رقبةٍ[2] تأتي منه، وأيُّ بلاءٍ مصبوبٍ[3] يَحِلُّ علىٰ أهل الهوىٰ من جهته؟! وفي ذلكَ أقول: [من الوافر].

رقيبٌ طالَما عَرَف الغَراما وقاسىٰ الوَجْدَ وامْتَنَعَ المَناما[4]
ولاَقىٰ في الهوىٰ ألمًا أليمًا وكادَ الحُبُّ يُوردُهُ الحِماما
وأتْقَنَ حِيلةَ الصَبِّ المُعَنَّى ولم يُضِع الإشارةَ والكلاما
وأعقبه التسلِّي بعد هذا وصار يرىٰ الهوىٰ عارًا وذامًا/ (٤٥ب)
وصُيِّرَ دونَ من أهوىٰ رقيبًا ليُبعدَ عنه صَبًّا مُستهاما
فأيُّ بليّةٍ صُبّتْ علينا وأي مصيبةٍ حَلَّتْ لِماما

(١) قال العلامة شاكر: سأنظر فيها حتىٰ أهتدي إلىٰ حقِّ صوابها. وعلَّق (ع): يريد برشيه أن يقرأها: رئيًا يرىٰ. وهذا لا يستقيم مع الوزن، وقد تقرأ: ربَّة ترىٰ. والربَّة: الجماعة الكثيرة. قلت: (ريبة) ضبطت في الأصل هكذا: (رئيبةٌ). وقال الحربي: والأظهر أن يقرأ الفعل «ترىٰ» علىٰ المجاز.

(٢) خ: رقيبٍ. وما أثبته فعن (ع) و(مكي).

(٣) خ: منصوب.

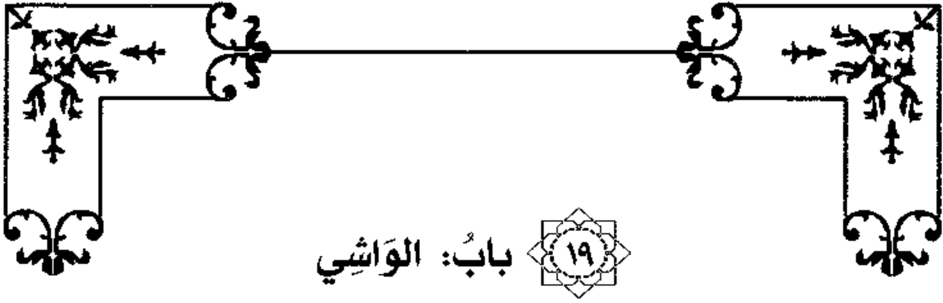
(٤) كذا في الأصل، وقال الأستاذ محمود شاكر: صوابه: إذْ مُنِعَ المناما.

ومن طريفِ معاني الرُّقباء أنّي أعرفُ محبَّيْنِ مذهبهما واحدٌ في حُبِّ محبوبٍ واحدٍ بعينه، فلعهدي بهما كُلُّ واحدٍ منهما رقيبٌ علىٰ صاحبه. وفي ذلك أقول: [من السريع]

صَبَّان هَيْمانانِ في واحدٍ كلاهما عن خِدْنه مُنْحرِفْ
كالكَلْبِ في الآريِّ لا يَعْتَلفْ ولا يُخلِّي الغَيْرَ أن يَعْتَلِفْ[1]



(١) قال العلامة شاكر: غريبٌ جدًّا ولعلها: «الغَيْر»، وقال (ع): الآري: محبس الدابة من كلب وغيره، وقوله: كالكلب لا يعتلف ولا يخلِّي غيره يعتلف، مثَل جاء في صور مختلفة عند الأندلسيين والمغاربة، من ذلك: كلب الورد لا يشم ولا يخلِّي أحد يشم. (انظر الزجالي ص: ٢٦١ المثل رقم: ١١٢٥) وقد ذكر الأستاذ بنشريفه أن المثل ما يزال مستعملًا في تونس، وله صنو في إسبانيا، وقارنه بقول ابن حزم هنا؛ والصورة الإسبانية من المثل أوردها غومس (هامش ص: ١٧٠) واقتبسها مكي (هامش ص: ٨٢).



١٩ باب: الوَاشِي

ومن آفات الحبِّ الواشي، وهو علىٰ ضربين:

أحدهما: واشٍ يريدُ القطعَ بين المتحابَّيْنِ فقط. وإنَّ هذا لأفترهما/ (٤٦أ) سَوْءَةً[١]، علىٰ أنَّه السمُّ الذُّعاف، والصَّابُ الممقرُ[٢] والحتفُ القاصدُ، والبلاء الوارد. وربما لم يَنجع تَرْقِيشُهُ[٣].

وأكثر ما يكون الواشي فإلىٰ المحبوبِ، وأمَّا المحبُّ فهيهاتَ، حالَ الجَريضُ دونَ القَرِيضِ[٤]، ومنع الحَرَبُ[٥] من الطَّربِ، شُغلهُ بما هو مانعٌ له من استماع الواشي. وقد علم الوُشاة ذلكَ، وإنَّما يقصدون إلى الخَليِّ البالِ، الصَّائِلِ بحَوْزَةِ[٦] الملك، المتعتِّبِ عند أقلِّ سببٍ.

---

(١) كذا واضحة في الأصل، وأثبته برشيه: (لأقترهما سوأةً) بالقاف، يعني: أقلهما سوءً، كما في ترجمته. ويرىٰ السامرائيُّ أن القراءة الصحيحة: (لأقلُّهما سوءً).

(٢) الصَّابُ ـ بتخفيف الباء ـ: عُصارةُ شجرٍ مرٍّ. والمُمْقِرُ: الشديد المرارة.

(٣) تزيينه. (الحربي).

(٤) حال الجريض دون القريض: هذا مَثل يُضرب للمعضلة تُعرض فتشغل عن غيرها، وهو لعبيد بن الأبرص حين سئل وهو مترقِّب الموت أن يقول شعرًا (انظر جمهرة العسكري ١:٣٥٩ والفاخر: ٢٥٠ والميداني ١:١٢٩ والمستقصى: ٢٠١ واللسان: جرض، وفصل المقال: ٤٤٤) (ع).

(٥) الشدَّة والهلاك. (الحربي).

(٦) تقرأ في الأصل: بجوره.

وإِنَّ للوُشاة ضُروبًا من التَّنْقِيل.

فمنها: أن يذكرَ للمحبوب عمَّن يُحبُّ أنَّه غيرُ كاتم للسِّرِّ، وهذا مكانٌ صَعْبُ المُعاناة، بطيءُ البُرءِ إلاَّ أن يوافقَ معارضًا للمُحبِّ في محبَّته[1]، وهذا أمرٌ يوجبُ النِّفار، فلا فرجَ للمحبوب إلا بأن تساعدَه الأقدارُ بالاطّلاع علىٰ بعض أسرار من يُحبُّ، بعد أن يكونَ المحبوب ذا عَقْلٍ، وله حَظٌّ من تمييزٍ، ثم يَدعه والمطاولة. فإذا تكَذّبَ عنده نَقْلُ الواشي مع ما أظهر من الجفاء والتَّحفُّظِ، ولم يسمع لسرِّه إذاعةً عَلِمَ أنَّه إنَّما زوَّرَ له الباطلَ، واضمحلَّ ما قامَ في نفسه./ (٤٦ب)

ولقد شاهدتُ هذا بعينه لبعض المُحبِّينَ مع بعض من كانَ يحبُّ، وكان المحبوبُ شديد المراقبة، عظيمَ الكتمان، وكَثُرَ الوُشاة بينهما؛ حتَّىٰ ظَهَرتْ أَعْلامُ ذلكَ في وَجْهِهِ، وحُدِّثَ في حُبٍّ لم يكن[2]، وركِبَتْه وَجْمَةٌ[3]، وأظلَّته فِكْرَةٌ، ودَهَمَتْهُ حَيْرَةٌ، إلىٰ أنْ ضاقَ صدره، وباح بما نُقِلَ إليه؛ فلو شاهدتَ مقامَ المحبِّ في اعتذاره لعلمتَ أن الهوىٰ سلطانٌ مُطاعٌ، وبناءٌ مشدودُ الأواخي، وسنانٌ نافِذٌ، وكانَ اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف، والإنكار والتَّوبة، والرَّمي بالمقاليد، فبعدَ لأيٍ ما صَلُحَ الأمرُ بينهما.

وربَّما ذكر الواشي أنَّ ما يُظْهِرُ المُحبُّ من المحبة ليسَت بصحيحةٍ،

---

(١) كذا الأصل، وقرأ برشيه: «مغارضًا»، ويرىٰ السامرائي أن القراءة الصحيحة: «إلا أن يوافق مقارضًا للمحبِّ في محبَّته» يعني: مبادلًا له في المحبة، وقد استخدم ابن حزم هذا اللفظ في موضع آخر: (٢٣ ـ باب الغدر).

(٢) كذا في الأصل، و(وحُدِّثَ في حُبٍّ..) ضبطها هكذا العلامة شاكر. وقدَّم (ع) هذه الجملة علىٰ التي قبلها من غير إشارة ولا توضيح (!).

(٣) هذه قراءة (ع) وهي قراءة جيدة، وفي الأصل: رحمة. وقال الحربي: والوجوم: كراهة وحزن يظهر أثرهما علىٰ الوجه.

وأنَّ مذهبه في ذلكَ شِفاءُ نفسه، وبلوغُ وَطَره؛ وهذا فصلٌ ـ وإنْ كانَ شديدًا في النَّقْلِ ـ فهو أيسرُ معاناةً ممَّا قبله، فحالةُ المحبِّ غيرُ حالة المتلذِّذ، وشواهدُ الوَجْدِ متفرقةٌ[1] بينهما. وقد وَقَعَ من هذا نُبَذٌ كافيةٌ في باب الطَّاعة.

وربَّما نقل الواشي أنَّ هوىٰ العاشقِ مُشْتَرَكٌ، وهذه النَّارُ المُحرقة، والوجعُ/ الفاشي في الأعضاء. وإذا وافق النَّاقلُ لهذه المقالة أن يكون (٤٧أ) المُحبُّ فتىً حَسَنَ الوجه، حُلْوَ الحركاتِ، مرغوبًا فيه، مائلًا إلىٰ اللَّذَّات، دُنياويَّ الطَّبْع، والمحبوبُ امرأةً جليلةَ القَدْرِ، سَرِيَّة المَنْصِب، فأقربُ الأشياء سَعْيُها في إهلاكه، وتصدِّيها لحَتْفِه، فكم صَريعٍ علىٰ هذا السَّبب، وكم مَنْ سُقِيَ السُّمَّ فقطَّعَ أمعاءَهُ؛ لهذا الوجه، وهذه كانت ميتةَ مروانَ بنِ أحمدَ بنِ حُدَيْرٍ ـ والد أحمدَ المتنسِّكِ، وموسىٰ، وعبد الرحمٰن المعروفَيْنِ بابنيْ لُبْنىٰ[2] ـ من قِبَلِ قَطْرِ النَّدىٰ جاريته. وفي ذلكَ أقولُ ـ مُحَذِّرًا لبعض إخواني ـ قطعةً منها: [من الطويل]

وهل يأمنُ النِّسْوانَ غيرُ مغفَّل ... جهولٍ لأسباب الرَّدَىٰ متَعرِّضِ[3]

وكَمْ واردٍ حَوْضًا من الموت أسودًا ... تَرَشَّفَه من طَيِّب الطَّعمِ أبيضِ

والثَّاني: واشٍ يسعىٰ للقطْع بين المُحبَّينَ، لينفردَ بالمحبوب ويستأثِرَ/ (٤٧ب)

---

(١) جعلها (ع): متفاوتة.

(٢) تقدَّم التعريف ببعض بني حُدَير، وقد ذكر لسان الدين ابن الخطيب (أعمال الأعلام: ٢١١) موسىٰ بن مروان بن حُدير؛ ووصفه بالصَّرامة والجرأة، وجَّهه صاحب قرطبة إلىٰ خيران حين انتزىٰ في شرق الأندلس، فدارت بين الاثنين وقعة؛ أسر فيها موسىٰ وقُتل أصحابه (ع).

(٣) هذه قراءة برشيه. وفي الأصل: متأرض.

به، وهذا أشدُّ شيءٍ وأقطعُهُ، وأجزَم لاجتهادِ الواشي، وَاسْتِفَادِهِ لِجَهْدِهِ[1].

ومن الوُشاة جنسٌ ثالثٌ، وهو: واشٍ يَسعىٰ بهما جميعًا، ويكشفُ سرَّهما، وهذا لا يُلْتَفَتُ إليه إذا كانَ المُحِبُّ مساعدًا. وفي ذلكَ أقول: [من الطويل]

عَجبتُ لواشٍ ظَلَّ يكْشِفُ أمرَنَا ... وما بسَوىٰ أخبارنا يتنفَّس

وماذا عليه من عَنائي ولوْعَتي ... أنا آكلُ الرُّمَّانَ والوُلد تَضْرِسُ[2]

ولا بدَّ أن أُورد ما يُشبه ما نحنُ فيه، وإنْ كانَ خارجًا منه، وهو شيءٌ في بيان التَّنْقِيلِ والنَّمَائِمِ ـ فالكلامُ يدعو بعضهُ بعضًا كما شرطنا في أوَّل الرِّسالة ـ:

ما في جميع النَّاس شَرٌّ من الوُشاة، وهم النَّمَّامُونَ، وإنَّ النَّميمةَ لطَبْعٌ يدلُّ على نَتْنِ الأصْلِ، ورداءَةِ الفَرعِ، وفسادِ الطَّبعِ، وخُبثِ النَّشأة، ولا بدَّ لصاحبه من الكَذِبِ؛ والنَّميمة فرعٌ من فروع الكذب، ونوعٌ من أنواعه،/ (١٤٨أ) وكلُّ نمَّامٍ كذَّابٌ، وما أحببتُ كذَّابًا قطُّ، وإنيِّ لأسامحُ في إخاءِ كلِّ ذي عَيبٍ ـ وإن كانَ عظيمًا ـ وأَكِلُ أمرَهُ إلىٰ خالقه ـ عزّ وجلَّ ـ وآخُذُ[3] ما ظَهر من أخلاقه؛ حاشا من أعلمه يَكْذِبُ، فهو عندي ماحٍ لكلِّ محاسنه، ومُعَفٍّ علىٰ جميع خِصَاله، ومُذْهِبٌ كلَّ ما فيه، فما أرجو عنده خيرًا أصلًا، وذلكَ لأنَّ كلَّ ذنبٍ فهو يتوب عنه صاحبُهُ، وكلَّ ذامٍّ فقد يُمْكِنُ الاستتارُ به والتَّوْبةُ منه، حاشا الكَذِبَ فلا سبيلَ إلىٰ الرَّجْعة عنه،

(١) يرىٰ (ع) أن تقرأ: واستنفاده جهده.

(٢) هذا اقتباس من عبارة وردت في: «التّوراة» (حزقيال: ١٨: ٣)؛ ونصّها: الآباءُ أكلوا الحِصْرم؛ وأسنان الأبناءِ ضَرِسَتْ.

(٣) خ: وآخر.

ولا إلى كتمانه حيثُ كانَ. وما رأيتُ قطُّ ـ ولا أخبرني من رأىٰ ـ كذّابًا؛ وتركَ الكَذِبَ ولم يَعُدْ إليه. ولا بدأتُ قطُّ بقطيعةِ ذي معرفةٍ إلا أن أطّلعَ له على الكذب، فحينئذٍ أكونُ أنا القاصدَ إلىٰ مجانبته، والمتعرِّضَ لمتاركته، وهي سِمَةٌ ما رأيتها قطُّ في أَحدٍ إلاَّ وهو مَزنُونٌ إليه بشرٍّ في نفسه[1]، مغموزٌ عليه لعاهةِ سوءٍ في ذاته، نعوذ بالله من الخذلان.

وقد قالَ بعضُ الحكماء: آخِ مَنْ شئتَ، واجتنبْ ثلاثةً: الأحمقَ؛/ (٤٨ب) فإنَّه يريد أنْ ينفعك فيضرُّك، والملولَ؛ فإنَّه أوثقَ ما تكونُ به لطول الصُّحْبة وتأكُّدها؛ يخذلك، والكذّاب؛ فإنَّه يَجْنِي عليكَ آمَنَ ما كنتَ فيه من حيثُ لا تشعر.

وحديثٌ عن رسولِ الله ﷺ: «**حُسْنُ العَهْدِ مِنَ الإيمانِ**»[2].

---

(١) هذه قراءة (ع)، وفي الأصل: وهو مزنونٌ في نفسه إليه بشق. وقال الحربي: زنَّ فلان غيره بخيرٍ أو شرٍّ: ظنَّه به. وقال اللحياني: لا يقال: زننته. بل يقال: أزننته (التاج). فإن كان حقًّا ما قاله اللحياني؛ فالصواب: «مُزَنّ» لا «مزنون».

(٢) أخرجه الحاكم: **١/١٥ ـ ١٦ (٤٠)**، والبيهقي في: «شعب الإيمان» **٦/٥١٧ (٩١٢٢)**، والقضاعي في: «مسند الشهاب» **٢/١٠٢ (٩٧١)**، وابن عبد البر في: «الاستيعاب» **٤/١٨١٠** من طريق صالح بن رستم، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة؛ قالت: جاءتْ عجوزٌ إلى النَّبي ﷺ ـ وهو عندي ـ فقالَ لها رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ أنتِ؟**» قالتْ: أنا جَثَّامة المُزَنِيَّة. فقال: «**بل أنتِ حَسَّانة المُزَنِيَّة! كيفَ أنتم؟ كيفَ حالكم؟ كيفَ أنتم بعدنا؟**» قالتْ: بخيرٍ بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فلمَّا خرجتْ قلتُ: يا رسولَ الله تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال! فقالَ: «**إنَّها كانتْ تأتينا زَمَنَ خديجةَ، وإنَّ حُسْنَ العهد مِنَ الإيمان**». وإسناده حسن، وهو في: «سلسلة الأحاديث الصَّحيحة» **(٢١٦)**.

قالَ أبو عُبَيْد: العهدُ ـ هنا ـ رعاية الحرمة. وقالَ عِياض: هو الاحتفاظ بالشَّيء والملازمة له. وقال الرَّاغب: حفظُ الشَّيء ومراعاته حالًا بعدَ حالٍ، وعهدُ الله تارةً يكونُ بما رَكَزَهُ في العقلِ، وتارةً بما جاءتْ به الرُّسُل، وتارةً بما يلتزمه المكلَّفُ ابتداءً كالنَّذْرِ. ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ وأمَّا لفظُ العهد فيُطْلَقُ =

وعنه ـ عليه السَّلام ـ: «**لا يُؤْمِنُ الرَّجُلُ بالإيمان كلِّه حتَّى يَدَعَ الكَذِبَ في المُزاحِ**»[1].

حَدَّثنا بهذا أبو عُمَرَ أحمدُ بن محمَّدٍ[2]، عن محمَّدِ بن عيسىٰ بن رفاعة[3]، عن عليِّ بن عبد العزيز[4]، عن أبي عُبَيْدٍ القاسم بن سلَّام[5]، عن شيوخه. والآخِرُ منهما مُسندٌ إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّاب، وابنه عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ.

= بالاشتراك بإزاءِ معانٍ أخرىٰ؛ منها: الزَّمان، والمكان، واليمين، والذِّمة، والصِّحَّة، والميثاقُ، والإيمان، والنَّصيحة، والوصيَّة، والمطر، ويقال له: العهاد ـ أيضًا ـ. (كذا في: «فتح الباري» كتاب الأدب، باب: حسن العهد من الإيمان **١٠/٥٣٥**).

(١) أخرجه مِنْ حديث عمرَ ـ رضي الله عنه ـ أبو يعلىٰ في: «المسند الكبير»، كما في: «المقصد العلي» **(٢٣)**، و«المطالب العالية» **(٣٢٠٦**، ط: قرطبة)؛ بلفظ: «**لا يبلغُ عبدٌ صَرِيحَ الإيمانِ؛ حتَّى يَدَعَ المزاحَ والكَذِبَ، ويَدَعَ المِراءَ؛ وإنْ كانَ مُحِقًّا**»، وفي إسناده مجهولان وضَعِيفٌ. ولم أقف عليه من حديث ابن عمر، لكن رواهُ أحمد **٢/٣٥٢ ـ ٣٥٣** و**٣٦٤ (٨٦٣٠، ٨٧٦٦)**، والطَّبرانيُّ في: «الأوسط» **(٥١٠٣)**، عن أبي هريرة قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا يُؤمنُ العبدُ الإيمانَ ـ كلَّه ـ حتَّىٰ يتركَ الكذبَ في المُزاحة، ويتركَ المراءَ وإنْ كانَ صادقًا**» وإسناده ضعيفٌ؛ لانقطاعه وجهالة أحد رواته.

(٢) الإمام المحدِّث الثِّقةُ الأديب أبو عمر أحمد بن محمد بن أحمد؛ المعروف بابن الجَسُور الأُموي القرطبي، هو أكبرُ شيخ لابن حزم؛ قالَ: «وهو أوَّلُ شيخ سمعتُ عليه قبلَ الأربعِ مِئَةٍ» وكانَ خيِّرًا صالحًا شاعرًا، عالي الإسناد، واسع الرواية، صدوقًا. وتوفي سنة **(٤٠١هـ)** ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» **١٧/(٩٠)**، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: **٤١** /ترجمة: **٦**).

(٣) هو: أبو عبد الله الخولاني، المعروف بابن القلَّاس القرطبي، توفي سنة **(٣٣٧هـ)**، وكان متَّهمًا بالكذب «تاريخ الإسلام» (الطبقة: **٣٤** /ترجمة: **٢٣٥**)، و«ميزان الاعتدال» **٣/٦٧٩**، و«لسانه» **٥/٣٣٤ ـ ٣٣٥**. وابن حزم ـ رحمه الله ـ لا يذكر من حديث ابن الجسور، عن شيخه هذا؛ إلا نادرًا.

(٤) الإمام الحافظ علي بن عبد العزيز، أبو الحسن البغوي، مات سنة **(٢٨٦هـ)**. ترجمته ومصادرها في: «السِّير» **١٣/(١٦٤)**.

(٥) الإمام الحافظ المجتهد ذو التَّصانيف الشَّهيرة أبو عُبيد القاسم بن سلَّام **(١٥٧ ـ ٢٢٤هـ)**. ترجمته ومصادرها في: «السِّير» **١٠/(١٦٤)**.

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

وعن رسولِ الله ﷺ أنَّه سُئِلَ هل يكونُ المؤمنُ[1] بَخيلًا؟ فقال: «**نعم**». قيل: فهل يكونُ المؤمنُ جَبانًا؟ فقالَ: «**نعم**». قيل: فهل يكونُ المؤمن كذَّابًا؟ قال: «**لا**»[2].

حدّثناه أحمدُ بنُ محمَّدٍ بن أحمدَ، عن أحمدِ بنِ سعيدٍ[3]، عن/ (٤٩أ) عُبيدِالله بنِ يحيىٰ[4]، عن أبيه[5]، عن مالكِ بنِ أنسٍ، عن صفوانَ بن سُلَيْمٍ[6].

وبهذا الإِسناد؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**لا خيرَ في الكَذِبِ**» ـ في حديث سُئِلَ فيه[7] ـ.

---

(١) خ: الرجل. والتَّصحيح من: «الموطأ»، وهو الذي يقتضيه السِّياق.

(٢) رواه مالك في: «الموطأ» (١٧٩٥)؛ عن صفوان بن سُليم مرسلًا. ولم يوجد موصولًا.

(٣) الحافظ المؤرِّخ أحمد بن سعيد بن حزم، أبو عمر الصَّدَفي القرطبي، كان أحد أئمَّة الحديث، له عناية تامَّة بالآثار. توفي سنة (٣٥٠هـ) مترجم في: «السِّير» ١٦/(٧١).

(٤) الفقيه الإمام أبو مروان عُبيدالله بن يحيى بن يحيى اللَّيثي القرطبي، مسند قرطبة، كان كبير القدر، وافر الجلالة، توفي سنة (٢٩٨هـ). مترجم في: «السِّير» ١٣/(٢٦٤).

(٥) الإمام الكبير يحيى بن يحيى الليثي المصمودي القرطبي، ارتحل إلى المشرق في أواخر أيام مالك الإمام؛ فسمع منه: «الموطأ» سوىٰ أبواب من الاعتكاف؛ شكَّ في سماعها منه. توفي سنة (٢٣٤هـ). مترجم في: «السِّير» ١٠/(١٦٨).

(٦) الإمام الثقة صفوان بن سُليم القرشي (١٣٢هـ)، أخرج له الستة.

(٧) رواه مالك (١٧٩١) عن صفوان بن سليم: أنَّ رجلًا قالَ لرسولِ الله ﷺ: أكذبُ امرأتي يا رسول الله؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا خير في الكذب**» فقالَ الرَّجُلُ: يا رسولَ الله أَعِدُها، وأَقُولُ لها؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا جُنَاحَ عَلَيْكَ**». وهذا مُرْسَلٌ ـ أيضًا ـ ولم يثبت موصولًا.

وبهذا الإسناد؛ عن مالكٍ أنَّه بلغه عن ابنِ مسعودٍ أنَّه كانَ يقولُ: لا يزالُ العَبد يكْذب، ويُنْكَتُ في قلبه نُكْتةٌ سوداءُ حتَّىٰ يَسوَدَّ القلبُ فيُكتبَ عند الله من الكذَّابين[1].

وبهذا الإِسنادِ؛ عن ابنِ مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: عليكم بالصِّدق؛ فإنَّه يهدي إلىٰ البِرِّ، والبرُّ يهدي إلىٰ الجنة، وإيَّاكم والكذبَ؛ فإنَّه يهَدي إلىٰ الفجور، والفجورُ يهدي إلىٰ النَّار[2].

ورُويَ أنَّه أتاه ﷺ رجلٌ فقالَ: يا رسولَ الله! إنِّي أَسْتَتِرُ بثلاثٍ: الخَمْرِ، والزِّنا، والكَذِبِ. فمُرْني أيَّها أتركُ! قالَ: «**اتركِ الكذبَ**». فذهبَ عنه، ثُمَّ أرادَ الزِّنا ففكَّرَ، فقالَ: آتي رسولَ الله ﷺ فيسألني: أزنيتَ؟ فإنْ قلتُ: نعم؛ حدَّني، وإن قلتُ: لا؛ نقضتُ العهد. فتركه، ثُمَّ كذلكَ في الخمر، فعادَ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالَ: يا رسول الله! إنِّي تركتُ (٤٩ب) الجميع[3]./

(١) هو في: «الموطأ» (١٧٩٤) هكذا بلاغًا.

(٢) «الموطأ» (١٧٩٢) بلاغًا. وهو عند البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) وغيرهما؛ مِنْ حديثِ ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ؛ عن النَّبيِّ ﷺ مرفوعًا. فالعجبُ مِنَ المصنِّف؛ كيف اكتفىٰ بالموقوف مع شُهْرة المرفوع وصحَّته!

(٣) لم أعثر عليه في كتب الحديث، وقد أشار المصنِّف ـ رحمه الله ـ إلى عدم صحَّته بتصديره بـ: «رُوي». نعم؛ ذكره ـ هكذا من غير إسنادٍ ـ الجاحظُ في: «المحاسن والأضداد»، والمبرِّد في: «الكامل في اللُّغة والأدب»، وأبو سعدٍ منصور بن الحسين الآبيُّ في: «نثر الدُّرر»، وابنُ حمدون في: «التَّذكرة»، والزَّمخشريُّ في: «ربيع الأبرار»؛ وغيرهم من أهل الأدب والأخبار؛ ممَّن لا معرفة لهم بعلوم الرِّواية، وتفرُّدهم بذكره يدلُّ علىٰ أنَّه لا أصل له. وقد كنتُ وقفت عليه في بعض كتب أهل العلم؛ حكايةً عن بعض الصَّالحين، لكن فاتني تقييده، والله أعلم.

فالكَذِبُ أصلُ كلِّ فاحشةٍ، وجامعُ كلِّ سوءٍ، وجالبٌ لمَقْتِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وعن أبي بكرٍ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ؛ أنَّه قال: لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له[1].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ؛ أنَّه قالَ: كلُّ الخِلال يُطْبَعُ عليها المؤمنُ إلا الخيانةَ والكَذِبَ[2].

وعن رسول الله ﷺ أنَّه قالَ: «**ثَلاثٌ مَنْ كنَّ فيه كانَ منافقًا: مَنْ إذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ**»[3].

وهل الكفرُ إلاَّ كَذِبٌ علىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟! والله الحقُّ، وهو

---

(١) لم أعثر عليه، وقد ثَبَتَ هذا مرفوعًا؛ أخرجه ابن أبي شَيْبة في: «المصنَّف» (٣٠٣١١ ـ ط: بيروت)، وأحمد ١٣٥/٣، ١٥٤، ٢١ (١٢٣٨٣، ١٢٥٦٧، ١٣٦٣٧، ١٣١٩٩)، وابن حِبَّان (١٩٤)، والبيهقيُّ في: «السُّنن الكبرىٰ» ٩٧/٤، والبغويُّ في: «شرح السُّنة» (٣٨)؛ وقال: حديثٌ حسنٌ، وغيرهم؛ مِنْ طرقٍ من حديث أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ؛ قالَ: قلَّما خَطَبنا رسولُ الله ﷺ إلَّا قالَ: «**لا إيْمانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، ولا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ**».

(٢) صحيحٌ: أخرجه ابن أبي شيبة في: «المصنَّف» (٢٥٥٩٤، ٣٠٣٣١) بلفظ: «المؤمن يُطْوىٰ علىٰ الخلال....». وأخرجه ـ أيضًا ـ (٢٥٥٩٥، ٣٠٣٣٠)؛ عن سعد بن أبي وقَّاصٍ ـ رضي الله عنه ـ؛ موقوفًا بإسنادٍ صحيحٍ أيضًا. ورُوي مرفوعًا؛ ولا يصحُّ.

(٣) حديثٌ صحيحٌ مشهورٌ، رواهُ ـ بهذا اللَّفظ ـ أحمد ٥٦٣/٢ (١٠٩٢٥)، ومسلم (٥٩ ـ ولم يسق لفظه)، وابن حِبَّان (٢٥٧)، وأبو عوانة ٢١/١، والبيهقيُّ ٢٨٨/٦ من طريق سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرةَ؛ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فهو مُنَافِقٌ؛ وإنْ صَامَ وصَلَّىٰ وزَعَمَ أنَّه مُسْلِمٌ:...**» فذكره. ورواهُ ـ بهذا اللَّفظ أيضًا ـ أبو يعلىٰ (٤٠٩٨) مِنْ حديثِ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ. وأخرجه البخاريُّ (٣٣)، ومسلم (٥٩)؛ وغيرهما من طريق: مالك بن أبي عامرٍ، عن أبي هريرة به؛ بلفظ: «**آية المنافق ثلاث:...**».

يحبُّ الحقَّ، وبالحقِّ قامتِ السَّمواتُ والأرضُ. وما رأيتُ أخزىٰ من كذّاب، وما هلكتِ الدُّولُ، ولا هلكتِ الممالك، ولا سُفِكَتِ الدماءُ ظُلْمًا، ولا هُتِكَتِ الأستارُ بغير النَّمائِم والكَذِبِ، ولاَ أُكِّدت البغضاءُ والإِحَنُ المُرْدِيةُ إلا بنمائِمَ لا يحظىٰ صاحبها إلاَّ بالمَقْتِ، والخِزْيِ، والذُّلِّ، وأن ينظر منه الذي ينقل إليه ـ فضلًا عن غيره ـ بالعَيْنِ التَّي ينظرُ بها مِنَ[1] الكلب.

والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ [الهمزة: ١] ويقولُ ـ جلَّ مِنْ قائل ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ (٥٠أ) [الحجرات: ٦] / فسَمَّىٰ المنقِّلَ باسم الفسوق. ويقولُ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ⑩ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ⑪ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ⑬﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٣].

والرَّسُول ـ عليه السَّلام ـ يقولُ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[2]. ويقولُ: «**وإيَّاكُمْ وقاتِلَ الثَّلاثةِ**»[3] ـ يعني: المنقِّلَ، والمَنْقُولَ إليه، والمنقول عنه ـ.

---

(١) لعل الأصح: إلى. بل هذا هو الصَّواب عند العلامة محمود شاكر.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥)؛ من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ. والقتَّات هو: النَّمامُ. والنَّميمة هي: نقل كلام الناس بعضهم إلى بعضٍ على جهة الإفساد بينهم.

(٣) لا يصحُّ؛ ذكره الديلمي في: «الفردوس» (١٥٣٠) من حديث أنسٍ؛ بلفظ: «**إياكم وقاتل الثلاثة، فإنه من شرار خلق الله عزّ وجل رجل سلَّم أخاه إلى سلطانه فقتل نفسه وقتل أخاه وقتل سلطانه**». وروىٰ البيهقيُّ ١٦٧/٨؛ عن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام؛ قال: سمعتُ أسقفًا من أهل نجران يكلِّم عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ، يقول: يا أمير المؤمنين احْذَرْ قاتلَ الثَّلاثة. قالَ عمرُ: ويلكَ وما قاتلُ الثَّلاثة؟ قالَ: الرَّجُلُ يأتي الإمامَ بالكَذِبِ؛ فيقتلُ الإمامُ ذلكَ الرَّجلَ بحديثِ هذا الكذَّاب، فيكونُ قد قتلَ وصاحبه وإمامه.

والأحنفُ[1] يقولُ: الثِّقَةُ لا يُبَلِّغ[2].

وحُقَّ لذي الوَجْهَيْنِ ألا يكونَ عند الله وَجِيهًا؛ وهو ما يَجْعَلُهُ من أخسِّ الطَّبائع وأرذلها.

ولي إلىٰ أبي[3] إسحاقَ إبراهيمَ بنِ عيسىٰ الثَّقفيِّ الشاعر ـ رحمه الله ـ وقد نَقَلَ إليه رجلٌ من إخواني عنِّي كَذِبًا علىٰ جهة الهَزَلِ، وكانَ هذا الشَّاعر كثيرَ الوَهْمِ؛ فأَغْضَبَهُ وصَدَّقَهُ، وكلاهما كانَ لي صَديقًا، وما كان النَّاقل إليه من أهل هذه الصِّفة؛ ولكنَّه كانَ المَزَّاحَ[4]، جمَّ الدُّعابة، فكتبتُ إلىٰ أبي إسحاقَ ـ وكانَ يقولُ بالخَبَرِ[5] ـ شعرًا منه: [من الطويل]

ولا تَتَبَدَّلْ قَالَةً قد سَمِعْتَها
تُقالُ ولا تدري الصَّحيحَ بما تَدْرِي

---

(١) العالم النَّبِيلُ الأحنفُ بن قيس التَّميمي، أحدُ مَن يُضْرَبُ بحلمه وسُؤْدُدِهِ المَثَلُ. أسلم في حياة النَّبي ﷺ، وَوَفَدَ علىٰ عُمَرَ. ماتَ سنة (٦٧)، أو (٧١)؛ على خلافٍ. مترجم في: «السِّير» ٤/(٢٩).

(٢) لم أقف عليه. وفي الأذكياء لابن الجوزي: غَضِبَ رَجُلٌ على رَجُلٍ؛ فقالَ له: ما أغضبكَ؟ قالَ: شيءٌ نقله إليَّ الثِّقَةُ عَنْكَ. فقال: لَوْ كانَ ثِقَةً؛ ما نَمَّ!

(٣) في الأصل: آل أبي.

(٤) كذا في الأصل، وجعلها برشيه ـ وتابعه (مكي) و(ع) ـ: كثير المُزاح. ويرىٰ الحربي صحة هذه القراءة.

(٥) يعني: أنَّه كانَ علىٰ مَذْهَبِ المصنِّف ـ رحمه الله ـ في اتباع الأثر، وإنكار القياس والرَّأي والتَّقْليد.

وقرأ السامرائيُّ: (بالجبر) ـ بالجيم مكان الخاء ـ، وزعم أن معنىٰ البيت الأول يدلُّ علىٰ هذا، ففيه إشارة ضمنيَّة ساخرة من معتقد أبي إسحاق، إذ يقول له ابن حزم: لا تقبل الأقاويل التي سمعت الناس يتداولونها؛ ما زلت لا تستطيع أن تعرف أي قول منها هو الحق!

قلت: وهذا التوجيه بعيد، خاصة أننا لا نمتلك ترجمة لأبي إسحاق، وكونه صديقًا لابن حزم؛ قرينة أقوىٰ علىٰ قوله بمذهب أهل الحديث والخبر من هذا التوجيه، والله أعلم.

كـــمَـــنْ قـــد أراقَ الـــمـــاءَ لـــلآلِ أَنْ بـــدا
فـلاقـىٰ الـرَّدىٰ فـي الأَفْـيـحِ الـمَـهْـمَـهِ الـقَـفْـر[1]/ (٥٠ب)

وكتبتُ إلىٰ الَّذي نقلَ عنِّي شعرًا منه: [من الطويل]

ولا تَزْعُمَنْ[2] في الجِدِّ مَزْحًا كمُولِجٍ فسادَ عِلاجِ النَّفْسِ طيَّ صَلاحها
ومَن كانَ نَقْلُ الزُّورِ أمضىٰ سلاحِهِ كمِثْلِ الحُبارىٰ تَتَّقي بِسُلاحها[3]

وكانَ لي صديقٌ مَرَّةً، وكَثُرَ التَّدْخِيلُ[4] بيني وبينه حتَّىٰ كدَحَ ذلك فيه، واستبانَ في وجهه، وفي لَحْظِهِ، وطُبعتُ علىٰ التَّأنِّي والتربُّصِ والمسالمة ما أَمكَنَتْ، ووجدتُ بالانخفاضِ سبيلًا إلىٰ معاودة المَوَدَّة، فكتبتُ إليه شعرًا، منه: [من الطويل]

ولي في الَّذي أُبدي مرامٍ لَو انَّها بَدَتْ ما ادَّعىٰ حُسْنَ الرِّمايةِ وِهْرِزُ[5]

وأقولُ مخاطبًا لعُبيد الله بنِ يحيىٰ الجَزيريِّ[6] ـ الَّذي يحفظُ لعمِّه

---

(١) الأَفْيح: الواسع. والمهمة القفر: الفلاة، لا ماء فيها ولا أنيس. (الحربي)
(٢) كذا الأصل، وأثبتها بتروف: تزعما. وعند برشيه: تَمْزُجَنْ. وقرأها (ع): تَدْغِمَنْ.
(٣) يشير إلى قولهم في المثل: اسلح (أو أذرق) من حبارىٰ. انظر: الدرّة الفاخرة: ٢٣٣، وجمهرة العسكري: ١/٥٣٤، والميداني: ١/٣٥٤، والمستقصى: ١/١٧٠.
(٤) [جعلها] برشيه: التَّدْجيل؛ ولا أراه صوابًا. والتَّدْخيل: مصدر دَخَلَ، وهو وإن لم يكن جاريًا على القياس؛ فإنه بمثابة: «الدِّخال»، والمقصود به هنا: الدُّخول بين اثنين للوقيعة والدَّسِّ (ع). وتقرأ في (خ): فكثر التدخل.
(٥) كان وهرز قائد الجيش الفارسي الذي أرسله كسرى لمعاونة سيف بن ذي يزن على طرد الأحباش وكان حاذقًا في الرماية (انظر مروج الذهب ٣:١٦٣ وما بعدها) (ع).
(٦) الجَزيريُّ: نسبة إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس، وهي على ساحل البحر عند الحجاز إلى سبتة وغيرها من بلاد المغرب. «توضيح المشتبه» ٢/٢٨٥.

الرسائلَ البليغة[1] ـ وكانَ طَبعُ الكَذِبِ قد استولىٰ عليه، واسْتَحْوَذَ علىٰ/ (٥١أ) عقله، وأَلِفَهُ أُلْفةَ النَّفْسِ الأَمَلَ، ويؤكِّدُ نقلَه وكذبه بالأيمان المؤكَّدةِ المغلَّظة، مجاهرًا بها؛ أكذبَ من السَّراب، مستهترًا بالكَذِبِ مشغوفًا به، لا يزالُ يحدِّث من قد صَحَّ عنده أنَّه لا يصدِّقه، فلا يزجره ذلك عن أنْ يحدِّث بالكذب: [من الطويل]

بدا كلُّ ما كَتَّمْتَهُ بينَ مُخْبِرٍ وحَالٍ أرتْني قُبْحَ عَقْدِكَ بيِّنَا
وكم حالةٍ صارتْ بَيانًا بحالةٍ كما تُثْبِتُ الأحكامَ بالحَبَلِ الزِّنا

وفيه أقولُ قطعةً منها: [من الطويل]

أَنَمُّ من المِرآة في كلِّ ما دَرىٰ وأقطعُ بين النَّاسِ من قُضُبِ[2] الهنْدِ
أظنُّ المَنايا والزمانَ تعلَّما تَحيُّلهُ بالقَطعِ بين ذوي الودِّ

وفيه ـ أيضًا ـ أقولُ من قصيدةٍ طويلةٍ: [من الطويل]

وأكذبُ من حُسْن الظُّنون حديثُه وأقبحُ من دَيْنٍ وفَقْرٍ مُلازِمِ/ (٥١ب)
أوامرُ ربِّ العرشَ أضيعُ عندهُ وأهونُ من شكوىٰ إلىٰ غَيْر راحم
تجمَّع فيه كلُّ خِزْيٍ وَفَضْحَةٍ فلم يُبْقِ شَتْمًا في المقالِ لشاتم

---

(١) قوله: يحفظ لعمه الرسائل البليغة، الأرجح أنه يقصد بهذا العم عبد الملك بن إدريس الجزيري (انظر الذخيرة ٤/١: ٤٦ ومراجع ترجمته مذكورة في الحاشية) أما ابن أخيه عبيدالله فمن العبث مساءلة المصادر عن أخبار من كان مثله سقوطًا وخسة؛ ولكن الأمر الذي يستحق التنبُّه هو: لماذا لم يحاول ابن حزم أن يخفي اسمه كما أخفى أسماء كثيرين غيره؟ وجعله مرمى لسهام هجائه، حتى كأنه كان مباءة لشتى ضروب الرذائل (انظر ٢٩ ـ باب قبح المعصية) (ع).

(٢) تقرأ في الأصل: قصب.

وأثقلُ من عَذْلٍ علىٰ غير قابلٍ وأبرَدُ بردًا مِنْ مدينةِ سَالِمِ[1]
وأبغضُ من بَيْنٍ وهَجْرٍ ورقْبةٍ جُمِعْنَ علىٰ حَرَّانَ حيرانَ هائم

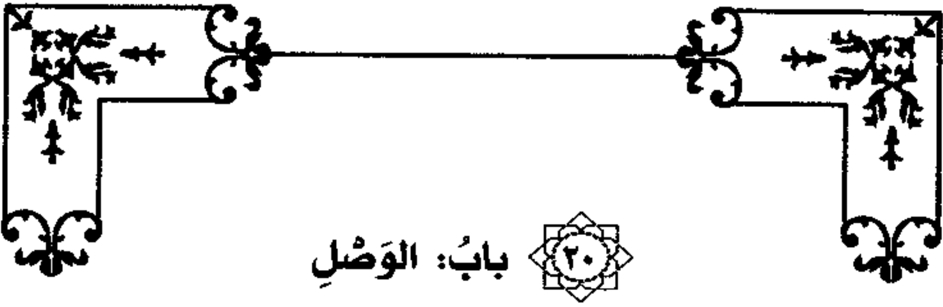
وليس مَنْ نبَّه غافلًا، أو نَصَحَ صديقًا، أو حفَّظ مُسْلمًا، أو حكىٰ عن فاسقٍ، أو حدَّث عن عدوٍّ - ما لم يَكْذِبْ، ولا يكذِّب، ولا تعمَّدَ الضَّغائن - منقِّلًا. وهل هلكَ الضُّعفاء، وسَقَطَ من لا عقل له إلا في قلَّةِ المعرفة بالنَّاصح من النَّمام، وهما صفتان متقاربتان في الظَّاهر متفاوتتان في الباطن،/ إحداهما داءٌ والأخرى دواء. والثَّاقِبُ القريحة لا يخفىٰ عليه (٥٢أ) أمرهما، لكنَّ المُنَقِّلَ من كان تَنْقِيلُهُ غير مرضيٍّ في الدِّيانة، ونوىٰ به التشتيتَ بَيْنَ الأولياء، والتضريبَ بين الإخوانِ، والتَّحْرِيشَ والتَّوْبِيشَ[2] والتَّرْقِيشَ. فمن خافَ إن سلكَ طريقَ النَّصِيحَةِ أن يقع في طريق النَّميمة، ولم يثقْ لنفاذ تمييزه، ومَضَاءِ تقديره فيما يَرده من أمور دنياه ومعاملة أهل زمانه؛ فليجعلْ دينَهُ دليلًا له، وسراجًا يستضِيءُ به؛ فحيثما سلكَ به سلكَ، وحيثما أوقفه [وَقَفَ]، وكفيلًا له بالنَّظَرِ، وزعيمًا بالإصابة، وضمانًا للفلج والخلاص[3]. فشارع الشَّريعة، وباعثُ الرَّسول - عليه السَّلام - ومرتِّبُ الأوامرِ والنَّواهي؛ أعلمُ بطريق الحقِّ، وأدرىٰ بعواقب السَّلامة، ومغبَّاتِ النَّجاة من كلِّ ناظرٍ لنفسه بزَعْمِهِ، وباحثٍ بقياسِهِ في ظَنِّهِ.

---

(١) مدينة سالم: (Medinacelli): تقع على بُعد ١٣٥ كيلومترًا على الطريق من مدريد إلى سرقسطة، وقد توفي المنصور بها ودُفن هنالك؛ وهي في منطقة شديدة البرودة شتاءً، فلذلك ضرب بها المثل هنا (انظر الإدريسي (دوزي): ١٨٩) (ع).

(٢) التَّوبيش: لعلها من وَبَش الكلام، وهو الرديء منه. وقرأ برشيه: «والتوحيش». وقال العلامة محمود شاكر: صوابه - بلا ريب -: التقريش.

(٣) في الأصل: وحيث ما أوقفه كفلا له بالنَّظَر رغمًا بالإصابة ضمان الفلج...، والتصحيح عن (ع)، وهو تصحيح جيد. وقد تخلَّص الصيرفي، ومكي، والطبعة البيروتية من هذه العبارة؛ من غير تنبيه ولا إشارة!



﴿٢٠﴾ بابُ: الوَصْلِ

ومن وُجُوه العِشْق الوَصْلُ.

وهو حَظٌّ رَفيعٌ، وَمَرْتَبَةٌ سَرِيَّةٌ، ودَرجةٌ عاليةٌ، وسَعْدٌ طالِعٌ، بل هو/ (٥٢ب) الحياةُ المجدَّدة، والعيشُ السَّنِيُّ، والسُّرور الدَّائم، ورحمةٌ من الله عظميةٌ، ولولا أنَّ الدُّنيا دار مَمرٍّ ومِحْنَةٍ وكَدَرٍ، والجنَّة دارُ جزاءٍ وأمانٍ من المكاره؛ لقلنا إنَّ وَصْلَ المحبوبِ هو الصَّفاءُ الذي لا كَدَرَ فيه، والفرحُ الذي لا شائبَةَ فيه ولا حُزْنَ معه، وكمالُ الأماني، ومنتهىٰ الأراجي.

ولقد جرَّبتُ اللَّذاتِ علىٰ تَصَرُّفها، وأدركتُ الحُظُوظ علىٰ اختلافها، فما للدُّنُوِّ من السُّلْطان، ولا لِلْمالِ المُسْتَفادِ[1]، ولا الوجودِ بعدَ العَدَم، ولا الأَوْبةِ بعدَ طولِ الغَيْبَة، ولا الأمْنِ بعدَ الخوف، ولا التَّرَوُّحِ[2] علىٰ المال؛ من المَوْقِع في النَّفسِ ما للوصل[3]، لا سِيَّما بعدَ طولِ الامتناع، وحُلُول

(١) خ: فما الدنوُّ من السلطان، ولا المالُ المستفادُ. والتغيير يقتضيه السياق.

(٢) التروح: أراد هذه الصيغة بمعنى الراحة، ولو كانت «التريح» لكانت بمعنى الشعور بالأريحية، وقرأ برشيه: ولا الأمن من بعد الخوفِ والنزوحِ عن الآل؛ وعلى تعسفه في القراءة فإنه يلمّح إلى الحال النفسية لدى ابن حزم في فقدانه الأمن ونزوحه عن وطنه وآله بعيد الفتنة (ع).

(٣) في الأصل: (ولا الأمن بعد الخوف من موقع في النفس والتروح علىٰ المال ما للوصل)، والمثبت عن بتروف والصيرفي ومكي و(ع)، وكأنَّ الناسخ أخطأ فقدَّم=

الهَجْر، حتَّىٰ يتأجَّجَ عليه الجوىٰ، ويتوقَّدَ لهيبُ الشَّوْقِ، وتتضرَّمَ نارُ الرَّجاء.

وما إصنافُ النَّباتِ[1] بعد غِبِّ القَطْرِ، ولا إشراقُ الأزاهير بعد إقلاع السَّحاب السَّارياتِ في الزَّمانِ السَّجْسَجِ، ولا خَرِيرُ المياه المُتَخَلِّلة لأفانينَ النُّوَّار، ولا تأنُّقُ القصورِ البِيضِ قد أَحْدَقَتْ بها الرِّياضُ الخُضْرُ؛ بأحسنَ من وَصْلِ حَبيبٍ قد رُضِيَتْ أخلاقه، وحُمِدَتْ غرائزُهُ[2]، وتقابلتْ في الحُسْنِ/ أوصافه. وَإِنَّه لمُعْجِزٌ ألسنةَ البلغاء، ومُقَصِّرٌ فيه بيانُ الفُصَحاءِ، وعنده تطيشُ الألبابُ، وتَعْزُبُ الأفهام. وفي ذلك أقول: [من البسيط] (٥٣أ)

وسائلٍ لِيَ عمَّا لي من العُمُر	وقد رأىٰ الشَّيْبَ في الفَوْدَيْنِ والعُذَرِ[3]
أَجَبْتُهُ ساعةٌ لا شيءَ أحسبُه	عُمرًا سواها بحُكْمِ العَقْلِ والنَّظَرِ
فقالَ لي: كيفَ ذا بَيِّنْهُ لي فلقد	أخبرتَني أشنعَ الأنْباءِ والخَبَرِ
فقلتُ إنَّ الَّتي قلبي بها عَلِقٌ	قَبَّلتها قُبْلَةً يومًا علىٰ خَطَرِ
فما أَعُدُّ ولو طالَتْ سِنِيَّ سِوىٰ	تلكَ السُّوَيْعَةِ بالتَّحْقِيقِ من عُمُري

ومن لذيذِ معاني الوَصْل المواعيدُ، وإنَّ للوَعْدِ المنتظَر مكانًا لطيفًا من شِغاف القلبِ؛ وهو ينقسم قسمَيْنِ: / (٥٣ب)

= وأخَّر. وقرأ السامرائي: (ولا الأمن بعد الخوف من الموقع في النفس والرُّوح على المحال ما للوصل).

(١) إصناف النبات: بدءُ ظهور إيراقه. وقرأ السامرائي: (وما اصطفاق النبات)، وأيَّد هذا بقول ابن حزم (٢٠ ـ باب الوصل):
يضحك الروض والسحائب تبكي كحبيب رآه صبّ
وفي «الصحاح» (مادة: صفق): والريح تصفق الأشجار فتصطفق: أي تضطربُ.

(٢) خ: غوايره. ويمكن تصحيح هذه القراءة: غوائره بمعنىٰ مداخله.

(٣) الفودان: جانبا الرأس. والعذار: جانب اللحية، والجمع: عُذُر. (الحربي)

أحدهما: الوَعْدُ بزيارةِ المحبِّ لمحبوبه. وفيه أقول قطعةً منها: [من البسيط]

أُسامِرُ البدرَ لمَّا أبطأَتْ وأرىٰ   في نورِهِ من سَنا إشراقِها عَرَضا
فبِتُّ مُشْتَرِطًا والوُدُّ مُختَلِطًا[1]   والوَصْلُ مُنْبَسِطًا والهَجْرُ مُنْقَبِضا

والثَّاني: انتظارُ الوَعْدِ من المحبِّ أنْ يزورَ محبوبه. وإنَّ لمبادئِ الوصل، وأوائل الإسعاف؛ لتولُّجًا علىٰ الفؤاد ليسَ لشيءٍ من الأشياء. وإنِّي لأعرفُ مَنْ كان مُمْتَحَنًا بهوىً في بعضِ المنازلِ المُصَاقِبَةِ فكانَ يصلُ متىٰ شاءَ بلا مانعٍ، ولا سبيلَ إلىٰ غيرِ النَّظَرِ والمحادثة زمانًا طويلًا، ليلًا متىٰ أحبَّ أو نهارًا، إلىٰ أن ساعدته الأقدار بإجابةٍ، ومكَّنَتْهُ بإسعادٍ، بعدَ يأسِهِ لطول المُدَّة، ولعهدي به قد كادَ أنْ يختلطَ عقلُهُ فرحًا، وما كادَ يتلاحَقُ كلامُهُ سرورًا، فقلتُ في ذلك: [من البسيط]

برغبةٍ لو إلىٰ ربِّي دعوتُ بها   لكان ذَنْبِيَ عِنْدَ الله مَغْفُورا / (٥٤أ)
ولَوْ دعوتُ بها أُسْدَ الفَلا لَغَدا   إضرارُها عن جميع النَّاسِ مَقْصُورا
فجادَ باللَّثْمِ لي من بَعْدِ مَنْعَتِه   فاهتاجَ مِنْ لَوْعَتي ما كانَ مَغْمُورا
كشاربِ الماء كي يُطْفِي الغليلَ به   فَغُصَّ فانصاعَ في الأجْداث مقبورا

وقلتُ: [من المتقارب]

جرىٰ الحُبُّ مِنِّيَ مَجْرَىٰ النَّفَسْ   وأعطيتُ عيني عِنَانَ الفَرَسْ

---

(١) كذا هذا الشَّطر في الأصل. وقرأها برشيه: فبتُّ مغتبطًا والودُّ معتبطًا. وقال (ع): والأصل والتَّصحيحُ عليه كلاهما قَلِقٌ، ولم أتبيَّن له وجهًا صحيحًا؛ ولعله لو كان «فبت مختلطًا والود مشترطًا» لكان ذا معنىً.

وَلـي سَـيِّـدٌ لـم يَـزَلْ نـافِـرًا ... ورُبَّـمـا[1] جـادَ لـي في الـخُـلَـسْ

فَـقَـبَّـلْـتُـهُ طـالِـبًـا راحَـةً ... فـزادَ أَلِـيْـلًا[2] بـقَـلْـبِـي الـيَـبَـسْ

وكـانَ فـؤادي كَـنَـبْـتٍ هَـشِـيـمٍ ... يَـبِـيـسٍ رمَـىٰ فـيـه رامٍ قَـبَـس

(٥٤ب) ومنها: /

ويـا جَـوْهَـرَ الـصِّـيـنِ سُـحْـقًا فَـقَـدْ ... غَـنِـيـتُ بـيـاقُـوتـةِ الأنـدلُـسْ[3]

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعرفُ جاريةً اشْتَدَّ وَجْدُها بفتىً من أبناءِ الرُّؤَسَاءِ، وهو لا عِلْمَ عنده، وكَثُرَ غَمُّها به، وطالَ أسفها إلىٰ أنْ ضَنِيتْ بحُبِّه، وهو بغرارة الصِّبا لا يشعرُ؛ ويمنعها مِنْ إبداءِ أمرها إليه الحياءُ مِنْهُ لأنَّها كانتْ بِكْرًا بخاتمها، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تَدْري لعلَّهُ [لا] يوافقه، فلمَّا تمادىٰ الأمرُ ـ وكانا إلْفَيْنِ[4] في النَّشْأَة ـ شَكَتْ ذلكَ إلىٰ امرأةٍ جَزْلَةِ الرَّأي، كانتْ تَثِقْ بها لتَوَلِّيها تربيتها، فقالتْ لها: عَرِّضي له بالشِّعْر. ففعلت المَرَّةَ بعدَ المرَّةِ، وهو لا يَأْبَهُ في كلِّ هذا. ولقد كانَ لَقِنًا ذكِيًّا، ولكنَّه لم يظنَّ ذلكَ فيميلَ إلىٰ تَفْتِيشِ الكلام بوَهْمِهِ، إلىٰ أنْ عِيلَ صبرُها،

---

(١) في الأصل: «وربَّما» ولا يتزيَّن به البيت. (الحربي)

(٢) الأليل: كالحنين أو الأنين، وزنًا ومعنًى. (الحربي)

(٣) الجواهر الفاخرة ثلاثة: الياقوت والزمرد واللؤلؤ، وليس واحد منها موطنه الصين، وأقربها إلى تلك البلاد الياقوت فإن موطنه سرنديب (انظر الجماهر للبيروني: ٨١، ٣٢ وصفحات أخرى) وقال التيفاشي: من جزيرة خلف سرنديب بأربعين فرسخًا، وهذا يقرب أن تكون الصين أو بعض الجزائر القريبة منها موطنًا له (أزهار الأفكار: ٦٣) ومهما يكن من شيء فإن الشاعر إنما يومىء إلى النفاسة التي تجعل التجّار يحملون الجواهر من مكان سحيق (ع).

(٤) تحرَّف في الأصل إلى: وكان اليقين.

وضاقَ صَدْرُها، ولم تُمْسِك نَفْسَها في قَعْدَةٍ كانتْ لها معه في بعض اللَّيالي مُنْفَرِدَيْن، ولقدْ كانَ/ ـ يعلمُ الله ـ عَفِيفًا مُتصاوِنًا بَعيدًا عن المعاصي، فلمَّا (٥٥أ) حَانَ قيامُها عنه بَدَرَتْ إليه فقبَّلَتْه في فمه، ثُمَّ وَلَّتْ في ذلكَ الحين، ولم تكلِّمه بكلمةٍ، وهي تتهادىٰ في مَشْيِها؛ كما أقولُ في أبياتٍ لي: [من البسيط]

كأنَّها حينَ تَخْطُو في تأوُّدِها ... قَضِيبُ نَرْجِسَةٍ في الرَّوْضِ مَيَّاسُ
كأنَّما خَطْوُها[1] في قلبِ عاشِقِها ... ففيه مِنْ وَقْعِها خَطْرٌ[2] وَوَسْواسُ
كأنَّما مَشْيُها مَشْيُ الحَمامَةِ لا ... كـدٌّ يُعابُ ولا بُطْءٌ به بَاسُ

فبُهِتَ وسُقِطَ في يده، وفُتَّ في عَضُدِه، ووَجَدَ في كَبِدِه، وَعَلَتْهُ وَجْمَةٌ، فما هو إلا أن غابتْ عن عَيْنِهِ، ووقعَ في شَرَكِ الرَّدَىٰ، واشتعلتْ في قلبه النَّارُ، وتَصَعَّدَتْ أنفاسُهُ، وترادَفَتْ أَوْجَالُه، وكَثُرَ قَلَقُهُ، وطالَ أَرَقُه، فما غَمَضَ تلكَ اللَّيلةَ عَيْنًا، وكانَ هذا بدءَ الحُبِّ بينهما دَهْرًا، إلىٰ أنْ/ جَذَّتْ حَبْلَيْهِما[3] يدُ النَّوىٰ. (٥٥ب)

وإنَّ هذا لَمِنْ مصايد إبليسَ، ودواعي الهوىٰ الَّتي لا يَقِفُ لها أحدٌ إلا من عَصَمَهُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ومن النَّاسِ من يقولُ: إنَّ دوامَ الوَصْلِ يُودي بالحُبِّ. وهذا هَجِينٌ من القول، إنَّما ذلكَ لأهل المَلَلِ، بل كلَّما زادَ وَصْلًا زادَ اتِّصالًا.

وعنِّي أخبركَ أنِّي ما رويتُ قطُّ من ماءِ الوَصْلِ، ولا زادني إلا ظَمأً،

---

(١) خ: خطرها. وجعلها بتروف: خلدها. وما أثبته فقراءه (ع).
(٢) هذه قراءة (مكي) و(ع)، وفي الأصل: حفر.
(٣) خ: جملتها. والتصحيح للأستاذ محمود شاكر رحمه الله.

وهذا حكمُ من تداوىٰ بِدَائِهِ؛ وإِنْ رَفَهَ عَنْهُ شَيْئًا ما[1]. ولقد بلغتُ من التَّمَكُّنِ بمَنْ أحبُّ أبعدَ الغايات الَّتي لا يَجِدُ الإنسانُ وراءها مَرْمَىً فما وجدتُني إلا مُسْتَزِيدًا، ولقد طالَ بي ذلكَ فما أَحْسَسْتُ بسَآمةٍ، ولا رهقَتْني فَتْرَةٌ.

وقد ضمَّني مجلسٌ مع بعض من كنتُ أحبُّ فلم أُجِلْ خاطري في فنٍّ من فنون الوَصل إلا وجدتُهُ مُقَصِّرًا عن مرادي، وغيرَ شافٍ وَجْدي، ولا قاضٍ أَقلَّ لبانة من لباناتي، ووجدتُني كلَّما ازددتُ دُنُوًّا ازددتُ تَلَوُّذًا[2]،/ (٥٦أ) وقدحتْ زنادُ الشَّوق نارَ الوَجْدِ بين ضُلُوعي، فقلتُ في ذلك المجلس: [من الطويل]

وَدِدْتُ بأنَّ القَلْبَ شُقَّ بِمُدْيَةٍ ... وأُدْخِلْتِ فيه ثم أُطْبِقَ في صَدْري
فأصبحتِ فيه لا تَحِلِّينَ غيرَه ... إلىٰ مُقْتَضَىٰ[3] يوم القيامة والحَشْر
تَعيشِينَ فيه ما حَيِيْتُ فإنْ أَمُتْ ... سَكَنْتِ شِغافَ القَلْبِ في ظُلَمِ القَبْرِ

وما في الدُّنيا حالةٌ تعدِلُ مُحِبَّين إذا عدما الرقباءَ، وأَمِنَا الوشاةَ، وسَلِما من البَيْنِ، ورغبا عن الهَجْر، وبَعُدا عن المَللِ[4]، وفقدا العُذَّال، وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المَحَبَّة، وأتاحَ الله لهما رِزْقًا دارًّا، وعيشًا قارًّا، وزمانًا هاديًا، وكانَ اجتماعُهما علىٰ ما يُرْضِي الربَّ من الحَال[5]، وطالتْ صُحبتهما، واتَّصَلَتْ إلىٰ وقتِ حُلول الحِمامِ الذي لا

---

(١) هذه قراءة برشيه، وتبعه (ع)؛ وهي قراءة جيدة، وفي المخطوط: (تداوى برأيه، وإن رفه عنه سريعًا).
(٢) غُيِّرت عند (مكي) و(ع) إلى: وُلُوعًا.
(٣) هذه قراءة (مكي) و(ع)، وفي الأصل: منقضي.
(٤) خ: الملك.
(٥) جعلها (ع): من الحلال.

مردَّ له ولا بدَّ منه. هذا عطاءٌ لم يحصل عليه أحدٌ، وحاجةٌ لم تُقْضَ لكلِّ طالبٍ، ولولا أنَّ مع/ هذه الحال الإشفاقَ من بغتات المقادير المُحْكَمَة في (٥٦ب) غيب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من حُلول فراقٍ لم يكتَسَب، واخترام مَنِيَّةٍ في حال الشَّباب، أو ما أشبهَ ذلكَ، لقلتُ إنَّها حالٌ بعيدةٌ من كلِّ آفةٍ، وسليمةٌ من كلِّ داخلةٍ.

ولقد رأيتُ من اجتمعَ له هذا كلُّه، إلا أنَّه كانَ دُهِيَ في من كانَ يُحِبُّه بشَراسةِ أخلاقٍ، ودالةٍ على[1] المَحَبَّة، فكانا لا يتهنَّيان العَيْش، ولا تَطْلُعُ الشَّمْسُ في يومٍ إلا وكانَ بينهما خلافٌ فيه، وكلاهما كانَ مطبوعًا بهذا الخُلُق، لثقةِ كلٍّ واحدٍ منهما بمحبَّة صاحبه[2]، إلىٰ أن دبَّتِ النَّوىٰ بينهما فتفرَّقا بالموتِ المرتَّبِ لهذا العالم. وفي ذلكَ أقول: [من المنسرح]

كَيْفَ أَذُمُّ النَّوىٰ وأَظْلِمُها ... وكلُّ أَخْلاقِ مَنْ أُحِبُّ نَوىٰ

قد كانَ يَكْفي هوىً أضيقُ بهِ ... فكيفَ إذْ حَلَّ بي نوىً وهوىٰ

وَرُوي عن زيادِ بنِ أبي سفيانَ[3] ـ رحمه الله ـ أنَّه قالَ لجُلسائه:

---

(١) خ: علم.

(٢) قد قال المصنِّفُ في باب «علامات الحبِّ» في المحبَّيْن إذا قويتْ محبَّتهما وتأكَّدتْ كَثُر تهاجرهما لغير معنًى. ولكنه ذكر هنا واحدًا من المعاني التي ذكرتها في التعليق على كلامه هناك. فإنه لا معنى لأن تكون أقوال وأفعال لغير معانٍ ظاهرة أو باطنة، فما من فعل يفعله الفاعل ولا حركة يتحركها، ولا قولًا ولا خلقًا إلا وله باعث معلوم، ولو خَفِي. (الحربي)

(٣) ويقال له: زياد بن أبيه، وهو: زياد بن سُمَيَّة؛ وهي أمُّه، واستلحقه معاوية ـ رضي الله عنه ـ بأنَّه أخوه. وكان تابعيًّا خيِّرًا فاضلًا، ولد عام الهجرة، وأسلم زمن الصِّدِّيق وهو مراهق، استكتبه أبو موسىٰ الأشعري، واستعمله على شيء من البصرة؛ فأقرَّه عمر، ثم صار مع عليٍّ، فاستعمله على فارس، وولَّاه معاوية إمرة المِصْرَيْن: الكوفة والبصرة، ولم يُجمعا قبله لغيره، وأقام في ذلك خمس سنين، وكان من نبلاء الرِّجال؛ رأيًا، وعقلًا، وحَزْمًا، ودهاءً، وفطنةً. كان يضرب به المثل في النُّبل والسُّؤْدُد. توفي سنة: **(٥٣هـ)**. ترجمته ومصادرها في: «السِّير» **٣/(١١٢)**.

(٥٧أ) مَن/ أنعمُ الناس عِيشَةً؟ قالوا: أميرُ المؤمنين. فقالَ: وأينَ ما يلقىٰ من قريشٍ؟ قيل: فأنتَ. قال: أينَ ما ألقىٰ من الخَوارجِ والثُّغُورِ؟ قيلَ: فَمَنْ أيُّها الأميرُ؟ قال: رجلٌ مسلمٌ له زوجةٌ مسلمةٌ، لهما كفافٌ من العَيْشِ، قد رَضِيَتْ به ورضيَ بها، لا يعرفنا ولا نعرفه[1].

وهل فيما وافَقَ إعجابَ المَخْلُوقِينَ، وجَلا القُلُوبَ، واستمالَ الحواسَّ، واستهوىٰ النُّفوسَ، واستولىٰ علىٰ الأهواءِ، واقتطعَ الألبابَ، واختلسَ العقولَ؛ مُسْتَحْسَنٌ يعدِلُ إشفاقَ مُحِبٍّ علىٰ محبوبٍ! ولقد شاهدتُ من هذا المعنىٰ كثيرًا، وإنَّه لمِنَ المناظر العجيبةِ الباعثةِ علىٰ الرِّقَّةِ الرَّائِقَةِ المعنىٰ، لا سِيَّما إنْ كانَ هوىً يَكْتَتِمُ به. فلو رأيتَ المحبوبَ حينَ يَعْرِضُ بالسُّؤال عن سَبَبِ تَغَضُّبٍ[2] بمُحِبِّه، وخَجْلَتَهُ في الخُروجِ مِمَّا وقعَ فيه بالاعتذار، وتوجيهَه إلىٰ غيرِ وَجْهِهِ، وتَحَيُّلَهُ في استنباط معنىً يُقيمه عند/ (٥٧ب) جُلَسَائه؛ لرأيتَ عجبًا ولذَّةً مَخْفِيَّةً لا تقاومها لَذَّةٌ. وما رأيتُ أجلَبَ لِلْقُلوبِ، ولا أغوصَ علىٰ حَبَّاتِهَا، ولا أنفذَ للمقاتلِ من هذا الفعلِ. وإنَّ للمُحبِّينَ في الوَصْل من الاعتذار ما عَجَّزَ أهلَ الأذهانِ الذَّكِيَّةِ[3]، والأفكارِ القَوِيَّةِ. ولقد رأيتُ في بعض المَّراتِ هذا؛ فقلت: [من السريع]

إذا مزجتَ الحقَّ بالباطلِ   جَوَّزت ما شِئْتَ علىٰ الغافلِ

---

(١) أخرجه الخطَّابيُّ في: «العزلة» ٦٩ من طريق: الأصمعي، قال: حدثنا محمد بن حرب الزيادي، قال حدثني أبي، قال: قال زياد لجلسائه: من أغبط النَّاس عيشًا؛ قالوا: الأمير وجلساؤه، فقال: ما صنعتم شيئًا إن لأعواد المنبر هيبة، وإن لقرع لجام البريد لفزعة، ولكن أغبط الناس عندي رجل له دار لا يجري عليه كراؤها، وله زوجة صالحة قد رضيته ورضيها فهما راضيان بعيشهما، لا يعرفنا ولا نعرفه، لأنَّه إن عرفنا وعرفناه أتعبنا ليله ونهاره، وأفسدنا دينه ودنياه. وهو في: «بهجة المجالس» ١/ ١١؛ وفي غيره.

(٢) خ: تغضبه.

(٣) خ: الزَّكيَّة.

وفيهما فَرْقٌ صَحِيحٌ له   علامةٌ تبدو إلىٰ العَاقِلِ
كالتِّبْرِ إنْ تَمْزِجْ به فِضَّةً   جازتْ علىٰ كلِّ فتىً جاهلِ
وإن تُصادِفْ صائِغًا ماهِرًا   مَيَّزَ بين المَحْضِ والخائِلِ[1]

وإنِّي لأعلمُ فتىً وجاريةً: كان يَكْلَفُ كلُّ واحدٍ منهما بصاحبه، فكانا يَضْطَجِعانِ إذا حضرهما أحدٌ وبينهما المُسْنَدُ العظيمُ من المساند الموضوعة عند ظهور الرُّؤَساء علىٰ الفُرُشِ، ويلتقي رأساهما وراء المسند ويقبِّلُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ولا يُرَيان، وكأنَّهما إنَّما يتمدَّدانِ من الكَلَلِ؛ ولقد كان بلغا[2] من تكافِيهما في المودَّة أمرًا عظيمًا، إلىٰ أن كانَ الفتىٰ المُحبُّ ربَّما استطال عليها. وفي ذلكَ أقول: [من السَّريع] / (٥٨أ)

ومن أعاجيب الزَّمَان الَّتي   طَمَّتْ علىٰ السَّامِعِ والقَائِل
رَغبةُ مَرْكوبٍ إلىٰ راكبٍ   وذِلَّةُ المَسْؤُول للسَّائل
وَطَوْلُ مَأْسُورٍ إلىٰ آسِرٍ   وصَوْلَةُ المَقتولِ للقاتل
ما إن سَمِعْنا في الورىٰ قبلها   خضوعَ مَأْمُولٍ إلىٰ آمل
هل ها هنا وَجْهٌ تراه سِوىٰ   تواضعِ المَفْعُولِ للفاعل

ولقد حدَّثَتْني امرأةٌ ـ أَثِقُ بها ـ أنَّها شاهدتْ فتىً وجاريةً كان يَجِدُ كلّ واحدٍ منهما بصاحبه فَضْلَ وَجْدٍ، قد اجتمعا في مكانٍ على طَرَبٍ، وفي يدِ الفتىٰ سِكينٌ يقطع بها بعضَ الفواكه، فجرَّها جرًّا زائدًا فقَطَعَ إبهامَهُ قطعًا لطيفًا ظهَر فيه دَمٌ، وكانَ علىٰ الجارية غَلاَلَةُ

---

(١) الخائل: المشتبه الأمر.

(٢) خ: بلغ.

قَصَبٍ خَزائِنِيَّةٌ، لها قِيمةٌ، فَصَرَّفَتْ يدها وخَرَقَتْها، وأخرجتْ منها فضلةً شَدَّ بها إبهامه./ (٥٨ب)

وأما هذا الفعل للمحبِّ فقليلٌ في ما يَجِبُ عليه، وفَرْضٌ لازمٌ، وشريعةٌ مؤدّاةٌ، وكيفَ لا وقد بَذَلَ نفسه ووَهَبَ رُوحَه، فما يَمْنَعُ بعدهما؟!

خَبَرٌ:

وأنَا أدركتُ بنتَ زكرِيَّا بنِ يحيىٰ التَّميميِّ، المعروفِ بابنِ بَرْطال[١]، وعمُّها كانَ قاضيَ الجماعةِ بقرطبة: محمَّدُ بنُ يحيىٰ[٢]، وأخوها[٣] الوزيرُ القائدُ الَّذي كانَ قَتَلَهُ غالبٌ، وقائدَيْنِ له[٤] في الوقعة المشهورة بالثُّغور، وهما: مروانُ بنُ أحمدَ بنِ شهيدٍ، ويوسفُ بنُ سعيدٍ العكِّيُّ[٥]، وكانتْ

---

(١) زكريا بن يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال، كان فقيهًا نبيلًا في الفتيا وعقد الشروط، تصرَّف في القضاء ببطليوس وباجة أيام الناصر والمستنصر وتوفي سنة ٣٥٩ (ابن الفرضي ١ :١٧٨ وترتيب المدارك ٤ :٥٦١) وأخته بريهة هي أم المنصور بن أبي عامر (الحلة السيراء ١ :٢٧٥) (ع).

(٢) محمد بن يحيى بن زكريا التميمي المعروف ـ أيضًا ـ بابن برطال (أخو زكريا المتقدّم ذكره والخال الثاني للمنصور) له رحلة إلى المشرق وسماع كثير، ولما عاد إلى الأندلس ولاّه الناصر قضاء كورة رية، وتولّى في صدر دولة المؤيد هشام قضاء كورة جيان وأحكام الشرطة فلما توفي ابن زرب (٣٨١) تولّى قضاء الجماعة بقرطبة، وبقي حتى سنة ٣٩٢ وقد علت سنُّه وتفلَّت ذهنه، فعُزل عن القضاء ونُقل إلى الوزارة وتوفي ٣٩٤ (وعمره ست وتسعون سنة) (ابن الفرضي ٢: ١٠٧ ـ ١٠٩ والنباهي: ٨٤ وترتيب المدارك ٤ :٥٦٢) (ع).

(٣) في الأصل: وأخوه. والتَّصويب من عمل بروفنسال استنادًا إلى الوقائع التاريخية.

(٤) في الأصل: إليه.

(٥) كانت هذه الوقعة سنة ٣٧٠هـ بين المنصور وغالب بن عبد الرحمٰن (انظر البيان المغرب ٢ :٢٧٩)؛ وقد كان مروان بن أحمد بن شهيد من رجالات الدولة أيام الحكم، أرسله سنة ٣٦٣ إلى العسكر المقيم بالعدوة خازنًا على أوقار الأموال التي =

متزوجةً بيحيىٰ بن محمَّدِ بن الوزير يحيىٰ بن إسحاق[1]، فعاجلته المنيَّةُ[2]؛ وهما في أغضِّ عيشهما، وأنْضَرِ سُرورهما، فبلغ من أسفها عليه أنْ باتَتْ معه في دِثارٍ واحدٍ ليلةَ ماتَ، وجعلته آخر العهدِ به وبِوَصْلِهِ، ثُمَّ لم يفارقها الأسفُ بعده إلىٰ حين موتها.

وإنَّ للوَصْل المُخْتَلَس الَّذي يُخاتَلُ به الرُّقباءُ، وَيُتَحَفَّظُ به من الحُضَّر ـ مثلَ الضَّحكِ المستورِ، والتَّنْحنة، وجولان الأيدي، والضَّغْط بالأجناب، والقَرْصِ باليد والرِّجل ـ لموقعًا من النَّفْسِ شَهِيًّا. وفي ذلك أقولُ: [من المديد]/ (٥٩أ)

إنَّ لِلوَصْلِ الخَفِيِّ مَحَلًّا ... ليسَ لِلْوَصْلِ المكينِ الجَلي
لَذَّةٌ تَمْزُجُها بارْتِقابٍ ... كَمَسِيرٍ في خُلال النَّقِي

خَبَرٌ:

ولقد حدَّثني ثِقَةٌ من إخواني ـ جليلٌ من أهل البيوتاتِ ـ أنَّه كانَ عَلِقَ في صباه جاريةً كانتْ في بَعْضِ دور آلِهِ، وكانَ ممنوعًا منها، فهامَ عَقْلُهُ بها؛ قال لي: فتنزَّهْنا يومًا إلىٰ بعض ضياعنا بالسَّهلَةِ ـ غربيَّ

= وجبت للجند وغيرهم، وعاد في ذي الحجة من العام نفسه (المقتبس، ط. بيروت، ص: ١٦٨، ١٨٣) ولم أجد ذكرًا ليوسف بن سعيد العكي؛ ولكن ابن الفرضي ترجم لمن اسمه سعيد بن مرشد العكي وجعل وفاته سنة **٣٧٣** (ابن الفرضي ١: **٢٠٤**) (ع).

(١) يحيىٰ بن إسحاق الوزير ـ فيما ذكر ابن حزم نفسه ـ أديب فاضل غلب عليه الطب فبرع فيه وذكر به، وله في ذلك كتب نافعة يعتمد عليها (الجذوة: **٣٥١** والبغية رقم: **١٤٦**) ولم أجد ذكرًا لابنه محمد ولا لحفيده يحيىٰ الذي يدور الخبر حوله وحول زوجه بنت ابن برطال (ع).

(٢) في الأصل: المنايا.

قرطبةَ ـ مع بعض أعمامي، فتمشَّيْنا في البساتين، وأبعَدْنا عن المنازل، وانْبَسَطْنا علىٰ الأنهار، إلىٰ أن غيَّمَتِ السَّماء، وأقبل الغَيْثُ، فلم يكن بالحَضْرة من الغطاء ما يكفي الجميع؛ قال: فأمر عمِّي ببعضَ الأغطية فأُلْقيَ عليَّ وأمرها بالاكْتِنانِ معي. فظنَّ بما شِئْتَ من التَّمَكُّنِ علىٰ أعين الملأ وهم لا يشعرون، ويا لكِ مِن جَمْعٍ كخَلاءٍ، واحتفالٍ كانفراد! قال لي: فوالله لا نَسِيتُ ذلكَ اليومَ أبدًا. ولعهدي به ـ وهو يحدِّثُني بهذا الحديث ـ وأعضاؤُهُ كلُّها تضحكُ، وهو يهتزُّ/ (٥٩ب) فرحًا على بُعْدِ العَهْدِ، وامتدادِ الزَّمَان. ففي ذلكَ أقولُ شعرًا منه: [من الخفيف]

يَضحكُ الرَّوْضُ والسَّحَائِبُ تَبْكِي كحَبِيبٍ رآهُ صَبٌّ مُعَنَّى

خَبَرٌ:

ومن بديع الوَصْلِ ما حدَّثني به بعضُ إخواني: أنَّه كانَ في بعض المنازلِ المصاقبةِ له هَوىً، وكانَ في المَنْزِلَيْنِ موضِعٌ مطَّلِعٌ من أحدهما علىٰ الآخر، فكانتْ تقفُ له في ذلك المَوضع، وكان فيه بعضُ البُعْدِ، فتُسَلِّمَ عليه ويدها ملفوفةٌ في قميصها. فخاطبها مستخبرًا لها عن ذلك، فأجابته: إنَّه ربَّما أُحِسَّ من أمرنا شيءٌ، فوقفَ لكَ غيري، فسلَّم عليكَ فرددتَ عليه فصحَّ الظَّنُّ، فهذه علامةٌ بيني وبينكَ، فإذا رأيتَ يدًا مكشوفةً تشيرُ نحوكَ بالسَّلام فليستْ يدي، فلا تجاوب.

وربَّما استحليَ الوصالُ، واتَّفَقَتِ القلوبُ حتَّى يقعَ التَّجْليح[1] في

(١) التجليح: الإقدام الشديد والتصميم في الأمر، والمضيُّ، والسَّير الشديد، ومنه: حَمْلةُ السَّبُع.

الوصال، فلا يُلْتَفَتُ إلىٰ لائمٍ، ولا يُسْتَتَرُ من حافظٍ، ولا يُبالَىٰ بناقلٍ، بل العَذْلُ ـ حينئذٍ ـ يُغري./ (٦٠أ)

وفي صفةِ الوصل أقول شعرًا منه: [من السريع]

كـم دُرتَ حَوْل الـحُـبِّ حتَّى لـقـد ... حَـصَـلْـتَ فيه كـحُـصـوُلِ الـفَـراشْ

ومنه:

تَـعْـشُو إلىٰ الـوَصْـلِ دواعـي الـهَـوىٰ ... كـمـا سَـرَى نَـحْـوَ سَـنـا الـنَّـارِ عـاشْ

ومنه:

عَـلَّـلَـنـي بـالـوَصْـلِ مـنْ سَـيِّـدي ... كـمِـثْلِ تـعـليـلِ الـظِّـمـاءِ الـعِـطـاشْ

ومنه:

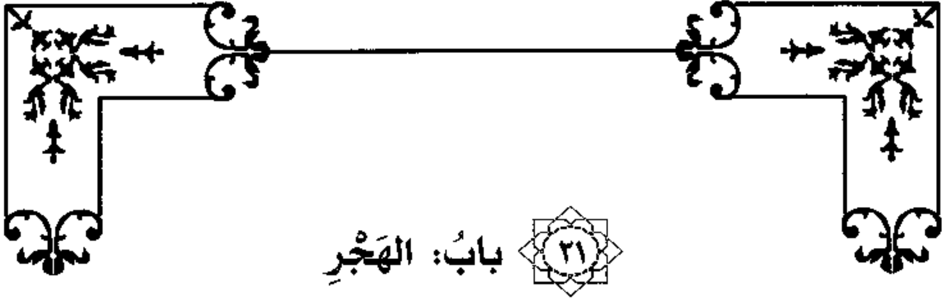
لا تُـوقِـفِ الـعَـيْـنَ عـلـىٰ غَـايَـةٍ ... فـالـحُـسْـنُ فـيه مُـسْـتَـزِيـدٌ وفَـاش[1]

وأقولُ من قصيدةٍ لي: [من السريع]

هـل لـقَـتـيـلِ الـحُـبِّ مـن وادي[2] ... أم هَـلْ لـعـانـي الـحُـبِّ مـن فـادي
أمْ هـل لـدَهْـري عَـوْدةٌ نَـحْـوَهـا ... كـمِـثْـلِ يـومٍ مَـرَّ فـي الـوادي/ (٦٠ب)
ظـلـلـتُ فـيـه سَـابِـحًـا صَـاديًـا ... يـا عـجـبًـا لـلـسَّـابـحِ الـصَّـادي
ضَـنِـيـتُ يـا مـولايَ وَجْـدًا فـمـا ... تُـبـصِـرُنـي ألـحـاظُ عُـوَّادِي
كـيفَ اهـتـدَىٰ الـوَجْـدُ إلـىٰ غـائـبٍ ... عـن أعـيـنِ الـحـاضِـرِ والـبـادِي
مَـلَّ مُـداواتـي طَـبِـيـبـي فَـقَـدْ ... يَـرْحَـمُـنِـي لـلـسُّـقْـمِ حُـسَّـادي

---

(١) هذه قراءة برشيه وتبعه (ع)، وفي الأصل: وباش.
(٢) وادي: اسم فاعل من «ودىٰ» بمعنىٰ: دافع الدِّية.



(٣١) باب: الهَجْرِ

ومن آفاتِ الحُبِّ ـ أيضًا ـ الهَجْرُ، وهو علىٰ ضروب:

ـ فأوّلها: هَجْرٌ يُوجِبُه تحفُّظٌ من رقيبٍ حاضرٍ. وإنَّه لأَحْلَىٰ من كلِّ وَصْلٍ، ولولا أنَّ ظاهرَ اللَّفْظِ، وحكمَ التَّسميةِ؛ يوجبُ إدخالَهُ في هذا الباب لَرَجَأْتُ[1] به عنه، ولأجْللته عن تسطيره فيه، فحينئذٍ ترىٰ الحبيبَ منحرفًا/ (٦١أ) عن مُحبِّه، مقبلًا بالحديثِ علىٰ غيره، مُعْرِضًا كمعرِّضٍ[2] لِئَلَّا تلحقَ ظَنَّتُهُ أو تَسْبِقَ استرابَتُهُ، وترىٰ المُحِبَّ ـ أيضًا ـ كذلكَ، ولكنَّ طَبْعَهُ له جاذبٌ، ونفسه له صارِفةٌ بالرَّغْمِ، فتراهُ ـ حينئذٍ ـ مُنْحَرِفًا كمُقبِلٍ، وساكتًا كناطِقٍ، وناظرًا إلىٰ جهةٍ نَفْسُهُ في غيرها؛ والحاذِقُ الفَطِنُ إذا كَشَفَ بوَهْمِهِ عن باطنِ حديثهما عَلِمَ أنَّ الخافيَ غيرُ البادي، وما جَهَرَ به غيرُ نفس الخَبَرِ، وإنَّه لمن المشاهد الجالبة للفِتنِ، والمناظرِ المحرِّكة للسَّواكن، الباعِثَة للخواطِر، المهَيِّجة للضَّمائر، الجاذبة للفُتُوَّةِ. ولي أبياتٌ

(١) كذا في الأصل وبتروف، وأثبته برشيه: (لأرجأتُ)، وعند الصيرفي ومكي و(ع): (لرجعت). ويقترح السامرائيُّ: (لربأتُ)؛ أي: ترفَّعتُ عنه ولم أرتضه. ويعلِّله بأن مراد ابن حزم أن هذا النوع من الهجر يضطر إليه العشَّاق، فلا يناسب أن يذكر في باب الهجر ـ الذي لا يكون إلَّا اختيارًا ـ إلَّا لاتفاق التسمية.

(٢) هكذا في الأصل، وهو الذي صوَّبه العلامة محمود شاكر، وتحرَّف عند بتروف إلىٰ: «معرّضًا لمعرّض».

في شيءٍ من هذا ـ أوردتها؛ وإنْ كانَ فيها غير هذا المعنىٰ علىٰ ما شرطنا ـ منها: [من الطويل]

يلومُ أبو العبَّاسِ جَهْلًا بطَبْعِهِ   كما عيَّرَ الحُوتُ النَّعامَةَ بالصَّدىٰ[1]

ومنها:

وكم صاحِبٍ أكرمتُه غيرَ طائِعٍ   ولا مُكرَهٍ إلا لأمرٍ تُعُمِّدا
وما كانَ ذَاكَ البِرُّ إلا لغَيْرِه   كما نَصَبُوا للطَّيْرِ بالحَبِّ مِصْيَدا/ (٦١ب)

وأقولُ من قصيدةٍ محتويةٍ علىٰ ضروبٍ من الحِكَم، وفنونٍ من الآداب الطبيعية: [من الطويل]

وسَرَّاءُ أَحْشَائي لمْن أنا مؤثرٌ   وسَرَّاءُ أَنْبَائي لمَنْ أَتَحَبَّبُ
فقد يُشْرَبُ الصَّابُ الكريهُ لِعلَّةٍ   وَيُتْرَكُ صَفْوُ الشَّهْدِ وهو مُحَبَّبُ
وأُعْذَلُ في إجهادِ نَفْسيَ في الَّذي   أُريدُ وأَنِّي فيه أشقىٰ وأتعب
هل اللؤلؤُ المكنونُ والدرُّ كلُّه   رأيتَ بغير الغَوْص في البَحْر يُطْلَبُ
وأَصْرِفُ نَفْسي عن وجوهِ طِباعِها   إذا في سواها صَحَّ ما أنا أرغبُ
كما نَسَخَ اللّهُ الشَّرائِعَ قبلنا   بما هو أَدْنَى للصَّلاح وأقربُ
وَأَلْقىٰ سَجَايا كُلِّ خُلقٍ بِمِثْلِها   وَنَعْتُ سَجَايايَ الصَّحِيحُ المُهَذَّبُ/ (٦٢أ)
كما صارَ لونُ الماءِ لونَ إنائه   وفي الأصلِ لونُ الماء أبيضُ مُعْجِبُ

(١) الصدى: الظمأ؛ والعرب في أمثالها تقول: أروى من حوت، لأنه لا يفارق الماء. وتقول: أظمأ من حوت وأعطش من حوت. يزعمون بلا بيِّنة أنه يعطش وهو في البحر، وفي الوقت نفسه يقولون: أروى من نعامة (لأنها مستغنية عن الماء)؛ انظر هذه الأمثال في «الدرّة الفاخرة». (ع).

ومنها:

أقمتُ ذَوي وُدِّي مُقامَ طبائِعي ... حَياتِي بها والمَوْتُ مِنْهُنَّ يُرْهَبُ

ومنها:

وما أَنَا مِمَّنْ تَطَّبِّيه[1] بشاشةٌ ... ولا يقتضي ما في ضَمِيري التَجَنُّبُ

أزيدُ نِفَارًا عندَ ذلكَ باطِنًا ... وفي ظاهري أهلٌ وسَهْلٌ ومَرْحَبُ

فإنِّي رأيتُ الحَرْبَ يَعْلُو اشتعالُها ... ومبدؤُها في أوَّل الأَمْرِ مَلْعبُ

ولِلحَيَّةِ الرَّقْشَاءِ وَشْيٌ ولونُها ... عَجِيبٌ وتحتَ الوَشْي سُمٌّ مُرَكَّبُ

(٦٢ب) وإنَّ فِرِنْدَ السَّيْفِ أعجبُ مِنْظَرًا ... وفيه إذا هُزَّ الحِمامُ المُذرَّبُ/

وأَجعلُ ذُلَّ النَّفْسِ عِزَّةَ أهلِها ... إذا هيَ نالتْ ما بها فيه مَذْهَبُ

فقد يضعُ الإنسانُ في التُّرْبِ وَجْهَهُ ... ليأتي غدًا وهو المَصُونُ المقرَّبُ

فذُلٌّ يَسُوقُ العِزَّ أجُودُ للفتىٰ ... من العزِّ يَتلوه من الذُّل مَرْكَبُ

وكم مأْكَلٍ أربَتْ عواقِبُ غِبِّهِ[2] ... ورُبَّ طَوىً بالخِصْب آتٍ ومُعْقِبُ

وما ذاقَ عِزَّ النَّفْسِ من لا يُذِلّها ... ولا التذَّ طَعْمَ الرَّوْحِ من ليس يَنصَبُ

وُرودُكَ بُعْدَ[3] الماءِ من بَعْدِ ظَمْأَةٍ ... ألذُّ من العَلِّ المَكينِ وأعذبُ

ومنها:

(٦٣أ) وفي كلِّ مَخلوقٍ تراهُ تَفَاضُلٌ ... فَرُدْ طيِّبًا إنْ لم يُتَحْ لكَ أطيبُ/

ولا تَرْضَ وِرْدَ الرَّنْقِ إلَّا ضَرُورةً ... إِذَا لم يكنْ في الأرض حاشاه مَشربُ

---

(١) تستميله. (الحربي)

(٢) هذه قراءة (ع)، وفي الأصل: غِبِّه. وأثبتها بتروف: غِبَّةٍ. وعند برشيه: غُبَّةٍ. و(أَربَتْ) قد تقرأ في الأصل: (أُرِيَت).

(٣) كذا في الأصل، وهكذا أثبتها بتروف، وجعلها برشيه: بعض، و(مكي): نهل. و(ع): نَغْبَ. وقال الحربي: ولعلها: (بَرْدَ).

ولا تَقْرَبَنْ مِلحَ المياه فإنَّها شَجَىً والصَّدا بالحَرِّ أولىٰ وأوجبُ

ومنها:

فَخُذْ مِن جَداها ما تيسَّرَ واقتنعْ ولا تَكُ مَشْغُولًا بمَنْ هو يَغْلِبُ
فما لكَ شَرْطٌ عندَها لاَ ولا يَدٌ ولا هِيَ إنْ حَصَّلْتَ أُمٌّ ولا أبُ

ومنها:

ولا تَيْأَسَنْ مِمَّا يُنالُ بحِيلَةٍ وإن بَعُدتْ فالأمرُ يَنأَىٰ ويَصْعُب
ولا تأْمَنِ الإظلامَ فالفَجْرُ طالِعٌ ولا تَلْتَبِسْ بالضَّوْءِ فالشَّمْسُ تغْربُ

ومنها:

أَلِجَّ[1] فإنَّ الماءَ يكْدَحُ في الصَّفا إذا طالَ ما يأْتي عليه وَيذْهَبُ/ (٦٣ب)
وكَثِّرْ ولا تَفْشَلْ وَقَلِّلْ كثيرَ ما فَعلْتَ فماءُ المُزْنِ جَمٌّ ويَنْضَبُ
فلو يتغَذّىٰ المَرْءُ بالسُّمِّ قاتَهُ وقامَ لَهُ مِنْهُ غِذاءٌ مُجَرَّبُ

ـ ثُمَّ هَجْرٌ يُوجبه التَّدَلُّلُ وهو ألذُّ من كثيرِ الوصَال، ولذلك لا يكونُ إلَّا عن ثِقَةِ كلِّ واحدٍ من المتحابَّيْنِ بصاحبه، واسْتِحْكام البصيرة في صِحَّةِ عَقْدِهِ، فحينئذٍ يُظْهر المحبوبُ هِجْرانًا ليرىٰ صَبْرَ مُحِبِّه، وذلك لئلَّا يصفوَ الدَّهْرُ البَّتَةَ، وليأسفَ المحبُّ إنْ كانَ مُفرطَ العشق عند ذلك لا لما حَلَّ؛ لكنْ مخافةَ أنْ يترقَّىٰ إلىٰ ما هو أجلُّ فيكونُ ذلكَ الهجرُ سببًا إلىٰ غيره، أو/ خوفًا من آفةِ حادثِ مَلَلٍ. (٦٤أ)

(١) أَلِجَّ: هكذا بالجيم، وجعلها (ع): أَلِحّ؛ بالحاء. قال الحربي: وهو الأظهر؛ لأنه لم يسمع «أَلَجَّ» الرباعي، وزعم اللحياني ثبوته، قال ابن سِيدَه: ولا أدري أهو إدلال فيه أم تجاسر. ومعنىٰ «لجَّ» مضىٰ في الأمر بعزم. ويقال: أَلَجَّ القومُ: إذا صاحوا. وانظر: «التاج» (مادة: لجج).

ولقد عَرَضَ لي في الصِّبا هَجْرٌ مع بعضِ من كُنْتُ آلفُ، علىٰ هذه الصِّفَةِ وهو لا يلبثُ أنْ يَضْمَحِلَّ ثم يعودَ؛ فلما كَثُرَ ذلك قلتُ علىٰ سبيل المُزَاح شعرًا بديهيًا ختمتُ كلَّ بيتٍ منه بقسيم من أوَّل قصيدةِ طَرَفَةَ بنِ العبد المعلَّقة ـ وهي الَّتي قرأناها مشروحةً علىٰ أبي سعيد الفتىٰ الجعفريِّ، عن أبي بكرٍ المقرىءِ، عن أبي جعفرٍ النَّحَّاس[1]، رحمهم الله، في المسجد الجامع بقرطبة ـ وهي: [من الطويل]

تـذكَّـرْتُ وُدًّا لـلـحـبـيـبِ كـأنَّـهُ ... «لـخـولَـةَ أطـلالٌ بـبـرقـةِ ثَـهْـمَـدِ»

وعَـهـدي بـعـهـدٍ كـانَ لـي منه ثـابـتٍ ... «يلوحُ كباقي الوَشْم في ظاهر اليدِ»

وقـفـتُ بـه لا مُـوقِـنًـا بِـرُجُـوعِـهِ ... «ولا آيسًا أبكي وأُبكي إلىٰ الغدِ»

(٦٤ب) إلىٰ أن أَطالَ النَّاسُ عَذْلي وأكثروا ... «يـقـولُـونَ لا تَـهـلَـكْ أسىً وتـجـلَّـدِ»/

كـأنَّ فـنـونَ الـسُّـخْـطِ مِـمَّـنْ أحِـبُّـه ... «خلايا سَفِينٍ بالنَّواصِف من دَدِ[2]»

كأنَّ انقلابَ الهَجْرِ والوَصْل مَركَبٌ ... «يـجـورُ به الـمَـلَّاحُ طَورًا ويَـهْـتَـدي»

---

(١) هذا هو السند الذي نقلت به «المعلقات التسع» إلى الأندلسيين عن شارحها ابن النحاس؛ أخذها عنه أبو بكر محمد بن علي الأذفوي وعن الأذفوي أخذها أبو سعيد خلف مولى الحاجب جعفر، الفتى المقرىء المعروف بالجعفري؛ وهذا الفتى الجعفري سكن قرطبة، ثم رحل إلى المشرق فسمع بمكة، ولقي الأذفوي بمصر وأخذ عن علماء القيروان، وكان من أهل القرآن والعلم نبيلًا من أهل الفهم، مائلًا إلى الزهد والانقباض، خرج عن قرطبة في الفتنة وقصد طرطوشة وتوفي بها سنة **٤٢٥** وقيل **٤٢٩** (فهرسة ابن خير **٣٦٦ ـ ٣٦٩**، وانظر ترجمته أيضًا في الصلة: **١٦٤**) وأما أبو بكر الأذفوي (نسبة إلى أذفو ـ بالذال المعجمة، أو بالدال المهملة ـ بصعيد مصر) فقد كان نحويًا مفسرًا مقرئًا ثقة، وكان يتجر بالخشب، وله كتاب التفسير في القرآن في مائة وعشرين مجلَّدًا، وكانت وفاته بمصر سنة **٣٨٨** (غاية النهاية **٢:١٩٨** وعبر الذهبي **٣:٤١**) قلت: وفي تسمية ابن خير لها «المعلقات التسع» تجوز لأن ابن النحاس أنكر التعليق جملة وسماها القصائد التسع (ع).

(٢) الناصفة من الماء: مجراه من الوادي. و«الدَّدُ»: اللهو. (الحربي)

فوقْتَ رضىً يَتْلُوُهُ وَقتُ تسخُّطٍ «كما قَسَمَ التُّربَ المفايِلُ باليدِ»
ويَبْسِمُ نَحْوِي وهو غَضبانُ مُعْرِضٌ «مُظاهرُ سِمطَيْ لُؤْلِؤٍ وزَبَرْجَدِ»

ـ ثُمَّ هَجْرٌ يُوجِبُهُ العتابُ لذَنبٍ يقعُ من المُحِبِّ. وهذا فيه بعضُ الشِّدَّةِ، لكنَّ فَرْحَةَ الرَّجْعَةِ، وسرورَ الرِّضىٰ؛ يعدلُ ما مضىٰ، فإنَّ لرضىٰ المحبوبِ بَعْدَ سَخَطِهِ لذَّةً في القلب لا تَعْدِلُها لذَّةٌ، وموقعًا من الرُّوح لا يفوقُهُ شيءٌ من أسباب الدنيا./ (٦٥أ)

وهل شاهدَ مشاهدٌ، أو رأتْ عينٌ، أو قامَ في فكرٍ؛ ألذُّ وأشهىٰ من مقامٍ قد قامَ عنه كلُّ رقيبٍ، وَبَعُدَ عنه كلُّ بغيضٍ، وغابَ عنه كلُّ واشٍ، واجتمعَ فيه مُحِبَّانِ قد تصارما لذنبٍ وَقَع من المُحِبِّ منهما، وطال ذلك قليلًا، وبدأ نقضُ[1] الهَجْرِ، ولم يكن ثَمَّ مانعٌ من الإطالةِ للحديث، فابتدأ المُحِبُّ في الاعتذار والخضوع والتذلُّلِ، والادِّلاء[2] بحُجَّتِهِ الواضحة من الإدلال والإذلال والتذمُّم بما سَلَفَ، فطورًا يدلُّ ببراءته، وطورًا يَرُدُّ بالعفو، ويستدعي المغفرةَ، ويقرُّ بالذنبِ؛ ولا ذَنْبَ له، والمحبوبُ في كلِّ ذلك ناظرٌ إلىٰ الأرضِ، يُسارقُهُ اللَّحظَ الخفيَّ، وربَّما أدامه فيه، ثم يَبْسِمُ مُخْفِيًا لتبسُّمِهِ، وذلك علامة الرِّضىٰ، ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر، وتقبُّل القول، وامتحَّتْ ذنوبُ النَّقْلِ، وذهبتْ آثارُ السَّخْطِ، ووقع الجوابُ بنَعْمَ وذنبكُ مغفورٌ؛ ولو كانَ، فكيفَ ولا ذنبَ! وختما أمرهما بالوصلِ المُمْكِنِ،/ وسقوطِ العتاب والإسعاد، وتفرقًا علىٰ هذا؟! (٦٥ب)

هذا مكانٌ تتَقاصَرُ دونَه الصِّفاتُ، وتتلكَّنُ بتحديده الألْسِنَةُ.

---

(١) تقرأ في الأصل: بعض. وهكذا قرأها بتروف، والتَّصحيح عن الأستاذ محمود شاكر رحمه الله، وقال: والسّياق دالٌ عليه.

(٢) في الأصل: الأدلة. والتَّصحيح عن برشيه.

ولقد وطئتُ بساطَ الخلفاء، وشاهدتُ محاضِرَ المُلُوك، فما رأيتُ هيبةً تعدلُ هيبةَ مُحِبٍّ لمحبوبه؛ ورأيتُ تمكُّنَ المُتَغَلِّبينَ علىٰ الرُّؤساءِ، وتحكُّمَ الوزراء، وانبساطَ مُدَبِّري الدُّوَل؛ فما رأيتُ أشدَّ تبجُّحًا، ولا أعظمَ سُرورًا بما هو فيه من محبٍّ أيقنَ أنَّ قلبَ محبوبه عنده، وَوَثِقَ بميله إليه، وصِحَّةِ مودَّته له. وحضرتُ مقامَ المُعْتَذِرينَ بين أيدي السَّلاطين، ومواقفَ المتَّهمين بعظيم الذُّنُوبِ مع المتمرّدين الطَّاغينَ؛ فما رأيتُ أذلَّ من موقفِ محبٍّ هَيمَانَ بينَ[1] يديْ محبوبٍ غضبانَ؛ قد غَمَرَهُ السَّخَطُ، وغلبَ عليه الجَفاءُ.

ولقد امتحِنتُ بِكِلا الأَمْرَين، وكنتُ في الحالةِ الأولىٰ أشدَّ من الحديد وأنفذَ من السَّيْفِ، لا أجيبُ إلىٰ الدَّنيَّةِ، ولا أساعدُ علىٰ الخُضُوعِ، وفي الثَّانية أذلَّ من الرِّداءِ، وأليَنَ من القُطْنِ، أُبادرُ إلىٰ أقصىٰ غاياتِ التَّذَلُّلِ؛ لو/ نفع، وأغتنمُ فرصةَ الخُضُوع؛ لو نَجَعَ، وأتحلَّلُ بلساني، (٦٦أ) وأغوصُ علىٰ دقائِقِ المعاني ببياني، وأُفْتَنُّ[2] القولَ فنونًا، وأتصدَّىٰ لكلِّ ما يوجب التَّرضِّي.

والتَّجنِّي بعضُ عوارضِ الهِجْران، وهو يقع في أوَّلِ الحبِّ وآخره، فهو في أوَّله علامةٌ لصِحَّةِ المحبَّة، وفي آخره علامةٌ لفتورها وبابٌ للسُّلُوِّ[3].

خَبَرٌ:

وأذكرُ في مثل هذا أنِّي كنت مجتازًا في بعض الأيام بقرطبة من مقبرة

(١) في الأصل: مع.
(٢) قد تقرأ في الأصل: وأُفنِّنُ.
(٣) خ: بابُ السلوّ.

باب عامرٍ، في لمَّةٍ من الطُّلاب وأصحاب الحديث، ونحنُ نريدُ مجلسَ الشَّيخ أبي القاسم عبدِ الرَّحمٰن بن أبي يزيدٍ المصريِّ[1] بالرُّصافة؛ أستاذي - رضي الله عنه -، ومعنا أبو بكرٍ عبدُالرَّحمن بنُ سليمانَ البلويُّ[2] من أهل سَبْتَةَ، وكانَ شاعرًا مفلقًا. وهو ينشد لنفسه في صفة متجنٍّ معهودٍ أبياتًا له، منها: [من الطويل]

سَريعٌ إلىٰ ظَهْرِ الطَّريق وإنَّه ... إلىٰ نَقْضِ أسباب المودَّةِ أسْرع
يطُولُ عَلينا أن نرقِّع وُدَّه ... إذا كانَ في تَرْقيعِهِ يتقَطَّع/ (٦٦ب)

فوافقَ إنشادُ البيتِ الأوَّل من هذين البيتين خطورَ أبي [عليٍّ] الحسينِ بنِ عليّ الفاسيِّ[3] - رحمه الله - وهو يؤمُّ - أيضًا - مجلسَ ابن أبي يزيدٍ، فسمعه فتبسَّم - رحمه الله - نحونا، وطوانا ماشيًا، وهو يقول: بل إلى عَقْدِ المودَّةِ إن شاء الله. هذا على جِدِّ أبي عليٍّ - رحمه الله - وَفَضْلِهِ، وتقرِّيه، وبراءته، ونُسْكِهِ، وزُهْده، وعلمه[4]. فقلتُ في ذلك: [من الكامل]

---

(١) أبو القاسم عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي يزيد الأزدي المصري، الصوّاف النَّسّابة. دخل الأندلس سنة (٣٩٤)، وكان أديبًا حُلْوًا، حافظًا للحديث وأسماء الرِّجال، وله أشعار في كلِّ فنٍّ، وسكن قرطبة حتى وقعت الفتنة فعاد إلى مصر، وتوفي سنة (٤١٠) «الصّلة» ٣٣٧، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة ٤١ /ترجمة: ٣١٧).

(٢) عبد الرحمٰن بن سليمان البلوي، أبو بكر، كان أديبًا شاعرًا من أهل العلم (الجذوة: ٢٥٤، والبغية: ١٠١٤).

(٣) الحسين بن علي الفاسي أبو علي، كان من أهل العلم والفضل مع العقيدة الخالصة والنية الجميلة، قضى عمره في طلب العلم، ومازحه ابن حزم يومًا قائلًا: متى تنقضي قراءتك على الشيخ؟ (يعني عبد الرحمٰن بن أبي يزيد الأزدي) فأجابه: إذا انقضى أجلي (انظر ترجمته في الجذوة: ١٨١، والبغية: ٦٤٨، والصلة: ١٣٨ وسماه «الحسن») (ع).

(٤) يريدُ السامرائيُّ أن تُقرأ: (وفضله وفقهه ونزاهته...) بدلالة الصفات التي بعدها: =

دعْ عنكَ نَقْضَ مَوَدَّتي مُتَعَمِّدًا   واعْقِدْ حِبالَ وصالِنا يا ظالِمُ
فلترجَعَنَّ[1] أردْتَهُ أو لم تُرِدْ   كَرْهًا لما قالَ الفقيهُ العالِمُ

ويقع فيه الهَجْرُ والعتاب؛ ولعمري إنَّ فيه ـ إذا كان قليلًا ـ للذَّةً، وأمَّا/ إذا تفاقم فهو فَأْلٌ غيرُ محمودٍ، وأمارةٌ وَبِيئَةُ المصدر، وعلامةُ سُوءٍ، وهي بجملةِ الأمر مطيّةُ الهِجْران، ورائدُ الصَّريمة، ونتيجةُ التَّجَنِّي، وعنوانُ الثِّقْل، ورسولُ الانفصال، وداعيةُ القِلىٰ، ومقدَّمةُ الصَّدِّ، وإنَّما يُسْتَحْسَنُ إذا لَطُفَ، وكان أصله الإشفاقُ. وفي ذلك أقول: [من الوافر]

(٦٧أ)

لعلَّكَ بَعْدَ عَتْبِكَ أنْ تَجُودا   بما منه عَتَبْتَ وأنْ تَزِيدا
فَكَمْ يومٍ رأيَنا فيه صَحْوًا   وأُسْمِعْنَا بآخِرِهِ الرُّعُودا
وعادَ الصَّحوُ بعدُ كما عَلِمْنا   وأنتَ كذاكَ نَرْجُو أن تَعُودا

وكانَ سببَ قولي هذه الأبيات عتابٌ وقعَ في يومٍ هذه صفته من أيَّام الرَّبيع؛ فقلتُها في ذلك الوقت.

(٦٧ب) وكان لي في بعض الزَّمَنِ صديقان، وكانا أخوَيْنِ، فغابا في سَفَرٍ ثُمَّ/ قَدِما، وقد أصابني رَمَدٌ فتأخَّرا عن عيادتي، فكتبتُ إليهما ـ والمخاطبة للأكبر منهما ـ شعرًا منه: [من المتقارب]

= (ونسكه وزهده وعلمه)، ولما أورد ابن بشكوال في وصفه: «وكان رحمه الله ناهيك به سرورًا، ودينًا، وعقلًا، وورعًا، وتهذيبًا، وحُسن خلق».

(١) جعلها بتروف: (ولترجعنَّ).

وكـنــتُ أعَــدِّد أَيْـضًـا عــلــىٰ أخِـيـكَ بـمُـسْـؤلِـمَـةِ الـسَّــامِـع
ولـكـنْ إذا الـدَّجْـنُ غَـطَّـىٰ ذُكَـا[1] فـمـا الـظَّـنُّ بـالـقَـمَـرِ الـطَّـالِـع

ـ ثُمَّ هَجْرٌ يُوجبه الوُشاةُ، وقد تقدَّم القولُ فيهم وفيما يتولَّدُ من دبيبِ عقاربهم، وربَّما كانَ سببًا للمقاطعة البتَّةَ.

ـ ثُمَّ هَجْرُ المَلَلِ، والمللُ من الأخلاقِ المَطْبُوعَة في الإنسان.

وأحرى لمن دُهي به ألا يصفوَ له صديقٌ ، ولا يَصِحَّ له إخاءٌ، ولا يثبتَ علىٰ عهدٍ، ولا يصبرَ على إلفٍ، ولا تطولَ مساعدته لمُحبٍّ، ولا يُعْتَقَد منه ودٌّ ولا بغضةٌ.

وأولى الأمورِ بالنَّاس ألا يقرِّبوه[2] منهم، وأن يَفِرُّوا عن صحبته ولقائه، فلن يَحْلوا[3] منه بطائلٍ، ولذلك أبعدنا هذه الصِّفَةَ عن المُحبّين/ (٦٨أ) وجعلناها في المحبوبين، فهم بالجملة أهل التَّجَنِّي، والتَّظَنِّي، والتَّعرض للمقاطعة؛ وأما من تزيّا باسم الحُبِّ وهو مَلولٌ فليس منهم، ذلكَ حقُّهُ أن يبهرج مذاقُه[4]، ويُنْفَىٰ عن أهلِ هذه الصِّفة، ولا يدخل في جملتهم.

---

(١) البيت يتزيَّن بإثبات الهمزة منونة، بل هو الأصل، ولكنه بالحذف يتسق مع البيت الذي قبله. (الحربي)

(٢) في الأصل وعند بتروف: (يغرّوه)، والمثبت عن برشيه و(ع)، وجعلها القاسمي: (يعدُّوه)، وقال: وقد أبدلها بعض المحققين بلفظة: «يقربوه» ولا يتناسب ذلك مع حرف الجر اللاحق بالتركيب.
قلت: كأنه قرأها: (يَقْرَبوه)، والصواب: (يُقَرِّبوه)؛ فلا إشكال.

(٣) هذه قراءة (ع)، وتقرأ في الأصل: (يخلوا) بالخاء، وهكذا أثبتها بتروف، وجعلها القاسمي: (يَحْظَوا).

(٤) تقرأ في الأصل: (بهرج مذاقه)، و(ذلك) ساقط من طبعة بتروف. وعند برشيه: (أن يُهجر مذاقه)، وجعلها (ع) في طبعته الأولىٰ ـ تبعًا للصيرفي ومكي ـ: (وحقُّه ألا =

وما رأيتُ قَطُّ هذه الصِّفة أشدَّ تغلبًا منها علىٰ أبي عامرٍ محمَّدِ بن [أبي] عامرٍ[1] ـ رحمه الله ـ، فلو وَصَفَ لي واصفٌ بعضَ ما علمته منه لما صَدَّقْتُهُ.

وأهلُ هذا الطَّبعِ أسرعُ الخَلْقِ مَحَبَّةً، وأقلُّهم صَبْرًا علىٰ المحبوب وعلىٰ المكروه؛ وبالضِّدِّ، وانقلابهم[2] عن الودِّ على قدر تسرُّعهم إليه؛ فلا تَثِقْ بمَلُولٍ، ولا تُشْغِلْ به نفسك، ولا تُعَنِّها بالرَّجاءِ في وفائه. فإن دُفعتَ إلىٰ محبَّته ضرورةً فعُدَّه ابنَ ساعته، واستأنِفْهُ كلَّ حينٍ من أحيانه بحسب ما تراه من تلوُّنه، وقابِلْهُ بما يشاكِلُهُ.

ولقد كانَ أبو عامرٍ ـ المُحدَّثُ عنه ـ يَرَىٰ الجاريةَ فلا يَصبرُ عنها، ويَحيقُ به من الاغتمام والهمِّ ما يكادُ أن يأتيَ عليه حتَّىٰ يملكها، ولو حالَ دونَ ذلكَ/ شوكُ القتاد، فإذا أيقنَ بتصيُّرها إليه عادتْ المَحبَّةُ نفارًا، وذلك (٦٨ب) الأنسُ شُرودًا، والقلقُ إليها قَلَقًا منها، ونزاعه نحوها نزاعًا عنها، فيبيعها بأوكسِ الأثمان. هذا كان دأبَهُ حتَّىٰ أتْلَفَ فيما ذكرنا من عشراتِ ألوف الدنانير عددًا عظيمًا.

وكان ـ رحمه الله ـ مع هذا من أهل الأدب، والحَذْقِ،

= يتجرع مذاقه)، وفي الثانية: (وحقه أن يبهرج مذاقه)، وقد استفاد هذا من السامرائي. أما القاسمي فغيَّرها إلىٰ: (وحقه أن يحرم مذاقه)!

(١) يرد على الخاطر للوهلة الأولى أنه: المنصور بن أبي عامر، ولكن ذلك مستحيل، لأن المنصور توفي وعمر ابن حزم ثماني سنوات، وفي سنٍّ كهذه يستحيل أن يقصَّ عليه الحكايات التي سوف يوردها ابن حزم في آخر الباب نقلًا عنه. وأرجِّح ـ على سبيل اليقين ـ أنه ابنٌ لعبد الملك المظفَّر، أي أنه حفيد المنصور بن أبي عامر، وكان يحمل اسم جدِّه. (مكي).

(٢) قرأها العلامة محمود شاكر: وبالضِّدِّ انقلابهم.

والذَّكاء، والنُّبْل، والحلاوة، والتَّوَقُّدِ، مع الشَّرف العظيم، والمنصب الفَخْمِ، والجاه العريض، وأما حُسْنُ وجهه، وكمالُ صورته[1]؛ فشيءٌ تقف الحدودُ عنه، وتَكِلُّ الأوهامُ عن وصف أَقلِّه، ولا يتعاطىٰ أحدٌ وصفه. ولقد كانَتْ الشَّوارِعُ تخلوُ من السَّيَّارةِ، ويتعمَّدونَ الخُطورَ علىٰ بابَ داره ـ في الشَّارع الآخذِ من النَّهر الصَّغير علىٰ باب دارنا في الجانب الشرقي بقُرطبة إلىٰ الدَّرب المتَّصِل بقصرِ الزَّاهرة، وفي هذا الدَّرْبِ كانتْ داره ـ رحمه الله ـ ملاصِقةً لنا ـ لا لشيءٍ إلا للنَّظْرةِ منه[2].

ولقد ماتَ من محبَّتِهِ جوارٍ كنَّ عَلَّقْنَ أوهامَهُنَّ به، ووَفَيْنَ[3] له؛ فخَانَهُنَّ مِمَّا أَمِلْنَهُ منه، فصِرْنَ رهائنَ البِلَىٰ، وقَتَلَتْهُنَّ الوحدةُ. وأنا أعرفُ/ (٦٩أ) جاريةً منهنَّ كانت تسمَّىٰ عفراءَ، عهدي بها لا تَسْتَتِرُ بمحبَّتِهِ حَيْثُما جلستْ، ولا تجفُّ دُمُوعها، وكانتْ قد تصيَّرَتْ من داره إلىٰ البركاتِ الخيَّالِ ـ صاحبِ الفتيان[4] ـ.

---

(١) خ: وأما حسن وجهٍ، وكمال صورةٍ.

(٢) هذه قراءة العلامة شاكر، وفي الأصل: للنَّظر منه.

(٣) هذه قراءة (ع)، وفي الأصل: (وربين)، وأثبتها بتروف: (وزُئِينَ)، ثم صححها في جدول الأخطاء إلى: (ورثين)، وتبعه مكي. وعند برشيه: (وربين)، وقرأ السامرائيُّ: (وتَرَنَّيْنَ)، وقال: ترنَّىٰ: أدام النظر إلىٰ محبوبه. وأحال إلىٰ «القاموس المحيط» (مادة: رنو)، وفيه: الرُّنُوُّ ـ كعُلُوٍّ ـ: إدامة النظر بسكون الطَّرف، كالرَّنا، ولهوٌ مع شغل قلبٍ وبصرٍ وغلبة هوىً. والرَّنا: ما يُرىٰ إليه لحسنه. وأرناه الحُسن ورنَّاه وهو رُنوُّها: أي يرنو إلىٰ حديثها، ويعجب به.

(٤) يريد بروفنسال أن يقرأ: إلى أبي البركات الخيالي صاحب البنيان، ذلك لأنه يرى أنه لم تكن هناك خطة تسمى «صاحب الفتيان» ويكون الخيالي نسبة إلى «خيال» زوج الحاجب عبد الملك المظفر (انظر الأندلس: **٣٥٢** وترجمة غومس: **٢٠٠** الحاشية؛ ومكي: **١٠٥**) (ع).

ولقد كانَ ـ رحمه الله ـ يُخبرني عن نفسه أنَّه يَمَلُّ اسمه فضلًا عن غير ذلك!

وأمَّا إخوانه فإنَّه تبدَّلَ بهم في عُمره ـ على قِصَرِه ـ مرارًا، وكانَ لا يثبُتُ على زيٍّ واحدٍ كأبي بَراقِشَ[1]؛ حينًا يَكونُ في ملابسِ المُلوك، وحينًا في ملابس الفُتَّاك.

فيجبُ علىٰ من امْتُحِنَ بمخالطة مَن هذه صِفَتُهُ ـ علىٰ أيِّ وجهٍ كانَ ـ ألاَّ يستفرغَ عامَّةَ جَهْده في مَحَبَّتِه، وأنْ يُقيمَ اليأسَ مِنْ دوامه خَصْمًا لنفسه، فإذا لاحَتْ له مخايلُ المَلَلِ قاطَعَهُ أيَّامًا حتَّىٰ يَنْشَطَ بالُه، ويَبْعُدَ به عنه، ثُمَّ يُعاوده، فربَّما دامت المَودَّة مع هذا. وفي ذلك أقول: [من المجتث]

لا تَرْجُوَنَّ مَلُولًا   لَيْسَ المَلُولُ بِعُدَّهْ
وُدُّ المَلُولِ فَدَعْهُ   عارِيَّةٌ مُستَرَدَّهْ

ـ ومن الهَجْرِ ضَرْبٌ يكونُ متولِّيه المُحِبُّ، وذلكَ عندما يرىٰ مِن (٦٩ب) جَفاءِ/ محبوبه، والميل عنه إلىٰ غيره، أو لثقيلٍ يلازمه؛ فيرىٰ الموتَ وتَجَرُّعَ غُصَصِ الأسىٰ، والعضَّ علىٰ نقيفِ الحَنْظَلِ[2]؛ أهونَ من رؤية ما يكره، فينقطعُ وكَبِدَهُ تَتَقَطَّعُ؛ وفي ذلك أقول: [من السريع]

---

(١) أبو براقش ـ فيما قيل ـ طائر منقّش بألوان النقوش يتلوّن في اليوم ألوانًا ويضرب به المثل للمتلوّن (ثمار القلوب: **٢٤٧**) ويبدو أن هذا هو مفهوم المشارقة فقد جاء في (Vocabulista) أنه يقابل (Stellio, drago) وأنه يرادف «حرباء» (انظره ص: **٥٩١** ونبّه إليه بروفنسال في الأندلس: **٣٥٣**) (ع).

(٢) نقيف الحنظل، أي: حبُّه ولبُّه. والنَّقف: كسر الهامة عن الدِّماغ. ويقال: حنظل نقيف، أي: منقوف، وهو أن جانبي الحنظل ينقُضُها بظُفُره، أي: يضربها، فإن صوَّت علم أنَّها مدركة فاجتناها.

هَجرْتُ مَنْ أهواهُ لا عَنْ قِلىً ... يا عَجَبًا للعاشقِ الهَاجِرِ
لكنَّ عَيْني لم تُطِقْ نَظْرةً ... إلىٰ مُحيًّا الرَّشأ الغادرِ
فالموتُ أحلىٰ مَطْعَمًا مِنْ هَوَىً ... يُباحُ للواردِ والصَّادر
وفي الفؤادِ النَّارُ مَذكِيَّةٌ ... فاعجبْ لصَبٍّ جَزِعٍ صَابِرِ
وقد أباحَ الله في دِينهِ ... تَقِيَّةَ المَأْسُورِ للآسِر
وقد أَحلَّ الكُفْرَ خَوْفَ الرَّدىٰ ... حتَّىٰ ترىٰ المُؤمِنَ كالكَافِر/ (١٧٠أ)

خَبَرٌ:

ومن عَجيب ما يكونُ فيها وشنيعِهِ أنِّي أعرفُ مَنْ هامَ قَلْبُه بمتناءٍ عنه، نافرٍ منه، فقاسىٰ الوَجْدَ زَمَنًا طَويلًا، ثُمَّ سَنحتْ له الأيَّامُ بسانحةٍ عجيبةٍ من الوَصْلِ، أشرفَ بها علىٰ بلوغ أمله، فحينَ لم يكن بينه وبين غايةِ رجائهِ إلَّا كـ «لا» و «لا»[1] عاد الهجرُ والبعدُ إلىٰ أكثر ما كانَ قبل، فقلتُ في ذلك: [من السريع]

كانتْ إلىٰ دَهْريَ لي حَاجةٌ ... مقرونةٌ في البُعْدِ بالمُشتري
فسَاقَها باللُّطْفِ حتَّىٰ إذا ... كانتْ من القُرب علَىٰ مَحْجري[2]
أبْعدها عنِّي فعَادَتْ كأنْ ... لم تَبْدُ للْعَيْنِ ولم تَظْهر

وقلتُ: [من الطويل]

دنَا أملي حتَّىٰ مَدَدْتُ لأخذهِ ... يَدًا فانْثنَىٰ نَحْوَ المَجَرَّةِ راحلا

---

(١) إلَّا كـ«لا» و«لا»: دلالة على قصر الزَّمن، وهو تعبير مشهور. وفي الأصل: كهاولاء. وكأنَّ النَّاسخ قد أشكلت عليه قراءة النسخة التي نقل عنها؛ فأراد تقليد صورة ما ورد فيها مع شيء من التَّحوير.

(٢) المحجر: العظم المحيط بالعين، أي قريبة جدًا.

(٧٠ب) فأصبحتُ لا أرجوُ وقد كنتُ موقِنًا وأضحىٰ مع الشِّعرىٰ وقد كانَ حاصِلا/
وقد كنتُ مَحْسُودًا فأصبحتُ حاسِدًا وقد كنتُ مأمولًا فأصبحتُ آملا
كذا الدَّهْرُ في كَرَّاتِهِ وانتقاله فلا يأمَنَنَّ الدَّهْرَ مَنْ كانَ عاقلا

- ثُمَّ هَجْر القِلَى، وهنا ضلَّتِ الأسَاطِيرُ[1]، ونَفَدَتِ الحِيَلُ، وعَظُمَ البلاءُ، وهو الذي خلَّى العقولَ ذواهلَ، فمن دُهِيَ بهذه الدَّاهية فليتصدَّ لمَحْبُوبِ مَحْبُوبِهِ، وليتعمَّدْ ما يعرفُ أنَّه يَسْتَحْسِنُهُ، ويجب أن يَجْتنب ما يدري أنَّه يكرهه، فربَّما عَطَفَهُ ذلكَ عليه إن كانَ المحبوبُ مِمَّنْ يدري قَدْرَ المُوافقة والرَّغبةِ فيه، وأمَّا من لم يعلم قَدْرَ هذا فلا طمعَ في استصرافه، بل حسناتك عنده ذنوب. فإن لم يقدِر المرءُ على استصرافه فليتعمَّد السُّلوانَ، وليحاسبْ نفسه بما هو فيه من البلاءِ والحِرْمان، وليسعَ في نَيل (٧١أ) رغبته على أيِّ وجهٍ/ أمكنه. ولقد رأيتُ مَنْ هذه صِفَتُه. وفي ذلك أقول قطعةً أوَّلها: [من الطويل]

دُهِيتُ بِمَنْ لَوْ أدفعُ الموتَ دُونَهُ لقالَ إذًا يا لَيْتَنِي في المَقَابِرِ

ومنها:

ولا ذَنْبَ لي إذْ صِرْتُ أَحْدُو رَكَائِبي إلىٰ الوِرْدِ والدُّنيا تُسِيءُ مَصَادِري
وماذا علىٰ الشَّمْسِ المُنيرةِ بالضُّحىٰ إذا قَصُرَتْ عنها ضِعافُ البَصَائِر

---

(١) كذا في الأصل، وعند بتروف ومكي. وجعلها (ع): الأساطين. وقال عمَّا في الأصل: لعلَّ معناها: ضلَّت الأقاويل، أما الأشاطر عند برشيه فلا أدري لها توجيهًا. وكأنَّه فهمها بمعنىٰ: «الحذّاق» أو «الشُّطَّار» فكذلك تنبيء ترجمته.

وأقولُ: [من مخلع البسيط]

ما أقبحَ الهجرَ بَعْدَ وَصْلٍ وأَحْسَنَ الوَصْلَ بَعْدَ هَجْرِ
كالوَفْرِ تَحْوِيهِ بَعْدَ فَقْرٍ والفَقْرِ يأْتيك بَعْدَ وَفْرِ

وأقول: [من السريع]

مَعْهُودُ أخلاقِكَ قِسْمَانِ والدَّهْرُ فيكَ اليومَ صِنْفَانِ
فإنَّكَ النُّعمانُ فيما مضىٰ وكانَ للنُّعمان يومان
يومُ نعيم فيه سَعْدُ الورىٰ ويومُ بأساءٍ وعدوان
فيومُ نُعْمَاكَ لغيري ويَو مي منك ذو بُؤْسٍ وهِجْران/ (٧١ب)
أليسَ حُبِّي لكَ مُسْتَأْهِلًا لأَنْ تُجازِيه بإحسان

وأقولُ قطعةً منها: [من الكامل]

يا مَن جميعُ الحُسْنِ مُنتظمٌ فيه كنَظْمِ الدُّرِّ في العِقْدِ
ما بالُ حَتْفي مِنْكَ يَطْرُقُني قصْدًا ووجهك طالعُ السَّعْد

وأقولُ قصيدةً أولها: [من الطويل]

أساعةُ تَوْدِيعيك أم ساعةُ الحَشْر وليلةُ بَيْني مِنْكَ أم لَيْلَةُ النَّشر
وهَجْرُك تعْذيبُ المُوَحِّدِ يَنْقَضِي ويَرْجُو[1] التَّلاقي أم عذابُ ذَوِي الكُفْر

ومنها:

سقىٰ الله أيَّامًا مَضَتْ وليالِيًا تحاكي لنا النّيلوفَرَ الغضَّ في النَّشْر

---

(١) برشيه: ويرجىٰ. وهي قراءة جيِّدة.

فـأوراقُـهُ الأيـامُ حُـسْـنًـا وبَـهْـجَـةً	وأوسطُهُ الـليـلُ الـمُقصِّرُ لـلـعُـمر

(٧٢أ) لـهـونـا بـهـا فـي غَـمْـرةٍ وتـآلـفٍ	تَـمُـرُّ فـلا نَـدْرِي وتَـأْتـي فـلا نَـدري/

فـأعْـقـبـنـا مِـنْـه زَمَـانٌ كـأنَّـه	ولا شَكَّ حُسْنُ العَقْدِ أُعقِبَ بالغدرِ

ومنها:

فلا تـيأسي يـا نـفْسُ علَّ زَمَانَـنـا	يُـعودُ بـوَجْهٍ مُقْبِـلٍ غَيْـرِ مُزْوَرِّ[1]

كـمـا صَـرَف الـرَّحْـمـنُ مُـلْـكَ أُمَـيَّـةٍ	إليهم، ولوذي بالتَّجَمُّل والصَّبْرِ

وفي هذه القصيدة أمدحُ أبا بكرٍ هشامَ بنَ محمَّدٍ[2] ـ أخا أمير المؤمنين عبد الرحمٰن المرتضى[3]؛ رحمه الله ـ، فأقول:

ألـيسَ يُـحيطُ الرُّوحُ فـينـا بـكـلِّ مـا	دَنا وتناءىٰ وهُوَ في حُجُبِ الصَّدْرِ

كذا الدَّهْرُ جِسْمٌ وهو في الدَّهر رُوحه	مُحِيطٌ بما فيه وإنْ شِئْتَ فاسْتَبْرِي[4]

---

(١) جميع الطّبعات (تبعًا لما في الأصل): مدبر. وهذا لا يجوز في حكم التقفية، وابن حزم لا يمكن أن يجهل ذلك (ع).

(٢) هشام بن محمد: لما قطع أهل قرطبة دعوة بني حمود سنة ٤١٧هـ أجمع رأيهم على ردّ الخلافة إلى الأمويين، فاتفقوا على تقديم هشام بن محمَّد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن الناصر فبايعوه سنة ٤١٨ وتلقّب المعتد بالله، فدخل قرطبة ٤٢٠ ولم يبقَ إلا يسيرًا حتى قامت عليه فرقة من الجند، فخلع، وانقطعت الدولة الأموية واستولى على أمر قرطبة أبو الحزم ابن جهور (الجذوة: ٢٦ ـ ٢٧ والبيان المغرب ٣: ١٤٥ ـ ١٤٨). (ع).

(٣) المرتضى عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله بن الناصر، قام سنة ٤٠٧ بشرق الأندلس والتف حوله الموالي العامريون وغيرهم وزحفوا إلى قرطبة وأميرها القاسم بن حمود، وفي الطريق حاولوا الاستيلاء على غرناطة، وفيها زاوي بن زيري، فانهزم أتباع المرتضى وقتل هو (البيان المغرب: ٣: ١٢١، ١٢٥، ١٢٦). (ع).

(٤) جعلها (مكي) و(ع): فاسْتقر.

ومنها : / (٧٢ب)

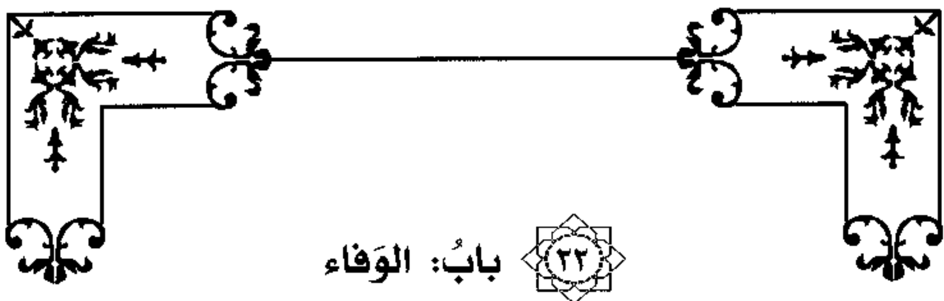
إتاوتُهُم[١] تُهْدَىٰ إليه، ومِنَّةٌ تَقبُّلها منهم تُقاوَمُ بالشُّكْر

كذا كلّ نَهْرٍ في البلادِ وإنْ طَمَتْ غزارتُهُ يَنْصَبُّ في ثَبَجِ[٢] البَحْر



(١) خ: إتاوتها.

(٢) الثَّبَجُ: وسط الشيء ومعظمه. وأثبتها بتروف: لُجَج. واللُّجُّ: معظم الماء. ولُجُّ البحر: الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه.



٣٢ بابُ: الوَفاء

ومن حَميدِ الغَرائز، وكريم الشِّيم، وفاضِلِ الأخلاق في الحبِّ ـ وغيره ـ الوفاءُ.

وإنَّه لَمِنْ أقوىٰ الدَّلائِل، وأوضح البراهين علىٰ طِيبِ الأصلِ، وَصِرْفِ العنْصر، وهو يتفاضل بالتَّفاضُلِ اللَّازم للمخلوقات. وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من البسيط]

أفعَالُ كلِّ امْرِىءٍ تُنْبِي بِعُنْصُرِهِ والعَيْنُ تُغْنِيكَ عن أنْ تَطْلُبَ الأثرا

ومنها:

وهل ترىٰ قَطُّ دِفْلَىٰ[1] أَنْبَتَتْ عِنَبًا أو تَذْخَرُ النَّحْلُ في أوْكَارِها الصَّبِرَا

ـ وأوَّلُ مراتب الوفاء: أنْ يَفِيَ الإنسانُ لِمَنْ يفي له، وهذا فَرْضٌ (١٧٣أ) لازِمٌ/ وحقٌّ واجبٌ علىٰ المُحبِّ والمحبوب، لا يحولُ عنه إلَّا خبيثُ المحتدِ؛ لا خَلاقَ له، ولا خَيْرَ عنده. ولولا أنَّ رسالتنا هذه لم نَقْصُدْ بها الكلامَ في أخلاق الإنسان[2] وصفاته المطبوعةِ، والتَّطَبُّعِ بها، وما يزيدُ من

(١) شجرةٌ. (الحربي)
(٢) تحرَّف في الأصل إلىٰ: النِّساء.

المطبوعِ بالتَّطَبُّع، وما يضمحلُّ من التطبُّع بعدمِ الطبع؛ لزِدْتُ في هذا المكان ما يجبُ أن يُوضَع في مثلِهِ، ولكنَّا إنَّما قصدنا التَّكلم فيما رَغبتَهُ من أمرِ الحُبِّ فقط، وهذا أمرٌ كانَ يطولُ جدًا؛ إذ الكلامُ فيه يتفنَّنُ كثيرًا.

خَبَرٌ:

ومِنْ أرفَعِ[1] ما شاهَدْتُهُ من الوفاء في هذا المعنىٰ، وأَهْوَلِهِ شأنًا قصَّةٌ رأيتها عيانًا، وهو أنِّي أعرفُ مَنْ رَضِيَ بقطيعةِ محبوبه، وأعزِّ النَّاس عليه، ومن كانَ الموتُ عنده أحلىٰ من هَجْر ساعةٍ؛ في جَنب طَيِّهِ لسرٍّ أُودِعَه، والتزم محبوبُهُ يمينًا غليظةً ألا يكلِّمه أبدًا، ولا يكونُ بينهما خَبَرٌ أو يفضَح[2] إليه ذلك السِّرَّ؛ علىٰ أنَّ صاحبَ ذلك السِّرِّ قد كانَ غائبًا فأبىٰ من ذلك،/ وتمادىٰ هُوَ علىٰ كِتْمانه، والثَّاني علىٰ هِجْرانه؛ إلىٰ أن فَرَّقَتْ بينهما الأيام. (٧٣ب)

ـ ثُمَّ مرتبةٌ ثانيةٌ وهي الوفاءُ لمَنْ غَدَرَ، وهي للمُحبِّ دونَ المحبوب، وليسَ للمحبوب هاهنا طريقٌ ولا يلزمه ذلك، وهي خُطَّةٌ لا يُطيقها إلا جَلْدٌ، قويٌّ، واسعُ الصَّدْرِ، حُرُّ النَّفْسِ، عَظِيمُ الحِلْمِ، جليلُ الصَّبْرِ، حَصيفُ العُقدة، ماجِدُ الخُلُقِ، سالم النِّيَّةِ. ومَنْ قابَلَ الغدرَ بمثله فليسَ بمُسْتَأْهلٍ للملامة، ولكنَّ الحالَ التي قدَّمْنا تَفُوقها جدًا، وتفُوتُها بُعْدًا. وغايةُ الوفاء في هذه الحال تركُ مكافأةِ الأذىٰ بمثله، والكفُّ عن سَيِّءِ المقارَضَة[3]

---

(١) خ: أشنع.

(٢) يقترح السامرائي: (خيرٌ، أو يفضَحَ)، وتبعه (ع) في طبعته الثانية فأثبت: (خيرًا، ويفضح). وما أثبتناه فعن بتروف وسائر النسخ المطبوعة، وقد تقرأ في الأصل: (خَيْرٌ) بالياء.

(٣) تقرأ في الأصل: (المعارضة)، وهكذا أثبتها (ب) ومن تبعه، وما أثبتناه فعن السامرائي، وتبعه (ع) في طبعته الثانية.

بالفعل والقول، والتَّأنِّي في جَرِّ[1] حبل الصُّحْبة ما أمكنَ، ورُجِّيت الألفةُ، وطُمِعَ في الرَّجْعة، ولاحت للعودة أدنىٰ مَخيلةٍ، وشيمتْ منها أقلُّ بارقةٍ، أو تُوُجِّسَ منها أيسرُ علامةٍ. فإذا وقع اليأسُ، واستحكمَ الغيظُ؛ فحينئذٍ [لُذْ] بالسَّلامة مِمَّنْ غرَّك، والأمن مِمَّن ضرَّك، والنَّجاة مِمَّن آذاك[2]، وأن (٧٤أ) يكونَ ذِكْرُ ما سلف/ مانعًا من شفاء الغَيْظ فيما وقع، فرَعْيُ الأذِمَّةِ حقٌّ وَكِيدٌ على أهل العقول، والحنينُ إلى ما مضى وألا يُنْسَى ما قد فُرِغَ منه، وفنيت مُدَّتُه؛ أثبتُ الدَّلائل على صِحَّة الوفاء. وهذه الصِّفَة حسنةٌ جدًّا، وواجبٌ استعمالها في كلِّ وجهٍ من وجوهِ معاملات النَّاسِ فيما بينهم على أيِّ حالٍ كانت.

خَبَرٌ:

ولعَهْدِي برَجُلٍ من صَفْوة إخواني قد عَلِقَ بجاريةٍ، فتأكَّدَ الوُدُّ بينهما، ثم غَدَرَتْ بعهده، ونقَضَتْ ودَّهُ، وشاعَ خبرهما؛ فوَجَدَ لذلك وَجْدًا شديدًا.

خَبَرٌ:

وكانَ لي مَرَّةً صَدِيقٌ، ففَسَدَتْ نيَّتُهُ بعدَ وَكيدِ مودَّةٍ لا يُكْفَرُ بمثلها، وكان عَلِمَ كلُّ واحدٍ مِنَّا سرَّ صاحبه، وسَقَطَتِ المُؤْنَةُ، فلمَّا تَغَيَّرَ عليَّ أفشىٰ كلَّ ما اطَّلع لي عليه ممَّا كنتُ اطّلعتُ منه على أضعافه، ثم اتَّصل به أنَّ قوله فيَّ قد بلغني، فجَزِعَ لذلك، وخشيَ أن

---

(١) قرأها (ع): جذِّ.

(٢) في الأصل: حينئذٍ والسلامة من غرك والأمن من ضرك والنجاة من أذاك. والتصويب عن برشيه.

أقارضَهُ على قبيحِ فِعْلِهِ[1]؛ وبلغني ذلكَ فكتبتُ إليه شعرًا أؤنِّسه فيه، وأُعْلِمُه أنِّي لا أقارضه./ (٧٤ب)

خَبَرٌ:

ومِمَّا يدخلُ في هذا الدَّرَج ـ وإن كان ليس منه، ولا هذا الفصل المتقدم من جنسِ الرسالة والباب، ولكنه شبيهٌ له على ما قد ذكرنا وشرطنا ـ وذلك أنَّ مُحَمَّدَ بنَ وليدِ بنِ مكسير الكاتبَ كانَ مُتَّصلًا بي، ومنقطعًا إليَّ أيامَ وزارة أبي ـ رحمة الله عليه ـ فلمَّا وَقَعَ بقرطبةَ ما وقع[2]، وتغيَّرت الأحوالُ؛ خرجَ إلىٰ بعض النَّواحي فاتَّصل بصاحبها، فَعَرُضَ جاهُه، وَحَدَثَتْ له وجاهةٌ وحالٌ حسنة. فحَلَلْتُ أنا تلكَ النَّاحية في بعض رِحْلَتي، فلم يُوَفِّني حقِّي، بل ثَقُلَ عليه مكاني، وأساءَ مُعَاملتي وصُحْبَتي، وكلَّفته في خلال ذلك حاجةً لم يقم فيها ولا قَعَدَ، واشتغلَ عنها بما ليسَ في مِثْلِهِ شُغْلٌ، فكتبتُ إليه شعرًا أعاتبه فيه، فجاوبني مستعتبًا، وعلىٰ ذلك؛ فما كلَّفْتُهُ حاجةً بعدها. ومِمَّا لي في هذا المعنىٰ ـ وليسَ من جِنْسِ الباب؛ ولكنَّه يشبهه ـ أبياتٌ قلتها، منها: [من البسيط]

وليسَ يُحْمَدُ كِتمَانٌ لمُكْتَتِمٍ ... لكنَّ كَتْمَكَ ما أَفْشَاهُ مُفْشيه / (٧٥أ)

كالجُودِ بالوَفْر أسنىٰ ما يكونُ إذا ... قلَّ الوُجُودُ له أو ضنَّ مُعْطِيه

ـ ثُمَّ مرتبةٌ ثالثة، وهي الوفاء مع اليأْسِ الباتِّ، وبَعْدَ حُلولِ المنايا

---

(١) كذا في الأصل، وأثبتها (ع): فعلته.

(٢) يشير إلى اقتحام البربر مدينة قرطبة، وانتهابهم لها عام (٤٠٣هـ).

وفُجَاءات المُنوُن، وإنَّ الوفاءَ في هذه الحالةِ لأجلُّ وأحسنُ منه في الحياةِ ومع رَجاءِ اللِّقاء.

خَبَرٌ:

ولقد حدَّثتني امرأةٌ ـ أثقُ بها ـ أنَّها رأتْ في دار مُحَمَّدِ بن أحمد بن وَهْبٍ المعروفِ بابنِ الرَّكِيزَةِ ـ من وَلَدِ بدرٍ[1] الدَّاخِل مع الإمام عبدِالرَّحمن بن معاوية؛ رضي الله عنه ـ، جاريةً رائعةً جَمِيلةً كانَ لها مولىً فجاءته المَنِيَّةُ فبِيعَتْ في تركته، فأبتْ أنْ ترضَىٰ بالرِّجال بعده، وما جامعها رجلٌ إلىٰ أن لقيتْ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ وكانتْ تُحسنُ الغناء فأنكرتْ عِلْمَها به، ورضيتْ بالخدمة، والخروج عن جملة المتَّخَذَاتِ للنَّسْل، واللَّذَّةِ، والحالِ الحسنة؛ وفاءً منها لمن قد دثَر، وواراتْه الأرضُ، والتأَمَتْ عليه/ (٧٥ب) الصَّفائح[2]. ولقد رامها سيدها ـ المذكورُ ـ أن يضمَّها إلىٰ فراشه مع سائر جواريه، ويُخْرِجَها مِمَّا هي فيه فأبت، فضربها غيرَ مرةٍ وأوقع بها الأدبَ، فصبرتْ علىٰ ذلكَ كلِّه، فأقامتْ علىٰ امتناعها؛ وإنَّ هذا من الوفاء غريبٌ جدًّا.

واعلم أنَّ الوفاءَ علىٰ المُحِبِّ أوجبُ منه على المحبوب، وشَرْطُهُ له ألزم، لأنَّ المحبَّ هو البادي باللُّصُوق والتعرُّضِ لعقد الأذمَّة، والقاصدُ لتأكيدِ المودَّة، والمستدعي صِحَّة العِشْرة، والأوَّلُ في عدادِ طالبي[3] الأصفياء، والسَّابقُ في ابتغاء اللَّذَّة باكتساب الخُلَّة. والمقيِّدُ نفسه بزمام

---

(١) أخبار بدر مولى عبد الرحمٰن الداخل وجهوده في خدمته لإقامة الدولة في الأندلس، تراجع في «نفح الطيب» ٣: ٢٧ ـ ٣١.

(٢) قال العلامة محمود شاكر: أظنُّ أنه: «وتلمَّأت عليه الصفائح».

(٣) خ: عدد طالب.

المَحَبَّةِ؛ قد عَقِلَها بأوثقِ عِقالٍ، وخطمها بأشدِّ خطامٍ، فمن قَسَره علىٰ هذا ـ كلِّه ـ إن لم يُرِدْ إتمامه؟! ومَنْ أجبره علىٰ استجلابِ المقة إنْ لم ينْوِ خَتمها بالوفاء لمَنْ أراده عليها؟! والمحبوبُ إنما هو مجلوبٌ إليه، ومقصودٌ نحوه، ومُخَيَّرٌ في القبول أو التَّرك، فإن قبل فغايةُ الرَّجاء، وإن أبىٰ فغيرُ مُسْتَحِقٍّ للذَّمِّ. وليسَ التَّعَرُّضُ للوصل، والإلحاحُ فيه، والتَّأنِّي لكلِّ ما يُستجلب به/ من الموافقة، وتصفيةِ الحَضْرةِ والمغيب؛ من الوفاء في (١٧٦أ) شيءٍ، فحظَّ نفسه أرادَ الطَّالب، وفي سروره سعىٰ، وله احْتَطَبَ، والحبُّ يدعوه ويَحْدُوه علىٰ ذلك شاءَ أو أبىٰ، وإنَّما يُحمد الوفاءُ مِمَّنْ يَقْدِرُ علىٰ تركه.

وللوفاء شروطٌ علىٰ المُحِبِّينَ لازمةٌ:

فأوَّلها: أن يحفظ عهدَ مَحْبُوبِه، ويرعىٰ غَيْبَتَهُ، وتَسْتَوي علانيته وسَرِيرته، ويَطْوِيَ شرَّهُ ويَنْشُرَ خَيْرَهُ، ويغطِّيَ علىٰ عيوبه، ويُحَسِّنَ أفعاله، ويتغافل عمَّا يقع منه علىٰ سبيل الهَفْوةِ، ويرضىٰ بما حَمَّلَهُ، ولا يُكْثِر عليه بما يَنْفِرُ منه، وألا يكونَ طُلَعةً دَبوبًا، ولا مَلَّةً طَرِفًا[1]. وعلىٰ المحبوبِ[2] إنْ ساواه في المَحَبَّة مثلُ ذلك، وإن كانَ دونه فيها فليسَ للمُحِبِّ أنْ يُكَلِّفه الصعودَ إلىٰ مرتبته، ولا له الاشتطاطةُ[3] عليه بأن يسومَهُ الاستواء معه في

---

(١) في الأصل: طلعة ثؤوبًا ولا ملة طروقًا. والتَّصحيح عن (ع)، وقال: وعلى حسب توجيهي للقراءة، فالطلعة هو الشديد البحث عن حال الآخرين، والدبوب: النَّمَّام. والملة: السريع الملال، ومثله الطرف كذلك. وقرأ برشيه: وألاَّ يكون طله شؤبوبًا وظله غروبًا. وفي هذا تعسُّفٌ واضحٌ.

(٢) خ: المحب.

(٣) وهي مجاوزة القَدْر المحدود. وفي الأصل: (الاستشاطة)؛ يقال: استشاط عليه: التهب غضبًا. وهذا المعنىٰ غير مراد في هذا الموضع، والتصحيح للسامرائي، وتبعه (ع) في طبعته الثانية.

درجته. وبِحَسْبِهِ منه ـ حينئذٍ ـ كتمانُ خَبَره، وألا يقابله بما يكره، ولا يُحيِّفه به، وإن كانت الثَّالثة ـ وهي/ السَّلامة مِمَّا يلقىٰ بالجملة ـ فليقنعْ بما (٧٦ب) وَجَدَ، وليأخذْ من الأمر ما استدفَّ، ولا يطلب شَرْطًا، ولا يقترح عَقْدًا، وإنَّما له ما سَنَحَ بجدِّه، أو ما حَازَ[1] بكَدِّه.

واعلم أنَّه لا يَستبينُ قُبْحُ الفِعْلِ لأهله، وكذلك[2] يتضاعَفُ قُبْحُه عند من ليسَ من ذَوِيه.

ولا أقولُ قولي هذا مُمتدحًا، ولكن آخِذًا بأدب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]:

لقد منحني الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الوفاء لكُلِّ من يَمُتُّ إليَّ بِلُقْيَةٍ واحِدَةٍ، ووهبني من المحافظةِ لمَنْ يتذمَّمُ منِّي ولو بِمُحَادَثَةِ ساعةٍ؛ حظًّا أنا له شاكرٌ وحَامِدٌ، ومنه مُسْتَمِدٌّ ومُسْتَزِيدٌ، وما شيءٌ أثقلُ عليَّ مَنَ الغَدْرِ؛ ولعمري! ما سَمَحَتْ نفسي قطُّ في الفكرة في إضرار مَن بيني وبينه أقلُّ ذِمَامٍ؛ وإن عَظُمَتْ جريرتُه، وكَثُرَتْ إليَّ ذنوبه، ولقد دَهَمَني من هذا غير قليلٍ فما جَزَيْتُ علىٰ السُّوءىٰ إلَّا بالحسنىٰ، والحمدُ لله علىٰ ذلك كثيرًا.

وبالوفاء أفتخرُ في كلمةٍ طويلةٍ، ذكرتُ فيها ما مَضَّنا من النَّكبَات، وَدهَمَنا من الحَلِّ والتِّرحالِ والتَّجوُّلِ في الآفاق، أوَّلها[3]:

(٧٧أ) [من البسيط] /

---

(١) تحرَّفت عند بتروف ـ وفي الطبعات اللاحقة ـ إلىٰ: حان.

(٢) تحرَّفت عند بتروف ـ وفي الطبعات اللاحقة ـ إلىٰ: ولذلك.

(٣) يبدو أن ابن حزم كان معجبًا بقصيدة ابن زريق البغدادي، فهو يعارضها هنا، كما عارضها بقصيدة أخرى أثبتها في كتابي: تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة (ط. ثانية): ٣٨٥ ـ ٣٨٧ (ع).

وَلَّى فولَّى جميلُ الصَّبْرِ يَتْبَعُهُ وصَرَّحَ الدَّمْعُ ما تُخْفِيه أَضْلُعهُ

جِسْمٌ مَلُولٌ وقَلْبٌ آلِفٌ فإذا حَلَّ الفراقُ عليه فهو مُوجِعُه

لم تستقرَّ بِهِ دارٌ ولا وَطَنٌ ولا تَدفَّأَ مِنْهُ قطُّ مَضْجَعُهُ

كأنَّما صِيغَ من رَهو[1] السَّحاب فما تَزالُ ريحٌ إلىٰ الآفاق تدْفَعُه

كأنَّما هو تَوْحيدٌ تَضيقُ به نَفْسُ الكَفُورُ فتأبىٰ حِينَ تُودَعُهُ

أو كوكبٌ قاطِعٌ في الأُفْقِ مُنْتَقِلٌ فالسَّيْرُ يُغْرِبُهُ حِينًا ويُطْلِعُه

أظنُّه لو جَزَتْه أو تُساعِدُه ألقتْ عليه انهمال الدَّمْعِ يَتْبعُه[2]

وبالوفاء ـ أيضًا ـ أفتخرُ في قصيدةٍ لي طويلةٍ أوردتها، وإن كان أكثرُها/ ليسَ من جنس الكتاب، فكان سببَ قولي لها أنَّ قومًا من مخالفيَّ (٧٧ب) شَرَقُوا بي، فأساءوا العتبَ في وجهي، وقَذَفُوني بأنِّي أعضدُ الباطلَ بحُجَّتي، عَجْزًا منهم عن مقاومةِ ما أوردته من نَصْرِ الحقِّ وأهلِهِ، وحَسَدًا لي، فقلتُ وخاطبتُ بقصيدتي بعضَ إخواني ـ و[كانَ] ذا فَهْمٍ ـ، منها:

[من الطويل]

وخذْني عَصَا موسىٰ وهاتِ جَميعَهُم ولو أنَّهُم حَيَّاتُ ضَالٍ نَضانِضُ[3]

ومنها:

---

(١) الرَّهو: له معان، منها: الشيء المتفرّق، وهو المناسب هنا. (الحربي).

(٢) هذا البيت غريب الصلة بما قبله؛ وأظنه مضطربًا في تركيبه (أعني أن الشطر الأول قد جمع إلى شطر من بيت آخر) (ع).

(٣) نضنضته: إذا حركته وأقلقته، ومنه قيل للحية: نضناض، وهو القلق الذي لا يثبت في مكانه لشِرَّته ونشاطه. والضَّالُ: السِّدر البريُّ.
ويريد السامرائيُّ أن يُقرأ: «ولو أنَّهم حيَّات جان نضائض»، وأحال إلىٰ مادة (نضض) في «لسان العرب»، وإلىٰ قصة ذُكر فيها تشكُّل الجنِّ بأجسام الحيَّات؛ ذكرها ياقوت في «معجم البلدان» (مادة: ضلع).

يُذيعُونَ في عَيْبِي عَجائِبَ جَمَّةً   وقَدْ يُتَمَنّى[1] اللَّيْثُ واللَّيْثُ رَابِضُ

ومنها:

ويَرجونَ ما لا يَبْلغُونَ كَمِثْلِ ما   يُرجِّي مُحَالًا في الإمامِ الرَّوافِضُ

ومنها:

ولو جَلَدي في كلِّ قَلْبٍ ومُهْجَةٍ   لما أَثَّرَتْ فيها العُيُونُ المَرَائِضُ

أَبَت عن دَنيِّ الوَصْفِ ضَرْبَةَ لازِبٍ   كما أبتِ الفِعْلَ الحروفُ الخَوافِضُ/

(١٧٨أ)

ومنها:

ورَأْيي لَهُ في كلِّ ما غابَ مَسْلَكٌ
كما تسلُكُ الجِسْمَ العُروقُ النَّوابضُ
يَبينُ مَدَبُّ النَّمْلِ في غَيْرِ مُشْكِلٍ
وَيُسْتَرُ عَنْهُم للفُيُولِ المَرابِضُ[2]



(١) قرأها برشيه: وقد يستهان.

(٢) يريد أن نفاذ رأيه وبصيرته يمكنه من رؤية مدب النمل في سهولة ويسر، أما خصومه الأغبياء فإنهم يعجزون عن رؤية الفيول في مرابضها على ضخامة حجمها (ع).



٢٣ باب: الغدر

وكما أنَّ الوفاءَ مِنْ سَرِيِّ النُّعوتِ، ونبيل الصِّفاتِ، فكذلك الغَدْرُ مِنْ ذَمِيمها ومَكْرُوهها. وإنَّما يُسمَّى: غدرًا من البادىء به، وأمَّا المُقارِضُ بالغدر علىٰ مِثْله[1] ـ فهو وإنْ استوىٰ معه في حقيقة الفِعْلِ ـ فليسَ بغدرٍ، ولا هو مَعيبًا بذلك، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقولُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وقد علمنا أنَّ الثَّانيةَ ليستْ بسَيِّئةٍ، ولكنْ لمَّا جانستِ الأولىٰ في الشَّبَهِ أُوقِعَ عليها مثلُ اسمها، وسيأتي هذا مُفَسَّرًا في باب السُّلُوِّ ـ إن شاء الله ـ ولكثرة وجود الغَدْرِ في المحبوب استُغْرِبَ الوفاءُ منه، فصارَ قليله الواقع منهم؛ يُقاوِمُ الكثيرَ الموجود في سواهم. وفي ذلك أقول: [من الوافر] / (٧٨ب)

---

(١) في الكلام إجمالٌ، ولم يذكر رحمه الله أخبارًا تشرح ما يجوز من ذلك وما لا يجوز، فإن المقارضة بالمثل وجزاء السيئة بالسيئة بالمثل لا يجوز بمحرّم، بل بعقوبة مناسبة، فلا يجوز المجازاة بالمثل في القذف، فمن قذف صاحبه بالزّنى لم يجز للصاحب أن يقذف قاذفه، ومجازاته: أن يقول له: كذبت. وأن يطالب بالحدّ، ولو قال له: بل أنت زنيتَ. لكان قاذفًا مثله. وكذلك إذا نمَّ عنه، أو كذب عليه، أو سرق من ماله. وعلى المسروق منه أن يأخذ منه مثل ما أخذ علانية، إن لم يستطع أخذ حقه بعينه. وفي الحديث: «**ولا تخن من خانك**». ومن الجاهلين من يتوسع في هذا، ويظنّه من باب المجازاة بالمثل، فيجازي في الزّنا، فإذا غدر به وزنى بحليلته ظنّ أنه لو قارظه بمثل فعله الفاحش القبيح أنه جزى السيئة بالسيئة. (الحربي)

قـلـيـلُ وَفـاءِ مَـنْ يُـهْـوَىٰ يَـجِـلُّ وَعُـظْـمُ وفـاء مَـنْ يَـهْـوَىٰ يَـقِـلُّ
فـنـادرةُ الـجَـبـانِ أجَـلُّ مِـمَّـا يَـجيء به الـشُّجَاعُ الـمُسْتَقِـلُّ[1]

ومن قبيح الغَدْرِ أن يكونَ للمُحبِّ سفيرٌ إلىٰ محبوبه، يستريحُ إليه بأسراره؛ فيسعىٰ حتَّى يَقْلِبَه إلىٰ نفسه، ويستأثَر به دُونَه. وفيه أقول: [من الطويل]

أَقَمْتُ سَفِيرًا قاصدًا في مَطالبي وَثِقْتُ به جَهْلًا فَضرَّبَ بيننا[2]
وحَـلَّ عُـرىٰ وُدِّي وأثـبـتَ وُدَّه وأَبْعَدَ عنِّي كلَّ ما كانَ مُمْكِنا
فصِرْتُ شَهِيدًا بَعْدَما كنتُ مُشْهِدًا وأصبحَ[3] ضَيفًا بعدما كانَ ضَيْفَنا

خَبَرٌ:

ولقد حدَّثني القاضي يونسُ بنُ عبد الله[4]؛ قالَ: أذكرُ في الصِّبا

(١) كذا في الأصل، وقال الأستاذ محمود شاكر: صوابه: «المشمعلُّ»، أمَّا «المستقلُّ» فمتكلِّف غير جيِّد.
قلت: في كلام الأستاذ نظر، وليس «المشمعلُّ» من الألفاظ التي يوصف بها الشجاع. وفي «تاج العروس»: واستبسل الرجل: طرح نفسه في الحرب، يريد أن يقتل أو يُقتل لا محالة، وهو المستقلُّ لنفسه. (الحربي)

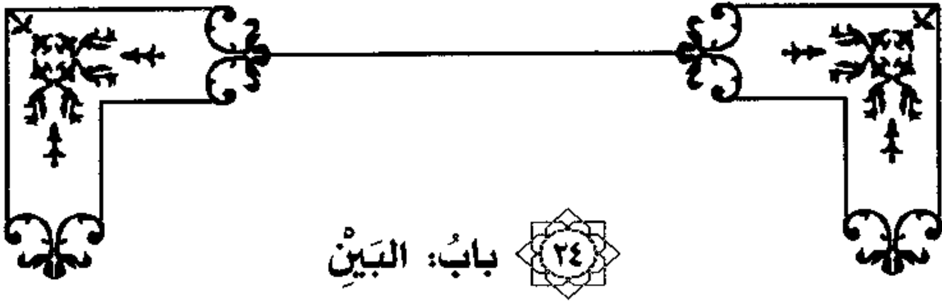
(٢) حرَّش بيننا وأغرىٰ بيننا العداوةُ والبغضاء. (الحربي)

(٣) في الأصل: وأصبحت. والتَّصحيح عن (ع)، وقال: في جميع الطبعات: وأصبحت؛ والمعنى يأباها؛ هو يقول بعدما تغير السفير فأحبّ من كنت أحب، أصبحت أنا شهيدًا على ما يصنع بعدما كنت مشهدًا له؛ أما هو فانتقلت حاله فبعدما كان ضَيْفَنًا (أي ضيف ضيف) اعتلت به الحال فأصبح ضيفًا. (قلت: والضيفن مذموم لأنه قريب الشبه من الطفيلي).

(٤) يونس بن عبد الله بن محمَّد بن مغيث أبو الوليد المعروف بابن الصفَّار: كان قاضي الجماعة بقرطبة، ومن أعيان أهل العلم، يميل إلى الزهد وله فيه مصنفات وأشعار، وعنه يروي ابن حزم وابن عبد البر وأبو الوليد الباجي، توفي سنة ٤٢٩ (انظر ترجمة له مطوَّلة نسبيًا في «الصلة»: ٦٤٦ وراجع «الجذوة»: ٣٦٢ و«البغية» رقم: ١٤٩٨ «وترتيب المدارك» ٤: ٧٣٩). (ع).

جاريةً في بعض السُّدَدِ؛ يهواها فتىً من أهل الأدب ـ من أبناء الملوك ـ وتهواه، ويتراسلان، وكانَ السَّفِيرُ بينهما والرَّسُول بكتبهما فتىً من أترابه كان يَصِلُ إليها، فلمَّا عُرِضَتِ الجاريةُ للبيع أرادَ الذي كانَ يُحِبُّها ابتياعها، فبدرَ الذي كانَ رَسُولًا فاشتراها. فدخلَ عليها يومًا فوَجَدَهَا قد فَتَحَتْ دُرجًا لها تطلبُ فيه بعضَ حوائجها، فأتىٰ إليها وجعل يُفَتِّشُ الدُّرج، فخرجَ إليه كتابٌ من ذلك الفتىٰ الذي كان يهواها مضمَّخًا بالغالية، مَصُونًا مُكرَّمًا، فغَضِبَ،/ وقال: من أينَ هذا يا فَاسِقَةُ؟ قالتْ: أنت سُقْتَه إليَّ. (١٧٩أ) فقال: لعلَّه مُحدَثٌ بعد ذلكَ الحِين. فقالت: ما هو إلَّا من قديمِ تلك التي تَعْرِفُ. قال: فكأنَّما أَلْقَمَتْهُ حَجَرًا، فسُقِط في يديه وسكتَ.





﴿٢٤﴾ بابُ: البَيْنْ

وقد علمنا أنَّه لا بدَّ لكلِّ مُجْتَمعٍ من افتراقٍ، ولكلِّ دانٍ من تَنَاءٍ، وتلك عادةُ الله في العباد والبلاد؛ حتَّىٰ يرثَ الله الأرضَ ومن عليها، وهو خيرُ الوارثين.

وما شيءٌ من دواهي الدُّنيا يَعْدِلُ الافتراق، ولو سَالَت الأرواحُ به ـ فضلًا عن الدُّموعِ ـ كانَ قليلًا. وبعضُ الحكماء سَمِعَ قائلًا يقول: الفِراقُ أخو الموت. فقالَ: بل الموت أخو الفراق[1].

والبَيْنُ ينْقَسِمُ أقسامًا:

ـ فأوَّلها: مُدَّةٌ يوقَنُ بانصرامِها، وبالعودةِ عن قريبٍ، وإنَّه لشَجيٌ في القلب، وغُصَّةٌ في الحَلْقِ لا تبرأُ إلا بالرَّجعة. وأنا أعلمُ من كان يَغيبُ من يُحبُّ عن بصره يومًا واحدًا فيعتريه من الهَلَعِ، والجَزَعِ، وشُغلِ البالِ، وترادُفِ الكُرَب؛ ما يكادُ يأتي عليه.

---

(١) وقد مزج بين المعنَيَيْن الإمام إسماعيل بن إسحاق القاضي (٢٨٢هـ)؛ فقال:

هِمَمُ الموتِ عالياتٌ فمِنْ ثَـ ... ـمَّ تَخَطَّى إلى لُبابِ اللُّبابِ
وَلِهذا قِيلَ: الفِرَاقُ أخُو المَوْ ... تِ لإقْدامِه علَى الأحْبَابِ

روى البيتين عنه؛ الخطيبُ البغدادي في: «تاريخ بغداد» ٦/٢٨٩، وترجمة القاضي ومصادرها في مقدمة تحقيقي لكتابه: «فضل الصَّلاة على النبيِّ ﷺ» (رمادي للنشر، الدَّمَّام: ١٤١٧هـ).

ـ ثُمَّ بَيْنُ مَنْعٍ من اللِّقاء، وتَحظيرٍ علىٰ المحبوب من أن يراه مُحِبُّه،/ (٧٩ب) فهذا ـ ولو كانَ من تُحِبُّه معكَ في دارٍ واحدةٍ ـ فهو بَيْنٌ، لأنَّه بائِنٌ عنك، وإنَّ هذا ليولِّدُ من الحُزْنِ والأسفِ غيرَ قليل، ولقد جرَّبْناه فكانَ مُرًّا. وفي ذلك أقول: [من الطويل]

أرىٰ دارَها في كلِّ حِين وسَاعةٍ ... ولكنَّ مَنْ في الدَّار عنِّي مُغيَّبُ

وهل نافعي قربُ الدِّيار، وأهلُها ... علىٰ وَصْلِهِم مِنِّي رَقيبٌ مُرَقَّبُ

فيا لك جارَ الجَنْبِ أسمعُ حِسَّه ... وأعلم أنَّ الصِّين أدنىٰ وأقرب

كصادٍ يَرى ماء الطَويِّ بعَيْنهِ ... وليسَ إليه مِنْ سَبيلٍ يُسَبَّبُ

كذلك مَن في اللَّحْدِ عنك مُغَيَّبٌ ... وما دونه إلا الصَّفِيحُ المُنصَّبُ

وأقولُ ـ من قصيدةٍ مُطوَّلةٍ ـ: [من الطويل]

متىٰ تشتفي نفسٌ أضرَّ بها الوَجْدُ ... وتَصْقَبُ[١] دارٌ قد طوىٰ أهلَها البُعْدُ

وعهدي بهِنْدٍ وهي جَارةُ بَيتِنا ... وأقربُ من هِنْدٍ لطالبها الهِنْدُ

بلىٰ إنَّ في قُرْبِ الدِّيار لراحةً ... كما يُمْسِكُ الظمآنَ أن يدْنوَ الوِرْدُ[٢]

ـ ثُمَّ بَيْنٌ يَتَعَمَّدُهُ المُحِبُّ بُعْدًا عن قولِ الوُشَاة، وخوفًا أن يكونَ بقاؤه سببًا إلىٰ مَنْعِ اللِّقاء، وذريعةً إلىٰ أن يَفْشُو الكلام فيقعَ الحِجَابُ الغَلِيظُ.

ـ ثُمَّ بَيْنٌ يولِّده المُحِبُّ لبعض ما يدعوه إلىٰ ذلكَ من آفات الزَّمان،/ (٨٠أ) وعُذرُهُ مقبولٌ، أو مُطَّرَحٌ على قَدْرِ الحافزِ له إلىٰ الرَّحِيل.

---

(١) صقب ـ كفرح ـ: دنا وقرب. (الحربي)

(٢) الماء الذي يُورَد. (الحربي)

خَبَرٌ:

ولعهدي بصَديقٍ لي دارُهُ المَرِيَّة، فَعَنَّتْ له حوائجُ إلىٰ شاطبة فقصدها، وكانَ نازلًا بها في منزلي مُدَّةَ إقامته بها، وكانَ له بالمَرِيَّة علاقةٌ هي أكبرُ هَمِّه، وأدهىٰ غَمِّه، وكانَ يؤمِّل تَبْيِيتَهُ، وفراغَ أسبابه، وأن يوشِكَ الرَّجعة، ويُسْرِعَ الأوبة، فلم يكنْ إلَّا حِينٌ لطيفٌ بعد احتلالِهِ عندي حتى جَيَّش الموفَّقُ أبو الجيش مجاهدٌ[1] ـ صاحبُ الجزائر ـ الجيوشَ، وقرَّب العساكرَ، ونابذَ خيرانَ[2] صاحبَ المَرِيَّة، وعزمَ علىٰ استئصاله، فانقطعت الطُّرُقُ بسبب هذه الحَرْبِ، وتُحوميتِ السُّبُلُ، واحْتُرِسَ البحرُ بالأساطيل، فتضاعف كَرْبُه إذ لم يَجِد إلىٰ الانصراف سبيلًا البتَّةَ، وكادَ يُطفأُ أسفًا، وصار لا يأنسُ بغير الوَحْدة، ولا يلجأ إلا إلىٰ الزَّفِيرِ والوجُوم، ولعمري! لقد كانَ مِمَّنْ لم أقدِّرْ قَطُّ فيه أنَّ قلبه يُذْعِنُ للوُدِّ، ولا شراسةَ طبعه تجيبُ إلىٰ الهوىٰ.

وأذكر أنِّي دخلتُ قرطبةَ بعد رحيلي عنها، ثُمَّ خرجتُ منصرفًا عنها؛ فضمَّني الطريقُ مع رجلٍ من الكُتَّابِ قد رَحَل لأمرٍ مهمٍّ، وتخلَّفَ سَكَنٌ[3] له، فكانَ يَرتَمِضُ لذلك.

---

(١) استولى أبو الجيش مجاهد العامري على دانية والجزائر من سنة ٤٠٠ ـ ٤٣٦؛ انظر أخباره في «البيان المغرب» ٣:١٥٥ و«تاريخ ابن خلدون» ٤:١٦٤ و«أعمال الأعلام»: ٢٥٠ و«المغرب» ٢:٤٠١ وللمستشرقة الإيطالية كليليا سارنللي دراسة عنه (القاهرة: ١٩٦١)، (والجزائر هي ميورقة ومنرقة ويابسة) (ع).

(٢) كان خيران أيضًا من موالي العامريين الذين استقلُّوا لدى انهيار الدولة الأموية، وكان مركزه المرية، إلا أنه قام بدعوة المرتضى الأموي، ثم تخلّص منه، وتوفي سنة ٤١٨ (أو ٤١٩)، انظر: «أعمال الأعلام»: ٢٤٢ و«البيان المغرب»، و«الذخيرة» (القسم الأول) و«المغرب» ٢:١٩٣؛ هذا وقد تمّت المنابذة بين خيران ومجاهد العامريين سنة ٤١٧ (ع).

(٣) خ: سكنًا، وأثبتها بتروف: سكنىٰ.

وإنِّي لأعلم من عَلِقَ بهوىً له، وكانَ في حالِ شَظَفٍ، وكانت له/ (٨٠ب) في الأرض مذاهبُ واسعةٌ، ومناديحُ رَحْبةٌ، ووجوهُ مُتَصَرَّفٍ كثيرةٌ، فهانَ عليه ذلكَ، وآثرَ الإقامةَ مع مَنْ يُحِبُّ. وفي ذلك أقول شعرًا منه: [من الكامل]

لَكَ في البلاد مَنادِحٌ مَعْلُومَةٌ ... والسَّيْفُ غُفْلٌ[1] أو يَبينَ قِرابُهُ

- ثم بَينُ رَحيلٍ وتباعدِ ديارٍ، ولا يكونُ من الأوبة فيه علىٰ يقينِ خَبرٍ، ولا أَيَحْدُثُ تلاقٍ؟! وهو الخَطْبُ المُوجعُ، والهَمُّ المُفْظِعُ، والحادث الأشْنَعُ، والدَّاءُ الدَّويُّ. وأكثرُ ما يكونُ الهلعُ فيه إذا كان النَّائي هو المحبوبُ، وهو الذي قالتْ فيه الشعراءُ كثيرًا. وفي ذلك أقول قصيدةً منها[2]: [من الطويل]

وبي[3] عِلَّةٌ أعيا الطَّبِيبَ عِلاجُها ... سَتُورِدُني لا شَكَّ مَنْهلَ مَصْرَعي

رضيتُ بأنْ أُضْحِي قتيلَ ودادِهِ ... كجارع سُمٍّ في رَحيقٍ مُشَعْشَع

فما للَّيالي ما أَقَلَّ حَياءَها ... وأَوْلَعها بالنَّفْسِ من كلِّ مُولع

كأنَّ زَمَاني عَبْشَميٌّ[4] يَخالُني ... أعنتُ علىٰ عُثمانَ أهلَ التَّشَيُّع

---

(١) لا يضرُّ ولا ينفع. (الحربي)

(٢) أغلب الأشعار التالية لا تنطبق على مفهوم الفقرة السابقة، وهو بين الرحيل وتباعد الديار ولا نظن ابن حزم يستغلُّ هنا قلة تدقيق القارىء فيورد شعرًا كيفما اتفق، وإنما هذا في الأرجح عمل الناسخ إذ يحذف الأبيات اختصارًا (ع).

(٣) خ: وذي.

(٤) العَبْشَميُّ: منسوب إلىٰ: عبد شمس بن عبد مناف بن قُصيّ بن كلاب بن مُرَّة؛ بطن من قريش منهم بنو أميَّة وغيرهم. فهذه النِّسبة منحوتة من كلمتي (عبد) و(شمس).

وأقولُ ـ من قصيدةٍ ـ: [من الطويل]

أظنُّك تِمْثَالَ الجِنَانِ أبَاحَهُ   لمُجْتَهِدِ النُّسَّاكِ مِنْ أوليائِهِ

(٨١أ) وأقولُ ـ من قصيدةٍ ـ: [من الطويل] /

لأَبْرُدَ باللُّقْيا غَليلًا مِنَ الهوىٰ   تَوَقُّد[1] نِيرانِ الغَضَا هَيمانُهُ

وأقول شعرًا منه: [من الطويل]

خَفِيتُ عن الأبصار والوَجْدُ ظاهِرٌ   فَأَعْجِبْ بأَعْراضٍ تبينُ ولا شَخْصُ
غَدا الفلكُ الدَّوار حَلْقةَ خاتمٍ   مُحيطٍ بما فيه وأنتَ لَهُ فَصُّ

وأقول ـ من قصيدة ـ: [من الطويل]

غَنِيتَ عن التَّشْبِيه حُسْنًا وبَهْجَةً   كما غَنِيَتْ شمسُ السَّماءِ عن الحَلْيِ
عجبتُ لنفسي بعده كيفَ لم تَمُتْ   وهِجْرانُه دَفني وفقدانه نَعْيي
وللجَسدِ الغَضِّ المُنعَّم كيفَ لم   تُذِبْهُ يدٌ خشناءُ [تَقْوىٰ علىٰ البَرِي][2]

وإنَّ للأوبة من البَيْنِ الذي تُشْفِقُ منه النَّفْسُ لطولِ مسافته، وتكاد تيأسُ من العودة فيه؛ لرَوْعَةً تبلغُ ما لا حدَّ وراءه، وربَّما قتلتْ. وفي ذلك أقول: [من الخفيف]

للتَّلاقي بعد الفراقِ سُرورٌ   كسُرورِ المُفيق حانتْ وفاتُهْ
فرحَةٌ تُبهجُ[3] النُّفوسَ وتُحْيِي   مَن دنا منه بالفراقِ مَمَاتُه

(١) خ: توقُّع.
(٢) بياض في الأصل، والاقتراح من (ع).
(٣) خ: تبهم.

رُبَّما قد تكونُ داهيةَ المو تِ وتُودي بأهله هَجَماتُه
كم رأينا مَنْ عَبَّ في الماءِ عَطشا نَ فزارَ الحِمامَ[1] وهو حياتُه/ (٨١ب)

وإنِّي لأعلمُ مَنْ نأتْ دارُ محبوبه زمنًا ثم تيسَّرَتْ له أوبةٌ، فلم يكن إلا بقدْر التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية، فكاد أن يهلك؛ وفي ذلك أقول: [من الطويل]

أطلتَ زمانَ البعد حتى إذا انقضى زمانُ النَّوىٰ بالقُرْبِ عُدتَ إلىٰ البعدِ
فلم يكُ إلا كرَّةَ الطَّرفِ قُرْبُكُمْ وعاودكم بَعْدِي وعاودني وَجْدي
كذا حائرٌ[2] في اللَّيل ضاقَتْ وجوهُه رأىٰ البرقَ في داجٍ مِنَ اللَّيل مُسْوَدِّ
فأَخْلَفَهُ منه رجاءُ دوامِهِ وبعضُ الأراجي[3] لا تفيدُ ولا تجدي

وفي الأوبة بعد الفِراق أقول قطعةً منها: [من الطويل]

لقد قرَّتِ العينانِ بالقُرْبِ منكُمُ كما سَخِنَتْ أيامَ يَطْويكمُ البُعْدُ
فللّه فيما قد مضىٰ الصَّبْرُ والرِّضىٰ ولله فيما قد قضَىٰ الشُّكْرُ والحَمْدُ

خَبَرٌ:

ولقد نُعيَ إليَّ بعضُ من كنتُ أحبُّ من بلدةٍ نازِحَةٍ، فقمتُ فارًّا بنَفْسِي نَحْوَ المقابر، وجعلتُ أمشي بينها، وأقول: [من الوافر]

وَدِدْتُ بأنَّ ظَهْرَ الأرضِ بَطْنٌ وأنَّ البَطْنَ منها صارَ ظَهْرا
وأنِّي مُتُّ قَبْلَ ورُودِ خَطْبٍ أتىٰ فأثارَ في الأكبادِ جَمْرا

---

(١) الحِمامُ: الموت. (الحربي)
(٢) خ: كذي حيرةٍ.
(٣) الأراجي كالأماني وزنًا ومعنًى، ومفردها: أرجيَّة، كأمنيَّة. (الحربي)

(٨٢أ) وأنَّ دمي لِمَنْ [قد] بانَ غسْلٌ وأنَّ ضُلوعَ صَدْري كنَّ قَبْرا/

ثم اتَّصَلَ بعدَ حينٍ تكذيبُ ذلك الخبرِ، فقلت: [من السريع]

بُشرىٰ أتتْ واليأسُ مُسْتَحْكِمٌ والقلبُ في سَبْعِ طِباقِ شِدادْ
كَسَتْ فؤادي خُضْرةً بَعْدَما كانَ فؤادي لابِسًا للحِداد
جَلَّى سَوادَ الغَمِّ عنِّي كمَا يُجَلِّىٰ بلونِ الشَّمْسِ لونُ السَّواد
هذا وما آملُ وَصْلًا سوىٰ صِدْقَ وفاءٍ بقَديمِ الوداد
فالمُزنُ قَدْ يُطْلَبُ لا لِلْحَيا لكنْ لظلٍّ باردٍ ذي امتِداد

ويقع في هذين الصِّنْفَيْنِ من البينِ الوداعُ، أعني رحيلَ المُحِبِّ أو رحيلَ المحبوب. وإنَّه لمِنَ المناظر الهائلة، والمواقف الصَّعْبة التي تُفْتَضَحُ فيها عزيمةُ كلِّ ماضي العزائم، وتذهبُ قوةُ كلِّ ذي بَصِيرةٍ، وتُسْكَبُ كلُّ عين جَمُودٍ، ويظهرُ مكنونُ الجَوىٰ، وهو فصلٌ من فصول البَين يجبُ التَّكلُّم فيه، كالعتاب في باب الهَجْر.

ولعمري! لو أنَّ ظرِيفًا يموتُ في ساعةِ الوداع لكانَ معذورًا إذا تفكَّر فيما يحلُّ به بعد ساعةٍ من انقطاع الآمال، وحلول (٨٢ب) الأوجال، وتبدُّلِ السُّرور/ بالحُزْن. وإنَّها ساعةٌ تُرِقُّ القلوبَ القاسيةَ، وَتُلينُ الأفئدةَ الغِلاظَ، وإنَّ حركةَ الرأس، وإدمانَ النَّظَر، والزَّفْرةَ بعد الوداع لهاتكةٌ حجابَ القلب، ومُوصلةٌ إليه من الجَزَعِ بمقدار ما تفعل حركةُ الوجه في ضدِّ هذا، والإشارةُ بالعَيْنِ، والتبسُّمُ في مواطن المُوافَقَة.

والوداعُ ينقسم قسمين:

أحدهما: لا يتمكَّنُ فيه إلا بالنَّظَر والإشارة.

والثَّاني: يتمكَّن فيه بالعناق والملازمة، وربَّما لعله كانَ لا يُمْكِنُ قبلَ ذلك البتَّةَ مع تجاورِ المحالِّ، وإمكانِ التَّلاقي. ولهذا تمنَّىٰ بعضُ الشُّعراء البينَ، ومَدَحوُا يومَ النَّوىٰ، وما ذاك بحَسَنٍ ولا بصوابٍ، ولا بالأصيلِ من الرأي، فما يفي سرورُ ساعةٍ بحُزْنِ ساعاتٍ، فكيفَ إذا كان البينُ أيامًا وشهورًا، وربَّما أعوامًا؟! وهذا سوءٌ من النَّظَر، ومِعْوَجٌّ من القياس، وإنَّما أثنيتُ على النَّوىٰ في شعري تمنِّيًا لرجوع يومها، فيكونَ في كلِّ يومٍ لقاءٌ ووداع، علىٰ أن تُحْتَمَلَ مَضَضُ هذا الاسم الكَريه، وذلك عندما يَمْضي من الأيام التي لا التقاءَ فيها، فحينئذٍ يرغبُ المُحِبُّ من يوم الفراق لو أمكنه في كلِّ يومٍ.

وفي الصِّنْفِ الأوَّل من الوداع أقول شعرًا منه: [من البسيط]

تنوبُ عن بَهْجَةِ الأنْوارِ بَهْجَتُهُ ... كما تَنُوبُ عن النِّيرانِ أنْفَاسِي

وفي الصِّنْفِ الثَّاني من الوداع أقولُ شعرًا منه: [من البسيط] / (٨٣أ)

وَجْهٌ تخِرُّ لَهُ الأنوارُ سَاجِدَةً ... والوَجْهُ تَمَّ فلَمْ يَنقُصْ ولم يَزِد
دِفءٌ وشَمْسُ الضُّحىٰ بالجَدِي نازِلةٌ ... وباردٌ ناعِمٌ والشَّمْسُ في الأَسَدِ

ومنه:

يومُ الفِراق ـ لَعَمْري! ـ لَسْتُ أكرهَهُ
أصلًا وإن شَتَّ شَمْلَ الرُّوحِ عن جَسَدَي
ففيه عانَقْتُ من أهوىٰ بلا جَزَعٍ
وكانَ مِنْ قَبْلِهِ إن سِيلَ لم يَجُدِ

ألـيـسَ مِـنْ عَـجَـبٍ [عَـيْـنـي][1] وعَـبـرتُـهـا
يــومُ الــوصـــال لـيــومِ الـبَـيْـــنِ ذو حَـسَـــدِ

وهل هَجَسَ في الأفكار، أو قامَ في الظُّنونِ أشنعُ وأوجعُ من هَجْرِ عِتابٍ وقع بين مُحِبَّيْنِ، ثُمَّ فَجَأَتْهُمَا النَّوىٰ قبل حلول الصُّلح، وانحلال عُقْدَةِ الهِجْران، فقاما إلىٰ الوداع، وقد نُسِيَ العِتاب، وجاءَ ما طَمَّ عن القُوىٰ، وأطار الكرىٰ، وفيه أقول شعرًا منه: [من الطويل]

وقد سَقَطَ العَتْبُ المُقدَّم وامَّحىٰ ... وجاءَتْ جُيُوشُ البَيْنِ تَجْري وتُسْرِعُ
وقـد ذَعَـرَ الـبـيـنُ الـصُّـدودَ فـراعَـهُ ... فولَّىٰ فما يُدْرَى له الـيـومَ مَوْضِـعُ
كذئبٍ خلا بالصَّيْدِ حتَّىٰ أَظَلَّهُ[2] ... هِزَبْرٌ له من جانب الغَيْلِ[3] مَطْلع
لئن سَرَّني في طَرْده الـهَـجَر إنَّني ... لإبـعـاده عـنِّـي الـحـبـيـبَ لـمُـوجَـع
ولا بُدَّ عند الموت من بعض راحةٍ ... وفي غبِّها الموتُ الوحيُّ المصرِّعُ[4]

(٨٣ب) وأعرفُ مَنْ أتىٰ ليودِّعَ محبوبه يومَ الفِراق فوَجَدَه قد فاتَ، فوقف/ علىٰ آثاره ساعةً، وتردَّد في الموضع الذي كانَ فيه، ثُمَّ انصرف كئيبًا متغيِّرَ اللونِ كاسِفَ البال، فما كانَ بعد أيامٍ قلائلَ حتَّىٰ اعتلَّ وماتَ ـ رحمه الله ـ.

وإنَّ للبَيْنِ في إظهار السَّرائر المَطْوِيَّةِ عَمَلًا عَجِيبًا: ولقد رأيتُ من

---

(١) سقط من الأصل، وأثبت (ع): (دمعي)، وقال الحربي: الأولىٰ (عيني) لوجهين: أحدهما: أن العبرة هي الدمعة. الثاني: أنه أعاد الضمير إلىٰ مؤنث، والدمع مذكَّر.
(٢) في الأصل: (أَضلَّه)، وما أثبته فعن (ع)، وقال الحربي: وهو الأقرب؛ لأن معنىٰ «أظله»: أقبل عليه.
(٣) بكسر الغين: موضع الأسد، والشجر الملتفُّ، ويجوز فتح الغين علىٰ المعنىٰ الثاني. (الحربي)
(٤) المرسرع. (الحربي)

كان حبُّه مكتومًا، وبما يجدُ فيه مستترًا حتَّىٰ وقع حادثُ الفراقِ، فباح المكنونُ، وظَهَرَ الخَفِيُّ. وفي ذلكَ أقولُ قطعةً منها: [من المتقارب]

مَـنَـعْـتَ وأعْـطَـيْـتِـنِـيـه جُـزَافـا   بَـذَلْـتَ مـن الـوُدِّ مـا كـنـتَ قَـبْـلُ
ولـو جُـدْتَ قَـبْلُ بَـلَـغْـتَ الـشِّـغـافـا   ومـا لـي بِـهِ حَـاجَـةٌ عـنـد ذاكَ
ويـنـفـعُ قـبـلَ الـرَّدىٰ مَـنْ تـلافـىٰ   ومـا يـنـفعُ الـطِّـبُّ عـنـد الـحِـمـامِ

وأقول: [من الكامل]

بـخَـفـيٍّ حـبٍّ كـنـتَ تـبـدي بُـخـلَـهُ   الآن إذْ حـلَّ الـفـراقُ جُـدْتَ لـي
وَيْـحـي فـهَـلَّا كـانَ هـذا قـبـلَـهُ   قد زِدْتَني[1] في حَسْرَتي أضْعافَها

ولقد أذكرني هذا أنِّي خطبتُ في بعض الأزمانَ موَدَّةَ رجلٍ من وزراء السُّلطان أيامَ جاهه؛ فأظهرَ بعض الامْتِسَاكِ، فتركته حتَّىٰ ذهبتْ أيَّامه، وانقضتْ دولته؛ فأبدىٰ[2] لي من المودَّةِ والأُخُوَّةِ غيرَ قليلٍ، فقلتُ: [من الطويل] / (٨٤أ)

وتَـبذُلُ لي الإقبالَ والدَّهْرُ مُعْرِضُ   بذلْتَ ليَ الإعراضَ والدَّهْرُ مُقبلٌ
فهلَّا أَبَحْتَ البَسْطَ إذ كُنْتَ تَقْبِضُ   وتَبْسُطُني إذ لَيْسَ يَنْفَعُ بَسْطُكُمْ

ـ ثُمَّ بينُ الموتِ وهو الفَوْتُ، وهو الذي لا يُرجىٰ له إيابٌ، وهو المصيبة الحالَّةُ، وهو قاصمةُ الظَّهْرِ، وداهيةُ الدَّهْرِ، وهو الوَيْلُ، وهو المُغَطِّي علىٰ ظُلْمةِ اللَّيل، وهو قاطعُ كلِّ رجاءٍ، وماحي كلِّ طَمَعٍ، والمُؤْيِسُ من اللِّقاءِ. وهنا حارَتِ الأَلْسِنُ، وانجذَمَ حَبْلُ العلاجِ، فلا حيلةَ

---

(١) خ: فزدتني. وما أثبته فقراءة (ع).
(٢) خ: أبدىٰ.

إلَّا الصَّبْرُ؛ طَوْعًا أو كرهًا. وهو أجلُّ ما يبتلى به المحبُّون، فما لمن دُهِيَ به إلا النَّوحُ والبكاء إلىٰ أن يتلفَ أو يملّ؛ فهو القَرْحَةُ التي لا تُنْكأ[1]، والوَجَعُ الذي لا يَفْنىٰ، وهو الغَمُّ الذي يتجدَّد علىٰ قدر بلاءِ من اغْتَمَدْتَهُ في الثَّرىٰ. وفيه أقول: [مشطور المديد]

كُلُّ بَيْنٍ واقِعٍ ... فَمُرَجَّىٰ لم يَفُتْ

لا تَعَجَّلْ قَنَطًا ... لم يَفُتْ مَن لم يَمُتْ

والَّذي قد ماتَ فالْـ ... يأسُ عَنْهُ قَدْ ثَبُتْ[2]

وقد رأينا مَنْ عَرَضَ له هذا كثيرًا.

(٨٤ب) وعنِّي أخبركَ أنِّي أَحَدُ من دُهِيَ بهذه الفادِحَةِ، وَتُعُجِّلَتْ له هذه/ المصيبة، وذلكَ أنِّي كنتُ أشدَّ النَّاس كَلَفًا، وأعظمهم حُبًّا بجاريةٍ لي، كانتْ فيما خلا اسمها: نُعْم. وكانتْ أمنيةَ المتمنِّي، وغايَة الحُسْنِ؛ خَلْقًا وخُلُقًا، وموافقةً لي، وكنتُ أبا عُذْرِهَا، وكنَّا قد تكافأنا المودَّة، ففجعتني بها الأقدارُ، واخترمتها الليالي ومرُّ النَّهار، وصارت ثالثة التُّراب والأحجار، وسنِّي حين وفاتها دونَ العشرين سنةً، وكانت هي دوني في السِّنِّ، فلقد أقمتُ بعدها سبعةَ أشهر لا أتجرَّدُ عن ثيابي؛ ولا تفترُ لي دمعةٌ على جُمود عيني وقلَّة إسعادها؛ وعلىٰ ذلكَ ـ فوالله! ـ ما سلوتُ حتَّىٰ الآن، ولو قُبِلَ فداءٌ لفديتها بكلِّ ما أملك من تالدٍ وطارفٍ، وببعض أعضاءِ جسمي العزيزة عليَّ مسارعًا طائعًا، وما طابَ لي عيشٌ بعدها،

---

(١) نكأ القرحة ينكؤُها: إذا قرفها وقشرها قبل أن تبرأ؛ فنَدِيَتْ.

(٢) ثَبُتَ الرجلُ، كشَرُف: إذا صار ثبيتًا، أي متمكنًا من الثبات، واستعماله في اليأس ونحوه من باب المجاز. وأما «ثبت» بالفتح فمعروف المعنىٰ، وهو الأنسب هنا، لولا منافرته لكمال صنعة الشعر. (الحربي)

ولا أُنسيتُ ذكرها، ولا أنسْتُ بسواها، ولقد عَفَّىٰ حُبِّي لها علىٰ كلِّ ما كان قبله، وَحَرَّمَ ما كانَ بعده. ومِمَّا قلتُ فيها: [من الطويل]

مهَّذبةٌ بيضاءُ كالشَّمْسِ إن بَدَتْ … وسائرُ رَبَّاتِ الحِجَالِ نُجومُ
أطارَ هواهَا القلبَ عن مُسْتَقَرِّه … فبَعْدَ وُقوُعٍ ظَلَّ وهو يَحُوم

ومن مراثيَّ فيها قصيدةٌ منها: [من الطويل]

كأنّيَ لم آنسْ بألفاظِكَ التي … علىٰ عُقَدِ الألبابِ هُنَّ نوافثُ/ (٨٥أ)
ولم أتحكَّمْ في الأماني كأنَّني … لإِفراطِ ما حُكِّمْتُ فيهنَّ عابثُ

ومنها:

ويُبدينَ إعراضًا وهنَّ أوالفٌ … وَيُقْسِمْنَ في هَجري وهنَّ حوانثُ

وأقولُ ـ أيضًا ـ في قصيدةٍ، أخاطبُ فيها ابنَ عمي أبا المُغيرة عبدَ الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن حَزم بن غالب[1]، وأقرِّضه فأقول: [من الطويل]

قِفا فاسْأَلاَ الأطلالَ أينَ قَطِينُها … أمرَّتْ عليها بالبلىٰ الملَوَانِ[2]
علىٰ دارساتٍ مُقْفِراتٍ[3] عَواطِلٍ … كأنَّ المغاني[4] في الخفاء مَعاني

---

(١) عبد الوهاب أبو المغيرة: كان في عصره من المقدَّمين في الآداب والشعر والبلاغة، وكان شعره كثيرًا مجموعًا، توفي في طليطلة (٤٣٨) وجرى بينه وبين ابن عمه أبي محمد الفقيه تنابذ سجلاه في رسائل عنيفة (انظر الجذوة: ٢٧٣ والبغية رقم: ١١١٠ والصلة: ٣٦١ والمغرب ١:٣٥٧ والذخيرة ١/١: ١٣٢ ـ ١٦٦) (ع).

(٢) الليل والنهار. (الحربي)

(٣) علىٰ ديار ذهبت معالمها وصارت خالية. (الحربي)

(٤) المغنىٰ: المنزل الذي غنيَ به أهله ثم ظعنوا عنه. (الحربي)

واختلف الناسُ في أيِّ الأمرين أشدُّ: البينُ أم الهَجْرُ؟ وكلاهما مُرتقىً صعبٌ، وموتٌ أحمرُ، وبَليَّةٌ سوداء، وَسَنَةٌ شهباء، وكلٌّ يستبشع من هٰذين ما ضادَّ طبعَهُ:

فأمَّا ذو النَّفْسِ الأبيَّةِ الأَنُوفِ، الحنَّانةِ الألوف[1]، الثَّابتةِ على العهد؛ فلا شيءَ يَعْدِلُ عنده مُصيبة البَين، لأنَّه أُتيَ قصدًا، وتعمَّدته النَّوائبُ عَمْدًا، فلا يجدُ شيئًا يُسَلِّي نفسه؛ ولا يصرِّفُ فكرتَه في معنىً من المعاني إلَّا وجد باعثًا علىٰ صَبابته، ومُحَرِّكًا لأشجانه، وعلةً لألمه[2]، وحجةً لوَجْدِه، وحاضًّا على البكاء على إِلْفه. وأمَّا الهَجْرُ فهو داعيةُ السُّلُوِّ، ورائدُ الإقلاع.

(٨٥ب) وأمَّا ذو النَّفْسِ التَّوَّاقةِ الكثيرةِ النُّزُوع والتَّطلع، القَلُوقُ العزوفُ؛/ فالهجرُ داؤُهُ، وجالبُ حَتْفِهِ، والبينُ له مَسلاةٌ وَمَنْسَاةٌ.

وأمَّا أنا فالموتُ عِنْدي أسهلُ من الفراق، وما الهجرُ إلا جالبٌ للكَمَدِ فقط، ويوشكُ إن دامَ أن يُحدِثَ إيغارًا[3]، وفي ذلك أقول: [من المتقارب]

وقالوا ارْتَحِلْ فلَعَلَّ السُّلوَّ ... يكونُ وتَرْغَبُ أنْ تَرْغَبَهْ
فقلتُ الرَّدىٰ ليَ قبلَ السُّلوِّ ... ومَن يَشربُ السُّمَّ عن تَجْرِبَه؟!

وأقولُ: [من المضارع]

سَبَىٰ مُهْجَتِي هَواهُ ... وأودتْ بها نَواه

(١) في الأصل: الأبية الألوف، الحنانة الأنوف. والتَّصحيح عن (ع).
(٢) هذه قراءة (ع)، وهي قراءة جيدة. وفي الأصل تقرأ: وعليه لا له.
(٣) خ: إيضَارًا.

كــأنَّ الــغَــرامَ ضَــيْــفٌ ورُوحــي غَــدا قِــراه

ولقد رأيتُ مَنْ يَسْتَعْمِلُ[1] هَجْرَ محبوبه، ويتعمَّدُهُ؛ خوفًا من مرارة يوم البَين وما يحدثُ به من لَوْعةِ الأسفِ عند التَّفرق. وهذا ـ وإن لم يَكنْ عندي من المذاهب المَرْضِيَّة ـ فهو حُجَّةٌ قاطعة علىٰ أنَّ البين أصعبُ من الهجر، وكيف لا وفي النَّاس من يلوذُ بالهجر خوفًا من البين! ولم أجد أحدًا في الدُّنيا يلوذُ بالبين خوفًا من الهَجْر، إنَّما يأخذ النَّاس أبدًا الأسهلَ ويتكلّفون الأهْوَنَ.

وإنَّما قلنا: إنَّه ليس من المذاهب المحمودة؛ لأنَّ أصحابه قد/ (٨٦أ) استعجلوا البلاء قبل نزوله، وتجرَّعوا غُصَّةَ الصَّبْر قبل وقتها، ولعلَّ ما تخوَّفوه لا[2] يكون، وليس[3] من تعجَّلَ المكروهَ ـ وهو على غير يقينٍ مِمَّا له يتعجَّلُ ـ بحكيمٍ، وفيه أقول شعرًا منه: [من الخفيف]

لـيسَ الـصَّـبُّ لـلـصَّـبابـة بـيْـنـا لـيـسَ مـن جـانَـبَ الأحـبَّـةَ مـنَّـا
كَـغـنـيٍّ يَـعِـيـشُ عَـيْـشَ فَـقِـيـرٍ خـوفَ فَـقْـرٍ وفَـقْـرُهُ قـد أبـنَّـا[4]

وأذكر لابن عمِّي أبي المغيرة في هذا المعنىٰ ـ من أنَّ البين أصعبُ من الصَّدِّ ـ أبياتًا من قصيدةٍ خاطبني بها وهو ابنُ سبعةَ عشر عامًا أو نحوها، وهي: [من الكامل المجزوء]

أَجَــزِعْــتَ أنْ أَزِفَ الــرَّحــيــلْ وَوَلَــهْــتَ أنْ نُــصَّ الــذَّمِــيــلْ[5]

---

(١) جعلها (ع): يستعجل. وهذه قراءة وجيهة.
(٢) خ: ألَّا.
(٣) خ: ولعل.
(٤) أبنَّ بالمكان: أقام به، وهذا هو المعنىٰ الأنسب هنا. (الحربي)
(٥) سير الناقة وسرعتها. (الحربي)

كـــلّا؛ مُـــصَــابُـــكَ فـــادحٌ وأجَــلْ؛ فــراقُــهُــم جَــلِــيــلْ
كـــذَب الألـــىٰ زَعَـــمُـــوا بـــأنَّ الـــصَّـــدَّ مـــرتـــعُـــه وَبـــِيـــلْ
لـــم يَـــعْـــرفـــوا كُـــنْـــهَ الـــغَـــلـــيـــل وقـــد تـــحـــمَّـــلـــتِ الـــحُـــمـــولْ
أمَّـــا الـــفِـــراقُ فـــإنَّـــه لـــلـــمـــوتِ إنْ أهـــوَىٰ دلـــيـــلْ

ولي في هذا المعنىٰ قصيدةٌ مطوَّلةٌ أولها: [من الكامل]

(٨٦ب) لا مِثْلَ يومِكِ ضَحْوةَ التَّنْعيم في منظَرٍ حسنٍ وفي تنْعيمِ[1]/
قد كانَ ذاكَ اليومُ ندرةَ عاقِرٍ وصوابَ خاطئةٍ ووُلْد عقِيم
أيَّامَ بَرْقُ الوَصْلِ ليسَ بخُلَّبٍ[2] عندي ولا رَوْضُ الهوىٰ بهَشِيم
مِن كلِّ غانِيةٍ تقولُ ثُديُّها سيري أمامَك والإزارُ أقيمي
كُلٌّ يُجَاذِبُها فَحُمْرةُ خَدِّهَا خَجلٌ مِنَ التَّأْخِيرِ والتَّقْدِيمِ
ما بي سوىٰ تلك العيونِ وليسَ في بُرْئي سواها في الورىٰ بزعيم
مِثْلَ الأفاعي ليسَ في شيءٍ سوىٰ أجسادُها إبراءُ لَدْغٍ سليم

والبينُ أبكىٰ الشُّعراءَ علىٰ المعاهد فأدرُّوا علىٰ الرُّسُومِ الدُّموعَ، وسَقَوا الدِّيارَ ماءَ الشَّوْقِ، وتذكَّروا ما قد سَلَفَ لهم فيها فَأعولوا وانْتَحَبُوا، وأحيتِ الآثارُ دفينَ شوقهم فناحوا وبكوا.

ولقد أخبرني[3] بعضُ الوُرَّاد من قرطبة ـ وقد استخبرته عنها ـ أنَّه

---

(١) التنعيم الأولىٰ: اسم مكان، والثانية: بمعنىٰ النعمة.
(٢) ليس بخادع، والبرق الخلَّب: هو الذي يلمع من غير مطر. (الحربي)
(٣) أورد لسان الدين ابن الخطيب بكاء ابن حزم لقرطبة نثرًا وشعرًا في: «أعمال الأعلام»: ١٠٦ ـ ١٠٨ ولما كانت المقارنة بين النصين تدل على اختلافات وفوارق كثيرة؛ فإني سأثبت النص الوارد عند لسان الدين ملحقًا في آخر الرسالة (انظر الملحق: ١ ومجلة الأندلس: ٣٦١ ـ ٣٦٣) (ع).

رأىٰ دورَنا ببلاطِ مُغيثٍ في الجانب الغربيِّ منها وقد امَّحَتْ رسومها، وطُمِسَتْ أعلامها، وخُفِيَتْ معاهدها، وغيَّرها البلىٰ، وصارت صحاريَ مُجْدِبَةً بعدَ العِمْران، وفيافيَ مُوحِشةً بعد الأُنْسِ، وخرائبَ مُنْقَطِعَةً بعد الحُسْنِ، وشعابًا مُفْزِعَةً بعد الأَمْنِ، ومأوىً للذِّئاب، ومعازِف للغِيلان، وملاعِبَ للجانِّ،/ ومكامِنَ للوحوش؛ بعد رجالٍ (٨٧أ) كاللُّيوث، وخرائدَ كالدُّمىٰ، تفيضُ لديهم النِّعَم الفاشية، تبدَّدَ شَمْلُهُم فصاروا في البلاد أيادي سَبا، فكأنَّ تلك المحاريبَ المُنَمَّقَة، والمقاصِيرَ المُزَيَّنة، التي كانت تُشْرِقُ إشراقَ الشَّمْسِ، ويجلُو الهُمُومَ حُسْنُ منظرها - حينَ شمِلها الخرابُ، وعمَّها الهدْمُ - كأفواهِ السِّباع فاغرةً، تُؤْذِنُ بفناء الدُّنيا، وتُريك عواقبَ أهلها، وتُخبرك عمَّا يصيرُ إليه كلٌّ من تراه قائمًا فيها، وتُزْهِدُ في طلبها بعد أن طالما زَهَّدَتْ في تركها. وتذكرتُ أيامي بها، ولَذَّاتي فيها، وشهورَ صباي لديها، مع كواعبَ إلى مِثْلِهِنَّ صَبَا الحليم، وَمَثَّلْتُ لنفسي كَوْنَهُنَّ تحتَ الثَّرىٰ، وفي الآفاق[1] النَّائِية، والنَّواحي البعيدة، وقد فرَّقَتْهُنَّ يدُ الجلاء، ومزَّقَتْهُنَّ أكفُّ النَّوىٰ، وخُيِّلَ إليٰ بصري فناء تلك النَّصْبَةِ بعدما علمتُهُ من حُسْنها وغَضارتها والمراتِب المُحكمةِ التي نشأت فيما[2] لديها، وخلاءُ تلك الأفنيةِ بعد تضايقها بأهلها، وأوهمتُ[3] سمعي صوتَ الصَّدىٰ والهام عليها؛ بعد حركةِ تلك الجماعات التي رُبِّيت بينهم فيها، وكان ليلُها تَبَعًا لنهارها في انتشار/ (٨٧ب) ساكنها والتقاءِ عُمَّارها؛ فعاد نهارُها تبعًا لليلها في الهدوء والاستيحاش؛

---

(١) خ: الآثار. والتَّصحيح من «أعمال الأعلام».

(٢) قرأها برشيه: فيها. والعبارة في «أعمال الأعلام» مختلفة عمَّا هي هنا، إذ جاءت: والمرتبة الرفيعة التي رفلت في حللها ناشئًا فيها.

(٣) «الأعمال»: وأرعيت.

فأبكىٰ عينيَّ[١]، وأوجعَ قلبي، وقرعَ صَفاةَ كبدي، وزاد في بلاءِ لُبِّي، فقلتُ شعرًا منه[٢]: [من الطويل]

لئن كانَ أظمَانا فَقَدْ طالَمَا سَقَىٰ ... وإن ساءَنا فيها فقد طالَمَا سَرَّا

والبيْنُ يوَلِّدُ الحنينَ، والاهتياجَ، والتَّذَكُّرَ؛ وفي ذلك أقول: [من البسيط]

ليتَ الغُرابَ يُعيدُ اليومَ لي فعسىٰ ... يَبينُ بينهُمُ عنِّي فَقَدْ وَقَفا

أقولُ واللَّيلُ قد أرخىٰ أجِلَّته ... وقد تألَّى بألاَّ ينقضي فَوَفى

والنَّجْمُ قد حارَ في أُفْقِ السَّماءِ فما ... يَمْضِي ولا هُوَ للتَّغْوير[٣] مُنْصَرِفا

تَخالُهُ مُخْطِئًا أو خائفًا وَجِلا ... أو راقبًا[٤] موعدًا أو عاشقًا دَنِفا[٥]



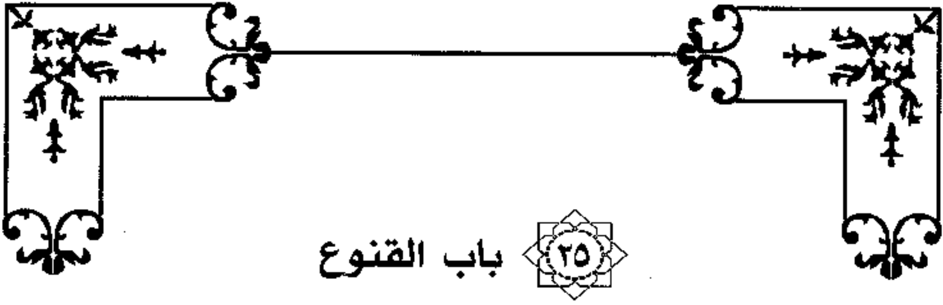
(١) «أعمال الأعلام»: فأبكىٰ ذلك عينيَّ على جمودها. وهذا الاحتراس ضروري لما تقدَّم من وصف ابن حزم لنفسه بأنَّه جامد العين (ع).

(٢) لم يرد هنا إلا بيت من عشرين بيتًا وردت في «أعمال الأعلام»، انظر الملحق.

(٣) خ: للتخيير. والتصحيح عن (مكي) و(ع).

(٤) خ: رائبًا. والتصحيح عن (مكي) و(ع).

(٥) الدنف: هو من أضناه المرض وأثقله، وفعله: دَنِفَ كمرِضَ. (الحربي)



(٢٥) باب القنوع

ولا بُدَّ للمُحِبِّ ـ إذا حُرِمَ الوصلَ ـ من القنوع بما يَجِدُ، وإنَّ في ذلك لمتعلَّلًا للنَّفْسِ، وشُغْلًا للرَّجاء، وتجديدًا للمُنىٰ، وبعضَ الرَّاحة. وهو مراتب علىٰ قدر الإصابة والتمكُّن:

ـ فأوَّلها: الزِّيارة، وإنَّها لأَمَلٌ من الآمال، ومن سَريٍّ ما يَسْنَحُ في الدَّهرِ، مع ما تُبْدي من الخَفَرِ والحياء؛ لما يَعْلَمُه كلُّ واحدٍ منهما ممَّا في نَفْسِ صاحبه. وهي على وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أن يَزُورَ المُحِبُّ محبوبه. وهذا الوجه واسعٌ./ (٨٨أ)

والوجه الثاني: أنْ يزورَ المحبوبُ مُحبَّه، ولكن لا سبيلَ إلىٰ غير النَّظَرِ، والحديثِ الظَّاهر. وفي ذلكَ أقول: [من الطويل]

فإن تَنْأَ عنِّي بالوِصَالِ فإنَّني
سأرضىٰ بلَحْظِ العَيْنِ إن لم يكنْ وَصْلُ

فحسبيَ أنْ ألقاكَ في اليوم مَرَّةً
وما كنتُ أرضىٰ ضِعْفَ ذا مِنْكَ لي قَبْلُ

كذا هِمَّةُ السوالي تَكُونُ رَفِيعَةً
ويَرْضىٰ خَلاصَ النَّفْسِ إنْ وَقَعَ العَزْلُ

وأما رَجْعُ السَّلامِ، والمخاطبةُ؛ فأملٌ من الآمال، وإن كنتُ أنا أقول في قصيدةٍ لي: [من الطويل]

فهـا أنـا ذا أُخـفـي وأقـنـعُ راضِيًـا   بـرَجْـعِ سَـلامٍ إنْ تـيـسَّـرَ في الـحِـيـنِ

فإنَّما هذا لمَنْ ينتقلُ من مَرتبةٍ إلىٰ ما هو أدنىٰ منها. وإنَّما تتفاضلُ المخلوقاتُ في جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلىٰ ما هو فوقها أو دونها. وإنِّي لأعلم من كانَ يقولُ لمحبوبه: عِدْني واكْذِبْ! قُنوعًا بأن يُسلِّيَ نفسه في وَعْده، وإن كانَ غيرَ صادقٍ؛ فقلتُ في ذلك: [من الكامل]

إنْ كـانَ وَصْـلُـكَ لـيسَ فـيه مَـطْـمَـعٌ   والـقُـرْبُ مـمـنـوعٌ فـعِـدْنـي واكْـذِبِ

فعسىٰ التعلُّلُ بالتقائِك مُمْسِكٌ[1]   لـحـيـاةِ قَـلْـبٍ بـالـصُّـدودِ مُـعـذَّبِ

فـلـقـد يُـسـلِّـي الـمُـجْـدِبـيـنَ إذا رأوا   فـي الأفـق يَـلـمـعُ ضَـوءَ بَـرْقٍ خُـلَّـبِ

وممَّا يدخلُ في هذا الباب شيءٌ رأيته ورآه غيري معي: أنَّ رجلًا من/ إخواني جَرحَهُ من كان يُحِبُّه بِمُدْيَةٍ، فلقد رأيته وهو يُقبِّلُ مكانَ الجُرْحِ، ويَنْدُبُه[2] مرةً بعدَ مرةٍ. فقلتُ في ذلك: [من المتقارب] (٨٨ب)

يـقـولـونَ شـجَّـكَ مَـنْ هِـمْـتَ فـيـه   فـقـلـتُ لَـعَـمْـريَ مَـا شـجَّـنـي

ولـكـنْ أحـسَّ دَمِـي قُـرْبَـه   فـطـارَ إلـيـه ولَـمْ يَـنْـثَـنِ

فـيـا قـاتِـلـي ظـالِـمًـا مُـحْـسِـنًـا   فـديـتُـك مِـن ظـالـمٍ مُـحْـسِـنِ

---

(١) لعله: «ممسكًا»، لأن (عسىٰ) تعمل عمل (ليس)، وأما من قال من العلماء: إنها تعمل عمل (لعلَّ) لأنها بمعناها، فقول مرجوح ضعفه حذاق العربية، كابن مالك وابن هشام والشاطبي، وقد بسطت هذه المسألة في كتابي: «لحن القول» ص٢٢١. (الحربي)

(٢) كذا في الأصل وسائر النسخ المطبوعة، وقراءة السامرائي: (ويَلْثِمُهُ)، واستند إلىٰ قول ابن حزم الآتي في هذا الباب: «فجعلتْ تقبله وتلثم الأرض التي فيها أثر رِجْله». وقال: هذا هو التعبير الشائع في الأعمال الأدبية، ولا يتوقع من محبٍّ أن يستدعي جرح محبوبه، ويفعل ذلك مرة بعد أخرىٰ. وأثبت (ع) في طبعته الثانية: (ويُفَدِّيه).

ـ ومن القُنوعِ أن يُسَرَّ الإنسانُ، ويَرضىٰ ببعض آلاتِ محبوبه، وإنَّ له من النَّفْس لموقعًا حسنًا، وإن لم يكن فيه إلا ما نصَّ الله ـ تعالىٰ ـ علينا، من ارتدادِ يعقوبَ بصيرًا حينَ شَمَّ قميصَ يوسف ـ عليهما السلام ـ؛ وفي ذلك أقول: [من السريع]

لـمَّـا مُـنـعـتُ الـقُـرْبَ مـن سَـيِّـدي وَلَـجَّ فـي هَـجْـري ولـم يُـنْـصِـفِ
صِـرْتُ بـإبْـصَـاريَ أثـوابَـه أو بـعـضَ مـا قَـدْ مَـسَّـه أكـتـفـي
كَـذاك يـعـقـوبُ نَـبـيُّ الـهـدىٰ إذ شَـفَّـه الـحُـزْنُ عـلـىٰ يُـوسـفِ
شَـمَّ قَـمـيـصًـا جـاءَ مـن عـنـدِه وكـانَ مَـكْـفُـوفًـا فـمِـنْـهُ شُـفِـي

وما رأيتُ قطُّ متعاشِقَيْنِ إلا وهما يتهاديان خُصَلَ الشَّعْرِ مبخَّرةً بالعنبر،/ مرشوشةً بماء الورد، وقد جُمِعَتْ في أصلها بالمصطكيِّ، وبالشَّمع (١٨٩أ) الأبيضِ المصفَّىٰ، ولُفَّتْ في تطاريفِ الوَشْيِ والخَزِّ وما أشبه ذلك، لتكونَ تذكرةً عند البين. وأمَّا تهادي المساويك بعدَ مضغها، والمصطكيِّ إِثْرَ استعمالها؛ فكثيرٌ بين كلِّ متحابَّيْنِ قد حُظِرَ عليهما اللِّقاء. وفي ذلك أقول قطعة منها: [من الطويل]

أرىٰ ريقَها ماءَ الحَياة تَيَقُّنًا علىٰ أنَّها لم تُبقِ لي في الهوىٰ حَشَا

خَبَرٌ:

وأخبرني بعضُ إخواني عن سليمانَ بن أحمدَ الشَّاعر؛ أنَّه رأىٰ ابنَ سهلٍ الحاجبَ بجزيرة صِقِلِّيَّة، وذكر أنَّه كان غايةً في الجمال، فشاهده يومًا في بعض المتنزَّهات ماشيًا وامرأةٌ خلفه تَنظرُ إليه، فلمَّا أبعَدَ أتت إلىٰ المكان الذي قد أثّر فيه مَشْيُه فجعلتْ تُقَبِّلُه، وتلثمُ الأرضَ التي فيها أثر رِجله. وفي ذلك أقول قطعةً أولها: [من الطويل]

يلومونَني في [لَثْمِ] مَوْطىءِ خُفِّه[1] ولو عَلموُا عادَ الذي لامَ يَحْسُدُ
فيا أهلَ أرضٍ لا يجودُ سَحَابُها خُذوا بوَصَاتي تَسْتَقِلُّوا وتُحْمَدوا
خذوا من ترابٍ فيه مَوْضِعُ وَطْئه وأضمنُ أنَّ المَحْلَ عنكم يُبَعَّدُ
فكلُّ ترابٍ واقعٍ فيه رِجْلُهُ فذاك صَعِيدٌ طيِّب ليسَ يُجْحَدُ
(٨٩ب) كذلكَ فِعلُ السَّامريِّ وقد بَدا لعَيْنَيْهِ من جبريلَ إثْرٌ مُمَجَّدُ/
فصَيَّر جوفَ العِجْلِ من ذلك الثَّرىٰ فقامَ له منه خُوَارٌ مُمَدَّدُ

وأقول: [من الطويل]

لقد بُورِكَتْ أرضٌ بها أنتَ قاطِنٌ وبوركَ من فيها وحَلَّ بها السَّعْدُ
فأحجارُها دُرٌّ وسَعْدانُهَا وَرْدُ وأمواهُها شُهدٌ وتُربتها نَدُّ

ـ ومن القنوع: الرِّضىٰ بمزَار الطَّيف، وتسليم الخَيال، وهذا إنَّما يَحْدُثُ عن ذكرٍ لا يفارق، وعهدٍ لا يَحُول، وفكرٍ لا يَنْقضي، فإذا نامتِ العيونُ، وهدأتِ الحركاتُ؛ سَرىٰ الطَّيف. وفي ذلك أقول: [من البسيط]

زارَ الخيالُ فتىً طالتْ صَبابتُهُ على احتفاظٍ من الحُرَّاسِ والحَفَظَهْ
فبتُّ في ليلتي جَذْلانَ مُبْتَهِجًا ولذَّةُ الطَّيْفِ تُنْسِي لذَّةَ اليَقَظَهْ

وأقول: [من الطويل]

أتى طيفُ نُعْمٍ مَضْجَعي بَعْدَ هَدْأَة ولِلَّيْلِ سُلْطانٌ وظِلٌّ مُمَدَّدُ

---

(١) في الأصل: (في موطئي خُفه جفًا)، وهكذا عند بتروف وبرشيه. وقرأ الصيرفي ـ وتبعه مكي و(ع) في طبعته الأولىٰ ـ: (في موطئي خفه خطا). والتَّصحيح عن السامرائي، وتبعه (ع) في طبعته الثانية، وهو وجيه جدًّا.

وعهدي بها تحتَ التُّرابِ مُقِيمَةٌ ... وجاءتْ كما قد كنتُ من قبلُ أعهد
فعُدْنا كما كنَّا وعادَ زمانُنا ... كما قد عهِدنا قبلُ والعَوْدُ أَحْمَدُ

وللشُّعراء في عِلَّة مَزَارِ الطَّيفِ أقاويلُ بديعةٌ، بعيدةُ المرمىٰ، مخترعةٌ، كلٌّ سبَقَ إلىٰ معنىً من المعاني؛ فأبو إسحاق بن سَيَّار النَّظَّام ـ رأسُ المعتزلة/ ـ جعلَ علَّة مزارِ الطَّيْفِ؛ خوفَ الأرواح من الرَّقيبِ المُرَقَّب علىٰ (١٩٠أ) بهاء[١] الأبدان. وأبو تمَّام حبيبُ بن أوس الطَّائيُّ جعل عِلَّته أنَّ نِكاحَ الطَّيفِ لا يُفْسدُ الحبَّ، ونكاحَ الحقيقةِ يُفْسِده[٢]. والبُحْتِريُّ جعلَ علَّة إقبالِهِ استضاءَتَه بنارِ وَجْدِهِ، وعِلَّة زواله خوف الغرق في دموعه[٣]. وأنا أقول من غير أنْ أمثِّل شعري بأشعارهم ـ فلهم فَضْلُ التَّقدم والسَّابقة، وإنَّما نحن لاقطُونَ وهم الحاصدون، ولكن اقتداء بهم، وجَرْيًا في ميدانهم، وتتبُّعًا لطريقتهم التي نَهَجُوا وأوضحوا ـ أبياتًا بيَّنت فيها مزارَ الطَّيف؛ مقطَّعةً: [من الوافر]

أغارُ عليك من إدراكِ طَرْفي ... وأُشْفِقُ أنْ يذِيبَكِ لَمْسُ كَفِّي
فأمتنعُ اللِّقاءَ حِذَارَ هذا ... وأَعتمدُ التَّلاقي حِينَ أُغفي

---

(١) كذا في الأصل، وجعلها (ع): لقاء.

(٢) أظنه يشير إلى قول أبي تمام: (ديوانه ٢: ٦٩).

غدت مغتدى الغضبي وأوْصَتْ خيالها ... بحرَّان نضو العيس نضوِ الخرائد
وقالت نكاح الحب يفسدُ شكله ... وكم نكحوا حبًا وليس بفاسد

والمعنى الإجمالي أنها أوصت خيالها بزيارتي وتعهدي، وقالت: إن نكاح الحب يفسد شكله، ولكن نكاح (الطيف) لا يفسده (أو هذا ما فهمه ابن حزم من البيتين) (ع).

(٣) لقد حاولت أن أجد هذا المعنىٰ في «ديوان البحتري» فلم أُوفَّق؛ على كثرة ترداد النَّظر في الدّيوان. (ع).

فروحي إنْ أَنَمْ، بكَ ذو انفرادٍ مِن الأعضاءِ مُسْتَتِرٌ وَمَخْفي
ووَصْلُ الرُّوحِ أَلْطَفُ فيكَ وَقْعًا من الجِسْمِ المُواصِلِ ألفَ ضِعْفِ

وحال المزور في المنام ينقسم أقسامًا أربعة:

أحدها: مُحِبٌّ مهجورٌ قد تطاول غَمُّه، ثُمَّ رأىٰ في هَجْعَتِهِ أنَّ حبيبه/ وَصله؛ فَسُرَّ بذلك وابتهج، ثُمَّ استيقظ فأَسِفَ وتلهَّفَ، حيثُ (٩٠ب) علم أنَّ ما كانَ فيه أمانِيُّ النَّفْس وحديثها؛ وفي ذلك أقول: [من الخفيف]

أنتَ في مَشْرقِ النَّهار بَخِيلٌ وإذا اللَّيْلُ جَنَّ كنتَ كَرِيما
تجعلُ الشَّمَسَ منك لي عِوَضًا هيـ ـهاتِ ما ذا الفَعالُ مِنْكَ قَويما
زارني طيفُكَ البَعيدُ فيَأْتي واصِلًا لي وعائدًا ونديما
غير أنَّي مَنَعْتَني من تمامِ الـ ـعَيْشِ لكنْ أبحتَ لي التَّشْمِيما
فكأنِّي من أهلِ الأعرافِ لا الفِرْ دَوْسُ داري ولا أَخافُ الجحيما

والثَّاني: مُحِبٌّ مواصِلٌ مُشفِقٌ مِنْ تغيُّرٍ يَقَعُ، قد رأىٰ في وَسَنِهِ أنَّ حبيبه يَهْجُره؛ فاهتَمَّ لذلك هَمًّا شديدًا، ثم هبَّ من نومه فعلم أنَّ ذلك باطلٌ، وبعضُ وساوس الإشفاق.

والثالثُ: مُحِبٌّ داني الدِّيار، يرىٰ أن التَّنائي قد فَدَحَهُ، فيَكْتَرِثُ، ويوْجَل، ثُمَّ ينْتَبِهُ، فيذهبُ ما به ويعودُ فَرِحًا؛ وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من الطويل]

رأيتُك في نَوْمي كأنَّكَ رَاحِلٌ وقمنا إلىٰ التَّوْدِيع والدَّمْعُ هَامِلُ
وزالَ الكرىٰ عنِّي وأنتَ معانِقي وغَمِّي إذا عايَنْتُ ذلكَ زَائِلُ

فجدَّدتُ تعنيقًا وضمًّا كأنَّني عليكَ من البَيْنِ المُفرِّقِ واجِل[1]/ (٩١أ)

والرابع: مُحِبٌّ نائي المزار، يرىٰ أنَّ المزار قد دنا، والمنازلَ قد تصاقَبَتْ، فيرتاح ويأنسُ إلىٰ فَقْدِ الأسىٰ، ثُمَّ يقوم من سِنَتِهِ فيرىٰ أنَّ ذلك غيرُ صحيحٍ، فيعودُ إلىٰ أشدِّ ما كانَ فيه من الغمِّ.

وقد جعلتُ في بعض قولي علّةَ النَّوْمِ؛ الطَّمَعَ في طَيْفِ الخيال، فقلتُ: [من البسيط]

طافَ الخَيالُ علىٰ مَسْتَهْتِرٍ كَلِفٍ لولا ارتِقابُ مزارِ الطَّيْفِ لم يَنَمِ
لا تَعْجَبُوا إذ سرىٰ واللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فنورُهُ مُذْهِبٌ[2] في الأرضِ للظُّلَمِ

ومن القنوع: أن يقنعَ المحبُّ بالنَّظَر إلىٰ الجدران، ورؤية الحِيطان التي تحتوي علىٰ من يُحِبُّ، وقد رأينا مَنْ هذه صِفَتُهُ. ولقد حدّثني أبو الوليد أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ إسحاقَ الخازنُ ـ رحمه الله ـ عن رجلٍ جليلٍ، أنَّه حدَّثَ عن نفسه بمثلِ هذا.

ومن القنوع: أنْ يرتاحَ المُحِبُّ إلىٰ أن يرىٰ مَن رأىٰ محبوبَهُ ويأنَس به أو من أتىٰ من بلاده، وهذا كثيرٌ؛ وفي ذلك أقول: [من الطويل]

توحَّشَ مِنْ سُكَّانِه فكأنَّهُمْ مَسَاكِنُ عادٍ أعْقَبَتْهُ ثَمُودُ

وممَّا يدخل في هذا الباب أبياتٌ لي، موجبها أنِّي تنزهَّتُ ـ أنا وجماعةٌ من إخواني من أهل الأدب والشَّرَفِ ـ إلىٰ بستان لرجلٍ من/ (٩١ب) أصحابنا، فجُلْنا ساعةً، ثم أفضىٰ بنا القعودُ إلىٰ مكان دونه يُتمنَّىٰ،

---

(١) خ: قابل.
(٢) خ: مرهب.

فتمدَّدنا في رياضٍ أريضةٍ، وأرضٍ عَريضةٍ، للبصر فيها مُنْفَسَحٌ، وللنَّفْسِ لديها مَسْرَحٌ، بين جداولَ تطَّردُ كأباريقِ اللُّجين، وأطيارٍ تُغَرِّدُ بألحانٍ تُزري بما أبدعه معبدٌ والغريض[1]، وثمارٍ مُهدَّلةٍ قد ذُلِّلَتْ للأيدي، وذُلِّلَتْ للمتناول، وظلال مُظِلَّةٍ تلاحظنا الشَّمْسُ من بينها فتتصور بين أيدينا كرقاع الشِّطْرنج أو الثِّياب المُدَبَّجَةِ، وماءٍ عَذب يوجدُكَ حقيقةَ طَعْمِ الحياة، وأنهارٍ متدفِّقةٍ تنسابُ كبطون الحيَّاتِ لها خريرٌ يقوم ويهدأ[2]، ونواويرَ مؤنَّقةٍ مختلفة الألوان تصفِّقها الرِّياحُ الطَّيبةُ النَّسيم، وهواءٍ سَجْسَجٍ، وأخلاقِ جُلَّاسٍ تفوقُ كلَّ هذا، في يومٍ ربيعيٍّ ذي شَمْسٍ ذَلِيلَةٍ، تارةً يُغطِّيها الغيمُ الرَّقيقُ، والمُزْنُ اللَّطيف، وتارةً تتجلَّى فهي كالعذراء الخَفِرة، والخَريدةِ الخَجِلَةِ؛ تتراءىٰ لعاشقها من بين الأستار ثم تغيبُ فيها حَذرَ عينِ مراقبةٍ، وكانَ بعضنا مُطْرِقًا كأنَّه يحادثُ أُخرىٰ[3]، وذلكَ لسِرٍّ كان له، فَعُرِّضَ لي بذلك، وتداعَبنا حينًا؛ فَكُلِّفْتُ أن أقولَ على لسانه شيئًا في ذلك، فقلتُ بديهةً ـ وما كتبوها إلا من تذكُّرها بعد انصرافنا ـ وهي: [من الطويل] / (١٩٢أ)

ولـمَّـا تـروَّحْـنـا بـأكـنـافِ رَوْضَـةٍ مُـهـدَّلَـةِ الأَفـنـانِ فـي تُـرْبـهـا الـنَّـدي

وقـد ضَـحِـكَـتْ أنـوارهـا وتـضـوَّعْـت أسـاورُهـا[4] فـي ظِـلٍّ فـيءٍ مُـمَـدَّدِ

---

(١) معبد، والغريض: من مشاهير المغنِّين في العصر الأموي (انظر: الأغاني: ٤٧/١، ٣١٨/٢) (ع). وفي (خ): وابن الغريض.

(٢) ضبطت في (خ) هكذا: ويُهدَي.

(٣) لعلَّ الصَّواب: الثَّرىٰ.

(٤) أساورها: قال العلامة محمود شاكر: أرجِّح أنَّ الصَّواب: «تناويرها». قلت: الأوفق أن يكون «أساوِدها» جمع «أسودة»، والأسودة جمع «سواد» وهو شخص كل شيء من متاع وغيره، كما نقله الزبيدي عن أبي عبيد في «تاج العروس». وهو أيضًا الأوفق بالرسم في الأصل. (الحربي)

وأبدتْ لنا الأطيارُ حُسْنَ صريفها ... فمن بَيْنِ شاكٍ شَجْوهُ ومُغرِّدِ

وللماءِ فيما بيننا مُتصَرَّفٌ ... وللعينِ مُرتادٌ هناك ولليَدِ

وما شئتَ من أخلاقِ أروَعِ ماجدٍ ... كريمِ السَّجايا للفَخارِ مُشيِّدِ

تَنَغَّصَ عندي كلُّ ما قد وَصَفْتُه ... ولم يَهْنَني إذْ غابَ عنّيَ سيِّدي

فيا ليتني في السِّجْنِ وهو معانِقي ... وأنتم معًا في قَصْرِ دارِ المُجَدَّدِ(1)

فمَنْ رامَ مِنَّا أن يبدِّلَ حالَه ... بحالِ أخيه أو بمُلْكٍ مُخلَّد

فلا عاش إلَّا في شَقاءٍ ونكبةٍ ... ولا زالَ في بُؤسىٰ وخِزْيٍ مُردَّدِ

فقال هو ومَنْ حضر: آمين! آمين!

وهذه الوجوهُ التي عدَّدْتُ وأوردتُ في حقائق القَنَاعة [هي] الموجودةُ في أهل المودَّة؛ بلا تزيُّدٍ ولا إعْيَاءٍ(2).

وللشُّعراء فَنٌّ من القُنُوع أرادوا فيه إظهارَ غرضهم، وإبانةَ اقتدارهم على المعاني الغامضة، والمرامي البعيدة، وكلٌّ قالَ علىٰ قدرِ قُوَّة طبعه، إلا أنَّه تحكُّمٌ باللِّسان، وتشدُّقٌ في الكلام، واستطالةٌ بالبيان، وهو غير صحيح/ في الأصل؛ فمنهم من قَنَعَ بأنَّ السماءَ تُظلِّه هو ومحبوبه والأرضُ (92ب) تُقِلُّهُما، ومنهم من قَنَعَ باستوائهما في إحاطة اللَّيل والنَّهار بهما، ومن أشباه هذا(3). وكلٌّ مبادرٌ إلىٰ احتواءِ الغاية في الاستقصاء، وإحراز قَصَبِ

---

(1) المجدَّد: هو أحد المباني الفخمة بقصر قرطبة الأكبر.
قال ابن بشكوال: ومن قصوره المشهورة، وبساتينه المعروفة: الكامل، والمجدَّد، وقصر الحائر، والرَّوضة، والزَّاهر، والمعشوق، والمبارك، والرَّشيق، وقصر السُّرور، والتَّاج، والبديع (نفح الطِّيب: 1/464) (ع).

(2) كذا في الأصل وعامة النسخ المطبوعة، واقترح السامرائيُّ: (ادِّعاء)، وأخذه عنه (ع) في طبعته الثانية.

(3) من أمثال هذه القناعة قول أحدهم:
ويقر عيني وهي نازحة ... ما لا يقر بعين ذي الحلم=

السَّبْق في التَّدْقيق، ولي في هذا المعنىٰ قولٌ لا يمكِّنُ المُتَعَقِّبَ إلى أن يجدَ بعده مُتناولًا، ولا وراءه مكانًا، مع تَبييني علَّة قُرْبِ المسافة البعيدة، وهو: [من الطويل]

وقالوا بَعيدٌ قلتُ حَسْبي بأنّه ... معي في زَمانٍ لا يُطيق مَحِيدا
تَمُرُّ عليَّ الشَّمْسُ مثل مرورها ... به كلَّ يومٍ يَسْتَنِيرُ جديدا
فَمَن ليسَ بيني في المَسِير وبينه ... سوىٰ قَطْع يومٍ هل يكون بعيدا
وعِلمُ إله الخلق يَجمعُنا معًا ... كفىٰ ذا التَّداني ما أريدُ مزيدا

فبيَّنتُ - كما ترىٰ - أنِّي قانعٌ بالاجتماع مع مَن أُحبُّ في علم الله الذي السمواتُ والأفلاك والعوالم - كلُّها - وجميعُ الموجوداتِ لا تَنْتَسِبُ[1] منه، ولا تَتَجَزَّؤُ فيه، ولا يشذُّ عنه شيءٌ. ثم اقتصرتُ من علم الله - تعالىٰ - علىٰ أنَّه في زمانٍ، وهذا أعمُّ مِمَّا قاله غيري في إحاطة اللَّيل والنَّهار، وإنْ كانَ الظَّاهر واحدًا في

= أنـي أرى وأظـن أن سـترى ... وضح النهار وعالي النجم

وقول الآخر:

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك بنا تداني
ترى وضح النهار كما أراه ... ويعلوها المساء كما علاني

وقول الثالث:

ألست أرى النجم الذي هو طالع ... عليها فهذا للمحبين نافع
عسى يلتقي في الأفق لحظي ولحظها ... فيجمعنا إذ ليس في الأرض جامع

ويعلّق ابن داود على مثل هذا بقوله: إنَّه ناقص عن حد التمام (الزهرة ١٠٢، ١٠٣) وكأني بابن حزم قد قرأ هذه الجملة وتأملها، فما يحاول أن يأتي به في أبياته التالية إنما هو نوع من بلوغ الغاية أو حدّ التمام (ع).

(١) جعلها الصَّيرفي: وجميع الموجودات لا تنفصل منه، ولا تتجزأ فيه، ولا يشذ عنه منها شيء. وتابعه (مكي). وأثبتها (ع): وجميع الموجودات بسببٍ منه.

(٩٣أ) البادىء إلىٰ السَّامع، لأنَّ كلَّ المخلوقاتِ واقعةٌ تحتَ/ الزَّمانِ، وإنَّما الزَّمانُ اسم موضوع[1] لمرور السَّاعات، وقَطع الفلك وحركاته وأجرامه، واللَّيل والنَّهار مُتَوَلِّدانِ عن طُلوع الشمس وغروبها، وهما متناهيان في بعض العالم الأعلىٰ، وليسَ هكذا الزَّمان، فإنَّهما بعض الزَّمان ـ وإنْ كانَ لبعض الفلاسفة قولٌ: إنَّ الظِّلَّ مُتَمَادٍ. فهذا يُخَطِّئُهُ العيان، وعِلَلُ الردِّ عليه بيِّنة ليسَ هذا موضعها ـ ثم بينتُ أنَّه وإنْ كانَ في أقصىٰ المعمور من المشْرِقِ، وأنا في أقصىٰ المعمور من المغْرِبِ، وهذا طول السُّكنىٰ، فليسَ بيني وبينه إلا مسافةُ يومٍ؛ إذ الشَّمس تبدُو في أوَّل النَّهار في أوَّل المشارق، وتغربُ في آخر النَّهار في آخر المغارب.

ومن القُنُوع: فَصْلٌ أورده ـ وأستعيذُ بالله منه ومن أهله، وأحمَدُه على ما عَرَّفَ نفوسَنَا من منافرته ـ وهو أنْ يضلَّ العقلُ جُملةً، وتَفْسُدَ القَريحةُ، ويتلفَ التَّمييزُ، ويهونَ الصَّعْبُ، وتَذهَبَ الغَيْرةُ، وتُعْدَمَ الأنفة؛ فيرضىٰ الإنسانُ بالمشاركة فيمن يُحِبُّ، وقد عَرَضَ هذا لِقَوْمٍ، أعاذنا الله من البلاء. وهذا لا يَصِحُّ إلَّا مع كَلْبِيَّةٍ في الطَّبْعِ، وسُقُوطٍ من العقل ـ الذي هو عِيارٌ علىٰ ما تَحتَهُ ـ وضَعْفِ حِسٍّ. ويؤيدُ هذا كلَّه حبٌّ شديدٌ مُعْمٍ. فإذا/ (٩٣ب) اجتمعتْ هذه الأشياءُ، وتلاقَحَتْ بمزاجِ الطبائع، ودُخول بعضها في بعضٍ؛ نتجَ بينهما هذا الطَّبْعُ الخَسِيسُ، وتولَّدَتْ هذه الصِّفة الرَّذِلةُ، وقام منها هذا الفعل المقذُور القبيح. وأمَّا رجلٌ معه أقلُّ هِمَّةٍ، وأيسرُ مروءةٍ، فهذا منه أبعدُ من الثُّريَّا، ولو ماتَ وَجْدًا، وتقطَّع حُبًّا. وفي ذلك أقول زاريًا على بعض المُسامِحين في هذا الفَصْل: [من الطويل]

---

(١) خ: موضع.

رأيتُكَ رَحْبَ الصَّدْر ترضىٰ بما أتىٰ　　وأفضلُ شيءٍ أنْ تَلينَ وتَسْمَحا

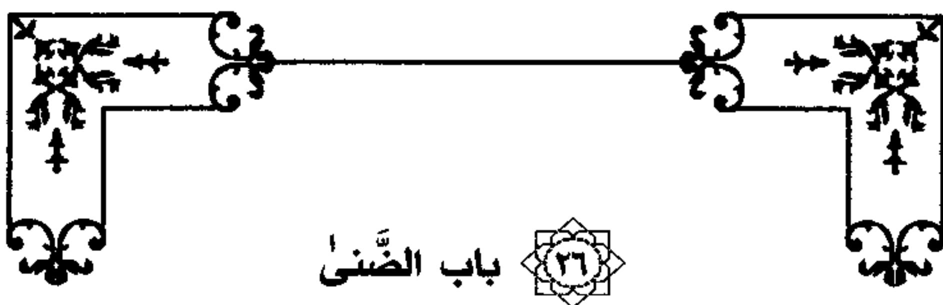
فحظُّك من بعض السَّواني[1] مُفضَّلٌ　　على أن يَحْوزَ الملكُ من أصْلِها الرَّحىٰ

وعُضْوُ بعيرٍ فيه في الوَزْنِ ضِعْفُ ما　　تُقدِّره في الجَدْيِ فاعْصِ الذي لحا

ولُعْبُ الذي تهوى بسَيْفَيْنِ مُعْجِبٌ　　فكُنْ ناحيًا في نَحْوِهِ كيفما نَحا



(١) السانية: الدلو العظيمة، والناقة يُستقىٰ عليها. (الحربي)



(٢٦) باب الضَّنىٰ

ولا بُدَّ لكلِّ محبٍّ؛ صادقِ المودَّةِ، ممنوعِ الوَصْل - إمَّا بِبَيْنٍ، وإمَّا بهَجْرٍ، وإما بكتمانٍ واقعٍ لمعنىً - من أنْ يؤولَ إلى حدِّ السِّقام والضَّنىٰ والنُّحول، وربَّما أضجعه ذلك؛ وهذا الأمرُ كثيرٌ جدًّا، موجودٌ أبدًا.

والأعراضُ الواقعة من المَحبَّةِ غيرُ الأعراضِ[1] الواقعةِ من هَجَماتِ العِلَلِ، ويميِّزها الطبيبُ الحاذقُ، والمتفرِّسُ النَّاقد؛ وفي ذلكَ أقول: [من الوافر] / (٩٤أ)

يقولُ ليَ الطبيبُ بغيرِ علمٍ ... تَداوَ فأنتَ يا هذا عَليلُ

ودائي ليسَ يَدريه سِوائي ... ورَبٌّ قادِرٌ مَلِكٌ جَليل

أأكتمُه ويكشفُهُ شَهيقٌ ... يُلازِمُني وإطراقٌ طَويل

ووجهٌ شاهداتُ الحُزْنِ فيه ... وجِسْمٌ كالخيالِ ضَنٍ نَحِيل

وأثبتُ ما يكونُ الأمر يومًا ... بلا شكٍّ إذا صحَّ الدَّليل

فقلتُ له: أبِنْ عنِّي قليلًا ... فلا واللهِ تَعْرِفُ ما تَقُول

فقالَ: أرىٰ نحولًا زادَ جِدًّا ... وعلَّتُكَ التي تَشْكُو ذُبول

---

(١) خ: العلل. ويظهر أنَّه خطأ.

فقلتُ له: الذُّبولُ تُعَلُّ منه الـ — جوارحُ وهي حُمَّىٰ تَسْتَحِيلُ
وما أشكو - لعَمْرُو الله! - حُمَّى — وإنّ الحَرَّ في جسمي قليل
فقال: أرىٰ التفاتًا وارتقابًا — وأفكارًا وصَمْتًا لا يَزُول
وأحسَب أنَّها السَّوداءُ فانْظرْ — لنفسكَ إنَّها عَرَضٌ ثَقِيل
فقلتُ له: كلامُك ذا مُحالٌ — فما للدَّمْعِ من عَيْني يَسيل
فأطرقَ باهتًا مِمَّا رآهُ — ألا في مِثْلِ ذا بُهِتَ النَّبيل
فقلتُ له: دوائي منه دائي — ألَا في مثلِ ذا ضَلَّتْ عُقُول
(٩٤ب) وشاهِدُ ما أقولُ يُرَىٰ عِيانًا — فُروعُ النَّبْتِ إنْ عُكِسَتْ أُصول/
وترياقُ الأفاعي ليسَ شيءٌ — سواه ببُرءِ ما لَدَغَتْ كفيل

وحدَّثني أبو بكرٍ محمَّدُ بن بقيٍّ الحجريُّ - وكانَ حكيمَ الطَّبْع، عاقلًا فهيمًا - عن رجلٍ من شيوخنا - لا يمكنُ ذكره - أنَّه كانَ ببغدادَ في خانٍ من خاناتها، فرأىٰ ابنةً لوكيلةِ الخان فأحبَّها وتزوَّجها، فلمَّا خلا بها نظرتْ إليه - وكانتْ بِكرًا - وهو قد تكشَّفَ لبعضِ حاجته، فراعها كِبَرُ أيره، ففرَّتْ إلىٰ أمها وتفادَتْ منه، فرام بها كُلٌّ من حواليها أن تُرَدَّ إليه، فأبتْ وكادَتْ أن تموتَ. ففارقها ثُمَّ ندم، ورام أن يُراجعها فلم يُمكنه، واستعانَ بالأَبْهَرِيِّ[1]

---

(١) هذه النسبة «الأبهري» تنصرف إلى غير واحد من فقهاء المالكية، فإن كان المقصود الأبهري الكبير فهو أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح، الذي سكن بغداد وانتشر عنه مذهب مالك بالعراق وجمع بين القرآن وعلو الإسناد والفقه الجيد، وقصَده الطلبة من كل فج، فممّن أخذ العلم عليه من الأندلسيين: أبو عبيد الحيوني والأصيلي (الذي بقي في بغداد ثلاث عشرة سنة) وأبو محمد القلعي وأبو القاسم الزهري، وكانت وفاة الأبهري سنة **٣٧٥** (ترتيب المدارك **٤:٤٦٦**) وذكر ابن بشكوال أن محمد بن يوسف بن أحمد التاجر كانت له رحلة إلى المشرق وأخذ عن الأبهري شرحيه لمختصر ابن عبد الحكم وعن هذا التاجر يحدِّث أبو بكر جماهر بن =

ـ وغيره ـ، فلم يقدر أحدٌ منهم على حِيلةٍ في أمره، فاختلط عقلُهُ، وأقام في المارستان يُعاني مدَّةً طويلةً حتَّىٰ نَقِهَ وسلَا وما كادَ، ولقد كانَ إذا ذكرها يتنَّفسُ الصُّعَداء.

وقد تقدَّم في أشعاري المذكورة في هذه الرِّسالة من صفة النُّحول ـ مُفرَّقًا ـ ما استغنيتُ به عن أن أذكر ـ هاهنا ـ من سواها شيئًا خوفَ الإِطالة، والله المُعِينُ والمُسْتعان.

وربَّما ترقَّت إلىٰ أن يُغْلَبَ المرءُ علىٰ عقله، ويحالَ بينه وبين ذِهْنه/ (٩٥أ) فيُوَسْوَسُ.

خَبَرٌ:

وإنِّي لأعرفُ جاريةً من ذواتِ المناصب، والجمال، والشَّرف من بنات القُوَّاد، وقد بلغ بها حُبُّ فتىً ـ من إخواني جِدًّا، من أَبناء الكُتَّاب ـ مبلغَ هَيَجان المرارِ الأسود، وكادت تختلطُ، واشتهر الأمر، وشاعَ جدًّا، حتَّى عَلِمْناهُ وعَلِمَهُ الأباعدُ، إلى أن تدُورِكَتْ بالعلاج.

وهذا إنَّما يتولَّدُ عن إدمان الفِكْر، فإذا غلبتِ الفكرةُ، وتمكَّنَ الخلط السَّوداويُّ؛ خرجَ الأمرُ عن حدِّ الحبِّ إلى حدِّ الوَلَه والجنون، وإذا أُغْفِلَ التَّداوي في أوائل المُعاناة[1] قويَ جدًّا، ولم يُوجَدْ له دواءٌ سوىٰ الوصال.

= عبد الرحمٰن الحجري (الصلة: **٤٩٢**) ولجماهر هذا ابن اسمه محمد توفي سنة **٤٢٤** (الصلة: ٤٨٨)، ومع ذلك تبقى كلمة «بقي» عقبة في سبيل القطع بشيء في هذا الصدد (ع).

(١) خ: في الأول إلى المعاناة. والتصحيح لـ(ع).

ومن بعض ما كتبتُ إليه قطعةً منها: [من الخفيف]

قد سَلَبْتَ الفؤادَ منها اختلاسًا   أيُّ خَلْقٍ يَعِيشُ دونَ فُؤادِ
فأَغِثْها بالوَصْلِ تَحْيَ شَريفًا   وتَفُزْ بالثَّوابِ يومَ المَعادِ
وأراها تَعتاضُ إنْ دامَ هذا   من خَلاخِيلِها حُلَىٰ الأقيادِ[1]
أنتَ حقًّا مُتيِّمُ الشَّمْسِ حتَّى   عِشْقُها بَيْنَ ذا الورىٰ لكَ بادي

خَبَرٌ:

وحدَّثني جعفرُ مولىٰ أحمدَ بنِ محمَّدِ بن حُدَيرٍ، المعروفُ بالبلينيِّ[2]: أنَّ سببَ اختلاطِ مروانَ بنِ يحيىٰ بنِ أحمدَ بن حُدَيرٍ، وذهابِ عقله؛/ (٩٥ب) اعتلاقُهُ بجاريةٍ لأخيه، فمَنَعَها منه، وباعها لغَيْرِه، وما كانَ في إخوته مِثْلُه؛ ولا أتمَّ أدبًا منه.

وأخبرني أبو العافية مولىٰ محمَّدِ بن عباسِ بن أبي عبدةَ[3]، أنَّ سببَ

---

(١) إيماء إلى أنَّها قد تجنُّ، وتوضع السَّلاسل في رجليها بدلًا من الخلاخيل؛ كما كانوا يفعلون بالمجانين.

(٢) إن صحَّت هذه اللفظة فهي نسبة إلى «البلينة» (Ballena) وتعني الحوت الكبير أو دابة البحر (انظر المغرب ١:١٩٣ والجذوة: ٢١٤)، ومن أمثال بحَارة الأندلس: إذا ريت البلين أبشر بالرمشكل (انظر أمثال العوام ٢:٦٠؛ والرمشكل هو ذكر البلينة) (ع). قلت: في (خ): بالبلبيني. ولم أجد له وجهًا.

(٣) لم أجد لمحمد بن عباس ترجمة، ولكنه من أسرة بني أبي عبدة إحدى الأسر الكبيرة في الأندلس، وقد كان عيسى بن أحمد بن أبي عبدة وزيرًا أيام الأمير عبد الله الأموي، واحتلَّ رجال من هذه الأسرة مناصب هامة في الدولة (انظر الحلة السيراء ١: ١٢٠ ـ ١٢١ والحاشية) وكان أحمد بن محمد بن أبي عبدة أيام عبد الرحمٰن الناصر على القيادة (البيان المغرب ٢:١٥٨) ومحمد بن عبد الله بن أبي عبدة، على الخزانة (المصدر نفسه) وعيسى بن أحمد بن أبي عبدة على الشرطة العليا (٢:١٥٩)؛ ويطول بنا القول لو أردنا تتبع أفراد هذه العائلة وتقلُّبهم في المناصب (ع).

جنون يحيىٰ بن محمَّد بن أحمد بن عبَّاس بن أبي عبدةَ بيعُ جاريةٍ له كانَ يَجِدُ بها وَجْدًا شديدًا، كانت أمُّه أباعتها، وذهبتْ إلىٰ إنكاحه مِنْ بعضِ العامريَّات.

فهذان رَجُلانِ جليلان مشهُورَان فَقَدا عقولهما، واختلطا، وصارا في القُيوُدِ والأغلال. فأمَّا مروانُ فأصابته ضَرْبَةٌ مُخْطِئَةٌ يومَ دخول البربر قرطبةَ وانتهائِهم إليها[1]؛ فتوفِّيَ ـ رحمه الله ـ. وأمَّا يحيىٰ بن محمَّد فهو حيٌّ علىٰ حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتي هذه، وقد رأيته أنا مرارًا، وجالسته في القَصْرِ قبل أن يُمْتَحَنَ بهذه المِحْنة، وكان أستاذي وأستاذَه الفقيهُ أبو الخيارِ اللُّغَويُّ[2]. وكان يحيىٰ ـ لَعَمْري! ـ حُلْوًا من الفِتْيان نَبيلًا.

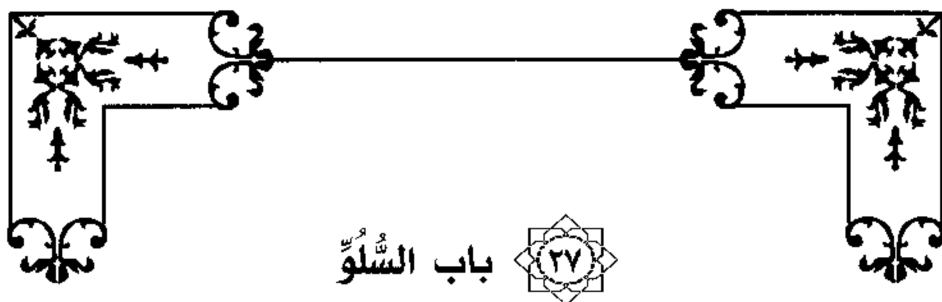
وأمَّا مَنْ دونَ هذه الطَّبقة فقد رأينا منهم كثيرًا، ولكن لم نسمِّهم لخفائهم.

وهذه درجةٌ إذا بلغ المشغوفُ إليها فقد انبتَّ الرَّجاءُ، وانصرم الطَّمَعُ، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره، إذ قد استحكم الفسادُ في الدِّماغ، وتَلِفَتِ المعرفةُ، وتغلَّبَتِ الآفة، أعاذنا الله من البلاءِ بطَوْله، وكفانا النِّقَمَ بمَنِّه./ (٩٦أ)



(١) لعل الصَّواب أن تقرأ: وانتهابِهم لها.

(٢) هو مسعود بن سليمان بن مفلت الشَّنتريني القرطبي، كان ظاهريًّا لا يرىٰ التقليد، عالمًا، متواضعًا. توفي سنة (٤٢٦هـ). «الصلة»: (١٣٥٢)، و«الجذوة»: ٣٢٨، و«البغية» رقم: ١٣٦١.



(٢٧) باب السُّلُوِّ

وقد علمنا أنَّ كلَّ ما له أوَّلٌ فلا بُدَّ له من آخرٍ، حاشا نَعيم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالجنَّة لأوليائه، وعذابه بالنَّار لأعدائه؛ وأما أعراضُ الدُّنيا فنافدةٌ فانيةٌ، وزائلةٌ مضمحِلَّةٌ.

وعاقبةُ كلِّ حُبٍّ إلىٰ أحد أمرين:

إمَّا اخترامُ منيةٍ، وإمَّا سُلوٌّ حادثٌ.

وقد نَجِدُ النَّفْسَ تغلب عليها بعضُ القوىٰ المصرِّفة معها في الجَسَدِ، فكما نجد نَفسًا ترفُض الرَّاحات والملاذَّ للعمل في طاعة الله ـ تعالى ـ، وللرِّياءِ في الدُّنيا، حتَّىٰ تشتهر بالزُّهد[1]؛ فكذلك نجد نفسًا تنصرفُ عن الرَّغبَةِ في لِقاء شكْلها للأنَفَةِ المُسْتَحْكِمَةِ المنافرةِ للغَدْرِ، أو استمرار سوءِ المكافأةِ في الضَّمير، وهذا أصَحُّ السُّلُوِّ. وما كان من غير هذين الشَّيئين فليسَ إلَّا مذمومًا. والسُّلوُّ المتولِّدُ عن الهَجْر وطوله إنَّما هو كاليأسِ،

(١) يعني: أن الذين يرفضون الرَّاحات والملاذَّ؛ منهم من يفعل ذلك طاعة للّه تعالىٰ وإخلاصًا له، ومنهم من يفعل ذلك رياءً وسمعة وطلبًا للشهرة. وفي الأصل: (للعقل)، بدل: (للعمل). ويظهر أنَّه خطأ. ولعل الصَّواب في: (وللرّياء)؛ أن تكون: (أو للرِّياء). واقترح السامرائيُّ: (... والكره في الدنيا...)، وأخذ بها (ع) في طبعته الثانية.

يدخلُ على النَّفس من بُلوغها إلىٰ أملها، فيفترُ نزاعها، ولا تقوى رغبتها.

ولي في ذمِّ السُّلُوِّ قصيدةٌ منها: [من الطويل]

إذا ما رَنَتْ فالحيُّ مَيْتٌ بلَحْظِها ... وإن نَطَقتْ قلتَ السِّلامُ[1] رِطابُ

كأنَّ الهوىٰ ضَيْفٌ ألمَّ بمُهْجَتي ... فلَحْمي طَعامٌ والنَّجيعُ شَرابُ

ومنها: / (٩٦ب)

صَبورٌ علىٰ الأزْم[2] الذي العِزُّ خَلْفَهُ ... ولو أمْطَرَتْهُ بالحَريقِ سَحابُ

جَزُوعٌ من الرَّاحات إن أنتجتْ له ... خُمولًا وفي بعضِ النَّعِيم عَذَابُ

والسُّلوُّ في التَّجْزِئَة الجُمْلِيَّةِ[3] ينقسم قسمين:

سُلوٌّ طبيعيٌّ؛ وهو المسمَّى بالنِّسْيان، يَخْلُوُ به القلبُ، ويَفْرَغُ به البال، ويكونُ الإنسان كأنَّه لم يحبَّ قطُّ. وهذا القسمُ ربَّما لَحِقَ صاحبَهُ الذَّم لأنَّه حادثٌ عن أخلاقٍ مذمومةٍ، وعن أسبابٍ غير مُوجبةٍ استحقاقَ النِّسيان ـ وستأتي مُبيَّنة؛ إن شاء الله تعالى ـ، وربَّما لم تَلحقه اللَّائمةُ لعذرٍ صحيحٍ.

والثَّاني: سُلوٌّ تَطَبُّعيٌّ؛ قَهَرَ النَّفْسَ، وهو المسمَّىٰ بالتَّصَبُّرِ؛ فترىٰ المرءَ يُظهِر التجلُّدَ وفي قلبه أشدُّ لدغًا من وَخْزِ الإشْفىٰ[4]، ولكنَّه يرىٰ

---

(١) السِّلام: الحجارة.

(٢) الأزم: الشدّة والقحط.

(٣) كذا ضبطها (ع) يعني: إجمالًا، في الجملة. واكتفىٰ بتروف بالشدَّة علىٰ الياء، وجعلها الصيرفي ـ وتبعه مكي والقاسمي وغيرهما ـ: (الجميلة)، ورأىٰ السامرائي أن القراءة الصحيحة: (الجِبِلِّيَّة)، ـ والجِبِلَّة: الخِلْقة ـ، وقال: بمعنىٰ: في الطبيعة وفي التطبُّع. وهذا هو النسيان الذي فرضته قوة داخلية (الطبع)، أو قوة خارجية (التطبع).

(٤) الإشفىٰ: المخرز.

بعضَ الشَّرِّ أهونَ من بعضٍ[1]، أو يحاسبُ نفسه بحُجَّةٍ لا تُصرَف ولا تُكسر. وهذا قِسْمٌ لا يُذَمُّ آتيه، ولا يُلامُ فاعله لأنَّه لا يَحْدُثُ إلا عن عَظيمةٍ، ولا يقعُ إلا عن فادحةٍ، إمَّا لسببٍ لا يصبرُ علىٰ مثله الأحرارُ، وإمَّا لخطبٍ لا مردَّ له تجري به الأقدارُ، وكفاكَ من الموصوف به أنَّه ليس بناسٍ لكنَّه ذاكِرٌ، وذو حنينٍ واقفٌ علىٰ العهد، ومتجرِّعٌ مراراتِ الصَّبْر.

(٩٧أ) والفَرْقُ العاميُّ بينَ المتصبِّر والنَّاسي؛ أنَّكَ ترىٰ المتصبرَ وإنْ أبدَى/ غايةَ الجَلَد، وأظهر سَبَّ مَحبوبه، والتَّحَمُّلَ عليه؛ لا يحتملُ ذلك من غيره. وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من الطويل]

دعُوني وسَبِّي للحَبيب فإنَّني — وإنْ كُنْتُ أُبدي الهَجْرَ لَسْتُ مُعاديا
ولكنَّ سَبِّي للحَبيبِ كقولِهِم: — أجادَ فلقَّاه الإلٰهُ الدَّواهيا[2]

والنَّاسي ضدُّ هذا.

وكلُّ هذا فعلىٰ قدر طبيعة الإنسان وإجابتها وامتناعها وقوَّةِ تمكُّنِ الحبِّ من القلب أو ضعفِه، وفي ذلك أقول ـ وسمَّيْتُ السَّالي فيه المُتَصَبِّر ـ قطعةً منها: [من الكامل]

ناسِي الأحبَّةِ غيرُ من يَسْلُوهمُ — حُكْمُ المقصِّر غيرُ حُكْمِ المُقصِرِ[3]
ما قاصرٌ للنَّفْسِ عِذْلُ مُجيبِها — ما الصَّابرُ المَطْبُوعُ كالمُتَصَبِّرِ

---

(١) هو من قول أبي خراش الهذلي:
حمدت إلٰهي بعد عروة إذ نجا — خراش، وبعض الشَّر أهون من بعض

(٢) هذا سبٌّ للاستحسان والتَّعظيم؛ كقولهم: قاتلهُ اللّهُ ما أسخاه! أو قولهم: «هوت أمّه»، وما أشبه (ع).

(٣) مِن «أقصَرَ» وهو من يكفُّ عن الأمر وهو قادر عليه، وأما «المقصِّر» فقد يكون عن عجز. (الحربي)

والأسبابُ الموجبة للسُّلُوِّ المنقسمِ هذين القسمين كثيرةٌ، وعلىٰ حَسْبِها، وبمقدار الواقع منها؛ يُعذر السَّالي أو يُذَمُّ:

فمنها المَلَلُ ـ وقد قدَّمنا الكلام عليه ـ. وإنَّ من كانَ سُلُوُّهُ عن مللٍ فليسَ حُبُّه حقيقةً، والمتوسِّمُ به صاحبُ دعوىً زائفةٍ، وإنَّما هو طالبُ لذَّةٍ، ومُبادرُ شَهْوَةٍ، والسَّالي من هذا الوجه ناسٍ مذمومٌ.

ومنها الاستبدالُ، وهو وإنْ كانَ يُشبه الملَلَ ففيه معنىً زائدٌ، وهو بذلك المعنىٰ أقبحُ من الأوَّل، وصاحبُهُ أحقُّ بالذَّمِّ./ (٩٧ب)

ومنها حياءٌ مركَّب يكون في المُحِبِّ يحولُ بينه وبين التَّعْريض بما يجد، فيتطاول الأمرُ، وتتراخىٰ المُدَّة، ويبلىٰ جديدُ المودَّةِ، ويحدثُ السُّلوُّ. وهذا وجهٌ إن كانَ السَّالي عنه ناسِيًا فليسَ بمنصفٍ؛ إذ منه جاءَ سببُ الحِرْمانِ. وإن كانَ متصبِّرًا فليس بمَلُومٍ؛ إذ آثر الحياءَ علىٰ لذَّة نفسه. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**الحياءُ من الإيمان، والبَذَاءُ من النِّفاقِ**»[1].

---

(١) لم أجده هكذا بشطريه، ولكنَّهما وردا ضمن حديثٍ أخرجه الدَّارميُّ (٥٠٩)؛ عن عون بن عبد الله، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، مرفوعًا. وإسناده صحيح.
وقوله ﷺ: «**الحياء من الإيمان**»؛ عند البخاريِّ (٢٤)، ومسلم (٣٦) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.
والشَّطر الثاني: له شاهد بلفظ: «**الحياءُ والعيُّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النِّفاق**»، أخرجه أحمد ٥/٢٦٩، والترمذي (٢٠٢٧)؛ بإسنادٍ صحيح.
وصحَّ ـ أيضًا ـ بلفظٍ: «**الحياء من الإيمان؛ والإيمان في الجنَّة، والبذاء من الجفاء؛ والجفاء في النَّار**». أخرجه الترمذي (٢٤٠٩)، وابن حبَّان (٦٠٩)، وأورده الألبانيُّ في: «الصَّحِيحة» (٤٩٥).
والبذاء: الفُحْشُ في القول.

وحدَّثنا أحمد بنُ محمَّد[1]، عن أحمد بن مُطرِّف[2]، عن عُبَيْدِالله بن يحيى[3]، عن أبيه، عن مالكٍ، عن سَلَمة بن صَفوان الزُّرَقيِّ[4]، عن زيد بن طلحةَ بن رُكانة[5]، يرفعه إلىٰ رسول الله ﷺ أنَّه قالَ: «**لكلِّ دينٍ خُلُقٌ، وخلقُ الإسلامِ: الحَيَاءُ**»[6].

فهذه الأسبابُ الثَّلاثةُ أصلُها من المُحبِّ، وابتداؤُها من قِبَلِهِ، والذَّمُّ لاصِقٌ به في نِسْيانه لمَنْ يُحِبُّ؛ عنها[7].

ثُمَّ أسبابٌ أربعةٌ هُنَّ من قِبَل المَحبُوبِ، وأصلُها عنده:

فمنها: الهَجْرُ، وقد مرَّ تفسير وجوهه؛ ولا بد لنا أن نورد منه شيئًا في هذا الباب يوافقه.

---

(١) هو ابن الجَسُور. وقد تقدَّم التعريف به.

(٢) هو: أحمد بن مُطرِّف بن عبد الرحمٰن الأزدي، ويُعرف بأبي عمر ابن المشَّاط. كان معتنيًا بالسُّنن، زاهدًا، ورعًا. توفي سنة: (**٣٥٢**هـ). «تاريخ الإسلام» (الطبقة: **٣٦**/ ص: **٦٩**).

(٣) تقدَّم التعريف به، وبأبيه.

(٤) سَلَمة بن صفوان بن سلمة الأنصاريُّ الزُّرقيُّ المدنيُّ، روىٰ عنه مالك وغيره، ووثَّقه النَّسائي. أخرج له ابن ماجه حديثًا واحدًا. «تهذيب الكمال».

(٥) هكذا قال يحيىٰ بن يحيىٰ اللَّيثي في روايته عن مالك، وقال ابن بكير، والقعنبي، وابن القاسم؛ وغيرهم: يزيد بن طلحة بن ركانة. وهو الصَّواب؛ كما قال ابن عبد البر (التمهيد: **٢١/١٤٢**)، ويزيد ذكره ابن حبان في: «ثقات التابعين» **٥/٥٤١**، وذكره ابن أبي حاتم **٩/(١١٤٩)** ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

(٦) «الموطَّأ» (**١٦١٠**)؛ وهو مرسل، لكن له شاهد من حديث أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ، أخرجه ابن ماجه (**٤١٨١**)، وأورده الألبانيُّ في: «الصَّحيحة» (**٩٤٠**)؛ ويستدرك عليه حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ؛ رواه ابن عبد البر في: «التمهيد» **٢١/١٤٢**؛ وحسَّن إسناده.

(٧) يعني: عن هذه الأسباب الثلاثة المذكورة، وأرجو أن تكون العبارة بهذه القراءة مستقيمة. وقد حُذف (عنها) عند (مكي) و(ع)، وجعلت العبارة التالية هكذا: (ثُمَّ منها أسباب أربعة...)؛ من غير إشارة إلى ما في الأصل.

والهَجْرُ إذا تطاولَ، وكَثُرَ العتابُ، واتصلتِ المفارقة؛ يكونُ بابًا إلىٰ السُّلُوِّ.

وليس مَن وَصَلَكَ ثُمَّ قطعكَ لغيركَ؛ من بابِ الهَجْرِ في شيءٍ لأنَّه/ (٩٨أ) الغدرُ الصَّحيحُ، ولا مَن مَالَ إلىٰ غيركَ ـ دونَ أن تتقدَّم لك معه صِلَةٌ ـ مِن الهَجْرِ ـ أيضًا ـ في شيءٍ؛ إنَّما ذاكَ هو النِّفارُ ـ وسيقع الكلامُ في هٰذين الفَصْلينِ بعد هذا؛ إن شاء الله تعالى ـ، لكن الهَجْرُ مِمَّنْ وصَلكَ، ثُمَّ قطعك؛ لتنقيلِ واشٍ، أو لذنبٍ واقعٍ، أو لشيءٍ قامَ في النَّفْسِ، ولم يَمِلْ إلىٰ سواك، ولا أقام أحدًا غيرَكَ مُقامكَ.

والنَّاسي في هذا الفَصْلِ من المُحبِّين ملومٌ دون سائر الأسبابِ الواقعة من المحبوب؛ لأنَّه لا تقع حالةٌ تقيم العذر في نسيانه، وإنَّما هو راغبٌ عن وصلك، وهو شيءٌ لا يلزمه. وقد تقدَّم من أذمَّةِ الوصال، وحقِّ أيَّامه؛ ما يلزم التذكُّرَ، ويوجبُ عهدَ الأُلْفة، ولكنَّ السَّالي علىٰ جهة التصبُّر، والتَّجَلُّدِ ـ هاهنا ـ معذورٌ؛ إذا رأىٰ الهجر متماديًا، ولم يرَ للوصال علامةً، ولا للمراجعةِ دلالةً. وقد استجازَ كثيرٌ من النَّاس أن يُسمُّوا هذا المعنىٰ غدرًا ـ علىٰ المَجَازِ ـ إذ ظاهرهما واحدٌ، ولكنَّ علَّتَيْهِما مختلفتان، فلذلك فرَّقنا بينهما في الحقيقة. وأقول في ذلك شِعْرًا منه: [من الطويل]

فكُونُوا كَمَنْ لَمْ أَدْرِ قطُّ فإنَّني ... كآخَرَ لم تَدْرُوا ولَمْ تَصِلوهُ
أنا كالصَّدىٰ ما قالَ كلٌّ أُجِيبُه ... فما شِئْتِمُوه اليَوْمَ فاعْتَمِدُوه/ (٩٨ب)

وأقولُ ـ أيضًا ـ قطعةً؛ ثلاثَة أبياتٍ قُلْتها وأنا نائمٌ، واستيقظتُ فأضفتُ إليها البيتَ الرَّابع: [من الوافر]

ألا لله دَهــرٌ كُـنْـتَ فـيـه | أعزَّ عليَّ مِنْ روُحِي وأهلي
فما بَرِحَتْ يدُ الهِجْرانِ حتَّى | طَواكَ بنانها طيَّ السِّجلِّ
سَقاني الصَّبْرَ هجرُكُم كما قد | سَقاني الحُبَّ وصلُكُمُ بسَجْلِ[1]
وجدتُ الوَصْلَ أصْلَ الوَجْدِ حَقًّا | وطُولَ الهَجْرِ أصْلًا للتَّسَلِّي

وأقولُ ـ أيضًا ـ [قطعةً] منها: [من الكامل المجزوء]

لو قيلَ لي مِن قَبْلِ ذا | أن سَوْفَ تَسْلُو مَنْ تَوَدّ
لحلفتُ ألفَ قَسَامَةٍ[2] | لا كانَ ذا أبَدَ الأبَد
وإذا طويلُ الهَجْرِ ما | مَعَهُ من السُّلْوانِ بُدّ
لله هَجْرُك إنَّه | ساعٍ لبُرئي مُجْتَهِدْ
فالآن أعجبُ للسُّلُـ | ـوِّ وكنتُ أعْجَبُ للجَلَدْ
وأرىٰ هَواكَ كجَمْرةٍ | تَحْتَ الرَّمادِ لها مَدَد

وأقول: [من الكامل]

كانتْ جَهَنَّمُ في الحَشَا مِنْ حُبِّكُم | فلَقَدْ أراهَا نَارَ إبْراهِيمَا

(١٩٩أ) ثم الأسبابُ الثَّلاثةُ الباقية التي هي من قِبَل المحبوب، فالمتصبرٌ من/ النَّاسِ فيها غيرُ مذموم، لما سنورده ـ إن شاء الله ـ في كلِّ فصلٍ منها:

فمنها: نِفارٌ يكونُ في المحبوبِ، وانزواءٌ قاطعٌ للأطماع.

---

(١) الدلو إذا كانت مملوءة ماءً. (الحربي).

(٢) خ: فحلفت. والقَسامة: اليمين. ولها في الاصطلاح الفقهي معنىً خاص.

خَبَرٌ:

وإنّي لأخبركَ عنّي أنّي ألفتُ في أيام صِباي ـ أُلفةَ المَحَبَّةِ ـ جاريةً نشأتْ في دارنا، وكانت في ذلك الوَقْتِ بنتَ ستةَ عشر عامًا؛ وكانت غايةً في حُسْنِ وجهها، وعَقْلها، وعَفافها، وطهارتها، وخَفَرها، ودَماثتها، عَدِيمةَ الهَزَلِ، منيعةَ البَذْلِ، بديعةَ البِشْر، مُسْبَلَةَ السِّتر، فَقِيدة الذَّامِّ، قليلة الكلام، مغضوضةَ البصَرَ، شديدة الحَذَر، نقيَّةً من العيوب، دائمةَ القُطُوب، حُلْوةَ الإعراض، مطبوعةَ الانقِباض، مَلِيحَةَ الصُّدود، رَزِينةَ القُعُود، كثيرةَ الوَقَارِ، مُسْتَلَذَّة النِّفار، لا تُوَجَّهُ الأراجي نحوها، ولا تقفُ المطامعُ عليها، ولا مُعَرَّسَ للأمل لديها، فوجهها جالبٌ كلَّ القلوب، وحالها طاردٌ مَنْ أَمَّها، تزدان في المَنْعِ والبُخْل؛ ما لا يزدان غيرها بالسَّماحةِ والبَذْلِ، موقوفةٌ على الجِدِّ في أمرها غير راغبةٍ في اللَّهو، علىٰ أنَّها كانتْ تُحْسِنُ العودَ إحسانًا جيدًا؛ فجنحتُ إليها، وأحببتها حبًّا مفرطًا شديدًا، فسعيتُ عامَيْنِ أو نحوهما في أن تجيبني بكلمةٍ، وأسمعَ مِن فِيها/ (٩٩ب) لَفْظةً ـ غيرَ ما يقعُ في الحديثِ الظَّاهر إلىٰ كلِّ سامعٍ ـ بأبلغِ السَّعْي؛ فما وصلتُ من ذلك إلىٰ شيءٍ البتَّةَ.

فلعهدي بمُصْطَنعٍ[1] كانَ في دارنا لبعضِ ما يُصْطَنَعُ له في دور الرُّؤساء، تجمَّعَتْ فيه دَخَلَتُنَا ودخلةُ أخي ـ رحمه الله ـ من النِّساء، ونساء فتياننا ومن لاثَ بنا من خَدَمِنا، مِمَّن يخفُّ موضعُهُ، ويلطفُ محلُّه، فلَبِثْنَ صَدْرًا من النَّهارِ، ثُمَّ تنقَّلْنَ إلى قَصَبَةٍ كانت في دارنا مُشْرِفَةٍ علىٰ بستانِ الدَّار، وَيُطَّلَعُ منها على جميع قرطبةَ وفُحُوصها، مفتَّحَةِ الأبواب؛ فَصِرْنَ

(١) المصطنع: الوليمة أو الحفل.

يَنْظُرْنَ من خلال الشَّراجيب[1] ـ وأنا بينَهُنَّ ـ فإنِّي لأذكرُ أنِّي كنتُ أقصدُ نحو الباب الذي هي فيه أُنْسًا بقُرْبها، متعرِّضًا للدُّنُوِّ منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتتركُ ذلكَ البابَ، وتقصدُ غيره في لُطْفٍ مِنَ الحركة، فأتعمَّدُ أنا القصدَ إلىٰ البابَ الذي صارتْ إليه فتعودُ إلىٰ مثلِ ذلكَ الفعل من الزَّوال إلىٰ غيره؛ وكانتْ قد علمتْ كَلَفي بها، ولم يَشْعُر سائرُ النِّسوانِ بما نحن فيه، لأنهنَّ كنَّ عددًا كثيرًا، وإذ كلُّهُنَّ يَتَنقَّلْنَ من بابٍ إلى بابٍ (١٠٠أ) لسببِ/ الاطِّلاعِ من بعضِ الأبوابِ على جهاتٍ لا يُطَّلَعُ من غيرها عليها ـ واعلم؛ أنَّ قيافة النِّساء في من يَميلُ إليهنَّ أنفذ من قيافةِ مُدْلِجٍ[2] في الآثار! ـ ثُمَّ نَزَلْنَ إلىٰ البستان فرغبَ عجائزنا وكرائمنا إلىٰ سَيِّدَتها في سماع غنائها، فأَمَرَتْها؛ فأخذتِ العودَ وسوَّته، بخَفَر وخَجَلٍ لا عهدَ لي بِمْثِلِهِ ـ وإنَّ الشَّيْءَ يتضاعَفُ حُسْنُهُ في عَيْنِ مستحسنه ـ ثُمَّ اندفعتْ تُغَنِّي بأبياتِ العَبَّاسِ بن الأحنف؛ حيثُ يقول[3]: [من البسيط]

إنِّي طربتُ إلىٰ شَمْسٍ إذا غَربَت ... كانتْ مغاربُها[4] جوفَ المقاصِيرِ[5]

شَمْسٌ مُمَثَّلَةٌ في خَلْقِ جَاريةٍ ... كأنّ أعطافَها[6] طيُّ الطَّوامير[7]

لَيْسَتْ من الإنس إلا في مناسبةٍ ... ولا مِنَ الجنِّ إلا في التَّصاوِير

---

(١) الشراجيب: الشبابيك أو الطاقات؛ ويكون الشباك مشرجبًا إذا كان من خشب بهيئة مربعات، ومن أمثالهم العامية زاد فِ المشرجب بيت، ويشير المعتمد في شعره (الحلة ٢:١٣٣) إلى قصر الشراجيب. (انظر الأمثال العامية ٢:٢٣٠ وتعليقات المحقق على المثل رقم ١٠١٠) (ع).

(٢) مدلج: رجل من كنانة كان مشهورًا بالقيافة؛ أي قصّ الأثر.

(٣) انظر ديوان العباس بن الأحنف: ١١٣.

(٤) الدِّيوان: مشارقها.

(٥) جمع مقصورة، وهي الدار المقصورة علىٰ أهلها. (الحربي)

(٦) الدِّيوان: كأنّما كشحها.

(٧) جمع طامور، وهو الصحيفة. (الحربي)

فالوجهُ جَوْهَرةٌ، والجِسْمُ عَبْهَرَةٌ[1] والرِّيحُ عَنْبَرةٌ، والكُلُّ مِنْ نُور[2]
كأنَّها حِينَ تَخْطُو في مَجَاسِدِها تَخْطُو علىٰ البَيْضِ أو حَدِّ[3] القوارير

فلَعَمْري! لكأنَّ المِضرابَ إنَّما يقعُ علىٰ قلبي، وما نسيتُ ذلكَ اليومَ ولا أنساهُ إلىٰ يوم مفارقتي الدُّنيا، وهذا أكثرُ ما وصلتُ إليه من التَّمَكُّنِ من رؤيتها، وسماع كلامها؛ وفي ذلكَ أقول: [من الخفيف]

لا تَلُمْها علىٰ النِّفارِ ومَنْعِ الـ وَصلِ مَا ذَاكُمُ لها بِنَكِيرِ/ (١٠٠ب)
هل يكونُ الهِلالُ غيرَ بَعِيدٍ أو يكُونُ الغزالُ غَيْرَ نَفُورِ

وأقول: [من الوافر]

مَنَعْتِ جَمَالَ وَجْهِكِ مُقلتيَّا ولفظُكِ قد ضَنَنْتِ به عليَّا
أراكِ نَذَرْتِ للرَّحْمٰنِ صَوْمًا فلستِ تكلِّمين اليَوْمَ حَيَّا
وقد غنَّيْتِ للعَبَّاس شِعْرًا هنيئًا ذا لعبَّاسٍ هَنِيَّا
فلو يَلْقَاكِ عَبَّاسٌ لأضحىٰ لفَوْزٍ قَالِيًا وبِكُمْ شَجِيَّا

ثُمَّ انتقلَ الوزيرُ أبي ـ رحمه الله ـ من دُورِنا المحدَثَةِ بالجانب الشَّرقيِّ من قرطبةَ ـ في رَبَضِ الزَّاهرة ـ؛ إلىٰ دورنا القديمة في الجانب الغربيِّ من قرطبةَ ـ ببلاطِ مُغِيثٍ ـ في اليومِ الثَّالث من قيامِ أمير المؤمنين محمَّدٍ المهديِّ بالخلافة. وانتقلتُ أنا بانتقاله، وذلكَ في جمادىٰ الآخرة

(١) المرأة الباهرة الباعرة الجمال التي تزين جمالها بالخلق الطاهر. (الحربي)
(٢) رواية هذا البيت في «الديوان»:
فالجسم من لؤلؤ والشعر من ظلم والنشر من مسكة والوجه من نور
(٣) الديوان: أو خضر.

سنةَ تسعٍ وتسعينَ وثلاث مِئَةٍ، ولم تنتقلْ هي بانتقالنا لأمورٍ أوجبتْ ذلك، ثُمَّ شُغلنا بعدَ قيام أمير المؤمنين هشام المؤيَّد بالنَّكَباتِ، وباعتداءِ أربابِ دولته، وامتُحِنَّا بالاعتقال، والتَّرقيب، والإغرام الفادح، والاسْتِتَار، (١٠١أ) وأرزمتِ الفتنةُ، وألقتْ/ باعَها، وعَمَّتِ النَّاسَ وخَصَّتْنا، إلىٰ أن توفِّيَ أبي الوزيرُ - رحمه الله - ونحنُ في هذه الأحوال بعد العَصْرِ يومَ السَّبت، للَيْلَتَيْنِ بقيتا من ذي القعدة عام اثنتَيْن وأربع مئةٍ، واتَّصلَتْ بنا تلك الحالُ بعده إلىٰ أن كانت عندنا جِنازةٌ لبعض أهلنا فرأيتُها - وقد ارتفعتِ الواعية[1] - قائمةً في المأتم، وَسْطَ النِّساء، في جملةِ البواكي والنَّوادب؛ فلقد أثارتْ وَجْدًا دفينًا، وحرَّكتْ ساكنًا، وذكرَّتْني عَهْدًا قديمًا، وحُبًّا تَلِيدًا، ودَهْرًا ماضيًا، وزمنًا عافيًا، وشُهورًا خواليَ، وأخبارًا بَواليَ، ودهورًا فواني، وأيَّامًا قد ذهبتْ، وآثارًا قد دَثَرَتْ، وجَدَّدَتْ أحزاني، وهيَّجَتْ بَلابلي، علىٰ أنِّي كنتُ في ذلك النَّهار مُرْزَءً مصابًا من وجوهٍ، وما كنتُ نَسِيتُ، ولكن زادَ الشَّجىٰ، وتوقَّدَتِ اللَّوْعةُ، وتأكَّدَ الحُزْنُ، وتضاعفَ الأسف، واستجلب الوَجْدُ ما كانَ منه كامنًا فلبَّاه مُجِيبًا؛ فقلتُ قطعةً منها:
[من الطويل]

يُبَكِّي لمَيْتٍ ماتَ وهو مُكَرَّمٌ ... ولَلْحَيُّ أَوْلَىٰ بالدُّموع الذَّوَارفِ
فيا عَجَبًا مِنْ آسِفٍ لامْرِىءٍ ثوىٰ ... وما هُوَ للمَقْتُولِ ظُلْمًا بآسِفِ

(١٠١ب) ثُمَّ ضربَ الدَّهرُ ضَرَبَانَهُ، وأُجْلِينا عن منازلنا، وتغلَّب علينا جندُ/ البربر، فخرجتُ عن قرطبةَ أوَّلَ المحرم سنةَ أربع وأربع مئة، وغابتْ عن بصري بعد تلك الرُّؤْية الواحدةِ ستَّةَ أعوامٍ وأكثرَ، ثُمَّ دخلتُ قرطبةَ في

---

(١) الواعية: الصُّراخ على المَيْت.

شوال سنة تسع وأربع مئة، فنزلتُ علىٰ بعض نسائنا فرأيتُها هنالك، وما كِدْتُ أن أميِّزها حتَّى قيل لي هذه فلانةٌ ـ وقد تغيَّرَ أكثرُ محاسنها، وذهبتْ نَضَارتها، وفَنِيَتْ تلك البَهْجَةُ، وغاضَ ذلك الماءُ الذي كان يُرَىٰ كالسَّيْفِ الصَقيل والمرآة الهِنْدِيَّةِ، وذَبُلَ ذلك النُّوَّارُ الذي كانَ البصرُ يقصدُ نحوه مَتْبُورًا[1]، ويرتاد فيه متخيِّرًا، وينصرف عنه مُتَحَيِّرًا، فلم يبقَ إلا البعضُ المُنْبِيءُ عن الكلِّ، والخبر المُخْبِرُ عن الجميع، وذلك لقلَّة اهتبالها بنفسها، وعدمها الصِّيانةَ التي كانت غُذِيَتْ بها أيامَ دولتنا، وامتدادِ ظِلِّنا، ولتبذُّلها في الخروج فيما لا بدَّ لها منهِ مِمَّا كانت تُصانُ وتُرفَعُ عنه قبل ذلك ـ وإنَّما النساءُ رياحِينُ متىٰ لم تُتعاهدْ نَقَصَتْ، وَبَنِيَّةٌ متىٰ لم يهْتَبَلْ بها اسْتَهْدَمَتْ؛ ولذلك قال من قال: إنَّ حُسْنَ الرجالِ أصدقُ صِدْقًا، وأثبتُ أصلًا، وأعتقُ جَوْدَةً؛/ لصَبْرِهِ علىٰ ما لو لَقِيَ بعضُه وجوهَ النِّساءِ لتغيرتْ (١٠٢أ) أشدَّ التَّغيُّر، مِثْلَ الهجير، والسَّموم، والرِّياح، واختلاف الهواء، وعَدَمِ الكِنِّ ـ وإنِّي لو نلتُ منها أقَلَّ وَصْلٍ، وأنِسَتْ لي بعضَ الأُنْسِ؛ لخُولِطْتُ طَرَبًا، أو لَمُتُّ فَرَحًا، ولكنَّ هذا النِّفار الذي صبَّرني وأسْلاني.

وهذا الوجه من أسباب السُّلُوِّ صاحِبُهُ في كِلاَ الوجهَيْنِ معذورٌ وغيرُ ملومٍ؛ إذ لم يقع تَثَبُّتٌ يُوجبُ الوفاءَ، ولا عهدٌ يقتضي المحافظة، ولا سَلَفَ ذِمامٌ، ولا فَرَطَ تصادقٌ يُلام علىٰ تَضْييعه ونسيانه.

ومنها جَفاءٌ يكونُ من المحبوب، فإذا أفرطَ فيه وأسرفَ، وصادف من المُحِبِّ نَفْسًا لها بعضُ الأَنَفَةِ والعزَّةِ؛ تسلَّىٰ، وإذا كان الجفاءُ يسيرًا منقطعًا، أو دائمًا، أو كبيرًا منقطعًا؛ احْتُمِلَ وأُغْضِيَ عليه، حتىٰ إذا كثر

---

(١) المتبور: الهالك، وما أصبت منه (قاموس: تبر). وعند (مكي) و(ع): منبهرًا. وما في الأصل واضح وصحيح.

ودام فلا بقاءَ عليه، ولا يلام النَّاسي لمن يُحِبُّ في مثل هذا.

ومنها الغَدْرُ، وهو الذي لا يحتمله أحدٌ، ولا يُغْضِي عليه كَرِيمٌ، وهو المَسْلاةُ حقًّا، ولا يلام السَّالي عنه على أيِّ وجهٍ كان؛ ناسيًا أو متصبِّرًا، بل اللائمة لاحقةٌ لمن صبر عليه. ولولا أنَّ القلوبَ بيد مقلِّبها لا إله إلا هو، ولا يُكَلَّفُ المرءُ صرْفَ قلبه ولا إحالةَ استحسانه؛ ولولا ذاك لقلتُ: إنَّ/ المتصبِّر في سُلُوِّه مع الغدر يكاد أن يستحقَّ الملامةَ والتَّعْنِيفَ؛ (١٠٢ب) ولا أدْعَىٰ إلى السُّلُوِّ عند الحُرِّ النَّفْسِ، وذي الحفيظة والسَّرِيِّ السَّجايا؛ من الغَدْر، فما يصبر عليه إلَّا دنيءُ المُرُوءَةِ، خَسِيسُ النَّفْسِ، نَذْلُ الهِمَّةِ، ساقطُ الأَنَفَةِ. وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من الوافر]

هَواكِ فلستُ أَقْرَبُهُ غُرورٌ ... وأنتِ لكُلِّ من يَأْتي سَرِيرُ
وما أنْ تَصْبِرِينَ علىٰ حَبيبٍ ... فحَوْلَكِ منهمُ عَدَدٌ كَثِير
فلو كنت الأميرَ لما تَعَاطىٰ ... لقاءَكَ خَوفَ جَمْعِهِم أمير[1]
رأيتُك كالأَمَاني ما علىٰ مَنْ ... يُلِمُّ بها ولَوْ كَثُرُوا غُرور
ولا عَنْها لمَنْ يأتي دِفَاعٌ ... ولو حُشِدَ الأنامُ لهم نَفِير

ثم سببٌ ثامِنٌ: وهو لا من المُحِبِّ ولا من المحبوب، ولكنَّه من الله تعالى وهو: اليأسُ، وفروعه ثلاثةٌ، إمَّا موتٌ، وإمَّا بَيْنٌ لا يرجىٰ معه أوْبَةٌ، وإمَّا عارضٌ يدخل على المتحابَّينَ بعلَّةِ المُحِبِّ[2] التي من أجلها وَثِقَ المحبوب فيغيِّرُهَا؛ وكلُّ هذه الوجوه فمن أسباب السُّلوِّ والتَّصَبُّر.

وعلى المحبِّ النَّاسي في هذا الوجه المنقسم إلىٰ هذه الأقسام

---

(١) أثبته (مكي) و(ع): الأمير.
(٢) بعلَّةِ المُحِبِّ؛ استدركها النَّاسخ في هامش المخطوط. وجعلها (ع): بعلة الحبّ.

الثَّلاثة/ من الغَضَاضة، والذَّمِّ، واستحقاقِ اسم اللَّوم والغدر؛ غيرُ قليلٍ، (١٠٣أ)
وإنَّ لليأسِ لعملًا في النُّفوس عَجِيبًا، وثَلْجًا لحَرِّ الأكباد كبيرًا؛ وكلُّ هذه الوجوه المذكورة أوَّلًا وآخرًا فالتَّأنِّي فيها واجبٌ، والتَّرَبُّصُ على أهلها حَسَنٌ، فيما يمكن فيه التَّأنِّي، ويصحُّ لديه التَّرَبُّصُ، فإذا انقطعتِ الأَطماعُ، وانحسمت الآمالُ؛ فحينئذٍ يقوم العُذْرُ.

وللشُّعراء فنٌّ من الشِّعر يذمُّون فيه الباكيَ على الدِّمَنِ، ويُثْنُونَ علىٰ المثابر على اللَّذَّاتِ، وهذا يدخلُ في بابِ السُّلوِّ. ولقد أكثر الحسنُ بنُ هانئٍ في هذا الباب وافتخر به، وهو كثيرًا ما يَصِفُ نفسه بالغَدْرِ الصَّريح في أشعاره، تحكُّمًا بلسانه، واقتدارًا علىٰ القول، وفي مثل هذا أقول شعرًا منه: [من الخفيف]

خلِّ هذا وبادِرِ الدَّهْرَ وارحَلْ ... في رياض الرُّبىٰ مَطِيَّ القفارِ[1]
وَاحْدُها بالبديع من نَغَمات الـ ... ـعُودِ كيما تُحَثَّ بالمِزْمَارَ
إنَّ خيرًا من الوقوف على الدَّا ... ر وقوفُ البَنَانِ بالأوتار
وبدا النَّرْجِسُ البديعُ كصَبٌّ ... حائِرِ الطَّرْفِ مائلًا كالمُدَار
لونُه لونُ عَاشِقٍ مُسْتَهامٍ ... وهو لا شَكَّ هَائِمٌ بالبَهَارِ[2]/ (١٠٣ب)

ومعاذَ الله أنْ يكونَ نسيانُ ما درس لنا طَبْعًا، أو معصيةُ الله بشُرْبِ الرّاح لنا خُلُقًا، وكسادُ الهِمَّة لنا صِفَةً، ولكنْ حسبنا قولُ الله تعالى ـ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: ١١٢] ـ في الشُّعراءِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٥ ـ ٢٢٦] فهذه شَهادةُ الله

---

(١) جعلها (مكي) و(ع): العُقَار.
(٢) في الأصل: بالنَّهار. والبَهار: نوع النبات طيب الريح.

العزيز الجبَّار لهم، ولكن شذوذُ القائل للشِّعر عن مرتبة الشِّعر خَطأٌ.

وكان سَبَبَ هذه الأبياتِ أنَّ «ضَنىٰ» العامِريَّةَ، إحدىٰ كرائم المظفَّر عبد الملك بن أبي عامرٍ، كلَّفَتْني صَنعتها فأجبتها، وكنت أُجلُّها؛ ولها فيها صَنْعةٌ في طريقة النَّشِيدِ والبَسِيطِ[1] رائقةٌ جدًا، ولقد أنشدتها بعضَ أخواني من أهل الأدب فقال سرورًا بها: يجبُ أن تُوضَعَ هذه في جملةِ عجائب الدُّنيا.

فجميعُ فصول هذا الباب كما ترى ثمانيةٌ:

منها ثلاثةٌ هي من المُحِبِّ، اثنان منها يُذَمّ السَّالي فيهما على كلِّ وجه، وهما المَلَلُ والاستبدال. وواحدٌ منها يُذَمُّ السَّالي فيه ولا يُذَمُّ المتصبِّر، وهو الحياء ـ كما قدَّمنا ـ.

وأربعةٌ من المحبوب، منها واحدٌ يُذَمُّ النَّاسي فيه ولا يذم المتصبِّر، وهو الهجر الدَّائم، وثلاثةٌ لا يذمُّ السَّالي فيها على أي وجه كان ناسيًا أو/ (١٠٤أ) متصبِّرًا، وهي النِّفارُ والجفاءُ والغدر.

ووجه ثامنٌ وهو من قِبَلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو اليأسُ إمَّا بموتٍ، أو بَيْنٍ، أو آفةٍ تَزْمِنُ، والمتصبِّرُ في هذه معذورٌ.

وعنِّي أخبركَ أنِّي جُبلتُ على طبيعتين لا يهنأُنِي معهما عيشٌ أبدًا، وإنِّي لأبرمُ بحياتي باجتماعهما، وأودُّ التَّغَيُّبَ[2] من نفسي أحيانًا لأفقد ما أنا بسببه من النَّكَدِ من أجلهما وهما:

---

(١) هذان يمثلان ثلثي «النَّوبة» الموسيقية عند زرياب وغيره، والعنصر الثالث الأخير فيها هو: «الهزج» (ع).

(٢) خ: التَّثَبُّتَ. والتصحيح عن (ع).

ـ وفاءٌ لا يشوبه تلوُّن، قد استوتْ فيه الحَضْرةُ والمَغِيبُ، والباطنُ والظَّاهر، تولِّدُهُ الأُلْفةُ التي لم تَعرفْ بها نفسي عمَّا دَرِبَتْهُ، ولا تتطَّلعُ إلىٰ عَدَمِ من صَحِبَتْه.

ـ وعِزَّةُ نَفْسٍ لا تقرُّ علىٰ الضَّيْم، مهتَمَّةٌ لأقلِّ ما يرد عليها من تغيُّر المعارف، مُؤْثِرةٌ للموت عليه.

فكلٌّ واحدةٍ من هاتين السَّجِيَّتَيْنِ تدعو إلىٰ نفسها، وإنِّي لأُجْفَىٰ فأحتملُ، وأستعملُ الأناةَ الطَّويلةَ، والتَّلوُّمَ الذي لا يكادُ يُطيقه أحدٌ، فإذا أفرط الأمرُ، وحَمِيَتْ نَفْسي تصبَّرتُ، وفي القلب ما فيه. وفي ذلك أقول قطعةً منها: [من البسيط]

لي خَلَّتانِ أذاقاني الأَسَىٰ جُرَعًا ... ونَغَّصا عِيشَتِي واسْتَهْلكا جَلَدي
كِلتاهما[1] تَطَّبيني[2] نحو جِبْلَتِها ... كالصَّيْد يَنْشَبُ بين الذِّئْبِ والأسد
وفاءُ صِدْقٍ فما فارقتُ ذَا مِقَةٍ ... فزال حُزني عليه آخرَ الأَبدِ/ (١٠٤ب)
وعِزَّةٌ لا يَحلُّ الضَّيمُ ساحتَها ... صرامةً[3] فيه بالأموالِ والوَلَدِ

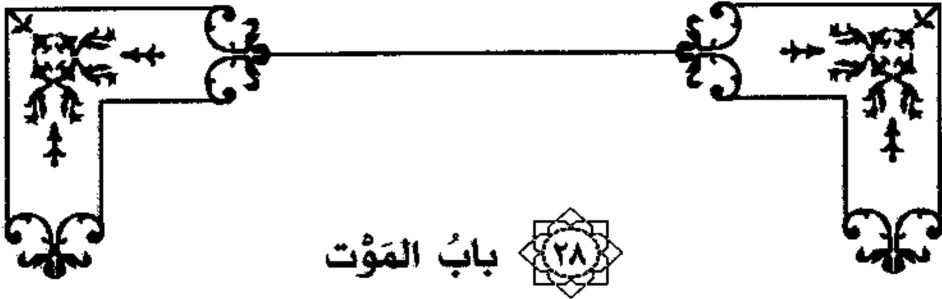
وممَّا يُشبه ما نحن فيه ـ وإن كانَ ليسَ منه ـ أنَّ رجلًا من إخواني كنتُ أحلَلْته من نفسي محلَّها، وأسقطتُ المُؤُونةَ بيني وبينه، وأعددته ذُخْرًا وكَنْزًا، وكان كثيرَ السَّمْع من كلِّ قائلٍ؛ فدبَّ ذوو النَّمِيمَةِ بيني وبينه، فحاكُوا فيه، وأَنجَحَ سعيُهُمْ عنده، فانقبضَ عمَّا كنتُ أعهده. فتربَّصْتُ عليه مُدَّةً في مثلها أَوْبُ الغائِب، ورضىٰ العاتب، فلم يزِدْ إلا انقباضًا، فتركتُهُ وحالَهُ.

---

(١) خ: كلاهما.

(٢) تستميلني. (الحربي)

(٣) هكذا في الأصل، ويمكن أن تجعل: (صرافة) كما عند (ع).



(٢٨) بابُ المَوْت

وربَّما تزايد الأمرُ، ورقَّ الطَّبْعُ، وعَظُمَ الإشفاقُ؛ فكانَ سببًا للموت ومفارقة الدُّنيا، وقد جاء في الآثار: «من عَشِقَ فعفَّ فماتَ فهو شَهِيدٌ»[1].

وفي ذلكَ أقولُ قطعةً منها: [من الوافر]

(١) هذا أثر رُوي عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا وموقوفًا؛ ولا يصح، أمَّا المرفوعُ فقد تتابعَ الأئمةُ على تضعيفه وإعلاله من جهة إسناده، وحكم ابنُ القيم في كتبه: «زاد المعاد»: ٢٧٥/٤، و«الداء والدواء»: ١٧٥، و«المنار المنيف»: ٣٢١، و«روضة المحبين»: ١٧٩ بوضعه وببطلانه من جهة المعنىٰ أيضًا، ووافقه الألباني في: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٤٠٩)؛ وخرَّجه تخريجًا جيِّدًا. وأما الموقوفُ فضعيفٌ، لكن ليس مثل ضعف المرفوع، ولهذا قال ابن القيم في «الجواب الكافي»: نعم؛ ابن عباس لا يُنكر ذلك عنه. وقال في: «الزاد»: وفي صحته موقوفًا على ابن عباس نظر. ووافقه الألبانيُّ. وقد ذهبَ العلامةُ أبو عبد الرحمٰن الظَّاهري إلى تصحيحه موقوفًا (كيفَ يموتُ العشَّاقُ: ٢٤١)، وهو خطأ.

وقد علَّق الدكتور إحسان عباس هنا بقوله: «وقولُ ابنِ حزم: (في الآثار) دليلٌ على أنه لا يُصَحِّحُه» قلت: وهذا استنتاج صحيح، ولو كان ابن حزم يرى صحة الحديث؛ لصرَّح به، أو على الأقل لجزم بنسبته إلى النبي ﷺ. ولا يُعَكِّر على هذا قوله: (روىٰ هذا لنا قومٌ ثِقَاتٌ...)؛ لأن هذا من الشِّعر الذي يذكر منه ابن حزم ما يناسب المقام، ولا يلزم من ذلك الموافقة على مضمونه؛ كما أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه هذا.

وقال الحربي: قول ابن حزم: «في الآثار» ليس دليلًا علىٰ أنه لا يصحح الحديث كما قال الدكتور إحسان، ولكن فيه دلالة أو إشارة إلىٰ أنه ثابت أثرًا غير مرفوع. ومعنىٰ الأثر أعمُّ من الحديث في اصطلاح أهلهما.

فإنْ أهلِكْ هَوَىً أهلِكْ شَهِيدًا وإنْ تَمنُنْ بقيتُ قَريرَ عَينِ
روىٰ هذا لنا قومٌ ثِقاتٌ نَأَوْا بالصِّدْقِ عن جَرْحٍ ومَيْنِ[1]

ولقد حدَّثني أبو السَّرِيِّ عمَّارُ بنُ زيادٍ ـ صاحبنا ـ عمَّن يَثِقُ به: أنَّ الكاتبَ ابنَ قُزْمانَ[2] امتُحن بمَحبَّةِ أسلَم بن عبد العزيز، أخي الحاجب هاشم بن عبد العزيز. وكانَ أسْلَمُ غايةً في الجمال، حتَّى أَضْجَعَه لما به،/ (١٠٥أ) وأوقعه في أسباب المَنِيَّة. وكان أسلم كثيرَ الإلمام به، والزِّيارة له، ولا عِلْمَ له بأنَّه أصلُ دائه إلىٰ أن توفِّي أسَفًا ودَنَفًا.

قال المُخْبِرُ: فأخبرتُ أسلم بعد وفاته بسبب عِلَّتِهِ وموته فتأسَّفَ وقالَ: هلَّا أعلمتَني؟ فقلتُ: ولم؟ قال: كنتُ ـ والله! ـ أزيدُ في صِلَتِهِ، وما أكاد أفارِقُهُ، فما عليَّ في ذلكَ ضَرَرٍ.

وكانَ أسلمُ ـ هذا ـ من أهل الأدب البارع والتَّفَنُّنِ، مع حَظٍّ من الفِقْهِ وافرٍ، وذا بَصَارةٍ في الشِّعر، وله شِعْرٌ جيِّدٌ، وله معرفة بالأغاني وتصرُّفها، وهو صاحبُ تأليفٍ في طرائق غناء زِرْياب[3] وأخباره، وهو

---

(١) استشهد بهذين البيتين الحافظ مُغُلْطاي، فيما نقله البقاعي في: «أسواق العشاق»، كما في: «كيف يموت العشاق» **٢٢٦**، وذكرهما العجلوني في: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» **٢/٣٤٥**، وملا علي القاري في: «الأخبار الموضوعة» **٣٥٢**.

(٢) قُزْمان: بزاي ساكنة قبلها ضمٌّ. «توضيح المشتبه» **٧/١٩١**.

(٣) قال ابن خلدون في: «تاريخه» ـ في صدد كلامه عن صناعة الغناء في العصر العباسي ـ: كان للموصليِّين غلام اسمه زرياب؛ أخذ عنهم الغناء فأجاد، فصرفوه إلى المغرب؛ غَيْرةً منه، فَلَحِقَ بالحكم بن هشام بن عبد الرَّحمٰن الدَّاخلِ، فبالغ في تَكْرُمَتِهِ، وركب للقائه، وأسنىٰ له الجوائزَ والإقطاعاتِ والجراياتِ، وأحلَّه من دولته وندمائه بمكانٍ، فأورثَ بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلىٰ أزمان الطَّوائف، طمىٰ منها بإشبيلية بحرٌ زاخرٌ، وتناقل منها ـ بعد ذهاب غَضَارتها ـ إلى بلاد العدوة بإفريقية والمغرب، وانقسم علىٰ أمصارها، وبها الآن منها صبابة علىٰ تراجع عمرانها، وتناقص دولها. وهذه الصِّناعة آخرُ ما يحصل في العمران من الصَّنائع؛ =

ديوانٌ عجيبٌ جدًّا، وكان أحسنَ النَّاسِ خَلْقًا وخُلُقًا، وهو والد أبي الجَعْدِ؛ الذي كان ساكنًا بالجانب الغربي من قرطبة[1].

= لأنَّها كماليَّة في غير وظيفة من الوظائف؛ إلا وظيفة الفراغ والفرح، وهي - أيضًا - أوَّل ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه، والله أعلم.

(١) هذه الرِّواية فيها اضطرابٌ شديدٌ، وليتَّضِحَ وَجْهُ ذلك؛ جمعتُ التَّعليقات عليها في هذا الموضع، فأقول:

- لم أعثر علىٰ ترجمة ابن قُزْمان الكاتب؛ إلا أن يكون: (أحمدَ بن كُلَيْبٍ النَّحْوي) كما ذهب إليه كثير من الباحثين؛ وسيأتي شرح ذلك.

- أسلم بن عبد العزيز؛ هو: العلامة الحافظ، قاضي قضاة الأندلس، أبو الجعد الأُمويُّ القرطبيُّ، الفقيه المالكيُّ، أحد الأعلام، مات سنة (٣١٩هـ)، مترجم في: «السِّير» ١٤/(٣١٤). وأخوه: هاشم بن عبد العزيز؛ أبو خالد، مذكورٌ بفضلٍ وأدبٍ، كانَ خاصًّا بالأمير محمَّد بن عبد الرحمٰن؛ يُؤْثره بالوزارة، ويرشِّحه مع بنيه ومفردًا للقيادة والإمارة، وكان ذا خلالٍ نبيلة من بأسٍ، وجودٍ، وفروسيةٍ، وكتابةٍ، وشِعْرٍ، ونكبه المنذر بن محمَّد لأشهرٍ من خلافته. ذكره ابن الأبَّار في: «الحلة السَّيراء» ١٣٧/١ الترجمة: (٥١)، والحميديُّ في: «جذوة المقتبس» ص٣٤٢، الترجمة: (٨٦٤).

- قوله عن أسلم: «له معرفةٌ بالأغاني....»؛ لا يستقيم، ولا يليق بقاضٍ فقيهٍ، وإنَّما عُرِفَ ذلك عن حفيده وسَمِيِّه: أبي الحسن أسلم بن أحمد بن سعيد بن القاضي أسلم بن عبد العزيز، ذكره الحميديُّ في: «الجذوة» ١٦٢/(٣٢١)، وقال: «له أدب وشعر، من أهل بيت علم وجلالة، وله كتابٌ معروفٌ في أغاني زرياب». مِنْ هنا ذهب الدَّارسون لطوق الحمامة - ومنهم الدُّكتور إحسان عباس - إلىٰ أنَّ المذكور في النَّصِّ ليس هو القاضي الجَدُّ؛ إنما هو هذا الحفيد الأديب، وزادهم ظنًّا في ذلك؛ ما رواه الحميديُّ عن ابن حزم مِنْ قِصَّة حُبِّ أحمد بن كليب النحوي؛ لأسلم الحفيد، وهي قصَّة مشهورة - وقد ذكرناها كاملة في الملحق رقم: (٢) - وهذا يعني - فيما ذهبوا إليه - أنَّ ابنَ قُزْمان - المذكور في النَّصِّ - إنَّما هو ابن كليب!

قلتُ: وهذا التَّوجيه للرِّواية لا يزيل ما فيها من إشكال، وتوضيحه:

١ - إنَّ ابن حزم يروي هنا عن صاحبه: عمَّار بن زياد؛ عمَّن يثق به. أما قصة ابن كليب فيرويها عن شيخه محمد بن الحسن المذْحِجيِّ.

٢ - إذا كان وصف أسلم - هنا - يطابق حال الحفيد؛ فإنَّ وصفه بأنه أخو هاشم يحمل علىٰ الجزم بأنَّ المقصودَ إنَّما هو الجَدُّ.

٣ - لم يذكروا في ترجمة أحمد بن كليب ولا في خبره؛ وصفَهُ بابن قزمان الكاتب، نعم؛ ذكر ذلك داود الأنطاكيُّ (١٠٠٨هـ) في: «تزيين الأسواق» ٣٣٩/٢، =

وأنا أعلم جاريةً كانتْ لبعض الرُّؤساء، فعَزَفَ عنها لشيءٍ بلغه في جهتها ـ لم يكن يوجب السَّخَطَ ـ فباعها، فجَزِعَتْ لذلك جزعًا شديدًا، وما فارقها النُّحول والأَسَفُ، ولا بانَ عن عينها الدَّمْعُ إلىٰ أن سُلَّتْ، وكان ذلك سَبَبَ موتها؛ ولم تَعِشْ بعد خروجها عنه إلا أشهرًا ليست بالكثيرة. ولقد أخبرتني عنها امرأةٌ أثقُ بها أنَّها لقيتها وهي قد صارت كالخيال نحولًا ورِقَّةً،/ فقالت لها: أحَسَبُ هذا الذي بك من محبَّتك (١٠٥ب) لفلانٍ. فتنفَّسَت الصُّعداء، وقالت: والله لا نسيتُه أبدًا، وإن كانَ جفاني بلا سببٍ. وما عاشَتْ بعد هذا القول إلا يسيرًا.

وأنا أخبرك عن أبي بكرٍ أخي ـ رحمه الله ـ، وكانَ متزوِّجًا بعاتكةَ بنت قند[1]، صاحبِ الثَّغْرِ الأعلىٰ أيَّام المنصور أبي عامرٍ محمَّد بن [أبي] عامرٍ، وكانت التي لا مَرْمَىٰ وراءها في جمالها، وكَريم خلالها، ولا تأتي الدُّنيا بمثلها في فضائلها، وكانا في حدِّ الصِّبا، وتمكُّن سلطانه، تُغْضِبُ

= لكنه متأخِّرٌ لا يعتمد عليه، خاصة مع ما وقع فيه من أوهام وتخليطٍ؛ يطول شرحه.

٤ ـ ثم إنَّ بين الروايتين؛ اختلافاتٍ جذرية في سياق القصَّة، فهنا لم يعلم أسلم بحال ابن قزمان، وهناك اشتهر أمر ابن كليب؛ وتنوشدت أشعاره في أسلم في الأعراس، وانقطع أسلم عن جميع مجالس الطَّلب! وهنا: عندما علم أسلم بسبب علَّة وموت ابن قزمان؛ لأنه كان ـ لو علم بحاله ـ يزيد في صلته، ولا يكاد يفارقه. . .، وهناك: رفض أسلم زيارة ابن كليب مع علمه بعلَّته، وعظيم ما نزل به، بل كان ذلك سبب هلاكه!

قلت: فهذه الأمور تمنع من الاطمئنان التَّام إلى أنَّ الرِّواية المذكورة هنا؛ هي نفس قصَّة ابن كليب، ولولا وصف ابن حزم لأسلم بما لا يليق إلا بالحفيد؛ لجزمت أنَّ ما هنا قصة أخرىٰ، وقعت لكاتبٍ ـ لا نعرفه ـ مع أسلم القاضي. والأرجح أنَّ النَّصَّ قد تعرَّضَ لاختصارٍ مُخِلٍّ، وحَذْفٍ مُشَوِّهٍ من النَّاسِخ، والله أعلم.

(١) انظر ليفي بروفنسال: (Histoire de L'Espagne Musulmane, Voi, II, p.64, n3.) وقند هذا (ويكتبه بروفنسال Kand وأحسبه خطأ) هو الذي استردّ مدينة سالم في أيام الناصر (سنة ٣٣٦هـ) ويقول بروفنسال في تعليقه: «علينا ألاّ نخلط بين قند هذا وبين شخص آخر اسمه «قند الأكبر» وكان أيضًا مولى لعبد الرحمٰن الناصر». (ع).

كلَّ واحدٍ منهما الكلمةُ التي لا قَدْرَ لها، فكانا لم يزالا في تغاضُبٍ وتعاتُب مدَّةَ ثمانيةِ أعوامٍ، وكانت قد شَفَّها حبُّه، وأضناها الوَجْدُ فيه، وأنحلها شدَّةُ كَلَفها به، حتَّىٰ صارتْ كالخيال المُتَوَسِّم[1] دَنَفًا، لا يُلهيها من الدُّنيا شيءٌ، ولا تُسَرُّ من أموالها ـ علىٰ عَرْضها وتكاثرها ـ بقليلٍ ولا كثيرٍ إذ فاتها اتِّفاقه معها، وسلامته لها، إلىٰ أن توفِّي أخي ـ رحمه الله ـ في الطَّاعون الواقع بقرطبةَ في شهر ذي القعدة سنة إحدىٰ وأربع مئة، وهو ابنُ اثنتَيْنِ وعشرينَ سنةٍ، فما انفكَّتْ منذ بانَ عنها من السُّقْم الدَّخيل، والمرض والذُّبول؛ إلىٰ أن ماتَتْ بعده بعامٍ في اليوم الذي أكملَ هو فيه تحتَ الأرض عامًا. ولقد أخبرَتْني/ عنها أمُّها، وجميعُ جواريها؛ أنَّها (١٠٦أ) كانت تقول بعدَه: ما يقوِّي صبري، ويُمسك رَمَقي في الدُّنيا ـ ساعةً واحدةً بعد وفاته ـ إلا سروري وتيقُّني أنَّه لا يضمُّهُ وامرأةً مَضْجَعٌ أبدًا، فقد أمنتُ هذا الذي ما كنتُ أتخوَّف غيره، وأعظم آمالي اليوم اللَّحاقُ به. ولم يكن له قبلها ولا معها امرأةٌ غيرها، وهي كذلكَ لم يكن لها غيره، فكان كما قدَّرَتْ، غفرَ الله لها ورضيَ عنها.

وأمَّا خبرُ صاحبنا أبي عبد الله محمَّدِ بن يحيى بن محمد بن الحسين[2] التَّميميِّ المعروف بابن الطَّبني[3]: فإنَّه كان ـ رحمه الله ـ كأنَّه قد خُلِقَ الحُسْنُ

---

(١) واضحة في الأصل، وهكذا أثبتها بتروف، وجعلها (ع): المتوهَّم. والصَّواب ما في الأصل، يقال: توسَّم الشيء: تخيَّله وتفرَّسه، والمتوسِّم: المتحلِّي بِسِمَةٍ. ومراد أبي محمَّدٍ ـ رحمه الله ـ أنَّها قد أدنفها ـ أي: لازمها ـ المرضُ؛ حتىٰ صارت كأنَّها خيالٌ في نفس الأمر قد تحلَّتْ بصورة الحقيقة. وهذا تصوير ذكيٌّ للمعنىٰ، يظهر بالتَّأمُّل!

(٢) خ: الحسن. وهو تحريف.

(٣) بنو الطبني أصلهم من منطقة الزاب في المغرب (الجزائر حاليًا)، أول من بنى بيت شرفهم بالأندلس أبو مضر زيادة الله بن علي الطبني إذ كان نديم محمد بن أبي=

علىٰ مثاله، أو خُلِقَ من نفسِ كل من رآه، لم أشاهد له مِثْلًا حُسنًا، وجمالًا، وخُلُقًا، وعِفَّةً، وتصاونًا، وأدبًا، وفهمًا، وحِلْمًا، ووفاءً، وسؤددًا، وطهارةً، وكرمًا، ودِمَاثةً، وحلاوةً، ولَبَاقةً، وصَبْرًا، وإغضاءً، وعقلًا، ومروءةً، ودينًا، ودرايةً وحِفظًا للقرآن والحديث والنَّحو واللُّغة، و[كان] شاعرًا مفلقًا، وحَسَنَ الخطِّ، وبليغًا مفنَّنًا، مع حظٍّ صالحٍ من الكلام والجَدَلِ، وكان من غِلْمَانِ أبي القاسم عبد الرحمٰن بن أبي يزيد الأزديِّ ـ أستاذي في هذا الشَّأن ـ وكان بينه وبين أبيه اثنا عَشَرَ عامًا في السِّنِّ، وكنتُ أنا وهو متقاربَيْنِ في الأسنان، وكنَّا أليفَيْنِ لا نَفْتَرِقُ،/ وخِدْنَيْنِ لا يجري الماءُ بيننا إلا صفاءً، إلىٰ أن ألقت الفتنة جِرانها، وأرخت عَزاليها، ووقع انتهابُ جندِ البَربَر منازِلَنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها، وكان مسكنُ أبي عبد الله في الجانب الشَّرقي ببلاط مُغيثٍ، وتقلَّبتْ بي الأمور إلىٰ الخروج عن قرطبة، وسُكنى مدينةِ المَرِيَّة، فكنا نتهادىٰ النَّظْمَ والنَّثْر كثيرًا، وآخر ما خاطبني به رسالةٌ في دَرْجِها هذه الأبيات[1]: [من الخفيف] (١٠٦ب)

لیتَ شِعْريَ عن حَبْلِ وُدِّكَ هل يُمـ ... ـسي جَديدًا لديَّ غيرَ رَثيثِ
وأُراني أرىٰ مُحيَّاكَ يومًا ... وأُناجيكَ في بلاط مُغيث
فلو اَنَّ الدِّيارَ يُنهِضُها الشَّوْ ... قُ أتاكَ البلاطُ كالمُسْتَغِيث[2]

= عامر، وقد ترجم ابن بسام لعدد منهم (انظر ١/١: ٥٣٥ ـ ٥٤٧) وهناك فرع آخر من الطبنيين وهم: محمد بن حسين الطبني وعقبه (الصلة: ٥٦٢ والجذوة: ٤٧) وقد كان لمحمد ابن هو يحيى، فأعقب يحيى ثلاثة من الأولاد وهم: أبو بكر إبراهيم (الجذوة: ١٤٩) وأبو عبد الله محمد، وهو هذا الذي كان صديقًا لابن حزم (الجذوة: ٩٢) وأبو عمر القاسم وكان أيضًا أديبًا شاعرًا (الجذوة: ٣١٣ وسيذكره ابن حزم) (ع).

(١) أورد الحميدي هذه الأبيات في: «الجذوة» ٩٢ (وانظر «البغية»، رقم: ٣١٦) (ع).

(٢) وقع هذا البيت بعد الذي يليه في: «الجذوة».

ولـو أنَّ الـقـلـوبَ تَـسْـطـيـعُ سَـيْـرًا   سـار قـلـبي إلـيـكَ سَيْـرَ الـحَـثـيـثِ
كـنْ كـمـا شِـئـتَ لـي فـإنِّـي مُـحِـبٌّ   لـيسَ لـي غـيـرُ ذِكْـرِكُـمْ مـن حـديـثِ
لـكَ عـنـدي وإنْ تـنـاسَـيْـتَ عَـهـدٌ   فـي صَـمِـيـمِ الـفـؤادِ غـيـرُ نـكـيـثِ

فكنَّا علىٰ ذلك إلىٰ أن انقطعت دولةُ بني مروان، وقُتِلَ سليمان الظَّافر أميرُ المؤمنين، وظهرت دولة الطَّالبية[1]، وبويع عليُّ بن حَمُّود الحَسَنيُّ[2] المسمَّىٰ بالنَّاصر بالخلافة، وتغلَّب على قرطبة وتملَّكها، واستمدَّ/ في قتاله (١٠٧أ) إيَّاها بجيوش المتغَلِّبِينَ والثُّوَّار في أقطار الأندلس.

وفي إثر ذلك نكبَني خيرانُ صاحبُ المَرِيَّة، إذ نَقَلَ إليه مَن لم يَتَّقِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الباغِينَ ـ وقد انتقم الله منهم ـ عنِّي وعن محمَّدِ بن إسحاقَ ـ صاحبي ـ أنَّا نسعىٰ في القيام بدعوة الدَّولة الأُمَوِيَّة، فاعتَقَلَنا عند نفسه أشهرًا، ثم أَخْرَجنا علىٰ جهة التَّغْريب فصِرْنا إلى حِصْنِ القَصْر[3]، ولَقِيَنا صاحبه أبو[4] القاسم عبد الله بن محمَّد بن هذيل التُّجِيبي، المعروف ابن المُقَفَّل، فأقمنا عنده شهورًا في خير دارِ إقامةٍ، وبَيْنَ خير أهلٍ وجيرانٍ، وعند أجلِّ النَّاسِ هِمَّةً، وأكملهم معروفًا، وأتمِّهم سيادةً.

ثم ركبنا البحر قاصدينَ بَلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضىٰ عبد الرحمٰن بن محمَّد، وساكنَّاه بها، فوجدتُ ببلنسية أبا شاكرٍ عبدَ

---

(١) دولة الطَّالبية: يعني دولة بني حمود لأنَّهم ينتسبون إلى علي بن أبي طالب.
(٢) انظر أخبار علي بن حمود (قتل سنة ٤٠٨هـ) في: «الجذوة» ٢١، و«أعمال الأعلام»: ١٢٨، و«البيان المغرب»: ١١٩/٣، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة ٤١ /الترجمة: ٢٥٥).
(٣) حصن القصر (Aznalcazar) يقع إلى الجنوب الغربي من إشبيلة (ترجمة الروض: ٧٣ التعليق: ١) (ع).
(٤) خ: أبي. وهو خطأ.

الرَّحمن بن محمد بن موهب القَبريّ[1] ـ صَدِيقَنا ـ، فنعىٰ إليَّ أبا عبد الله ابن الطَّبني، وأخبرني بموته ـ رحمه الله ـ ثُمَّ أخبرني بعد ذلك بمُدَيْدةٍ القاضي أبو الوليد يونس بن محمَّد المُرادي[2]، وأبو عمرو أحمد بن محرز؛ أنَّ أبا بكر المُصعب بن عبد الله الأزديَّ المعروف بابن الفَرضيِّ[3] حدثهما ـ وكان/ والد المصعب ـ هذا ـ قاضيَ بلنسية أيَّام (١٠٧ب) أمير المؤمنين المهديِّ[4]، وكانَ المُصعبُ لنا صديقًا وأخًا وأليفًا أيَّام طلبنا الحديثَ علىٰ والده وسائر شيوخ المحدِّثينَ بقرطبة ـ قالا: قال لنا المصعب: سألتُ أبا عبد الله ابن الطَّبني عن سبب علَّته ـ وهو قد نَحِلَ وخفيتْ محاسنُ وجهه بالضَّنىٰ فلم يبقَ إلا عينُ جوهرها المُخْبِرُ عن صفاتها السَّالفة، وصار يكادُ أن يُطيره النَّفَس، وقَرُب من الانحناء، والشَّجا بادٍ على وجهه، ونحن منفردان ـ فقال لي: نعم؛ أخبركَ! إنِّي كنتُ علىٰ باب داري بغدير ابن الشَّمَّاسِ[5] في حين دخول عليِّ بن حَمُّود

---

(١) القَبْري: نسبة إلى مدينة قبرة (Cabra) بالأندلس.

(٢) يونس بن محمد: نسبه هنا لجده، وهو: يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث. تقدَّم التعريف به (٢٣ ـ باب الغدر)، ويضاف إلى مصادر ترجمته: «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٣ /الترجمة: ٣٢٦).

(٣) مصعب ابن الحافظ المؤرخ أبي الوليد عبد الله بن محمَّد بن يوسف ابن الفرضي، أبو بكر الأزدي القرطبي. قال الحميديُّ: أديب، محدِّث، أخباريٌّ، شاعرٌ، وَلِيَ الحكم بالجزيرة. كان حيًّا قبل الأربعين وأربع مئة. «جذوة المقتبس» (٨٢٨)، «تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٤ /الترجمة: ٣٣٧).

(٤) قام محمد بن هشام الملقَّب بالمهدي على هشام المؤيد في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩، فإذا كانت ولاية ابن الفرضي القضاء له على بلنسية صحيحة فلا بد أنها كانت فترة قصيرة، لأن المهدي لبث منذ قيامه إلى أن قُتل ستة عشر شهرًا، وقد ذكر ابن بشكوال أيضًا أن المهدي استقضىٰ ابن الفرضي بكورة بلنسية (الصلة: ٢٤٨) (ع).

(٥) في الأصل: بقديد الشَّماس. ويستفاد من ترجمة: أبي إسحاق المؤدِّب في: «التكملة لكتاب الصِّلة» لابن الأبَّار (ص: ٢٣٣، الترجمة ٥١٣) القطعة التي طبعها: الفريد =

قرطبة[1]، والجيوشُ واردةٌ عليها من الجهات تتسارب، فرأيتُ في جملتهم فتىً لم أقدِّر أنَّ للحُسْنِ صورةً قائمةً حتَّىٰ رأيته، فغلب على عقلي، وهام به لُبِّي، فسألتُ عنه فقيل لي: هذا فلان بن فلان، من سُكَّان جهة كذا؛ ناحيةٍ قاصِيَةٍ عن قرطبة، بعيدةِ المَأْخَذ. فيئستُ من رؤيته بعد ذلك. ولعمري! ـ يا أبا بكر! ـ لا فارقني حُبُّه، أو يُورِدَني رَمْسي. فكانَ كذلك.

وأنا أعرفُ ذلك الفتىٰ وأدريه، وقد رأيْتُهُ، لكنِّي أضربتُ عن اسمه لأنَّه قد ماتَ، والتقىٰ كلاهما عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، عفا الله عن الجميع./ (١٠٨أ) هذا على أنَّ أبا عبد الله ـ أكرم الله نزله ـ مَمَّنْ لم يكن له وَلَهٌ قَطُّ، ولا فارقَ الطريقةَ المُثْلىٰ، ولا وَطِىءَ حرامًا قطُّ، ولا قارَفَ مُسْكِرًا، ولا أتىٰ مَنْهِيًّا عنه يُخِلُّ بدينه ومُرُوءَتِهِ؛ ولا قارضَ من جَفَا عليه، وما كانَ في طَبَقَتِنا مِثْلَه.

ثم دخلتُ أنا قرطبةَ في خلافة القاسم بن حمود المَأْمُون[2] فلم أقدِّمْ شيئًا على قَصْدِ أبي عمرٍو القاسم بن يحيىٰ التميميِّ أخي أبي عبد الله ـ رحمه الله ـ فسألته عن حاله، وعزَّيْتُهُ عن أخيه ـ، وما كانَ أولىٰ بالتَّعزية عنه منِّي ـ، ثم سألته عن أشعاره ورسائله إذ كانَ الذي عندي منه قد ذهبَ بالنَّهْبِ في السَّبَبِ الذي ذكرته في صدر هذه الحكاية، فأخبرني عنه أنَّه لمّا

= بل، وابن أبي شنب (الجزائر: ١٩٢٠)؛ أن غدير ابن الشمَّاس هي من أحياء قرطبة. وكان بروفنسال أول من نبَّه إلى هذا.

(١) دخلها في الثَّاني والعشرين من المحرَّم سنة (٤٠٧هـ).

(٢) حكم القاسم بن حمود قرطبة بعد مقتل أخيه (٤٠٨) وبقي حتى شهر ربيع الأول سنة ٤١٢ حين ثار عليه ابن أخيه (يحيى بن علي) فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال (ع).

قَرُبَتْ وفاته، وأيقن بحضور المَنِيَّة، ولم يشكَّ في الموت؛ دعا بجميع شِعْره، وبكتبي التي كنتُ خاطبتُهُ أنا بها، فقطَّعها كلَّها ثم أمر بدفنها. قال أبو عمرو: فقلتُ له: يا أخي دَعْها تبقىٰ! فقال: إنِّي أقطِّعها؛ وأنا أدري أنِّي أقطِّعُ فيها أدبًا كثيرًا، ولكن لو كانَ أبو محمَّدٍ ـ يعنيني ـ حاضرًا لدفعتُها إليه تكونُ عنده تذكرةً لمودَّتي، ولكنِّي لا أعلم أيَّ البلاد اضمرتْهُ ولا أحيٌّ هو/ أم مَيْتٌ! وكانتْ نكبتي اتَّصلَتْ به، ولم يعلم مُسْتَقَرِّي، ولا (١٠٨ب) إلىٰ ما آل [إليه] أمري. فمن مراثيَّ له قصيدة منها: [من المتقارب]

لَئِن سَتَرَتْكَ بُطونُ اللُّحُود ... فوَجدِيَ بَعْدَكَ لا يَسْتَتِرْ
قَصَدْتُ ديارَكَ قَصْدَ المَشُوق ... ولِلدَّهْر فينا كَرُورٌ ومَر
فألفيتُها مِنْكَ قَفْرًا خَلاءً ... فأَسْكَبْت عَيْني عَلَيْكَ العِبَر

وحدَّثني أبو القاسم الهَمْداني[1] ـ رحمه الله ـ قالَ: كانَ معنا ببغدادَ أخٌ لعبد الله بن يحيىٰ بن أحمد بن دحُّون الفقيه[2]، الذي عليه مدارُ الفتيا بقرطبةَ، وكان أعلمَ من أخيه وأجلَّ مقدارًا، ما كانَ في أصحابنا ببغدادَ

(١) هو أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله بن خالد الهمذاني (أو الهمداني) الوهراني المعروف بابن الخراز، رحل إلى المشرق ولقي الأبهري أبا بكر وغيره، وكان رجلًا صالحًا منقبضًا، داره ببجانة، وكان معاشه من ثياب يبتاعها ببجانة ويقصِّرها ويحملها إلى قرطبة فتُباع له ويبتاع بثمنها ما يصلح لبجانة، ويجلب معه كتبه فتُقرأ عليه في خلال ذلك، وكان يرد قرطبة كل عام إلى أن وقعت الفتنة، وتوفي سنة **٤١١**، روى عنه ابن حزم وابن عبد البر وغيرهما (الصلة: **٣٠٥** والجذوة: **٢٥٦** والبغية رقم: **١٠٢٢**) قلت: وقد ورد «الهمذاني» بالذال المعجمة بضبط ابن بشكوال، وفي الجذوة بالمهملة، والأول أرجح، رغم أنه وهراني (ع). قلت: بل الصَّواب بالدَّال، كما في: (خ).

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن يحيى بن أحمد المعروف بابن دحون (ـ**٤٣١**هـ). كان من جلّة الفقهاء وكبارهم عارفًا بالفتوى حافظًا للرأي على مذهب مالك وأصحابه عارفًا بالشروط وعللها، عُمِّر وأسن وانتفع الناس به (الصلة: **٢٦٠**) (ع).

مِثْلَهُ، وإنَّه اجتازَ يومًا بدَرْبِ قطنة[1]، في زقاقٍ لا ينفِذُ، فدخل فيه فرأىٰ في أقصاه جاريةً واقفةً مكشوفةَ الوَجْهِ، فقالت له: يا هذا إنَّ الدَّربَ لا ينفذ. قالَ: فنظر إليها، فهام بها. قال: وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها، وخشِيَ الفتنةَ فخرج إلىٰ البصرة، فماتَ بها عِشْقًا ـ رحمه الله ـ وكان ـ فيما ذُكِرَ ـ من الصَّالحين.

حكايةٌ لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر: أنَّ رجلًا أندلسيًّا باع جاريةً ـ كانَ يجدُ بها وَجْدًا شديدًا ـ لفاقةٍ أصابته، من رجلٍ من أهل ذلك البلد، ولم يظنَّ بائعها أنَّ نفسه تتبعها ذلك التَّتَبُّعَ؛ فلمَّا حصلت عند المشتري كادتْ نفس الأندلسيِّ تخرج، فأتىٰ إلىٰ الذي ابتاعها منه، وحكَّمه/ (١٠٩أ) في ماله أجمعَ وفي نفسه؛ فأبىٰ عليه، فتحمَّل عليه بأهل البلد فلم يُسْعِفْ منهم أحدٌ، فكادَ عقله أن يذهبَ، ورأىٰ أنْ يتصدَّىٰ إلى الملك، فتعرَّض له وصَاحَ، فسمعه فأَمَرَ بإدخاله، والملكُ قاعدٌ في عِلِّيَّةٍ[2] له مشرفةٍ عالية، فوصل إليه، فلما مَثُلَ بين يديه؛ أخبره بقصَّته، واسترحمه، وتضرَّع إليه، فرقَّ له الملك، فأمر بإحضار الرَّجُل المبتاع؛ فحَضَر. فقال له: هذا رجلٌ غريبٌ وهو كما تراه، وأنا شفيعه إليك. فأبىٰ المبتاع وقالَ: أنا أشدُّ حبًا لها منه، وأخشىٰ إنْ صرفتها إليه أن أستغيثَ بك غدًا، وأنا في أسوأ من حالته. فرامَ به[3] الملك ومَنْ حواليه في أموالهم، فأبىٰ ولجَّ واعتذرَ بمحبته لها،

---

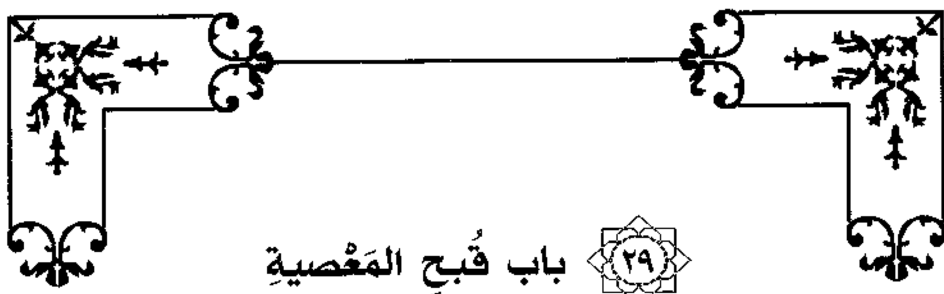
(١) لم يذكر لسترانج في كتابه: (Baghdad During the Abbasid Caliphate) دربًا بهذا الاسم؛ وأقرب ما وجدته هنالك «دار القطنية» (أي قصر سوق القطن) فلعل هناك دربًا مجاورة له كانت تسمى «درب القطنية» (٢٦٥) ويلي هذا من حيث شكل الكلمة «درب قحطبة» (١٤٠، ١٤١) (ع).

(٢) العِلِّيَّةُ ـ بكسرتين، وتُضَمُّ العين ـ: الغرفة، جمعه: العلالي «قاموس».

(٣) كذا في الأصل، والمعنىٰ: أنَّهم رغَّبوه في أخذ المال. وجعلها (ع): (فأذمَّ له)، وقال: أذمُّوا له: أي تكفَّلوا له بشيءٍ من أموالهم. وقرأها برشيه حسب المعنى: فرغبه.

فلمَّا طال المجلسُ، ولم يروا منه البتَّةَ جُنوحًا إلىٰ الإسعاف، قال للأندلسيِّ: يا هذا، مالكَ بيدي أكثرَ ممَّا ترىٰ، وقد جهدتُ لك بأبلغ سَعْيٍ، وهو ـ تراه ـ يعتذر بأنَّه فيها أحبُّ منك، وأنَّه يخشىٰ على نفسه شرًّا مِمَّا أنت فيه، فاصبر لِمَا قضىٰ الله عليك. فقال له الأندلسيُّ: فما لي بيدك حِيلةٌ؟ قال له: وهل هاهنا غير الرَّغْبة والبَذْلِ؟ ما أستطيع لك أكثر. فلما/ يَئِسَ (١٠٩ب) الأندلسيُّ منها جَمَعَ يديه ورجليه، وانصبَّ من أعلىٰ العليَّةِ إلىٰ الأرض، فارتاعَ المَلِكُ وصَرَخَ، فابتدرَ إليه الغلمان من أسفل، فقُضِيَ أنَّه لم يتأذَّ في ذلك الوقوع كبيرَ أذىً، فَصُعِدَ به إلى الملك، فقال له: ماذا أردتَ بهذا؟ فقال: أيُّها الملك! لا سبيلَ لي إلى الحياةِ بعدها. ثم هَمَّ أن يرمي نفسه ثانيةً، فَمُنِعَ. فقالَ الملكُ: الله أكبر! قد ظهر وجه الحُكم في هذه المسألة. ثُمَّ التفتَ إلىٰ المشتري؛ فقال: يا هذا، إنَّكَ ذكرتَ أنَّكَ أودُّ لها منه، وتخافُ أن تَصِيرَ في مثل حاله. فقال: نعم. قالَ: فإنَّ صاحبك هذا قد أبدى عُنوانَ محبَّته وَقَذَفَ بنفسه يُريد الموتَ لولا أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقاه، فأنتَ قُمْ فصحِّحْ حُبَّكَ، وترامَ من أعلىٰ هذه القَصَبَةِ كما فعل صاحبك، فإن مُتَّ فبأجلك، وإن عِشْتَ كنتَ أولىٰ بالجارية، إذ هي في يَدِكَ، ويَمْضي صاحبك عنك، وإن أبيتَ نَزَعْتُ الجاريةَ منك رُغْمًا ودفعتها إليه. فتمنَّع، ثُمَّ قال: أترامَىٰ، فلمَّا قرب من الباب، ونظر إلى الهويِّ تحته رجع القَهْقَرىٰ. فقالَ له الملكُ: هو ـ والله! ـ ما قلتُ لكَ. فهمَّ ثم نَكِلَ، فلمَّا لم يُقْدِم، قال له الملكُ: لا تتلاعبْ بنا، يا غلمان! خذوا بيديه وارموا/ به إلى (١١٠أ) الأرض. فلمَّا رأى العزيمةَ، قال: أيُّها الملك! قد طابتْ نفسي بالجارية. فقال له: جزاكَ الله خيرًا؛ فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها، وانصرفا.





(٢٩) باب قُبحِ المَعْصيةِ

قال المصنِّف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ:

وكثيرٌ من النَّاس يُطيعونَ أنفسهم؛ ويَعْصُونَ عقولهم، ويَتَّبعُونَ أهواءهم؛ ويَرْفُضُونَ أَدْيانهم، ويتجنَّبونَ ما حضَّ الله ـ تعالى ـ عليه ورتَّبه في الألباب السَّليمة من العِفَّة، وترك المعاصي، ومقارَعَةِ الهوىٰ، ويخالفونَ الله ربَّهم ويوافقون إبليسَ فيما يُحِبُّه من الشَّهوة المُعْطِبَةِ؛ فيواقعُونَ المعصيةَ في حُبِّهم.

وقد عَلِمْنا أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ركَّب في الإنسان طبيعَتَيْنِ متضادَّتَيْنِ:

إحداهما: لا تَشِيرُ إلَّا بخيرٍ ولا تحضُّ إلا على حَسَنٍ، ولا يُتَصَّور فيها إلا كلُّ أمر مَرْضيٍّ، وهي العقل، وقائِدُهُ العَدْلُ.

والثانية: ضدٌّ لها، لا تشيرُ إلَّا إلىٰ الشَّهوات، ولا تقُودُ إلا إلىٰ الرَّدىٰ، وهي النَّفْس، وقائدها الشَّهْوة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وكنَّىٰ بالقلب عن العقل، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧] وقال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] وخاطبَ أولي/ الألبابَ. (١١٠ب)

فهاتان الطبيعتان قُطْبان في الإنسان، وهما قوَّتان من قوى الجسد الفعَّال بهما، وَمَطْرَحانِ من مَطَارح شُعاعاتِ هذين الجَوْهَرَيْنِ العَجِيبَيْنِ الرَّفيعَيْنِ العُلْوِيَّيْنِ[1]، ففي كلِّ جَسَدٍ منهما حظُّه علىٰ قَدْرِ مقابلته لهما في تقدير الواحد الصَّمَدِ ـ تقدَّست أسماؤه ـ حينَ خلقه وهَيَّأَهُ؛ فهما يتقابلان أبدًا، ويتنازعان دَأبًا، فإذا غلبَ العقلُ النَّفْسَ ارتدع الإنسانُ، وقَمَعَ عوارِضَهُ المدخولةَ واستضاءَ بنورِ الله واتَّبع العدلَ، وإذا غلبتِ النَّفْسُ العَقلَ عَمِيَتْ البصيرة، ولم يَصِحَّ الفرقُ بين الحَسَنِ والقبيح، وعظُم الالتباس، وتردَّى في هُوَّةِ الرَّدىٰ، ومهواة الهَلَكَةِ، وبهذا حَسُنَ الأمر والنَّهْيُ، ووجب الامتثالُ[2]، وصحَّ الثَّوابُ والعقاب، واسْتُحِقَّ الجزاء.

والرُّوحُ واصلٌ بين هاتين الطَّبيعَتيْنِ، وموصلٌ ما بينهما، ومحلٌّ[3] الالتقاء بهما، وإن الوقوف عند حدِّ الطَّاعة لمعدومٌ إلا مع طول الرِّياضةِ، وصحَّةِ المعرفة، ونفاذ التَّمْييز، ومع ذلك اجتناب التَّعَرُّض للفِتَن، ومداخلةِ النَّاسِ جملةً، والجلوسُ في البيوت، وبالحَرِيِّ أن تقع السَّلامةُ المضمونة،/ (١١١أ) أو يكونَ الرَّجُلُ حَصورًا لا أربَ له في النِّساء، ولا جارحةَ له تعينه

---

(١) قال الدكتور إحسان عبَّاس معلِّقًا علىٰ هذا الموضع: إذا كانت النفس لا تشير إلا إلى الشهوات ولا تقود إلا إلى الردى ـ كما يقول ابن حزم ـ فكيف تكون جوهرًا عجيبًا رفيعًا علويًّا! هنا يبدو الخلط الشديد بين النفس «الأمّارة بالسوء» والنفس التي «هبطت إليك من المحل الأرفع».
وتعقَّبه العلامة أبو عبد الرحمٰن الظَّاهري بقوله: «لا تعارض فالنَّفس بمعنى الرُّوح لها حال قبل حلولها الجسد، وأبو محمد يتكلَّم عنها حال حلولها بالجسد.
وابن حزم يريد بالنَّفس ـ هنا ـ مجموع الإنسان جسدًا وروحًا.
والنَّفس أيضًا ـ فيها نوازع الخير والشَّر، والعقل يُرجِّح ويختار». (كيف يموت العشَّاق: ١٨٤).

(٢) خ: الاكتمال.

(٣) خ: وحامل.

عليهنَّ، وقديمًا ورد[1]: «من وُقِيَ شرَّ لقْلَقِهِ، وقَبْقَبِهِ، وذَبْذَبِهِ؛ فقد وُقيَ شَرَّ الدُّنيا بحذافيرها. واللَّقلق: اللِّسانُ، والقبقب: البطن، والذَّبذب: الفرج»[2].

ولقد أخبرني أبو حفصٍ الكاتبُ[3] - [و]هو من ولد رَوح بن زِنْباع الجُذاميِّ[4] - أنَّه سمع بعض المتسمَّيْن باسم الفقه من أهل الرِّواية المشاهير، وقد سُئِلَ عن هذا الحديث فقال: القبقب: البِّطيخ!

---

(١) خ: قديمًا. ولقد.

(٢) هذه حكمة قديمة رواها الدُّوريُّ في: «تاريخ ابن معين» (٤٦٨٦) عنه قال: قال الأصمعيُّ: سمعتُ أبا الأشهَب [جعفر بن حيَّان العُطاردي، الإمام الحجَّة، أخرج له الجماعة، مات سنة ٢٦٥هـ]؛ يقولُ: إذا وُقِيَ الشَّابُّ شرَّ ثلاثةٍ فقد وُقي: قبقبه، ولقلقه، وذبذبه. قال يحيىٰ: فسَّره الأصمعيُّ. فذكر معاني الألفاظ الثلاثة باللَّفظ الذي نقله ابن حزم.

وقد ورد هذا في حديثٍ مرفوعٍ؛ بلفظ: «**فقد وُقي الشَّر كلَّه**»: أخرجه البيهقيُّ في: «شُعَبِ الإيمان» (٥٤٠٩) عن أنس - رضي الله عنه - وقال: «في إسناده ضعف»، وأورده الديلمي في: «الفردوس» (٥٩٧٨)؛ من حديث أنس - أيضًا - بلفظ: «**فقد وجبت له الجنة**» وضعَّف الحافظ العراقي إسناده، وأورده الألباني في: «الضعيفة» (٢٤٤٨)؛ وقال: «ضعيف جدًّا»، وأورد له ثلاثَ عللٍ، ثم قال: «ثمَّ إنَّ الحديثَ علَّقه ابن حزم في جملة ما علَّق من الأحاديث الواهيةِ في كتابه: «طوق الحمامة» بلفظ حديث التَّرجمة، ولكنَّه قالَ: «فقد وقي شرَّ الدُّنيا بحذافيرها» ولم أقف عليه بهذا اللَّفظ».

قلت: نقد العلامة الألبانيِّ - رحمه الله - لا يرد على ابن حزم في هذا الموضع؛ فإنَّه لم يصرِّح برفعه، بل أعرض عن ذلك قصدًا؛ إشارةً إلى عدم ثُبُوته، والله أعلم.

(٣) أرجح أنه أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد الكاتب، وقد كان يتردد على ابن حزم بالمريَّة (الجذوة: ١٠٧) (ع).

(٤) روح بن زنباع؛ الأمير الشَّريف أبو زرعة الجذامي الفلسطينيُّ. سيّدُ قومه، وكان شبه الوزير للخليفة عبد الملك. ولأبيه صحبة، أمَّا هو فتابعيٌّ جليلٌ وليس بصحابيٍّ. توفي سنة (٨٤هـ). «سير أعلام النبلاء» ٤/(٩١)، و«البداية والنهاية» ٩/٥٤ - ٥٥ وقد كانت دار جذام بالأندلس: شذونة، والجزيرة، وتدمير، وإشبيليَّة (جمهرة ابن حزم: ٤٢١).

وحدَّثنا أحمدُ بن محمَّد بن أحمد، قال: حدَّثنا وهب بن مَسرَّة[1] ومحمَّد ابن أبي دليم[2]، عن محمَّد بن وضّاح[3]، عن يحيىٰ بن يحيىٰ، عن مالك بن أنسٍ، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ في حديثٍ طويلٍ: «**مَنْ وَقَاهُ الله شَرَّ اثنتَيْنِ دَخَلَ الجَنَّة**». فسُئِلَ عن ذلك؛ فقالَ: «**مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وما بَيْنَ رِجْلَيْهِ**»[4].

وإنِّي لأَسْمَعُ كثيرًا مِمَّنْ يقولُ: الوفاءُ في قَمْعَ الشَّهوات في الرِّجال دونَ النِّساء. فأُطيلُ العَجَبَ من ذلك، وإنَّ لي قولًا لا أحول عنه: الرِّجالُ والنِّساء في الجنوح إلىٰ هذين الشَيئَيْنِ سواءٌ، وما رجلٌ عَرَّضَتْ له امرأةٌ جميلةٌ بالحُبِّ وطالَ ذلك، ولم يكن ثَمَّ مانع، إلا وقع في شَرَكِ الشَّيْطانِ،/ (١١١ب) واستهوتْهُ المعاصي، واستفزَّه الحِرْصُ، وتَغوَّلَهُ الطَّمع، وما امرأةٌ دعاها

---

(١) وهب بن مسرة الحجاري التميمي أبو الحزم (ـ٣٤٦) حضر إلى قرطبة وأخرجت إليه أصول محمد بن وضاح التي سمع فيها (ابن الفرضي ٢:١٦١) (ع).

(٢) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم (ـ٣٧٢) قرطبي يكنى أبا عبد الله، وكان ضابطًا لكتبه ثقة مأمونًا مجتهدًا عابدًا عاش صرورة (ابن الفرضي ٢:٨٥ وترتيب المدارك ٤:٤٤١) ووهم الدكتور الطّاهر مكي فترجم لأخيه عبد الله بن محمد في موضعه (ع).

(٣) محمد بن وضاح (٢٠٠ ـ ٢٨٧) قرطبي، رحل إلى المشرق مرتين وسمع كثيرًا وكان عالمًا بالحديث بصيرًا بطرقه ورعًا متعفِّفًا (ابن الفرضي ٢:١٧ والجذوة: ٨٧) (ع).

(٤) «الموطّأ» (١٧٨٧)، وهو مرسل؛ لكن يشهد له حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن وقاه الله شرَّ ما بين لَحْيَيْه، وشرَّ ما بين رجليه؛ دخل الجنّة**». أخرجه الترمذي (٢٤٠٩)، وابن حبان (٥٧٠٣) بإسنادٍ حسنٍ، وأورده الألبانيُّ في: «الصحيحة» (٥١٠)؛ وذكر شواهده. وعند البخاريِّ (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعدٍ ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن يضمن لي ما بين لَحْيَيْهِ، وما بين رِجْلَيْهِ؛ أَضْمَنُ له الجنَّة**».

رجلٌ بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته؛ حَتْمًا مَقضيًّا، وحكمًا نافذًا لا محيدَ عنه البتَّةَ[1].

ولقد أخبرني ثِقَةٌ صَدوقٌ من إخواني، من أهلِ التَّمام في الفقه والكلام والمعرفة وذو صلابة في دينه؛ أنَّه أحبَّ جاريةً، نبيلةً، أديبةً، ذاتَ جمالٍ بارعٍ، قال: فعرَّضتُ لها فَنَفرَتْ، ثُمَّ عرَّضْتُ فأبَتْ، فلم يَزَل الأمرُ يطول، وحبُّها يَزِيدُ، وهي لا[2] تُطيع البَتةَ، إلىٰ أن حملني فَرْطُ حُبيٍّ لها مع عَمىٰ الصِّبا علىٰ أن نذرتُ أنِّي متىٰ نلتُ منها مرادي أنْ أَتُوبَ إلىٰ الله توبةً صادقةً. قال: فما مَرَّتِ الأيامُ واللَّيالي حتَّىٰ أذْعَنَتْ بعد شِماسٍ وَنِفار. فقلتُ له: أبا فلانٍ! وفيتَ بعهدك؟ فقال: إيْ والله! فضحكتُ.

وذكرتُ بهذه الفعلةِ ما لم يزلْ يَتَدَاوَلُ أسماعنا من أنَّ في بلاد البربر ـ التي تجاورُ أندلسنا ـ يتعَهَّدُ[3] الفاسِقُ علىٰ أنَّه إذا قضىٰ وطره مِمَّن أرادَ؛ أن يتوبَ إلىٰ الله. فلا يُمْنَعُ من ذلك، ويُنْكِرُونَ علىٰ من تعرَّضَ له بكلمةٍ، ويقولونَ له: أَتَحْرِمُ رجلًا مسلمًا التَّوبةَ!

قالَ: ولعهدي بها تَبْكي وتقولُ: والله لقد بلَّغْتني مَبْلغًا ما خَطَر قطُّ لي/ ببالٍ، ولا قَدَّرْتُ أنْ أُجِيبَ إليه أحدًا. (١١٢أ)

ولستُ أُبعدُ أنْ يكونَ الصَّلاحُ في الرِّجال والنِّساء موجودًا، وأعوذُ بالله أنْ أظنَّ غير هذا. وإنِّي رأيت النَّاسَ يَغلطون في معنىٰ هذه الكلمة ـ أعني: «الصَّلاح» ـ غلطًا بعيدًا، والصَّحيحُ في حقيقة تفسيرها أنَّ

---

(١) يتجاوز ابن حزم هنا موقف الجاحظ الذي جعل سهولة الانقياد من نصيب المرأة وحدها، وكأنه يردّ عليه (١: ١٦٩ ـ ١٧٠) (ع).
(٢) خ: مما لا.
(٣) خ: يتوب.

الصَّالحة من النِّساءِ هي التي إذا ضُبِطَتْ انضبطتْ، وإذا قُطِعَتْ عنها الذَّرائعُ امْتَسَكَتْ. والفاسدةُ هي التي إذا ضُبِطتْ لم تنضَبِطْ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهِّل الفواحشَ تَحيَّلتْ في أن تتوصَّلَ إليها بضروبٍ من الحِيَل. والصَّالح من الرِّجال من لا يُداخِلُ أهلَ الفسوق، ولا يتعرَّض إلىٰ المناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفعُ طَرْفَهُ إلىٰ الصُّورَ البديعة التَّركيب. والفاسقُ من يعاشِرُ أهلَ النَّقْصِ، وينشر بَصَرَه إلىٰ الوجوه البديعة الصَّنْعة، ويتصدَّىٰ للمشاهد المؤْذية، ويحبُّ الخلوات المُهْلِكاتِ. والصَّالحان من الرِّجال والنِّساء كالنَّارِ الكامنة في الرَّماد لا تَحْرِقُ[1] من جاورها إلا بأن تُحرَّك، والفاسقان كالنَّار المشتعلة تَحْرِقُ كلَّ شيءٍ.

وأمَّا امرأةٌ مُهْمَلةٌ، ورجلٌ متعرِّضٌ؛ فقد هَلَكَا وتَلِفَا. ولهذا حُرِّمَ علىٰ/ المسلم الالتذاذُ بسَماعِ نَغْمَةِ امرأةٍ أجنَبِيَّةٍ، وقد جُعِلَتِ النَّظْرةُ الأولىٰ (١١٢ب) لكَ، والأخرى عليكَ[2]، وقد قالَ رسول الله ﷺ: **«مَنْ تأمَّلَ امرأةً وَهُوَ صائمٌ حتَّىٰ يرىٰ حَجْمَ عِظَامِها فَقَدْ أَفْطَرَ»**[3].

---

(١) هكذا ضبطتُ هذه الكلمة في الطبعة السابقة، فقال العلامة أبو عبد الرحمٰن ابن عقيل الظاهري ـ أحسن الله إليه ـ في «حديث الشهر» ٦٩/٣: «الشيخ التركماني حفظه الله محقِّق مدقِّق، فتاء المضارعة تفتح؛ لأنَّ الفعل (حَرَقَ) بفتح الحرفين الأولين وفتح الثالث بناءٌ متعدٍّ بنفسه ومضارعه مفتوح التاء.. قال الفارابي رحمه الله تعالى في ديوان الأدب ١٢٣/٢: «حرق نابَه [بفتح الباء] يَحْرَق [بفتح الراء] ويَحْرُق [بضم الراء]». قال التركماني عفا الله عنه: كذا ضبطه شيخنا أبو عبد الرحمٰن ـ سدَّد الله قوله وعمله ـ بفتح الراء، والذي في «تاج العروس» (مادة: حرق): «حرق نابه يحرُقه ويحرِقه، من حدِّ نَصَر وضرب».

(٢) تضمين لحديث: **«يا عليُّ! لا تُتْبِعِ النَّظرة النَّظرة؛ فإن لك الأولىٰ، وليستْ لكَ الآخرةُ»**، رواه أحمد ٣٥١/٥، ٣٥٣، ٣٥٧، وأبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧) عن بريدة. وحسَّنه الألبانيُّ.

(٣) بعضُ حديثٍ طويلٍ يرويه: الحسن بن علي العدوي، عن خراش، عن أنس بن مالك. قال ابن عدي في: «الكامل» ٧٥٤/٢ و٩٤٦/٣: «العدوي كذَّاب، وخراش=

وإنَّ فيما ورد من النَّهْي عن الهوىٰ بنصِّ التَّنْزيل لشيئًا مُقْنِعًا[1]؛ وفي إيقاع هذه الكلمة ـ أعني: «الهوىٰ» ـ اسمًا علىٰ معانٍ، واشتقاقها عند العرب، وذلك[2] دليلٌ علىٰ مَيْلِ النُّفوس وهَوِيِّها إلىٰ هذه المقامات، وأنَّ المتمَسِّكَ عنها مُقارِعٌ لنفسه مُحاربٌ لها.

وشيءٌ أصفه لكَ تراه عيانًا: هو أنِّي ما رأيتُ ـ قطُّ ـ امرأةً في مكانٍ تحسُّ أنَّ رجلًا يراها، أو يسمعُ حِسَّها؛ إلا وأحْدَثَتْ حركةً

= مجهول، ولم أسمع أحدًا يذكر خراش غير العدوي هذا». وقال ابن حِبَّان في: «المجروحين» ٢٨٨/١ في ترجمة خراش: «شيخ يزعم أنَّه خدم أنس بن مالك. أتىٰ عن أنس عن النبيِّ ﷺ بنسخةٍ منها أشياء مستقيمة، وفيها أشياء موضوعة، لا يحلُّ الاحتجاج به، ولا كتابة حديثه؛ إلَّا على جهة الاعتبار» ثم ذكر الحديث، وقال: «مع أشياء تُشْبِهُ هذا، إذا تأمَّلها مَنْ هذا الشَّأْنُ صناعته؛ علم أنَّه كان يَضَعُ الحديثَ وَضْعًا».

وأورده ابن الجوزي في: «الموضوعات» **(٩٥٩)**. وقد رُوي هذا عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ موقوفًا، أخرجه عبد الرَّزَّاق في: «المصنَّف» **(٧٤٥٢)**، وقال الحافظ ابن حجر في: «الفتح» **(١٩٤/٤** ط: دار السلام/ الرياض): «إسناده ضعيف».

قال أبو عبد الرحمٰن: شرطُ أبي محمد رحمه الله أن لا يستدلَّ إلا بحديث صحيح؛ فكان من العجب أن يستدلَّ بحديث موضوع؛ فلعلَّ ذلك وقت جمعه كتابه (الخصال) قبل تبحُّره في كتاب (الإيصال). «حديث الشهر» **٧١/٣**.

(١) كقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: **٤٣**]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: **٥٠**]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: **٢٣**]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: **٤٠ ـ ٤١**].

(٢) هكذا في الأصل، والعبارة غير مستقيمة تمامًا، وقد أثبتها (ع) هكذا: «... وفي اشتقاقها عند العرب دليلٌ علىٰ...».

فاضلةً كانت عنها بمَعْزِلٍ، وأتتْ بكلامٍ زائدٍ كانت عنه في غُنْيَةٍ، مخالِفَيْن لكلامِها وحركتها قبل ذلك؛ ورأيتُ التَّهَمُّم لمخارج لفظها، وهيئة تقلُّبها لائحًا فيها ظاهرًا عليها لا خفاءَ به؛ والرِّجالُ كذلكَ إذا أَحَسُّوا بالنِّساء، وأمَّا إظهارُ الزِّينةِ، وترتيبُ المشي، وإيقاعُ المَزْحِ[1] عند خُطور المرأة بالرَّجل واجتيازِ الرَّجل بالمرأة فهذا أشهرُ من الشَّمس في كلِّ مكانٍ، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النُّور: ٣٠] وقال ـ تقدَّست أسماؤه ـ:/ (١١٣أ) ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] فلولا علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ برقَّةِ[2] إغماضِهِنَّ في السَّعي لإيصالِ حُبِّهنَّ إلىٰ القلوب، ولُطْفِ كيدهِنَّ في التحيُّل لاستجلاب الهوىٰ؛ لما كشف الله عن هذا المعنىٰ البعيدِ الغامضِ الذي ليس وراءَه مرمىً، وهذا حدُّ التَّعَرُّضِ فكيفَ بما دونه؟!

ولقد اطَّلعتُ من سرِّ مُعْتَقَدِ الرِّجالِ والنِّساء في هذا علىٰ أمرٍ عظيمٍ، وأَصْلُ ذلك أنِّي لم أُحْسِنْ ـ قطُّ ـ بأحدٍ ظنًّا في هذا الشَّأْن، مع غَيرةٍ شديدةٍ رُكِّبَتْ فيَّ.

وحدَّثنا أبو عمر أحمد بن محمَّد بن أحمد، قال: حدَّثنا محمَّد بن

---

(١) قال العلامة شاكر: «وإيقاع المزح» غير مفهوم، والصَّواب ـ فيما أظنُّ ـ: «وإيقاع المرح»، وإن كنتُ في شكٍّ من «إيقاع».
قال أبو عبد الرحمٰن: الإيقاع بمعنىٰ الإظهار للعيان، والمرح بإهمال الراء وإعجامها سيَّان في قبول السياق لهما لبعض الكلام، ولكن السياق هنا لا يقبله؛ فالإهمال أرجح، لأن المرح بالإهمال يغلبها وهي تريد الستر، وبالإعجام تكشف جلباب الحياء. «حديث الشهر» ٣/٧٢.

(٢) جعلها (ع): بدقَّةٍ.

عيسى[1] بن رفاعة، قال: حدّثنا علي بن عبد العزيز، قال: حدّثنا أبو عُبيد القاسم بن سلّام عن شيوخه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الغَيْرَةُ من الإيمان**»[2].

فلم أزَلْ باحثًا عن أخبارِهِنَّ، كاشفًا عن أسرارهنَّ، وكُنَّ قد أَنِسْنَ مِنِّي بكتمانٍ، فكنَّ يُطْلِعْنَني علىٰ غوامضِ أمورهِنَّ، ولولا أن أكونَ منبِّهًا علىٰ عوراتٍ يُستعاذُ بالله منها لأوردتُ من تَنَبُّهِهِنَّ في الشَّرِّ، ومكرِهِنَّ فيه؛ عجائبَ تُذْهِلُ الألبابَ.

وإنِّي لأعرفُ هذا وأُتْقِنُهُ[3]، ومع هذا يعلمُ الله ـ وكفىٰ به عليمًا ـ أنِّي/ بريءُ السَّاحة، سليم الأديم، صَحِيحُ البَشَرة، نِقيُّ الحُجْزَة، وإنِّي أقسمُ بالله أجلَّ الأقسامِ أنِّي ما حللتُ مئزري علىٰ فرجٍ حرامٍ ـ قَطُّ ـ ولا يحاسِبُني ربِّي بكبيرةِ الزِّنا مذ عقلتُ إلىٰ يومي هذا، والله المحمود على ذلك، والمشكورُ فيما مضىٰ، والمستعصَمُ فيما بقِي. (١١٣ب)

حدَّثنا القاضي أبو عبدِالرحمٰن عبدُ الله[4] بن عبد الرحمٰن بن جحّاف

---

(١) في الأصل: علي. وهو تحريف، وقد تقدّم التعريف به وببقيّة رجال السند في: (١٩ ـ باب الواشي).

(٢) ضعيف: رواه محمد بن نصر المروزي في: «تعظيم قدر الصّلاة» (٤٩٠ ـ ٤٩٢، ووقع في المطبوع تحريف)، والبزار (كشف الأستار: ١٤٩٠)، والقضاعي في: «مسند الشِّهاب» (١٥٤) من طرقٍ عن أبي مرحوم الأرطباني، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بلفظ: «**الغَيْرة من الإيمان، والمِذَاءُ من النِّفاق**» وقال زيد: المذاء: الذي لا يغار. وإسناده ضعيف، تفرَّد به أبو مرحوم؛ وهو مجهول الحال. ويُغْني عنه أحاديث صحيحة في الغَيْرة، منها: حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبيّ ﷺ: «**إنَّ اللّهَ يَغَارُ، [وإنَّ المُؤْمِنَ يَغَارُ]، وغَيْرَةُ اللّهِ أَنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ ما حَرَّمَ عَلَيْهِ**». أخرجه البخاريُّ (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١)؛ وما بين المعقوفتين زيادة له.

(٣) واضحة في الأصل، وأثبتها (ع): وأتيقَّنُه.

(٤) خ: بن عبد الله. وهو خطأ.

المعافريُّ[(١)] - وإنَّه لأفضلُ قاضٍ رأيته - عن محمَّدِ بن إبراهيم الطُّلَيْطِلِيِّ[(٢)]، عن القاضي بمصر بكر بن العلاء[(٣)]، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١] أنَّ لبعض المتقدِّمينَ فيه قولًا؛ وهو: أنَّ المسلمَ يكونُ مُخْبِرًا عن نفسه بما أنعم الله - تعالىٰ - به عليه من طاعة ربِّه التي هي من أعظم النِّعَمِ، ولا سِيَّما في المُفْتَرَضِ على المسلمين اجتنابه واتِّباعه[(٤)].

وكانَ السَّبب فيما ذكرته أنِّي كنتُ وقتَ تأجُّج نارِ الصِّبا، وشرَّةِ الحداثة، وتمكُّن غَرارةِ الفُتُوَّة؛ مقصورًا، محظرًا عليَّ بين رقباء ورقائب؛ فلمَّا ملكتُ نفسي، وعقلتُ صحبتُ أبا عليِّ الحسينَ بن علي الفاسيَّ في مجلس أبي القاسم عبدِ الرحمٰن بن أبي يزيدٍ الأزديِّ[(٥)] - شيخنا وأستاذي؛ رضي الله عنه -، وكانَ أبو عليٍّ - المذكورُ - عاقلًا، عاملًا، عالمًا، مِمَّن/ (١١٤أ)

(١) أبو عبد الرحمٰن عبد الله المعافريُّ، قاضي بلنسية، ويُلقَّب بحيدرة، كان إمامًا ثقةً فاضلًا، حدَّث عنه ابن حزم؛ وقال: هو أفضلُ قاضٍ رأيته؛ دينًا، وعقلًا، وتصاونًا، مع حظِّه الوافر من العلم. توفي سنة (٤١٧ أو ٤١٨هـ). «جذوة المقتبس»: **٢٢٥**، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: **٤١** /الترجمة: **٣٢٨**).

(٢) هو: محمد بن إبراهيم بن إسماعيل الطُّليطلي، أبو عبد الله الخشني، ويُعرف بابن المُشْكِيالي. وكان من كبار المالكيَّة، مع زهدٍ وتواضعٍ وورعٍ، وعمل بعلمه لا يأخذه في الله لومة لائم، ثقة. حجَّ فسمع بمصر من جماعة، منهم: بكر بن العلاء القشيري، سمع منه كتابه في: «أحكام القرآن»، توفي سنة (**٤٠٠هـ**). «الصِّلة» (**٤٦١**)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: **٤٠** /ص: **٣٨٧**).

(٣) هو: بكر بن محمد بن العلاء، العلَّامة أبو الفضل القُشيريُّ البصريُّ المالكيُّ. قال الذَّهبيُّ: «ومؤلَّفه في الأحكام - يعني: أحكام القرآن - نفيس». سكن مصر، ومات بها سنة (**٣٤٤هـ**) رحمه الله. «سير أعلام النُّبلاء» **١٥/(٣١٦)**.

(٤) وروىٰ الطَّبري في: «تفسيره» (**٣٧٥٢٣**) عن التَّابعي الثِّقة أبي نَضرة المنذر بن مالك العبدي - رحمه الله - قال: كان المسلمونَ يرون أن من شُكْر النِّعَم أنْ يُحدِّث بها. وإسناده صحيح.

(٥) قد مرَّ التعريف بهما (**٢١** - باب الهجر).

تقدَّم في الصَّلاح والنُّسك الصَّحيح؛ في الزُّهد في الدُّنيا، والاجتهاد للآخرة، وأحسبه كانَ حَصُورًا لأنَّه لم تكنْ له امرأةٌ ـ قطُّ ـ، وما رأيتُ مثله جملةً عِلمًا وعملًا ودينًا وورعًا؛ فنفعني الله به كثيرًا، وعَلِمْتُ موقعَ الإِساءةِ، وقُبْحَ المعاصي.

وماتَ أبو عليٍّ ـ رحمه الله ـ في طريق الحَجِّ.

ولقد ضَمَّني المبيتُ ليلةً في بعض الأزمان عندَ امرأةٍ من بعض معارفي مشهورةٍ بالصَّلاح والخير والحَزْمِ، ومعها جاريةٌ من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمَّتْها معي النَّشْأةُ في الصِّبا، ثم غِبْتُ عنها أعوامًا كثيرة، وكنتُ تَرَكْتُها حينَ أَعْصَرَتْ[1]، ووجَدْتُها قد جرىٰ على وجهها ماءُ الشَّباب ففاضَ وانسابَ، وتفجَّرت عليها ينابيعُ الملاحة فتردَّدَتْ وتحيَّرَتْ، وطلَعَتْ في سماءِ وجهها نجومُ الحُسْنِ فأشرقتْ وتوقَّدتْ، وانبعثتْ في خَدَّيْها أزاهيرُ الجمال فتمَّتْ واعتمَّتْ؛ فأتتْ كما أقول: [من البسيط]

خريدةٌ[2] صَاغَها الرَّحْمنُ من نُورٍ … جلَّتْ ملاحتُها عَنْ كُلِّ تَقْدِير
لو جَاءَني عَمَلي في حُسْنِ صُورَتها … يومَ الحِسَابِ ويومَ النَّفْخِ في الصُّور
لكنتُ أحظىٰ عبادِ الله كلِّهم … بالجنَّتَيْنِ وقُرْبِ الخُرَّدِ الحُور

وكانتْ من أهل بَيْتٍ صَبَاحةٍ، وقد ظهرتْ منها صورةٌ تُعْجزُ الوُصَّافَ، وقد طَبَّقَ وصفُ شبابها قرطبةَ، فبتُّ عندها ثلاثَ ليالٍ/ (١١٤ب)

(١) أعصرت الجارية: بلغت شبابها، وأدركت، أو دخلت في الحيض. وفي الأصل: أعمرت. وهو تحريف.

(٢) الخريدة: العذراء، والجمع: الخرَّد، كما سيأتي في البيت الثالث. (الحربي)

متواليةً، ولم تُحْجَبْ عنِّي علىٰ جاري العادة في التَّربية؛ فلعمري! لقد كادَ قلبي أن يَصْبُو ويثوبَ إليه مَرفوضُ الهوىٰ، ويعاوده منسيُّ الغَزَل. ولقد امتنعتُ بعد ذلك من دخول تلك الدَّار خوفًا علىٰ لُبيٍّ أن يزدهِيهُ الاستحسانُ. ولقد كانتْ ـ هي وجميعُ أهلها ـ مِمَّن لا تتعدَّى الأطماعُ إليهِنَّ، ولكنَّ الشيطانَ غير مأمونِ الغوائل، وفي ذلك أقول: [من الكامل المجزوء]

لا تُتْبِعِ النَّفْسَ الهَوىٰ ... وَدَعِ التَّعَرُّضَ لِلْمِحَنْ
إبليسُ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ ... والعَيْنُ بابٌ للفِتَنْ

وأقول: [من المجتثّ]

وقائلٍ لِيَ: هذا ... ظَنٌّ يَزِيدُكَ غَيَّا
فقلتُ: دَع عَنْكَ لَوْمي ... أَلَيْسَ إبْلِيسُ حَيَّا

وما أورد الله ـ تعالىٰ ـ علينا من قِصَّةِ يوسفَ بن يعقوب، وداود بن إيْشىٰ[1] ـ رُسل الله؛ عليهم السلام ـ إلا ليعلِّمنا نُقصاننا، وفاقتنا إلىٰ عِصْمَتِهِ، وأنَّ بِنْيَتَنا مدخولةٌ ضَعيفةٌ، فإذا كانا ـ صلَّى الله عليهما ـ وهما نبيَّان رسولان ابنا أنبياءَ رُسلٍ، ومن أهلِ بيتِ نبوَّةٍ ورسالةٍ، مكرَّمَيْنِ[2] في/ (١١٥أ)

(١) في الأصل: انيشا. وهو خطأ، والصَّواب ما أثبته، وهكذا ضبطه السُّيوطي في: «الإتقان في علوم القرآن» ٢/٣٦٧؛ فقال: داود هو ابن إيشىٰ، بكسر الهمزة، وسكون التَّحتيَّة، وبالشِّين المعجمة. وهكذا يرد في كتب التفسير القديمة، مثل: «الطبري»، و«القرطبي»، و«الدر المنثور».
وأثبتها (ع): (يَشّي)، وقال: أثبتُّ هذه الصُّورة من الاسم لأنها تطابق (Jesse) مع إبدال السين شينًا في التعريب. انظر: (The Legends of the Jews, Vol. 4, p.81) وهو «يسي» ـ بالسين المهملة ـ في العهد القديم.

(٢) خ: متكررين. والتَّصحيح عن (ع).

الحفظ، مغموسَيْنِ في الوَلاية، محفوفَيْنِ بالكَلاَءَةِ، مؤيَّدينَ بالعِصْمةِ، لا يُجعلُ للشَّيطان عليهما سَبيلٌ، ولا فتح لوسواسه نحوهما طريقٌ، وبلغا حيثُ نصَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ علينا في قرآنه المنزَّل[1]؛

---

(١) أما قصة يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ ففي قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٤]. قال الطبريُّ في «تفسيره»: ومعنىٰ «الهمّ بالشَّيء» ـ في كلام العرب ـ: حديثُ المرء نفسه بمواقعته ما لم يُواقِع. فأما ما كان مِنْ همِّ يوسفَ بالمرأة، وهمِّها به؛ فإن أهل العلم قالوا في ذلك ما أنا ذاكره. ثم أورد الآثار عن السلف ـ ابن عباس وغيره ـ في صفة همِّ يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وخلاصتها: أنها استَلْقَتْ له، وحلَّ سرواله، وقعد بين رِجْليها؛ لينزع ثيابه. ثم قال الطبريُّ: فإنْ قال قائل: وكيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا، وهو لله نبيٌّ؟ قيل: إن أهل العلم اختلفوا في ذلك، فقال بعضهم: كان مَن ابتلي من الأنبياء بخطيئة؛ فإنما ابتلاه الله بها ليكون من الله ـ عزَّ وجل ـ على وجل إذا ذكرها، فيجد في طاعته إشفاقًا منها، ولا يَتَّكِلُ على سعة عفو الله ورحمته. وقال آخرون: بل ابتلاهم الله بذلك؛ ليُعرِّفهم موضع نِعمته عليهم بصَفْحه عنه، وتركه عقوبته عليه في الآخرة. وقال آخرون: بل ابتلاهم بذلك ليجعلهم أئمةً لأهل الذنوب في رجاء رحمة الله، وترك الإياس من عفوه عنه إذا تابوا. وأما آخرون مِمَّن خالف أقوال السلف وتأوَّلوا القرآن بآرائهم فإنهم قالوا في ذلك أقوالًا مختلفة. ثم ذكر ثلاثة آراءٍ، نص على فساد اثنين منها، وذكر الثالث؛ ولم يعقِّب عليه، وهو: «أنَّ همَّهما كان تميُّلًا منهما بين الفعل والترك، لا عزمًا ولا إرادة. قالوا: ولا حرج في حديث النفس، ولا في ذِكْر القلب؛ إذا لم يكن معهما عزم ولا فعل». وقال الإمام البغوي في «تفسيره»: «والهمُّ هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، فَهَمُّها عزمها على المعصية والزنا»؛ ثم ذكر الآثار عن السلف في همِّهِ، ثم قال: «قال أبو عُبَيْدٍ القاسم بن سلَّام: قد أنكر قوم هذا القول، وقالوا: هذا لا يليق بحال الأنبياء. والقول ما قال متقدِّمو هذه الأمة، وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء من غير علم». ثم ذكر البغوي عن بعض أهل الحقائق ـ قلتُ: لعله يعني الصوفية ـ أن: «الهمَّ همَّان: هَمٌّ ثابت؛ إذا كان معه عَزْمٌ وعَقْدٌ ورِضىً، مثل همِّ امرأة العزيز، والعبدُ مأخوذ به. وهمٌّ عارض؛ وهو الخَطْرةُ وحديث النَّفْس، من غير اختيار ولا عزم، مثل همِّ يوسف ـ عليه السلام ـ، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل». وقد رجَّح شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذا الرأي، =

. . . .

= وأنكر ما خالفه؛ فقال: «الهمُّ اسم جنس، تحته نوعان، كما قال الإمام أحمد: الهمُّ همَّانِ: هَمُّ خطراتٍ، وهَمُّ إصرارٍ. وقد ثبت في: «الصَّحيح» عن النبي ﷺ: «**إن العبد إذا هَمَّ بسيئة لم تُكتب عليه، وإذا تركها لله كُتِبَتْ له حسنة، وإنْ عملها كُتِبَتْ له سيئة واحدة، وإنْ تركها ـ من غير أن يتركها لله ـ لم تُكْتَبْ له حسنة، ولا تُكْتَبْ عليه سَيِّئةٌ**»، ويوسف ﷺ همَّ همًّا تَرَكَهُ لله، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء؛ لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذَّنب، وهو: الهمُّ، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذَّنب لله، فيوسف ـ عليه السلام ـ لم يصدر منه إلا حسنةٌ يُثاب عليها. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: **٢٠١**]، وأما ما يُنقل من أنه حلَّ سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأىٰ صورة على يده، وأمثال ذلك؛ فكله مما لم يُخْبِرِ الله به، ولا رسوله، وما لم يكن كذلك؛ فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على الأنبياء، وقَدْحًا فيهم، وكلُّ من نقله من المسلمين؛ فعنهم نقله، لم يَنْقُلْ من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفًا واحدًا. وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: **٥٣**]؛ فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآنُ على ذلك دلالةً بيِّنةً، لا يرتاب فيها مَنْ تدبَّر القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: **٥٠ ـ ٥٣**]؛ فهذا كله كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن؛ لم يحضر بعد إلى المَلِك، ولا سمع كلامه، ولا رآه، ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: لم أخنه في حال مغيبه عني، وإن كنت في حال شهودته راودته، فحينئذ قال الملك: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: **٥٤**]. وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا من كلام يوسف. ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل على نقيضه» (دقائق التفسير: **٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣**).

وقال الإمام القرطبي (**٦٧١هـ**) في: «الجامع لأحكام القرآن»: واختلف العلماء في همِّه، ولا خلاف أن همَّها كان المعصية، وأما يوسف فهَمَّ بها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ ولكن لما رأىٰ البرهان ما هَمَّ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء؛ قال الله =

= تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإذًا في الكلام تقديم وتأخير؛ أي لولا أن رأىٰ برهان ربه همّ بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن علىٰ أبي عبيدة فلمّا أتيت علىٰ قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنَّه أراد ولقد همت به؛ ولولا أن رأى برهان ربِّه لهمَّ بها. وقال أحمد بن يحيى: أي همَّت زليخاء بالمعصية وكانت مصرَّة، وهمَّ يوسف ولم يواقع ما هَمَّ به؛ فَبَيْنَ الهمتين فرق. ذكر هذين القولين الهروي في «كتابه». قال جميل:

هَمَمْتُ بهم من بُثَيْنة لو بدا ... شفيت غليلات الهوىٰ من فؤاديا

آخر:

هَمَمْتُ ولم أفعل وكِدْتُ وليتني ... تركتُ علىٰ عثمان تبكي حلائله

فهذا كلُّه حديث نفس من غير عزم. وقيل: همَّ بها تمنى زوجِيَّتَها. وقيل: هَمَّ بها؛ أي: بضربها، ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه عن الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها. وقيل: إنَّ هَمَّ يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامَّتهم، فيما ذكر القشيري أبو نصر، وابن الأنباري، والنَّحاس، والماوردي، وغيرهم. قال ابن عباس: حل الهميان، وجلس منها مجلس الخاتن. وعنه: استلقت على قفاها، وقعد بين رجليها؛ ينزع ثيابه. وقال سعيد بن جبير: أطلق تِكَّة سراويله. وقال مجاهد: حلَّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرَّجل من امرأته. قال ابن عباس: ولما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: **٥٢**] قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ [يوسف: **٥٣**]. قالوا: والانكفاف في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص، وأعظم للثَّواب.

قلت: وهذا كان سبب ثناء الله ـ تعالى ـ على ذي الكفل؛ حسب ما يأتي بيانه في (صٓ)، إن شاء الله تعالى. وجواب: «لولا» على هذا محذوف؛ أي لولا أن رأىٰ برهان ربِّه لأمضىٰ ما همَّ به؛ ومثله ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: **٥**] وجوابه: لم تتنافسوا. قال ابن عطية: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف، وقالوا: الحكمة في ذلك أن يكون مثلًا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى، كما رجعت مِمَّن هو خير منهم، ولم يوبقه القرب من الذَّنب، وهذا كلُّه علىٰ أن همَّ يوسف بلغ ـ فيما رَوَتْ هذه الفرقة ـ إلى أن جلس بين رجلي زليخاء، وأخذ في حلِّ ثيابه وتكَّته، ونحو ذلك، وهي قد استلقت له؛ حكاه الطَّبري. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنَّه هَمَّ بها، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشدُّ تعظيمًا للأنبياء من أن يتكلموا فيهم =

....

= بغير علم. وقال الحسن: إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيِّرهم بها؛ ولكنه ذكَّرها لكيلا تيسوا من التوبة. قال الغزنوي: مع أن لزلَّة الأنبياء حِكَمًا: زيادة الوجل، وشدَّة الحياء بالخجل، والتخلي عن عجب العمل، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونهم أئمَّة رجاء أهل الزلل. قال القشيري أبو نصر: وقال قوم جرى من يوسف همٌّ، وكان ذلك الهمُّ حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ؛ فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس في النفس؛ والبرهان صرفه عن هذا الهمِّ حتى لم يصر عزمًا مصممًا.

قلت: هذا قول حسن؛ ومِمَّن قال به الحسن. قال ابن عطية: الذي أقول به في هذه الآية إن كون يوسف نبيًا في وقت هذه النازلة لم يصحَّ، ولا تظاهرت به رواية؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حكمًا وعلمًا، ويجوز عليه الهمُّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة؛ وإن فرضناه نبيًا في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهمُّ الذي هو خاطر، ولا يصحُّ عليه شيء ممَّا ذكر من حل تكته، ونحوه؛ لأن العصمة مع النُّبوة. وما روي من أنه قيل له: تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء. فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد.

قلت: ما ذكره من هذا التفصيل صحيح؛ لكن قول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ١٥] يدل على أنه كان نبيًا على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ وإذا كان نبيًا فلم يبق إلا أن يكون الهمُّ الذي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلَّف على دفعه؛ ويكون قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ [يوسف: ٥٣] ـ إن كان من قول يوسف ـ أي من هذا الهم، أو يكون ذلك منه على طريق التَّواضع والاعتراف، لمخالفة النفس لما زكي به قبل وبرئ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] على ما تقدم بيانه؛ وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته؛ وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله؛ فما تعرض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفرص منها؛ حكمة خُصَّ بها، وعملًا بمقتضى ما علَّمه الله. وفي: «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قالت الملائكة: ربِّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئةً وهو أبصر به. فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها** =

. . . .

= **فاكتبوها له حسنةً؛ إنما تركها من جراي»**. وقال ـ عليه السلام ـ مخبرًا عن ربه: «**إذا هَمَّ عبدي بسيئةٍ فلم يعملها كتبتْ حسنة**». فإنْ كان ما يهم به العبدُ من السيئة يكتب له بتركها حسنةً فلا ذنب؛ وفي «الصَّحيح»: «**إنَّ الله تجاوز لأمَّتي عَمَّا حَدَّثتْ به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به**».... انتهى.

قلتُ: قد أطلْتُ في النَّقل عن أئمة التفسير في معرفة همِّ يوسف ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ؛ ليدرك القارىء وَجْهَ ما أشار إليه المصنِّف، ويتَّضح له عذره في ذلك، علىٰ أنَّه ـ رحمه الله ـ قد ذهب في كتابه: «الفصل في الملل والنِّحل» ٤/١٠ ـ ١١ ـ وهو مما ألفه بعد طوق الحمامة ـ؛ إلىٰ نحو ما ذهب إليه المتأخرون، فقال: «وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فليس كما ظنَّ مَن لم يُمْعن النَّظر حتىٰ قال مِن المتأخرين [قال عبد الحق التركماني: هكذا زعم ابن حزم ـ رحمه الله ـ، وما سيذكره إنَّما هو قولُ عامَّة السَّلف من المتقدِّمين] مَن قال: إنَّه قعد منها مقعد الرجل من المرأة. ومعاذ الله من هذا أن يُظَنَّ برجلٍ من صالحي المسلمين أو مستوريهم؛ فكيف برسول الله ﷺ؟! فإن قيل: إنَّ هذا قد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ من طريق جيدة الإسناد. قلنا: نعم؛ ولا حُجَّة في قول أحد إلا فيما صَحَّ عن رسول الله ﷺ، والوهم في تلك الرواية إنَّما هي بلا شك عمَّن دون ابن عباس، أو لعل ابن عباس لم يقطع بذلك؛ إذ إنَّما أخذه عمَّن لا يدري من هو، ولا شك في أنَّه شيء سمعه فذكره لأنه ـ رضي الله عنه ـ لم يحضر ذلك، ولا ذكره عن رسول الله ﷺ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به.

لكن معنى الآية لا يعدو أحد وجهين:

[الوجه الأول]: إمَّا أنَّه هَمَّ بالإيقاع بها وضربها؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥]، وكما يقول القائل: لقد هَمَمْتُ بك! لكنه ـ عليه السلام ـ امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه؛ استغنى به عن ضربها، وعلم أن الفرار أجدىٰ عليه، وأظهر لبراءته، علىٰ ما ظهر بعد ذلك من حكم الشَّاهد بأمر القدِّ من القميص.

والوجه الثاني: أنَّ الكلام تمَّ عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ثم ابتدأ تعالى خبرًا آخر؛ فقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ وهذا ظاهر الآية بلا تكلُّفِ تأويلٍ، وبهذا نقول.

حَدَّثنا أحمد بن محمد بن عبد الله الطَّلْمنكيُّ، قال: حدثنا ابن عون الله، قال: أنبأنا إبراهيم بن أحمد بن فراس، قال: حدَّثنا أحمد بن محمد بن سالم النيسابوريُّ، قال: أخبرنا إسحاق بن راهويه، قال: أخبرنا المؤمَّل بن إسماعيل الحميريُّ، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البنانيُّ، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ =

....

= رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: **٥٢**]؛ قال رسول الله ﷺ: «**لمَّا قالها يوسف ـ عليه السلام ـ قال له جبريل: يا يوسف اذكر همَّك! فقال يوسف:** ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: **٥٣**]». فليس في هذا الحديث [قال عبد الحق التركماني: وإسناده ضعيف؛ المؤمل بن إسماعيل: سيِّىء الحفظ، كثير الغلط] ـ على معنىً من المعاني ـ تحقيق الهَمِّ بالفاحشة، ولكنَّه فيه أنه هَمَّ بأمرٍ ما. وهذا حقٌّ ـ كما قلنا ـ، فسقط هذا الاعتراض، وصَحَّ الوجه الأول والثاني معًا، إلا أنَّ الهمَّ بالفاحشة باطل مقطوع على كلِّ حالٍ، وصَحَّ أن ذلك الهَمَّ ضرب سيدته، وهي خيانة لسيده؛ إذ هَمَّ بضرب امرأته، وبرهانُ ربِّه هاهنا هو النبوة، وعصمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إياه، ولولا البرهان لكان يهم بالفاحشة، وهذا لا شك فيه. ولعلَّ من ينسب هذا إلىٰ النبيِّ المقدَّسِ يوسفَ يُنَزِّهُ نفسه الرَّذِلَةَ عن مثل هذا المقام؛ فيهلك، وقد خشي النبيُّ ﷺ الهلاكَ علىٰ من ظَنَّ به ذلكَ الظَّنَّ، إذ قال للأنصاريَّيْنِ ـ حين لقيهما ـ: «**هذه صَفِيَّةُ**». [قال عبد الحق: أصل هذا الحديث في البخاريِّ (**٢٠٣٥**) وغيره؛ لكن ليس في شيءٍ من طرقه ـ فيما علمتُ ـ أنَّ النبيَّ ﷺ خشي عليهما الهلاكَ؛ وإنَّما فهم بعض العلماء ذلك من قوله ﷺ لهما: «**وإنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ في قُلُوبِكُما شَيْئًا**»؛ كما قال الإمام الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ: إنَّما قال لهما ذلكَ لأنه خافَ عليهما الكفرَ إنْ ظنَّا به التُّهمةَ، فبادر إلى إعلامهما نصيحةً لهما؛ قبل أن يقذف الشيطانُ في نفوسهما شيئًا يَهْلكان به. نقله ابن حجر في: «الفتح»]. ومن الباطل الممتنع أن يظنَّ ظانٌّ أن يوسف ـ عليه السلام ـ هَمَّ بالزنا؛ وهو يسمع قول الله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: **٢٤**]؛ فنسأل من خالفنا عن الهمِّ بالزنا: بسوءٍ هو أم غير سوءٍ؟ فلا بد أنه سوء، ولو قال: إنه ليس بسوء. لعاند الإجماع، فإذا هو سوء؛ وقد صرف عنه السوء، فقد صرف عنه الهم بيقين. وأيضًا: فإنها قالتْ: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: **٢٥**]، وأنكر هو ذلك، فشهد الصادق المصدَّق: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: **٢٧**]؛ فصح أنها كذبت بنص القرآن، وإذ كذبت بنص القرآن؛ فما أراد بها قطُّ سوءًا، فما هَمَّ بالزنا قط، ولو أراد بها الزنا؛ لكانت من الصادقين، وهذا بَيِّنٌ جدًا، وكذلك قوله ـ تعالى ـ عنه أنه قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: **٣٣، ٣٤**]؛ فصَحَّ عنه أنه قَطُّ لم يَصْبُ إليها، وبالله ـ تعالى ـ التوفيق».

وأما قصة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهي أنه رأى امرأةً تغتسل، فأعجبه خَلْقها وحُسْنها، وأنه أرسل زوجها مع الجيش، حتى قُتِلَ، فخطبها داودُ وتزوجها. في قصةٍ طويلةٍ ذكرها أهل التفسير عند قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا =

= ﴿ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥﴾ [صٓ: ٢١ ـ ٢٥]، وصَحَّ عن ابن عباس وعن ابن مسعود؛ أن داود ما زاد على أن قال للرجل: انزل عن امرأتك واكفلنيها. فعاتبه الله على ذلك ونبّهه إليه (رواه عبد الرزَّاق الصنعاني، والطبريُّ). وقال ابن القيم في: «الجواب الكافي»: ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذي جعله الله دواءه شرعًا وقدرًا. وبه تداوىٰ نبيُّ الله داود ﷺ؛ ولم يرتكب محرَّمًا، وإنما تزوج المرأة، وضمَّها إلى نسائه؛ لمحبته لها. وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو رتبته؛ ولا يليق بنا المزيد على هذا. وعلَّق على هذا القاسمي في «محاسن التأويل» ٨/٢٥١ فقال: «وهذا منه تسليم ببعض القصة؛ لا بتمامها، وهو من الأقوال فيها». وقد ردَّ ابن كثير القصة كلها، وبيَّن أنها مأخوذة من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، وقال: «فالأولى أن يُقْتَصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرَدَّ عِلْمُها إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن القرآن حقٌّ، وما تضمَّنَ فهو حقٌّ ـ أيضًا ـ».

وذهب البقاعي إلى أن ذنب داود ـ عليه السلام ـ كان في إسناده الظُّلْمَ إلى أحد المتخاصمَيْن بدون سماع كلامه. وقال السَّعدي: وهذا الذنب الذي صدر من داود ـ عليه السلام ـ، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذِكْرِهِ، فالتَّعَرُّض له من باب التكلُّف.

قلت: فالقصة ـ بسياقها الأول ـ لا أصل لها؛ إنما هي من الإسرائيليات، وكأنِّي بأبي محمَّدٍ بن حزم ـ رحمه الله ـ قد أشار إلىٰ ما صَحَّ فيها عن ابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ، ومهما يكن فقد نقضها، وبيَّن فسادها وبُطلانها في كتابه: «الفصل في الملل والنِّحل» ٤/١٤ فقالَ ـ بعد أن ذكر الآيات المتقدمة ـ: «وهذا قولٌ صادقٌ صحيحٌ، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلِّقون بخرافاتٍ ولَّدها اليهودُ، وإنما كان ذلك الخصم قومًا من بني آدم ـ بلا شكٍّ ـ مختصمين في نعاج من الغنم ـ على الحقيقَة ـ بينهم، بغىٰ أحدهما على الآخر؛ على نصِّ الآية. ومَن قال: إنهم كانوا ملائكةً مُعَرِّضِينَ بأمر النساء، فقد كذب على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وقَوَّله ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذَّبَ الله ـ عزَّ وجل ـ، وأقرَّ على نفسه الخبيثة أنه كذَّب الملائكة، لأنَّ الله ـ تعالىٰ ـ يقول: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بغىٰ =

بالجِبِلَّة المُوَكَّلَة[1]، والطَّبْع البشريِّ، والخِلْقَةِ الأَصْليَّة، لا بتعمُّدِ الخَطيئة، ولا القصد إليها ـ إذ النبيُّون مبَرؤُونَ من كلِّ ما خالفَ طاعةَ الله؛ عزَّ وجلَّ ـ، لكنَّه استحسانٌ طبيعيٌّ في النَّفْسِ للصُّوَرِ؛ فمَنْ ذا الذي يَصِفُ نفسه بمَلْكِها، ويتعاطىٰ ضَبطها إلَّا بحول الله وقوته؟! وأَوَّلُ دمٍ سُفك في الأرض فدمُ أحدِ ابنَيْ آدم علىٰ سببِ المنافسة في النِّساء[2]؛

= بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسْعٌ وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجةٌ واحدةٌ، ولا قال له: أكلفنيها. فاعجبوا لم يقحمون فيه أهل الباطل أنفسهم! ونعوذ بالله من الخذلان. ثم كلُّ ذلك بلا دليل بل الدعوى المجرَّدة، وتالله! إن كل امرىءٍ مِنَّا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشَّق امرأةَ جاره، ثم يعرِّضَ زوجها للقتل عَمْدًا ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائرٍ يراه، هذه أفعالُ السفهاء المتهوِّكين الفُسَّاق المتمرِّدين، لا أفعال أهل البِرِّ والتقوىٰ، فكيف برسول الله داودَ ﷺ الذي أوحىٰ إليه كتابه، وأجرىٰ على لسانه كلامه؟! لقد نزَّهَهُ الله ـ عزَّ وجل ـ عن أن يَمُرَّ مثل هذا الفُحْش بباله، فكيف أن يستضيف إلى أفعاله، وأما استغفاره وخروره ساجدًا ومغفرة الله ـ تعالى ـ له فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة، والاستغفار فعل خير؛ لا يُنْكَرُ من ملكٍ، ولا من نبيٍّ ولا من مذنب، ولا من غير مذنب، فالنبيُّ يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض والملائكة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، وأمَّا قوله تعالى ـ عن داود؛ عليه السلام ـ: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾؛ فقد ظنَّ داود ـ عليه السلام ـ أن يكون ما آتاه الله ـ عزَّ وجل ـ من سعة الملك العظيم؛ فتنةً، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو في أن يثبِّتَ الله قلبه على دينه، فاستغفر الله ـ تعالىٰ ـ من هذا الظَّنِّ فغفر الله ـ تعالى ـ له هذا الظَّنَّ؛ إذ لم يكن ما أتاه الله ـ تعالى ـ من ذلك فتنةً».

(١) أثبتها (ع): المؤصَّلة.

(٢) يشير إلى قصة هابيل وقابيل، قال ابن كثير في «تفسيره»: وكان من خبرهما ـ فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ـ أن الله ـ تعالىٰ ـ شرع لآدم ـ عليه السلام ـ؛ أن يزوِّج بناته من بنيه؛ لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يولد له في كل بطنٍ ذكر وأنثىٰ، فكان يزوِّج أنثىٰ هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة، وأخت قابيل وضيئة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدمُ ذلك، إلا أن يقرِّبا قربانًا، فمَنْ تُقُبِّلَ منه فهي له، فتُقُبِّل من هابيل، ولم يُتقبَّل من قابيلَ، فكان من =

ورسول الله ﷺ يقولُ: «**باعِدُوا بَيْنَ أنْفَاسِ الرِّجَالِ والنِّساء**»[(١)]. وهذه امرأةٌ من العرب تقولُ ـ وقد حَبِلَتْ من ذي قرابةٍ لها ـ حين سُئلت: ما بِبَطْنِكِ يا هند؟ فقالت: قُرْبُ الوِسادِ، وطوُلُ السِّواد[(٢)]. وفي ذلك أقول شعرًا منه: [من الرمل]

= أمرهما ما قصَّه الله في كتابه. يعني قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٠].

(١) لا أصل له: أقدم مَنْ ذكره ـ فيما علمتُ ـ أبو عثمان عَمْرو بن بَحْر الجاحظ (٢٥٠هـ) في: «المحاسن والأضداد»، وفي: «الرَّسائل»، ثُمَّ ذكره المحدِّثُ أبو بكر المبارك بن كامل الخفَّافُ (٥٤٣هـ) في: «سلوة الأحزان للاجتناب عن مجالسة الأحداث والنِّسْوان»، ووقعت الإشارةُ إليه في كلام للقاضي عِياض (٥٤٤هـ)؛ علىٰ حديثٍ في: «صحيح مسلم» (٢١٨٢)؛ نقله النَّوويُّ في: «شرح مسلم» ١٤/١٤٠، والسُّيوطيُّ في: «الدِّيباج على صحيح مسلم» ١٩٨/٥ .وذكره ابنُ الحاج (٧٣٨هـ) في: «المدخل إلى تَنْمِيَة الأعمال؛ بتحسين النِّيَّاتِ، والتَّنْبيه على كثيرٍ من البدع المحدثة، والعوائد المنتحلة» في صلاة العيدين، وعزُّ الدِّين ابن جماعة (٧٦٧هـ) في: «مَنْسَكِهِ»؛ (كما في: «كشف الخفاء» ٣٢٩/١)، ومحمَّدُ بن عبد الرَّحمٰن المغربيُّ (٩٥٤هـ) في: «مواهب الجليل في شرح مختصر الخليل» ٩٦/٢؛ كلُّهم مِنْ غيرِ إسنادٍ ولا تخريجٍ، وقال مُلا علي القاري: إنَّه غيرُ ثابتٍ. (الأخبار الموضوعة: ١٤٥).

(٢) هند؛ هي: ابنة الخَسِّ بن خابس بن قريط الإيادي؛ امرأةٌ جاهليَّةٌ قديمةٌ، اشتهرتْ بالحكم، وفَصْل الخصومات، وورد عنها كثيرٌ من الأسجاع والأمثال، وكانتْ معروفةً بالفصاحة. ترجم لها الدكتورُ عليُّ جواد في: «المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام». وكان من خبرها ـ فيما ذكروا ـ أنَّها فَجَرَتْ، فقيل لها: لِمَ حملتِ؟ أو قيل لها: لِمَ زنيت وأنتِ سيدة قومك؟ أو قيل لها: لم زنيتِ بعبدك ولم تَزنِ بِحُرٍّ، وما أغراك به؟ فقالت: قرب الوساد، وطول السِّواد. تريدُ قربَ مَضْجَعه منها، وطولَ مسارَّته إيَّاها. والسِّواد ـ بالكَسْرِ ـ: السِّرارُ. وقال اللِّحْيانيُّ: السِّوادُ ـ هنا ـ: المُسَارَّةُ، وقيل: المراودة، وقيل: الجماع بِعَيْنِهِ. والخبرُ أورده أهلُ اللُّغة والأدب، منهم: الخليل بن أحمد الفراهيديُّ في: «العَيْنِ»، والجاحظُ في: «البيان والتَّبيين»، و«الحيوان»، و«المحاسن والأضداد»، وابن دُرَيْد في: «جمهرة اللُّغة»، وأبو حَيَّان =

لا تَلُم مَن عرَّضَ النَّفْسَ لِمَا ليسَ يُرضي غيرَه عِنْدَ المِحَنْ
لا تُقرِّبْ عَرْفَجًا[1] من لَهَبٍ ومتىٰ قرَّبْتَه قامتْ دُخَنْ
لا تُصرِّفْ ثِقَةً في أَحَدٍ فَسَدَ النَّاسُ جميعًا والزَّمَنْ/ (١١٥ب)
خُلِقَ النِّسْوانُ للفَحْلِ كَما خُلِقَ الفَحْلُ بلا شكٍ لهُنّ
كُلُّ شَكْلٍ يتَشهَّىٰ شَكْلَه لا تكُنْ عن أحدٍ تَنْفي الظِّنَنْ
صِفةُ الصَّالح مَن إن صُنْتَه عن قَبيحٍ أظْهَرَ الطَّوْعَ الحَسَنْ
وسواه مَنْ إذا ثقَّفْتَه أعْمَلَ الحِيلةَ في خَلْعِ الرَّسَنْ[2]

وإنِّي لأعلمُ فتىً من أهل الصِّيانة، قد أولعَ بهوىً له، فاجتاز بعضُ إخوانه فوَجَدَه قاعدًا مع من كان يُحِبُّ، فاستجْلَبَهُ إلىٰ منزله، فأجابه إلىٰ منزله بامتثال المَسِير بعده، فمضىٰ داعِيهِ إلىٰ منزله، وانتظره حتَّىٰ طالَ عليه التربُّص فلَمْ يَأْته، فلمَّا كانَ بعد ذلك اجتمعَ به داعِيه فَعَدَّد عليه، وأطال لومَهُ علىٰ إخلافه موعدَهُ، فاعتذر ورَّىٰ، فقلتُ أنا للَّذي دعاه ـ: أنا أكشفُ عذرَهُ صَحِيحًا من كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذ يقولُ: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧] فضَحِكَ مَن حَضَرَ، وكُلِّفتُ أنْ أقولَ في ذلكَ شيئًا، فقلت: [من الطويل]

وجَرْحُكَ لي جُرْحٌ جُبارٌ فلا تَلُمْ ولكنَّ جُرْحَ الحُبِّ غيرُ جُبارِ[3]

= التَّوْحِيدي في: «البصائر والذَّخائر»، والزَّمخشريُّ في: «ربيع الأبرار»، و«المستقصى في أمثال العرب»، وابنُ عبد البرِّ في: «بَهْجة المجالس»، وابنُ منظورٍ في: «لسان العرب»، والزَّبيديُّ في: «تاج العروس»؛ وغيرهم.

(١) شجر سريع الاشتعال، وتكنيه العربُ: أبا سَريع. (الحربي)
(٢) الحَبْل الذي يقاد به البعير ونحوه. (الحربي)
(٣) الجُبَارُ: الهَدَرُ.

وقد صَارَتِ الخَيْلانُ وَسْطَ بَياضه   كَنَيْلَوفَرٍ[1] حفَّتْهُ رَوْضُ بَهار[2]

(١١٦أ) وكم قالَ لي مَن مِتُّ وَجْدًا بحُبِّه   مَقَالةَ مَحْلُولِ المَقَالة زاري/

وقد كثرتْ مِنِّي إليه مَطالبٌ   أُلِحُّ عليه تارةً وأُداري:

أمَا في التَّداني ما يبرِّدُ غُلَّةً   ويُذهبُ شَوْقًا في ضُلُوعك سَاري؟

فقلتُ له: لو كانَ ذلكَ لم تكُنْ   عداوةُ جارٍ في الأنَام لجار

وقد يتراءىٰ العَسكَرانِ لدىٰ الوغىٰ   وبينهما للمَوْتِ سُبْلُ بَوار

ولي كَلِمَتان قلتُهما مُعرِّضًا ـ بل مُصرِّحًا ـ برَجُلٍ من أصحابنا كُنَّا نعرفُهُ ـ كُلُّنا ـ من أهل الطَّلب، والعناية، والوَرَع، وقيام اللَّيل، واقتفاء آثار النُّسَّاك، وسلوكِ مذاهب المتصوِّفين القدماء، باحثًا مجتهدًا، ولقد كنَّا نتجنَّبُ المزاح بحَضْرته، فلم يَمْضِ الزَّمَنُ حتىٰ مكَّنَ الشيطانَ من نفسه، وفتكَ بعدُ لباسَ النُّسَّاك، وملَّكَ إبليسَ من خِطَامه فسوَّلَ له الغُرور، وزيَّنَ له الويلَ والثُّبُور، وأجرَّه رَسَنه بعد إباءٍ، وأعطاه ناصيَتَهُ بعد شِماسٍ، فخبَّ في طاعته وأوضعَ، واشتهر ـ بعد ما ذكرته ـ في بعض المعاصي القبيحة الوَضِرَةِ. ولقد أطلتُ ملامه وتشدَّدْتُ في عَذله إذ أعلن بالمعصية بعد استتارٍ، إلىٰ أن أفسدَ ذلك ضميره عليَّ، وخبثَتْ نيَّتُهُ لي، وتربَّصَ بي دوائرِ السَّوء، وكان بعضُ أصحابنا يُساعده بالكلام استجرارًا إليه، فيأنَسُ به (١١٦ب) ويُظْهِرُ له عداوتي، إلىٰ أنْ/ أظهر الله سريرتَهُ، فَعَلِمَها البادي والحاضر، وسقط من عيونِ النَّاس ـ كلِّهم ـ بعد أن كانَ مَقْصَدًا للعلماء، ومُنتابًا للفضلاء، ورَذُلَ عند إخوانه جُمْلةً. أعاذنا الله من البلاء، وسَتَرنا في كفايته، ولا سَلَبَنا ما بِنَا من نعمته.

(١) نَيْلَوفر: نوع من الرياحين. (الحربي)
(٢) نبت طيِّب الريح. (الحربي)

فيا سَوْءَتاه لِمَنْ بدأ بالاستقامة، ولم يعلم أنَّ الخُذْلانَ يحلُّ به، وأنَّ العصمة ستفارقه!! لا إله إلَّا الله، ما أشنعَ هذا وأفظعه!! لقد دَهَمَتْهُ إحدىٰ بنات الحَرْسِ، وألقت عصاها به أمُّ طَبَق[1]، من كانَ لله أولًا ثُمَّ صارَ للشَّيطان آخرًا.

ومن إحدى الكلمتين: [من البسيط]

أمَّا الغُلام فَقَدْ خَانتْ فَضِيحَتُه | وأنَّـهُ كـانَ مَسْتُورًا فـقـد هُتِكَـا
ما زالَ يَضْحَكُ من أهلِ الهوىٰ عَجَبًا | فـالآن كلُّ جَهُولٍ منه قد ضَحِكـا
إليكَ لا تَلْحُ[2] صَبًّا هَائِمًا كَلِفًا | يرىٰ التَّهَتكَ في دين الهوىٰ نُسُكا
قد كانَ دَهْرًا يعاني النُّسْكَ مُجْتَهِدًا | يُعَدُّ في نُسْكِهِ كلُّ امرىءٍ مُسُكا[3]
ذو مِحْبَرٍ وكتابٍ لا يُفارِقُهُ | نَحْوَ المُحَدِّث يسعىٰ حيثُ ما سلكا
فاعتاضَ من سُمْرٍ أقلام بنانَ فتىً | كأنَّه من لُجَيْن صِيغَ أو سُبِكا
يا لائمي سَفَهًا في ذاك قِلِّ[4] فَلَمْ | تَشْهَدْ حَبيبَيْنِ يَوْمَ المُلْتقىٰ اشتبكا/ (١١٧أ)
دَعْنِي ووِرْدِيَ في الآبار أطلُبُه | إليك عنِّي كذا لا أبْتَغي البِرَكا[5]
إذا تعفَّفْتَ عَفَّ الحُبُّ عنكَ وإنْ | تَركْتَ يومًا فإنَّ الحُبَّ قَدْ تَركا
ولا تَحُلُّ مِنَ الهِجْران مُنعَقِدًا | إلا إذا ما حَلَلْتَ الأُزْرَ والتِّككا

(١) الحرس: الدَّهر، وبناته: مصائبه. وأمُّ طبق أو بنات طبق: الشِّدَّة، أو الدَّاهية، وأصله للحية؛ إذ يقال لها أمُّ طبق (ع).
(٢) لا تَلُم. (الحربي)
(٣) هذه قراءة (ع)، وقال: المسك: البخيل (أي: أن كل امرىءٍ إذا قيس إلى نسكه عُدَّ مقصِّرًا). وفي الأصل: (نَسِكًا) بدل: (مُسُكًا). وقرأها برشيه: نهكًا. وقال العلامة شاكر: مسكا: شرحه غريب، لعلَّه: «حسكًا».
(٤) أثبتها (ع): قَدْكَ. وهذه قراءة الأستاذ شاكر.
(٥) يستعمل ابن حزم في هذا البيت وما يليه من أبياتٍ نوعًا من التَّعريض الجارح (ع).

ولا تُصَحِّحُ للسُّلْطان مَمْلَكَةٌ أو تَدْخُلُ البُرْدُ عن إنفاذِهِ السِّكَكا[1]

ولا بِغَيْرِ كثير المَسْحِ يَذهُب ما يَعلو الحَدِيدَ من الأصداء إن سُبكا

وكانَ هذا ـ المذكورُ ـ من أصحابنا قد أحكمَ القراءات إحكامًا جَيِّدًا، واختصر كتابَ ابن الأنباريِّ[2] في: «الوقف والابتداء» اختصارًا حَسَنًا؛ أُعجِبَ به من رآهُ من المُقْرِئين، وكانَ دائبًا على طَلَبِ الحديث وتقييده، وأكثر دهره هو المتولِّي لقراءةِ ما يسمعه على الشُّيوخ المحدِّثين، مثابرًا علىٰ النَّسْخِ، مجتهدًا، فلما امْتُحِنَ بهذه البَلِيَّة مع بعض الغِلْمان رَفَضَ ما كانَ مُعْتَنِيًا به، وباعَ أكثرَ كُتُبِهِ، واستحالَ استحالةً كُلِّيَّةً، نعوذُ بالله من الخِذلان. وقلتُ فيه كلمةً ـ وهي التَّالية للكلمة التي ذكرتُ منها في أول خَبره ـ؛ ثُمَّ تركتها.

وقد ذكرَ أبو الحسين أحمدُ بن يحيى بن إسحاق الرويديُّ[3] في

---

(١) معنىٰ هذا البيت والذي قبله غير واضح لديَّ. (الحربي)

(٢) هو: محمد بن القاسم بن محمد، العلاَّمة أبو بكر ابن الأنباري النَّحوي اللُّغوي، شارح المفضليَّات والسَّبع الطُّوال. قال الخطيب: كان صدوقًا دَيِّنًا من أهل السُّنَّة. توفي سنة (٣٢٨هـ) ترجمته في: «تاريخ الإسلام» (الطبقة: **٣٣** /الترجمة: **٤١٣**). وقد طبع كتابه المشار إليه بعنوان «إيضاح الوقف والابتداء» في جزءين، تحقيق: محيي عبد الرحمٰن رمضان، بعناية مجمع اللغة العربية بدمشق **١٩٧١**. وقد دخل الأندلس بعدَّة رواياتٍ منها: رواية شريح بن محمد عن أبي جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز اليحصبي ـ بمصر ـ عن ابن الشعيري، عن المؤلِّف. (فهرست ابن خير: **٤٤ ـ ٤٥**، والصلة: **٢١٥**، الترجمة: **٤٩٨**).

(٣) كذا في الأصل، ولعلَّ الصَّواب: الروندي. والذي في كتب التاريخ والتراجم: الرَّاونديُّ أو الرِّيوندي، وهو: عدوُّ الدِّين الملحد، صاحب التَّصانيف في الحطِّ على الملَّة، وكان يلازم الرافضة، والملاحدة، فإذا عوتب قال: إنَّما أريد أن أعرف أقوالهم. ثمَّ إنه كاشف، وناظر، وأبرز الشُّبه والشُّكوك. وكان معتزليًا، ثمَّ تزندق. هلك سنة (**٢٩٦**هـ) أو (**٢٩٨**هـ)، وقال المسعوديُّ: توفي سنة (**٢٥٠**) عن أربعين سنة. «تاريخ الإسلام» (الطبقة: **٣٠** /الترجمة: **٨١**)، و«سير أعلام النُّبلاء» **١٤/ ٥٩**)، و«البداية والنهاية» **١١/ ١١٢ ـ ١١٣**.

كتاب: «اللَّفْظِ والإصلاح» أَنَّ [أبا إسحاق] إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام ـ رأسَ/ (١١٧ب) المعتزلة ـ، مع عُلُوِّ طبقته في الكلام، وتمكُّنه [في العلم]، وتحكُّمه في المعرفة، تسبَّب إلىٰ ما حرَّم الله عليه من فتىً نصرانيٍّ عَشِقَهُ بأنْ وَضَعَ له كتابًا في تَفْضِيلِ التَّثْلِيثِ علىٰ التَّوْحِيد؛ فيا غوثاه! عياذَكَ يا ربِّ من تولُّج الشَّيْطان، ووقوع الخذلان![1]

وقد يَعْظُمُ البلاءُ، وتكلَبُ الشَّهْوةُ، ويهونُ القبيحُ، ويَرِقُّ الدِّينُ حتَّى يرضىٰ الإِنسانُ في جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح، كمثل ما دَهَمَ عُبَيْدَالله بن يحيى الأزديَّ المعروفَ بابن الجزيريِّ، فإنَّه رضيَ بإهمال داره، وإباحة حَريمِهِ، والتَّعْريضِ بأهلِهِ طَمَعًا في الحصول علىٰ بُغْيَتِهِ من فتىً كانَ عَلِقَهُ ـ نعوذُ بالله من الضَّلال، ونسأله الحِياطة، وتحسينَ آثارنا، وإِطابة أَخبارنا ـ حتَّىٰ لقد صار المِسْكينُ حديثًا تُعْمَرُ به المَحافِلُ، وتصاغُ فيه الأشعار، وهو الذي تُسَمِّيه العرب: الدَّيوث، وهو مشتقٌّ من التَّدْييث، وهو التَّسْهيل، وما بعد تسهيل من تَسَمَّحَ نفسه بهذا الشَّأنِ تسهيلٌ، ومنه بعَيرٌ مديَّثٌ، أي: مُذَلَّلٌ. ولعمري! إنَّ الغيرة لتوجد في الحَيْوانِ بالخِلقَة[2]، فكيفَ وقد أَكَّدَتْها عندنا الشَّريعة، وما بعد هذا مصاب.

ولقد كنتُ أعرفُ هذا ـ المذكورَ ـ مَسْتُورًا إلىٰ أن استهواه الشَّيطانُ،/ (١١٨أ)

---

(١) هذا الخبر نقله عن «الطَّوق» ابنُ ناصر الدّين في: «توضيح المشتبه» **٩/ ٩٨**، وعنده: (اللفظ والاصطلام) بدل: (اللفظ والاصلاح)، و(رأس أهل الاعتزال) بدل: (رأس المعتزلة)، وما بين المعقوفتين فمنه، وانظر ما كتبته في مقدمة التحقيق.
ولم يذكر ابن النَّديم في: «الفهرست» (اللَّفظ والإصلاح) بين كتبه.

(٢) ويقول ابن حزم في «الأخلاق والسِّير» (**١٣١**): إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبَّة. ويقول (**١٣٢**): الغيرة خُلُقٌ فاضل مركَّبٌ من النَّجدة والعدل.

ونعوذ بالله من الخِذلان. وفيه يقول عيسى بنُ محمَّد بن مجمل الخولانيُّ[1]: [من الكامل]

يا جاعِلًا إخْراجَ حُرِّ نِسَائِهِ شَرَكًا لصَيْدِ جآذِرِ[2] الغِزْلانِ
إنِّي أرىٰ شَرَكًا يُمزَّقُ ثُمَّ لا تحظَىٰ بغَيْرِ مَذَلَّةِ الحِرْمان

وأقول أنا ـ أيضًا ـ: [من الطويل]

أباحَ أبو مَرْوانَ حُرَّ نِسَائِهِ ليبلُغَ ما يهوىٰ مِنَ الرَّشَأ الفَرْدِ
فعاتبته الدُّيوثَ في قُبْحِ فِعْلِهِ فأنشدني إنشادَ مُسْتَبْصِر جَلْدِ
«لَقَدْ كنتُ أدْرَكْتُ المُنىٰ غيرَ أنَّني يُعيِّرني قَوْمي بإدراكِها وَحْدِي»[3]

وأقول ـ أيضًا ـ: [من المتقارب]

رأيتُ الجَزيريَّ فيما يُعاني قَليلَ الرَّشَادِ كثيرَ السَّفَاهِ
يَبِيعُ ويَبْتَاعُ عِرْضًا بعِرْضٍ أُمورٌ وَجَدِّكَ ذاتُ اشْتِباه
ويأخُذُ مِيمًا بإعطاء هاءٍ ألاَ هكذا فليكُنْ ذُو النَّواهي[4]
وَيُبْدِلُ أرْضًا تُغذِّي النَّباتَ بأرضٍ تُحِفُّ بشَوْكِ العِضَاه[5]

---

(١) ترجم له الحميدي (الجذوة: ٢٨١ والبغية رقم: ١١٥٥) باسم عيسى بن مجمل؛ وقال: كان أديبًا تاجرًا شاعرًا من أهل قرطبة مشهورًا، وأورد له قطعتين في التذمُّر من قوم زاروه فقعدوا في دكانه ومنعوه من معيشته (ع).

(٢) مفردها: جُؤذر، بضم الذال ويجوز الفتح: ولد البقرة الوحشية. (الحربي)

(٣) هو مضمَّن، ذكره أبو الحسن الجرجاني في: «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، وابن بسَّام الشَّنتريني في: «الذَّخيرة»؛ دون نسبة.

(٤) في البيت تهكُّم علىٰ سبيل الكناية، والميم والهاء هما محلّها، ولعله كنَّى بالهاء عن الأنثى، والمراد: أنه يعطي ما لا يجوز إعطاؤه. (الحربي)

(٥) شجر له شوك. (الحربي)

لقد خَابَ في تجْرِه ذو ابْتِياع   مَهَبَّ الرِّياحِ بمجرىٰ المِياه

ولقد سَمِعْتُهُ في المسجد الجامع يستعيذُ بالله من العِصْمَةِ؛ كما يُسْتعاذُ/ به من الخِذْلان! (١١٨ب)

وممَّا يُشبه هذا؛ أنِّي أذكرُ أنِّي كنتُ في مجلسٍ فيه إِخوانٌ لنا عند بعضِ مياسير أهل بلدنا، فرأيتُ بَيْنَ بعض من حَضَرَ وبين من كانَ بالحَضرةِ - أيضًا - مِنْ أهل صاحب المجلس أمرًا أنكرته، وغَمْزًا اسْتَبْشَعْتُهُ، وخلواتِ الحينَ بعد الحين، وصاحبُ المجلسِ كالغائب أو النَّائم، فنبَّهْته بالتَّعْريض فلم ينتبهْ، وحرَّكْتُهُ بالتَّصْريح فلم يتحرَّكْ، فجعلتُ أُكَرِّرُ عليه بَيْتَيْنِ قديمَيْنِ لعلَّه يفطن، وهما هذان: [من الخفيف]

إنَّ إِخْوانَه المُقِيمِينَ بالأمـ   ـس أَتَوْا للزِّنَاءِ[1] لا للغِنَاء

قَطَعُوا أمْرَهُمْ وأنتَ حِمارٌ   مُوقَرٌ مِنْ بَلادةٍ وغَبَاء

وأكثرتُ من إنشادهما[2] حتَّى قال لي صاحبُ المجلس: قد أَمْلَلْتنا من سماعهما، فتفضَّلْ بتركهما، أو إنشاد غيرهما. فأمسكتُ وأنا لا أدري أغافلٌ هو أم متغافلٌ. وما أذكر أنِّي عُدْتُ إلىٰ ذلكَ المجلس بعدها، وقلتُ فيه قطعةً منها: [من الخفيف]

أَنْتَ لا شَكَّ أَحْسَنُ النَّاسِ ظَنًّا   ويَقِينًا ونِيَّةً وضَمِيرا[3]

---

(١) بالمدِّ، لغة في «الزنىٰ» وليس ضرورة. (الحربي)

(٢) خ: إنشادهِنَّ.

(٣) في: «أمثال العوام» (٦٣ رقم: ٢٥٦) للزجَّالي: أول ما يعطىٰ للقرّان (أي: القرنان) حسن الظن (يعني بزوجته)، ومثل أندلسي آخر: كثرة الاطمني تولِّد القرون. وابن حزم يلمح إلىٰ ذلك (ع).

فانتبهْ إنَّ بَعْضَ من كانَ بالأمـ ـس جَلِيسًا لنا يُعاني كَبِيرا

(١١٩أ) ليسَ كلُّ الرُّكوعِ فاعْلمْ صَلاةً لا ولا كُلُّ ذي لَحَاظٍ[1] بَصِيرا/

وحدّثني ثَعْلَبُ بن موسى الكلاذانيُّ[2]، قال: حدَّثني سليمان بن أحمد الشاعر قال: حدَّثتني امرأةٌ اسمها هِنْدُ كنتُ رأيتها في المشرق، وكانت قد حجَّتْ خمسَ حَجَّاتٍ، وهي من المتعبِّدات المجتهدات. قال سليمان: فقالت لي: يا ابنَ أخي، لا تُحَسِّنَ الظنَّ بامرأةٍ قَطُّ، فإنِّي أُخْبِرُكَ عن نفسي بما يعلمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ركبتُ البحرَ منصرفةً من الحجِّ، وقد رَفَضْتُ الدُّنيا، وأنا خامسةُ خَمْسِ نِسوةٍ، كلُّهُنَّ قد حَجَجْنَ، وصرنا في مركبٍ في بَحْر القَلْزُم، وفي بعض ملاحي السَّفينة رَجُلٌ مُضْمَرُ الخَلْق، مديدُ القامة، واسع الأكتاف، حَسَنُ التَّرْكيب، فرأيته أوَّل ليلةٍ قد أتىٰ إلى إحدىٰ صواحبي، فوضع إحليلَهُ في يَدها، وكانَ ضَخْمًا جِدًّا، فأمكَنْتهُ في الوقتِ من نفسها، ثم مرَّ عليهنَّ كلِّهِنَّ في ليالٍ متواليات، فلم يبقَ له غيرها ـ تعني نفسها ـ قالتْ: فقلتُ في نفسي لأنتقمنَّ منكَ؛ فأخذت موسىً، وأمسكتها بيدي، فأتىٰ في اللَّيل على جاري عادته، فلمَّا فعل كفِعْله في سائر الليالي سَقطَتِ الموسىٰ عليه فارتاع وقام لِيَنْهَضَ. قالتْ: فأشفقتُ عليه، وقلتُ له وقد أمسكته: لا زلتَ أو آخُذَ نَصِيبي منك. قالت العجوز: (١١٩ب) فقضىٰ وطَرَه،/ وأستغفرُ الله!

---

(١) بفتح اللام: مؤخرة العين، وأما بالكسر: فعلامة تحت العين. (الحربي)

(٢) ثعلب: بالثَّاء واضحة في الأصل؛ وكذا: (الكلاذاني)؛ وهي نسبة لم أجدها، وذكره ابن الأبّار، في: «التَّكملة لكتاب الصِّلة» (ص: ٢٧٦، الترجمة: ٦٢١، القطعة التي حققها: الفريد بل، وابن أبي شنب، الجزائر ١٩٢٠)؛ في باب الأفراد من حرف التَّاء؛ فقال: «تغلب [وأشار المحقق أنه في المخطوط: تعلب] بن عيسىٰ الكلابي، حكىٰ عنه ابن حزم في رسالته المسمّاة بطوق الحمامة».

وإنَّ للشُّعراء من لُطْفِ التَّعريضِ عن الكناية لعَجَبًا؛ ومن بعض ذلك قولي حيثُ أقول: [من الطويل]

أتاني وماءُ المُزْنِ في الجَوِّ يُسْفَكُ كمَحْضِ لَجِينٍ إذْ يُمَدُّ ويُسْبَكُ
هِلالُ الدَّياجي انْحَطَّ مَنْ جوِّ أُفْقِه فقلْ في مُحِبٍّ نال ما لَيْسَ يُدْرَكُ
وكانَ الذي إنْ كُنْتَ لي عنه سَائلًا فما لي جوابٌ غيرَ أنِّي أَضْحَك
لفَرْطِ سُروري خِلتُني عنه نائِمًا فيا عَجَبًا من مُوقِنٍ يَتَشَكَّكُ

وأقولُ ـ أيضًا ـ قطعةً منها: [من البسيط]

أتيتَني وهلالُ الجَوِّ مُطَّلِعٌ قُبَيْلَ قَرْعِ النَّصارىٰ للنَّواقِيسِ
كحاجِبِ الشَّيْخِ عمَّ الشَّيْبُ أكثَرهُ وأَخْمَصِ الرِّجلِ في لُطْفٍ وتَقْويس
ولاحَ في الأُفقِ قَوْسُ الله مُكْتَسِيًا من كلِّ لونٍ كأذنابِ الطَّواويس[1]

وإنَّ فيما يبدو إلينا من تعادي المتواصِلينَ في غير ذاتِ الله ـ تعالىٰ ـ بعد الأُلْفة، وتدابرهم بعد الوصال، وتقاطُعِهِمْ بعد المودَّة، وتباغضهم بعد المحبَّة، واستحكام الضَّغائن، وتأكُّدِ السَّخائم في صدورهم؛ لكاشفًا ناهيًا لو صادف عقولًا سَلِيمةً، وآراءً نافذةً، وعزائمَ صَحِيحَةً. فكيفَ بما أعدَّ الله لمَنْ/ عصاه من النَّكال الشَّديد يوم الحساب، وفي دار الجزاء، ومن الكَشْفِ علىٰ رؤوس الخلائق: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢] جعلنا الله مِمَّنْ يَفُوزُ برضاه، ويَسْتَحِقُّ رحمته. (١٢٠أ)

(١) اعتقد أنَّ التَّعريض في هذه القطعة قد ضاع مع أبياتٍ سقطت منها. (ع).

ولقد رأيتُ امرأةً كانتْ مَوَدَّتُهَا في غير ذات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فعهدتُها أصفىٰ من الماء[1]، وألْطَفَ من الهواء[2]، وأثبتَ مِنَ الجبال، وأقوىٰ مِنَ الحديدِ[3]، وأشدَّ امتزاجًا من اللَّوْنِ في المُلَوَّن، وأنفذَ استحكامًا من الأعراض في الأجسام، وأضوأَ من الشَّمْس، وأصحَّ من العيان، وأثقبَ من النَّجْم، وأصدقَ من كُدْرِ القَطا[4]، وأعجبَ من الدَّهر، وأحسنَ من البِرِّ، وأجملَ من وجه أبي عامرٍ، وألذَّ من العافية، وأحلىٰ من المُنىٰ، وأدنىٰ من النَّفْس، وأقربَ من النَّسَب، وأرسخَ من النَّقْشِ في الحَجَر. ثُمَّ لم ألبثْ أنْ رأيتُ تلك المودَّةَ قد استحالتْ عداوةً أفظَعَ من الموت، وأنفذَ من السَّهْم[5]، وأمرَّ من السُّقْم، وأوحشَ من زوال النِّعَم، وأقبحَ من حلولِ النِّقَم، وأمضىٰ من عُقْمِ الرِّياح[6]، وأضرَّ من الحُمْقِ، وأدهىٰ من غَلَبَة العدوِّ، وأشدَّ من الأَسْر،/ (١٢٠ب) وأقسىٰ من الصَّخْرِ[7]، وأبغضَ من كَشْفِ الأستار، وأنأىٰ من الجَوْزاءِ[8]، وأصعبَ من معاناة السَّماء، وأكبر من رُؤْية المُصاب، وأشنَعَ من خَرْقِ العادات، وأقطعَ من فُجاءَةِ البلاء، وأبشعَ من السُّمِّ الزُّعَاف[9]، وما لا يتولَّد مثله عن الذُّحُول والتِّراثِ، وقتلِ الآباء وسَبْيِ الأمهات.

---

(١) يقال في المثل: أصفى من الماء، أرق من الماء (الدرّة الفاخرة ٢٦٣، ٢٠٩)، وبعض هذه الأمثال مما صاغه ابن حزم وبعضها مما درج في الاستعمال (ع).

(٢) يقال في المثل: أرق من الهواء (الدرّة الفاخرة: ٢٠٩).

(٣) يقال: أصلب من الحديد، أشد من الحديد (الدرّة: ٢٦٣، ٢٣٦).

(٤) يقال: أصدق من قطاة (الدرّة: ٢٦٥).

(٥) يقال: أنفذ من إبرة. أنفذ من سنان (الدرّة: ٣٩١).

(٦) يقال: أسرع من الريح (الدرّة: ٢١٧، ٤٤١).

(٧) يقال: أقسى من حجر، أقسى من صخرة (الدرّة: ٣٥١).

(٨) يقال: أنأى من الكواكب، أبعد من النجم، من السماء، من الثريا... إلخ (الدرّة: ٣٩١، ٧٥).

(٩) الزعاف والذعاف: كلاهما صحيح.

وتلك عادةُ الله في أهل الفِسْقِ القاصدين سواه، الآمِّين غيره؛ وذلك قولـه ـ عـزَّ وجـلَّ ـ: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: ٢٨، ٢٩].

فيجبُ علىٰ اللَّبيب الاستجارةُ بالله مِمَّا يُوَرِّطُ فيه الهوى؛ فهذا خَلَفُ مَولىٰ يوسف بن قَمْقامَ ـ القائدُ المشهور ـ كانَ أحدَ القائمين مع هشام بن سليمانَ بن النَّاصر[1]، فلما أُسر هشامٌ، وقُتل، وهرب الذين وازَرُوه؛ فَرَّ خَلَفُ في جُمْلتهم ونَجا، فلمَّا أتىٰ القَسْطلات[2] لم يُطِقْ الصَّبْر عن جاريةٍ كانتْ له بقرطبةَ؛ فَكَرَّ راجعًا، فظَفِرَ به أمير المؤمنين المهديّ، فأمر بصَلْبه، فلعهدي به مَصْلُوبًا في المرج على النَّهر الأعظمِ، وكأنَّه القُنْفُذُ من النَّبْل.

ولقد أخبرني أبو بكرٍ محمَّدُ بن الوزير عبد الرحمٰن بن الليث ـ رحمه الله ـ أنَّ سببَ هروبه إلىٰ محلَّة البرابر أيامَ تحُولهم مع سليمان/ (١٢١أ) الظَّافر؛ إنَّما كانَ لجاريةٍ يكلَفُ بها تصَّيَرتْ عند بعضِ مَنْ كانَ في تلك النَّاحية، ولقد كادَ أن يَتْلَفَ في تلك السَّفْرةِ.

وهذان الفَضْلانَ وإن لم يكونا مَنْ جِنْسِ الباب؛ فإنَّهما شاهدان على ما يقودُ إليه الهوىٰ من الهلاك الحاضِرِ الظَّاهر، الذي يستوي في فهمه العالِم والجاهل، فكيفَ من العِصْمَة التي لا يَفْهَمُها من ضَعُفَتْ بصيرته.

---

(١) هشام بن سليمان بن الناصر الملقب بالرشيد، ثار على محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقَّب بالمهدي، فكان مصيره أن قُتل (سنة ٣٩٩) انظر أعمال الأعلام: ١١٣ (ع).

(٢) ورد عند العذري «قسطلة» (دون إضافة)، فلعل ما هنا صورة من صور النطق بهذا الاسم، ويؤخذ من كلام العذري أنها في جهة شنتمرية الغرب (نصوص: ١٠٧) ويستفاد من كلام بروفنسال (الأندلس: ٣٥٨ الحاشية) أنه أعياه العثور عليها (ع).

ولا يقولَنَّ امرؤ: خَلَوْتُ! فهو إن انفرد فبِمَرْأىٰ ومَسْمَعٍ من علام الغيوب الذي: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩] و﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] و﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦] وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] و﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨].

وليعلَم المُسْتَخِفُّ بالمعاصي، المتَّكِلُ علىٰ التَّسْويف، المعرِضُ عن/ طاعةِ ربِّه؛ أنَّ إبليسَ كانَ في الجَنَّةِ مع الملائكة المقرَّبينَ فلمعصيةٍ واحدةٍ وقعتْ منه استحقَّ لعنةَ الأبد، وعذابَ الخُلْدِ، وصُيِّر شيطانًا رجيمًا، وأُبْعِدَ عن رفيع المكان. وهذا آدم ﷺ بذَنْبٍ واحدٍ أُخْرِجَ من الجنَّة إلىٰ شقاء الدُّنيا ونكدها؛ ولولا أنَّه تلقَّىٰ من ربِّه كلماتٍ وتاب عليه لكانَ من الهالكين[1]. أفترىٰ هذا المغترَّ بالله ـ ربِّه ـ وبإملائه ليزداد إثْمًا يظنُّ أنَّه أكرمُ علىٰ خالقه من أبيه آدم الذي خَلَقَه بيده، ونَفَخَ فيه من روحه، وأسْجَدَ له ملائكتَهُ الذين هم أفضلُ خَلْقِهِ عنده؟ أو عقابُهُ أعزُّ عليه من عقوبته إياه؟ كلَّا! ولكنَّ استعذابَ التَّمَنِّي، واستيطاءَ مَركب العَجْزِ، وسُخْفَ الرَّأي؛ قائِدةٌ أصحابَها إلى الوبالِ والخِزْي. ولو لم يكنْ عند ركوب المعصية زاجرٌ من نهي الله ـ تعالىٰ ـ ولا حامٍ من غليظِ عقابه؛ لكانَ في قبيح الأحدوثةِ عن صاحبه، وعظيم الظُّلْمِ الواقعِ في نفس

(١٢١ب)

(١) إشارة إلى الآية: (٣٧) من: «سورة البقرة».

فعله[1]؛ أعظمُ مانعٍ، وأشدُّ رادعٍ؛ لِمَنْ نَظَرَ بعَيْنِ الحقيقة، واتَّبع سبيل الرُّشْد،/ فكيفَ والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩]. (١٢٢أ)

حدَّثنا الهمدانيُّ ـ في مسجد القمريِّ، بالجانب الغربيِّ من قرطبة سنة إحدى وأربعِ مئةٍ ـ قال: حدَّثنا ابن شَبُّوَيْه[2]، وأبو إسحاق البلخيُّ[3] ـ بخراسان سنة خمسٍ وسبعين وثلاث مئة ـ قالا: حدَّثنا محمَّد بن يوسف[4]، قال: حدَّثنا محمَّد بن إسماعيل[5]، قال: حدَّثنا قتيبة بن سعيد، قال: حدَّثنا جريرٌ، عن الأعمشِ، عن أبي وائل، عن عمرو بن شرحبيل، قالَ: قال عبدُالله ـ وهو ابن مسعود ـ قالَ رَجُلٌ: يا رسولَ الله أيُّ الذَّنْب أكبرُ عندَ الله؟ قال: «**أنْ تَدْعُوَ لله نِدًّا وهو خَلَقَك**». قال: ثُمَّ أيُّ؟ قالَ: «**أنَ تقتل وَلدَك أن يَطْعَمَ مَعَكَ**». قال: ثُمَّ أيُّ؟ قالَ: «**أن تُزاني حَلِيلَة جَارِكَ**». فأنزل الله تَصْدِيقَها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ الآية.

وقال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا

---

(١) كذا في الأصل، وجعلها (ع): فاعله.

(٢) ابن شبويه: الشيخ الثقة الفاضل أبو علي محمد بن عمر بن شبويه الشَّبويُّ المروزيُّ، سمع: «الصحيح» من الفربريِّ. ذكره الذهبي في المتوفَّين تقريبًا في وفيات (٣٧١ ـ ٣٨٠) من: «تاريخ الإسلام» (ص: ٦٨١)، وترجم له في: «السِّير» ١٦/(٣٠٩).

(٣) الإمام المحدِّث الرحَّال أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد البلخي المُسْتملي، راوي «الصحيح» عن الفربري، توفي سنة (٣٧٦هـ) ـ رحمه الله ـ. «السِّير» ١٦/(٣٦٢).

(٤) المحدِّث الثِّقة العالِم أبو عبد الله محمَّد بن يوسف الفِرَبريُّ، راوي «الجامع الصَّحيح» عن أبي عبد الله البخاريّ، مات سنة (٣٢٠هـ). «السِّير» ١٥/(٥).

(٥) هو: الإمام البخاريُّ، والحديث في: «صحيحه» (٧٥٣٢) و(٦٨٦١).

﴿تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٢]؛ الآية.

حدَّثنا الهمدانيُّ، عن أبي إسحاقِ البلخيِّ وابن شَبُّويَهْ، عن محمَّد بن يوسف، عن محمد بن إسماعيل[(١)]، [عن سعيد بن عُفير]، عن اللَّيْثِ، عن عقيلٍ، عن ابن شهابٍ الزُّهريِّ، عن أبي بكرٍ بن عبد الرحمٰن بن/ (١٢٢ب) الحارث بن هشام، وسعيد بن المُسيِّب المخزوميَّيْنِ، وأبي سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف الزُّهريِّ، [عن أبي هريرة]؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**».

وبالسند المذكور إلىٰ مُحَمَّد بن إسماعيل[(٢)]، عن يحيىٰ بن بُكَيْر، عن اللَّيثِ، عن عقيلٍ، عن ابن شهابٍ، عن أبي سلمة وسعيد بن المسيِّبِ، عن أبي هريرة، قالَ: أتىٰ رَجُلٌ رسولَ الله ﷺ وهو في المسجد، [فناداه] فقال: يا رسول الله! إنِّي زنيتُ. فأعرضَ عنه، ثُمَّ ردَّ عليه[(٣)] أربعَ مراتٍ، فلما شَهِدَ علىٰ نفسه أربعَ شهاداتٍ؛ دعاه النبي ﷺ فقال: «**أَبِكَ جُنُونٌ؟**» قال: لا. قالَ: «**فهل أَحْصَنْتَ؟**» قالَ: نَعَمْ. فقالَ النبي ﷺ: «**اذْهَبُوا به فارْجُمُوهُ**». قالَ ابنُ شهابٍ: فأخبرني مَنْ سَمِعَ جابرَ بنَ عبد الله قالَ: كُنْتُ فيمن رَجَمَهُ، فرجمناه بالمُصَلَّىٰ، فلمَّا أذْلَقَتْهُ الحجارةُ؛ هَرَبَ فأدركناه بالحَرَّةِ فرَجَمْنَاهُ.

حدَّثنا أبو سعيدٍ؛ مولىٰ الحاجب جعفر ـ في المسجد الجامع بقرطبة ـ عن أبي بكرٍ المقرىءِ، عن أبي جعفر ابن النَّحاسِ، عن [عليِّ بن]

---

(١) البخاريُّ في: «صحيحه» (٢٤٧٥)، واستدركتُ الزِّيادتين منه. ورواه (٦٧٧٢) عن يحيىٰ بن بكير عن اللَّيث. ورواه (٥٥٧٨) من طريق: يونس عن الزُّهري.

(٢) البخاريُّ في: «صحيحه» (٦٨١٥) و(٧١٦٧).

(٣) في البخاري: حتَّىٰ ردَّد عليه.

سعيد بن بشيرٍ، عن عمرو بن رافع، [عن هُشَيْم] عن منصورٍ، عن الحَسَنِ[1]، عن حِطَّان بن عبد الله الرَّقاشيِّ، عن عُبَادة بن الصَّامت، عن رسول الله ﷺ أنه/ قال: «**خُذُوا عنِّي! خُذُوا عنيِّ! قد جعل الله لهنَّ سبيلًا: البكرُ بالبكر جَلْدُ مِئَةٍ وتَغْرِيبُ سَنَةٍ، والثيِّبُ بالثَّيِّبِ جَلْدُ مِئَةٍ والرَّجْمُ**»[2]. (١٢٣أ)

فيا لشُنْعةِ ذَنْبٍ أنزل الله وَحْيَهُ مُبيِّنًا بالتَّشْهير بصاحبه، والعُنْفِ بفاعله، والتَّشْديد لمقترفه، وتشدَّد في عقوبة رجمه ألا يُرْجَمَ إلا بحَضْرةِ أَوليائه. وقد أجمعَ المسلمون إجماعًا؛ لا يَنقُضه إلا مُلحدٌ: أنَّ الزَّانيَ المُحصنَ عليه الرجمُ حتَّى يموتَ[3].

---

(١) وقع سَقْطٌ وتحريفٌ في الإسناد، فصحَّحْته من كتب الرجال ومصادر التَّخريج. والحسن؛ هو: الحسن بن أبي الحسن البصري. ومنصور؛ هو: منصور بن زاذان الواسطيُّ؛ ثقةٌ ثبتٌ، والراوي عنه: هُشَيْم بن بشير السُّلمي؛ ثقة ثبت أيضًا، وعنه: عمرو بن رافع البجلي؛ أبو حُجْر القزويني؛ ثقة ثبت أيضًا. وهؤلاء كلُّهم من رجال «التهذيب». وعلي بن سعيد بن بشير ـ وفي الأصل: بشر؛ وهو خطأ ـ هو الحافظ أبو الحسن الرازيُّ عَلِيَّك، قال الدَّارقطنيُّ: لم يكن بذاك في حديثه. مترجم في «السِّير» ١٤/(٨٠).

(٢) رواه أحمد ٣١٣/٥، والدارمي (٢٣٣٣)، ومسلم (١٦٩٠) ـ ومن طريقه: ابن حزم في: «المحلَّىٰ» (المسألة: ٢١٩٧) ـ، وأبو داود (٤٤١٦)، والترمذيُّ (١٤٣٤)، والنسائيُّ في: «الكبرىٰ» (٧١٤٤)؛ من طرقٍ عن هشيم، قال: أخبرنا منصور به. ولم أقف عليه من طريق: عمرو بن رافع عن هشيم. وللحديث طرق أخرىٰ عن الحسن.

(٣) نقل المصنِّف الاتِّفاق على هذا في: «مراتب الإجماع» ص: ١٢٩، وذكر في: «المحلَّىٰ» (المسألة: ٢٢٠٨)؛ من خالف هذا الإجماعَ فقال: فأمَّا الأزارقةُ، فليسوا مِنْ فرق الإسلام؛ لأنَّهم أخبر رسولُ الله ﷺ عنهم بأنَّهم يمرقون من الدِّين كما يرمق السَّهم من الرَّمية؛ فإنَّهم قالوا: لا رجم أصلًا، وإنما هو الجلد فقط. قلتُ: والأزارقة من فرق الخوارج. ونقل هذا الإجماع، واحتجَّ له؛ الماورديُّ في: «الحاوي الكبير» ١٨٥/١٣، وابنُ عبد البر في: «التمهيد» ٣٢٤/٥، وابن قدامة في: «المغني» ٣٠٩/١٢، والسَّرْخَسِيُّ في: «المبسوط» ٣٧/٩؛ وغيرهم كثير.

فيا لها قِتْلَةً ما أهولَها، وعقوبةً ما أفظعها، وأشدَّ عذابها، وأبعدها من الإراحة وسُرْعة الموت!

وطوائف من أهل العلم ـ منهم الحَسَنُ بن أبي الحسن، وابنُ راهَوَيْه، وداود، وأصحابه[1] ـ يَرَوْنَ عليه مع الرَّجْمِ جَلْد مئةٍ، ويحتجُّون عليه بنَصِّ القرآن، وثابت السُّنَّةِ عن رسول الله ﷺ، وبِفِعْلِ عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ؛ بأنَّه رَجَمَ امرأةً مُحْصَنةً في الزِّنا بعد أن جلدها مئة، وقال: جَلَدْتها بكتاب الله، ورَجَمْتُها بسُنَّةِ رسول الله[2]. والقولُ بذلك لازِمٌ لأصحاب الشَّافعيِّ، لأنَّ زيادةَ العَدْلِ في الحديثِ مَقْبُولَةٌ[3].

وقد صَحَّ في إجماع الأمةِ المنقولِ بالكافَّةِ الذي يَصْحَبُهُ العملُ عند كلِّ فِرْقَةٍ، وفي أهل كلِّ نِحْلَةٍ مِنْ نِحَلِ أهلِ القبلة ـ حاشا طائفةً/ (١٢٣ب) يسيرةً من الخوارج لا يُعْتَدُّ بهم ـ أنَّه لا يَحِلَّ دَمُ امرئٍ مسلم إلا بكفرٍ بعدَ إيمانٍ، أو نَفْسٍ بنَفْسٍ، أو بمُحَارَبَةِ لله ورسوله؛ يُشْهِرُ فيها سَيْفَهُ، ويسعىٰ في

---

(١) «المحلَّىٰ» (المسألة: ٢٢٠٨)، و«التمهيد» ٧٩/٩، و«المغني» ٣١٣/١٢. والحسن؛ هو: البصريُّ. وابن راهويه؛ هو: الإمام الفقيه سيِّد الحفَّاظ إسحاق بن إبراهيم الحَنْظَليُّ (٢٣٨هـ). وداود؛ هو: رئيس أهل الظاهر، الإمام الحافظ أبو سليمان البغداديُّ، المعروف بالأصبهانيِّ (٢٧٠هـ).

(٢) صحيح؛ رواه سلمة بن كهيل، عن الشَّعبي، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ، أخرجه: أحمدُ (٧١٦) و(٨٣٩) و(١١٩٠) و(١٣١٧)، والبخاريُّ (٦٨١٢)؛ مختصرًا لم يذكر الجلد، والنسائيُّ في: «الكبرىٰ» (٧١٤٠) وله طرقٌ عن الشَّعبي، وعن عليٍّ؛ تجدها في: «إرواء الغليل» (٢٣٤٠)، وفي غيره.

(٣) مذهبُ ابنُ حزم قبول زيادة الثِّقة في الحديث (الإحكام في أصول الأحكام: ٩٠/٢ ـ ٩٦، ط: شاكر)، ويشير هنا إلى أنَّ هذا هو مذهب الشَّافعية ـ أيضًا ـ (انظر مثلًا: «المستصفىٰ» ١٣٣/١ لأبي حامد الغزَّالي، و«الإحكام» ١٢٠/٢ للآمدي)، وهذا ـ من ابن حزم ـ إيرادٌ جدليٌّ؛ إذ أنَّ لهذه القاعدة ضوابط حديثية وأصولية، تجدها مشروحة في كتب المصطلح وأصول الفقه.

الأرضِ فسادًا مقبلًا غيرَ مُدْبِرٍ، وبالزِّنا بعد الإحصان[1]. فإنَّ حدَّ ما جعلَ الله مع الكُفْر بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومحاربته، وقَطْعِ حُجَّتِهِ في الأرضِ، ومنابذته دينَهُ؛ لَجُرْمٌ كبيرٌ، ومعصيةٌ شنعاءُ، والله تعالىٰ يقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، و﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] وإنْ كانَ أهلُ العلم اختلفوا في تسميتها فكلُّهم مُجْمِعٌ ـ مهما اختلفوا فيه منها ـ أنَّ الزِّنا مُقدَّمٌ فيها، لا اختلاف بينهم في ذلك، ولم يُوعِد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه بالنَّار بعد الشِّرك إلا في سَبْعِ ذُنُوبٍ، وهي الكبائر: الزِّنا أحدها، وقَذْفُ المحصناتِ ـ أيضًا ـ منها، منصوصًا ذلك ـ كلُّه ـ في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وقد ذكرنا أنَّه لا يَجِبُ القتلُ علىٰ أحدٍ من وَلَدِ آدمَ إلا في الذُّنوب الأربعة التي قد تقدَّم ذكرها: فأمَّا الكفر منها فإنْ عادَ صاحبه إلىٰ الإسلام، أو بالذِّمَّة ـ إنْ لم يكن مرتدًّا ـ قُبِلَ منه، ودُرِىء عنه الموتُ. وأمَّا القتلُ: فإنْ قَبِلَ الوليُّ الدِّيةَ في قولِ بعضِ الفقهاء، أو عفا في قول جميعهم سَقَطَ/ (١٢٤أ) عن القاتل القَتْلُ بالقصاص. وأمَّا الفسادُ في الأرض فإنْ تابَ صاحبه قَبْلَ أن يُقْدَرَ عليه هُدِرَ عنه القَتْلُ. ولا سبيلَ في قولِ أحدٍ مُؤالِفٍ أو مُخالِفٍ في تَرْكِ رَجْمِ المُحْصَنِ، ولا وَجْهَ لرَفْعِ المَوْتِ عنه البتَّةَ.

ومَمَّا يدلُّ على شُنْعة الزِّنا ما حدّثنا القاضي أبو عبدِالرحمٰن، قال: حدّثنا القاضي أبو عيسى، عن عُبَيْد الله بن يحيى، عن أبيه يحيىٰ بن

---

(١) يشير إلى حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؛ إلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**» رواه البخاريُّ (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)؛ وغيرهما.

يحيى، عن اللَّيث، عن الزُّهريِّ، عن القاسم بن محمَّد بن أبي بكرٍ، عن عُبَيْدِ بن عُمَيْرٍ: أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أضافَ[1] ـ في زمانه ـ رَجُلٌ ناسًا من هُذَيْلٍ، فخرجتْ جاريةٌ منهم فاتَّبعها، يُريدها عن نفسها، فرَمَتْه بِحَجَرٍ فقَضَتْ كَبِدَهُ. فقالَ عُمَرُ: هذا قتيلُ الله، والله لا يُودَىٰ أبدًا[2].

وما جَعَلَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه أربعةَ شهُودٍ، وفي كلِّ حُكْمٍ شاهِدَيْنِ، إلا حياطةً منه ألا تَشِيعَ الفاحشةُ في عباده، لعِظَمِها وشُنْعَتِها وقُبْحِها، وكيفَ لا تكونُ شَنيعةً ومن قَذَفَ بها أخاه المُسْلِمَ، أو أخته المسلمةَ دون صِحَّةِ علمٍ، أو تيقُّنِ معرفةٍ، فقد أتىٰ كبيرةً من الكبائر استحقَّ عليها النَّار غدًا، ووجبَ عليه بنصِّ التَّنْزيل أن تُضْرَبَ بَشَرَتُهُ ثمانينَ سَوْطًا. ومالكٌ ـ رضي الله عنه ـ يرىٰ ألا يُؤخَذَ في شيءٍ من الأشياءِ حَدٌّ بالتَّعْرِيض دونَ/ (١٢٤ب) التَّصريح إلا في القَذْفِ[3].

وبالسَّند المذكور عن[4] اللَّيْثِ بن سعد، عن يحيىٰ بن سعيد، عن محمَّد بن عبد الرحمٰن، عن أمِّه عَمرةَ بنتِ عبد الرحمٰن، عن عمر بن

---

(١) خ: أصاب. وهو تحريف، والتصويب من مصادر التخريج.

(٢) أثرٌ صحيحٌ: رواه ابن أبي شيبة في: «المصنَّف» (**٢٧٧٨٣**)، وزكريا بن يحيى المروزيُّ في: «حديث سفيان بن عيينة» (رقم: **١٥**، بتحقيقي، **١٤١٠**هـ)، والبيهقي في: «السنن الكبرى» **٨/٣٣٧** من طريق سعدان بن نصر، ثلاثتهم عن سفيان. وعبدُ الرَّزَّاق في: «المصنَّف» (**١٧٩١٩**) عن معمر؛ كلاهما (سفيان، ومعمر) عن الزُّهريِّ؛ به. وصَحَّحَهُ ابنُ عبد البر في: «التمهيد» **٢١/٢٥٧**، وحسَّن إسناده ابنُ الملقِّن في: «خلاصة البدر المنير» (**٢٤٨٨**).

و«فقضت كبده»، قرأها العلامة شاكر: «ففضَّت كبده».

(٣) انظر: «المدوَّنة الكبرىٰ» **٦/٢٢٤**، و«المحلىٰ» (المسألة: **٢٢٣٦**).

(٤) خ: أن.

الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه أمر أنْ يُجلَدَ رَجُلٌ قالَ لآخرَ: ما أبي بزانٍ ولا أُمِّي بزانيةٍ؛ في حديثٍ طويلٍ[1].

وبإجماعٍ من الأمة ـ كلِّها ـ دونَ خِلافٍ من أحدٍ نعلمه أنَّه إذا قالَ رجلٌ لآخر: يا كافِرُ، أو يا قاتلَ النَّفْس التي حَرَّمَ الله، لما وَجَبَ عليه حدٌّ؛ احتياطًا من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ألا تَثْبُتَ هذه العظيمة في مُسْلِمٍ ولا مُسْلِمَةٍ.

ومن قول مالك ـ رحمه الله ـ أيضًا: أنَّه لا حدَّ في الإسلام إلا والقتل يُغْني عنه ويَنْسَخُه إلا حَدَّ القَذْفِ، فإنَّه إن وَجَبَ علىٰ من قد وجب عليه القَتْلُ حُدَّ ثُمَّ قُتِلَ[2]. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النور: ٤ ـ ٥]؛ الآية، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣]. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنَّه قالَ [في] الغَضَبِ، واللَّعْنةِ ـ المذكورين في/ اللعان ـ: إنَّهما مُوجِبَتَانِ[3]. (١٢٥أ)

---

(١) صحيح: رواه ابن أبي شَيْبة (٢٨٣٧٦)، والدَّارقطنيُّ ٣/٢٠٩؛ من طريق: يحيىٰ بن سعيد به. ورواه مالك في: «الموطَّأ» (١٥١٥)؛ عن محمَّد بن عبد الرحمٰن ـ وهو: أبو الرِّجال الأنصاريُّ؛ ثقة ـ به.

(٢) قال مالكٌ: كلُّ حدٍّ اجتمع مع القتلِ لله أو قصاص لأحد من الناس؛ فإنه لا يُقام مع القتل، والقتل يأتي على جميع ذلك؛ إلا الفِرْية، فإن الفرية تقام ثم يُقتل، ولا يقام عليه مع حدِّ الفرية وحدها، لأنه إنما يُضرب حدَّ الفرية لئلا يقال لصاحبه: ما لك لم يُضرب لكَ فلان حدَّ الفرية! يُعرِّض له بأن يقول له: لأنك كذلك! (المدونة الكبرى: ٦/٢١٢). والفِرية: القذف.

(٣) المصنِّف يروي هنا بالمعنى، وأصل هذا في قصَّة ملاعنة هلال بن أميَّة لزوجه، وفيها: أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ رجلًا حين أمر المتلاعنَيْنِ أنْ يتلاعَنا؛ أنْ يَضَعَ يده عندَ الخامسة على فيه؛ وقال: «**إنَّها مُوجِبَةٌ**». أخرجه أبو داود (٢٢٥٥)، والنسائي ٦/ =

حَدَّثنا الهمدانيُّ، عن أبي إسحاق، عن محمَّد بن يوسف، عن محمَّد بن إسماعيل[1]، عن عبد العزيز بن عبد الله، قال: حدثنا سليمان، عن ثور بن زيدٍ[2]، عن أبي الغَيْثِ، عن أبي هُريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقات**». قالوا: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: «**الشِّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقتل النَّفْسِ التي حَرَّم الله إلَّا بالحَقِّ، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتَّوَلِّي يومَ الزَّحْفِ، وقذفُ المحصناتِ الغافلات المؤمنات**».

وإنَّ في الزِّنا من إباحة الحَريم، وإفساد النَّسْل، والتَّفْريق بين الأزواج الذي عظَّم الله أمره؛ ما لا يَهُونُ على ذي عقلٍ، أو مَنْ له أقلُّ خَلاق. ولولا مكانُ هذا العُنْصُر من الإنسان، وأنَّه غيرُ مأمونِ الغَلَبة لما خفَّف الله عن البِكْرَيْنِ، وشدَّدَ على المُحْصَنَيْن. وهذا عندنا وفي جميع الشَّرائع القديمة النَّازلة من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حُكمًا باقيًا لم يُنسَخْ، ولا أُزيلَ، فتبارك النَّاظر لعباده الذي لم يَشْغَلْه عظيمُ ما في خَلْقِهِ، ولا يَحِيفُ قدرَتَهُ كبيرُ ما في

= ١٧٥ (٣٤٧٢) عن كُليب بن شهاب، عن ابن عبَّاس. وأصله عند البخاريِّ (٤٧٤٧) من طريق: هشام بن حسَّان، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس؛ به. وللحديث طرق وألفاظ. وصفة اللِّعان أنَّه: إذا قذف الرجل زوجته بالزنى؛ فأنكرت؛ ولم تكن عنده بيِّنة، فيتلاعنان، يقول: بالله إني لمن الصادقين يكررها أربع مرات، ثم يأمر الحاكم من يضع يده على فيه، ويقول له: إنها موجبة. فإن أبى فإنه يقول: وعليَّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين. فإذا أتمّ هذا الكلام سقط عنه الحدُّ لها، والذي رماها به. وتقول هي: بالله إنه لمن الكاذبين، تكررها أربع مرات. ثم تقول: وعليَّ غضب الله إن كان لمن الصادقين. ويأمر الحاكم مَن يوقفها عند الخامسة، ويخبرها بأنها موجبة لغضب الله تعالى عليها، فإذا قالت ذلك؛ برئت من الحد، وانفسخ نكاحها منه، وحرمت عليه أبد الآبد لا تحل له أصلًا لا بعد زوج ولا قبله، ولا وإن أكذب نفسه، لكن إن أكذب نفسه حدَّ فقط. (المحلَّى، المسألة: **١٩٣٩**).

(١) البخاريُّ في: «صحيحه» (٢٧٦٦) و(٦٨٥٧) و(٥٧٦٤). وأخرجه مسلم (٨٩) أيضًا.

(٢) خ: يزيد. تحريف، وهو: ثور بن زيد الدِّيليُّ المدنيُّ، ثقة، أخرج له الجماعة.

عوالمه عن النَّظَر لحقير ما فيها، فهو كما قال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]./ (١٢٥ب)

وإنَّ أعظمَ ما يأتي به العبدُ هَتكُ سِتْرِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في عباده؛ وقد جاء في حُكْم أبي بكرٍ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ في ضَربه الرجلَ الذي ضَمَّ صَبِيًّا حتَّى أمنىٰ ضَرْبًا كانَ سببًا للمَنِيَّةِ[١]. وفي[٢] إعجاب مالكٍ ـ رحمه الله ـ باجتهادِ الأمير الذي ضَرَبَ صَبِيًّا مكَّنَ رجلًا من تَقْبيله حتَّى أمنىٰ الرَّجُلُ، ضَرَبَهُ إلىٰ أنْ ماتَ؛ ما يُنسي شدَّة دواعي هذا الشَّأْنِ وأسبابه. والتزيُّدُ في الاجتهاد ـ وإنْ كنَّا لا نراه ـ فهو قولُ كثيرٍ من العلماءِ يتَّبعه علىٰ ذلك عالَمٌ من النَّاس.

وأمَّا الذي نَذْهَبُ إليه فالَّذي حدَّثناه: الهمدانيُّ، عن البلخيِّ، عن الفِرَبْرِيِّ، عن البخاريِّ[٣]، قال: حدَّثنا يحيىٰ بن سليمان، قال: حدَّثنا ابن وهب قال: أخبرني عَمْرو أنَّ بُكَيْرًا حدَّثه عن سليمانَ بن يسار، عن عبد الرحمٰن بن جابر، عن أبيه، عن أبي بُرْدَةَ الأنصاريِّ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا يُجْلَدُ فوقَ عَشْرَةِ أَسْواطٍ إلا في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ**».

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) خ: ومن. وما أثبته أجود.

(٣) في: «صحيحه» (٦٨٥٠)؛ واللَّفظ الذي أورده ابن حزم يوافق رواية البخاريِّ (١٧٠٨) عن أحمد بن عيسىٰ، عن ابن وَهْبٍ، به. ورواه ابن حزم في «المحلّىٰ» (مسألة: ٢٣٠٩) من طريق البخاريِّ (٦٨٤٨) عن عبد الله بن يوسف، عن الليث، عن يزيد بن أبي حبيبٍ، عن بُكيرٍ، به. والحديث أخرجه مسلم (١٧٠٨) أيضًا.

وبه يقولُ أبو جعْفَر محمَّد بن عليِّ النَّسَائيِّ الشَّافعيِّ[1] ـ رحمه الله ـ.

وأمَّا فِعْلُ قَوْمِ لُوطٍ فَشنيعٌ بَشيعٌ، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]. وقد قَذَفَ الله فاعليه/ (١٢٦أ) بحجَارةٍ من طِينٍ مُسَوَّمةٍ. ومالك ـ رحمه الله ـ يرىٰ علىٰ الفاعل والمفعول به الرَّجم، أَحْصَنا أو لَمْ يُحْصنَا؛ واحتجَّ بعض المالكِيِّينَ في ذلكَ بأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول في رجمه فاعليه بالحجارة: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] فوجَبَ بهذا أنَّه من ظَلَمَ الآنَ بمثل فعلهم قَرُبَتْ منه. والخلافُ في هذه المسألة لَيْسَ هذا موضعه. وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم ابن السَّرِيِّ[2]: أنَّ أبا بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ أحرقَ فيه بالنَّار. وذكرَ أبو

---

(١) لم أجد له ترجمة، لكن ذكره ابن حزم في رسالته: «أصحاب الفتيا» (ص: ٢٤٤، ط: دار الكتب العلمية)، في المائلين إلى قول الشَّافعي كذلك. يعني: وإن كانوا لم يستهلكوا في التقليد. ولم يزد ابن حزم على ذكر اسمه، وذكر معه: محمد بن عُقيل الفِريابيّ، وهو من طبقة تلاميذ أصحاب الشافعيِّ، ترجم له ابن السُّبكي في: «طبقات الشَّافعية الكبرى» ٢٤٣/٢ (٥٤)، فيكون النَّسائي من هذه الطبقة أيضًا، وذكره في: «المحلى» (٢٣٠٣)، وقال: أحد فقهاء الشَّافعيين. وذكره ابن القيِّم في: «أعلام الموقعين» في: المفتين من أهل مصر.

ولم أجد من ذكر النَّسائيَّ ـ هذا ـ بين القائلين بعدم جواز الزيادة في التَّعزير على عشرة أسواط؛ بل قال ابن حزم في: «المحلى» (٢٣٠٩): «وقالت طائفةٌ: أكثر التَّعزير عشرة أسواط فأقل، لا يجوز أن يتجاوز به أكثر من ذلك. وهو قول اللَّيث بن سعدٍ، وقول أصحابنا». وقال ابن قدامة في «المغني» ٥٢٣/١٢: «واختلف عن أحمد في قدره، فروي عنه أنه لا يزاد على عشر جلدات، نصَّ أحمد على هذا في مواضع، وبه قال إسحاق... والرواية الثانية: لا يبلغ به الحد، وهو الذي ذكره الخرقي». وقال ابن حجر في «الفتح»: «وقد اختلف السلف في مدلول هذا الحديث؛ فأخذ بظاهره الليث وأحمد في المشهور عنه، وبعض الشافعية...». وتفصيل القول في هذه المسألة في المصادر المذكورة وفي غيرها من كتب الفقه.

(٢) هو الإمام أبو إسحاق الزَّجَّاج النَّحويُّ، مصنِّف كتاب: «معاني القرآن». مات سنة: (٣١١هـ) وقيل: سنة (٣١٠). مترجم في: «السِّير» ٣٦٠/١٤(٢٠٩).

عُبَيْدَةُ مَعْمَرُ بن المثنّىٰ[1] اسم المحرَّق فقال: هو شُجَاع بن وَرْقاءَ الأسديُّ[2]، أحرقه بالنَّار أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ لأنَّه يُؤْتىٰ في دبره كما تُؤْتىٰ المرأة[3].

وإنَّ عن المعاصي لمذاهبَ للعاقل واسِعَةً، فما حرَّم الله شيئًا إلا وقد عوَّضَ عباده من الحلالِ ما هو أحسَنُ من المحرَّمِ وأفضلُ، لا إله إلا هو.

وأقولُ في النَّهْي عن اتّباع الهوىٰ؛ علىٰ سبيل الوَعْظِ: [من الطويل]

---

(١) الإمام العلاَّمة أبو عُبيدة التَّميمي البصريُّ النَّحويُّ، من تصانيفه: «مجاز القرآن» و«غريب الحديث». قيل مات سنة (٢٠٩) وقيل (٢١٠). مترجم في: «السِّير» ٩/(١٦٨).

(٢) وفي: «المحلَّىٰ» (٢٣٠٣): قال أبو إسحاق: كان اسمه الفُجاءَة. قلتُ: لعلَّ أبا إسحاق ـ هذا ـ هو الزجَّاج نفسه.

(٣) روى البيهقيُّ في: «شُعب الإيمان» (٥٣٨٩) من طريق ابن أبي الدنيا قال: حدَّثنا عُبَيْد الله بن عمر، قال: حدَّثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن داود بن بَكْر، عن محمد بن المنكدر أنَّ خالد بن الوليد كتب إلىٰ أبي بكرٍ الصِّديق: أنَّه وجد رجلًا في بعض ضواحي العرب يُنْكَحُ كما تُنْكَحُ المرأةُ. فجمع لذلك أبو بكرٍ أصحابَ رسولِ الله ﷺ، فيهم عليُّ بن أبي طالب، فقال عليٌّ: إنَّ هذا ذنبٌ لم يعمل به أمَّة إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم، أرىٰ أن تُحَرِّقه بالنَّار. فاجتمع رأيُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ أن يُحرَّق بالنَّار. فأمر أبو بكرٍ أن يحرق بالنَّار. وهذا إسنادٌ جَيِّدٌ كما قال الحافظُ المنذريُّ في: «الترغيب»، رجاله ثِقاتٌ، لكن داود بن بكر فيه كلام يسير، وثَّقه الذهبيُّ، وقال ابن حجر عنه: صدوق. ومحمَّد بن المنكدر؛ وإنْ لم يكن قد أدرك القصَّة؛ إذ مولده قبل سنة ستِّين بيسيرٍ، كما قال ابن حجر، وتوفي سنة (١٣٠هـ)؛ لكنَّه ثِقةٌ فاضلٌ، رفيعُ القدر، قد أدرك جمعًا من الصحابة، فيكونُ قد روىٰ القصَّة عنهم، واستغنىٰ بشهرتها، وتداول النَّاس لها؛ عن نسبته إلى معيَّن ممن أدرك الحادثة. ورواه ابن حزم في: «المحلَّىٰ» (٢٣٠٣) من طريقين عن ابن أبي حازم، وفيهما: عن محمد بن المنكدر، وموسى بن عقبة، وصفوان بن سُلَيْم. ورواه من طريقٍ أخرىٰ، وفيها: قال ابن وهب: لا أرىٰ خالدًا أحرقه بالنَّار إلا بعد أن قتله، لأنَّ النَّارَ لا يُعذِّب بها إلا اللّٰهُ ـ تعالىٰ ـ.

أقولُ لنفسي ما مُبينٌ كحالكِ «وما النَّاسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكِ»[1]

صُن النَّفْس عمَّا عابها وارفُض الهوىٰ فإنَّ الهوىٰ مِفْتَاحُ بابِ المهالك

(١٢٦ب) رأيتُ الهَوى سَهل المَبَادي لذيذَها وعُقْباه مُرُّ الطَّعْم ضَنْكُ المسالكِ/

فما لذّةُ الإنسان والموتُ بَعدَها ولو عاشَ ضِعْفي عُمر نوحِ بن لامَكِ

فلا تَتَّبِعْ دارًا قليلًا لباثُها فقد أَنْذَرَتْنا بالفناء المُواشِكِ

وما تركُها إلا إذا هي أمكنتْ وكم تاركٍ إضمارُهُ غيرُ تَارِكِ

فما تاركُ الآمالِ عُجْيًا[2] جآذرًا[3] كتارِكها ذاتَ الضُّرُوعِ الحَواشكِ[4]

ومن قابَل الأمرَ الذي كانَ راغبًا بشَهْوةِ مُشتاقٍ وعَقْلِ متاركِ

لأحرىٰ[5] عبادِ الله بالفَوْزِ عنده لدى جَنَّةِ الفِردوس فوقَ الأرائِكِ

ومَنْ عَرفَ الأمرَ الذي هُوَ طالبٌ رأىٰ سَفَهًا[6] ما في يدي كُلِّ مالكِ

ومَنْ عَرف الرَّحمَن لم يَعْصِ أمرَهُ ولو أنَّه يُعطىٰ جميعَ المَمالكِ

سبيل التُّقى والنُّسْكِ خيرُ المسالك وسالِكُها مُستبصرًا خيرُ سالكِ

فما فَقَدَ التَّنْغِيصَ من عاجٍ دونها ولا طابَ عيشٌ لامرىءٍ غيرُ ناسكِ[7]

---

(١) مأخوذ من قول أبي نُواس الشاعر:
وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

(٢) بتروف: عجبًا؛ برشيه: عجلًا. والعجيّ بتشديد الياء: ولد الدابة؛ وجمعه عجايا وأحسب الشاعر تصرَّف به فجمع «فعيل» على «فُعْلى» (ع). قلت: لا يصح أن يكون علىٰ وزن «فُعلىٰ» إلا إذا كان «عُجيىٰ» بلا تنوين. ثم إن «عجايا» ليس جمعًا لـ«عجيّ» كغني، بل هو جمع لـ: «عجيَّة» كما في «القاموس» (عجو). ولا يستقيم المعنىٰ في الاحتمالات المذكورة إلا إذا كان هكذا: فما تاركُ الآمالِ عِجلَ جَآذِرِ. (الحربي)

(٣) بدل من «عُجْيًا»، وهو ولد البقرة الوحشية، مفرده: جُؤذُر. (الحربي)

(٤) الضروع الحواشك: الممتلئة (ع).

(٥) لأحرىٰ: جواب «ومن» في البيت السابق. وفي الأصل: لأجدىٰ.

(٦) هذه قراءة برشيه و(ع)، وفي الأصل: سببًا.

(٧) في الأصل: ماسك.

وطُوبى لأقوامٍ يَؤُمُّونَ نحوَها[1] | بخِفَّةِ أرواحٍ ولِينِ عرائك
لقد فَقدوا غِلَّ النُّفوسِ وفُضِّلوا | بعزِّ سلاطين وأمن صَعالِكِ
فعاشُوا كما شاءُوا وماتُوا كما اشْتَهَوْا | وفازوا بدار الخُلدِ رَحْبَ المَبارك
عَصَوْا طاعةَ الأجسادِ في كلِّ لذَّةٍ | بنُورٍ مُجَلٍّ ظُلْمةَ الغيِّ هاتك
فلولا اغتذاءُ الجسم أيقنتُ أنَّهم | يعيشون عَيشًا مثلَ عيش الملائكِ/ (١٢٧أ)
فيا ربِّ قدِّمهم وزدْ في صلاحهم | وَصلِّ عليهم حيثُ حَلُّوا وبارِكِ
ويا نفسُ جُدِّي لا تملِّي وشمِّري | لنَيلِ سُرورِ الدَّهْر فيما هُنالِك
وأنتِ متىٰ دَمَّرْتِ سعيَك في الهوىٰ | علمتِ بأنَّ الحقَّ لَيْسَ كذلك
فقد بيَّن الله الشَّريعةَ للورَىٰ | بأبْيَنَ من زُهْر النُّجومِ الشَّوابِكِ
فيا نفسُ جدّي في خلاصك وانفذي | نفاذَ السُّيوفِ المُرهفات البواتكِ
فلو أعملَ النَّاسُ التفكُّرَ في الذي | لهُ خُلقوا ما كان حيٌّ بضَاحِكِ



(١) الضمير في «نحوها» يعود إلى سبيل التقوىٰ والنسك.



باب فَضْلِ التَّعَفُّف

ومن أفضل ما يَأْتيه الإِنسانُ في حُبِّه التَّعَفُّفُ، وتركُ ركوبِ المعصية والفاحشةِ، وألا يرغبَ عن مُجازاة خالقه له بالنَّعيم في دار المقامة، وألا يَعْصِي مولاهُ المتفضِّلَ عليه الذي جعله مكانًا وأهلًا لأمره ونهيه، وأرسلَ إليه رسله، وجَعَلَ كلامه ثابتًا لديْه؛ عنايةً منه بنا، وإحسانًا إلينا.

وإنَّ مَنْ هام قلبُه، وشُغِلَ باله، واشتدَّ شَوْقُه، وعَظُمَ وَجْدُه، ثُمَّ ظَفِرَ فرامَ هواه أنْ يغلب عَقْلَهُ، وشَهْوَتُهُ أن تَقهرَ دِينَهُ، ثُمَّ أقام العدلَ لنفسه/ (١٢٧ب) حِصْنًا، وعَلِمَ أنَّها النَّفْسُ الأمارةُ بالسُّوء، وذكَّرها بعقاب الله ـ تعالى ـ، وفكَّر في اجترائه علىٰ خالقه وهو يراه، وحذَّرها من يوم المعَاد والوقوفِ بين يدي الملك العزيز الشَّديدِ العقاب الرَّحمٰن الرَّحيم الذي لا يحتاجُ إلى بينة، ونظر بعين ضميره إلىٰ انفراده عن كلِّ مُدَافِعٍ بحضرة علَّام الغيوب: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [الحجر: ٤٨] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] يومَ: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝﴾ [طه: ١١١] يومَ: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، يومَ: ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤]، ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا

سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازعات: ٣٥ ـ ٤١] واليوم الذي قال الله ـ تعالى ـ فيه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]/ (١٢٨أ) عندها يقولُ العاصي: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

فكيفَ بمن طُويَ قلبُه على أحرَّ من جَمْرِ الغَضا، وطُوي كَشْحُه علىٰ أحدَّ من السَّيْف، وتَجرَّع غُصَصًا أمرَّ من الحَنْظَلِ، وصَرَفَ نفسه كَرْهًا عمَّا طمعت فيه، وتَيَقَنَتْ بلوغَه، وتهيّأت له، ولم يحلْ دونها حائِلٌ؛ لحريٌّ[1] أن يُسَرَّ غدًا يومَ البَعْثِ، ويكونَ من المُقرَّبين في دار الجزاء وعالم الخلود، وأن يأمنَ روعاتِ القيامةِ، وهَوْلَ المطّلع، وأن يُعوِّضه الله عن هذه القرحة الأمنَ يومَ الحشر.

حدَّثني أبو موسىٰ هارون بن موسى الطَّبيب قال: رأيتُ شابًّا حَسَنَ الوجهِ من أهل قُرطبةَ قد تعبَّد ورَفَضَ الدُّنيا، وكانَ له أخٌ في الله قد سقطتْ بينهما مُؤْنة التَّحفُّظِ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده، فعَرَضَتْ لصاحِب المنزل حاجةٌ إلىٰ بعض معارفه بالبُعد عن منزله، فَنَهَضَ لها علىٰ أن ينصرفَ مُسْرِعًا، وتركَ الشابَّ في داره مع امرأته، وكانتْ غايةً في الحُسْنِ، وَتِرْبًا للضَّيف في الصِّبا، فأطالَ ربُّ المنزل المقام إلىٰ أن مَشىٰ العَسَسُ، ولم يُمكِنْهُ الانصرافُ إلىٰ منزله، فلمَّا علمتِ المرأةُ بفواتِ

(١) لحري: جواب «إن» قبل سطور كثيرة، حيث بدأ قوله في الفقرة: وإنَّ مَن هام قلبه... إلخ (ع).

(١٢٨ب) الوقتِ/ وأنَّ زوجها لا يُمْكِنُهُ المجيءُ تلك الليلة تاقتْ نفسُها إلىٰ ذلك الفتىٰ فبرزت إليه وَدَعَتْهُ إلىٰ نفسها، ولا ثالثَ لهما إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فهمَّ بها ثُمَّ ثَابَ إليه عقلُه، وفكَّرَ في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فوضعَ إصبعهُ علىٰ السِّراج، فتفقَّع، ثُمَّ قالَ: يا نَفْسِ! ذوقي هذا، وأين هذا من نار جهنَّم! فهالَ المرأةَ ما رأتْ، ثمَّ عاودته؛ فعادوته الشَّهْوةُ المركَّبة في الإنسان فعادَ إلىٰ الفِعْلة الأولىٰ، فانبلَجَ الصَّباح وسبّابته قد اصْطَلَمَتْها النَّار[١].

أفتظُنُّ بلغ هذا من نفسه هذا المبلغَ إلَّا لفرطِ شهوةٍ قد كَلُبَتْ عليه؟ أو تَرىٰ أنَّ الله ـ تعالى ـ يُضِيعُ له هذا المقام؟ كلَّا! إنَّه لأكرم من ذلك وأعلم.

ولقد حدَّثَتْني امرأةٌ ـ أَثِقُ بها ـ أنَّها عَلِقَها فتىً مِثْلُها في الحُسْنِ وعَلِقَتْهُ، وشاع القول عليهما، فاجتمعا يومًا خالِيَيْنِ، فقال: هَلُمِّي نُحَقِّقْ ما يُقالُ فينا. فقالتْ: لا والله! لا كانَ هذا أبدًا، وأنا أقرأ قول الله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]. قالتْ: فما مَضىٰ قَلِيلٌ حتَّىٰ اجتمعنا في حلالٍ[٢].

(١٢٩أ) ولقد حدَّثني ثِقةٌ من إخواني أنَّه خلا يومًا بجاريةٍ كانت له مُفَارِكًا[٣]/ في الصِّبا، فتعرضَتْ لبعضِ تلكَ المعاني، فقالَ لها: كلَّا! إنَّ مِنْ شُكْرِ

---

(١) قارن ـ مع تذكر الفرق ـ بين هذا وبين ما جاء في «ذم الهوى»: **٢٧٦** وروضة المحبين: **٤٦٠** وهي رواية إسرائيلية. انظر كذلك ص**٤٦٥** (ع).

(٢) انظر تزيين الأسواق **١**:**٩** حيث نقل الحكاية عن طوق الحمامة، وأشار إلى ذلك الدكتور الطاهر مكي، وكذلك وردت في ديوان الصبابة: **٢٠٨** وصرَّح هنالك باسم المصدر فقال: قال الحافظ أبو محمد الأموي؛ وانظر روضة المحبين: **٣٤٦** (ع).

(٣) في الأصل (معارك)، وعند برشيه: (معادلة) وترجمها بكونهما في سِنٍّ واحدة. وعند القاسمي: (مشاركة)، وعند الصيرفي ومكي و(ع) في طبعته الأول: (مفاركةً)، ونبَّه السامرائيُّ إلى أن الصواب: (مفارِكًا) وتبعه (ع) في طبعته الثانية. وفي «الصحاح» =

نِعْمة الله فيما مَنحني من وصالك الذي كانَ أقصىٰ آمالي أن أجتنبَ هوايَ لأَمْرِه.

ولَعَمْري! إنَّ هذا لغريبٌ فيما خلاَ من الأزمان، فكيفَ في مِثْلِ هذا الزَّمان الذي قد ذَهَبَ خَيْرُهُ، وأتىٰ شَرُّهُ!؟

وما أُقدِّرُ في هذه الأخبار ـ وهي صَحِيحَةٌ ـ إلَّا أحدَ وجهين لا شَكَّ فيهما:

إمَّا طَبْعٌ قد مالَ إلىٰ غير هذا الشَّأْنِ، واستحكمتْ معرفتُهُ بفضلِ سواه عليه، فهو لا يُجيبُ دواعيَ الغَزَلِ في كلمةٍ ولا كلمتَيْنِ، ولا في يومٍ ولا يومَيْنِ، ولو طالَ علىٰ هؤلاءِ المُمْتَحَنِينَ ما امْتُحِنُوا به لجادت[1] طباعُهم، وأَجابوا هاتِفَ الفتنة، ولكنَّ الله عَصَمَهُمْ بانقطاع السَّبَبِ المحرِّك؛ نظرًا لهم، وعلمًا بما في ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح، واستدعاء الرُّشْد، لا إله إلا هو.

وإمَّا بصيرةٌ حَضَرتْ في ذلك الوَقْتِ، وخاطرٌ تجرَّدَ انْقَمَعَتْ به طوالعُ الشَّهوة في ذلك الحين، لخيرٍ أراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لصاحبه، جعلنا الله مِمَّنْ يخافه ويرجوه، آمين.

وحدَّثني أبو عبدِ الله محمَّد بن عمر بن مضا[2]، عن رجالٍ من بني/ مروان ـ ثقاتٍ ـ يُسْنِدُونَ الحديثَ إلىٰ أبي العباس الوليدِ بن (١٢٩ب)

= (مادة: فرك): الفِرْك: البغض. فَرِكت المرأةُ زوجها تفركه فَرْكًا: أي: أبغضه، فهي فروك وفارك، وكذلك فركها زوجها.

(١) قرأها (ع): لَحُلَّتْ.

(٢) محمد بن عمر بن مضا، كان من أهل الأدب مشهورًا بالفضل (الجذوة: ٧٢ والبغية رقم: ٢٢٥) (ع).

غانم[1] أنَّه ذكر أنَّ الإمامَ عبدَ الرحمٰن بن الحكم غابَ في بعض غزواته شُهُورًا، وثقَّف القَصْرَ بابنه محمَّدٍ[2] ـ الذي وَليَ الخلافةَ بعده ـ ورتَّبه في السَّطْح، وجعل مَبيتَهُ ليلًا وقعوده نهارًا فيه، ولم يأذنْ له في الخروج البَّتةَ، ورتَّبَ معه في كلِّ ليلةٍ وزيرًا من الوزراء وفتىً من أكابر الفتيان يبيتان معه في السَّطْح. قال أبو العبَّاس: فأقام على ذلك مدَّةً طويلةً، وَبَعُدَ عهدُهُ بأهله، وهو في سِنِّ العشرين أو نحوها إلى أنْ وافق مبيتي في ليلتي نوبةَ فتىً من أكابر الفتيان، وكان صغيرًا في سِنِّه، وغايةً في حُسْنِ وجهه. قال أبو العبَّاس: فقلتُ في نفسي: إنِّي أخشىٰ الليلةَ على محمَّد بن عبد الرحمٰن الهلاكَ بمُواقعةِ المعصية، وتزيين إبليسَ واتِّباعه له. قال: ثُمَّ أخذتُ مَضْجَعي في السَّطْح الخارج، ومحمَّد في السَّطْح الدَّاخل المطلِّ على حُرَم أمير المؤمنين، والفتىٰ في الطَّرف الثَّاني القريب من المطلع، فظَلَلْتُ أرقبه ولا أغفلُ، وهو يظنُّ أنِّي قد نِمْتُ ولا يشعرُ باطِّلاعي عليه، قالَ: فلمَّا مضىٰ هزيعٌ من اللَّيل رأيتُهُ (١٣٠أ) قد قام واستوىٰ قاعدًا ساعةً لطيفةً، ثم تعوَّذَ/ من الشيطان ورَجَع إلىٰ منامه، ثم قام بعدَ حينٍ، ولَبِسَ قميصَه واستوفَرَ، ثمَّ نزعه عن نفسه، وعادَ إلىٰ منامه، ثم قام الثَّالثةَ، ولَبِسَ قميصهُ، ودلَّى رِجْلَيْه من السَّرير،

---

(١) وليد بن عبد الرحمٰن بن عبد الحميد بن غانم: ذكره ابن الأبار (الحلّة ١:١٦٢) في ترجمة ابنه عبد الرحمٰن فقال «وولي وليد للأمير محمد بن عبد الرحمٰن خطتي الوزارة والمدينة وقاد جيش الصائفة الذي قدم عليه ابنه عبد الرحمٰن وكان عدده عظيمًا» ثم ترجم له مستقلًا (٢:٢٧٤) فأضاف: «وكان كاتبًا أديبًا مرسلًا بليغًا... وتوفي سنة ٢٧٢» وأخباره في المقتبس (تحقيق الدكتور محمود مكي ط. بيروت) وللمحقق تعليقات ضافية عنه وعن أسرته ص: ٤٤٩، ٥٤١ إلا أن ابن حيان جعل وفاته سنة ٢٩٢ (والخطأ بين الرقمين سبعة وتسعة قديم) (ع).

(٢) الأمير عبد الرحمٰن بن حكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ) وابنه محمد بن عبد الرحمٰن (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ).

وبقيَ كذلك ساعةً، ثُمَّ نادىٰ الفتىٰ باسمه فأجابه، فقال له: انزلْ عن السَّطْح وابقَ في الفَصِيل[1] الذي تحته. فقام الفتى مؤتمرًا له. فلمَّا نزل قام محمَّدٌ، وأغلق البابَ من داخله وعاد إلىٰ سريره. قال أبو العباس: فعلمتُ من ذلك الوقت أنَّ لله فيه مُرَادَ خيرٍ.

حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن الجسور، عن أحمد بن مطرِّف، عن عُبَيْد الله بن يحيىٰ، عن أبيه، عن مالك[2]، عن خُبَيْب بن عبد الرحمٰن الأنصاريِّ، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنَّه قالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّه يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ورَجُلٌ قلبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَسْجِدِ إذا خَرَجَ مِنْهُ حتَّىٰ يَعُودَ إليه، ورَجُلانِ تحابَّا في الله اجْتَمَعا علىٰ ذلك وتفرَّقا، ورَجُلٌ ذَكَرَ الله خاليًا ففاضتْ عيناه، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذاتُ حَسَبٍ وجَمالٍ، فقالَ: إنِّي أخافُ الله./ ورجلٌ تَصَدَّقَ صَدَقَةً فأخفىٰ[3] حتَّىٰ لا تعلمَ شمالُهُ ما تنفقُ يمينُهُ**». (١٣٠ب)

وإنِّي لأَذْكُرُ أنِّي دعيتُ إلىٰ مجلسٍ فيه بعضُ من تَسْتَحْسِنُ الأبصارُ صوُرَتَهُ، وتَأْلَفُ القلوبُ أخلاقه؛ للحديث والمجالسة دونَ منكرٍ ولا مَكْروُهٍ، فسارعتُ إليه ـ وكانَ هذا سَحَرًا ـ فبَعْدَ أن صَلَّيْتُ الصُّبحَ،

(١) الفصيل في فن المعمار عند الأندلسيين يقابل (Vestibulum) في المباني الرومانية ويجمع على فصلان؛ ويتردّد ذكره كثيرًا في المصادر الأندلسية، وفي المقتبس (نشر أنطونية): ٧٤ وأصعد غلمانه وغلمان الولد على سقف الفصيل؛ وانظر ملحق دوزي ٢: ٢٧٢.

(٢) في: «الموطّأ» (١٧٧٧)؛ وفيه: عن أبي سعيد الخدري أو عن أبي هريرة. والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) في: «الموطّأ»: بصَدَقةٍ فأخفاها.

وأخذتُ زِيِّي، طَرقني فِكْرٌ فسَنَحَتْ لي أبياتٌ، ومَعي رَجُلٌ من إخواني، فقالَ لي: ما هذا الإِطراقُ؟ فلم أجبْهُ حتَّىٰ أكملتها، ثم كتبتها ودفعتها إليه، وأمسَكْتُ عن المسير، حيثُ كنتُ نَوَيْتُ. ومن الأبيات: [من الطويل]

أراقكَ[1] حُسْنٌ غيبُهُ لَكَ تَأْرِيقُ[2] ... وتبريدُ وَصْل سِرُّهُ فيك تَحْريقُ

وقربُ مَزار يَقتضي لَكَ فُرْقةً ... وشيكًا[3] ولولا القُرْبُ لم يكُ تفريق

ولذَّةُ طَعْمٍ مُعقِّبٍ لَكَ عَلقمًا ... وصابًا[4] وفَسْحٌ في تضاعيفهِ ضِيقُ

ولو لَمْ يكن جزاءٌ، ولا عقابٌ، ولا ثواب؛ لوجب[5] علينا إفناءُ الأعمار، وإتعابُ الأبدان، وإجهاد الطَّاقة، واستنفادُ الوُسْع، واستفراغ القُوة؛ في شُكْرِ الخالق الذي ابتدأنا بالنِّعَم قبل استِئْهالها[6]، وامتنَّ علينا بالعَقْلِ/ الذي به عرفناه، ووهبنا الحواسَّ والعلمَ والمعرفةَ ودقائقَ (١٣١أ)

---

(١) أعجبك؟ (الحربي)

(٢) من الأرق، وهو السهر. (الحربي)

(٣) أثبتها (ع): وشكًا.

(٤) شجر مرُّ الطعم. (الحربي)

(٥) علَّق العلامة أبو عبد الرحمٰن ابن عقيل الظاهري على هذا بقوله: إن كان الموجب العقل؛ فذلك أصل الخلاف مع المعتزلة، وشكر المنعِم من مقتضيات العقل لأنه من محاسن الأخلاق. أمَّا تعيين ما يكون به الشُّكر فلا يُعرف إلا بالشَّرع.
والله لم يوجب على الخلق شيئًا بغير شرع هادٍ مبينٍ، فسقط عن الخلق ـ بفضل الله ـ ما يترتَّب على مخالفة مقتضى العقلِ من عقابٍ؛ إلا أن يكون مقتضى العقل تحقيق شرع مُلْتَبِسٍ في فترةٍ من الرُّسل، فصدَّ الناسُ عنه اتباعًا للهوى.
وأيضًا: فربُّنا مَنَّ علينا بأن رتَّب على الشكر الثَّوابَ، وعلى الكفر العقابَ، وإذن فلا داعي لقول أبي محمَّدٍ: «ولو لم يكن جزاء.... إلخ». (كيف يموت العشَّاق: ص١٨٧).

(٦) أي قبل أن نكون لها أهلًا؛ كما قال أبو عبد الرحمٰن الظاهري (كيف يموت العشاق: ١٨٨).

الصِّناعات، وصرَّف لنا السَّموات جاريةً بمنافعها، ودبَّرنا التدبيرَ الذي لو مَلَكْنا خَلْقَنَا لم نهتد إليه، ولا نظرنا لأنفسنا نَظَرَهُ لنا، وفضَّلنا على أكثر المخلوقات، وجعلنا مستودَع كلامِهِ ومستقرَّ دينه، وخلَقَ لنا الجنَّةَ دونَ أن نستحقَّها، ثُمَّ لم يرضَ لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكونَ واجبةً لهم، قال الله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وَرَشَدَنَا إلىٰ سبيلها، وبصَّرنا وَجْهَ طلبها[1]، وجعل غاية إحسانِهِ إلينا وامتنانِهِ علينا حقًّا من حقوقنا قِبَلَهُ، وَدَيْنًا لازمًا له، وشكرنا على ما أعطانا من الطَّاعة التي رزقنا قواها، وأثابنا بفضله على تفضُّله؛ هذا كَرَمٌ لا تهتدي إليه العقولُ، ولا يمكن أن تكيِّفه الألباب.

ومن عرف رَبَّه ومقدارَ رضاه وسخطه هانتْ عنده اللَّذاتُ الذَّاهبة، والحطامُ الفاني، فكيفَ وقد أتىٰ مِنْ وعيده ما تقشَعِرُّ لسَمَاعِهِ الأجساد، وتذوبُ له النُّفوس، وأوردَ علينا من عذابه ما لم يَنْتَهِ إليه أَمَلُ آمِلٍ؛ فأينَ/ (١٣١ب) المذهبُ عن طاعةِ هذا المَلِكِ الكريم، وما الرَّغبةُ في لذةٍ ذاهبةٍ لا تذهب النَّدامةُ عنها، ولا تفنى التِّباعةُ منها، ولا يزولُ الخِزْيُ عن راكبها، وإلى كم هذا التَّمادي وقد أسمعَنا المنادي؟! وكأنْ قد حدا بنا الحادي إلى دار القرار، فإمَّا إلى جَنَّةٍ وإمَّا إلى نار. ألا إنَّ التثبُّطَ في هذا المكان لهو الضَّلالُ المبينُ، وفي ذلك أقول[2]: [من المنسرح]

أَقْصَرَ عن لَهْوِهِ وعن طَرَبِه ... وعَفَّ في حُبِّه وفي عُرِبِه[3]

فليس شربُ المدام هِمَّتَهُ ... ولا اقتناصُ الظِّباء من أَرَبِه

---

(١) هكذا قرأها العلامة شاكر، وفي الأصل: ظلها.

(٢) يعارض ابن حزم بهذه القصيدة (على سبيل التمحيص) قصيدة لأبي تمّام. انظر: «ديوانه» ١/٢٩٦ (ع).

(٣) أثبتها (ع): غَرِبِه.

قد آنَ للقلب أن يُفيقَ وأن   يُزيلَ ما قد عَلاه من حُجُبِه
ألهاهُ عمَّا عهدتُ يُعجبُهُ   خيفةُ يومٍ تُبلَى السَّرائر بِه[1]
يا نفسُ جِدِّي وشمِّري ودعي   عنكِ اتِّباعَ الهوى على لَغَبِه[2]
وسارعي في النَّجاةِ واجتهدي   ساعيةً في الخلاصِ من كُرَبِه
عَلِّيَ أحظَىٰ بالفوزِ فيه وأن   أنجوَ من ضِيقه ومن لَهَبِه
يا أيُّها اللاعبُ المُجدُّ به الـ   دَّهرُ أما تتَّقي شَبَا نَكَبِه[3]
كفاكَ من كلٍّ ما وُعظتَ به   ما قد أراكَ الزَّمانُ من عَجَبِه
(١٣٢أ) دعْ عنكَ دارًا تفنى غَضارتُها[4]   ومَكسبًا لاعبًا بمُكْتَسِبِه/
لم يَضطربْ في مَحَلِّها أحدٌ   إلا نبا حدُّها بمُضْطَربِهِ
من عَرَفَ الله حقَّ معرفةٍ   لوى وحَلَّ الفؤاد في رَهَبِه
ما مُنقضي الملكِ مثل خالده   ولا صَحيحُ التقىٰ كمُؤتشِبِه[5]
ولا تقيُّ الورىٰ كفاسِقهم   وليس صِدْقُ الكلام من كذبِه
فلو أَمِنَّا من العقاب ولم   نَخشَ من الله مُتقى غَضبِه
ولم نَخفْ نارَه التي خُلِقَتْ   لكل جانِي الكلام مُحْتَقِبِه
لكان فَرضًا لُزومُ طاعتِه   وَرَدُّ وَفْدِ الهوى على عَقِبِه
وصحَّة الزُّهد في البَقاء وأن   يَلحقَ تَفنيدنا بمُرتقِبِه

(١) من الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩].
(٢) اللَّغَبُ واللّغوب: الإعياء. (الحربي)
(٣) نكبه الدهر نكْبًا ونكَبًا: أصابه بنكبةٍ. (الحربي)
(٤) سعة عيشها. (الحربي)
(٥) المؤتشب: المختلط غير الصريح؛ وقارن به قول أبي تمام:
ما سجسج الشوق مثل جاحمه   ولا صريح الهوى كمؤتشبه

فقد رأينا فعلَ الزمان بأهـ ... ليه كفعل الشُّواظِ في حَطَبِهِ

كم مُتْعِبٍ في الإلٰه مُهْجَتَه ... راحتهُ في الكَرِيهِ[1] من تَعَبِه

وطالبٍ باجتهاده زَهَرَ[2] الـ ... دُّنيا عَداه المَنونُ عن طَلَبِه

ومُدركٍ ما ابتغاه ذي جَذَلٍ ... حلَّ به ما يَخاف من سَبَبِه

وباحثٍ جاهدٍ لبُغيته ... فإنَّما بحثُه على عَطَبِه

بينا تَرى المَرءَ ساميًا مَلِكًا ... صار إلى السُّفْلِ من ذُرَىٰ رتبِه

كالزَّرع للرّجل فوقه عملٌ ... إنْ يَنْمُ حُسْنُ النُّمو في قَصَبِه/ (١٣٢ب)

كم قاطع نفسَه أسىً وشَجًا ... فِي إثرِ جدٍّ يجدُّ في هَرَبِه

أليس من[3] ذاكَ زاجرٌ عَجَبٌ ... يزيدُ ذا اللُّبِّ في حُلَى أدبِه

فكيف والنَّار للمُسيء إذا ... عاج عن المُستقيم من عَقبِه

ويوم عرْضِ الحساب يفْضحُه الـ ... لَّه ويُبدي الخفيَّ من رِيَبِه

من قد حَباه الإلٰهُ رحمتَه ... موصولةً بالمَزيد من نَشَبِه[4]

فصار من جهله يصرِّفها ... فيما نهىٰ الله عنه في كتبِه

أليس هذا أحرىٰ العبادِ غدًا ... بالوقْع في ويله وفي حَرَبِه

شكرًا لربٍّ لطيفُ قدرتِهِ ... فينا كحبلِ الوَريد في كَثَبِه[5]

---

(١) (في الإله) عن (ع)، وفي (خ): للإله. و(الكريه) أثبتها (ع): الكريم.

(٢) في بعض النسخ: «زَهْرَة» وهو أوفق، لمناسبة لفظ القرآن، وكلا اللفظين في الوزن صحيح، لكن مع فتح الهاء في «زهَر» وإسكانها في «زهرة». (الحربي)

(٣) خ: في. وما أثبته فعن (ع).

(٤) في الأصل: «نِعَمِه»، وما أثبته فعن القاسمي و(ع) و(مكي) وغيرهم. والنَّشب: المال وكل ما يُملك من متاع متنقل أو ثابت في الأرض.

(٥) قربه. (الحربي)

رازِق أهـل الـزَّمـان أجـمـعـهـم   مَنْ كـان مَـن عُـجـمـه ومِـن عَـرَبِـه
والـحـمـدُ لله فـي تـفـضُّـلـه   وقَـمـعـه لـلـزَّمـان فـي نُـوَبِـه[1]
أخـدمـنـا الأرضَ والـسـمـاءَ ومـن   فـي الـجـوِّ مـن مـائـه ومـن شُـهُـبِـه
فـاسـمـع ودَعْ مَـن عـصـاه نـاحـيـةً   لا يـحـمـل الـحـملَ غيرُ مُحْتَطِبِه

وأقول ـ أيضًا ـ: [من الطويل]

أعـارَتْـكَ دنـيـا مُـسْـتَـرَدٌّ مَـعـارُهَـا   غَضَارَةَ عيشٍ سوف يذوي اخضرارُها
(١٣٣أ) وهل يتمنَّى المُحكَمُ الرَّأي عيشةً   وقد حان من دُهْمِ المنايا مَزارها/
وكيف تلذُّ العينُ هجعةَ ساعةٍ   وقد طالَ فيما عايَنَتْهُ اعتبارُها
وكيف تَقَرُّ النَّفسُ في دار نُقلةٍ   قد استيقَنتْ أنْ ليسَ فيها قَرارها
وأنَّى لها في الأرضِ خاطرُ فكرةٍ   ولم تَدْرِ بعد الموت أين مَحارها[2]
أليس لها في السَّعي للفوز شاغلٌ   أما في توقِّيها العذابَ ازدجارها
فخابتْ نفوسٌ قادها لهوُ ساعةٍ   إلى حرِّ نارٍ ليس يُطْفَىٰ أُوارها
لها سائقٌ حادٍ حثيثٌ مُبادرٌ   إلى غير ما أضحىٰ إليه مدارُها
تُرادُ لأمرٍ وهي تَطلبُ غيرَهُ   وتقْصِدُ وجهًا في سواهُ سِفارُها
أمُسْرِعَةٌ فيما يَسوءُ قيامُها   وقد أيقنتْ أنّ العذابَ قُصارُها
تُعطِّلَ مَفْرُوضًا وتَغنَىٰ[3] بفَضْلةٍ   لقد شفَّها طُغيانها واغترارُها
إلىٰ ما لها منه البلاءُ سكونُها   وعمّا لها منه النَّجاحُ نِفارُها

---

(١) النُّوَب: المصائب والنوازل. (الحربي)

(٢) مرجعها. (الحربي)

(٣) هكذا أثبتها بتروف، وفي الأصل مضبوطة: (وتُعنىٰ).

وتُعْرِضُ عن ربٍّ دعاها لرُشْدها | وتَتْبَعُ دُنيا جدَّ عنها فِرارها
فيا أيُّها المَغرورُ بادِرْ برَجْعَةٍ | فللَّه دارٌ ليس تَخْمَدُ نارها
ولا تتخيَّرْ فانيًا دون خالدٍ | دليلٌ على محضِ العُقول اختيارُها
أتعلم أنَّ الحقَّ فيما تركتَهُ | وتسلكُ سُبْلًا ليس يخفَىٰ عوَارُهَا
وتتركُ بيضاءَ المناهج ضِلَّةً | لبهماءَ يُؤذي الرِّجْلَ فيها عِثارها
تُسَرُّ بلهوٍ مُعْقَبٍ بندامةٍ | إذا ما انقضى لا ينقضي مستشارها/ (١٣٣ب)
وتفنَىٰ الليالي والمَسَّراتُ كلُّها | وتبقى تِباعاتُ الذُّنوب وعارها
فهل أنت يا مَغبونُ مُستيقظٌ فقدْ | تبيَّنَ من سِرِّ الخطوب استتارُها
فعجِّلْ إلىٰ رضوانِ ربِّك واجتنبْ | نواهيَهُ إذ قد تجلَّىٰ منارُها
يَجِدُّ مُرورُ الدَّهر عنك بلاعبٍ | وتُغْرىٰ بدُنيا ساء فيك سِرارها[1]
فكم أُمَّةٍ قد غَرَّها الدَّهرُ قبلنا | وهاتيك منها مُقفراتٌ ديارها
تذكَّرْ علىٰ ما قد مضىٰ واعتبرْ به | فإن المُذَكِّي للعقولِ اعتبارها
تَحامَىٰ ذُراها كلُّ باغٍ وطالبٍ | وكان ضمانًا في الأعادي انتصارُها
توافتْ ببطن الأرضِ وانْشَتَّ شملها | وعاد إلىٰ ذي ملكِه مستعارها[2]
وكم راقدٍ في غفلةٍ عن منيَّةٍ | مشمِّرةٍ في القصْدِ وهو شعارها[3]
وَمظْلمةٍ قد نالها متسلّطٌ | مُدِلٌّ[4] بأيدٍ عند ذي العرش ثارُها
أراكَ إذا حاولتَ دُنياك ساعيًا | علىٰ أنَّها بادٍ إليك ازْورارها

(١) السِّرار: له معان، منها: السرار ضد الجهر، وسرار الشهر: التي يختفي الهلال آخر الشهر، ولعله المراد هنا، والمعنىٰ: ساء فيك ختامها. (الحربي)
(٢) خ: استعارها.
(٣) هذه قراءة (ع)، وفي الأصل: سُعَارها.
(٤) أدلَّ عليه: وثق بمودَّته فأفرط عليه. (الحربي)

وفي طاعةِ الرَّحمٰن يُقْعِدكَ الوَنَى وتبدي أناةً لا يصِحُّ اعتذارها
تُحاذرُ أحزانًا ستفنىٰ وتنقضي وتنسىٰ الَّتي فَرْضٌ عليك حِذارها
(١٣٤أ) كأنِّي أرىٰ منك التبرُّمَ ظاهرًا مُبينًا إذا الأقدارُ حَلَّ اضطرارها/
هناك يقولُ المرءُ: من لي بأعصرٍ مضتْ كان مِلْكًا في يديَّ خيارها
تنبَّهْ ليومٍ قد أظلَّك وِرْدُهُ عصيبٍ يوافي النَّفسَ فيه احتضارها
تبرَّأ فيه منكَ كلُّ مخالطٍ وآنَ من الآمالِ فيه انهيارها
فأُودِعْتَ في ظلماءَ ضنْكٍ مقرُّها يلوح عليها للعيون اغبرارها
تُنادىٰ فلا تَدْري المناديَ مُفْرِدًا وقد حُطَّ عن وَجْهِ الحياةِ خِمارُها
تُنادىٰ إلىٰ يومٍ شديدٍ مُفَزِّعٍ وسَاعةِ حَشْرٍ ليس يَخْفىٰ اشْتِهارُها
إذا حُشرتْ فيه الوُحوشُ وَجُمِّعَتْ صحائفُنا وانثالَ فينا انتشارها[١]
وزُيِّنَتِ الجنَّاتُ فيه وأُزْلِفتْ[٢] وأُذكيَ من نار الجحيم استعارها
وكُوِّرتِ الشَّمسُ المنيرةُ بالضُّحىٰ[٣] وأسْرَعَ من زُهر النُّجوم انكدارُها[٤]
لقد جلَّ أمرٌ كان فيه انتظامها وقد حلَّ أمرٌ كان منه انتثارها
وسيِّرتِ الأجبالُ والأرضُ بُدِّلَتْ[٥] وقد عُطِّلَتْ من مالكيها عِشارها[٦]
فإمَّا لدارٍ ليس يَفْنَىٰ نَعيمُها وإمَّا لدارٍ لا يُفَكُّ إسارها
بحضرةِ جبَّارٍ رفيقٍ مُعاقبٍ فَتُحْصَىٰ المعاصي كُبْرُهَا وصغارُها

---

(١) مشير إلى الآية الكريمة ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠] وفي بعض الطبعات: انتثارها؛ وقافية «انتثارها» ستأتي بعد بيتين.
(٢) ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ [التكوير: ١٣].
(٣) ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١].
(٤) ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ٢].
(٥) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التكوير: ٣].
(٦) ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ [التكوير: ٤].

ويندمُ يومَ البعثِ جاني صغارِهَا وتُهْلِكُ أهليها هناك كبارها

سَتُغْبَطُ أجسادٌ وتحيا نفوسها إذا ما استوىٰ إسرارُهَا وجهارُها/ (١٣٤ب)

إذا حفَّهم عفوُ الإلٰهِ وفضلُهُ وأسكنهم دارًا حَلالًا[1] عُقارُها

سيلحقهم أهلُ الفسوق إذا استوىٰ بحَلْبةِ سَبْقٍ طِرْفُها وحمارُها[2]

يفرُّ بنو الدُّنيا بدُنياهُم التي يُظَنُّ على أهل الحظوظِ اقتصارُها

هي الأمُّ خيرُ البرِّ فيها عقوقُها وليس بغير البذل يُحمَىٰ ذمارُها

فما نال منها الحظَّ إلا مُهينها وما الهُلْكُ إلا قُربها واعتمارها

تهافتَ فيها طامعٌ بعد طامعٍ وقد بان للُّبِّ الذكيِّ اختبارها

تطامنْ لغمْرِ الحادثاتِ ولا تكنْ لها ذا اعتمار يَجتنبك غِمَارها[3]

وإيَّاك أن تغتر منها بما ترى فقد صَحَّ في العقلِ الجليِّ عيارها

رأيتُ مُلوكَ الأرضِ يبغون عُدّةً ولذَّةَ نفسٍ يُستطابُ اجترارها

وخَلَّوْا طريقَ القصد في مُبتغاهُم لمعقبةِ الصِّغار[4] جَمٍّ صَغَارها[5]

وإن التي يَبغون نهْجَ بقيَّةٍ[6] مكينٌ لطُلاَّب الخلاصِ اختصارها

هل العزُّ إلا هِمَّةٌ صحَّ صَونُها إذا صان هِمَّاتِ الرِّجالِ انكسارها

وهل رابحٌ إلا امرؤٌ متوكِّلٌ قنوعٌ غنيُّ النَّفسِ بادٍ وَقارها

---

(١) خ: حلالٌ.

(٢) أي: أن أهل الفسوق لن يلحقوهم، لأن الحمار لا يدرك الجواد في حلبة السباق (ع).

(٣) شدائدها. (الحربي)

(٤) تقرأ في الأصل: لمتبعه الصفار. وما أثبته فعن (ع).

(٥) ذُلُّها. وفي البيت زحاف بالقبض في جزئه السادس، يحسبه من لم يتمرَّس علم الشعر أن به خللًا في الوزن. ونظيره موجود في شعر الجاهليين وغيرهم. (الحربي)

(٦) هكذا في (خ)، وبتروف، ومكي. وجعلها (ع): نهجُ لغيَّةٍ.

ويلقىٰ ولاةُ الملكِ خوفًا وفكرةً ‏ تضيقُ بها ذَرعًا وَيفنَىٰ اصطبارها

(١٣٥أ) عيانًا نرىٰ هذا ولكنَّ سكرةً ‏ أحاطت بنا ما إن يُفيقُ خُمارها[١] /

تدبَّرْ مَن الباني على الأرض سَقْفَها ‏ وفي عِلمه معمورها وقفارها[٢]

ومن يمسكُ الأَجرامَ والأرضَ أمرُهُ ‏ بلا عَمَدٍ يُبنى عليه قرارها

ومن قَدَّر التدبيرَ فيها بحكمةٍ ‏ فصحَّ لديها ليلُها ونهارها

ومن فَتق الأمواهَ في صَفْح وجهها ‏ فمنها تغذَّىٰ حَبُّها وثمارها

ومن صيَّرَ الأَلوانَ في نَوْرِ نبْتِها ‏ فأشرق فيها وَردُها وبَهارُها

فمنهنَّ مخضرٌّ يَرُوقُ بَصيصُهُ ‏ ومنهنَّ ما يَغشىٰ اللِّحاظَ احمرارها

ومَنْ حَفَرَ الأنهارَ دونَ تكلُّفٍ ‏ فثار من الصُّمِّ الصِّلاب انفجارُها

ومن رتَّب الشمسَ المنيرَ ابيضاضُها ‏ غدوًّا ويبدو بالعشيِّ اصفرارُها

ومن خَلَقَ الأفلاكَ فامتدَّ جَريُها ‏ وأحكمها حتَّى استقامَ مَدارها

ومَن إن ألمَّتْ بالعُقولِ رزيَّةٌ ‏ فليس إلى حيٍّ سواهُ افتقارها

تَجِدْ كلَّ هذا راجعًا نحو خالقٍ ‏ له مُلكها مُنقادةً وائتمارُها

أبانَ لنا الآياتِ في أنبيائِهِ ‏ فأمكن بعد العَجْز فيها اقتدارُها

فأنطَق أفواهًا بألفاظِ حِكمةٍ ‏ وما حَلَّها إثغارُها واتِّغارُها[٣]

---

(١) سُكْرها. (الحربي)

(٢) في هذا البيت وأبيات تليه ينظر إلى الآيات (٢ ـ ٤) من سورة الرَّعد، كما فعل من قبل في آيات سورة التكوير.

(٣) أخذ في هذا البيت والذي يليه يعدِّد المعجزات التي جاء بها الأنبياء ككلام عيسى في المهد وناقة صالح وشق البحر لموسى ونار إبراهيم وطوفان نوح والتمكين لداود وسليمان، والقرآن لمحمد ﷺ وشق البدر.. إلخ (ع).
قلت: «واتغارها»: اثَّغر الصَّبي: إذا نبتت أسنانه بعد سقوطها، وكذلك: اتَّغر، والمصدر: الاثِّغار والاتِّغار.

وأبـرزَ مـن صُـمِّ الـحِـجـارةِ نـاقـةً ... وأسمعهم في الحين منها خُوارُها

لـيـوقـنَ أقـوامٌ وتـكـفُـرَ عُـصـبـةٌ ... أتـاهـا بـأسـبـاب الـهـلاك قُدَارهـا[1]

وشـقَّ لـمُـوسـى الـبـحـرَ دون تـكـلُّـفٍ ... وبـان مـن الأَمـواجِ فـيـه انـحـسـارُهـا/ (١٣٥ب)

وسـلَّـمَ مـن نـار الأَتُـونِ[2] خـلـيـلَـهُ ... فـلـم يُـؤذِهِ إحـراقُـهـا واحـتـرارهـا[3]

ونجَّىٰ من الطُّوفان نوحًا وقد هدىٰ ... بـه أُمـةً[4] أبْـذَىٰ الـفـسـوقَ شِـرارُهـا

ومـكَّـن داودًا بـأيْـدٍ وابـنَـهُ ... فـتـعـشـيـرهـا مُـلـقـىً لـه وبِـذارُهـا[5]

وذلَّـلَ جـبَّـارَ الـبـلادِ لأمـرهِ ... وعُـلِّـم مـن طـيـر الـسَّـمـاء حِـوارهـا

وفـضَّـل بـالـقـرآنِ أمَّـةَ أحـمـدٍ ... ومكَّـن في أقصىٰ الـبلاد مَغارهـا

وشـقَّ لـه بـدرَ الـسـمـاء وخَـصَّـه ... بـآيـاتِ حـقٍّ لا يُـحِـلُّ مُـغـارهـا[6]

وأنـقـذنـا مـن كُـفـر أربـابـنـا بـه ... وكان علىٰ قطب الهلاك مدارها[7]

فـمـا بـالـنـا لا نـتـرُك الـجـهـلَ ويْـحَـنـا ... لـنـسـلـمَ مـن نـارٍ تـرامَـىٰ شَـرارُهـا

---

(١) يعني: قدار بن سالف، عاقر الناقة. (ع).

(٢) الأتّون ـ كتنُّور ـ: الموقِر، وتخفُّف تاؤه؛ ونسب الجوهريُّ التخفيف إلى العامة، ولا بدَّ من تخفيفه هنا. (الحربي)

(٣) احترارها: التهابها؛ وفي بعض الطبعات: واعترارها، ولا معنى له (ع). قلت: وما في الطبعات موافق للمخطوط.

(٤) خ: هدتْ به أمةٌ.

(٥) تعشيرها: أخذ العشر منها، والبذار: الحَب الذي يُبذر، أي له زرع الأرض وجني حصادها؛ وفي الأصل: فتعسيرها ـ بالسين المهملة ـ، ولذلك قرأ برشيه «ويسارها» ليتطابق اليسر مع العسر.

(٦) المغار: الحبل المفتول، أي أنها آيات محكمات لا تنقض، وفي الأصل «معارها» بالعين المهملة والظاهر أنه خطأ.

(٧) في بعض الطبعات منارها؛ ولا معنى له (ع). قلت: وما في الطبعات موافق للمخطوط.



[خاتمة]

هنا ـ أعزَّكَ الله ـ انتهىٰ ما تذكَّرْتُه إيجابًا لكَ، وتقمُّنًا[1] لمسَرَّتِكَ، ووقُوفًا عند أمرك، ولم أمتنع أن أوردَ لك في هذه الرسالة أشياءَ يذكرها الشُّعراءُ ويكثرون القولَ فيها، مُوفَياتٍ علىٰ وجوهها، ومفرَداتٍ في أبوابها، ومنعمات التَّفسير؛ مثل الإِفراط في صِفَةِ النُّحول، وتشبيه الدُّموع بالأمطار، وأنَّها تروي السُّفَّار، وعدم النَّوم البتَّةَ، وانقطاع الغذاء جُمْلةً؛ إلا أنَّها (١٣٦أ) أشياءُ/ لا حقيقةَ لها[2]، وكَذِبٌ لا وَجْهَ له، ولكلِّ شيءٍ حَدٌّ، وقد جعلَ الله لكلِّ شيءٍ قدرًا.

والنُّحولُ قد يَعْظُمُ ولو صار حَيْثُ يصفُونَهُ لكانَ في قَوامِ الذَّرَّةِ أو دونها، ولخَرَجَ عن حدِّ المعقول.

والسَّهَرُ قد يَتَّصِلُ لياليَ، ولكن لو عَدِمَ الغذاءَ أسبوعَيْن لهَلَكَ. وإنَّما قلنا إنَّ الصَّبْرَ عن النَّوْم أقلُّ من الصَّبْر عن الطَّعام لأنَّ النَّوم غذاءُ الرُّوح، والطَّعامَ غذاء الجسد، وإن كانا يشتركان في كليهما، ولكنّا حكينا

---

(١) تقمن المسرة: تحريها وتوخيها (ع).

(٢) يريد: ولم يمنعني من إيراد هذه الأشياء إلا أنها أشياء لا حقيقة لها (ع).

علىٰ الأغلب. وأمَّا الماءُ فقد رأيتُ ـ أَنَا ـ مَيْسُورًا البنَّاءَ ـ جارنا بقرطبة ـ يصبرُ عن الماء أسبوعَيْن في حمارَّةِ القَيْظِ، ويكتفي بما في غذائه من رُطُوبه.

وحدَّثني القاضي أبو عبد الرحمٰن بن جَحَّافُ أنَّه كانَ يعرفُ من كانَ لا يشربُ الماء شَهْرًا.

وإنَّما اقتصرتُ في رسالتي علىٰ الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجودُ سواها أصْلًا، وعلىٰ أنِّي قد أوردتُ من هذه الوجوه المذكورة أشياءَ كثيرةً؛ يكتفىٰ بها لِئَلَّا أخرجَ عن طريقة أهل الشِّعر ومذهبهم.

وسيرىٰ كثيرٌ من إخواننا أخبارًا لهم في هذه الرِّسالة مكنيًّا فيها عن أَسْمائهم علىٰ ما شرطنا في ابتدائها.

وأنا أستغفر الله ـ تعالى ـ مِمَّا يكتبه المَلَكَانِ، ويُحْصِيه الرَّقيبان من هذا/ وشَبَهِهِ، استغفارَ مَنْ يَعْلَمُ أنَّ كلامه من عمله، ولكنَّه إن لم يكن من اللَّغْو الذي لا يؤاخَذُ به المرءُ؛ فهو ـ إن شاء الله ـ من اللَّمَم المَعْفُوِّ، وإلا فليسَ من السَّيِّئاتِ والفواحش التي يُتَوَقَّعُ عليها العذابُ، وعلىٰ كلِّ حالٍ فليسَ من الكبائِر التي ورد النصُّ فيها. (١٣٦ب)

وأنا أعلم أنَّه سينكر عليَّ بعضُ المتعصِّبينَ عليَّ تأليفي لمثل هذا، ويقول: خالفَ طريقته، وتجافَىٰ عن وجهته. وما أُحِلُّ لأحدٍ أن يظنَّ بي غيرَ ما قصدته، قالَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢].

وحدَّثني أحمَدُ بن محمد بن الجسور، قال: حدّثنا ابن أبي دليم،

قال: حدّثنا ابن وضّاح، عن يحيىٰ بن [يحيى، عن] مالك بن أنس[1]، [عَنْ أبي الزِّنَاد، عن الأَعْرَج، عن أبي هريرة]، عن رسول الله ﷺ أنَّه قالَ: «**إيَّاكُمْ والظَّنَّ فإنَّه أكْذَبُ الكَذِبِ**».

وبه إلىٰ مالكٍ، عن سعيد بن أبي سعيدٍ المقبريِّ، [عن أبي شُرَيْح الكَعْبِيِّ][2]، عن رسول الله ﷺ أنَّه قالَ: «**مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمَ الآخِرِ فلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ**».

وحدَّثني صاحِبي أبو بكرٍ محمَّدُ بن إسحاق، قال: حدَّثنا عبدُالله بن يوسف الأزديُّ، قال: حدَّثنا يحيىٰ بن عائذ، قال: حدثَّنا أبو عديٍّ عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحاق بن الفرج ـ الإمام بمصر ـ، قال:/ حدَّثنا أبو عليٍّ الحسنُ بن قاسم بن دحيم المصريُّ، قال: حدَّثنا (١٣٧أ) محمد بن زكريا الغلابيُّ، قال: حدَّثنا العباس، قال: حدَّثنا أبو بكرٍ[3]،

---

(١) وقع في الأصل، وفي جميع الطَّبعات: (عن أبي الزُّبير المكِّي، عن أبي شُريح الكعبيِّ). وهذا تحريفٌ، ولعلَّ نظر النَّاسخ انتقل إلى سند الحديث التَّالي؛ إذ وقع فيه تحريفٌ أيضًا. وما أثبته بين المعقوفتين فمن: «الموطَّأ» (**١٦٨٤**)، وهكذا أخرجه من طريق مالكٍ: أحمدُ **٢/٤٦٥** (**١٠٠٠١**)، **٢/٥١٧** (**١٠٧٠١**)، والبخاريُّ في: «الصَّحيح» (**٦٠٦٦**)، وفي: «الأدب المفرد» (**١٢٨٧**)، ومسلم (**٢٥٦٣**)، وأبو داود (**٤٩١٧**)، والطحاوي في: «مُشْكل الآثار» (**٤٥٧**)، وابن حِبَّان (**٥٦٨٧**)؛ وغيرهم، وتمامه: «**وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلا تَحَسَّسُوا، وَلا تَنَافَسُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**».

(٢) وقع في الأصل، وفي جميع الطَّبعات: (عن الأعرج، عن أبي هريرة) وهذا تحريفٌ أيضًا. والتَّصويب من: «الموطَّأ» (**١٧٢٨**)، وهكذا أخرجه من طريق مالكٍ: أحمدُ **٦/٣٨٥**، والبخاريُّ في: «الصَّحيح» (**٦١٣٥**)، وفي: «الأدب المفرد» (**٧٤٣**)، وأبو داود (**٣٧٤٨**)، وابن حِبَّان (**٥٢٨٧**).

(٣) أبو بكر: هو الهُذَلِيُّ البصريُّ؛ قال ابن حزم في: «المحلَّى» (المسألة: **١٧٨٠**): ضعيف جدًا. وقال (**٢٠٢٥**): كذَّاب مشهور. وقال ابن حجر في: «التقريب»: أخباريٌّ متروكُ الحديث. وعنه: العبَّاس (وفي الأصل: أبو العباس)؛ وهو: ابن=

عن قتادةَ، عن سعيد بن المسيِّب، أنَّه قال: وَضَعَ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ للنَّاس ثمانيَ عَشْرَةَ كلمةً من الحكمة منها: ضَعْ أمرَ أَخِيكَ على أحسنه حتَّى يأتيَكَ على ما يغلبك عليه. ولا تظنَّ بكلمةٍ خَرَجَتْ مِنْ في امرئٍ مُسْلِمٍ شَرًّا وأنتَ تجد لها في الخَيْرِ مَحْمَلًا[1].

= بكَّار الضبي البصري، ذكره الذَّهبي في: «الميزان»، وقال: قال الدَّارقطنيُّ: «كذَّاب». وعنه: محمَّد بن زكريا الغلابيُّ؛ وهو: أبو جعفر البصري الأخباري، قال الدَّارقطني: «يضع الحديث». وهو من رجال: «الميزان» أيضًا. فإسناد المصنِّف ـ هذا ـ في غاية الضعف.

(١) وأخرجه ـ مطوَّلًا ـ: أبو الحسن القطَّان في: «المطوَّلات» ـ كما في: «التدوين في أخبار قزوين» ١/ ٢١٧ـ؛ من طريق: الحسن بن عرفة، عن يعقوب بن الوليد المدني عن يحيى بن سعيد الأنصاريِّ؛ به. ويعقوب قال ابن حجر في: «التَّقريب»: «كذَّبه أحمد وغيره». وابن عدي في: «الكامل في ضعفاء الرِّجال» ٤٧٩/٨ في ترجمة: يعقوب بن إسحاق الرازي، من طريقه عن يحيى بن سعيد به. وقال ابن عدي في يعقوب: روى عن يونس بن عبيد وعن غيره؛ ما لا يتابع عليه. والبيهقيُّ في: «شعب الإيمان» ٣٢٣/٦ (٨٣٤٥) من طريق: موسى بن ناصح عن إبراهيم بن أبي طَيْبَةَ عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب؛ قال: كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فذكره. وقال البيهقي: وقد روينا بعض هذه الألفاظ عن أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ. قلت: موسى بن ناصح: ذكره ابن حِبَّان في: «الثِّقات»، وروى عنه جمعٌ؛ بعضهم ثِقات. وابن أبي طَيْبَة: لعله إبراهيم بن عمرو بن أبي طيبة، ذكره ابن ماكولا في: «الإكمال» ٢٤٩/٥ ـ ٢٥٠؛ وقال: حدَّث عن هشام بن عروة وسليمان الأعمش، روى عنه ابنه محمَّد.

وأخرجه ـ مختصرًا ـ: الحسين بن إسماعيل المحاملي في: «أماليه» ٣٩٥/١ (٣٩٥) من طريق سليمان بن عبيد؛ قال: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: لا تظنن بكلمة... ذكره. وسليمان لم أعرفه.

وأخرجه ـ أيضًا ـ الخطيب البغدادي في: «المتفق والمفترق»، والزبير بن بكَّار في: «الموفقيات» ـ مطوَّلًا ـ، وأحمد في: «الزهد» ـ مختصرًا ـ كما في: «الدر المنثور» ٢٢/٧، و٥٦٦/٧، و٥٦٥/٧، ولم أقف عليه في الجزء المطبوع من كتاب الزُّهد للإمام أحمد رحمه الله. ولم أتمكَّن من مراجعة كتابَيْ الخطيب والزُّبير ـ رحمهما الله ـ، لهذا لا أستطيع الجزم في الحكم على هذا الأثر بالضّعف، والله تعالى أعلم.

فهذا ـ أعزَّك الله ـ أدبُ الله، وأدبُ رسوله ﷺ، وأدبُ أميرِ المؤمنين.

وبالجُمْلَة؛ فإنِّي لا أقولُ بالمُراءاةِ، ولا أَنْسُكُ نُسْكًا أعجميًا[1]. ومن

---

(1) هذه كلمة قديمة وردت عن السَّلف، قال الأصمعيُّ: قيل لسعيد بن المُسَيِّب: هاهنا قومٌ نسَّاك يعيبون الشِّعر؟ قال: نسكوا نسكًا أعجميًّا. ذكره الجاحظ في: «البيان والتبيين»، ورواه الدِّينوريُّ في: «المجالسة وجواهر العلم» **(٢٣١٢)** بإسنادٍ ضعيفٍ عن مسلم بن يسار؛ قال: سمعت سعيد... فذكره، وزاد: ثمَّ تحدَّث أنَّ رسول الله ﷺ؛ قال: **«شرُّ النُّسك نسك أعجميٌّ»**. قلت: هذه الزيادة باطلة، لم أجدها في شيء من كتب الحديث مع كثرة البحث والتفتيش!!

وروى الحافظ ابن عبد البَرِّ في: «التمهيد» **٢٠٩/١٤** عن الحارث بن مسكين قال: سمعت أشْهَبَ بن عبد العزيز يقول: خرجنا مرابطين إلى الإسكندرية، فمررنا بجِنان اللَّيث بن سعد، فدخلنا، فأكلنا من الثَّمر، فلمَّا أن رجعتُ دعتني نفسي إلى أن أسْتَحِلَّ من الليث، فدخلتُ إليه، فقلت: يا أبا الحارث! إنَّا خرجنا مرابطين، ومرَرْنا بجنانك، فأكلنا من الثَّمَر، وأحببنا أن تجعلنا في حِلٍّ. فقال لي الليث: يا ابن أخي لقد نسكتَ نسكًا أعجميًا، أما سمعتَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ﴾ [النور: ٦١]؛ فلا بأس أن يأكلَ الرَّجلُ من مال أخيه الشَّيء التَّافِهَ الذي يَسُرُّهُ بذلك.

وذكر أبو الوليد الباجي في: «المنتقى في شرح الموطَّأ»: أنَّ إبراهيم بن أدهم قال لرجلٍ ـ تنسَّك فلبس الصُّوف ـ: رأيته نسك نسكًا أعجميًا.

قلت: لمَّا كان العرب أهل الفطرة السليمة، والبيئة الخالية من الفلسفات، «واجتمع لهم الكمال بالقوَّة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم»؛ إذ اصطفاهم الله تعالى وفضَّل جنسهم على سائر الأجناس، وجعل رسالته الخاتمة بلسانهم؛ فهم أقدر النَّاس على فهمه والفقه فيه؛ صاروا هم القدوة في ذلك علمًا وعملًا وسلوكًا، وبالمقابل صارت الأعاجم ـ لما ورثوه من الفلسفات والأفكار، ولبعدهم عن فهم اللسان العربي على الوجه الذي يفهمه العربي بفطرته ـ؛ مظِنَّة للنَّقص والانحراف والتكلُّف. هذا هو المقصود من هذه الكلمة، وإلا فإنَّ: «الأعجمية؛ ليست مذمومة في نفسها عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ، وعند عباده المؤمنين»؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في: «اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفةَ أصحاب الجحيم»، وقد بحثَ ـ رحمه الله ـ هذه المسألة بحثًا نفيسًا يكتب بماء الذهب **(١٤٢ ـ ١٦٩**، ط: الفقي).

أدَّىٰ الفرائضَ المأمورَ بها، واجتنب المحارمَ المنهيَّ عنها، ولم ينسَ الفَضْلَ فيما بينه وبين النَّاسِ؛ فقد وَقَعَ عليه اسمُ الإِحسان، ودَعْنِي مِمَّا سوىٰ ذلكَ، وحسبي الله.

والكلامُ في مِثْلِ هذا إنَّما هو مع خَلاَءِ الذَّرْعِ، وفراغِ القَلْب. وإنَّ حِفْظَ شيءٍ، وبقاءَ رسم، وتذكُّرَ فائتٍ لِمثْلِ خاطري؛ لعَجَبٌ علىٰ ما مضىٰ ودهمني. فأنتَ تعلمُ أنَّ ذهني متقلِّب، وبالي مُهَصَّمٌ، بما نحن فيه من نُبُوِّ الدِّيار، والجلاء عن الأوطان، وتغوُّل الزَّمان، وَنَكَباتِ السُّلطان، وتغيُّر/ الإِخوان، وفسادِ الأحوال، وتبدُّلِ الأيام، وذهاب (١٣٧ب) الوَفْر، والخروج عن الطَّارف والتَّالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغُرْبة في البلاد، وذهاب المال والجاه، والفِكْرِ في صيانة الأهل والولد، واليأس عن الرُّجوع إلىٰ مَوْضع الأهل، ومُدَافعة الدَّهْر، وانتظارِ الأقدار، لا جعلنا الله من الشَّاكِينَ إلا إليه، وأعادنا إلىٰ أفضل ما عَوَّدَنا.

وإنَّ الذي أبقىٰ لأكثرُ مِمَّا أَخَذَ، والذي تَرَكَ أعظمُ مِنَ الذي تَحَيَّفَ، ومواهِبُهُ المحيطةُ بنا ونِعَمُهُ التي غَمَرَتْنا لا تُحَدُّ، ولا يُؤَدَّىٰ شكرها، والكلُّ مِنَحُهُ وعطاياه، ولا حُكْمَ لنا في أنفسنا ونحن منه، وإليه منقلبنا، وكلُّ عاريةٍ فراجعةٌ إلى مُعِيرها، وله الحَمْدُ أولًا وآخرًا، وعَوْدًا وبَدْءً. وأنا أقول: [من الوافر]

جَعَلْتُ اليأسَ لي حِصْنًا ودِرْعًا ... فلَمْ أَلْبَسْ ثِيَابَ المُسْتَضَام

وأكثرُ مِنْ جَمِيع النَّاس عِندي ... يَسِيرٌ صانَنِي دونَ الأنام

إذا ما صَحَّ لي دِيني وَعِرْضي ... فلستُ لِمَا تولَّىٰ ذا اهتمام

تولَّىٰ الأَمْسُ والغدُ لَسْتُ أدري ... أَأُدْرِكُهُ ففي ماذا اغتمامي

جعلنا الله وإيَّاك من الصَّابِرين، الشَّاكرين، الحامدين، الذَّاكرين، آمين (١٣٨أ) آمين./

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

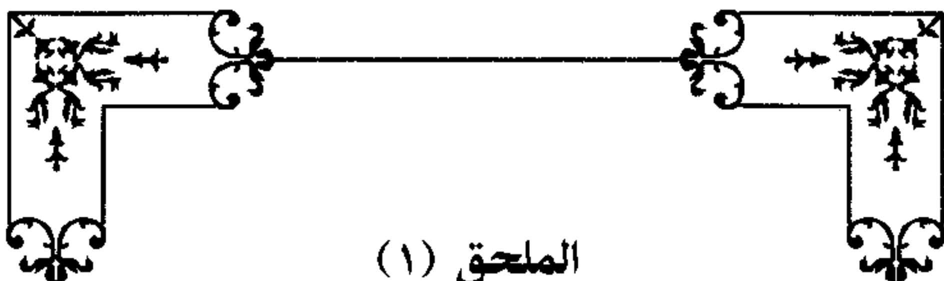


كَمُلَتْ الرِّسالة المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمَّدٍ عليٍّ بن أحمد بن سعيد بن حزم - رضي الله عنه - بعد (اختصار)[1] أكثر أشعارها، وإبقاء العيون منها؛ تحسينًا لها، وإظهارًا لمحاسنها، وتصغيرًا لحجمها، وتسهيلًا لوجدان المعاني الغريبة من لفظها، بحمد الله - تعالىٰ - وعونه وحسن توفيقه!

وفرغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة. والحمد لله رب العالمين.



(١) كلمةٌ غيرُ واضحةٍ في الأصل، ولم يتمكن بتروف من قراءتها فجعل مكانها نقطًا. وأضاف (ع) بين معقوفتين [حذف]. وترجَّح عندي كتابتها هكذا، لأنه يظهر من المخطوط أن الكلمة تبدأ بحرف الألف، وتنتهي بالألف والراء.



الملحق (١)

ابن حزم يبكي ديارهم في قرطبة[١]

وممَّن رثى قرطبة ـ أيضًا ـ، من وجُوه أهلها، وأربابِ النِّعَم المؤثَّلة بها، وأكثرَ التفجُّعَ على دياره منها، لما استولى الخرابُ عليها عند فرارِ البرَابِر عنها، الفقيهُ الأديبُ أبو محمَّد عليُّ بن أحمد بن سعيد بن حَزْم، ابنُ وزيرِ آلِ عامِرِ الأكبر. فإني وَجَدْتُ بخطِّه في خبرٍ ذَكَرَهُ؛ قال:

وقفتُ على أطلال منازلنا بحَوْمة بلاط مُغيث من الأرباض الغربيَّة، ومَنازل البرابر المُستباحة عند مُعاوَدة قرطبة. فرأيْتُها قد مَحَّتْ رُسُومُها، وطُمِسَتْ أعلامُها، وخفيَتْ معاهِدُها، وغيَّرَها البلى؛ فصارَتْ صَحَاري مُجْدِبةً بعد العِمْران، وفَيافيَ مُوحِشَةً بعد الأُنس، وآكامًا مُشَوَّهةً بعد الحُسْن، وخرائبَ مُفْزعةً بعد الأمن، ومآويَ للذِّئاب،

(١) نصُّ المرثية كما أورده أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن سعيد الغرناطيُّ (٧٧٦هـ)؛ المشهور بلسان الدِّين ابن الخطيب في كتابه: «أعمال الأعلام في مَن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام» (ص: ١٠٦ ـ ١٠٨) نشره: ليڤي بروفنسال بعنوان: «تاريخ إسبانيا الإسلامية» ط٢ /بيروت: ١٩٥٦. وقد أورد ابن حزم طرفًا من هذه المرثية في (٢٤) باب البيْن.

وملاعب للجانّ، ومغانيَ للغيلانَ، ومَكَامِنَ للوحوش، ومَخابِىء للُّصوص، بعد غُنْيَانِها برجالٍ كالسُّيوف، وفُرْسانٍ كاللُّيوث، تفيضُ لدَيهم النِّعَمُ الفاشِيَة، وتَغصُّ منهم بكثرة القَطِين الحاشِيَة، وتَكْنُسُ في مقاصيرهم ظِباء الإنس الفاتِنة، تحت زِبْرجٍ من غضارةِ الدُّنيا تُذكِر نَعِيمَ الآخرة، حَالَ الدَّهرُ عليهم بعد طُول النَّضْرة فبدَّد شَمْلَهم حتَّىٰ صاروا في البلاد أيادي سَبَا، تنطق عنهم الموعِظة، فكأنَّ تلك المحاريبَ المُنَمَّقة، والمقاصيرَ المُرَشَّفة، التي كانت في تلك الدِّيار كبروق السَّماء إشراقًا وبهجةً، يقيِّد حُسْنُها الأبصار، ويجلي مَنْظَرُها الهُموم، كأن لم تَغْنَ بالأمس، ولا حلَّتها سادةُ الإنس، قد عبث بها الخرابُ، وعمَّها الهدمُ، فأصبَحَتْ أوحَشَ من أفواهِ السِّباع فاغرةً، تُؤْذِنُ بفناءِ الدُّنيا، وتُريكَ عواقِبَ أهْلها، وتُخْبركَ عمَّا يصيرُ إليه كلُّ ما قد بقي ماثِلًا فيها، وتُزَهِّدُك فيها.

وكرَّرْتُ النَّظر، ورَدَّدْتُ البصرَ، وكِدْتُ أُستطار حزنًا عليها، وتذكَّرْتُ أَيَّام نشأَتي فيها، وصبابةَ لِداتي بها؛ مع كواعِبَ غيدٍ، إلى مِثْلِهِنَّ يَصْبُو الحَليم! ومَثَّلْتُ لنفسي انطِواءَهُنَّ بالفناء، وكَوْنَهُنَّ تحت الثرىٰ إثْرَ تقطُّع جَمْعنا بالتفرُّق والجلاءِ في الآفاق النَّائية، والنَّواحي البعيدة، وصدَّقْت نفسي عن فناء تلك القَصَبَة، وانصداع تلك البَيْضَة، بعد ما عهدتُها من حُسْنها ونضارتها وزِبْرِجها وغضارتها، ونَضَوْتُه بفراقها من الحال الحسنة، والمرتبة الرَّفيعة، التي رَفَلْتُ في حُلَلِها ناشئًا فيها، وأرْعَيْتُ سمَعي صوتَ الصَّدى والبوم زاقبًا بها، بعد حركات تلك الجماعة المنصدعة بعرصاتها، التي كان ليلها تِبْعًا لنهارها، في انتشارها بسُكَّانها، والتقاء عُمَّارها، فعاد نهارُها تِبْعًا لليلها في الهدوِّ والاستيحاش، والخُفُوتِ والإخفاش. فأبْكىٰ

ذلك عيني علىٰ جُمودها، وقرع كبدي علىٰ صلابتها، وهاج بلابلي على تكاثُرها، وحرَّكني للقَوْل على نُبُوِّ طبعي؛ فقلتُ: [من الطويل]

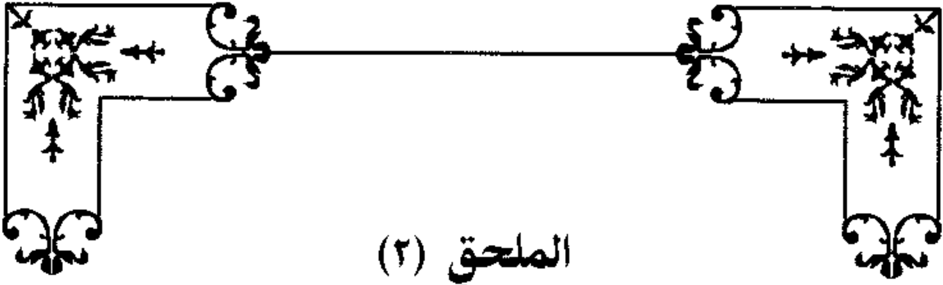
سلامٌ على دارٍ رَحَلْنا وغُودِرَت ... خلاءً من الأهلين موحشةً قَفْرا
تراها كأنْ لم تَغْنَ بالأمْس بَلْقَعًا ... ولا عُمِرَتْ من أهلها قبلنا دَهْرا
فيا دارُ لم يُقْفِرْكِ منَّا اختيارُنا ... ولو أنَّنا نستطيعُ كُنْتِ لنا قبرا
ولَكِنَّ أقدارًا من الله أُنْفِذَتْ ... تُدَمِّرُنا طَوعًا لمَا حلَّ أو قَهْرا
ويا خيرَ دارٍ قد تُركْتِ حميدةً ... سَقَتْكِ الغوادي ما أَجلَّ وما أسرى
ويا مُجْتلىٰ تلك البساتين حفَّها ... رياضُ قوارير غَدَتْ بَعْدَنا غَبْرا
ويا دهْرُ بَلِّغْ ساكِنِيها تَحِيَّتي ... ولو سكنوا المروَيْنِ أو جاوزوا النَّهرا[1]
فصبرًا لسَطْو الدَّهْر فيهم وحُكْمِهِ ... وإن كان طعْمُ الصَّبرْ مستثقلًا مُرَّا
لئن كان أظْمَانا فقدَ طالَ ما سَقَىٰ ... وإن ساءَنا فيها فقد طالَ ما سَرَّا
وأيَّتها الدارُ الحبيبةُ لا يَرُمْ ... ربوعَك جَوْنُ المزْنِ يهمي بها القَطْرا
كأنَّك لم يسكنْك غيدٌ أَوانِسٌ ... وصيدُ رجالٍ أشبهوا الأنجُمَ الزّهْرا
تفانَوْا وبادُوا واستمرَّت نواهُمُ ... لمثلهم أَسكبت مقْلَتِيَ العبرىٰ
سنصبرُ بعد اليُسرِ للعُسْر طاعةً ... لعلَّ جميلَ الصَّبر يعقبنا يُسْرا
وإنِّي ولَوْ عَادَتْ وَعُدْنا لعَهْدها ... فكَيْف بمن مِن أهلها سكن القَبرا
ويا دَهْرَنا فيها متىٰ أَنت عائدٌ ... فنحمدَ منك العودَ إنْ عُدْتَ والكَرَّا
فيا رُبَّ يوم في ذراها وليلةٍ ... وصَلْنا هناك الشمسَ باللَّهو والبدرا
فواجسْميَ المضنَىٰ وواقَلْبيَ المُغْرىٰ ... ووانَفْسِيَ الثَّكْلىٰ وواكبدي الحَرَّىٰ

(١) المروين: مثنَّىٰ مرو، وهما مدينتان بخراسان. و«النَّهر»: نهر جيحون.

ويا هَمٌّ ما أعدىٰ، ويا شَجْوُ ما أبرا | ويا وَجْدُ ما أَشجىٰ، ويا بَينُ ما أَقْرا
ويا دهرُ لا تبعُدْ، ويا عهدُ لا تحُلْ | ويا دمعُ لا تجمَدْ، ويا سقم لا تَبْرا
سأَندب ذاكَ العَهْدَ ما قامت الخَضْرا[1] | على النَّاس سقفًا واستقلَّت بنا الغَبْرا



(١) الخضراء: السَّماء.



الملحق (٢)
خَبَرُ أحمدَ بن كُلَيْبٍ النَّحْويّ[1]

أحمد بن كُليب النَّحوي، أديب شاعر مشهور الشِّعر، ولا سيما شعره في أسْلَمَ، وكان قد أفرط في حُبِّه حتى أدّاه ذلك إلى موته، وخبرَهُ في ذلك طريفٌ.

(١) مناسبة ذكر هذا الملحق قصّة ابن قزمان المتقدِّمة في: (٢٨ ـ باب الموت)، وانظر التَّعليق عليها. وما هنا منقول بِرُمَّته من: «جَذْوة المقتبس» ص: ١٣٤ ـ ١٣٧/ الترجمة: (٢٤٤)، وروى القصّة: أبو محمَّد جعفر بن أحمد السَّرّاج القارىء (٥٠٠هـ) في: «مصارع العشاق» ٢٩٧/١، وأبو الفرج عبد الرحمٰن ابن الجوزيّ (٥٩٧هـ) في: «ذمّ الهوىٰ» ٤١٩ ـ ٤٢١، وفي: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» ٧٣/٨؛ في ترجمة ابن كليب، في وَفَيات سنة: (٤٢٦هـ) بإسناده إلى الحميديّ، وذكرها: أبو جعفر أحمد بن يحيى بن عميرة الضَّبي (٥٩٩هـ) في: «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» (٤٢٦)، وياقوت الحمويُّ (٦٢٦هـ) في: «معجم الأدباء» ١٠٨/٤؛ وقال عن توريخ ابن الجوزيِّ لوفاة ابن كليب: ولا أدري من أين له هذه الوفاة؛ فإنَّ الحميديَّ ذكره في كتابه، ولم يذكر وفاته. قلت: ومع هذا فقد اعتمد المؤرِّخون توريخ ابن الجوزي؛ فمِمَّن ذكرها في وَفَيات تلك السَّنة: عزُّ الدِّين ابن الأثير (٦٣٠هـ) في: «الكامل في التَّاريخ»، وأبو الفداء صاحب حماة (٧٣٢) في: «المختصر في أخبار البشر» ـ أشارا إليها ولم يذكراها ـ، وخليل بن أيبك الصَّفديُّ (٧٦٤هـ) في: «الوافي بالوَفَيات»، والحافظ ابن كثير في: «البداية والنِّهاية» ٣٨/١٢؛ نقلًا عن ابن الجوزيِّ مع شيءٍ من الاختصار، ونقلها عن ابن الجوزي ـ أيضًا ـ أحمد بن عبد الوهاب النُّويريُّ (٧٣٣هـ) في: «نهاية الأرب في فنون الأدب».

حدَّثني أبو محمد عليُّ بن أحمد، قال: حدَّثني أبو عبد الله محمد بن الحسن المَذْحجي[1]، قال: كنتُ أختلفُ في النَّحْو إلى أبي عبد الله محمد بن خَطَّاب النَّحويِّ[2] في جماعة، وكان معنا عنده أبو الحسن أسْلَم بن أحمد بن سعيد بن قاضي الجماعة أسْلَم بن عبد العزيز[3]، صاحب المُزَني والرَّبيع[4].

قال محمَّد بن الحسن: وكان من أجمل من رأته العيون، وكان يجيء مَعَنا إلى محمد بن خطاب؛ أحمدُ بن كُلَيْب، وكان من أهل الأدب البارع، والشِّعر الرَّائق، فاشتدَّ كَلَفُه بأسْلم، وفارق صبرَه، وصرف به القول مُتَسَتِّرًا بذلك إلى أن فشت أشعارُهُ فيه وجَرَتْ على الألسنة، وتنوشدت في المحافل؛ فَلَعَهْدَي بعرسٍ في بعض الشوارع بقُرْطبة، والنَّكُوريّ الزَّامرُ قاعدٌ في وسط الحَفل، وفي رأسه قَلَنْسُوَةُ وشْي وعليه ثوب خز عُبَيْدي، وفرسُه بالحلية المحلاة يُمسكه غلامُه، وكان فيما مضى يُزَمِّرُ لعبد الرحمٰن الناصر، وهو يُزَمِّرُ في البوق بقول أحمد بن كُلَيْب في أسلم: [من المتقارب]

---

(١) هو أستاذ ابن حزم في المنطق والفلسفة، يعرف بابن الكتّاني، له مشاركةٌ قويّةٌ في علم الأدب والشِّعر، وله تقدُّم في علوم الطِّبِّ والمنطق، وكلامٍ في الحكم، ورسائل في كلِّ ذلك، وكتبٌ معروفةٌ. وعاش بعدَ الأربع مئة بمدَّةٍ «جذوة المقتبس» (**٣٥**).

(٢) أبو عبد الله الأزديُّ، كان من الأدباء المشهورين، والنُّحاة المذكورين، وكان يختلف إليه في علم العربية أولاد الأكابر، وذوي الجلالة، وله مع ذلك شعر مأثور، وكان قبل الأربع مئة. «الجذوة» (**٥٠**).

(٣) تقدّمت ترجمتها في التَّعليق علىٰ خبر ابن قزمان.

(٤) المزني؛ هو: الإمام العلامة الفقيه أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيىٰ المصريُّ (**٢٦٤** ـ)، والربيع؛ هو: الإمام المحدِّث الفقيه أبو محمد بن سليمان المراديُّ (**٢٧٠**هـ) تلميذا الإمام الشافعي ـ رحمهم الله تعالى ـ، وقد أخذ عنهما قاضي الجماعة أسلم بن عبد العزيز.

وَأَسْلَمَني في هوا ه أَسْلم هذا الرَّشا
غزالٌ له مُقلة يُصيب بها من يشا
وَشَىٰ بيننا حاسدٌ سَيُسأَلُ عمَّا وشىٰ
ولو شاء أن يرتَشي على الوصل رُوحي ارْتَشَىٰ

ومُغنٍّ محسن يسايره فيها.

قال: فلما بلغ هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالسِ الطَّلب، ولزم بيته والجلوسَ على بابه، فكان أحمد بن كُلَيْب لا شُغلَ له إلا المرور على باب دار أسلم سائرًا ومُقبلًا نهارَهُ كلَّه، فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهارًا، فإذا صلَّىٰ المغرب واختلط الظَّلام خرج مستروحًا وجلس على باب داره، فَعِيلَ صبرُ أحمد بن كُلَيْب، فتحيَّلَ في بعض اللّيالي ولبسَ جُبَّةً من جُبَّات أهل البادية، واعتمَّ بمثل عمائِمهم، وأخذ بإحدىٰ يديه دجاجًا، وبالأخرىٰ قفصًا فيه بيضٌ، وتحيَّنَ جلوس أسلم عند اختلاط الظلام علىٰ بابه، فتقدَّم إليه وقبَّل يده، وقال: يأمر مولاي بأخذ هذا. فقال له أسلم: ومَن أنت؟ فقال: صاحبك في الضَّيعة الفلانية. وقد كان تَعرَّفَ أسماءَ ضياعه وأصحابِهِ فيها، فأمر أسلمُ بأخذ ذلك منه، ثم جعل أسلمُ يسأله عن الضَّيعة، فلما جاوبه أنكر الكلام وتأمَّله فعرفه، فقال له: يا أخي! وهُنا بَلغتَ بنفسك، وإلى هاهنا تَبِعْتَني، أما كفاك انقطاعي عن مجالس الطَّلب، وعن الخروج جُملة، وعن القعود على بابي نهارًا، حتى قطعتَ عليَّ جميعَ ما لي فيه راحة، فقد صِرْتُ من سجنك[1]؟! والله

(١) هكذا وردت في: «الجذوة»، و«مصارع العشَّاق». وفي: «المنتظم» و«معجم الأدباء»: في سجنك.

لا فارقتُ بعد هذه الليلة قَعْرَ منزلي، ولا قعدتُ ليلًا ولا نهارًا على بابي. ثمَّ قام، وانصرف أحمدُ بن كُليب كئيبًا حزينًا.

قال محمد بن الحسن: واتَّصَلَ ذلك بنا، فقلنا لأحمد بن كُليْب: وخسِرْت دجاجك وبيضك؟ فقال: هات كلَّ ليلة قُبلةَ يده وأخسَر أضعاف ذلك!

قال: فلما يئس من رُؤيته البَتَّة نَهكتْه العِلَّةُ، وأضجعه المرض.

قال محمَّد بن الحسن: فأخبرني أبو عبد الله محمد بن خطَّاب شيخنا، قال: فعدتُهُ فوجدتُهُ بأسْوَأ حال، فقلت له: ولِمَ لا تتداوىٰ؟ فقال: دوائي معروف، وأمَّا الأطباء فلا حيلة لهم في البتَّة. فقلت له: وما دواؤُك؟ فقال: نظرةٌ من أسلَم، فلو سعيتَ في أن يَزُورَني لأعظمَ الله أجرك بذلك، وكان هو والله أيضًا يؤجر. قال: فرحمتُه وتقطَّعت نفسي له، ونهضتُ إلى أسلَم فاستأذنتُ عليه، فأذن لي وتلقَّاني بما يجب، فقلتُ له: لي حاجةٌ. قال: وما هي؟ قلتُ: قد علمتَ ما جَمَعك مع أحمد بن كُلَيْب من ذِمامِ الطَّلَب عندي. فقال: نعم، ولكن قد تعْلَم أنه برَّحَ بي، وشَهَرَ اسمي وآذاني. فقلت له: كلُّ ذلك يُغْتفَرُ في مثل الحال التي هو فيها، والرَّجُلُ يموتُ، فتفضَّل بعيادته. فقال: والله ما أقْدِر على ذلك، فلا تكلِّفني هذا. فقلت له: لا بدَّ، فليس عليك في ذلك شيء، وإنَّما هي عيادة مريض. قال: ولم أزَلْ به حتى أجاب، فقلت: فقم الآن! فقال لي: لستُ والله أفعل، ولكن غدًا. فقلتُ له: ولا تُخْلِفَ! قال: نعم. فانصرفتُ إلىٰ أحمد بن كُليب، وأخبرته بموعِدِه بعد تأبِّيه، فسُرَّ بذلك وارتاحتْ نفسُه. قال: فلما كان الغدُ بكَّرْتُ إلىٰ أسْلَم وقلت له: الوعدَ! قال: فوجم وقال: والله لقد تَحْمِلُني على خُطَّة صعبة عليَّ، وما أدري كيف أطيق

ذلك. قال: فقلتُ له: لا بدَّ مِنْ أن تفي بوعدك لي. قال: فأخذ رداءَه ونَهضَ معي راجِلًا. قال: فلما أتينا منزلَ أحمد بن كُليب، وكان يسكن في آخر درب طويل، وتوسط الدَّرْب، وقف واحمرَّ وخَجِلَ، وقال لي: الساعةَ والله أموت، وما أستطيع أن أنقلَ قَدَمي، ولا أن أعرِض هذا علىٰ نفسي، فقلت: لا تفعَلْ، بعدَ أن بلغتَ المنزلَ تنصرف؟ قال: لا سبيل والله إلىٰ ذلك الْبَتَّة. قال: ورجع مُسرعًا فاتّبَعْتُهُ، وأخذتُ بردائه، فتمادَى وتمزَّقَ الرِّداء، وبقيَتْ قطعةٌ منه في يدي لسُرعته وإمساكي له، ومضىٰ ولم أُدركه، فرجعتُ ودخلتُ إلىٰ أحمد بن كُليب، وقد كان غلامُهُ دخل عليه إذْ رآنا من أول الدَّرب مُبشِّرًا، فلمَّا رآني تغيَّرَ، وقال: وأين أبو الحسن؟ فأخبرته بالقِصَّة، فاستحال من وقته واخْتَلَطَ، وجعل يتكلَّم بكلامٍ لا يُعْقَل منه أكثرُ من الترجُّع، فَاستشنعْتُ الحالَ، وجعلتُ أترَجَّعُ وقمتُ، فثاب إليه ذِهنهُ؛ وقال لي: أبا عبد الله! قلتُ: نعم. قال: اسمع منِّي واحفَظ عنِّي! ثم أنشأ يقول: [مخلع البسيط]

أسلمُ يا راحةَ العليلِ رفقًا على الهائم النَّحِيلِ
وصلُك أشهىٰ إلىٰ فؤادي من رحمة الخالِق الجليلِ

قال: فقلت له: اتَّقِ الله! ما هذه العظيمة؟ فقال لي: قد كان! قال: فخرجتُ عنه، فوالله ما توسَّطْتُ الدَّرب حتىٰ سمعتُ الصُّراخ عليه، وقد فارق الدُّنيا[1].

---

(١) قالَ الإمامُ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وهذه زَلَّةٌ شنعاءُ، وعظيمةٌ صَلْعاءُ، وداهيةٌ دهياءُ، ولولا أنَّ هؤلاء الأئمةَ ذكروها ما ذكرتها، ولكنَّ فيها عبرة لأولي الألباب، وتنبيه لذوي البصائر والعقول؛ أنْ يسألوا الله رحمتَهُ وعافيتَهُ، وأنْ يستعيذوا بالله مِنَ الفتن؛ ما ظهر منها وما بطن، وأن يرزقهم حُسْنَ الخاتمة عند الممات، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

قال لنا أبو محمَّد عليُّ بن أحمد: وهذه قِصَّةٌ مشهورة عندنا، ومحمَّد بن الحسن ثقةٌ، ومحمَّد بن خطَّاب ثقة. وأسلم هذا من بيت جليل، وهو صاحب الكتاب المشهور في أغاني زِرْيابِ، وكان شاعرًا أديبًا؛ وقد رأيتُ ابنه أبا الجعد.

قال أبو محمد: لقد ذكرتُ هذه الحكاية لأبي عبد الله محمد بن سعيد الخَوْلاني الكاتب؛ فعرفها، وقال لي: لقد أخبرني الثِّقةُ أنَّه رأىٰ أسلم هذا في يوم شديد المطر، ولا يكاد أحد يمشي في طريقٍ، وهو قاعد علىٰ قبر أحمد بن كُلَيب زائرًا له، وقد تحيَّن غفلة النَّاس في مثل ذلك الوقت.

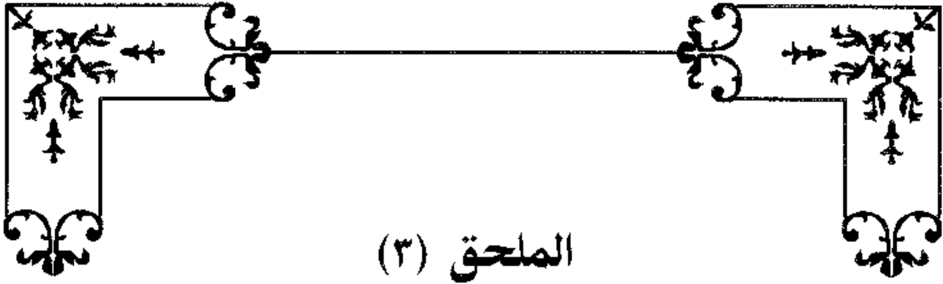
وقال لنا أبو محمد: وحدثني أبو محمَّد قاسم بن محمد القرشيُّ، قال: كتب ابن كُلَيب إلىٰ محمَّد بن خَطَّاب شعرًا يتغزَّلُ فيه بأَسْلَم، فعرضه ابنُ خطَّاب علىٰ أسلم، فقال: هذا ملحون. وكان ابن كلَيب قد أسقط التَّنْوينَ في لفظةٍ في بيتٍ من الشِّعر، قال: فكتب ابن خطَّاب بذلك إلىٰ ابن كُليب فكتب إليه ابن كليب، مسرعًا: [من السريع]

أَلحِق ليَ التَّنوينَ في مطمعٍ ... فإنَّني أُنْسِيتُ إلحاقَه
لا سيما إذ كان في وصلِ مَنْ ... كَدَّر لي في الحُبِّ أخلاقَه

وأنشدني أبو محمد عليُّ بن أحمد، قال: أنشدني محمد بن عبد الرحمٰن بن أحمد التُّجيبي، لأحمد بن كُلَيب، وقد أهدَىٰ إلىٰ أَسلم في أوائل أمره كتابَ «الفصيح» لثعلب: [من المجتث]

هذا كتابُ الفصيح ... بكُلِّ لفظٍ مَليحِ
وهبتُه لك طوعًا ... كما وهبتك روحي





الملحق (٣)
اقتباسات السرَّاج ومغلطاي

حفظَ لنا العلامةُ المحدِّث الأديب الثقة جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري، البغداديُّ المولد والوفاة (٤١٧ ـ ٥٠٠هـ) رحمه الله، في كتابه: «مصارع العشَّاق» بعضَ النصوص عن أبي محمد ابن حزم، صرَّح بروايتها عن تلميذه أبي عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي (٤٢٠ ـ ٤٨٨هـ)، وذلك بمصر ودمشق[(١)]، ممَّا يدلُّ على أنَّ السرَّاج أتَمَّ تأليفَ كتابه في الأشهر الأخيرة من عمره، لأنَّا نعلمُ أنَّ خروج الحميدي من الأندلس كان سنة (٤٤٨هـ).

وبتَتبُّع تلك النصوص لا نجدُ ذكرًا «لطوق الحمامة»، كما لا نستطيع الاستنتاج من خلالها أنه روى الكتاب عن الحميدي، فغاية ما نجده أنه روى نصوصًا من كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي عنه، عن ابن حزم، قال: حدثنا القاضي أبو محمد عبد الله بن الربيع، قال: حدثنا أبو علي

---

(١) قيَّد السراج روايته عن الحميدي بدمشق في موضعين، وبمصر في موضعين آخرين: «مصارع العشاق» ١/١٤٢، ١٧٩، ٢٩، ١٨٤، ط: دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٩هـ.

القالي[1]. وروى ١/ ٣١٢ عن الحميدي قصة أحمد بن كُليب بالسِّياق الذي ذكره الحميديُّ في «الجذوة»، وساق ١/ ٢٩ قصة فتًى من الأعراب ببادية السماوة، عن الحميديِّ، عن ابن حزم، عن أبي مروان عبدالملك بن زيادة أبي مضر السعدي الطبني، بإسناده، وذكر ١/ ١٧٩ عن الحميديِّ أبياتًا أنشدها له ابن حزم من شعر يحيى بن هذيل ـ وهو شاعر أندلسيٌّ ترجم له ابنُ الفرضي والحميديُّ ـ، وساق ١/ ١٨٥ عن الحميديِّ، عن أبي محمد اليزيديِّ ـ وهو ابن حزم ـ عن الزبيريِّ، عن ابن الأُسْكُريِّ؛ خبرَ تميم بن أبي تميم مع جارية من بغداد. وهو بطوله في «الجذوة» ترجمة: (محمد بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير الزبيري)، ورواه من طريق الحميدي: ابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» ٥٤/ ١٥٥، وعنهما يصحح ما وقع في كتاب السرَّاج من تحريف.

ونجد في موضع واحدٍ ثلاثة أبياتٍ من شعر أبي محمد؛ قال السرَّاج: أخبرني أبو عبد الله الحافظ الأندلسي بدمشق، قال: أنشدني أبو عبد الله ابن حزم لنفسه:

صِلُوا رَاحِلاً عَنكُم بتَأنِيس لَيلَةٍ ... فسوْفَ يَغِيبُ المَرْءُ عنكم لَيالِيَا
هَبوا ساعةً يسترجع الطَّرفُ ضِعفَها ... فِدًى لكُمْ نَفْسي وأهلي وَمالِيَا
وَلا تَحسَبوا عَوْنَ الزَّمانِ فإنَّه ... لَنَا وَلَكُم يُمسي ويَضْحَى مُعاديا

كذا وقع في كتاب السرَّاج، مطبعة الجوائب بالآستانة سنة (١٣٠٢هـ)، ص: ١٠٧، وعنها: طبعة دار صادر: ١/ ١٦٧، ودار الكتب

(١) «مصارع العشاق» ١/ ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٣٩.

العلمية: ١/ ١٨٢، وهو خطأ بيقينٍ، صوابه: «أبو محمد ابن حزم»، ولكتاب السرَّاج طبعة أخرى صدرتْ عن وزارة الثقافة في الأردن (٢٠٠٤م) بتحقيق الباحثة الفاضلة الدكتورة بسمة أحمد صدقي الدَّجَاني، وهي أطروحتها للدكتوراه في الأدب العربي من كلية البنات جامعة عين شمس بالقاهرة (١٩٩٩م)، فكتبتُ إليها أسألها عن ضبط هذا الموضع في عملها اعتمادًا على المخطوطات التي رجعتْ إليها في تحقيق الكتاب، فتفضلتْ بالجواب التالي ـ جزاها الله خيرًا، ونفع بها، ووفّقها للخير والصواب ـ: نعم، كما تفضلت باستنتاجك، هو أبو محمد ابن حزم في تحقيقي لمخطوطة الكتاب، وقد اعتمدتُ في ذلك على بحثي في كتب الأعلام عن شخصية قائل الأبيات كما ورد اسمه في المخطوطة: «أبو عبد الله ابن حزم» ولم أجده كما تفضلت، وقد استفدتُ من ضبط الأستاذين أحمد يوسف نجاتي وأحمد مرسي مشالي في دراستهما للجزء الأول من كتاب «مصارع العشاق» في طبعة مكتبة الأنجلو المصرية عام: (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م)؛ حيث قالا عن هذه الأبيات ما يلي: في كتاب «طوق الحمامة» للمترجم الإمام أبي محمد ابن حزم بيتان من بحر هذه الأبيات، وعلى قافيتهما، وهما:

دعوني وسبِّي للحبيب فإنَّني ... وإن كنتُ أُبدي الهجرَ لستُ معاديا

ولكنَّ سبِّي للحبيب كقولهم: ... أجادَ فلقَّاه الإله الدَّواهيا

قلتُ: هذان البيتان في (٢٧ ـ باب السلوّ)، ولا أدري إن كانت الأبيات الثلاثة مما أسقطه ناسخ مخطوطتنا من «الطوق» أم هي مما رواه الحميدي عن شيخه أبي محمد خارجه، وقد كانت له عناية بشعره، وقال في ترجمته: «وشعره كثير وقد جمعناه على حروف المعجم»، ولا أظنُّه تكلَّف حمل نسخة من «الطوق» في خروجه إلى المشرق؛ إذن لاشتهر ذلك

عنه، بل إنه أهمل ذكره في قائمة مصنفات ابن حزم، والله أعلم.

وتيسر لي ـ أخيرًا ـ الحصول على كتاب: «الفتح المبين في ذكر من استشهد من المحبين»[1] للعلامة المحدِّث أبي عبد الله علاء الدين مُغَلطاي ابن قليج التركيِّ الحنفيِّ، المصريِّ مولدًا ووفاةً (٦٨٩ ـ ٧٦٢) رحمه الله، ومن الواضح أنَّه قد وقف على كتاب ابن حزم، واستفاد منه، وصرَّح بذلك في مواضع، وهذه إشارة موجزة إلى ذلك:

نجد في مقدمة كتاب مغلطاي استفادة جليَّة من أفكار ابن حزم في مقدمته، سواء في ذكر من أحبَّ من السابقين، أو في الاعتذار بجواز الترويح عن النفوس، وفي تعريف العشق. وربَّما ضمَّن كلامه بعض عبارات ابن حزم، فنجده يقول، ص ٢٨: «وقد أجمع العلماء أن الحب ليس بمستنكر في التنزيل ولا بمحظور في الشرع». ولفظ ابن حزم: «وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة»، ويقول في موضع آخر ص٣٨: «وهو ـ حفظك الله ـ إن لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به المرءُ؛ فهو ـ إن شاء الله ـ اللَّمم المعفوُّ عنه، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب، وإني لأعلم بعض من لا يهتدي لرشده إذا وقف على تأليفي هذا ينكره، ويقول: تراه خالف طريقته وتجافى عن وجهته.. ولا أحلُّ لأحدٍ أن يظنَّ بي غير ما بيَّنته...» ثم ذكر الآية

(١) طبعة مؤسسة الانتشار العربي، بيروت: ١٩٩٧م، وهي طبعة سيئة، يكثر فيها التحريف والتصحيف، وذُكر في مقدمتها أن الكتاب ينشر لأول مرة عن مخطوطة دار الكتب بمصر. وهذا غير صحيح، فقد كان المستشرق الألماني أوتو سبيز (١٩٠١-١٩٨١م) نشر الكتاب عن نسختين خطيتين في اسطنبول، ضمن سلسلة بونر للدراسات الشرقية، رقم (١٨)، طبع في مدينة شتوتغارت الألمانية (١٩٣٦م)، في (٢٢٤) صفحة، مع مقدمة بالإنجليزية.

والآثار في النهي عن الظنِّ، والعبارات السابقة لابن حزم في خاتمة كتابه. واقتبس نصًّا طويلاً من أول (باب قبح المعصية)، وساقه بحروفه دون نسبةٍ: ٣٩ ـ ٤٠، وهو مطابق لما عندنا بحروفه، إلا أنه أسقط بعض الجمل وقدَّم وأخَّر في موضع، والرجوع إلى نسخ خطيَّة من كتابه قد يعين في ضبط بعض الألفاظ عندنا ـ أما هذه الطبعة فسيئة جدًّا، مليئة بالتصحيف والتحريف ـ؛ من ذلك قول ابن حزم: «ومحلُّ الالتقاء بهما»، وفي مخطوطة «الطوق»: «وحامل الالتقاء بهما»، وعند مغلطاي: «وحاصل الالتقاء بهما»، وبعده بأسطر: «وبالحريِّ أن تقع السلامة المضمونة»، وعند مغلطاي: «وبابتغاء أن تقع السلامة المضمونة». وفي ماهيَّة العشق ٥٥ أخذ قول ابن حزم: «ومن الدليل على هذا أيضًا أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق في الصفات الطبيعية، لا بد من هذا». ولخَّص القول في نكاح الطيف ٧٩ مستفيدًا ممَّا ذكره ابن حزم في (باب القنوع)، واستولى في باب أعراض العشق وعلاماته ٩٥ ـ ١٠٧ على (باب علامات الحب)، وضمَّنه تلخيصًا لأبواب أخرى، وساق في أثناء ذلك من أبيات ابن حزم دون نسبةٍ!

ونجده في مواضع أخرى ينسب الكلام لابن حزم، فيقول ٣٠: «وقال أبو محمد ابن حزم: وقد أحبَّ من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديِّين كثيرٌ». ويقول ٥١: «وقال أبو محمد ابن حزم: والذي أذهب إليه أنه اتصال...» واقتبس نصًّا طويلاً، أسقط جملًا منه. وفي موضع ثالث ٨٣: «وذكر الحافظ أبو محمد الأموي: أنَّ امرأةً يثق بها حدَّثته أن فتًى علقها وعلقته...» والقصة في (باب فضل التعفُّف)، وبعدها: «قال: وحدثني ثقةٌ من إخواني أنه خلا يومًا بجارية **كانت له معها مغازل في**

الصبا، ...»، والذي في مخطوطة «الطوق»: «كانت له معارك في الصبا»، وما في كتاب مغلطاي إفادة قيِّمة في تصحيح النصّ.

ثم قال مغلطاي ٨٣: «**وقال: وأعرف من خلا بجارية حسناء فعرَّضتْ له بكلامها بالتصريح دونه، فقطع مجاوبتها، واشتغل بغير ذلك، فحملها الحياء على أن لا تعاود.** وأنا أعرف شخصًا عُرض عليه هذا الفعلُ من غير ما حسناء ذات منصبٍ في خلوةٍ وهو عزب بكر، وكان له ذلك إن خلونَ به، ولا يزيده ذلك منهمنَّ إلا نفورًا، ولله الحمد الذي جعل في هذه الأعصار مَن يرغبُ في الجنَّة، ويخاف من النار، راغبًا بالدخول في قوله ﷺ: «**ورجل دعته امرأة ذات حسن ومال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين**»، والذي لو كان في هجنه وأنه محال على هذا الإنسان هذا الامتحان، لحارت طباعه، وزال امتناعه، ولكن الله بفضله عصمه بانقطاع تلك الأسباب، وغلَّق تلك الأبواب كلها، ومن ذا الذي تصفو سجاياه كلها...»؛ كذا ورد النصُّ في المطبوع، وفيه خلل ظاهر.

قلتُ: الخبرُ الأول ليس في نسختنا المختصرة من «الطوق»، وأما قوله: وأنا أعرف شخصًا... إلخ؛ فمن كلام مغلطاي، وقد أعاد صياغة كلام ابن حزم معارضًا له.

وروى مغلطاي قصَّةَ ابن كليب، بإسناده من طريق السرَّاج، عن الحميدي، بتمامها، وعلَّق عليها بقوله ١١٦: «وذكر أبو محمَّد في كتاب «الطوق» شيئًا يخالف ما أسلفناه عنه، فالله أعلم بالصواب في الخبر، والقلب إلى صحة الأول أميلُ، لأن فيه زيادةً من ثقة، والزيادة من الثقة مقبولة، ويجمع بينهما: أنَّ وضع كتاب «الطوق» كان أولاً، ثم رواه بعد اطلاعه على زيادةٍ لم يُثبتها فيه».

ونقل عن ابن حزم قصة أخ لعبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون الفقيه، وهي في (باب الموت). ونقل عنه بتصرفٍ مُخلٍّ ٢٧٠ وصفه لجمال أبي عامر، وحرص الناس على النظر إليه، وموت جوارٍ من محبَّته... وهو من (باب الهجر). ونقل من (باب الموت) فقال ٢٧٣ ـ ٢٧٤: «قال ابن حزم ـ علي بن أحمد ـ: لم أزل أسمع عن ملوك **الزاب** البرابر: أن رجلاً أندلسيًّا باع جارية،.. إلخ». زاد فيه: «الزاب»، وفي بقية سياقه اختلاف يسير.

وقال مغلطاي ٣٤٣: «قال ابن حزم: وأما خبر صاحبنا أبي عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسن **السعدي، من بني سعد بن زيد مناة بن تميم،** المعروف بابن الطبني،..» وساق كلام ابن حزم، وعنده: «ورواية ودراية، وطلبًا ونجبًا، وحفظًا للقرآن... وشاعرًا مفلقًا، وحسن الخطّ جدًّا،..»، واختصر النصّ: «..، وكنتُ أنا وهو متقاربين في السنِّ، ثم تغربتُ عنه، وبلغني وفاته، وأنَّ مصعب بن عبد الله الأزدي، المعروف بابن الفرضي؛ سأله عن سبب علَّته، وهو قد نحل ولم يبق منه إلا الجلد والعظم، فقال لي: أخبرك: كنت على باب داري بقديد ابن الشمَّاس... إلخ»، كذا وقع عنده: «بقديد» وهو موافق لمخطوطة الطوق، وعنده: «تتسارب إلى القصر»، و: «ممن لم يكن له زلَّة قطُّ»، و: «ولا قارف منكرًا»، ووقف مغلطاي في نقله عند قول ابن حزم: «وما كان في طبقتنا مثله»، ثم أورد أبيات ابن حزم في رثائه، وهي عندنا ثلاثة أبيات، أولها:

لئن سترتكَ بطونُ اللُّحودِ ... فوَجْدي بعدكَ لا يستترْ

وحفظ لنا مغلطاي بيتًا رابعًا:

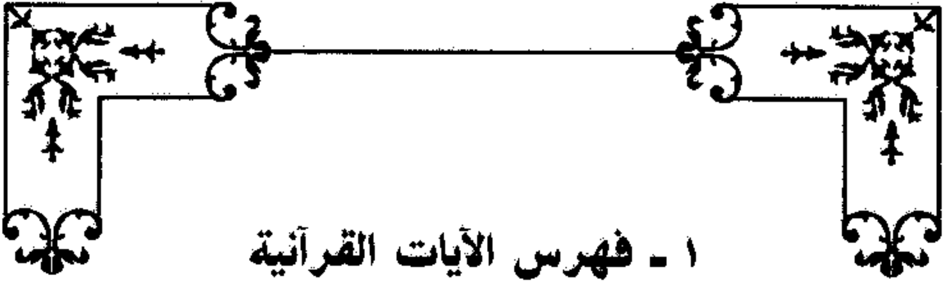
لقد رُزِئتْ منك مجدًا تميم وبدرًا تمامًا تميمُ بنُ مُرْ

قلتُ: «تميم بن مُرٍّ» هو: تميم بن مرِّ بن أُدِّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار بن معدِّ بن عدنان. وإلى تميم هذا ينتهي نسبُ صاحب ابن حزم المذكور، فهو من ذرية: نمرة بن مُرَّة بن حِمَّان بن عبد العزَّى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن مرٍّ. قال ابن حزم عن نمرة بن مرة: وهو كان بيت بني تميم في القديم، ومنهم: بنو الحسين الطُّبْنِيُّون الذين بقرطبة. «جمهرة أنساب العرب» ٢٠٧، ٢٢٠. والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.



فهارس الكتاب:



١ ـ فهرس الآيات القرآنية

السورة والآية	الصفحة



٢ - فهرس الأحاديث والآثار

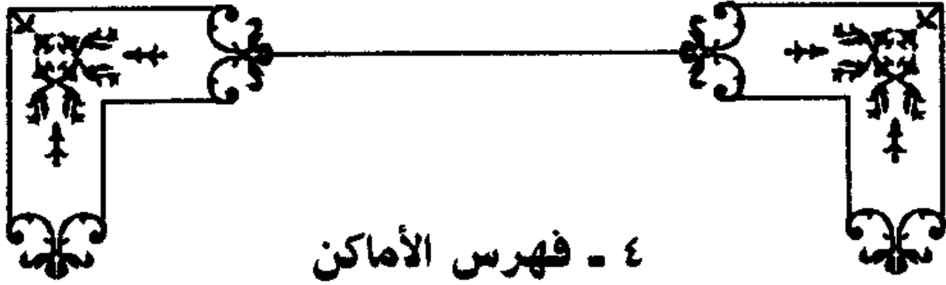
الحديث أو الأثر	الصفحة

٣ ـ فهرس الأعلام والقبائل والجماعات

(١) هذا هو الصّواب في نسبة: (الهَمْدَاني) بالدال، وليس: (الهَمَذَاني). وعلى الصواب ورد في نسختنا المخطوطة في جميع المواضع، وفي «سير أعلام النُّبلاء» ١٧/ (٢٠٣)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٤٢/الترجمة: ١٤)، وغيرهما من مصادر ترجمته.

(١) كان من أصدقاء ابن حزم، ولا يُعرف نسبه على وجه التأكيد.

(١) توفي سنة (٣٦٧هـ)، ترجمته في «الجذوة» (٨٩٦)، و«تاريخ الإسلام» (الطبقة: ٣٧/ ص: ٣٨٧ ـ ٣٨٨).



٤ ـ فهرس الأماكن

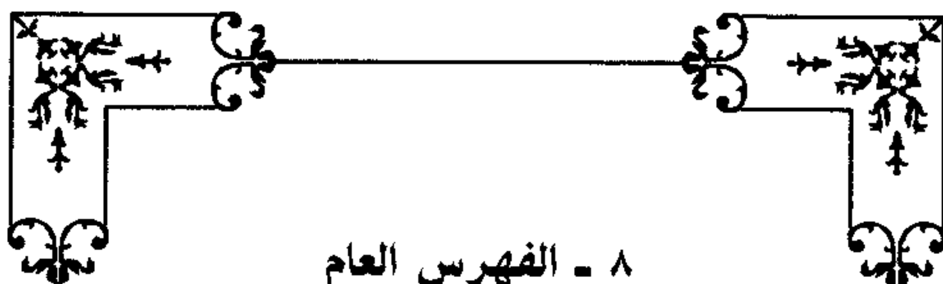
٥ ـ فهرس أشعار ابن حزم

٦ - فهرس أشعار غير ابن حزم

٧ - فهرس الأخبار والحكايات

الخبر/ الحكاية	الصفحة





٨ ـ الفهرس العام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



صدر ضمن سلسلة تراث ابن حزم:

التقريب لحدِّ المنطق والمدخل إليه
بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية

حجَّة الوداع

الدرة فيما يجب اعتقاده

الأصول والفروع